محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

(٢)

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٢ هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

www.abulhasanalinadwi.org

محاضرات إسلامية

في الفكر والدّعوة

لسماحة العلاّمة الشّيخ أبي الحسن علي الحسني النّدوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السّيّد عبدُ الماجد الغوري

الجزءُ الثاني

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

www.abulhasanalinadwi.org

إلـى مـمثلّـي الـبلاد الإسـلامـيـة

أعدَّ العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي هذه المحاضرة للمؤتمر الثقافي الآسيوي الذي عقد في دهلي في أبريل ١٩٤٧م ، واشترك فيه ممثلو: مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وإيران ، وتركيا ، وأندونسيا من الأقطار الإسلامية ، وألقاها في مناسباتٍ أخرى أيضاً.

www.abulhasanalinadwi.org

عرجت على المؤتمر الثقافي العام ، الذي قد اشترك فيه ممثلو البلاد ، وبعثات الأمم ، ووفود النوادي ، فرأيت معرضاً للجنسيات ، والوطنيات ، والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامةً بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم في الشارة واللباس ، بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التي كانت ولا تزال شامةً بين الأمم.

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرناً سائراً سيره الطبيعي ، لا ينكر من أمره شيء ، فكانت القرى والمدن عامرةً بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش في ازدهار وانتشار. كانت الزراعة ، وكانت التجارة ، وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكّة الفرح في شغلٍ ونشاطٍ كانت القوافل التجارية غاديةً رائحةً بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونةً بالمتاجر والبضائع ، وكان الصنّاعون مكبّين على أعمالهم ، وكانت الحكومات ، والإمارات ، والدول غنيةً بأموالها ، ورجالها ، لكلِّ وظيفةٍ رجلٌ كفؤ ، بل رجالٌ أكفاء ، وكان على وجه الأرض كلُّ نوعٍ من البشر ، وكلُّ لونٍ من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى في الحياة الإنسانية المادية عوزٌ ، أو فراغ ، ولم تكن في المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشحٌ جديد ، وكانت كأس الحياة مترعةً ، لا تطلب المزيد.

في هذه الحال ظهرت أمّةٌ في جزيرة العرب ووجد نوعٌ جديدٌ من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة وهي تتساءل: أيُّ داعٍ إلى ظهور أمّةٍ جديدةٍ والأمم على وجه الأرض كثيرةٌ منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ؟ وما مهمتها في العالم؟

وكأنّي بها تقول: إذا كانت هذه الأمة إنّما بعثت للزراعة وعمارة الأرض؛ فقد كان في فلاحي الطائف ، وأكاري مدينة يثرب ، وزرّاع وادي الفرات والنيل ، وربوع الكنج وجمنا ، غِنى عن أمةٍ زراعيةٍ جديدة ، فقد

www.abulhasanalinadwi.org

أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنةً تدرُّ لبناً وعسلاً ، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا في العراق ، وفي مصر والهند ، وهي بلادٌ مخصبةٌ زراعيةٌ؟ ولماذا كان مبعثهم في وادٍ غير ذي زرع؟

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت للتجارة ، فقد كان في يهود يثرب ، وفي أنباط الشام ، وفي أقباط مصر ، وتجار السند كفايةٌ ، فقد أحكموا فنَّ التجارة ، وانتشروا في العالم ، وإذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقّاً ، فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقربٍ من أسواق التجارة الكبرى.

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان في قيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرف ـ وإنهم لكثير ـ غنىً وكفاية!

وإذا كانت هذه الأمة إنَّما بعثت لتنضمَّ إلى الحكومات الرومية والإيرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنىً وكفايةٌ في الإدارة ، وإنهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ، ويدفعونهم بالرَّاح.

وإذا كانت هذه الأمة بعثت لعيشٍ هنيءٍ ، ومطعمٍ شهيٍّ ، ومشربٍ مريءٍ ، وملبسٍ وضيءٍ ، ومسكن بهيٍّ ، لا لشيءٍ آخر ، وإنما مناها وهمُّها أن تلقى لبوساً ومطعماً ، لم تكن بدعاً من الأمم ، وكانت منافسةً لنا في ميدان الحياة ، فحقَّ لنا أن نقاتلها ، ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمةً جديدة؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما تحاول ملكاً ، أو تريد أن تؤسس دولةً ، فيجب أن تصرِّح بذلك ، وتتَّخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين.

وإنَّ الطريق إلى كلٍّ ذلك ـ من زراعةٍ ، وتجارةٍ ، وصناعةٍ ، ووظيفةٍ ، وحياة بذخٍ وترفٍ ، وملكٍ وشرفٍ ـ غير الطريق التي سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفَّهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وأخلاقنا ، وأعمالنا ، ودعت إلى دينٍ جديدٍ ، وسارت في سبيل ذلك في شوكٍ وقتاد ، وجاهدت في غير جهاد.

لقد كان الطريق إلى الرفاهية ، أو الحكومة مسلوكةً معبّدةً ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق؟ وما الذي عدل بها عن جادة الحياة ، وهي معلومةٌ واضحة؟!

هذا ما أظنه تناجى به ضمير الإنسان العاقل في فجر الإسلام ، ولا ألومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فإنَّ هذا السؤال طبعي ، ينبغي أن يهجس في قلب الإنسان ، وينطق به اللسان ، عند كلِّ ناشئة ، فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمّةٍ بأسرها؟

ما هو الجواب؟ إذا كان الجواب في الإثبات ، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيءٍ مما ذكرناه ، ولم تكن لهذه الأمة مهمةٌ جديدةٌ في العالم ، ورسالةٌ خاصّةٌ إلى الأمم ، كانت هذه الأمة حقّاً من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم.

ولكن الله لم يبعثها لهذا ، أو لذاك ، والأمّة والأشخاص لا يبعثون لشيءٍ من هذا ، وإنما هي من طبائع البشر ، لا تحتاج إلى نبوّة نبيٍّ ، ولا بعثة أمّة ، وجهادٍ طويلٍ ، وزلزالٍ عالميٍّ لم يسبق في التاريخ ، زلزالٌ في المعتقد والأخلاق ، والميول ، والنزعات ، وفي نظام الفكر ومنهاج الحياة.

لقد كان مبعثها لغرضٍ سامٍ جداً ، لمهمةٍ غريبةٍ طال عهد الإنسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فنبه على أن هذه الأمة ليست نبتةً نبتت في الأرض كأشجارٍ بريّةٍ ، أو حشائش شيطانيةٍ ، بل هي أمة أخرجت ، ولأمر ما أخرجت! وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل إنها أخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمّة في التاريخ ، فما من أمّة إلا وهي وليد أغراضها ، ورهين بطنها وشهواتها ، تعيش لأجلها ،

www.abulhasanalinadwi.org

وتموت في سبيلها. أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتجاهد في سبيل الله.

ظهرت نواة هذه الأمة في مكّة ـ قلب جزيرة العرب ـ فقام العقلاء من قريش ـ وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد ـ ونثروا كنانة فكرهم، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها، وألفوها، ووزنوها في ميزان الإنسانية الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح، فوجدوهم خفاف الوزن، طائشي الكفّة، وذهبوا إلى إمام الدعوة الإسلامية، وأول المسلمين في العالم ـ ﷺ ـ فقال قائلهم:

«إنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلّك تقبل منها بعضها».

فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: «يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنَّما تريد شرفاً، سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت إنما تريد ملكاً ملّكناك علينا»[(١)].

سمع رسول الله ﷺ كلَّ ذلك في هدوءٍ وتأنٍّ، ثم رفضه في غير شكٍّ وتأخير، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول ﷺ فحسب، بل كان على هذه الأمة التي يمثلها، ويقودها. ولم يكن رفض رسول الله ﷺ لما عرضت قريش، رفضاً عن نفسه الكريمة فقط، بل كان رفضاً عن أمته إلى آخر الأبد.

اقتنعت قريش بهذه المحاورة، ويئست من مساومة هذه الأمة، ولم تعد تعرض على رسول الله ﷺ مباشرةً وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل، وقطعت منها أملها.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان بعد ذلك صراعٌ مستمرٌ ، ونزاعٌ طويلٌ ، ولم يكن نزاعاً في أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعاً بين الإسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزعاً بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التي لا تعرف قيداً ، أو لا تخشى معاداً ولا حساباً.

وكان من نتيجة ذلك معركة بدرٍ الحاسمة ، وقد قاد النبيُّ ﷺ إلى ساحة القتال جيشاً لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبيُّ ﷺ يعلم يقيناً أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومةٌ واضحةٌ ، نتيجة كلٍّ قليل ضعيف أمام قويٍّ كثير العدد.

فزع الرسول إلى الله تعالى في إنابة نبيٍّ ، وإلحاح عبدٍ ، ودعاء مضطرٍ ، وشفع لهذه العصابة في كلماتٍ صريحةٍ ، واضحةٍ ، نيرةٍ ، خالدة ، هي خير تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له.

لم يقل رسول الله ﷺ : لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسةً للعدو؛ أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطّل شغلٌ من أشغال الحياة ، أو وقفت إدارة الحكومات. لم يقل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك ، لأنَّ شيئاً منها لم يتوقف على المسلمين ، ولم يقم بهم ، بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال في غنىً عنهم ، ولكن الرسول ﷺ ذكر شيئاً بعث المسلمون لأجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد».

أجاب الله دعاء الرسول ﷺ ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوِّهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم؛ انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ، ولم يبق على الله لهم حقٌّ وذمّةٌ ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة ، وسنن الكون ، بل كانوا أشدَّ جريمةً ، وأقلَّ قيمةً من الأمم الأخرى؛ إذ لم يشترط لبقائها

www.abulhasanalinadwi.org

وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبرُّوا بهذا العهد ، وتذكَّروا أنَّهم إنما نُصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ وتركوا على ظهر الأرض ؛ لأن عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثُّوا في العالم ، وحملوها إلى الملوك ، والسوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا ، وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله إلى الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ـ فدخل عليه وقد زيفوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابيِّ ، وأظهروا اليواقيت واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي بثيابٍ صفيقةٍ ، وسيفٍ وترسٍ ، وفرسٍ قصيرةٍ ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له :

«ضع سلاحك» فقال : «إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت» ، فقال رستم : «ائذنوا له» فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرَّق عامتها ، فقالوا له : «ما جاء بكم؟» فقال : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضي إلى موعود الله» قالوا : «وما موعد الله»؟ قال : «الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي»[١] .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير .

www.abulhasanalinadwi.org

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم في طرق الكسب ، ووجوه المعاش ، ولم يضيّق عليهم في ذلك ، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمّةً ، ولم يرضه لهم غايةً ومهمّةً ، بل خلقهم للسعي للآخرة ، وخلق أسبابها الحياة لهم ، «إن الدنيا خلقت لكم ، وإنكم خلقتم للآخرة» وجعل الحياة وأسبابها خاضعةً لمهمتهم التي بعثوا لأجلها ، فإذا زاحمتهم في سبيل مهمتهم ، أو غلبتهم عليها ، رفضوها ، وإذا تلكأ المسلمون في ذلك عاتبهم الله عتاباً شديداً ، وقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

أراد الأنصار رضي الله عنهم أن يتفرغوا لإصلاح أموالهم لأيام اكتفاءً بأنصار الإسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: «إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعزَّ الله دينه ، وكثر ناصروه؛ قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل هذه الآية»[(١)].

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية ، وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فإذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقبٍ عالٍ لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمةٍ جاهلية ، سعيٌ وراء

(١) رواه أبو داود في سننه.

www.abulhasanalinadwi.org

المادة في غير اقتصادٍ ، واكتسابٌ من غير احتسابٍ ، سهرٌ في غير طاعةٍ ، وعملٌ في غير نيةٍ ، وتجارةٌ في لهوٍ عن ذكر الله ، وحرفةٌ في جهلٍ عن دين الله ، ووظيفةٌ في الإخلاص لغير الله ، وحكومةٌ في مشاقة الله ، شغلٌ في ضلالةٍ وقعودٌ في بطالةٍ ، وحياةٌ في غفلةٍ وجهالةٍ.

هل إذا اطلعتم ـ يا سادتي ـ على بلادٍ إسلاميةٍ ، ورأيتم هذه الأمة في غدواتها وروحاتها إلى الأسواق والإدارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خُلقت لشيءٍ آخر ، وبُعثت لغرضٍ آخر أسمى من هذه الأغراض التي يسعى لها الكافر والمؤمن.

إنَّ هـذا الأسلـوب مـن الحيـاة لحجـةٌ ظـاهـرةٌ لأهـل الجـاهليـة علـى المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا: «ما ذنبنا ، أيها المسلمون! إذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كلَّ ذلك؟! ألا نراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبيكم بالأمس ، كأنما خلقتم لأجله؟ فأي الفريقين أشدُّ ذنباً ، أمن عرض على محمد ﷺ المال والسيادة والملك ، تفادياً من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفراش على النور؟

وإذا كنتم اليوم لا يهمُّكم إلا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكمٌ على قطعةٍ أرض ، فلماذا تظاهرتم بالأمس بالدين ، وأقمتم الدنيا ، وأقعدتموها لأجله ، وكدَّرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا في غنىً عن هذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وأيئمت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان!.

أعيدوا إلينا إذاً الدماء التي أريقت في ساحة بدر ، وأُحد ، وخيبر ، وحنين ، واليرموك ، والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدين ، وأعيدوا إلينا تلك الأيام التي كنا نعيش فيها في وئام وهدوء ، لا نعرف فيها إلا الأكل ، والشرب ، وقضاء مآرب النفس!

وماذا يكون جوابنا لو تعرَّض أحدٌ من أخلافهم الأحياء وقال: «ما غَناؤكم أيها المسلمون؟! لقد ساهمتمونا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا

www.abulhasanalinadwi.org

فوق ذلك مشكلات كثيرة في الحياة السياسية والاجتماعية ، ولا نراكم تسدُّون عوزاً ، أو تصلحون خللاً ، وتلمون شعثاً ، أو تقيمون زيفاً في الحياة» .

عفواً أيها القراء ، وسماحاً أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديماً قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

من المعلوم أنَّ حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وأن الأمَّة التي لا تحمل رسالةً ، ولا تستصحب دعوةً حياتها مصطنعةٌ غير طبعية ، وأنَّها كورقةٍ انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقي أو ريٍّ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ [الرعد : ١٧] .

إننا ـ أيها القراء ـ أمَّة الحاضر ، وأمَّة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا أصحاب دعوةٍ ورسالةٍ نبوية ، وهي الرسالة الأبدية التي قضى الله بخلودها وظهورها . فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ، ونعود أمة دعوةٍ نبويَّةٍ كما بدأنا ، دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ، ودعوة في غيرنا من الأجانب في الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربية ، وفي الأخذ بأسباب الرقيِّ الماديِّ بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، إلا أن الأرنب كان ساهراً مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمةٌ رغم بطئها وثقلها ، فلو حاربنا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قروناً ، ثم كانت المقارنة بحسابٍ دقيق فإذا أفاق العدو وسبقنا بشعرةٍ في القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته؛ لأنَّ المادَّة عمياء ، وهي من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحقِّ ، والمبطل ، والشريف ، والوضيع .

ولكنَّ الدعوة والرسالة ـ وهي الروح التي تقهر المادة وتسخِّر الأسباب ، وتستنزل النصر ـ تأتي بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر ، وفتحت

www.abulhasanalinadwi.org

الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدَّعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوحٍ في التاريخ :

مرةً: لما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلاد الرومية والفارسية في ثيابٍ صفيقةٍ مرقعةٍ ، وفي نعالٍ وضيعةٍ مخصوفةٍ ، يحملون سيوفاً بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيلٍ قصيرةٍ ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التي كانت كدمى كسيت حللاً فاخرة ، وأعواداً أسندت إلى الجدار ، لحرمانها من رسالةٍ ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار في الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرةً ثانية: لما قهر التتر ـ ذلك الجراد المنتشر ـ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف في وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة: «إذا قيل لك إن التتر انهزموا ، فلا تصدق» هنالك فعلت الدعوة الإسلامية فعلها ، ونفذت فيهم . فإذا القاهر يصبح مقهوراً ، وإذا الفاتح مفتوحٌ لدين المفتوحين ، وإذا التتر يتلفظون بكلمة الإسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ويصبحون أمَّةً إسلامية .

وإنَّ الرسالة الإسلامية لتأتي بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعاً ـ لا كرهاً ـ بسلطانها الروحي ، ونفوذها العجيب .

إنَّ آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» وخلَّصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح ، والصليب ، والأحبار ، والرهبان ، والملوك ، وخلَّصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة

www.abulhasanalinadwi.org

الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها إلى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة ، والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة ، والإيثار ، والزهد ، ونعيم الروح ، وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، إلى عدل الإسلام».

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الإسلامي! وهذه الإنسانية البائسة تستصرخكم ، وتستغيثكم على أعدائها. وليس العالم اليوم بأقلَّ ظمأ ، وأقلَّ فاقةً إلى الدعوة الإسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وإنَّه لا يختلف عمَّا كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غنيٌّ اليوم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالأعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات. فهو في ذلك لا يقبل علاوةً ، ولا يسمح بزيادةٍ ، فإذا لم يكن المسلمون إلا أمة من الأمم ليست لهم دعوةٌ إلى الله ، ولا رسالةٌ للإنسانية المحتضرة ، ولم يكن لهم همٌّ إلا أنفسهم ، وبطونهم؛ لم يكن هنالك ما يبرر وجودهم في هذا العصر ، فإنما نُصِروا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة إليها.

والدعوة إلى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغةً في خارطة العالم ، لا تشغلها أمةٌ ، ولا دعوةٌ ، فإذا عمرها المسلمون؛ أحسنوا إلى الإنسانية وإلى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدِّن الذي قد كاد يهوي في الهاوية.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

بين العالم وجزيرة العرب

خلال زيارة العلامة الندوي للسعودية عام ١٩٥١م طلبت منه الحكومة السعودية أن يبدأ سلسلة من الأحاديث في إذاعتها.

فألقى الأحاديث بعد رؤيةٍ وتفكيرٍ بعنوان «بين العالم وجزيرة العرب» الّذي كان يتوقّع أنه سوف يُبدي فيه آراءه وانطباعاته بأسلوبٍ مناسب، ويعبِّر عن قلبه وضميره على لسان العالم، ثم يرد عليه بلسان جزيرة العرب، فكان عنوان حديثه الأول «من العالم إلى جزيرة العرب» الّذي يفتح فيه العالم الإنساني - بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة الّتي قدمتها إليه جزيرة العرب عن طريق سيِّدنا محمد ﷺ، والّتي أعادت الحياة من جديد - صفحات الشكوى ويعرض جروح قلبه وفزع نفسه على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية - التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمس الإسلام الساطعة - عن قيادته وإمامته؟ وخاطبها في صراحةٍ ووضاحة: إننا لسنا في حاجة إلى زيتك الّذي تسير به العجلات، والماكينات، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنُّور الّذي اختصّك الله به، وتستضيء به العقول والقلوب، ثم ردَّ على العالم من جزيرة العرب، ردّاً فيه اعتراف بالقصور واعتذارٌ ومواعيد.

قوبلت هذه الأحاديث بالاستحسان والقبول، واستُمع إليها في رغبةٍ وشوق، وشاع ذكرها بين الشباب والأدباء في ميادينهم وساحاتهم وذهابهم ورواحهم، وزادت شهرته بعد إلقاء هذه الأحاديث في الأوساط العلمية والأدبية في الحجاز، وقامت بينه وبين الأدباء وأهل القلم من الشباب روابط وصلات دينية، وأدبية.

www.abulhasanalinadwi.org

فرصةٌ سعيدةٌ يا جزيرة العرب! لي معك اليوم حديثٌ خطيرٌ قد خبأته لك من زمان، وصرفتني عنه خطوبٌ ونوائب شغلت خاطري؛ إلا أن هذا الحديث قد ملك اليوم قلبي، وثقل على نفسي، فلم أر اليوم بداً من أن أفضي به إليك؛ وأتنفس مما أجده من الضيق والألم.

زهَّدني في هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة، وتنزلك عن القيادة التي تبوأتها زمناً غير يسير، وما كنت أراه من رغبتك في العزلة عن العالم، وما يقع فيه من حوادث، وما يتجدَّد فيه من شؤون، وكرهت أن أزعجك، وأقلق بالك، وقلت: لقد رقدت الجزيرة بعد سهرٍ طويلٍ سهرته في مصلحتي، واستراحت بعد عناءٍ كبير تحملته في سبيلي، فلا ينبغي لي أن أوقظها، وأقضَّ مضجعها، ولكن الخطب كان أجلَّ من ذلك، وأعظم، ولم أر مفزعاً بعد الله إلا إليك، وقلت: لقد وجدت في هذه الجزيرة غوثاً ونجدةً قبل ثلاثة عشر قرناً، وقد أحيط بي يومئذٍ، فعسى أن أجد فيها فرجاً وروحاً مرةً ثانيةً.

أراكِ أيتها الجزيرة العزيزة! تنظرين إلى نفسي نظرة الحياء، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء، تنظرين إلى تقدمي في الصناعة والاختراع، وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء، وتسخير الطاقة الذرية في الزمن الأخير، وتقولين في شيءٍ من الخجل والاعتراف، وفي شيءٍ من الجراءة والشجاعة: لقد تقدَّم العالم بعدما خرج من حضانتي تقدماً مطرداً، وقطع أشواطاً بعيدةً في العلم والمدنية، وهوِّني عليك أيتها الجزيرة! فإنَّ هذا الإنسان الطائر في الهواء، العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلاً صغيراً في أخلاقه وفي شعوره الاجتماعي، وفي عناده، وقصور نظره، وأثرته، وإيثاره الصور والأشكال على الحقائق والمعاني، وافتتانه بالمهازل والملاهي، فلو علمت أيتها الجزيرة ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب! وعلمت أنَّ الإنسانية لا تزال حيث خلفتها، وأن الإنسان وإن أصبح يطير في

www.abulhasanalinadwi.org

الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسَّمك ، فإنَّه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان.

أراكِ أيتها الجزيرة! تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدي العامرة وإلى مكتباتي الزاخرة ، ومطابعي المتدفقة ، وحركة التأليف والنشر القوية ، وإلى هذا الأدب الخصيب الذي يطبع كل يوم بشيءٍ جديدٍ ، ولكن لا تعجلي ، إنَّ روح هذه الحركة التجارةُ والاستغلال ، وإنَّ كثيراً من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم ، ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وتروِّج بضاعة الخلاعة والاستهتار ، ولا تستغربي إذا حدثتك أنَّ كبار المثقفين والأدباء عندي لا يفضُّلون في الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف عن الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل في الجفاء ، والجهل والأمية.

أراكِ أيتها الجزيرة! تصغين إلى الكلمات الرنَّانة التي تلوكها ألسنة السياسيين ، وترددها أقلام الصحفيين ، كالعدالة الاجتماعية ، والمساواة ، والحرية ، والجمهورية ، كأنَّك تسمعين كلماتٍ لها معنىً وتطبيقٌ في الحياة كما حدَّثتِ العالم من قبل بكلمات صادقةٍ يوم كان اللفظ دليلاً على معنى ، ويوم كان الإنسان يرى نفسه مأخوذاً بقوله. . . هيهات! لقد تقدَّم الزمان وأصبح كثيرٌ من الكلمات لا يقصد بها معنىً ، ولا تراد بها حقيقةٌ ، فرحم الله من اعتمد على الكلمات! ورحم الله من صدق أهلها فيما يقولون!

أراكِ أيتها الجزيرة! تنظرين إليَّ فتغبطينني على ما تعتقدين عندي من صفاءٍ ، وسرورٍ ، وراحةٍ ، ونعيمٍ ، وهدوءٍ ، وسلام. لقد استسمنت يا هذه ذا ورم ، أنا جسم قد علتني أورامٌ غير طبيعية ، فظنَّني الجاهل صحيحاً سليماً مع أنِّي مريضٌ دنفٌ ، أشكو في كلِّ عضو من أعضائي أوجاعاً وأوصاباً ، أشكو في قلبي وجعاً ، وفي رأسي صداعاً ، وفي عيني رمداً ، وفي دمي نزفاً ، وفي نفسي اختلالاً ، تارةً أصاب بطوىً وجوعٍ تكاد تزهق له نفسي ، وأخرى ببطنةٍ وتخمةٍ تكاد تقضي عليَّ ، وتقتلني ، وقد اجتمع

www.abulhasanalinadwi.org

حولي متطببون ومشعوذون يعالجونني بالأمراض ، ويداوون الدّاء بالدّاء ، وبعملياتٍ جراحيةٍ خرقاء ، لقد قتلوني قتلهم الله! عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة ، وسوء التصرف في المال بتحريم الملك الشخصي ، واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب ، واحتكار الأفراد باحتكار الشركات والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة ، والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء ، لقد داووا جوراً بجورٍ ، وظلماً بظلمٍ ، وإسرافاً بإسرافٍ ، وجهلاً بجهلٍ ، وعلّةً بعلّةٍ ، فزادوني مرضاً على مرض وضعفاً على ضعفٍ.

إليك جئت أيتها الجزيرة العربية بما معي من أدواء وأوجاع! وقد فضحت أمامك نفسي ، وكشفت سرِّي ، فهل تغيثينني ، وتسعفينني ، كما أغثتني بالأمس ، وأنقذتني من الموت الأحمر؟ فلست اليوم بأقلَّ حاجةً إلى إسعافك ، وإنجادك من يوم بعث رسولك وأشرق عليَّ نورك!!

لا تغرّنَّكِ أيتها الجزيرة مني مظاهر المدنية الجوفاء! وهذه الطائرات المحلقة في الهواء ، وهذه الناطحات للسَّماء ، وهذه الآلات التي ملأ صوتها الفضاء ، فيسهل عليَّ أن أتخلى عن كلِّ هذا ، وعن كلِّ كنوزي ، وأتنازل عن كلِّ ما تنظرين إليه نظر الغبطة والطمع ، وأستبدل بها ما قد فقدته من الإيمان الذي جاءت به الأنبياء والرسل ، والذي فقدت معه قوتي ، وحرارتي ، وشخصيتي ، وروحي ، وأصبحت جسداً ميتاً ، قد يطفو على الماء ، وقد يحمله الهواء.

نفسي فداؤك يا جزيرة العرب! خذي مني ما شئت من سيارات ، وقطر ، وطائرات ، وماكينات ، وآلات ، وزخارف ، وأدوات ، وتصدَّقي عليَّ بهذا الإيمان الذي لا أجده في أسواقي ، ولا تنتجه مصانعي على كثرة ما تنتج ، وعلى غرابة ما يخرج منها ، ولم أكتسبه من مكتبتي الواسعة ، ولا يفيدني إيّاه فلاسفتي ، ومفكريَّ ، وكتّابي ، وزعمائي ، إنما أفاد العالم «أميٌّ» لا يزال في أحضانك ، فعاش هذا العالم بعدما كان ميتاً ، وأبصر بعدما كان أعمى ، تماسك بعدما كان متزعزعاً ، ولم يصب أحداً شيء من هذا الإيمان إلا عن طريق هذا النبي الأميِّ ، ولن يصيب أحداً إلى آخر الأبد

www.abulhasanalinadwi.org

إلا عن طريقه ، لذلك جئتك سائلاً فلا تنهريني! ولا تردِّيني خائباً!.

أنا أيتها الجزيرة! حائرٌ تائهٌ قد تكدست عندي آلاتٌ ، وأدواتٌ ، ووسائل ما عرفت كيف أصنع بها ، وكيف أستعملها ، فإني إلى الآن لم أعرف ما غاية هذه الحياة؟ وما نهايتها؟ ومن خالق هذا الكون؟ ولأيِّ شيءٍ خلقه؟ وما مركز هذا العالم؟وما روح هذه الحياة؟! وما هذه الآلات والمصنوعات؟ بل ما هذه القوى المودعة في هذا الكون ، وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسراً من كسور هذا العالم الكبير ، فمن كان حائراً تائهاً في هذا المجموع الكبير كان خليقاً بأن يكون حائراً تائهاً في كسوره خابطاً في استعمالها ، قد يستعملها في خيرٍ ، وقد يستعملها في شرٍّ ، وطالما يستعملها بلا غاية ، والغايات لا طريق إلى معرفتها إلا الأنبياء والمرسلون ، أما المكتشفون والصنَّاع؛ فإنما موضوعهم الآلات ، والصناعات ، ولما تفرَّدتِ بالوحي؛ تفرَّدتِ بالغايات ، ولما عنيتُ بالصناعة والاكتشاف؛ تفرّدتُ بالآلات والمصنوعات وبانفصالنا شقيت الإنسانية ، فهلمي يا مهد الإيمان! ويا مهبط الوحي! نتعاون على سعادة الإنسانية وصالحها ، فأنجدي العلم والصناعة بالغايات ، والروح ، والإيمان ، وانجدي الدِّين بالآلات والوسائل ، حتى تسير الإنسانية رشيدةَ الغاية سديدةَ الخطى على جناح السرعة والقوة ، فبكِ نستفيد صلاح الغاية وصحتها ، وبي نستفيد سرعة الوصول إلى هذه الغاية الرشيدة.

جودي عليَّ أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمد ﷺ أحلُّ بها مشاكل حياتي ، وألغاز مجتمعي ، وأحيي بها موات قلبي ، وأطفىء بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ، وقد هبَّت نفحةٌ منكِ في القرن الإسلامي الأول فحوَّلتِ هذا العالم الفسيح من جحيمٍ إلى نعيمٍ ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه ، فعودي على هذا العصر بنفحةٍ جديدةٍ تنفح فيه روحاً جديدةً ، وتبعث هذا العالم بعثاً جديداً!.

إنَّك تجودين عليَّ أيتها الجزيرة العربية بمقدارٍ عظيمٍ من البترول أدر به

www.abulhasanalinadwi.org

ماكيناتي ، وأسيِّر به عجلاتي ، فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ، ولكني كنت أنتظر منكِ ـ أيتها الجزيرة السعيدة! يا مولد نبي الرحمة! ـ شيئاً أعز وأثمن من الذهب الأسود ، كنت أنتظر منكِ أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل ، وأن توجهيها التوجيه الصحيح ، وأن تخلصي ركابها من هذا المأزق ، فقد عجزت حكمة الحكماء ، وصناعة الصناع من إخراجها ، فأخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والإيمان ، واليقين. وسيِّريها بنور الشريعة الإلهية والهداية الإسلامية!

وفي الأخير أقول: إنك يا جزيرة العرب! قطعةٌ مني يصيبك خيري وشرِّي ، ويصيبك لفحي ، ونفحي ، ما يمكنك أن تعيشي منعزلةً عنِّي ، فإن أدركتني ، وأصلحت شؤوني؛ فإلى نفسكِ أحسنتِ ، أولا؛ فعليكِ وعلى أهلكِ جنيتِ!.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

من الجزيـرة العربيـة إلـى العـالـم

مساء الخير أيها العالم! لقد سمعت كلمتك الرقيقة التي تنمُّ عن إخلاص، وصدقٍ، وحبٍّ، وقد خاطبتني يوم خاطبتني جزءاً منك، وعضواً حيّاً من أعضائك، يشعر بشعورك، ويتألم بألمك، ويشاركك في السَّرَّاء والضرَّاء، وفي الشِّدَّة والرَّخاء.

لقد ذكرتني بذكرك القيادة العالمية عهداً كلما تذكرته تحركت أحزاني، وهاجت شجوني، لقد كنت كما تعرف جزيرةً منعزلةً عن العالم، لا أسترعي نظراً، ولا أشغل بالاً، ولا ترفع برجالي رأساً، ولا تعيرهم شيئاً من العناية، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم: أعرابٌ من جزيرة العرب، ورعاة إبل، وسكان وبرٍ، وأصحاب فصاحة، لا يعرفون الحضارة والمدنية والعلوم، بينما بلغت المدنية أوجها في بلادك الرومية والفارسية، وبينما كنت تزخر بالبضائع، والأبنية الشامخة، والعلوم، والحرف.

ولكن ـ من غير مؤاخذة ـ لقد انطفأت شعلة الحياة في جسمك، وفقدت حرارتك الغريزية، وقد ضاعت رسالة الأنبياء في ترف الأغنياء، وبؤس الفقراء، وجور الأمراء، ومطالب الحياة وتكاليفها التي لم تترك فراغاً في القلب، وسعةً في الوقت، حتى أصبحت لا يوجد في إقليمٍ واسعٍ منك من يفكِّر في الآخرة، ويهتمُّ بدينه وغاية حياته، وقلَّما يوجد في قطرٍ من يعبد ربه.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد كنتُ في غير تواضعٍ مصاباً بأدواء خلقية ، واجتماعية ، ودينية ، وبما تزري بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ، ولكن كنتُ لا تزال في جمرةٍ من الحياة ، وصبرٍ على المكاره ، وثباتٍ على المبدأ ، واستماتةٍ في سبيل العقيدة ، واستهانةٍ بالحياة والمادة ، وبساطةِ المعيشة إلى غير ذلك مما يليق بأمة نيط بها جهادٌ طويلٌ عريضٌ.

نظر الله إليكَ وهو العليم الحليم الخبير ، فرأى كلَّ ما يرضي السَّيَّاحين ، ويسرُّ المتفرجين من زهوِّ المدنية ، ولايرضي الذي خلق العالم لغاية ، وخلق الخلق لعبادته ، ونظر إلى أمم الأرض ، فعمد إلى أحطِّها معيشةً ، وأخملها ذكراً ، وأقواها على حمل الأمانة ، فاختارها لرسالته ، وابتعثها إلى هذا العالم المنهار.

أرسل إليَّ رسولاً ولدته أمُّ القرى ، وعاش في أحضاني بين سمعي وبصري ، فإذا هو قرَّة عين الإنسانية وجمال الدنيا ، وعلى جبلٍ من جبالي في يوم لم أعرف خطره ، أكرمه بالرسالة ، وبعثه إليَّ ليكون للعالمين نذيراً ، واختار له رجالاً أنجبتهم ولكن لم ألق لهم بالاً ، ولم أحسب لهم حساباً ، ولكنَّهم أثبتوا قيادتهم وكفاءتهم ، أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلفاً ، وأعلاهم همَّة ، وأثبتهم جناناً ، وأقواهم إيماناً ، يا لهم من عبّاد ليل ، وأحلاس خيل!

هنالك نهضتُ بروحٍ غير الروح ، وبقوَّةٍ غير القوى ، هي روح الرسالة ، وهي قوة الإيمان ، وفاجأتكَ بحماسةٍ وسرعةٍ لا عهد لكَ بها ، فإنه لا عهد لك من قديم الزمان بالإيمان بقوته فنظرت إليَّ شزراً ، وظننتني من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين وظننت أني خرجت لمصلحتي ، ودافعي الجوع ، والفقر ، وقلَّة الموارد ، فعرضت عليَّ ما يشبع جوعة الزاحفين ، ويرضي الملوك الطامعين ، بل الأمر بالضدِّ ، وليس الدافع إلا الشفقة عليكَ ، والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية ، وشرور المدنية ، فوقفت في سبيلي من غير جدوى ، وقاومتني من غير نتيجة ، فلم تزل قوتك المادية تتحلل ، وتذوب أمام حرارة الإيمان ، وقوة الروح حتى وضعت

www.abulhasanalinadwi.org

أوزارك ، واستسلمت للقضاء الواقع . ولما زالت عنك دهشة الفتح ؛ أقبلت على رسالتي تدرسها ، وتتفهمها ، فإذا هي خير الدنيا والآخرة ، وإذا هي رسالة السلام والعلم والعقل وإذا هي أساس المدنية ، ومعراج الإنسانية ، فآمنت بها بلاد ، ودانت بها أمم ، فأحلَّت لها الطيبات ، وحرَّمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها ، والأغلال التي كانت ، ومنحتها الإمامة في الدنيا والدين والسيادة في الحكم والسياسة .

وهنالك ـ لا أخفي عليك ـ وقعت كارثتي ، بل كارثة العالم ، فقد ألهتني هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة ، التي لم يكن لي بها عهد ، فأطفأت شعلتي ، وأخمدت حماستي ، وبردت روحي ، وابتلعت إيماني ، ووقع لرجالي ما أخبر به نبيهم ﷺ : «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم ، كما أهلكتهم» فأصبح رجالي غير الرجال أجسامٌ كأجسامهم الأولى بل هي أروع ، وملابس كملابسهم السابقة بل هي أفخر ، ووجوه كوجوههم بل هي أشدُّ نضارةً وطراوةً ، ولكن أرواحٌ باردةٌ ، ونفوسٌ خامدةٌ ، وقلوبٌ خاوية : ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤].

هنالك اعتراني كسلٌ ، وفتورٌ ، وإعياءٌ ، ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة ، فإني لا أطيقه ، فرجعت أدراجي ، وانطويت على نفسي ، لقد كان اعتزالي عن الحياة رزيئةً إنسانيةً عامَّةً ، وكارثةً عالميةً عظمى ، فقد بقيت الأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها ، وبقيت القافلة وقد جدَّ بها السير ، وغاب عنها الخرِّيت .

هنالك خبطت الأمم في مدنيتها ، وعلومها ، وصنائعها ، وسياستها ، وهنا كانت مصيبتُكَ ، فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة ، والوسائل الجبارة ، وسخَّروا لك البخار ، والكهرباء ، والماء ، والهواء ، وكرَّسوا لك العلوم ، والحكم ، ولكن استخفوا بالروح وهزؤوا بالإيمان ، وأهملوا تربية الأخلاق ، فأصبح تقدُّمك معوجاً وجاءت نهضتك

www.abulhasanalinadwi.org

الأخيرة نهضة هوجاء ، خرقاء ، وكنت كشجرة برِّيَّة تمتدُّ فروعها ، وتطول على غير نظام ، وعلى غير نسق ، فهذا ذاهب إلى اليمين ، وذاك إلى الشمال ، وهذا وجد متسعاً فطال ، وهذا تضايق فقصر ، أو كولدٍ ينشأ في مغارة دبٍّ ، أو جحر ذئب يجمع بين حدَّة الأظفار ، وقوة الساعد ، وشراسة الأخلاق ، وصغر العقل .

لأجل ذلك وقع ما تشكو منه من تضخم الآلات ، واضمحلال الغايات ، وسوء التصرف في القوة ، والخبط في العلم وفساد أخلاق المثقفين ، ونهامة الأدباء والمؤلفين ، وكذب الصحفيين ، وتزوير الزعماء والسياسيين ، وخرق الأطباء والمعالجين ، وما تشكو منه من علة الروح ، واضطراب للقلب ، وانزعاج النفس ، فإنَّ هذا كله ـ سامحني أيها العالم ـ من لوازم حضارتك ، وعقليتك التي خلعت ربقة الدِّين ، واستغنت عن هدي الأنبياء والمرسلين ، وأسست حياتها على القياس والتخمين ، وعبادة المادة والقوة والشهوات .

ولو رأى أحدٌ حضارتك في تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج ، وأنذر منها ، كما يرى الإنسان بذرةً فيتنبأ بثمرتها ، لقد سرَّتني شجاعتك أيها العالم باعترافك بالإفلاس في الإيمان ، وأنَّ مصانعك لا تنتجه ، وأنه لا يوجد في أسواقك ولا عند علماءك ، وأنَّ مصدره هو الرسول الأعظم الذي يستنكف من اتباعه فلاسفتك ، وحكماؤك ، وأكثر منهم قادتك وزعماؤك ، فلا تستحي أيها العالم المتنوِّر ، واحرص على هذا الإيمان ، وكن جادّاً في طلبه مهما كلفك من التواضع والتعب ، فإنك بدونه جسدٌ بلا روح ، وبيت بلا نور .

لا تعرض عليَّ مصنوعاتك من سيارات ، وزخارف ، وأدوات فقد أخذت منها الكفاية ، وفوق الكفاية ، بل أريد أن أشكو إليك أنَّ سياراتك قطعت خيلي العتاق التي كان يضرب بها المثل في الخفة ، والأمانة ، والوفاء ، والغناء في الحرب ، وقد أغرقتني زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ ، والتبذير ، والراحة ، والكسل ، والاتكال على الآلات ، فضعفت

www.abulhasanalinadwi.org

الأجسام ، ووهنت القوى ، وتعطّلت أيدٍ عاملةٌ ، وانصبَّت دماء أجسامنا في أجسام غيرنا ، فاستردَّ منّي فضول مدنيتك لعلّي أستعيد بعض قوتي ، ونشاطي ، وأخلاقي التي كنت فيها مضرب المثل.

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك ، وألغاز مجتمعك ، وإنَّها لتتحدّى تشريع المشرعين ، وجهود المصلحين ، فتعجزها ، فاطرح عنك أيها العالم الكبر ، والحياء ، وأقبل على هذا الكتاب الخالد الذي جاء به محمد ﷺ ، واستفته ، وارجع إليه فيما ينوبك من الحيرة والعجز ، وادرسه ككتابٍ لا عهد لك به من قبل ، وقد نزل اليوم ليرشدك ، ويأخذ بيدك ، وانظر كيف يحلُّ لك عقدة بعد عقدة ، ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع ، وفي السياسة ، والاقتصاد ، وفي المدنية ، والأخلاق ، ويمنحك مبادىء ودعائم تؤسس عليها المدنية الصالحة ، وتجمع بها بين سعادة الدنيا والآخرة. إنَّ هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك ، وزعماءك بما خاطب به رجال القرن السادس المسيحي: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

غلبتك المادة أيها العالم ، فجئتني لا ترغب إلا فيما أحتوي عليه من كنوز الثروة والقوة ، ولا يهمك إلا ما يجري في بطني من عيون البترول ، فأعطيتك سؤلك ، وأشبعت نهمتك ، وإنما يعطى السائل على قدر همَّته ، وقد جئتني اليوم تسأل أعزَّ ما عندي ، وأنفع للإنسانية. تسألني الإرشاد والتوجيه ، فأهلاً بك وسهلاً أيها الزائر الكريم! ودونك المنهل العذب الصافي من الدين السَّماوي ، ومن الوحي المحمديِّ؛ الذي احتفظت به طول هذه المدة فارتو منه ما شئت ، واستق منه الإيمان واليقين ، ومبادىء الحياة السعيدة ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والخلق المستقيم ، والاتجاه الصحيح في كلِّ عملٍ وحركةٍ ، وفي كلِّ دقيقةٍ وجليلةٍ ، ذلك الاتجاه الذي لا يكون إلا بالإيمان بالله ، وبرسله ، واليوم الآخر ،

www.abulhasanalinadwi.org

والحساب ، والعقاب ، تشرَّب هذه المبادىء من هذا المعين الصافي ، واستمدَّ منه الحياة ، والقوة ، والشباب ، والرسالة ، وأطلع عالماً فتياً مشرقاً ، يخلف العالم الشائب المظلم العليل؛ الذي قد فقد الروح ، والحياة ، والشباب ، وأصبح لا يحمل رسالة للإنسانية .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

اسمعي يا مصر

خلال إقامة العلامة الندوي في مصر عام ١٩٥١م ، شعر بضرورة مخاطبة مصر خطاباً يذكرها برسالتها ، ودورها ومكانتها ، ويشعرها بأنّها تستطيع أن تقوم بالدور القياديّ والتوجيهيّ للعالم العربي ، بل للعالم الإسلامي كلّه ، فما تأخذ من الغرب وتعطيه يعد فحصاً واختباراً للعالم العربي ، وما الّذي عليها مقابل ذلك أن تعطيه للغرب حتى يجد الغرب طريقاً جديداً للحياة ، ويخرج من المستنقع الّذي لا يزال يتورط فيه.

على مصر أن تقضي في ذلك ، وتصدر حكماً فاصلاً ، وليس ذلك إلاّ لمصر وحدها التي تقع على نقطة الاتصال بين الشرق والغرب حيث تلتقي حضارتان وتجتمعان ، ثم إنَّ مصر في حاجةٍ إلى قناة معنويةٍ فكريةٍ تكون واسطة للتبادل الحرّ بين الشرق والغرب على قدم المساواة والثقة بالنفس ، فينبغي أن تقدّم مصر أنفس أشيائها وأغلاها ـ وهي رسالة الإسلام ـ إلى الغرب ، وتأخذ من الغرب ما تفوّق فيه وسبق ، وهي التكنولوجيا الحديثة ، والعلوم ، والصناعات الجديدة.

فبدأ العلامة لأجل هذا الغرض يكتب مقالاً شعر فيه بورود المعاني وانثيالها مالم يشعر به إلاّ قليلاً ، أشار فيه أولاً ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الدينيّ والعلميّ والقياديّ الرائع ، ومآثرها العظيمة ومفاخرها الجليلة في النشر والتوزيع ، وفتوحاتها العلمية والأدبية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثره في خدمة العلم والدين.

ثمَّ أشار في المقال إلى مواطن الضعف الّتي كانت نتيجة عهود الحكومة الماضية والمجتمعات الفاسدة ، والصحافة الخليعة الماجنة ، ودعا مصر إلى

www.abulhasanalinadwi.org

التحلّي بصفات الرجولة ، وتبنّي الأخلاق الإسلامية ، وتجنب تلك الأشياء التّي أدت بالشعوب الماضية إلى الانقراض والاندثار ، ثم قال لها : إنَّ الله تعالى قد اختار لها قارَّةً عظيمةً واسعةً ، وإنَّ عليها أن تقوم بدورها القيادي والدعويِّ فيها ، حيث لا تزال تشاهد في أكثر أصقاعها وبقاعها الحياة الجاهلية وعقائدها ، وعبادتها للأصنام ، ولكن كثيراً من الشعوب فيها لا تزال على بساطتها وسذاجتها ، وإن قلوبها كلوحةٍ صافيةٍ يمكن أن تثبت عليها بدون جهدٍ ومشقة كبيرة حروف ونقوش جديدة.

نشر هذا المقال في مجلّة «الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات بعنوان «اسمعي يا مصر» تلقفها الناس وتلقوها بشوقٍ ورغبةٍ واستحسان ، وعَلَّقَ عليه الشهيد السيد قطب قائلاً :

«قرأت «اسمعي يا مصر» ويا ليت مصر قد سمعتْ!». والآن إلى القراء هذا المقال المستفيض والمفيد.

www.abulhasanalinadwi.org

أحييكِ يا مصر بتحية الإسلام! وأحيي فيك الزعامة للعالم العربي ، الزعامة التي كانت عن جدارةٍ واستحقاقٍ ، لا عن احتقارٍ واغتصاب ، وإنك تحلين اليوم في العالم العربي محلَّ السمع والبصر ، ومحلَّ العقل والفكر ، رضي به الناس أم لم يرضوا ، ولكنَّ الواقع لا ينكر.

أحيي فيك يا مصر نَفاق سوق العلم! ورواج بضاعة الأدب ، وتقدير رجال العلم والفن ، فقد أنجبتهم ، واحتضنتهم ، ودافعت عنهم ، وحدبت عليهم ، فهم أبناؤك البررة ، وأنت الأم الحنون.

أحيي فيك الأزهر الشريف؛ الذي كان ولا يزال المنهل المورود في الدين ، والعلم للعالم الإسلامي ، والذي لا يضارعه ، ولا يزاحمه في تقدُّم السن ، وطول العمر ، وامتداد الظل وكثرة الانتاج معهدٌ ، أو جامعةٌ على وجه الأرض.

أحيي فيك المكتبة العربية التي فاضت ، وامتدَّت كالنيل ، وأصدرت كتباً ومطبوعاتٍ عربيةً لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام ، أو أرفع.

أحيي فيك غيرتك على اللغة العربية وجهادك في إحيائها ، ونشرها ، ورفع شأنها ، وتوسيعها ، حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك ، وبفضل الصحافة المصرية والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوي؛ لغةً راقيةً ، عصريةً ، علميةً ، سياسيةً ، فنيَّةً ، لا تقل في غزارة مادتها وقابليتها لتعلم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أية لغةٍ من لغات الغرب.

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ، والمحدِّث اللبق ، والروائي المصوِّر ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ،

www.abulhasanalinadwi.org

والشاعر المطبوع ، والسياسيّ المناقش ، والصحافيُّ البارع ، إذا كتب أحدهم في موضوعٍ ردد العالم العربي صداه ، وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج علىٰ منواله ، واحتجُّوا به كما يحتج بشعر القدماء.

أحيي فيك يا مصر! هذا وغير هذا ، ولكنْ لي معك اليوم شأنٌ آخر ، إن لي معك كلاماً أرجو أن تلقي إليه سمعك ويشهد به قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والإقبال عليه بالسمع والقلب.

إنَّ مسؤوليتك يا مصر! أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوروبية وفتات المدنية الغربية ، إنك بين آسيا وأوروبا ، فأنت ملتقى الثقافتين ، ومجمع البحرين ، إنَّك وسطٌ بين مهد الإسلام ومشرق نوره؛ وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسؤولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين.

فأما مسؤولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر! حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوروبا ، وعلومها ، ونشاطها ، وكدحها في الحياة ، وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك لهذه البلاد العزيزة ، التي ترتبطين بها برابطةٍ دينيةٍ ، وروحيةٍ ، وثقافيةٍ ، وسياسيةٍ.

وأما مسؤولية أوروبا فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية ـ وهي الإسلام الذي احتضنته من زمان ـ إلى أوروبا ، وحلِّ المشاكل التي أعيت كبار المفكرين ، وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوروبية التي استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات ، والمنتجات ، ونظَّمت عليها مدنيتك ، وحياتك تنظيماً جديداً ، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدِّرين إليها أفضل مما صدَّرت إليك.

إنك يا مصر! قد بنيت القناطر الخيرية ، فانتظم الري ، وازدهرت

www.abulhasanalinadwi.org

الزراعة ، وأخصبت البلاد؛ وأريد أن تبني قنطرةً خيرية أخرى هي أكبر القناطر في العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين ، وبين حضارتين لم تزالا متنافستين ، وبانفصالهما وتنافسهما شقي العصر الجديد ، فلو أنك وصلت بينهما ، وكنت قنطرةً تتبادل بها القارتان خيراتهما ، ومحاسنهما؛ وفرت على الإنسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرةً ، وصنتها من الضياع ، كما أنَّ قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياهاً كثيرةً ونظمت أمور الري.

لقد كان حفر قناة السويس أكبر حادث في التاريخ العصري ، غيَّر مجرى التاريخ ، وأحدث انقلاباً في السياسة ، والتجارة؛ ولكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من قناة السويس إلا عبوديةً واستعماراً ، والعالم الآن في حاجة إلى قناة أخرى ، قناة التعارف الصحيح ، والتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يا مصر! القيام بهذه المبرة العظيمة؛ لمكانك الجغرافي ، وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ، ومركزك الروحي ، تعلمين أن دولة لا تتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية ، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد ، وكان تصديرها أكثر من توريدها ، ولكننا في الشرق نورِّد أكثر مما نصدِّر ، وكانت قناة السويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد ، فلا نريد قنطرة أو قناة تكون معبرة البضائع الأجنبية من أفكار ، وآراء ، وفلسفات ، وأخلاق إلى أعماق الشرق وأحشائه ، بل نريد قناة تساوي بين التوريد والتصدير ، وتصدِّر أفضل ما عند الشرق الإسلامي من رسالةٍ وعقيدةٍ ، وخلقٍ ، وعلمٍ ، وتورِّد أحسن ما عند الغرب من منتجاتٍ ، ومصنوعاتٍ ، وتجارب ، واكتشافاتٍ ، ومرافق الحياة ، فكوني يا مصر! تلك القناة الأمينة العادلة؛ التي لا تسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل.

إنَّ لك يا مصر يدَين ، فخذي من الغرب ما فاق فيه من علمٍ وتجربة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، ومدِّي إليه يداً أخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودي عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الإيمان وشرف الإسلام ، فذلك الذي لا يملكه الغرب ، ولا يستغني فيه عنك ، وقد انتهى به إفلاسه فيه إلى

www.abulhasanalinadwi.org

ما ترين من فوضى وانحلال ، فتصدقي عليه بهذا الإيمان ورسالة الروح ، ولا تنسي أبداً أنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى .

كوني يا مصر رسول الإسلام إلى الغرب! واحملي إليه رسالة محمد ﷺ ، تلك الرسالة التي حملها العرب إلى الأمة الرومية ، والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وأفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ، ولوناً جديداً من النشاط ، وليس الغرب أقلَّ حاجةً إلى هذه الرسالة ، وهو في دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية إليها ، وقديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلاً من عشيرتهم والأقربين إليهم ، ولك من إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة ، وقرابة خاصة ليست لقطرٍ من الأقطار الإسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن أوروبا قد شاخت ، ونضجت كالفاكهة التي أدركت ، وضعف الغصن عن حملها ، فاستعدِّي يا مصر الإسلامية لتحلي محلها في الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وما ذلك بعزيز ولا بمستحيل ، إذا تم استعدادك الروحي والخلقي والمادي ، وإذا كانت أوروبا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للإنسانية ، ولا دعوة مخلصة لأمم العالم ، وعندها كلٌّ ما يضعف ثقة العالم بها من وطنية ، وعنصرية ، وتقديس للنسل الآري ، وإدلالٍ باللون الأبيض ، ونزعة تجاريةٍ ، واستعمار ، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التي تضمن سعادة العالم كله ، ودين لا يفرق بين الأوطان ، والعناصر ، والألوان؟ .

احرصي يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم! وصوني شبابهم ، وشرفهم ، ودينهم ، وصحتهم من أن يعبث بها العابثون ، أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة ، والصور العارية ، والأدب المكشوف ، فإنَّك يا مصر في محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط ، وفي طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامي ، ولا تأتي الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة

www.abulhasanalinadwi.org

والثبات في مزالق الإنسان ، والنجاح البارز في امتحان العفة ، وطهارة الأخلاق ، واذكري قصة يوسف التي مرت على أرضك ، ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت في الامتحان ، وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة ، والاعتماد ، والسيادة ، والملك ، واقرئي إن شئت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٦].

بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وأنت في ميدان القتال وساحة الجهاد ، فلا بدَّ أن تحفظي وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص ، وتذكري ما قال لخلفائه في أرضك : «واعلموا أنكم في رباطٍ إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوُّف قلوبهم إليكم وإلى داركم».

فكافحي يا مصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة أشدَّ مما تكافحين وباء الكوليرا الذي يقضي على حياة بعض الأفراد ، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك ، ويزلزل الإيمان ، ويفسد الخلق ، أشدَّ مما تطاردين من ينشر الوباء ، أو يسبب الأمراض ، أو ينقل إلى أرضك المكروب ، فلم نسمع أن الأمة العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء أو مرض ، وأنَّ اليونان اجتاحهم مرضٌ من الأمراض ، ولكنا قرأنا في التاريخ ، وشهدت أنت أنَّ هذه الأمم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقي ، والأمراض الاجتماعية ، فاحذري يا مصر ـ صانك الله وحرسك ـ هذا المصير المؤلم.

إنَّ العالم العربي قد أحلَّك يا مصر من نفسه محلاً رفيعاً! ووضع ثقته فيك ، وفتح لك أذنيه ، وعينيه ، فاتقي الله يا مصر فيمن ائتمنك ووثق بك في نفسه وعقله! ولا تصدِّري إليه من أدبك ومطبوعاتك ما يرزؤه في إيمانه وأخلاقه وقوته المعنوية وروحه ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك أن تصدِّري إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، ولا تقبلين أن يصدِّرها إليك أحد ، وصدقيني يا مصر العزيزة! أنَّ هذه الروايات الخليعة ، والأدب الماجن أفسد وأضرُّ للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، إنَّك زعيمةٌ للعالم

www.abulhasanalinadwi.org

العربي ، فلا تغلبنك النزعة التجارية ، ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيماً ، ولا يكون عظيماً من يؤثر العاجل على الآجل ، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية ، والأثرة على الإيثار.

إنك يا مصر من أغنى بلاد الله! ولست أعني بالغنى خصب الأرض ، وكثرة الموارد ، وإنك لغنية فيها من غير شك ، ولكنّي أعني غناك في المواد الخامة ، وهي الشعب الذي توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصاً ما يسكن منه في أريافك ، فهي المناجم التي لا تزال مدفونةً ، والمعادن التي لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قويُّ الإيمان ، قويُّ الشخصية ، قويُّ الجسم ، فلو أنك أحسنت تعليمه ، وتربيته ، وأفدت من هذا الإيمان ، ووضعته في محله لكان حارسك الأمين ، وجنديك القوي ، وثروتك العظيمة.

قد اختار الله لك يا مصر! قارةً من أوسع القارات ، وأكثرها مواد خاصة هي القارة الإفريقية ، ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته ، وفطرته. ولا تزال فيها أممٌ علىٰ الجاهلية الوثنية ، وعلىٰ الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافي يكتب الإنسان فيه ما يشاء ، وهذه الأجزاء من القارة ، وهذه الأمم خير حقلٍ لجهودك وتربيتك ، وخير أرضٍ لزراعتك وغرسك ، فأرسلي إليها دعاتك المبشرين ، ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين ، وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ، ويتلون عليهم آيات الله ، ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرةً من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتكتسبين قلوباً نقية وأرواحاً فتيةً ، وأجساماً قويةً ، ويكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودها ، وتحرصين على صداقتها ، وهي لا تدوم على حال ، بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ، ومصالحها السياسية ، فيوماً هي معك ، ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاصٍ وصدقٍ ، وإنما هي المطامع والمصالح ، وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأغراض!.

www.abulhasanalinadwi.org

وأخيراً أريد أن أقول في أذنك يا مصر! إنَّ لله في خلقه شؤوناً ، وإنه أعظم غيرةً من كل غيور ، وإنه لا يعطي نعمةَ دينه إلا من يعظِّمها ، ويجلُّها ، ويقدِّرها حقَّ قدرها ، فإذا رأى منك استغناءً عن الدين وما ينبىء عن احتقارٍ لشأنه ، واستصغارٍ لأمره ، وزهدٍ في الإسلام ، وانصرافاً عن خدمته ، وتقصيراً في أداء رسالته ، واعتزازاً لمبدأ غير الإسلام ، وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة والسلام استغنى عنك ، على مآثرك السباقة ، وثروتك الضخمة ، ومدنيتك الفخمة : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٢]. وجاء لخدمة الإسلام وقيادة الأمم الإسلامية بأمةٍ لم تخطر منك على بال ، تعتزُّ بالدين وحده ، وتتشرَّف برسالة الإسلام ، وتتشبع بحبِّ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ، وتلتهب غيرةً دينيةً ، وحماسةً إسلامية ، وتجاهد في سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، وإنَّ الله تعالى حذَّر العرب الأولين ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام : ٨٩].

وقال للمسلمين العرب : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨].

ولله جنود السموات والأرض ، وفي كنانة الإسلام سهامٌ لم يرها أحد ، ولا تخرج إلا في وقتها ، ومن يدري فلعلَّ شمس الإسلام تطلع من المشرق ، وهذه أممٌ إسلامية فتيَّة على سواحل المحيط الهندي ، وفي جزره تتحفز للوثوب ، وتتهيأ لقيادة العالم الإسلامي ، فاحتفظي يا مصر العربية بمكانتك ومجدك ، ولا تأمني دورة الأيام ، ولا تأمني مكر الله : ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩].

هذه تحيتي إليك يا مصر العزيزة! فتقبليها ، وهذه آمالنا فيك ، فحققيها ، وكلمة مُرّة في الأخير فتحمَّليها ، وهذه معذرتي إليك فاقبليها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

اسمعي يا زهرة الصَّحراء

خلال رحلة العلامة الندوي الدعوية إلى الكويت عام ١٩٦٢م ، ألقى سماحته عدَّة خطب للجمعة ، ومحاضرات في الجمعيات الإسلامية والمراكز الدينية وأحاديث في الإذاعة الكويتية ، ومنها أشهر حديثٍ له ألقاه بالإذاعة الكويتية بعنوان «اسمعي يا زهرة الصحراء» الذي ذكر فيه أولاً ظهور دولة الكويت فجأةً ، ورقيها ، ونهضتها ، وازدهارها ، كتفتّح زهرةٍ غضَّة في الصحراء ، ثم لفت الأنظار إلى ما تستطيع الكويت أن تقوم به من دور رياديٍّ في المدنية الحاضرة وعلى الخريطة العالمية ، وما هي شخصيتها وسيرتها المثالية الّتي ينبغي أن تظهر بها أمام العالم ، وقدرتها على تبوُّء مكانة السيادة والعزِّ والكرامة في العالم.

www.abulhasanalinadwi.org

لم يكن يُصَـدَّق في الزمن القديـم أنَّ في الصحـارى القـاحلة أزهـاراً ورياحين ، ولكن من رأى هذه المدينة الوليدة ، التي قفزت من وسط الصحراء ، ومن بين الرِّمال الوعساء في عقدٍ من السنين ، وعلى غفلة من الناس ، تبدو كزهرةٍ جميلةٍ في صحراء ، وتزهو بأنوارها المتنوعة في الليل ، وبمبانيها الأنيقة من أحدث طرازٍ في النهارِ ، صدّق أنَّ الصناعة والعلم يحوِّلان الصحراء حديقةً ، والقفر الخالي مدينةً ، وأنَّ في بطن الصحراء كنوزاً وطاقات إذا أثيرت واستثمرت في صالح الإنسانية وتقدُّم المدنية ، صنعت العجائب وحيَّرت الألباب ، وعادات بالخير الكثير.

إنَّك يا زهرة الصحراء! يا مدينة الكويت! من أحدث مدن العالم ، وأحدث العواصم العربية سنّاً ، ولكنَّك تمثلين من النبوغ والجدِّ ما لا يثبت حداثة السنِّ ، وإنَّك تتقدَّمين إلى الشباب والاكتمال بخطىً سريعةٍ جريئةٍ ، فلا يمضي عليك كثيرٌ إلاَّ وأنت من مدن الشرق العربي الكبيرة ، وتحتلِّين من بين شقيقاتك المتقدِّمة في السنِّ المكانة الرفيعة.

إنَّ كثيراً من الناس يردون الفضل في ازدهار الصناعة والتجارة ، وتقدُّم المدنية والحضارة إلى هذا النفط الذي انطويت عليه قروناً ، وقد خرج حين أراد الله ، فعاد عليك باليمن والبركة ، وعلى البلد بالرَّخاء والثراء ، ولكنه ليس مردَّ الفضل وحده ، وليس السرَّ في تقدمك وازدهارك ، فلو فقد النشاط والذَّكاء ، وفقد العلم ، والإرادة ، لما نفع هذا الذهب الأسود وضاع في أمورٍ تافهةٍ ، لا قيمة لها.

إنك يا زهرة الصحراء! قد قطعت شوطاً واسعاً في المدنية العصرية ، وبرزت كلؤلؤةٍ جميلةٍ في العمارة والحضارة ، ولعلني أرى مع كل إعجابٍ لهذا التخطيط البديع ، أنَّ مهمتك أعظم وأوسع من أن تكوني مدينة من أجمل مدن الشرق ، فليس ذلك بميزةٍ كبرى تعتزِّين بها ، وليس ذلك

www.abulhasanalinadwi.org

ما يطلبه منك العالم اليوم ، ويحتاج إليه أشدَّ الاحتياج ، إنك مدينةٌ ذات تاريخ وتراثٍ ، وقطعةٌ من صميم تلك الجزيرة العربية ، التي لم تر أن تضيف يوم نهضتها إلى مدن العالم الكثيرة الجميلة في القرن السادس المسيحي مدينةً جديدةً ، فلم يكن ذلك زيادةً تشكر عليها ، وتذكر في التاريخ ، إنما جاءت على الإنسانية المعذَّبة الشقية بمدنيةٍ جديدةٍ ، مدنيةٍ تقوم على العقيدة ، والروح ، والأخلاق . إنَّها أعادت إلى الإنسانية ما فقدته من قرونٍ من العلم الصحيح ، والإيمان القويِّ ، والدافع الخيِّر ، ذلك ما أصبحت بفقده الأمم قطعاناً من الغنم ، وعصابات من اللصوص ، إنَّها منحت الإنسانية رسالةً سماويةً جديدةً ، وقوةَ مقاومة للشرِّ والرذيلة ، كانت قد فُقدت من زمنٍ بعيد ، ومنحتها الفرد الصَّالح القويَّ الأمين الذي يوجه المدنية توجيهاً صحيحاً ، ويملأ كلَّ فراغٍ في الحياة والمجتمع ، فكان فيما أتحفته إغاثة للإنسانية الملهوفة وإسعافاً للمجتمع العليل ، وفتحاً جديداً في التَّاريخ الإنسانيِّ ، وكان أفضل هديةٍ تقدَّمت بها أمَّةٌ أو بلادٌ إلى العالم في زمنٍ من الأزمان .

إنَّ هذه الجزيرة قد أنجدت الإنسانية ، ومدَّت إليها يد المعونة والإحسان ساعة احتضارها وانهيارها ، يوم أشرقت سفينة الحضارة ـ بما فيها من كنوز ، وعلومٍ ، وتحفٍ ، وتراثٍ ثمين ـ على الغرق ، وعتا الموج ، ودجا الليل ، وهجم القرصان ، وفقد الدليل ، وأظلمت الطرق ، وأسقط في يد الرُّبان ، واقرأ إن شئت :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إنَّ هذه الجزيرة قد برزت إلى العالم بدينٍ جديدٍ متدفقٍ بالحياة ، وبجيلٍ جديد متدفقٍ بالحيوية والنشاط . ممتلىءٍ بالحماسة وقوة العمل ، غني القلب ، كبير النَّفس ، بعيد النظر ، عالي الهمَّة (أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، أقلُّهم تكلُّفاً) قوي الروح ، قوي الإيمان ، قوي الجسم ، متقشف في الحياة ، زاهد في المظاهر ، مستخف بالزخارف ، متمسك بالأسباب ،

www.abulhasanalinadwi.org

مستهينٌ بالقشور ، قد شغله الإشفاق على مصير الإنسانية ، والشفقة على خلق الله ، والتألم لظهور الفساد ، وضياع الإنسانية عن حسد الأغنياء والملوك ، ومزاحمتهم في البذخ والنعيم ، وشغله همُّ الآخرة عن التوسع الكثير في المطاعم والمشارب ، والتأنُّق الكبير في الملابس والمساكن ، جمع بين الحياة البسيطة القانعة الزاهدة وبين المغامرات العظيمة والدولة الكبيرة والفتوح الواسعة ، فكان جيلاً فريداً في التاريخ في قوة إيمانه ، وقوة شخصيته ، وجمعه بين الأضداد.

لقد كان في عواصم العالم وفي مراكز الحضارة الرومية والفارسية من مظاهر الأبَّهة والترف مايطمع فيه العربيُّ المنعزل في جزيرته ، وما يتحلَّب عليه فمه ، ويحسد فيه الأمراء والأغنياء الذين احتكروه لأنفسهم ، وقد كان هذا ظنّ الروم والفرس يوم خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام ، ويفتحون العالم ، وينقذون الأمم ، فاعتقدوا أنَّ العرب إنما ضاقت عليهم الجزيرة الفقيرة ، وأجهدهم الجوع ، وجاء به الطمع ، ولكنَّ العرب أعلنوا أنَّهم يعيشون في سعةٍ من نفوسهم المؤمنة المطمئنة ، وفي سعةٍ من صحرائهم الفسيحة المترامية الأطراف ، وفي سعةٍ من حياتهم الطبيعية الراضية ، وأنَّ الضيق هو ما فيه الروم والفرس من حياةٍ مصطنعة ، وحضارةٍ متكلفة ، ومدنيةٍ عجمية ، وعاداتٍ قاهرةٍ ، طاغيةٍ ، وأعرافٍ ظالمة ، وأساليب مفروضةٍ ، وآداب مخترعة ، فهم في قفصٍ من ذهب مؤصد الأبواب ، مؤصد المنافذ ، لا يدخل فيه من النور والهواء إلا ما يعيش به الطائر المدلل ، وإنما أخرجتهم الرحمة والرثاء للبؤس الذي تعيش فيه الأمم ، ويعيش فيه الملوك ، والرِّثاء للجاهلية التي خرجوا منها ، ولا تزال تتورط فيها الأمم ، فقالوا في ثقةٍ واعتدادٍ ، وفي عزَّة نفسٍ وإيمانٍ: والله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد كانت الحضارة الروميَّة والفارسيَّة التي بلغت أوجها وزهوها في القرن السادس المسيحي ، ومن أساليب عيشهم كثير ممَّا تحرص على تقليده الأمم المختلفة في المدنية ، وكان للعرب ـ وهم من أقدر الناس على

www.abulhasanalinadwi.org

الاقتباس ـ أن يستوردوا هذه المدنية برمتها ، وينقلوها إلى صحرائهم ، وحواضرهم ، وقد تغلّبوا على الدولتين ، وامتلكوا مواردهما ووسائلهما ، ولكن منعهم من ذلك اعتقادهم أنَّ مركزهم مركز الإمامة والسيادة ، ومركز التوجيه والإرشاد ، وأنَّ الروم والفرس أممٌ مريضةٌ مسلولةٌ ، وسقامها هذه المدنية المترفة ، والحياة المزورة ، وقد كانت من أقوى أسباب هزيمتها وانكسارها ، وانهيار هاتين الإمبراطوريتين اللتين اقتسمتا العالم المتمدِّن المعمور ، فتجنبوا تقليدها في عاداتها وكمالياتها وتمسَّكوا بفروسيتهم العربية والحياة المتقشفة الجليدة ، ولم يقتبسوا من الروم والفرس وأهل الهند إلا المفيد الصَّالح ، كالصناعات ، والتجارات ، وعلوم الحكمة ، والطبِّ ، وأساليب الحرب ، وبعض مرافق المدنية ، فالحكمة ضالّة المؤمن ، حيث وجدها فهو أحقُّ بها وتجنبوا القشور مهما أمكن ـ مما هو ماثل في المدنية العجمية ـ مما يحذِّر منه قادتهم ، وعلماؤهم.

لقد اعتقد العرب أنَّ دورهم في بناء المدنية وتكوينها دور الإعطاء والإفاضة ، ودور التخطيط والتصميم ، ودور الابتكار والأصالة ، ودور الأستاذية والإشراف ، وقد ظلُّوا يمثِّلون هذا الدور إلى مدةٍ طويلةٍ حتى فقدوا مركزهم في قيادة الركب الإنسانيِّ ، فكان من ذلك شقاءٌ لهم ، وشقاءٌ للإنسانية أعظم ، وتنزَّلوا إلى التقليد والاعتماد على الغير ، والاستيراد من الخارج ، وصاروا يعيشون في دائرةٍ ضيِّقةٍ من التفكير ، ومن الواقع ، وصاروا يفكِّرون لأنفسهم بعدما كانوا يفكرون للعالم كلِّه ، وأقاموا حولهم سوراً من الدَّم ، واللغة ، والثقافة بعدما هدموا الأسوار القديمة ، وأخرجوا الأمم منها ، تحلِّق في الفضاء الواسع ، وتجري في أرض الله الواسعة ، وأصبحوا يسبحون في بركٍ وأنهارٍ بعدما كانوا يسبحون في بحرٍ لا ساحل له. فهلمِّي أيتها الجزيرة! إلى مكانك الأول من القيادة ، والتوجيه ، والتفكير في الإنسانية ، والاهتمام بشؤونها ، والجمع بين أسرها ، ورعاية قطعانها الضالَّة ، وهداية البشرية بالرسالة الإسلامية العالمية ، التي نبعت منك ، وإليك تعود.

www.abulhasanalinadwi.org

لقد شاعت سماحتك العربية ، وأريحيتك المعروفة في التاريخ أن تجودي بالنفط على العالم ، فكنت في ذلك السخيَّة المحسنة المشكورة ، ولا شكَّ أنَّها مساهمةٌ غاليةٌ منك في بناء هذا الصَّرح الصناعي الكبير ، الذي يفتخر به العالم المعاصر ، وقد شهد الجوُّ والبرُّ بقيمة هذه النفط الذي يستخرج من أرضك ، ودانت له الطائرات ، والسيارات بالفضل والشكر ، فشكراً لك أيتها الجزيرة الكريمة العريقة في السماحة والسخاء من كل من ينتفع بهذه الوسائل! وما أكثرهم في العالم!

ولكن فيك ما هو أغلى من هذا الذهب الأسود ، وأنفع للمدنية ، وأعود على الإنسانية بالخير والنفع العام ، هو الإيمان الذي نبع عينه من أرضك لأول مرَّة بعد قرون متطاولة ، فإذا كان هذا النفط تحفة الأرض إلى الأرض ، كان الإيمان الذي جاء به محمد ﷺ تحفة السَّماء إلى الأرض ، وفيك اتصلت السماء بالأرض لآخر مرَّة وقد انقطعت صلة الأرض بالسَّماء ، والأجسام بالروح والقلب ، والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق ، فلتتصل الأرض بالسماء والأجسام بالأرواح ، والقلوب والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق مرةً ثانيةً عن طريق الجزيرة العربية وعن طريق الوحي المحمديِّ ، وقد اشتدَّت حاجة الإنسانية إلى هذا الاتصال حتى أصبح العالم لهذا الانفصال المشؤوم ـ بين الأجسام ، والروح ، والقلب ، والصناعة ، والحضارة ، والإيمان ، والأخلاق ـ على شفا حفرةٍ من النار ، وعلى وشك الانهيار.

إنَّ كثيراً من محبيك يتمنَّون لك شخصيةً قويَّةً مستقلَّةً في كلِّ ما تقتبسينه من علومٍ ومدنيَّةٍ ، وفي كلِّ ما تتبنين من حضارةٍ ، وصناعةٍ وفي كلِّ ما تقومين به من تعليمٍ وتوجيهٍ لجيلك الجديد ، وأن تفرغي ذلك كله في قالبك العربي الإسلاميِّ الجميل ، فتخرجي بطرازٍ جديدٍ تتجلَّى فيه شخصيتك العبقرية ، وعقيدتك الإسلامية ، ونظرتك الخاصة إلى الحياة ، وفهمك الممتاز للمدنية ، ومهمتَّك المخلصة في العالم ، فذلك الطراز هو الذي سيقلِّده الشرق ، ويمجِّده الغرب ، والعالم لم يزل ـ ولا يزال ـ

www.abulhasanalinadwi.org

خاضعاً للاستقلال في الفكر والابتكار في البناء ، والاعتماد على الشخصية ، وإن قلَّت الوسائل ، وضاقت الموارد ، فكيف إذا كثرت الوسائل ، ووسعت الموارد؟ وليكن كلُّ قسمٍ من أقسام مدينتك وتنظيمك متميزاً عن مثله في بلاد لا دين لها ، ولا رسالة ، فأنت بلاد ـ والحمد لله ـ لها رسالةٌ ، وليجر دمك في عروقك ، ولا يتجاوزها إلا بتناسبٍ بين الاستيراد والتصدير ، فالمدنية والحكومات إنما تقوم على هذا التناسب.

وبعد فإنِّي أعتقد أنَّ الجزيرة العربية كلَّها ، وفي حساب الانتفاضة الإيمانية التي وجدت على بعثة الرسول الأعظم ﷺ ودعوته وجهاد أصحابه ، وقد أخرجتها هذه البعثة من الجمود والخمول إلى النشاط العالميِّ ، والعظمة الخالدة ، والسيادة الروحية ، وهي التي غرست حبها في القلوب والنفوس ، يسعون إليها على العيون والرؤوس ، ويأتون من كلِّ فج عميقٍ ، وهي التي منحتها الكتاب العزيز ، الذي حفظ لغتها من الضياع والدثور ، كما ضاعت لغاتٌ كثيرةٌ ، وكان سبباً مباشراً في تولدُّ هذه العلوم الكثيرة. وتكون هذه المكتبة الواسعة التي تعتزُّ بها الثقافة الإسلامية العربية ، وهي التي نشرت لغتها ، في مشارق الأرض ومغاربها ، وفرضت دراستها ، والتضلُّع منها على كلِّ من يحب أن يفقه القرآن ، ويتفقَّه في الدِّين ، ولا تزال الثقافة العربية الإسلامية ، هي الثقافة العالمية التي تتمتع بالتقديس والاحترام الديني والعاطفة القوية في رقعةٍ واسعةٍ في العالم ، ولا تزال هذه الهداية مصدر انتفاضةٍ جديدةٍ لمن أرادها ، وسعى لها سعيها ، وأنت من أسرع الناس إلى معرفة الفضل ، وأبعدهم عن نكران الجميل ، وجحود الحقائق.

لقد تحدّثت يا زهراء الصحراء! على لسان العالم ، أخاطب الجزيرة العربية ، وأعاتبها ، وأشكو إليها بث الإنسانية وحزنها وآلامها ، ثم نقلت حديث الجزيرة إلى العالم معتذرةً مجيبةً مفصحةً بليغةً ، فكان حواراً (بين العالم وجزيرة العرب) أصغت إليه الآذان ، وأقبلت عليه القلوب ، وتحدَّثت إلى مصر فقلت : «اسمعي يا مصر!» فلم تكن صيحةً في واد ونفخةً

www.abulhasanalinadwi.org

في رمادٍ ، وتحدَّثت إلى سورية فقلت : «اسمعي يا سورية !» فوجدت آذاناً صاغيةً ، وعقولاً واعيةً ، وها أنذا أتحدث إليك فأقول : «اسمعي يا زهرة الصحراء !» وأرجو أن أحظى منك بكلِّ تشجيعٍ وتقديرٍ ، وبكلِّ اهتمامٍ وتفكيرٍ .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

اسمعوها منّي صريحة أيها العرب

يجدر في مقدمة هذا الحديث أن يُوضعَ بين أيدي القارئ ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى : أن العالم الإسلامي بصفة عامة والعربي بصفة خاصة ـ وقد مني في السنوات الأخيرة بضعف في العقيدة ، وتحلل في الأخلاق ، وانحراف في التفكير ، تحت نير الاستخراب المسمى بالاستعمار ـ أخذ ينفض عن كاهله غبار النوم ، ويحطم أصفاد الذل ، ويشق طريقه في النهوض والحرية .

الحقيقة الثانية : إن معظم الأمم تعمد في نهضاتها وبناء حضارتها لفكرة تستمد منها أمجادها ، وتستقي معالم تراثها كي تربي عليها الناشئة ، وتبعث في نفوسهم روح الحماس لها ، والذود عن حياضها ، والتفاني في تحقيق أهدافها ، فتصل الماضي المشرق بالحاضر المسفر ؛ لتقيم صرح المستقبل المنير. فإذا كانت الفكرة راسخة الجذور ، ممتدة الأفنان ، طيبة الأكل ، تفيأت الأمة ظلها الوارف ، وسعدت بجناها الشهي ، وأرست حضارتها على قواعد تكفل لها أمان النفوس وسعادة المجتمع ، وإذا كانت الفكرة واهية الأساس ، فإن ما تبنيه الأمة لا يكاد يتم في مرأى العين حتى تتداعى لبناته ، ويأفل نجمُ نباته .

الحقيقة الثالثة : إن الإنصاف في الحكم لا يكون إلا إذا تجرد الحكم من الهوى ، وتخلص من أسر العواطف والميول ، ووزن الأمور بميزان الحق والعدالة ، وكثيراً ما يظهر الباطل في ثوب قشيب يعجب النظار رواؤه ، ويخدعهم وشيه ، فتنظر العين إليه فترى جمالاً لا يفوقه جمال ، بينما يستر هذا الثوب من ورائه باطناً عفناً ، وقلباً هواء ، وتظل أعين القوم في غشاوة

www.abulhasanalinadwi.org

عن معدن الحق وصفاء جوهره إلى أن يهيىء الله من يكشف الغمة ، وينير السبيل ، ويهدي الحيارى.

وأخصُّ ما يتميز به القارئ الذي ينشد الحقيقة أن يقرأ بروح الإنصاف التي لا تحيد عن الحق لعاطفة الجنس وحنينه ، أو لحن القول وزخرفه.

(الشيخ مناع القطان ـ رحمه الله)

www.abulhasanalinadwi.org

لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق مني أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار ، لكان العرب من غير نزاع .

ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمَّةٍ من الأمم وتزينها لي ، لكانت أمتي العربية العظيمة .

وعندي مما أمدح به هذه الأمَّة العربية العظيمة بحقٍّ لكثيرٌ وواسع ، وعندي مما أرضي به نفوس هذه الأمَّة وأسماعها ، وأرضي به عاطفتي كعضو من أعضاء هذه الأسرة العظيمة الكريمة لكثير وكثيرٌ ، وكلُّ ذلك مما يصدِّقه العلم ، والواقع ، ويقول العالم : صدقت! ويقول التاريخ : عدلت ، وبررت!

ولكنِّي أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمةً خلقيةً ، وأعتبرها خيانةً عظيمةً في حقٍّ هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق ، والإنسانية ، والشرف ، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة ، وفي عقيدتها ، وخلقها ، وليست أمَّة أحقَّ بالأمانة ، وأحقَّ بالصراحة ، وأحقَّ بالنصح من هذه الأمة التي مثلت الأمانة في عهد سادت فيه الخيانة ، وصارحت في فترةٍ طغت فيها المجاملات ، وصدقت في دورٍ فشا فيه الكذب ، ونصحت في ساعةٍ انتشر فيها الغشُّ والخديعة ، فمن أحقُّ بهذه الأخلاق العالية ، والمعاني السامية من هذه الأمة؟!

ولكن من ينصح هذه الأمة ، ومن يصارحها ، ومن يصدقها؟ والزمن زمن السياسة ، وزمن تبادل المنافع والمصالح ، وزمن الاستغلال ، وكلُّ ذلك يقوم ـ أو يعتقد أنه يقوم ـ على المجاملات ، وإرضاء العواطف ، وإطراء الحليف والزميل ، وتخدير الأعصاب ، وعلى الغشِّ ، والخديعة ، ويقوم على مدح القوميات ، وعلى مدح الحضارات القديمة التي تنتسب إليها الشعوب اليوم ، وعلى الموافقة في خيرٍ ، وشرٍّ ، وغيٍّ ما لم تُمسَّ مصالح الأمة الأخرى السياسية ، ومنافعها الاقتصادية .

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن عقيدتي وديني الذي أؤمن به ، وأدين به يفرض عليَّ أن أكون صادقاً صريحاً ، وصلتي بهذه الأمة ـ الدينية ، والنسبية ، والثقافية ـ تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة ، ثم اقتناعي بأنَّ العرب الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدِّين الذي جاء به محمد ﷺ ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تحوَّل عنهم بعد ، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الأمَّة وتضطلع بالإمامة ، ولكني أعرف أنَّ الزمان زمان تحوُّلٍ ، والساعة ساعة الانتقال ، كالسَّاعة التي شهد فيها العالم أكبر تحوُّلٍ في التاريخ ، وفي حدود الأمم ، ساعةٌ مرت في منتصف القرن السادس المسيحي تحوّلت فيه الإمامة ، وتحوَّل فيها منصب الهداية من بني إسرائيل ـ الأذكياء ، المثقَّفين ، أصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب ـ إلى بني إسماعيل أو العرب ـ الأمة التي تغلب عليها الأميَّة ، والبساطة ، والفقر ، والاعتزال عن العالم ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر في مصير تحوُّل شهده التاريخ الجديد ، وكان لهذا الحادث تأثيرٌ في مصير الأمم ، وأوضاع العالم ، واتجاه الإنسانية ، لم يكن لحادثٍ سياسيٍّ ، أو تحوُّلٍ اجتماعيٍّ ، أو ثورةٍ أخرى .

إنَّني لا أخاف أن يعود هذا المنصب إلى بني إسرائيل مرةً أخرى ، فليس هنالك ما يدلُّ على ذلك ، وبنو إسرائيل في شغلٍ عنه لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمةٍ روحيةٍ ، ودينيةٍ ، وخلقيَّةٍ ، أسَّسوا حياتهم الجديدة ، ودولتهم الوليدة على المادة ، والمعدة ، والتنظيم الصِّناعي ، والاقتصادي ، وجمعوا بين مبادىء كارل ماركس ـ الذي نبغ فيهم ، ونهض منهم ـ ووصايا ميكافيلي ، وحملوا معهم من أوروبا إلى البلد الذي اغتصبه اليهود ثمرات الحضارة الجديدة الماديَّة اليانعة ، وحملوا معهم عصارتها ، وخلاصتها ، وشرورها ، وخبائثها ، فهم من أبعد الشعوب من أن تسند إليهم هداية الأمم والوصاية على العالم ، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم كثيراً ، ويتبجحون بهم كثيراً ، ومن أبعد الناس أن ننتظر منهم الثورة على الفساد الذي ظهر في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ومن أن يحملوا إلى الغرب رسالة الأنبياء والحياة الروحية ،

www.abulhasanalinadwi.org

والدعوة إلى الوحدة الإنسانية ، والفكرة الآفاقية والعالمية ، وأن يجاهدوا في سبيلهما ، ويتفانوا لأجلهما .

ولكن ليس العالم كله بني إسرائيل ، وهم حفنةٌ من البشر ، وقطعةٌ صغيرة من الأرض ، قد يفاجىء العالم شعبٌ آخر ، أو بلدٌ آخر لم يكن في الحساب ، كما فاجأ العرب العالم القديم .

وإنَّ هذا التحوّل يكون من غير نبوة جديدة ، فليس في النُّبوة المحمَّدية وفي تعاليمها وفي شرائعها ما يوجب التحوُّل ، إنَّها دائمةٌ خالدةٌ ، إنها حيَّةٌ باقيةٌ ، إنَّها سائرةٌ مع الزمن ، بل سابقةٌ للزمن ، إنه سيكون تحوُّلاً في حملة هذه الرسالة ، ، في حماة هذه الرسالة ، وهي حاجة الإنسانية ونداء الوقت .

والذي يطمعني في هذه الكلمة ، ويغريني بها هو حبِّي ، وحرصي على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية ، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حملتها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأن يتحوَّلوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤١ ـ ٤٢] .

بل يثوروا عليه ، ويعارضوه ، ويحاربوه ، وينادوا بأعلى صوتهم :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

نادى بها جدُّهم إبراهيم في عصره :

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

إنَّ لي كلمة اليوم مع إخواني العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله ويؤمنون

www.abulhasanalinadwi.org

بهذا الدين ، ولي كلمة أخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة وبالأمة العربية وحدها ، وكلتا الكلمتين صريحةٌ وصادقة صدرت عن إخلاصٍ ، وحبٍّ ، ونصحٍ.

إنَّ كلمتي مع إخواني المؤمنين بالإسلام واضحةٌ جداً ، وإن خطبي معهم يسيرٌ جدًّاً. اسمحوا لي أيها الإخوة أن أردد لكم الكلمة النبوية المدوية التي خاطب بها رسول الله الأنصار يوم حنين ، وسجلها التاريخ بنصها وقصها: «ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألّف بين قلوبكم؟» أيستطيع التاريخ العربي ـ وهو الصادق الأمين ـ أن يشكَّ في صدق هذه الكلمة ، أو أن يشكَّ في حرفٍ من حروفها ، أو نقطةٍ من نقطها ، لو كان هنالك مساغٌ للشكِّ أو مجالٌ للجدال لسارع إليه رجالٌ عرفوا بالشجاعة والصدق ، ولكنهم قالوا: صدقت ، لله ورسوله المنُّ والفضل ، وقال التاريخ: صدقت! لله ورسوله المنُّ والفضل.

ألم تكونوا ضلالاً باتفاق العقلاء والمنصفين منكم؟ ألم تشهدوا على نفوسكم بالضَّلال مراراً ، وفي مناسبات كانت أحقَّ بالفخر والمباهاة ، ونفي الاتهامات والشائعات؟ إن كانت مجرد اتهامات وشائعات ، أما شهد به جعفر في مجلس النجاشي ، وشهد به خالدٌ أمام قادة الروم ، وشهد به المغيرة بن شعبة ، وربعي بن عامر في مجلس رستم ويزدجرد.

وأي ضلال بالله أعظم من عبادة الأوثان في العقيدة والدين ، وعبادة الشهوات في الأخلاق ، ووأد البنات في الاجتماع؟.

ألم تكونوا عالةً تجدون من الأقوات والأكسية النزر اليسير ، قد استبد بأفضلها وأكثرها وألينها الروم والفرس؟ ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم إلى عاصمته تتحدَّوْنها ، وتتهدَّدونها بقوة إيمانكم ودينكم الجديد: «وإن كان الجهد دهاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم» فلم يكذبه أحد من رسلكم ، والعرب أسرع الناس إلى تصديق الواقع والاعتراف بالحقِّ ، وتكذيب الباطل ونفي الافتراء ، وأجرؤهم على الملوك والأمراء.

www.abulhasanalinadwi.org

ألم تكونوا أعداءً بأسُكم بينكم شديدٌ ، وقلوبكم شتَّى ، والقبائل دائماً في حربٍ دائمةٍ أو هدنة عارضةٍ ، وقد شهد التاريخ على أرضكم أطول حروبٍ ، وأشأمها لأهلها في تلك البيئة المحدودة ، من يستطيع أن ينسى حرب البسوس ، وداحس ، والغبراء ، وما يوم حليمة بسرٍّ!

ألا لا يشكنَّ أحدٌ في نزعتي ، ولا يرميني أحدٌ بالشعوبية وحمية الجاهلية ، فإني لا أقلُّ عن أكبر عربيٍّ يعيش في العواصم العربية في عربيَّتي ، ونسبي الصريح المتصل ، وحبِّي للعرب وتضلعي من ثقافتهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، ولغتهم ، وليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية منِّي ، وأوفر نصيباً فيها منِّي ، ولكن الإسلام أفضل من كلِّ نسبٍ ، وأقوى من كلِّ عصبيةٍ.

ثم ماذا كان؟ اسألوا التاريخ ، واسألوا ضمائركم وقلوبكم ، هبَّت عليكم نفحةٌ من نفحات الإسلام ، وقام فيكم محمد بن عبد الله ﷺ ، وكان آخر الأمر منكم جميعاً إجابته إلى ما دعا ، وتأييده فيما جاء به ، فأصبح الذين كانوا بالأمس ضلالاً لا يعرفون ديناً ، ولا يحملون علماً هداةً معلمين وأئمةً مرشدين ، حملوا النور والهدى والحياة إلى أقصى العالم «يدعون من ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يُحيون بكتاب الله الموتى ، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائهٍ ضالٍّ قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس!»[1].

وكيف كان أثرهم على الناس؟ اسألوا في ذلك تاريخ العالم بعد القرن السَّادس المسيحيِّ ، ما أعظم اختلافه عن القرن السابق؟ وما أعمق أثره في العقائد والأخلاق والاجتماع! وكيف قامت دولة التوحيد والإيمان؟ وكيف قامت سوق الجنَّة؟ هل قامت دولة التوحيد والإيمان هذا القيام في عصرٍ من العصور؟ وهل نفقت سوق الجنَّة هذا النفاق قبل محمد ﷺ ، وقبل أن يقوم العرب لنشر رسالته؟ وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب؟

---

(١) من كلام الإمام أحمد.

www.abulhasanalinadwi.org

وكيف كان غناكم أيها العرب بعد البعثة العربية والفتح الإسلامي العربي؟ ألم يكن غنىً تخطّى القياس ، وتجاوز حدود الشرع والأخلاق ، وكان موضع نقدٍ شديد من العلماء؟ وإن كنتم في شكٍّ من ذلك ـ ولا أخالكم ـ فاقرؤوا قصة الترف الأموي ، واقرؤوا قصة عرس المأمون ، ودعوة إبراهيم بن المهدي للرشيد ، وتأملوا في انقلاب الأوضاع الاقتصادية في جزيرة العرب ، وفي مدينة الرسول ﷺ ، وعموم الغنى في العصر الأموي حتى كان الوالي يبحث عن فقيرٍ يقبل الزكاة فلا يجده ، وكيف امتدت دولة الإسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه أن يقول لسحابة وقد مرّت به : «أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك» وفي ذلك بلاغٌ مقنعٌ.

وكيف كان اتحادكم بعد الافتراق؟ وحبكم بعد التباغض؟ وإيثاركم بعد الأثرة! اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج ، واسألوا عن ذلك الأنصار والمهاجرين ، واقرؤوا قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣].

ولم يشهد التاريخ الإنساني أخوةً أمتن ، ولا أطهر ، ولا أبعد من الأغراض ، ولا أعمق من هذه الأخوة ، وانظروا كيف حاربت القبائل ـ المتناحرة بالأمس ـ تحت راية المثنى بن حارثة ، وسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، وعقبة بن نافع ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وكيف حاربت الأمم والشعوب ـ المعادية المتباعدة بالأمس ـ تحت راية صلاح الدين الأيوبي. ألم يكن ذلك كلُّه معجزة الإسلام ، وتصديق قول الرسول : «ألم آتكم أعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟» ألا تزال العقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمماً وشعوباً من أعظم الأمم والشعوب تباعداً في الأوطان ، واختلافاً في الحضارات ، والثقافات ، وتنوعاً في الألسنة واللغات ، هل توجد مجموعة بشرية تختلف في الألوان هذا الاختلاف ، وتتَّحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد؟

www.abulhasanalinadwi.org

ألم يكن كلُّ ذلك عن طريق محمَّد ﷺ وحده؟ وعن طريق دينه الذي جاء به وحده؟ لا يشكُّ في ذلك مؤرخٌ ولا يشكُّ في ذلك منصفٌ ، ولا يشكُّ في ذلك قوميٌّ ، فحقائق التاريخ أجلُّ من أن يتناولها الشكُّ ، أو يسوغ فيها الجدال.

ثم ماذا كان؟ ـ اسمحوا لي ولا تؤاخذوني ـ في عصر القوميات ، وفي العصر الذي أصبح العرب ـ حاشا المؤمنين منهم ـ فيه يتناسون محمداً ﷺ وما جاء به من النعمة ، وأصبحوا يؤسسون حياتهم ، وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربي ، ألم يكن ضلالٌ بعد هدى ، ضلالٌ في العقيدة ، والعمل ، والأخلاق ، والاجتماع ، وفوضى فكريةٌ هائلةٌ ، وتفسخٌ خلقيٌّ واجتماعيٌّ لا يقلُّ ـ في العواصم العربية الكبرى ـ عن التفسُّخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنَّه قد صار فناً ، وصناعةً ، وتجارةً.

ألم تكن أزماتٌ ، ومشكلات لا تنتهي ، وفقرٌ مدقعٌ في بعض الطبقات ، وسوء توزيع ، أما أصبحت الشعوب العربية كلُّها أو جلُّها عيالاً على الغرب ، أما أصبحت مسألة اللاجئين عقدةً لا تحل ، أما أصبحت البلاد العربية مهددةً بالشيوعية؟.

ثم ألم تكن فرقة بعد وحدة؟ وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة؟ وليس هنالك ما تخلف الرابطة الإسلامية وتقهر الشهوات ـ شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والأنانيات ، والأغراض الجنسية ـ وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات ، لتجردها عن عقيدةٍ قويةٍ ، وإيمانٍ عميق ، وتربيةٍ صالحةٍ ، ولم تستطع أن تكون من هذه الدول والشعوب العربية التي لا يكثر عددها جبهةٌ موحَّدةٌ قويةٌ ، وأن تمنع الجمهورية الجزائرية الديمقراطية ، والمملكة المغربية ـ وكلتاهما عربيتان ـ أن تتحاربا ، ولم تستطع أن توفق بين سورية والعراق ـ وكلاهما بلدان عربيان ـ ولم تستطع أن تجمع بين سورية ومصر زمناً طويلاً ، وتحافظ على واقع «الجمهورية العربية المتحدة».

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ الفرد العاقل يوازن بين ربحه وخسارته ، ودخله وخرجه ، أليست لأمةٍ ـ كالأمة العربية ـ العظيمة الحكيمة ، أن توازن بين ربحها ودخلها لمَّا استمسكت بغرز محمد ﷺ ، واعتصمت بدينه ، وحملت رسالته ، وبين خسارتها وخروجها لمَّا انفصلت عن ركبه ، وانطوت على نفسها ، وعاشت في عزلةٍ عن العالم الإسلاميّ ، وأصبحت تنظر إلى القومية العربية كعوضٍ عن القومية الإسلامية .

وكلمة أزفها إلى إخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدةٍ ورسالة ، وينظرون إلى الأمَّة العربية كأمة لا تعيش إلا على مواهبها الكامنة ، ولغتها العظيمة ، وصلاحيتها للبقاء ، وموقعها الجغرافيّ ، وأهميتها السياسية ، ويعتقدون أنَّ شخصية الأمة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية ، والعقائد الدينية ، فقد كانت هذه الأمَّة قبل أن تكون هذه الرسالات ، وستظلُّ بعد هذه الرسالات ، وتستطيع أن تعيش بغيرها .

إننا نلتقي بهؤلاء القوميين في تقدير الأمة العربية ، والإعجاب بشخصيتها القوية ، ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء ، وإجلال لغتها العبقرية ، إنهم لا يسبقونا في شيءٍ من ذلك ، وليسوا أولى بهذه الأمة العظيمة وتقدير فضائلها ـ الصحيحة الثابتة ـ منَّا .

ولكننا نناشدهم بهذا الحبِّ للعرب الذي يجمع بيننا وبينهم ، ونلتقي عليه ، وبالتاريخ الذي يثقون به ويحتجُّون ، هل كان للعرب أن يمثِّلوا هذا الدور العظيم الذي مثَّلوه في العالم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره ، وأن يغيِّروا مجرى التاريخ ، لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمَّى الإسلام ، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يُعرف بالقرآن ، لولا تبنِّيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها ، وهل كان لهم ـ إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي ـ أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والأمم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ، وأن تنتشر لغتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فتندرس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة في العراق إلى الوادي الكبير في الأندلس هي لغة

www.abulhasanalinadwi.org

العلم ، والدِّين ، والعبادة ، والسياسة ، وينبغ فيها أساتذةٌ كبارٌ ، وأئمةٌ عظامٌ كالجرجاني ، والزمخشري ، وأبي علي الفارسي ، والصغاني ، والزبيدي؟ إلى أيِّ مساحةٍ زمنية أيها السادة وإلى أي أعداد ومقادير رياضية كان العرب يحتاجون في الوصول إلى هذه السيطرة السياسية والثقافية! لو بقوا على وضعهم القديم؟ هل كان يمكن ذلك في ألف سنة؟ فقد مضى على الأمة العربية آلاف من السنين وهي تعيش على هامش الأمم ، وفي عزلةٍ عن العالم ، أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ، ولغتها العظيمة أن تشقَّ طريقها إلى الأمام وتبلغ بهذه الأمة إلى ذروة المجد ، وأوج السِّيادة ، كما وصل بها الإسلام؟ لقد كانت المعلقات وكان شيءٌ كثير مما يحتوي عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الإسلام ، ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ ، وهذا الأدب الرفيع ، وهذه اللغة العظيمة ، ولم تخضع للعرب واللغات والأدب ، بل لم يَسْتَرْعِ هذا الشعر والأدب واللغة انتباه العالم المتمدن ، ولم تتوفر الهمم والدَّواعي على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الإسلام ، وبعدما أصبح العرب ـ بفضل الإسلام ـ أساتذة العالم ، وأصبحت لغتهم وآدابهم ثروةً إسلامية يجب على جميع من يدين بالإسلام دراستها والتوسع فيها ، وحفظها .

هذه كلها حقائق تاريخيةٌ ، بل هوالتاريخ نفسه ، ولا أصدق أيها السادة الفضلاء أنَّكم تجحدون التاريخ ، وتكابرون الواقع ، إلا أنّ لكم أن تقولوا : إنما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتأثير السيادة العربية العالمية ، وبفضل الحكومات العربية التي قامت في أنحاء العالم ، كما انتشرت اللغة الإنجليزية بتأثير الإمبراطورية البريطانية ، واللغة الفرنسية بتأثير الإمبراطورية الفرنسية ، وستنتشر هذه اللغة الكريمة مرةً ثانية إذا قامت الإمبراطورية العربية ، فليس الإسلام مردَّ هذا الفضل ، إنما هي القوة السياسية ، والسيطرة العالمية .

إنني لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة وأسائلكم كيف قامت الإمبراطورية العربية ، وكيف انبثت سيطرة العرب؟ ألم تقم بفضل الإسلام؟

www.abulhasanalinadwi.org

فكلُّ ذلك معروفٌ عندكم ، ولكنيّ أقول لكم: إنَّ قضية اللغة العربية وانتشارها ، وتحكُّمها في العالم تختلف عن قضية اللغة الإنجليزية ، واللغة الفرنسية كلَّ الاختلاف ، فاللغات الأوربية إنما تبعت الحكومات الأوربية ورافقتها في تقدمها ومغامراتها ، وعاشت عيالاً عليها ، وكلما نالت أمَّة استقلالها ، وتحرَّرت من نير الحكومة الأجنبية ثارت على هذه اللغة ، وحاولت أن تتخلَّص منها في أقرب فرصة ، لأنها تعتبرها لغةً أجنبيةً طارئة ، وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض ، والاحتلال المقيت ، وهذا شأن الهند التي أتقنت اللغة الإنجليزية كأهلها ، وكان فيها أدباء ، وكتَّاب ، وشعراء ، ودستوريون كبار ، صممت على التخلص منها في مدَّة قريبة ، وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرُّر ، لأنَّ هذه الأقطار لا تربطها بهذه اللغات الأوربية عقيدةٌ دينيةٌ ، أو عاطفةٌ روحية ، إنما هي لغات فرضها عليها الاستعمار فرضاً ، فجديرٌ بها أن تتبع الاستعمار في رحيله حتى يتمَّ الجلاء ، ويتمَّ استقلال البلاد سياسياً ، وثقافياً.

أما اللغة العربية فقد استمرَّت في الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واضمحلالها ، وظلَّت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية إلى الفرس والعجم ، وظلَّت تسيطر على أكبر رقعةٍ من العالم الإسلامي ، وعلى أعظم مجموعةٍ من العقول البشرية ، رغم ضعف العرب ، فكانت لغة التأليف ، ولغة الحكمة ، والفلسفة ، ولغة البحث العلمي ، ولغة الفقه والكلام ، ولغة التاريخ والأدب ، ولغة التفسير والحديث في إيران ، وتركستان ، والهند ، ولا تزال لها مراكز ثقافيةٌ كبيرةٌ في الهند ، وباكستان ، ويبلغ عدد من يحسنها قراءةً وفهماً في هذه البلاد الأعجمية مئات الألوف ، ولا يزال من يتعصَّب لها ، وإذا خير بين لغته الوطنية التي نشأ عليها ، وبين اللغة العربية التي نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده ، وحرص على تعليمها لأولاده ، ولا سبب لذلك إلا أنها لغة العقيدة والشريعة ، ولغة الإسلام «الرسمية» وقد كان الشيخ علي المتقي من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة ، وليست على وجه الأرض حكومة عربية صميمة تكافئه على هذا البرِّ باللغة العربية ، وقد كان

www.abulhasanalinadwi.org

تلميذه محمد طاهر الفتني (م٩٨٦ هـ) يؤلف كتابه البديع «مجمع بحار الأنوار» في شرح غريب الحديث في اللغة العربية ـ وهو في الهند ـ بعيداً عن مركز هذه اللغة ، وقد ألَّف الشيخ محمد أعلى التهانوي كتابه الفريد «كشاف اصطلاحات الفنون» في القرن الثاني عشر ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي كتابه العظيم «حجة الله البالغة» في القرن الثاني عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرهما العلمي الكبير ، لأنها في عقيدتهما ، لغة الإسلام ، ولغة العلوم الإسلامية ، ولغة المؤلفين الإسلاميين الحبيبة الأثيرة ، وقد أفاض الإسلام على اللغة العربية قدسيةً ليست لغيرها من اللغات ، وغرس حبَّها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم ، حتى أصبحوا يؤثرونها على لغة آبائهم وبلادهم ، وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحبِّ من نفوس شعوبها المسلمة ، وقطع صلتها عنها ، وقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية قانونياً ، وبقي الأتراك المسلمون يحنون إلى كلمات الأذان العربية أكثر من ربع قرن حتى إذا سمح لها بذلك في العهد الأخير ، ودوَّى الأذان العربيُّ أول مرةٍ على منائر تركيا ، سجد الأتراك على الشوارع شكراً وفرحاً ، وذبحت ألوفٌ من النعاج والغنم .

فهل للغةٍ من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس ، وهذه المحبَّة في القلوب؟ وهل كان للعرب هذا النفوذ العقليُّ والثقافيُّ في العالم ؟ وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النَّفاق العجيب ، والرواج العظيم ، وهذه السيطرة على العقول والقرائح والأقلام لولا الإسلام ، ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام؟

ونرجع إلى الحاضر أيها السادة ، ونقارن بين مستقبل الأمَّة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنتها في السابق وأدمجت شخصيتها فيها ، وقامت تدعو إليها ، وتكافح في سبيلها ، وبين مستقبل هذه الأمة ، وقد تجرَّدت عن هذه الرسالة ، وتخلَّت عنها ، وانطوت على نفسها ، واقتصرت على القومية العربية ، ودعت إلى حضارتها الأولى وآدابها العربية التي سبقت الإسلام .

www.abulhasanalinadwi.org

خذوا أيها السادة أكبر ورقة بيضاء تجدونها ، وخذوا قلماً لا ينقطع مداده ، وارسموا قمّة المجد التي تستطيع الأمة العربية ، المتجرّدة عن الرسالة الإسلامية والريادة المحمدية ، أن تصل إليها ، ارسموا هذه القمّة بكل سخاءٍ وشجاعةٍ ، وارفعوها في إطار الواقع والإمكان العملي ما استطعتم ، هل تزيد هذه الأمة على أن تكون كالشعب الهندي ، أو الشعب الياباني في الشرق ، أو الشعب الفرنسي ، أو الشعب الإنجليزي في الغرب ، إنه أقصى ما يصل إليه شعبٌ في حدود القومية ، ولا أريد أن أثير الآن مسألة العدل والظلم ، والحقّ والباطل ، وهل يجوز لشعب أن يستعبد شعباً آخر ، وأن يحتلّ بلاداً أخرى ، ولكن هذا مدى القومية ، وهذه آفاقها ، وهذه أقصى حدودها.

أين هذه القمّة ـ مهما عظمت وتعالت ـ من منصب الثّقة العالمية التي كانت تتمتّع بها هذه الأمة ، وهي أمّة الرسالة وهي أمّة الإخلاص والتجرُّد؟ وأين هي من منصب الهداية والأمانة الذي كانت تتمتع به وهي أمة العقيدة والإيمان؟ إن نتيجة الوضع الأول ـ الوضع القومي ـ الأحقاد ، والضغائن ، والثورات ، والحروب والصّراع الذي لا يكاد ينتهي ، ونتيجة الوضع الآخر، ـ الوضع الديني ـ الألفة ، والمحبة ، والتقدير ، والاعتراف ، والهدوء ، والسلام. إنّ الرسالة المحمدية قد بلغت بالعرب إلى قمة المجد الحقيقي ، والسيادة الحقيقية ، حيث خضعت لهم القلوب والرقاب ، ودانت لهم العباد والبلاد ، وامتلأت لهم القلوب حباً وحناناً ، ونصيحةً وإخلاصاً.

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣].

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحبّه المفتوحون غير العرب ، وقد اعتبروهم مرشدين ، ومنقذين ، ومحرِّرين ، لأنَّ الرسالة التي كانوا يحملونها هي رسالة فيها الإرشاد ، وفيها الإنقاذ ، وفيها التحرير ، وفيها الرحمة ، وفيها الحياة ، وفيها العقل ، وفيها الإنسانية ، وهذه الرسالة كفيلةٌ بأن تبلغ

www.abulhasanalinadwi.org

بالعرب اليوم إلى هذه القمَّة ، وأن تبوِّئهم مبوَّأ صدقٍ ، وأن تمكِّنهم في الأرض ، وتجعلهم أئمةً ، وتجعلهم الوارثين.

إنَّ الأمم أيها السادة القوميون لا تعيش بالحضارات ، ولا تعيش باللغات ، وإذا عاشت كانت حياتها قصيرةً ، ومصطنعةً ، وسطحيَّةً. إنَّ الأمم تعيش بالرسالات ، وقد سمعتكم كثيراً تقولون: «إنَّ العرب أمةٌ واحدةٌ ذات رسالة خالدة» فما هي هذه الرسالة ، إذا كانت الرسالة المحمدية ـ وهي أقرب الرسالات إلى الطبيعة العربية ، والأمَّة العربية ـ فلا مناقشة ، وإذا كانت غيرها فما هي أيها الأسياد؟ وهل هناك رسالةٌ خالدةٌ غير الإسلام؟ وهل هناك دعوةٌ ، أو توجيهٌ عالميٌّ يغيث الإنسانية المحتضرة ، والمدنية الغربية المنهارة ، ويمدُّ الغرب بالإيمان واليقين ، والثِّقة ، والقوَّة الروحية ، والإنسانية السَّامية؟ غير الإسلام ، الذي لا سبب فيه إلا أنَّه أتاكم عفواً من غير تعبٍ وتضحيةٍ ، وانتقل إليكم من آبائكم في التراث ، وعاش فيكم طويلاً من غير أن تدرسوه ، وتفقهوه.

لقد كان جديراً بكم أيها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ، ولو كانت في أقصى العالم ، وعند أبعد الأمم ، وتتحفوا الأمة العربية بها لتعيش بها كريمةً قويةً ، وتتزعَّم بها العالم ، وبذلك تثبتون إخلاصكم ، وودَّكم ، ووفاءكم لهذا الأمَّة ، وتكونون قوميِّين صادقين ، فكيف وقد أشرقت هذه الرسالة من أفقكم ، وظهرت في لغتكم ، وتمثَّلت في أمَّتكم ، ووصلت إلى أقصى حدود العالم عن طريقكم.

إنَّ أعظم مجرمٍ قوميٍّ في حقِّ العرب ، وأضرَّ على هذه الأمة من هولاكو وجنكيزخان مَنْ يضعف صلتها بهذا الدين ، ومن ينضب في نفوسها معين الإيمان واليقين ، ومن يحول بينها وبين محمد ﷺ ، إنَّ مَن يرتكب هذه الجريمة هو الذي يحول بينها وبين محمد ﷺ إنَّ مَن يرتكب هذه الجريمة هو الذي يمهِّد الطريق لضياع هذه الأمة الكريمة ، وانهيارها ، وإفلاسها ، ويتآمر على وجودها ، وقوَّتها ، ويحوِّلها من أمَّةٍ مؤمنةٍ ، منظمةٍ قويةٍ ذات عقيدةٍ ، وهدفٍ ، ورسالةٍ ، وقائدٍ عام محبَّب إلى أمَّةٍ متشكِّلةٍ ضعيفةٍ

www.abulhasanalinadwi.org

لا عقيدة لها ، ولا هدف ، ولا رسالة ، ولا قائد ، تجتمع القلوب على حبه ، وتجتمع الشعوب حول رايته. إنَّ هذا الخواء الذي تحدثه هذه الثورة المشؤومة لا يملؤه تنظيمٌ قوميٌّ ، أو حلفٌ عربيٌّ ، إنَّ الإيمان لا عوض له في حياة الأمم والأفراد ، وإنَّ الأنبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وإنَّ الوعي القومي ، أو السياسي مهما تمَّ وقوي لا يمنح الأمَّة العقيدة الجازمة ، والدوافع النفسية العميقة إلى عمل الخير ، والأخلاق المستقيمة ، ولو أغنى هذا الوعي عن أمَّة لأغنى عن الشعوب الأوربية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقي ، والفوضى العقلية ، ولما تعرَّضت للنهاية الأليمة القريبة.

إنَّ أمماً هنا في الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحي ، والإفلاس في الإيمان والعقيدة ، وفقدان قائدٍ دينيٍّ روحيٍّ يجمع بين الشعوب والطبقات ، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات ، ويغلب على العصبيات المحلية ، أو الحزبية ، والحزازات السياسية ، فقامت تبحث في تاريخها عن نبيٍّ أو قائدٍ روحيٍّ تجعله إماماً وقائداً ، وتدعو باسمه ، وقد أحيت الأمة الهندية حديثاً ذكرى «بوذا» ذلك الذي اضطهدت ديانته ونفتها من الهند في العهد القديم ، واحتفلت به الهند حكومةً وشعباً ، وقد نشط في ذلك كبار الملاحدة ، والزعماء السياسيين الذين لا يدينون بدينٍ ولا يؤمنون بعقيدةٍ ، وذلك كلُّه حرصاً على جمع شمل هذه الأمَّة العظيمة التي تتوزعها شعوب ، وطبقاتٌ ، وعصبيات ، وعلى إعادة الحياة والروح إليها.

فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجالٌ يدعون إلى القومية العربية المجردَّة من العقيدة والرسالة ، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الأديان ، وعن أقوى شخصيةٍ ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطةٍ روحيةٍ تجمع بين الأمم والأفراد ، والأشتات والأضداد. إنَّها جريمةٌ قوميةٌ تبذُّ جميع الجرائم القومية التي سجَّلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدمٍ وتخريبٍ تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وإنها خطوةٌ حاسمةٌ مشؤومةٌ في سبيل الدَّمار القومي ، و«الانتحار» الاجتماعي.

www.abulhasanalinadwi.org

إنني أعتقد أنَّ في القوميين رجَالاً مخلصين جادِّين ، لم يدفعهم إلى هذا التفكير الخاطىء إلا الحبُّ الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم وعزِّهم ، والنزعة القومية التي طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب ، وأنَّهم لم يتعمقوا في هذه المسألة تعمُّق الخبير المفكِّر ، ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجرَّدة عن الإسلام الواسعة ، وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلاتٍ وخساراتٍ وتحوّلاتٍ عظيمة ، وأنهم لا يزنون شيئاً إلا في ميزان النفع للعرب ، وأنَّهم إذا قيل لهم: اتّقوا الله في العرب ، لم تأخذهم العزة بالإثم.

إلى أولئك المجرَّدين عن حمية الجاهلية ، الباحثين عن الحق ، التابعين للحقيقة ، أهدي هذه الكلمة المخلصة.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

اسمعي يا سورية

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث بعنوان «اسمعي يا سورية» في الإذاعة السورية بدمشق نزولاً على رغبة بعض كبار علمائها ، أثناء زيارته الثانية لدمشق عام ١٩٥٦ م .

www.abulhasanalinadwi.org

أحييك يا سورية تحية من أحبك صغيراً ، وعاش في ذكرياتك وأخبرك دهراً طويلاً ، لقد سمع في طفولته ملاحم الإسلام ، وفتوح الشام فعرف مدنك وقراك كما عرف مدن بلاده وقراها ودرس في شبابه تاريخ الإسلام فرآك تشغلين منه مكاناً واسعاً ، وتضعين إليه صفحات مشرقة لا يزال المسلمون يستمدون منها الإيمان ، ولا يزال العرب يذكرون بها العهد الذي كانوا يحكمون فيه نصف المعمورة .

أحييك يا سورية تحية من نفسي وعقيدتي وضميري ، فكل منها يتنافس في تحيتك ، وكل منها يدين لك بالفضل ، فقد غمرت نفسي بالسرور والإيمان ببطولة من بذل نفسه وأراق دمه على أرضك ، وقويت عقيدتي في انتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار قوة الإيمان على قوة السيف والسنان ، وقوة الأبدان ، وكثرة الأعوان ، وما اليرموك عنك ببعيد ، وما يوم حليمة بسر ، وأيقظت ضميري لفهم معان أسمى من السماء ، وأعذب من ماء بردى ، هي معاني الثقة بالله ، وعلو الهمة في سبيل الله ، والعطف على عباد الله ، والعدل بين الناس .

بحثوا عمَّن يقبل الزكاة فما وجدوه ، وخاف العصاة والمجرمون ، وارتدع القساة والظالمون ، تلك شخصية عمر بن عبد العزيز ـ سلام الله على عمر بن عبد العزيز ـ شخصيته كانت كوميض البرق وفلتة الدهر ، لم يزل التاريخ يحن إليها ، ولا تزال الإنسانية تصبو إليها وما من يوم إلا والإنسانية إليها أشد فقراً وأشد حنيناً ، فلو لم تكن لك يا سورية حسنة سوى هذه الحسنة ، ولو لم تنجب أرضك يا سورية غير هذا الوليد ، لكفاك فخراً وكفاك فضلاً على الإنسانية ، وشرفاً على البلاد .

وكم هنالك يا سورية من مناسبات كريمة تجدد ذكرك وتلفت الناس إليك ، فكم في مقابرك من عظماء الإسلام والأئمة الأعلام ، كم فيها من

المحدثين وعلماء الرجال كابن الصلاح والذهبي والمزي ، ومؤرخين كابن خلكان وابن عساكر ، وابن كثير ، وأبي الفداء ، وأئمة كالنووي وابن تيمية وابن القيم ، وصوفية كإبراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي ومحيي الدين ابن عربي .

وفي حجرك يا دمشق يرقد ذلك الأسد الذي ملأ الفضاء بزئيره ، وخلع قلب الغرب بشجاعته ، كما ملكه برحمته وإنسانيته الرفيعة ، ذلك الذي زحف إليه الغرب بأقياله وأبطاله ، وأسوده وأشباله ، وأجلب عليه بخيله ورجله ، فناهضه وحده، وكسره في «حطين» كسرة شنيعة لم يقم بعدها ، وحفظ على الإسلام حرمه وحرمته ، وعلى الشرق شرفه وكرامته ، ذلك صلاح الدين ـ سلام الله على صلاح الدين ـ فلولاه لانتهى العالم الإسلامي وتحطم الشرق ، وعاث وحوش الغرب في ربوعه يستأثرون بخيراته ويستبدون بحكمه ، ويتحكمون في أمواله وأعراضه ، ويضطهدونه في دينه وعقيدته ، ويرزؤونه في أخلاقه وروحه ، وكان العالم الإسلامي كله مستعمرة غربية ، وكان في عشرات «فلسطين» وعشرات «الجزائر» فلك يا سورية الكريمة منة على العالم الإسلامي وفضل على الشرق العربي في شخص صلاح الدين الأيوبي الذي ترعرع على أرضك ، وتنبل في تربية ملكك الصالح نور الدين ، ومنه تولى قيادة الجيوش ، وفي أرضك دفن .

لقد أتى عليك يا سورية ـ وكنت تسمين يومئذ الشام ـ حين من الدهر ، وأنت تحكمين أكبر قطعة من العالم المتمدن المعمور ، وكانت مملكتك العظيمة لم تكن لتقطع مسافتها في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وكان الخراج يجبى إليك من الهند في الشرق ، ومن الأندلس في الغرب ، ولم يزل سلطانك يتقلص ، ودائرة نفوذك تضيق ، وحدود مملكتك تقصر وتنزوي حتى انطويت على نفسك ، واقتنعت بهذا القطر الذي يسمى «سورية» وتخليت عن القيادة العالمية ، فما السر في ذلك يا سورية العزيزة ، وما سبيل الرجوع إلى ذلك المركز العظيم؟

ولعلك تقولين : إن العراق هو الذي انتزع مني هذه الزعامة في القرن

www.abulhasanalinadwi.org

الثاني الهجري ، وحلت بغداد محل دمشق فكانت مركز الخلافة ، وكانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية العظيمة!

ولكني أوجه نفس هذا السؤال إلى العراق ، فقد كان مصيره في منتصف القرن السابع كمصيرك يا سورية في القرن الثاني ، إن سبب هذه النكسة العظيمة التي واجهتها أنت وواجهها العراق بدوره أعمق مما ظننته .

واسمحي لي أن أشرحه ، إن سر عظمتك يا سورية وسيادتك على العالم كله ، سيادة دامت قرناً كاملاً ، هو أنك تزعمت هذه الأمة التي بعثت بعثاً جديداً وكلفت تبليغ رسالة إنسانية عالمية .

تقدمت أنت بشجاعتك وطموحك وهمة خلفائك الذين كانوا يحكمون في دمشق ، وتكفلت قيادة هذه الأمة ، فكان قادتك العظماء يفتحون البلاد ، وينشرون الإسلام ، وينشرون الدين والعلم ، ويعلمون الأخلاق والفضيلة ، والإنسانية والكرامة ، كذلك فعل محمد بن القاسم في الهند ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وموسى بن نصير في المغرب ، فكان الفتح والرسالة مترافقين وكان قادتك رسل الخير والفضيلة ، ومشاعل العلم والإصلاح ، وكانت جيوشك جيوش الإنقاذ ، وكان رجالك رجال الإسعاف ، تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتضع عنهم إصرهم والأغلا ل التي كانت عليهم ، وكان الناس في حاجة إلى هذه الرسالة حاجة الأرض الجدبة إلى الأمطار ، وكانوا في حاجة إلى الحكم العادل حاجة المسجون إلى الحرية فاستقبلوا رسله ورجاله وتفتحت لهم قلوبهم وبلادهم ، وارتمى العالم السليب الحزين في أحضانك كما يرتمي الطفل الصغير المذعور في أحضان أمه وأبيه ، وتكونت دولة من أعظم دول العالم ، وكانت لك وصاية على الشعوب والأمم .

ولكنك بدأت ـ ولا مؤاخذة يا سورية الحبيبة ـ تعتمدين على قوتك وفتوحك أكثر مما تعتمدين على قوة هذه الرسالة ، وتعنين بجمع الأموال ، أكثر مما تعنين بأخلاق الرجال ، وصلاح الأحوال ، وبدأ رجال الحكم ،

www.abulhasanalinadwi.org

وعمال البلاد ، وجباة الأموال يتخلفون في أخلاقهم وصفاتهم ، وأصبحوا كسائر الحكام والعمال في سائر الدول والحكومات ، حتى لم يمض قرن على مملكتك العظيمة حتى صار الناس يشعرون بذلك في نواحي المملكة ، فقد حديث التاريخ أن رسل يزيد بن عبد الملك ذهبوا إلى رُخّج وسجستان لتحصيل الخراج والأتاوة المفروضة عليها، فقال لهم ملك هذه البلاد واسمه رتبيل: «ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة؟ قالوا: انقرضوا! قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً» ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولاعمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوة شيئاً .

فقد خضع لك العالم يا سورية في القرن الأول ، وقامت عليه وصايتك ، لأنك كنت تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره ، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الإنسان للإنسان ، ولا تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك ، بل تعيشين للعالم ولصالحه ولخير الإنسانية جمعاء ، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الأمم المفتوحة ، ومتى أحبت الأمم المفتوحة فاتحها؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك أما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك ، فقد انقطعت صلة العالم بك ، وأصبحت قطراً من الأقطار ، ودولة من الدول .

ولكن شأنك غير هذا الشأن يا سورية العظيمة، إن موقعك الجغرافي ، وأهميتك الحربية ، وتاريخك الماضي ، وشعبك السليم المؤمن ، كل يشير إلى أنك خلقت لغير هذا وأنك تسيئين إلى نفسك وتظلمينها لو اقتنعت بالدون ، وزهدت في الزعامة العالمية!

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والزعامة ليست بالأمر الهين ، وهنالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائل والإمكانيات وأكثر عدداً وعدة ؟!

إن السبيل الوحيد إلى ذلك يا سورية أن تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الأول ، عهدك الزاهر الذهبي ، وأن تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الأول فتتملكك كما تملكتك في العهد الأول ، وتخلصين لها اليوم

www.abulhasanalinadwi.org

كما أخلصت لها بالأمس ، وأن تجعلي العالم يشعر بحاجته إليك ، ويثق بإخلاصك ونفعك ، واحملي إليه رسالة الدين السماوي الذي أكرمك الله به منذ ثلاثة عِشر قرناً ، يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم، ما يعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد ، وشرور الاستعمار .

إن الأمم يا سورية ، لا تسود باللغات والثقافات ، ولا تسود بالمدنيات والقوميات، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات ، وكلما كانت هذه الرسالات أعم للشعوب والأمم وأعْوَد على الإنسانية بالخير والسعادة ، وكلما كانت هذه الأهداف والغايات أسمى وأعلى ، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الإقليمية ، وأعرق في الإنسانية ، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هذه الرسالات ، وتدين بهذه الغايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى ، ولا تزالين تملكين هذه الرسالة، وهي الرسالة التي حملتها إليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد الثاني من القرن الأول، ولا تزالين تعرفين هذه الغاية السامية التي خرجوا لتحقيقها من جزيرة العرب .

دعي التردد يا سورية ، فلا أضر على الأمم من التردد وخذي بالعزم ، والأمر الجزم ، واحملي راية الإيمان والدعوة في الخارج ، وراية الإصلاح والتربية في الداخل ، وحاربي فساد الأخلاق والتحلل ، والميل الزائد إلى الملاهي ، والرخاوة والترف ، فلا بقاء لأمة ولا قوة على عدو بانحلال الأخلاق ، ورخاوة الأجسام ، والترف الفاحش ، واذكري أن من أسباب انتصار العرب تقشفهم في الحياة ، واحتمالهم للمشاق، ومن أسباب انكسار الرومان تنعمهم في الحياة وغلوهم في المدنية ، ولا تنسي أنك دائماً على الحدود فلا تضعي السلاح ولا تميلي إلى الدعة والراحة ، ولا تمكني الغواة والذين تجارتهم في الأخلاق والأعراض من إفساد شبابك وإضعاف العقيدة والقوة المعنوية .

لقد كانت لنا قومية نعتز بها يوم جاء رسلك ودعاتك إلى بلادنا ، وكانت لنا لغة لا نعدل بها لغة ، كانت لنا عصبية نقاتل في سبيلها ، فتخلينا عن كل ذلك واندمجنا في القومية الإسلامية العظيمة ، وعكفنا على دراسة اللغة

www.abulhasanalinadwi.org

العربية الكريمة ، وتركنا العصبية القومية والحمية الجاهلية ، فالله الله يا سوريا الإسلامية ، لا تتمسكي بما أبعدتنا منه من النزعات الجاهلية والقوميات الضيقة ، ولا تقعي في الحمأة التي أخرجتنا منها .

لقد طار صقر قريش من أرضك ، فأسس في الغرب دولة وحضارة بقيت مدرسة الغرب ثمانية قرون، ولا يزال الغرب يدين لها في معرفة مبادئ الحضارة ومبادئ العلم والحكمة ، فأقبلي يا سورية مرة ثانية إلى الغرب برسالتك وأنت في مركز تستطيعين فيه أن توجهي الغرب إلى حضارته وحياته وتكملي بإيمانك وروحك ما ينقصه من إيمان وروح ، لقد كان اللائق أن تكون الاستفادة بينك وبين الغرب متبادلة ، وأن يكون التصدير بقدر التوريد ، فإذا أخذت منه مما يفوقك فيه وسبقك إليه من مصنوعات وآلات ، فكان اللازم أن تصدري إليه وتهبينه مما تفوقينه فيه من مبادئ وغايات ومما تفردت به من وحي ورسالات ، وإن الحضارة المثلى التي فيها سعادة الإنسانية هي التي تجمع بين الغايات الفاضلة والدوافع الحسنة ، وبين فرص العمل وقواه التي يتمكن بها الإنسان من تحقيق هذه الغايات والوصول إلى هذه الأهداف ، ولا شك أن هذه الحضارة لا تظهر إلى الوجود في هذا العصر ما لم يتعاون الشرق والغرب بعضهما مع بعض ولم يسهما في تكوينها وإبرازها ، ذلك بإيمانه وهذا بتنظيمه وعلومه ، فاعرفي يا سورية ضخامة مسؤوليتك وعظم الدور الذي تستطيعين أن تمثليه .

أما بعد ، فقد كان لك على بلادنا فضل ، ولا يزال ، وذلك عن طريق محمد بن القاسم الثقفي ، الذي سار إلى الهند بجيوش المجاهدين ودعاة الإسلام المؤمنين ، في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فأحبته الهند وخلدت ذكراه، وذاق كثير من أهلها طعم الإيمان ، وكان دخوله فيها فاتحة عهد جديد .

وما دفعني إلى هذا الحديث إلا تقدير هذه اليد البيضاء والحق القديم ، ولعلي قمت بذلك ببعض الواجب ، ووفيت شكر النعمة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

العَوامِل الأسَاسِيّة لكارثةِ فلسطين

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مدرج الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥١م، حضرها نخبة من علماء دمشق وأعيانها وكبار أساتذة الجامعة وأعضاء مجلس النُّواب، ورجال السلك السياسي، وعلق عليها المرحوم الدكتور مصطفى السِّباعي.

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! وفدت إلى الأقطار العربية العزيزة، وقضية فلسطين هي شغلها الشاغل، وحديث النوادي والمحافل، وإنَّها لجديرة بأكثر من هذا، لأنها قضية الكرامة والشرف، وقضية الإيمان والعقيدة، والفاصلة بين الموت والحياة، وقد ساهمت ـ كفردٍ من أفراد هذه الأمة العظيمة التي نكبت في فلسطين ـ في التفكير في هذه القضية، والبحث عن أسباب الفشل العميقة الحقيقية، ورجعت إلى التاريخ، فقارنت بين قضية فلسطين اليوم، وبين المواقف الحاسمة في تاريخ هذه الأمة بالأمس؛ التي خرجت منها ظافرةً منتصرةً، وتساءلت: ما هي المفارقات بين الماضي والحاضر، وكم بين الأول والآخر؟ فخرجت من هذا التفكير والدراسة بنتائج، أعرضها عليكم أيها السادة! كباحثٍ ورائد، وأعتقد أنَّ جامعةً عربيةً كالجامعة السورية التي تتكفل بإنشاء الجيل الجديد؛ الذي سيواجه هذه المشكلة وجهاً لوجه، أعتقد أنَّها خير مكانٍ للبحث العلمي، والتفكير العميق في هذه القضية.

إنِّي أتقدَّم إليكم أيها السادة! بقولي: إن النتائج التي توصلت إليها؛ قد تثير العجب في أوساطٍ كثيرةٍ، ولا تتفق مع ذلك المنهج الفكري، وأسلوب البحث الذي تعودناه في هذا الموضوع، ولكن أمانة التاريخ تدفعني إلى أن أقدِّمها إليكم، وأدعو إلى النظر فيها، ومعالجتها في أول فرصة.

أعتقد، أيها السادة! أنَّ أسباب نكبتنا أعمق وأبعد مدىً من الأسباب التي يشير إليها الباحثون في هذا الموضوع، وأطول عمراً من قضية فلسطين نفسها، وفقد سبقت تلك الأسبابُ هذه القضية بكثير، وبدأت تفعل فعلها في كيان الأمَّة من زمن بعيد، وقد تمَّت فصولها في قضية فلسطين، والذي انتبه لهذه العوامل الهدامة من قبل؛ لم يفاجأ بالنتائج، ولم يستغربها.

إني أرى علامة الاستفهام ترتسم على وجوهكم الكريمة، فأقول من غير

www.abulhasanalinadwi.org

تأجيل مزيدٍ ، إنَّ هذه الأسباب تتلخص عندي في ثلاثة وجوه :

١ ـ ضعف الدافع النفسي والباعث الداخلي إلى الاستماتة والتفاني في سبيل العقيدة والمبدأ .

٢ ـ طغيان العقل على العاطفة ، والحذر من المغامرة واقتحام الأخطار .

٣ ـ فقدان الشخصية المركزية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاء كاملاً .

واسمحوا لي الآن بشرح هذه الوجوه بالترتيب :

إن قانون الجاذبية معلومٌ عند الجميع ، هذا القانون الذي يقتضي أن يصل كلُّ جسمٍ إلى مركزه ، ويهبط إلى الأسفل ، ولكننا نرى قوى كثيرة تعارض هذا القانون ، وتثور عليه ، وترفع أجساماً كثيرةً إلى الأعلى ، ولكن ينبغي لنا ألا ننسى أنَّ كلَّ ما نرى خلاف ذلك ، هو لعارضٍ يزول بزواله ، فإذا تركت الأجسام والأثقال وشأنها؛ هبطت إلى مركزها وسقطت ، كذلك النفوس أيها السادة! فطرت على حبِّ الحياة والراحة ، ولا تزال تؤثر الحياة ولا تعدل بها شيئاً ، وهي أسرع إليها من الماء إلى الجحور حتى يأتي قاسرٌ قويٌّ ، فيحولها من مجراها الطبيعي ، فتصبح تؤثر شيئاً أعلى من الحياة على الحياة ، وتؤثر في سبيله المتاعب على الراحة ، والصعوبة على السهولة .

إنَّ حبَّ البقاء والخلود غريزةٌ إنسانيةٌ ، لا تنفكُّ عنها ، ولعلَّها أقوى الغرائز الإنسانية وأوضحها ، وقد فطن لها عدو الإنسان الأقدم ، ورأى أنها أضعف جانب في طبيعة الإنسان ، وضرب على هذا الوتر الحسَّاس ، وقال لأبي البشر ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] وسرعان ما انقاد لها ، واندفع إليها ، وليست المباني التاريخية الخالدة ، والآثار الباقية ، والأهرام الشامخة إلا رمزاً لغريزة حب البقاء والخلود وتجاوباً لها ، كما قال سيدنا هود لأمته : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٢٩] .

إنَّ تاريخ الإنسان ـ أيها السادة! ـ قصَّة الجري وراء الحياة وأسبابها ، وحبُّ البقاء والخلود ، والبحث عن أسباب السعادة والهناء ، والرَّاحة

www.abulhasanalinadwi.org

والرخاء ، وصراعٍ مستمرٍّ ، وكفاحٌ جارٍ في سبيل الاستئثار بها ، والحصول عليها؛ ولكن تتخلّلها فترات ـ قد تطول وقد تقصر ـ نرى فيها الإنسان يندفع إلى غاياتٍ أخرى يهون عليه الموت في سبيلها ، بل يطلبه ، ويجري وراءه ، كما كان يطلب الحياة ويجري وراءها ، ونرى فيها الناس يتهالكون على الموت في سبيل هذه الغايات ، كما يتهافت الفراش على النور ، ويتنافسون في أسبابه ، كما كانوا يتنافسون في الأموال والأولاد.

هذه هي الفترات التي وجدت فيها شخصيات ، مثلت للناس حقائق آمن بها الإنسان كما آمن بالحياة من قبل ، وأحبَّها ، واندفع وراءها ، كما أحبَّ الحياة ، واندفع وراءها ، بل أحبَّها فوق الحياة ، وأكثر من النفس والروح ، والأموال والأولاد ، فاستهان بكل ذلك في سبيل هذه الحقائق؛ ومن المقرَّر: أنَّ الإنسان لا يترك شيئاً إلا لشيءٍ أحبّ إليه منه ، وأعزّ لديه ، فلا يستهين بالحياة ، ولا يضحّي بالمال والولد إلا لشيءٍ أعزّ عليه من الحياة ، وأحبّ إليه من المال والولد.

إنَّ هذه الشخصيات تحدث انقلاباً في اتجاه الطبيعة البشرية ، إنّها توجه غريزة حبّ البقاء والخلود إلىٰ عالمٍ أوسع من هذا العالم الضيق ، وإلى حياةٍ أجدر بهذا الإنسان الطموح من هذه الحياة المقيدة المحدودة ، وتمثل المعاني الروحية والحقائق الغيبية ، فإذا هي أقوى سلطاناً وهيمنةً على النفوس والأرواح من اللذات والشهوات ، وأوضح ، وأثبت من الماديات والمحسوسات ، فتندفع آلافٌ من النفوس البشرية إلى هذه الحقائق ، وهي في طيِّ الغيب ، ووراء الحسِّ والمشاهدة ، بإيمانٍ أقوى من إيمان الماديِّ بالماديات ، وبيقينٍ أشدّ من اليقين الذي يقوم على التجارب والمشاهدات ، وتكون أحرص على الموت في سبيلها من عباد الحياة على الحياة ، هذه هي شخصيات الأنبياء ، وهذه هي فترات النبوة والإيمان في التاريخ الإنسانيِّ ، وهي لمعاتٌ مبعثرة على صفحات التاريخ ، تكتنفها ظلماتٌ كثيفةٌ طويلةٌ.

وأطول هذه الفترات أيها السادة ، وأعمقها أثراً؛ هي الفترة التي انبثقت من بعثة سيدنا محمد العربي ﷺ ، هي الفترة التاريخية التي أحدثت أعظم

www.abulhasanalinadwi.org

تحولٍ في الأذواق والرّغبات ، وأعظم انقلابٍ في الاتجاهات ، تعرّف الناس بغايات أسمى وأعزّ من الحياة ، فاستهانوا بالحياة في سبيل الوصول إلى هذه الغايات ، كما يستهين الإنسان بالخزف والحصى في سبيل الجواهر الغالية ، تعرّف الناس فيها بحياةٍ حقيقيةٍ خالدةٍ ، حياةٍ لا نهاية لها ، ولا حزن فيها ، ورأوا أنَّ الشهادة قنطرة إليها ، فسارعوا إلى عبور هذه القنطرة ، وأحبُّوا كلَّ ما يقرب إليها ، وكرهوا كل ما يباعد منها ، ثملوا بالشوق إلى الجنة والحنين إليها حتى استطالوا الحياة ، واستبطؤوا الشهادة ، يقول الرسول ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فيرمي عمير بن الحمام الأنصاري تمراتٍ كان يأكلهنَّ ، ويقول: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة!» ويقاتل فيقتل ، ويبايع رجلٌ من الأعراب ، ويقول للنبي ﷺ: «اتّبعتك على أن أرمى ها هنا بسهمٍ ـ ويشير إلى حلقه ـ فأموت فأدخل الجنة» ويلحُّ عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، على أن يشهد الحرب فيمنعه بنوه ويريدون أن يكفُّوه ، ويقول له الرسول ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» فيقول: والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة! ويقتل يوم أحد شهيداً .

ويسري هذا الشوق إلى الأحداث ، والغلمان الذين عُرفوا بحبِّ اللهو والراحة ، والفرار من الخطر ، فهذا عمير بن أبي وقاص يتوارى في الصفوف لئلا يراه النَّبيُّ ﷺ فيردّه لصغره ، ويره أخوه الأكبر سعد بن أبي وقاص ، فيقول: مالك يا أخي ، لأيِّ شيءٍ تتوارى؟ فيقول: أخاف أن يردَّني رسول الله ﷺ ، فإني صغيرٌ ، وأنا أحب الخروج لعلَّ الله يرزقني الشهادة ، ويقع ما يخافه عمير ، فيراه الرسول ، فيردُّه لصغره ، وهنا يلجأ الولد إلى الشفيع القديم الذي لا يردُّ الكرام شفاعته ، وهو البكاء ، ويرقُّ له رسول الله ﷺ ، وهو الرقيق الرفيق ، فيأذن له ، ويعلّق له أخوه الأكبر السيف فإذا حمالته أكبر من جسمه ، فيعقد فيه عقدة ، ويقاتل ويقتل شهيداً ، وهذا رافع بن خديج وهو دون الخامسة عشرة من سنه ، يتطاول من شدَّة الشوق ليظنَّ الناس أنَّه كبيرٌ ، قد بلغ سن القتال ، ويردُّه رسول الله ﷺ ، فيشفع له الوالد الذي عُرف من فجر التاريخ الإنسانيِّ

www.abulhasanalinadwi.org

بالحرص على حياة الولد ، والضَّنِّ بها ، يشفع له ، ويزفُّه إلى ميدان القتال بيده ، ويرى ذلك سمرة بن جندب من أتراب رافع ، فيقول: كيف تردُّني يا رسول الله ﷺ؟ وقد أجزت رافعاً ، ولو صارعته لصرعته ، فيأمر رسول الله ﷺ بالمصارعة ، فيصرع سمرةُ رافعاً ، ويسمح لهما بالدخول في صف المجاهدين.

هؤلاء هم الصغار الذين كانوا يتقدَّمون إلى الحرب ، ويتحيَّلون للدخول فيها ، ويتنافسون فيها ، وأنتم أيها السادة المعلِّمون ، ويا رجال التربية تعلمون كيف تستدرجون الصغار إلى المدرسة ، وهي ليست ساحة القتال خصوصاً في هذا العصر الذي حرَّمتم فيه التأديب الجسماني ، والعقاب المؤلم ، فما بال ساحة الحرب ، والولد العربيُّ كان يعرف أنَّ القتال جدٌّ لا هزل ، ولعبٌ بالسيوف والرماح ، لا بالكرات والأعواد ، لقد درستم التاريخ الإنسانيَّ دراسةً واسعةً ، فهل عرفتم في دورٍ من أدواره أمثال هؤلاء الغلمان ، وأمثال أولئك الشيوخ والشباب؟ وهل وجدتم في عصرٍ من عصوره هذا التنافس في القتال ، وهذه الاستهانة بالحياة ، وهذه الجسارة على الموت؟

هذه هي القوة التي انتقلت إلى العرب من تعاليم الرسالة ، فقهروا بها الأمم ، ودوَّخوا بها العالم ، وفتحوا نصف المعمورة في نصف قرن ، وأخضعوا بها أمماً لم تكن لتخضع للقوة الحربية ، فقد أخضعوا بها الرومان ، والفرس ، وهم يفوقونهم ألف مرة في العَدد والعُدَد ، وأخضعوا بها البربر في الغرب ، والترك والأفغان في الشرق ، والزُّطَّ والتكاكرة في السند ، وهي أمم لم تعرف الخضوع من زمنٍ بعيد ، ولم تدن لفاتحٍ من قرون ، وذلك لأنَّ العرب كانوا يقاتلون ، وهمُّهم الشهادة ، وأما أعداؤهم فهمُّهم الحياة ، شتَّان بين من يطلب الموت ، وبين من يطلب الحياة! وبين من يسعى إلى الموت بقدميه ، وبين من يدفعه براحتيه! وبين من يقاتل ليموت ويكرم بالشهادة ، وبين من يدافع ليعيش ، وينعم بالهناء والسعادة! لذلك كان العرب منتصرين في كلِّ معركةٍ ، لأنَّ من لا يبالي بالموت ينتصر دائماً على من يعبد الحياة ، ويقدِّسها ، ويقيِّد نفسه بها.

www.abulhasanalinadwi.org

لقد كان مصدر هذه القوة هو الإيمان أيها السادة! الذي رفع النفوس من حضيض الشهوات والحرص على الحياة ، والعَضِّ عليها بالنواجذ ، والحذر من الموت إلى أوج طلب الشهادة ، والاستهانة بالحياة ، لقد كان هذا الإيمان قد قهر في العرب تلك الطبيعة البشرية التي دائماً تحرص على الحياة ، وتعاف الموت وتنجذب إلى الراحة والسهولة.

انحطَّ العرب مع الزمان في هذه القوة المعنوية التي امتازوا بها عن سائر الأمم ، ودبَّ إليهم داء الأمم من قبلهم: الحرص على الحياة ، والإخلاد إلى الراحة ، والاسترسال إلى الشهوات ، وجنت عليهم المدنية العجمية ، فرزأتهم في فروسيتهم التي اشتهروا بها في الجاهلية والإسلام ، وتركوا حياة البساطة والجلادة التي كانت من كبار أنصارهم على الأمم المريضة المسلولة في القرن السادس المسيحي ، إلى حياة التنعُّم ، والبذخ ، والرقَّة ، وهجمت عليهم في العهد الأخير الحضارةُ الغربية ، وفلسفةُ الحياة المادية فاكتسبوا منها تقديساً للحياة ، وتقديراً زائداً للمادة ، وضعفت بتأثيرها الدَّوافع النفسية إلى المخاطرة بالحياة ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، وما خلف هذا الإيمان شيء يسمو بنفوسهم ، ويربط وحداتهم ، فأصبحوا لا إيمان يشعل قلوبهم ، ولا مبدأ جامع يجمع شملهم ، ولا غاية سامية تقهر شهواتهم ، وحزازاتهم.

أما الأمم المادِّيَّة فإن كانت قد أفلست في الإيمان ، ولكنَّها تعوضت منه مبادىء أخرى ، ومطامح وغايات ملكت عليها مشاعرها ، وتفكيرها ، وقهرت شهواتها ، وتغلبت على نزعاتها الفردية ، ووحَّدت أفرادها ، وجمعت شتاتها ، فأصبحت هذه الأمم تستميت في سبيل هذه المبادىء والغايات ، وتقاتل تحت رايتها ، وتنسى لها أحقادها ، وخلافاتها الداخلية ، وترتفع لأجلها من سفاسف الأمور ، والأنانيات الحقيرة ، والأغـراض الخسيسـة ، وتضحِّـي فـي سبيلهـا بنفـوسهـا ، ونفـائسهـا ، وتسترخص في ذلك كلَّ عزيزٍ وغالٍ ، وأصبحت هذه الغايات والمطامح ـ على علاَّتها ـ إيماناً وعقيدةً لهذه الأمم ، أكسبتها روحاً وقوة معنويةً

www.abulhasanalinadwi.org

جديدةً ، وهذا الإيمان وإن كان لا يقاوم الإيمان العميق الذي يقوم على تعاليم النبوة ، ويتركَّز على فكرة الآخرة ، ويحلُّ في قرارة النفس ، فإنَّه لا محالة ينتصر بقوته ، وجدّته على صورة الإيمان المجردة عن الحياة والروح ، وإنَّ هذه الحياة ، وإن كانت جاهليةً غير مؤسسةٍ على الإيمان والتقوى ، تنتصر بنظامها وتجرُّدها على الحياة التي لا غاية لها ، ولا رسالة ، حياة الأغراض والشهوات ، حياة المنافسات والمنازعات ، حياة المطامع الفردية والطموح الشخصي ، حياة الضغائن والأحقاد حياة العشائر والأفراد ، وليس النصر أيها السادة بالتفوق في الأسلحة والعتاد ، والبراعة في الأساليب الحربية؛ وطرق الدعاية ، إنَّ النصر بالتفوق في الإيمان بالمبادىء والغايات ، وتغلغلها في نفوس المحاربين ، والتضحية في سبيلها ، وفي قوة الدوافع النفسية والبواعث الداخلية إلى الحرب والموت في سبيل المبدأ والعقيدة ، وقد ضعفت هذه الدوافع النفسية إلى الجهاد والتضحية ، وذبلت أصولها في قلوبنا ، وانقطع عنها الغذاء والريُّ من زمان ، فالمهمُّ الأهمُّ هو إيجاد هذه الدوافع ، وتغذيتها ـ إن وجدت ـ مهما كلَّفنا من ثمنٍ ، وتعبٍ . إنَّ ضعف هذه الدوافع النفسية أكبر خطرٍ في حياة الأمة ، وأعظم خسارةٍ لها ، وزوالها كارثةٌ أشدُّ من كارثة الأندلس ، وفلسطين ، فإنَّ وجودها كفيلٌ باسترداد كلِّ ما فقدناه في الماضي والحاضر ـ إذا وجد التوجيه الصحيح والقيادة القويمة ـ أما إذا فقدنا هذه المحركات النفسية القويمة النزيهة التي أوجدها الرسول ﷺ بجهاده الطويل ، وتعاليمه النبوية ، وتربيته الحكيمة ، وشخصيته الفذَّة ، فقد فقدنا رأس المال ، وضيعنا مفتاح الحياة والقوة ، وأصبحنا لا نأمن على الموجود ، فضلاً عن أن نطمع في المفقود .

لا سبيل إلى إيجاد هذه الدوافع في ساحة القتال ، أو في ساعة القتال؛ لأنَّ القتال أوان الحصاد لا الزرع ، فمن لم يزرع لم يحصد ، وقد أهملناها ، وأهملنا أرض القلوب التي تنبت فيها من مدَّةٍ طويلة ، وكان كلُّ اشتغالنا بالعقول والأجسام ، والمظاهر والكماليات ، واسمحوا لي أن أقول بصراحةٍ : إنَّ نظام التعليم عندنا لا يخلو من التبعة والمسؤولية أيضاً ، فإنَّه

www.abulhasanalinadwi.org

ما زال يعتني بالمواد والمعلومات ، أكثر مما يعتني بالمحركات والغايات ، وقد تبين أن تكدس المعلومات ، وتوفر الوسائل والآلات من غير المحركات الصحيحة ، والغايات الرشيدة ، يؤدي بالمجتمع والحضارة نهائياً إلى الانتحار ، وتلك نقطة الضعف في الحضارة الأوربية ، ودواؤها العضال الذي سوف يودي بحياتها ، وأخشى أن تكون نقطة الضعف وسبب الفشل في حياتنا كذلك ، وما فلسطين إلا نذيرٌ لخطرٍ شديد إذا لم يتدارك.

وأتحدث إليكم الآن أيها السادة عن النقطة الثانية ، وهي جناية العقل على العاطفة.

لا يستطيع أحدٌ أن يقلِّل من قيمة العقل ، وأن ينكر فضله ، وأن يعارض الرويَّة والأناة في قضايا الأفراد ، فضلاً عن الأمم ، ولكن مع كلٍّ احترامي للعقل واعترافي بما له من فضل: أتجاسر ، وأقول: لا بدَّ لكلِّ أمةٍ من مغامر ، ومخاطراتٍ في بعض الأحيان ، وألا تعتمد على العقل وحده ، فإنَّ العقل ـ ومعذرتي إلى العقلاء ـ عرف من قديم الزمان بالتثبيط ، والتخويف ، والتأجيل ، فكم ثبَّط أقواماً عن المعالي ، وكم فعل فعل المكبرة في تضخيم الأخطار ، وكم أجَّل الفتح والظفر ، وكم ضيّع الفرص ، وفوَّت المغانم ، إنَّ القلب له أن يستشير العقل ، ويستعين به ، ولكن يحسن في بعض الأحيان أن يستبدَّ بالأمر ، ويتملَّك الزمام ، فلا خير في قلب لا يثور أبداً ، ولا يستبدُّ ، وقديماً قال الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد.

إذا نظرنا في تاريخ العالم ، رأينا أنَّ أكثر الفتوح والوقائع العظيمة التي لا تزال موضع العجب ، يرجع الفضل فيها إلى العاطفة ، وروح المغامرة ، وأنَّ جلال هذا التاريخ الذي يملأ قلوبنا إيماناً ، وحماسةً ، ومهابةً ، من هذه المغامرات ، لو تجرد تاريخنا عنها ، لكان بكتابٍ رياضيٍّ أشبه منه بكتاب تاريخ.

إنَّ العاطفة التي تستمدُّ قوتها من الإيمان ، تبتدىء حيث ينتهي العقل ، وتفعل ما يعجز عنه العقل ، وإنَّ العقل يتهمها بالجنون ، والجهل ،

www.abulhasanalinadwi.org

والتهوُّر ، ولكنَّـها خدمت العقل مراراً ، وأحسنت إلى العلم والحضارة أحياناً كثيرة ، فكم أغاثت العقل وهو ملهوفٌ ، وكم حرّرته وهو أسيرٌ ، وكم انتصرت له وهو مظلومٌ ، وكم أقامت دولة العلم ، وكم حمت الحضارة وأنقذتها من براثن الوحوش والهمج .

إنَّ صاحب الإيمان القويِّ يمضي ، ويغامر ، وينفذ إرادته ، ويقوم العقل القاصر معوقاً موهياً ، منذراً بسوء العاقبة ، فإذا نجح المؤمن في مغامرته وعاد منها ظافراً منتصراً ، عاد العقل ، فبرَّر فعله ، وأقام ألف دليل على صحته .

إنكم لا تنسون العهد الإسلامي الأول ، انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقام أبو بكر الصديق بالخلافة ، وعظم الخطب ، واشتدَّ الحال ، ونجم النفاق بالمدينة ، وارتدَّ من ارتدَّ من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون عن أداء الزكاة إلى الصِّدِّيق ، ولم يبق للجمعة مقامٌ في بلد سوى مكة والمدينة ، وأصبح المسلمون كما يقول عروة بن الزبير كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ ، وقلَّتهم ، وكثرة عدوهم ، وأراد أبو بكر رضي الله تعالى عنه ـ والحال هذه ـ أن يبعث جيش أسامة إلى الشام ، تنفيذاً لرغبة رسول الله ﷺ ووصيَّته ، هنالك قام العقل معارضاً ، وقال : لا ، ليس من الرأي إقصاء هذا الجيش المنظم الوحيد ، وعاصمة الإسلام بارزةٌ للعدوِّ ، وعرضةٌ للغزو والنهب ، وقام أهل الرأي يقولون : إنَّ هؤلاء من المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين! وأبى أبو بكر إلا أن يجهِّز الجيش ، وقال : والذي نفس أبي بكر بيده! لو ظننت أنَّ السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة ، كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته .

وكان ما أراد أبو بكر ، وخرج أسامة بجيشه ، والعقل مقطِّبٌ جبينه ، عاضٌّ بنانه ، فلما رجع أسامة ظافراً منتصراً ، وكان لخروجه أحسن الوقع ، غيَّر العقل موقفه ، وها هو ذا يقول الآن في التاريخ : «كان خروج أسامه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فساروا لا يمرُّون بحيٍّ من

www.abulhasanalinadwi.org

أحياء العرب إلّا أرعبوا منهم ، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قومٍ إلا وهم منعةٌ شديدةٌ ، فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا يريدون أن يفعلوه»[١].

إنَّ تاريخ العرب أيها السادة حافلٌ بالمغامرات ، ولعلَّ العرب أكثر الأمم مغامرةً ، وإنَّ هذه المغامرات لها فضلٌ في بناء هذه الحضارة التي نعم في ظلها العقل ، والعلم ، والإنسانية.

ومن أعظم هذه المغامرات وأشدِّها خطراً في تاريخ الحروب سفر خالد بن الوليد بجيش كبيرٍ من العراق إلى الشام ، وقطعه لهذه المسافة الشاسعة المخوفة في خمسة أيام ، قال المؤرخون: كتب الصديق قبل اليرموك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق ، وأن يقفل بمن معه إلى الشام ، فسار مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمئة ، ودليله رافع بن عميرة الطَّائيُّ ، وسلك به أراضي لم يسلكها قبله أحد ، واجتاب البراري والقفار ، وقطع الأودية وتصعد على الجبال ، وسار في غير مهيعٍ[٢] وفي مفاوز معطشة ، فلما فقدوا الماء نحروا النوق ، فشربوا ما في أجوافها من الماء ، وسقى الخيل ، ووصل في خمسة أيام.

ولا يزال اقتحام سعد بن أبي وقاص بالجيش الإسلامي في دجلة من أعظم المغامرات في تاريخ العالم ، قال المؤرخون: وقف سعد أمام المدائن ، ولم يجد شيئاً من السفن ، وتعذَّر عليه تحصيل شيءٍ منها بالكلية ، وقد زادت دجلة زيادةً عظيمة ، واسودَّ ماؤها ورمت بالزبد من كثرة الماء بها ، فخطب سعد الناس على الشاطىء وقال: ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم! قالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، ثم اقتحم بفرسه دجلة ، واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد ، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، حتى ملؤوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان ، والرجالة ، وجعل الناس يتحدَّثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، فلما رآهم الفرس يطفون على

---

(١) البداية والنهاية ـ الكامل لابن الأثير.

(٢) المهيع: الطريق الواسع البيِّن (ج) مهايع.

www.abulhasanalinadwi.org

وجه الماء قالوا: «ديوانه ديوانه» يقولون: مجانين مجانين، ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً، بل تقاتلون جنّاً!(١).

ومن هذه المغامرات العظيمة ما فعله طارق بن زياد فاتح الأندلس. قال المؤرخون: لمّا نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت فجاءه رجالٌ من الجيش، ولاموه على فعله وقالوا له: لقد قطعت بنا الجبال، فكيف نرجع إلى بلادنا؟ إنَّ عملك لا يُقرّه العقل، ولا يتفق مع الحكمة! قالوا: فضحك طارق، ووضع يده على السَّيف، وقال: إنما يحافظ على السفن ووسائل النقل والسَّلامة من يفكر في الرجوع، أما أنا فقد عزمت على البقاء في هذا البلد، والقتال إلى أن يكون لنا وطناً، أو يكون لنا مدفناً، وكانت مغامرته هذه من أكبر أسباب الظفر، فقد استطاع بعد إحراق السفن أن يقول: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر!». فأثار ذلك فيهم روح الجهاد والاستماتة، وكان النصر؛ وعلى أساس هذه المغامرة التي نظر إليها العقل شزراً قامت دولة العقل والعلم، وقامت تلك المدنية الزاهرة التي كانت مفخرة العرب، ومدرسة الغرب.

هذا ومغامرة عبد الرحمن الداخل صقر قريش بالدخول في الأندلس، ومغامرات الرشيد في الصائفات، وسفره الشهير من بغداد إلى هرقلية في أشدِّ أيام البرد، وتأديبه نقفور، وغزوات المعتصم في بلاد الروم، معروفةٌ في التاريخ، وما يوم حليمة بسرٍّ.

هذه هي روح المغامرة التي امتاز بها العرب في عهدهم الأول عن الأمم التي فقدتها، وقعد بها الإسراف في التفكير والحذر من المخاوف، فجبنت وذلَّت، وفقدت مُلكها، وشرفها، واكتسحتها الفتوح العربية، وعصفت بها، فأصبحت أثراً بعد عين، وعاد العرب في العهد الأخير، فتسلط عليهم العقل المثبّط والعلم المعوِّق، وأحجموا عن الإقدام والاقتحام، وبالعكس تعلم غيرهم كيف يخاطرون بحياتهم، وكيف ينتهزون الفرص،

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦.

www.abulhasanalinadwi.org

وتاريخ الحروب الأخيرة في أوربا ، وتاريخ الاحتلال الأوربي في الشرق في القرن التاسع عشر حافلٌ بالمغامرات والخطوات الجريئة ، والإقدامات السريعة ، ولا يغير هذه الأوضاع القائمة في الشرق العربي إلا أن يربي العرب فيهم ـ مع الحكمة التي لا بدَّ منها ـ روح المغامرة الأولى ، وسرعة التنفيذ ، وجرأة الإقدام ، ويعملوا بقول شاعرهم الذي يقول:

إذا هـمَّ ألقـى بيـن عينيـه عـزمـه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

إنَّ قضية فلسطين سهلةٌ هيِّنةٌ ، وانتصار العرب مضمونٌ؛ إذا كانوا أحراراً في تصرُّفهم ، مالكين لزمامهم ، مدبِّرين لسياستهم ، مغامرين بأرواحهم وجنودهم ، محكمين لسيفهم وسنانهم ، واثقين بنصر الله ، معتمدين على سواعدهم فقط ، متمردين عن المادة والشهوات ، مصمِّمين على الكفاح والجهاد.

وبقيت النقطة الأخيرة ، وهي النقطة الحسَّاسة في قضايانا الملتوية ومشاكلنا المتعقدة ، وهي فقدان الشخصية التي تملك القضية عليها مشاعرها وتفكيرها ، وتصبح همَّها الشاغل ، وتستولي عليها استيلاءً كاملاً.

لقد تتبعت أيها السادة! التاريخ ، واستعرضت المواقف الحاسمة ، والساعات العصيبة في تاريخ الأمة ، وفي التاريخ العام؛ فرأيت على رأس كلِّ قضيةٍ منها ، وفي كلِّ أزمةٍ ، ومحنةٍ تتهدد كيان هذه الأمة ، وتتحدَّى شرفها ، وكرامتها رجلاً من العصاميين يستولي على قلبه الحزن ، والاهتمام بهذه الحالة ، فيذهل عن نفسه ، وأهله ، ويهجر راحته ، ولذَّته ، وتتلخَّص الحياة عنده في حلِّ هذه الأزمة ، وفضِّ هذه المشكلة ، فلا يقرُّ له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى تنجلي هذه الغمرة ، ويرى نفسه مكلفاً بذلك ، فقد خلق له ، وأمر به ، ولا يرى لنفسه عذراً في الاعتزال والانصراف إلى النفس والعيال ، وإليكم بعض الأمثلة عن تاريخنا.

لقد علمتم ما أصاب المسلمين على إثر وفاة الرسول ﷺ من المحن ، فقد أصيبوا بما لم تصب به أمَّـةٌ أو جماعةٌ في فجر حياتها ، وأشرفت الدعوة

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامية على الضياع ، حسبكم قول عروة بن الزبير : إنَّ المسلمين كانوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد قيّض لهذه المحنة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقام قيام الأنبياء ، وليس بنبيٍّ ، وركز فكره ، وهمَّه على حراسة هذا التراث العظيم ، وردَّ الأمر إلى نصابه ، وأفرغ روحه في ذلك ، وملكته هذه الفكرة حتى نسي نفسه ، وكلَّ ما عدا ذلك ، وكان رجلاً غير الرجل ، لقد عرف بالرفق الزائد ، وإيثار جانب اللين دائماً على جانب الشدَّة والعنف ، فتصلَّب ، وخشن في هذه المرَّة ، حتى فاق في ذلك عمر بن الخطاب المعروف بالشدَّة والصلابة؛ لأنَّ الموقف يطلب ذلك ، رأى أبو بكر أنه القائم على هذه الأمانة العظيمة ، والمسؤول عنها ، ففاضت على شفتيه تلك الكلمة البليغة المأثورة التي تمثل نفسيته ، وشعوره خير تمثيل «أينُقصُ الدين وأنا حيٌّ؟» وبهذه الغيرة الملتهبة ، والقلب المتألم ، والنفس الأبيَّة ، استطاع أبو بكر أن يحفظ هذا الدين ويورثه الأجيال القادمة كاملاً غير منقوص. قالت عائشة رضي الله عنها: «لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة ، واشرأب النفاق ، والله لقد نزل بأبي مالو نزل بالجبال الراسيات لهاضها! وصار أصحاب محمد ﷺ كأنَّهم معزىً مطيرةٌ في حشٍّ في ليلةٍ مطيرةٍ بأرضٍ مسبعةٍ. فوالله ما اختلفوا في نقطةٍ إلاَّ طار أبي بخطمها وعنانها وفصلها» لذلك يقول أبو هريرة بحقٍّ: «والله الذي لا إله إلا هو ، لولا أنَّ أبا بكر استُخلِف ما عُبد الله!» قالها ثلاثاً.

وأضرب لكم مثلاً ثانياً من أوساط الناس نعرفهم كملوكٍ ، ورجال دنيا: تدفقت الجيوش الصليبية من أوروبا ، واكتسحت فلسطين بما فيها من إماراتٍ ، ومقدساتٍ ، وكانت كالجراد المنتشر ، ولم يقف في طريقها ملكٌ ، ولا جيشٌ ، وعجزت الحكومات الإسلامية عن مقاومتها ، فاستولت على البلاد ، والعباد ، وهدَّدت هذه الأمة العظيمة وحضارتها ، وكان الخطب جسيماً ، ووقف العالم الإسلاميُّ على مفترق الطرق ، فلو جرت الأمور إلى مجاريها لكان فريسة الاحتلال والاستعمار في القرن السادس كما كان في القرن التاسع عشر ، وكان الأمر أعظم من أن يقوم له

www.abulhasanalinadwi.org

ملوكٌ وقوادٌ ، ويكون الدفاع عن القدس واستقلال العالم الإسلامي ، بعض همومهم أو من هوامش حياتهم. إنَّما كان ينبغي له رجلٌ يكون الأمر كلَّ همه. كان ذلك الرجل السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي اختاره الله لهذه المهمَّة ، وهيَّأ هو نفسه لها. فقد حكى عنه صاحبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شدَّاد المتوفى سنة ٦٣٢هـ أنَّه تاب عن المحرمات ، وترك الملذات ، ورأى أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقه لأمرٍ عظيمٍ لا يتفق معه اللهو والترف.

قام صلاح الدين للدِّفاع عن فلسطين ، وردِّ الغارة الصليبية ، وركَّز فكره عليه ، وتفرَّغ له ، واستولت عليه هذه الفكرة استيلاءً تامّاً حتى لم تدع لغيرها موضعاً. وإليكم ما قاله ابن شدَّاد في سيرته:

«ولقد كان حبُّه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه ، ولا نظرٌ إلا في آلته ، ولا كان له اهتمامٌ إلا برجاله ، ولا ميلٌ إلا إلى من يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله ، وأولاده ، ووطنه ، وسكنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدُّنيا بالسكون في ظل خيمته ، تهبُّ بها الرياح ميمنةً ، وميسرةً ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثه على الجهاد»(١).

وقد حمل السلطان همَّ القدس ، فأخذ منه كلَّ مأخذٍ ، وحلَّ في قرارة نفسه. قال ابن شدَّاد: «وكان رحمه الله عنده من القدس أمرٌ عظيم لا تحمله الجبال»(٢). ومهما حاولت أيها السادة أن أصف هذا الهم الذي استولى على صلاح الدين ، وأصوّرَ ما كان فيه من قلقٍ ، وإزعاج دائم ، وشدَّة اهتمام باسترداد البلاد ، وتحرير القدس وردِّ الأوربيين على أعقابها ، لا أستطيع أنَّ أزيد على وصف ابن شداد له بالوالدة الثكلى ، ولا أستطيع أن آتي بتعبير أبلغ وأدقَّ من هذا ، ويقول رحمه الله في وقعة عكَّا:

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٦ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

«وهو ـ السلطان ـ كالوالدة الثكلى ، يجول بفرسه من طلب إلى طلبٍ ، ويحثُّ الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي بالإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع. وكلّما نظر إلى عكّا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم؛ اشتدَّ في الزحف ، والحثّ على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروبٍ كان يشير بها الطبيب»[١] . ويقول في فتح الطريق إلى عكّا :

«والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ، ويكافحها بذاته لا يتخلَّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة مرضه ، ووفور همَّته كالوالدة الثكلى ، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنَّه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه»[٢] .

وقال في ذكر الواقعة العادلية :

«لقد رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفرٌ يسير من خواصِّه والناس لم يتمَّ ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها»[٣] .

بهذا الهمِّ الشاغل ، والنفس القلقة ، والقلب المنزعج ، استطاع صلاح الدين أن يكمل مهمَّته ، ويكتسب الفتح المبين في معركة حطِّين. وما كان اجتماع الجيوش عنده ، والتفات الأمراء ، إلا صدىً لقلبه الخفاق ، وإيمانه الفيّاض ، وصدره الجائش ، وروحه الملتهبة ، ولا ترون انتصاراً باهراً في التاريخ ، ومعركةً حاسمةً ، إلا من ورائها قلبٌ يخفق ، وعرقٌ ينبض ، وليثٌ يثور ، وشجاعٌ يغضب.

إنَّ موضع الضعف في جهادنا أنَّنا لا نجد في الشعوب العربية

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٥٥ .
(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٩٥ .
(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١١٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

والحكومات والأفراد ، من يتبنَّى هذه القضية ، ويتجرَّدها تجرُّد رجلٍ مَرِض وحيدُه ، أو قامت عليه قضية ، فإذا تهاون في الدفاع عوقب عقاباً شديداً ، وعلامة ذلك أيها السادة! وجود هذه الحزازات ، والنزاعات ، والمنافسات بين الحكومات ، والأحزاب ، والأفراد؛ ومعركة فلسطين قائمةٌ ، والعدوُّ بالمرصاد ، فهل سمعتم بأسرة يمرض عزيزها ، أو عميدها ، ويشتدُّ به المرض ، ويتعرض للموت ، ورجال هذه الأسرة من إخوةٍ ، وأعمامٍ ، وأخوالٍ يتنازعون في العمادة ، أو السيادة ، ويتشاغلون بذلك عن علاجه وتمريضه. إن دلت هذه الظاهرة على شيءٍ فإنَّها تدلُّ على عدم تعلق قلوبهم بالمريض ، أو موت الإنسانية فيهم . إنَّ مسؤولية فلسطين قد قسمت على شعوب كثيرة ، ولكن لا يرى شعبٌ أنه أولى بهذه القضية من غيره؛ مع أنها قضية الجميع ، وكلُّ بلد عربيٍّ في خطرٍ إذا قصر فيها ، أو تهاون ، ثم إنَّ الديمقراطية قسمت المسؤولية على الشعب كلِّه ، ولكن إذا لم يضطلع بها أحدٌ فهي ضائعةٌ بين أفراد الشعب والرؤساء ، لا يرى أحد نفسه مسؤولاً عنها ، ولا يراها قضيته الشخصية.

ولكن مهما كان؛ فلا داعي إلى اليأس ، ولا محلَّ للتشاؤم ، فالنَّبع الذي تنبع منه الدوافع النفسية ، والبواعث الداخلية ـ وهو الإيمان ـ لم ينضب في صدر الأمة ، ويمكن إثارته في كلِّ وقتٍ ، وإنَّ العاطفة التي تبعث على المغامرات لا تزال قويةً تنتظر الانطلاق ، وإنَّ الأمة لم تصب بالعقم ، وقد أنجبت في كلِّ محنةٍ وأزمةٍ أفراداً واجهوا المشكلة وجاؤوا بالعجب العجاب ، وعسى أن تكون فلسطين سبب بعثٍ جديدٍ لهذه الأمة ، ويقظةٍ عامَّةٍ للشرق العربي.

وأنا أختم حديثي هذا أيها السادة! بترجمة أبياتٍ لشاعرنا العظيم الدكتور محمد إقبال؛ الذي يقول:

«إذا رأيت النجوم شاحبةً منكدرةً تخفق؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، ها هي ذي الشمس قد ذرَّ قرنها من الأفق ، وولى الليل على أدباره ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنما تكون اللآلىء في البحر

www.abulhasanalinadwi.org

المتلاطم الهائج ، لقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابن سينا والفارابي ، إنَّ إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة فإنها إذا سقيت أتت بحاملٍ كبير» .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلاميّ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في المؤتمر الإسلامي في دمشق في ٢٦ يونيو ١٩٥٦م حضره الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وعددٌ وجيهٌ من كبار العلماء وقادة الفكر من أنحاء العالم الإسلامي .

www.abulhasanalinadwi.org

أيها السادة! يسعدني ، ويشرّفني أن أتحدث عن مثل قضية فلسطين في مثل هذا المكان ، أتحدَّث عن هذه القضية إلى الصفوة المختارة من العالم الإسلامي الذي اجتمعت للتفكير فيها ، واتخاذ الخطوات السريعة الحاسمة في شأنها ، وإني أخاطب في شخصكم الكريم العالم الإسلامي ، وعقله الواعي ، وقلبه النابض ، فاسمحوا لي بالصِّدق ، والصَّراحة ، والإيجاز.

إننا اعتمدنا في حلِّ مشكلة فلسطين على العالم الإسلامي ، والوعي الإسلامي أكثر مما اعتمدنا على الحكومات ، والجيوش والأسلحة ، ولو ذهبت أنقل ما قاله القادة والمفكرون ، وما كتبوه في هذه الناحية لملأ الأسفار ، وهذا موقفٌ ليشرفنا ، ويبيِّض وجوهنا ، ويرفع رؤوسنا ، فإنَّ الاعتماد على الشعوب والجماهير ، وإنَّ الاعتماد على الوعي العالمي ، والشعور اليقظ لم يزل من شأن القضايا العادلة ، ومن شأن المظلوم السليب الذي غمط حقه ، من شأن المظلوم الذي يؤمن بأنَّه على حق ، ويؤمن بأنَّ الحقَّ لا يعدم ـ في دورٍ من أدوار التاريخ ـ من يعترف به ، ويغضب له ، وينتصر لصاحبه ، فكان هذا الاعتماد إيماناً بالضمير الإنساني ، وإيماناً بالضمير الإسلامي ، وكان إيماناً بأنَّ فلسطين ـ القبلة الأولى ومسرى الرسول ﷺ ـ ليست لأهل فلسطين ، ولا للعرب فحسب ، بل للمسلمين جميعاً والعالم الإسلامي بأجمعه ، وأنَّ العالم الإسلامي الذي يمتد من جزر المحيط الهندي إلى مراكش ، وتكوِّنه مجموعةٌ تكاد تكون أكبر مجموعة بشرية ، تلتقي على عقيدةٍ واحدةٍ ، ورسالةٍ واحدة ، لخليقٌ والله! وجدير كلَّ الجدارة بأن يعوَّل عليه ، ويرجع إليه في حلِّ كلِّ مشكلة من مشكلات النوع الإنساني ، وردِّ كلِّ عدوانٍ عن أيِّ أمَّةٍ من الأمم ، واسترداد كلِّ حقٍّ مغتصب ، والانتصاف من كلِّ ظالمٍ عاتٍ عنيد ، فضلاً عن مشكلةٍ واحدةٍ كمشكلة فلسطين ، فلا عجب إذاً أيها السادة! إذا اعتمدنا على هذا العالم

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلاميِّ في حلِّ مشكلة فلسطين ، وهي مشكلته ، وفي استرداد فلسطين ، وهي حقُّه .

ولكن اسمحوا لي أيها السادة أن أسأل : ماذا تعنون بالعالم الإسلاميِّ؟ أتعنون به : مجموعة بشرية ، تسكن في ساحةٍ واسعة ، وتعيش كما تعيش الأمم ، من غير عقيدةٍ وخلقٍ وعملٍ؟ إني أجلِّكم وأربأ بعقولكم الناضجة عن هذا التفكير ، فما صلة قضية فلسطين ـ وهي قضيةٌ تقوم على العقيدة والشعور والعاطفة ـ بهذه القطعان البشرية التي تعيش بغير عقيدةٍ ، وغايةٍ ، ورسالةٍ ، وما غناؤها في حلِّ مشكلةٍ ، كمشكلة فلسطين؟!

إنِّي أسبقكم وأقول لسادتكم : إننا إذا اعتمدنا على العالم الإسلامي ؛ فقد اعتمدنا على تلك القوة الكامنة في نفوس هذه الأمَّة العظيمة التي تسكن في هذه المنطقة ، هذه القوة الكامنة التي صنعت المعجزات في الماضي ، وجديرةٌ بأن تصنعها في الحاضر ، هذه القوة التي انتزعت هذه البلاد كلَّها من أيدي الروم الظالمين ، وأفاضت عليها حياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، وضمنت لها أقداساً جديدة إلى قدسها القديم ، هذه القوة التي لم تعرف الحور ، ولم تعرف الهزيمة ، ولم تفهم لغة الأرقام ، ومنطق الأسباب والعدد ، هذه القوة التي لا أجد لها تعبيراً في لغات البشر جمعاء أبلغ من (الإيمان) .

إنَّ هذا الإيمان وما ينتجه من أسلوبٍ للحياة ، ونوعٍ من الأخلاق ، هو سمة هذا العالم الإسلامي ، وقوته ، وسلاحه ، وهو القوى الكبرى التي اكتشفها البشر ، وعرفها التاريخ ، وهو القوة الكبرى التي اكتشفها البشر ، وعرفها التاريخ ، وهو القوة التي تخلق الحكومات ، وتخلق الأمم ، وهو كالمفتاح لكلِّ قفل من أقفال الحياة البشرية ، فإذا اعتمدتم عليه ؛ فقد اعتمدتم على أكبر قوةٍ يملكها الإنسان ، وإذا وجدتموه؛ فقد ملكتم المفتاح الذي تفتحون به كلَّ قفل .

فهل استعرضتم العالم الإسلاميَّ الذي تعتمدون عليه في حلِّ هذه المشكلة؟ وهل استعرضتم أيها السادة! قوة الإيمان والوعي الإسلامي التي

www.abulhasanalinadwi.org

تعتمدون عليها في تمكُّن العالم الإسلامي من حلِّ هذه المشكلة؟ وهل تعرفون ما جدَّ فيه من حوادث، وتطورات، وما فعلت به العوامل القوية في الزمن الأخير؟.

إني أخاف ـ ومعذرتي من هذه الصَّراحة، ومن هذه المرارة ـ أنكم تتصورون عالماً إسلامياً يعيش في التاريخ أكثر مما يعيش في واقع الحياة، ذلك العالم الجميل الرائع الغيور الذي لا يظلم، ولا يسمح بالظلم في أيِّ مكان، ذلك العالم الذي لا يأخذ حقَّ غيره، ولا يتنازل عن حقِّه، ذلك العالم الذي إذا نادت في ناحيةٍ منه عجوزٌ: وامعتصماه! أجاب المعتصم في ناحية أخرى: لبيك! هذا العالم الذي كان يعتبر كلَّ فردٍ منه نفسه مسؤولاً عن كلِّ شبرٍ من أشبار هذا العالم الواسع، ويرى هذا العالم الإسلامي على سعته وطناً واحداً، ويرى هذه الأمة جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى، ذلك العالم الذي كان كلُّ فردٍ من أفراده يحنُّ إلى الشهادة في سبيل الله، كما يحن الواحد إلى الحياة.

هذا العالم ـ أيها السادة! ـ لا تقع فيه كارثةٌ ككارثة فلسطين، وإذا وقعت؛ فإنها تعالج في أقصر وقت، وأقرب مدَّة.

أما العالم الإسلامي اليوم فلا تؤاخذوني إذا قلت: إنه فقد ـ على حين غفلة من الدعاة والمربين ـ شيئاً كثيراً من معنوياته والعناصر التي تكوِّن شخصيته، هي الإيمان بالغيب، إيماناً يفوق إيمان الماديين، وإيثار آجل الآخرة على عاجل الدنيا، والاستهانة بزخارف الدنيا ومتعها، والاستقامة على الحقِّ والتفاني في سبيله، والحمية الدِّينية، فكانت هذه النكسة في النفس هي السبب الحقيقي للنكسة الفظيعة التي واجهها العالم الإسلامي في جميع ميادين الحياة، وسبب كلِّ النكبات التي نكب بها في العصور الأخيرة.

لقد مزقتنا حوادث العصر الأخير، ونحن نتصور ذلك العالم الإسلامي الذي كان يعيش في القرون الأولى، أو يعيش في أذهاننا، وتصوراتنا، فلجأنا إلى ذلك العالم نطلب فيه الحل لهذه المشكلات الطريفة، ونستمدُّ

www.abulhasanalinadwi.org

منه القوة والزاد ، فإذا بنا نفاجأ بدم جديد لا عهد لنا به ، ولا غناء لنا فيه في هذه المشكلات ، وفي هذه النكبات ، فكانت مفاجأةً أليمة تهزّ مشاعرنا وتبخِّر آمالنا ، واسمحوا لي أيها السادة! أن أنقل ما كتبته قبل عدة سنوات في هذه الموضوع ، ولا أرى أنه يحتاج إلى تعديل.

«لقد أتى على العالم الإسلامي حينٌ من الدهر ، وهو مستخفٌ بهذه القوة المعنوية ، ولا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامي المعارك التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر ، والثبات ، وتحمُّل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسرابٍ بقيعةٍ ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنَّه جنى على نفسه جنايةً عظيمةً بإهمال هذه القوى الرُّوحية ، وتضييعها ، وبحث في جعبته ، فلم يجد شيئاً ليسدَّ مكانها ، ويغني غناءها.

وخاض العالم الإسلامي معارك حاسمةً ، وهو يرى أنَّ المسلمين لا بدَّ أن يُهرعوا للدفاع عن الإسلام ، وحماية بلادهم المقدسة ، وسيغضبون لله ولرسوله وحرماته ، وأنَّ الأقطار الإسلامية ستشتعل ناراً ، وتتوقَّد حميَّةً وحماساً ، فإذا الحادث لم يؤثر في المسلمين التأثير المنتظر ، وإذا النصر ضئيل ، والسخط خافت ، وإذا المسلمون كعادتهم في غدواتهم ، وروحاتهم منهمكين في لذاتهم وشهواتهم ، كأن لم يحدث كبير شيءٍ ، فعرف أنَّ الحمية الدينية قد ضعفت في المسلمين ، وأنَّ شعلة الجهاد قد انطفأت ، أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي ، وخذلانه ، وهوانه على أنفسهم».

وبعد ذلك أقول: إن العالم الإسلامي على ضعفه وانحرافه مستعدٌّ كلَّ الاستعداد ، ليكون ذلك العالم الإسلامي السليم القوي الدافق بالحياة الذي يصح الاعتماد عليه في حل المشكلات الإنسانية كلِّها ، فضلاً عن مشكلةٍ واحدةٍ ، ولو كانت ضخمةً معقدة ، كمشكلة فلسطين.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّه مستعدٌّ ليكون ذلك ، لأنَّه لا يزال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنبوَّة المحمدية ، على صاحبها الصلاة والتحيَّة ، إنَّه لا يزال متصلاً بمنبع الحياة والقوة ، ومصدر النور والفيض ، إنَّه ليس كالأمم والمجتمعات البشرية التي انقطعت صلتها عن النبوات ، ورسالات السماء ، إنَّه إذا ذكِّر ؛ ذكر ، وإذا نبه ؛ انتبه .

هذا العالم الإسلامي ـ أيها السادة! ـ في حاجةٍ إلى بعثٍ جديدٍ في العقيدة والإيمان ، والأخلاق ، والأعمال ، وبتعبيرٍ أدقَّ ، إنه ليس في حاجة إلى دينٍ جديد ، ولكنه في حاجة إلى إيمان جديدٍ بالحقائق الخالدة ، والعقائد الخالدة ، والرسالة الخالدة ، والدين الخالد ، وأنا أحمي سمعي ، وبصري ، ولساني ، وقلمي من أسمِّيه القديم ، فإنَّ الدين ليس فيه قديم ولا جديد ، إنه دينٌ واحدٌ ، وإنه دينٌ خالد ، ولكنِّي ألحُّ على أن أسمِّي الإيمان جديداً ، إنَّ من الإيمان ما هو قديم ، وإنَّ من الإيمان ما هو جديد ، إنَّ قوة الرعيل الأول ، والطراز المتقدم من هذه الأمَّة ، في أنَّه كان يحمل إيماناً جديداً ، فعجز الإيمان القديم الضعيف البالي الذي كانت تحمله بعض الأمم عن مقاومته ، وعجز العالم القديم الشائب عن مقاومته ، وكان كالشمس الجديدة التي تطلع على العالم ، فتسطع على كلِّ شيءٍ ، وتبهر كلَّ شيءٍ .

إنَّه قد جدَّت فتنٌ ، وجدَّت خطوب ، وجدَّت معارك فيتجدد الإيمان .

إنَّ هذا العالم الإسلامي يملك أعظم ثروة من الإيمان ، ولكنها ثروة دفينة تحتاج إلى إثارةٍ ، واستثمار .

إن الأسس التي تبنى عليها الحياة لا تزال موجودةً في هذه الأمة حين فقدتها الأمم الأخرى ، وضيعتها ، وهي أسس الإيمان ، فليبن عليها البناؤون ، وليقم عليها صرح الإسلام من جديد .

إذاً فالعالم الإسلامي في حاجةٍ إلى تجديد الإيمان ، الإيمان بالله ، والإيمان بالرسالة ، والإيمان باليوم الآخر ، إيماناً حقيقياً ، لا صورياً ، فإذا تحرَّك هذا الإيمان في النفوس ، وتحوَّل من الصورة إلى الحقيقة ،

www.abulhasanalinadwi.org

وشمل الحياة كلَّها ، انحلت كلُّ مشكلةٍ ، وتفتَّح كل قفل.

إنَّ العالم الإسلامي لا يزال مجهولاً ، والناس في هذا الجهل طبقات ، فمنهم من يكون له في نفسه صورةٌ يعيش فيها ، إنه يبالغ في حسن الظنِّ به ، فيحمله ما لا يحمل ، ويطلب منه ما لا يملك ، إنَّه يرجو الثمرة من غير أن يعتني بالشجرة ، إنَّه يُهمل جانب الإيمان وجانب العقيدة ، ولكنه يُطلب منه أفعال المؤمنين الصادقين ، ويُتوقع منه أن يظهر منه ما ظهر من الجيل الإسلامي الأول ، وتلاميذ مدرسة الرسول الأعظم ﷺ من روائع البطولة ، وخوارق الجهاد.

ومنهم من يجهل طبيعته ، وعقيدته ، وتاريخه ، والقوى المودعة فيه ، والكنوز المدفونة في أرضه ، فيعامله معاملة أمَّة لا تدين بدين ، ولا تؤمن برسول ، ولا تحمل كتاباً ، فيعالج مشكلاته ، كما تعالج مشكلات أمةٍ جاهلية ، ويلتجىء في حلِّ مشكلاته ، وفتح أقفاله ، وعقده إلى كلِّ وسيلةٍ ، إلا الدين والعقيدة ، وإثارة الإيمان فيه ، فكلاهما في تعبٍ وصراع.

والواقع أنَّ العالم الإسلامي اليوم ليس في إيمانه ، وصلته بالله كالعالم الإسلامي في العصر الأول ، فلا نطلب منه ما يصدر عن إيمانٍ عميق ، متغلغلٍ في الأحشاء ، وليس ـ على علاَّته ـ كالأمم الجاهلية ، فتعالج مشكلاته بطرق مادية ، ووسائل صناعية ، إنَّه مؤمن ولكن إيمانه يحتاج إلى تجديد ، وإلى إثارةٍ وتحريكٍ ، وإلى تنظيم.

إنَّ قضية فلسطين كانت سبب الاتصال بهذا العالم الإسلاميِّ ، وكانت سبب الاطلاع على العالم الإسلاميِّ ، ولا أكون مجازفاً إذا قلت : إنَّها سبب اكتشاف هذا العالم الإسلامي ، فكانت قضية مباركة من هذه الناحية ، فقد عرفنا هذا العالم من جديد ، وعرفنا ما ينقصه ، وما يحتاج إليه.

فلنعمل على تكوين هذا العالم ، وبعثه من جديدٍ على أساسٍ من الإيمان والخلق ، ولنعرف أنَّ المفتاح الذي يفتح هذا القفل ، وكلَّ قفل من أقفال هذه الأمة ، هو وجود الإيمان القوي ، والوعي الإسلامي الصحيح في

www.abulhasanalinadwi.org

الشعوب الإسلامية ، وهو الضامن بالانتصار في معركة فلسطين ، والكافل بالانتصار في كلِّ معركة ، والحافظ من كل خطرٍ ، ومن كل ضيم ، والسبب في كلِّ مجدٍ ، وفي كلِّ سعادة .

فليفكر قادة الرأي في العالم الإسلامي ـ وقد اجتمع منهم عددٌ مشرِّفٌ في هذا المكان ـ ودعاةُ الإسلام المخلصين في بدء هذه الحركة المباركة ، وفتح معسكر الدعوة الإسلامية من جديد ، وتنظيم حملة ـ هي حملة هادئة سلمية مباركة ـ على العالم الإسلامي ، وليعرفوا كيف يزرعون الإيمان ، وكيف يغرسون الإسلام في قلوب المسلمين ، أنفسهم ، وكيف يشعلون العاطفة الدينية في هذه القلوب الباردة ، والأجساد الهامدة ، وكيف ينشرون الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، ولهذا المؤتمر الإسلامي الكبير أن يبث دعاته في العالم الإسلامي ينتشرون في أنحاء الأرض ، ويكونون في حركةٍ دائمة ، ونشاطٍ دائمٍ في سبيل الدعوة والتذكير ، والتربية الإسلامية ، وبذلك يستطيع المؤتمر بإذن الله أن يحلَّ مشكلة فلسطين ، ويؤمِّن العالم الإسلامي من كلِّ مشكلةٍ جديدةٍ .

* * *

أزمة إيمان وأخلاق

هذه المحاضرة ألقاها سماحة العلامة الندوي في مركز جمعية إنقاذ فلسطين ببغداد في يوليو سنة ١٩٥٦م.

www.abulhasanalinadwi.org

عن أيٍّ شيء أتحدث؟ إن الأحاديث كثيرةٌ ، والشجون كثيرةٌ ، وإذا كثرت الأحاديث والمعاني تحيَّر الإنسان.

ولكن سأحدثكم عن شيءٍ أؤمن به ، وأعتقده ، ولن أحاول أن أشبع رغبتكم ، أو أن أرضي أسماعكم ، بل حسبي أن أرضي نفسي ، وضميري ، وإيماني ، فإذا أرضيت ضميري ؛ أكون قد أرضيتكم.

أحدِّثكم حديثاً علمياً ، لا تاريخياً ، فقد أتخمنا بهذه الأحاديث ، وفيكم من يملؤكم علوماً ومعاني وخطابات.

تسمعون الناس يتحدَّثون عن الأزمات والمشكلات ـ وهذا العصر هو عصر الأزمات ، والمشكلات ـ يتحدَّثون عن أزماتٍ اقتصاديَّة ، وأزماتٍ سياسيَّة ، ويتحدَّثون عن أزمات الحكم ، وأزمات الاجتماع ، ولكنِّي أعتقد أنَّ هناك أزمةً واحدةً لا ثانية لها هي أزمة الإيمان ، أزمة الأخلاق ، سيحوا في الأرض وشاهدوا الأمم والشعوب ، فإنَّكم سترون أنَّ هذه الإنسانية ـ بمختلف الشعوب والأقطار في أنحاء العالم كلِّه ـ تعاني أزمةً واحدةً هي : «أزمة الإيمان والأخلاق» هي كارثة الكوارث ، وهي مصيبة المصائب ، وكلُّ مشكلةٍ تحدَّث الناس عنها ، واشتكوا منها ترجع إلى هذه الأزمة ، والشيء الوحيد الذي فقد ، وبفقده وقعنا في هذه المصيبة العالمية هو الإيمان ، والشيء الوحيد الذي اعتلَّ ، وباعتلاله أصبحنا نواجه هذه المشكلات كلها في نطاق الأفراد والمجتمعات والحكومات والأوضاع العالمية هو الأخلاق ، إنَّ الناس أشباهٌ ، ولم يزالوا ، وإنَّنا بشرٌ ، والذين يحكموننا بشرٌ ، ولكن الذي يسيطر على العالم ، هو هذه الأزمة الإيمانية الأخلاقية. إن كثيراً من الناس يعتقدون الشأن في الحكومات والأحزاب ، فإذا ذهبت وزارة ، وجاءت أخرى ، وإذا ذهب حزب وجاء آخر ، فقد انحلت الأزمة وانقشعت المشكلة. إنَّ هذا حكمٌ خاطىءٌ ، ومستعجلٌ ،

www.abulhasanalinadwi.org

ومبنيٌّ على قصر النظر. ليست المسألة مسألة أحزاب ، أو حكومات ، أو شيءٍ من التعديلات ، إنَّ المسألة مسألة العقلية والاعتقاد ، والنفوس والقلوب ، فلا فائدة في هذه التغيُّرات ، وإن تبدل حزبٌ بآخر ، أو حكومةٌ بأخرى ، لا يقدِّم ولا يؤخِّر. إنَّ الأفراد كلَّهم يلتقون على الخضوع للمادَّة ، والاستئثار ، وخدمة النفس ، وهذه النفس قد تقصر فتصبح نفساً فرديةً ، وقد تتسع فتصبح نفساً حزبيةً ، أو جماعيةً. إنَّ هذه العقلية هي التي تسيطر على العالم كله ، وكل ما نعاني من فساد الأوضاع ، مردُّه إلى فساد هذه النفوس ، وهيمنة هذه العقلية الخاضعة للمادة ، الخادمة للمصلحة المستأثرة الأنانية.

هذا هو الداء أيها الإخوة! فلا تخدعوا أنفسكم ، وكلما جردتم النظر ، ونزلتم إلى أعماق الحقائق؛ فإنَّكم ستجدون أنَّ أصل البلاء هو شيءٌ واحد (هو عبادة النفس) فإذا لم تتغير هذه النفوس التي تعبد المادة؛ فلن تتغير هذه الأوضاع أبداً.

إن هذا التنافس الذي تتحدث به الصُّحف ، والذي قد يؤدِّي إلى حروبٍ طاحنةٍ ـ تستمرُّ سنين طوالاً تطحن الأمم ـ هو تنافس في الأغراض فقط ، لا تنافسٌ بين الخير والشرِّ ، وإنَّ هذا الاصطراع القائم بين الأمم الأوربية ، ليس معناه أنَّ أمةً منها تريد أن تسيطر على العالم لتقضي على هذه الأوضاع الفاسدة ، ولتخدم الإنسانية ، وتنفذ قوانين الله ، وتحارب الفساد ، وتساوي بين الناس ، وتقيم القسط والعدل ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١].

لا يا أيها الإخوة! إنما هو تنافسٌ على القيادة ، كل أمَّةٍ تريد أن تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها ، إنما النزاع فيمن يكون صاحب الأمر والنهي ، وتكون له قوة إرضاء الشهوات ، وخدمة المصالح الذاتية الحزبية.

فبريطانيا وحليفاتها ـ مثلاً ـ لم تكن تنازع المعسكر الشيوعي لتقيم

www.abulhasanalinadwi.org

القسط والحقِّ ، وكذلك لم يكن المعسكر الشيوعي في وقتٍ من الأوقات لينازع الحلفاء الأوربيين في سبيل إقامة العدل ، لأنه لم يكن حريصاً على إقامة الدين والفضيلة ، إنما يصارع ، ويحارب ليكون هو المعسكر الوحيد في العالم الذي يهيمن على وسائل وإمكانات البشرية ، وليحتكر التجارة العالمية ، ليس لمصلحة البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه ، وينضمون إليه يسعدون على حساب الأمم والشعوب التي يسيطر عليها.

إنَّ مرد هذه المصارعات كلِّها هو شهوة النفس وعبادتها ، وما لم تتغير هذه النفسية الشرِّيرة ، الفاسدة ، المتعفنة؛ فلا مطمع في صلاح العالم ، أو سعادته ورفاهه.

المهم أو الأهمُّ ـ أيها الإخوة! ـ أن يتغيَّر الإنسان إنَّ كلَّ شيءٍ في هذا العالم خاضعٌ للإنسان ، والإنسان خاضعٌ لنفسه ، وضميره ، وعقيدته ، فإذا كانت هذه صالحة؛ كان الإنسان صالحاً ، وإذا صلح الإنسان صلح العالم «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»(١).

لقد أصبح الناس مؤمنين ـ بحكم ما يكتبه ويقوله أناسٌ لم يتعمقوا في العلم ـ بأنَّ صلاح العالم هو في وجود حكومةٍ على أساس كذا ، وكذا ، أو في تولي الرجل الفلاني ، أو الحزب الفلانيّ الحكم ، وما دروا أنَّ المجتمع فاسد لفساد الضمائر والقلوب ، وما لم تصلح؛ فلا يؤمَّل الصلاح. هذا أيها الإخوة قولُ مجرِّبٍ خبيرٍ ، لا قول إنسان منطوٍ على نفسه ، قول رجلٍ تهيَّأ له ـ بحمد الله ـ من الدراسة العميقة الشيء الكثير.

قد يدخل الرجل إلى غرفةٍ مظلمةٍ ، فلا يستطيع أن يجد طلبه إذا لم يفتح الزرَّ الكهربائيَّ ، ولكن الرَّجل الخبير بمجرد دخوله الغرفة يعرف موضع الزرِّ ، فيفتحه ، فيسري النور في التيَّار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضي الرجل حاجته ، وهذا هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، ومن سار على

---

(١) حديث صحيح.

www.abulhasanalinadwi.org

أثرهم ، هذا هو الزرُّ ، هو «الإيمان» ، إذا فتح ؛ انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كلَّه .

إني أرى رجالاً في البلاد العربية والإسلامية وغيرها يبدون كباراً في العقل ، والتفكير ، والتجربة ، ولكنّي أستغرب أنَّ «تفكيرهم قاصرٌ غير ناضح» .

يتكلمون عن المشكلات حديث رجلٍ لم يتعمق ، ولم يرسخ ، يتحدثون عن مشكلات السياسة والاجتماع ، ويعتقدون أنَّه إذا جاء الحزب الفلانيُّ ؛ ذهبت المشكلة ، فإذا جاء الحزب ؛ واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو أكبر منها ، وكثيراً ما نواجه مشكلاتٍ جديدةً أخرى ، ثم نجرب حزباً آخر ، فإذا هو شرٌّ من الأول ، وصدق الشاعر إذ قال :

الا إنَّما الأيام أبناء واحد وهذي الليالي كلُّها أخوات
فلا تطلبن من عند يومٍ وليلة خلاف الذي مرَّت به السنوات

إلى متى تجري هذه التجارب على الإنسان المسكين؟ وإلى متى نفحص ونشرِّح ، ثم نرجع من غير طائل؟ إنَّ الأنبياء يمنحوننا العلم اليقينيَّ ، ويعطوننا العلاج الشافي .

إن المسألة مسألة النفوس ، وما دمنا معرضين عن هذه الحقيقة : فسوف نبقى نعاني مشكلةً بعد مشكلة .

إنَّ من مصائب هذه المدنية الإعراض عن الأفراد ، فقد أثَّرت العلوم العمرانية في النفوس ، حتى أصبحت تعتمد على المجموعات ، والمؤسسات ، والهيئات الاجتماعية ، والحكومات ، دون الاهتمام بالأفراد ، مع أنَّ الأفراد هم أساس المجتمعات والحكومات والأحزاب والمؤسسات . نقول لهم: أيها السادة! دونكم الأفراد ، فأصلحوهم وهيئوهم لهذا الهيكل الاجتماعي ، فسيقولون: مالنا وللأفراد ، نحن في عصرٍ اجتماعيٍّ طابعه الاجتماع ، فنقول لهم : آمنا بالاجتماع ، ولكن إذا لم يكن الأفراد أين يكون المجتمع؟ ولكنهم يقولون: إنَّ الأفراد يصلحون بصلاح المجتمع. إنَّ مثل هؤلاء الذين يهتمُّون بالمجموعات دون الأفراد مثل من يجمع أخشاباً نخرة ، متآكلةً ، مخرومةً ، يريد أن يعمل منها سفينةً

www.abulhasanalinadwi.org

تحمل جماعةً كبيرةً ، وبضائع ثمينةً ، فإذا قال له رجل صاحب نظر : إنَّ هذه الأخشاب لا تصلح لبناء سفينة تحمل جامعةً كبيرةً وبضائع ثمينةً ، ثقيلةً؛ قال : إن هذه الأخشاب لا قيمة لها ، إنّما المهم السفينة ، فإذا تكونت السفينة؛ فقدت الألواح شخصيتها ، فلا يهمُّك إن كانت الأخشاب فاسدةً منخورةً .

إنَّ الفاسد فاسدٌ ، ولكن إذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج الصالح . إنَّ اللصَّ لصٌّ ، ولكن إذا اجتمعت اللصوص أصبحت حارسة للمدينة ! !

هذه هي عقلية أوربا؛ إنَّ اللصوص لصوصٌ في أفرادهم ، ولكنهم أمناء في مجموعهم ، ما هذا المنطق؟ !

الذئب ذئب ، ولكن إذا اجتمعت الذئاب أصبحت راعيةً! إنَّ الجمرة تحرق البيت ، ولكنها إذا اجتمعت الجمرات؛ أصبحت برداً وسلاماً ؟ !

هذا شيءٌ مضحكٌ ، ولكن أليس هذا هو الأساس الذي يعمل في المدرسة والحكومة والمحكمة؟؟

من أين جاءت الحكومة والقضاة والجنود؟ أليس أكثر هؤلاء فاسدين ، ودون المستوى الواجب؟ فكيف تتحول هذه العصابات المجرمة إلى مجموعةٍ صالحة ، رفيعة المستوى ، عالية في الأخلاق؟ العالم كلُّه ـ مع الأسف ـ خاضعٌ لهذا المنطق ، حتى في المستويات العلمية .

إنَّ مدراء البلديات والجامعات ، والمؤسسات العلمية ، والحكَّام لو كانوا في الزمن الأول لما استحقوا أقل من الطرد ، بل لكانوا في السجون ، ولو أرادوا أن يشغلوا وظيفةً حقيرة ما استحقُّوا .

لقد طغت هذه العقلية على الأفكار حتى أصبح الذي يثير مسألة الأفراد يتَّهم بالرجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ، أنتم المجتمع . في قسمات وجوهكم ، وضمائركم ، وعقولكم ، يرقد المستقبل الزاهر الذي نؤمله ، فهيئوا نفوسكم تهيئةً روحيةً ، خلقيةً ، علميةً ، إيمانية ، هذا هو نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

www.abulhasanalinadwi.org

لقد وجدت الحديث عن العالم الإسلامي حديث كلِّ بلدٍ حللته ، وزرت فيه إخواننا ، وهو حديث كلِّ مجلسٍ حضرته ، وإنَّ العالم الإسلاميَّ حقيقةٌ قائمةٌ تسعى على قدميها ، لا ينكر فضله إلا جاهلٌ أو أحمق.

أنا أؤمن به ، وشاهدته في الهند ، وباكستان ، وتركيا ، وسورية ، ومصر ، وأنتم أيها الإخوان جزءٌ من العالم الإسلاميِّ ، إذا كنتم تعتقدون أنَّه يعيش بغيركم ، وليس عليكم مسؤوليته؛ فأنتم مخطئون ، ولكن أخشى أنَّ كثيراً من الناس يهتمُّون بكلِّ شيءٍ غير نفوسهم ، وهذا هو الواقع فعلاً. أنا أفكر في العالم ، ولكن أنا كذلك جزء منه ، فلأصلح هذا الجزء ، ولكني أرى كثيراً من إخواني لا يفكرون في نفوسهم ، ويعتقدون أنَّ العالم الإسلاميَّ هو كلُّ ما يغاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا. وليعتقد كلٌّ منا أنَّه مسؤول ، فإذا صلحت هذه الأجزاء صلح العالم الإسلامي. إنَّ مثلنا أيها الإخوة ، كمثل ملكٍ أعلن أنَّه يريد حوضاً مملوءاً باللبن «الحليب» ، وأنه سيدفع الثمن لكلِّ من يجلب الحليب ، فقال أحد اللبانين: لو أفرغ لبان واحدٍ سطلاً من ماء ، فإنَّ هذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلاً من حليب ، وفكَّر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك في الصباح فوجد حوضاً من ماء.

هذه قصتنا. إنَّ كلَّ فردٍ منَّا يقول: إذا فَسَدتُ ، فماذا يضر العالم الإسلامي؟ وبهذا أصبح كل العالم الإسلامي فاسداً. لو فكرتم لرأيتم أنَّ كلَّ حديثكم عن غيركم.

أنصفوا نفوسكم أيها الإخوان ، وما لكم وهذه القضايا التي لا تستطيعون خدمتها. إنَّ الاشتغال بالغير سهل ، ولكن الاشتغال بالنفس صعب ، والإنسان يحبُّ السهولة ولذلك اندفع العالم الإسلامي كلُّه إلى الاهتمام بغيره. هذا تفكيرٌ يجب أن يعالج.

أنتم العراق ، وإذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم الإسلامي ، فيجب على كلٍّ منا أن يهيىء نفسه ليكون لبنةً صالحةً في البناء.

www.abulhasanalinadwi.org

لنكن فتيةً مجاهدةً، مؤمنةً، صادقةً ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة الحبِّ .

فإذا كنا كذلك ؛ فصدقوني أنَّنا نستطيع أن نغير تيار الفساد .

الأزمة أزمة رجال ، فأين الرجال؟ وإنَّ كثيراً من الناس يحرصون على الحكومات ، ويعتقدون أنَّها هي المفتاح ، ولكن الحكومة يسيِّرها الرجال. فمن هم هؤلاء الرجال؟ وكيف هم؟ هذا هو داء العالم الإسلامي ، فأنتم هيئوا نفوسكم «لمعركة المستقبل» «معركة الأخلاق» و«الإخلاص والتضحية» ، إذا وجد رجلٌ واحدٌ يستطيع أن ينسى نفسه ومصلحته ، ومصلحة أسرته ، وأصدقائه ، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمَّته؛ لاستطاع أن يحدث انقلاباً.

كان الجوُّ قائماً ، والعالم الإسلامي يعاني مشكلة عظيمةً ، وكان الولاة جائرين، والجهاز فاسداً ، والمظالم سائدة ، والحقوق تمتهن ، والناس غير آمنين ، وكان العالم الإسلامي من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه ، يعاني مرضاً مرهقاً. جاء رجل واحد هو «عمر بن عبد العزيز» عرف ربه ، ونسي نفسه، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع أن يغير هذا التيار ، ويرغم العالم الإسلامي على أن يتجه إلى الصلاح ، أين الأفراد؟ وأين من ينتجهم؟ هل تنتجهم الكليات والمعاهد؟ لا! إنما يربيهم الإيمان ، وتنتجهم العقيدة والأخلاق.

فكلمتي لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربُّوا فيها الإيمان ، والعقيدة ، كونوا مؤمنين بالله ، واليوم الآخر ، ومصلحة الإسلام ، كونوا رجالاً ، إذا دانت لهم البلاد ، وأصبحوا يملكون أزمَّة الأمور؛ لم يغيِّرهم الوضع الفاسد عما كانوا عليه ، هذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء ، فقراء ، لا يملكون ما يكسون به أجسامهم ، ويشبعون به بطونهم ، فدانت لهم الدنيا ، وتفتَّحت لهم الخزائن ، فما تغيَّروا.

بقي أبو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان إلى العراق والياً ، فخرج الناس لاستقباله ، فرأوه يحمل على رأسه حملاً لرجل على أجره.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ العالم لم يفسد إلا عندما فسد الأفراد ، وفقد هذا الطراز الذي تخرَّج في مدرسة محمد ﷺ ، نحن في حاجة إلى هذا الطراز ، وهو لا يُرتجى إلا منكم ، من مثل هذا الشباب المسلم ، المؤمن الصاعق الذي يوطن نفسه على الشظف والحياة البسيطة ، إنَّ من أمراض الأمة العربية ، هذا التنعُّم والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع أحدهم أن يعيش من غير سيارة ، وبيت فخم ، وراتب ضخم ، إنَّ هذه الأمراض قعدت بأمتنا ، وهذا كان داء الرومان ، والفرس ، فقد أسرفوا في المدنية والتنعم ، يدل على ذلك أنه لما زحف المسلمون على المدائن وفتحوها ، خرج يزدجرد يحمل معه ألف طاهٍ ، وألف مربٍ للبزاة والصقور ، ويقول : إنِّي في حالة يرثى لها. أخذت هؤلاء فقط!

إلى هذا الحد وصلت مدنيتهم ، ولذلك انهارت هذا الانهيار الفظيع. كان الذي يلبس قلنسوةً قيمتها دون ٥٠ ألفاً يعيَّر ، وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ إلى ٥٠ ألف ، مرصعةً بالجواهر والياقوت ، فهذه المدنية الزائفة هي التي جنت عليهم ، فخسروا الدولة والشرف ، والمجد والحياة.

فهيئوا نفوسكم للجهاد والدعوة ، وإذا قُلدتم أمانة ، فأحسنوا القيام عليها ، هذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزناً لها ، ولكنكم ستذكروني في المستقبل ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ .

[إنَّ الأزمة أزمة رجال ، وأزمة إيمان وأخلاق ، وإنِّي أعيذ نفسي أن أومن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغير الوضع ، إذا تغيرت الحكومات والأحزاب ، لقول الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ ﴾ [الحج : ٣٩ ـ ٤١].

انظروا كيف قدَّم ذكر هذه المحنة ، التي خرجوا منها كما يخرج الإبريز

www.abulhasanalinadwi.org

من النَّار ، وخرجوا من ديارهم بغير حق ، حتى أصبحوا رجالاً إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

فإذا لم نقطع هذه المرحلة لا نستطيع أن نصل إلى الدرجة التي وصفها الله بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحج : ٤١] وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء : ٧٧] لم يحدثهم عن الحكومة ، والنتائج الأخيرة ، ولكن رباهم تربيةً إسلامية عميقةً شاملةً للأخلاق والتفكير ، حتى إذا نشأت النفوس؛ انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

أقول وأنا مخلصٌ ناصحٌ؛ اهتمُّوا بأنفسكم اهتماماً دينيَّاً ، خلقياً ، تربوياً ، فكرياً ، وآمنوا بأنكم أنتم العالم الإسلامي ، كما قال الشاعر :

.... وفيـك انطـوى العـالـم الأكبـرُ

وإذا صلحنا؛ صلح العالم الإسلامي ، وإذا صلحت الأجزاء؛ صلحت المجموعة .]

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الراية المحمَّدية أيُّها العرب

هذه الكلمة وَجَّهَها العلامة الندوي إلى الأعيان والسَّادة أعضاء الجالية العربية الذّين اشتركوا في حفلة تكريمه الّتي أقامها المرحوم حسين بن محمد أحد كبار الموظفين في السفارة السعودية بالهند ، في مدينة بمبامي ، وهي الآن مهداةٌ إلى العرب جميعاً .

www.abulhasanalinadwi.org

إنني أؤمن ـ أيُّها الإخوة الكرام ـ أنّ محمَّداً ﷺ منذ بعث هو نبيٌّ كلِّ جيلٍ ، وإمام كلِّ عصر ، وأنَّ دينه الذي جاء به سفينةُ نوح في كلِّ طوفان ، وأن لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، والتجأ إلى هذه السفينة ، ولا أقول ذلك عن تقليدٍ وعصبيةٍ ، إنَّما أقول ذلك ـ علم الله ـ بعد دراسةٍ وبيِّنةٍ من الأمر واقتناعٍ علميٍّ. وإنَّما تتشرف الأمم ، والجماعات والأفراد والأشخاص ، ويكتب لها البقاء ، والخلود ، والعزَّة ، والنصر باتباع هذا النبيِّ الكريم ، والاعتزاز بدينه ، والتمسُّك بأهدابه ، وحمل رسالته ، وأمانته ، ومن استغنى عنه ، أو رأى الشَّرف في غير اتباعه ، أو ثار على إمامته العامَّة الخالدة التي فرضها الله على الأجيال الإنسانية كلِّها ، وعلى أدوار التاريخ كلِّها ، وقطع صلته عن دوحته العظيمة ، وشغل بنفسه وشهواته ومصالحه الشخصية عن حمل رسالته ، وأداء أمانته ، مُحي من الوجود ، وأخمل ذكره ، وأصبح مطموساً منكوساً ، وكان كورقةٍ انفصلت عن شجرةٍ خضراء ، فتذوي سريعاً ، وتصبح هشيماً تذروه الرياح عربياً كان ، أو تركياً ، هاشمياً كان أو تميميّاً ، هذا قضاء الله وحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، والتاريخ يصدق بذلك ، تجارب الأمم توثِّقه ، وقد صدق الشاعر الفارسي حيث قال: «محمد ﷺ هو شرف العالم ، وكرامة الأفراد ، والأمم ، فمن أبى أن يستمسك بغرزه ، ويمشي في موكبه ، أرغم أنفه ، وكتب له الذلّ والصَّغار».

وقد صدق الشاعر الهندي[1] حيث قال: «لا أعجب إذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيِّدٍ عظيم ، لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جدُّه ، ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، إمام الكلِّ محمد ﷺ الذي وَطِئت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمداً يكتحل به السُّعداء».

---

(١) هو العلاّمة الدكتور محمد إقبال.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ هذا الانفصال ـ أيها الإخوة الكرام ـ عن الدوحة النبوية المباركة ، وإنَّ هذا الانقطاع عن الموكب المحمدي المقبل ، وعن ركبه الميمون خسارةٌ لا تعوَّض بشيءٍ ، إنَّها لا تعوَّض بأعظم ثروةٍ ، ولا بأوسع دولةٍ ، ولا بأروع مظهرٍ ، إنَّها لا تعوَّض بلباقة ، أو كياسة ، أو سياسة ، أو حذاقةٍ للغات ، أو براعةٍ في تقليد الأزياء ، لأنه تخلفٌ عن ركب الحياة ، وانقطاعٌ عن معين المعنويات ، ولا عوض عن الحياة والمعنويات والروح في المظاهر والأزياء ، واللغات والثقافات ، والتقليد والمحاكاة ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يؤمنون بأنَّ الإسلام هو مصدر عزِّهم ، ومطلع فجرهم ، وفاتحة عهدهم الجديد ، وسرُّ قوتهم وانتصارهم ، ويصرِّحون بذلك أمام الناس ، يدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً ما رواه ابن كثير في تاريخه ، وقال : «لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضةٌ فنزل عن بعيره ، ونزع موقيه ، فأمسكهما بيده ، وخاض الماء ، ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا! قال : فصكَّ في صدره ، وقال : أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنَّكم كنتم أذلَّ الناس ، وأحقر الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره ، يذلكم الله»[(١)] .

وهذا هو الواقع التاريخيُّ ، فكلَّما حاول العرب أن ينالوا الشرف بغير هذا الدين ، وأخفقوا ، وذلُّوا ، وقد كان اسمهم يرجف القلوب ، ويملؤها مهابةً وروعةً ، وقد خرجوا من جزيرتهم في ثيابٍ صفيقةٍ مرقعةٍ ، ونعالٍ وضيعة مخصوفةٍ ، وذلك لسرٍّ خالدٍ ، وهو أنَّ الإنسان مفطورٌ على إجلال الفائق ، والغرام بالمفقود ، وقد كان العرب يملكون الإيمان واليقين ، والأخلاق التي كانت الأمم أفلست فيها إفلاساً شائناً ، ثم إنَّ الذي فطر المادَّة والروح قد فرض على المادَّة أن تخضع للروح ، وفي التاريخ الإنسانيِّ ـ ليس التاريخ الإسلاميُّ فقط ـ شهاداتٌ متَّصلةٌ متسلسلةٌ لانتصار الروح على المادَّة ، والمعنويات على المادِّيات ، وقد كان انتصار العرب

(١) «البداية والنهاية» ٧/ ٦٠ ورواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرطهما .

www.abulhasanalinadwi.org

على الروم والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً كثيرةً في العدة والعتاد ، والمادَّة والآلات ، والمدنية والحضارة ، أروعَ شهادةٍ لغلبة الروح على المادَّة.

[كيف يجمل بالعرب والمسلمين أن يقلِّدوا هذه الحضارة الغربية ، وقد علم الذين درسوا تاريخ هذه الحضارة أنَّها تأسَّست على الظلم ، والعدوان ، والأخذ بالقشور ، والاكتفاء بالحسِّ ، وإنكار ما وراء ذلك ، وعبادة المادة والشهوات من أوَّل يوم ، وهي خليفة الحضارة اليونانية الضَّالَّة ، أو المدنية الروميَّة الآثمة ، ثمَّ إنَّ الذين يتزعمونها اليوم هم أكبر جناة التاريخ ، ومجرمي الإنسانية ، وأقوى عاملٍ من عوامل الفساد ، والشقاء ، والظلم والطغيان في العالم ، هم الذي ملؤوا الأرض جوراً ، وظلماً ، وفساداً ، وشهوةً ، وأقاموا في العالم مجزرتين من أهول مجازر التاريخ ـ أعني الحرب العالمية الأولى ، والثانية ـ ويستعدُّون لمجزرةٍ ثالثة لعلَّها تكون المجزرة الأخيرة التي فيها فناء العالم ، وحتف الإنسانية كلِّها ، فإنَّهم سيستعملون فيها القنابل الذرية لا محالة ، وهم الذين استعبدوا الأمم ، وسخَّروها لشهواتهم ومآربهم ، وأهانوا الشرق الإسلامي ، وحرموه الحرية والحياة ، ولا يزالون يعبثون به ، ويسخِّرون رجاله ، وقادته لأغراضهم ، ويضربون بعضهم ببعض ، فكان اللائق المنتظر من المسلمين والعرب أن يشتدَّ بغضهم ، وعداؤهم لهذه الحضارة وأصحابها ، ولا يُرى منهم ميلٌ ، أو تشيُّعٌ ، أو تقليدٌ لهذه الأمة المجرمة الظالمة وحضارتهم الأثيمة ، وقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

ولا أقصد بقولي: «الحضارة الغربية» علوم الطبيعة البريئة ، والعلوم ، والآداب التي ليس عليها طابع أمَّة ، إنما أقصد بذلك فلسفة الحياة التي يدين بها الغرب ـ سواء المعسكر الرأسماليُّ ، والمعسكر الاشتراكيُّ ـ وهي الإيمان بالمادَّة والقوة فقط ، وإنكار القيم العالية ، والحقائق الغيبية ، هذه الفلسفة المادِّية التي ولدت هذه الحضارة المادِّية ، وظهرت هذه الحضارة

www.abulhasanalinadwi.org

المادِّية في النهامة بالمال ، والحرص على تملك أعظم مقدارٍ منه للتمتُّع بالذات ، وانتهاب المسرَّات ، وإحراز الجاه والسُّمعة والمنزلة عند الناس ، والتغافل عن كلٍّ ما عدا ذلك ، وعمَّا جاءت به الأديان السماوية من العقائد والأخلاق ، هذه الفلسفة التي تعارض الفكرة الإيمانية على خط مستقيم ، التي تقول : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

وتعارضُ قول النَّبيِّ ﷺ : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» هذه الفلسفة التي لا تؤمن بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ولا بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] .

بل تهتف في غير حياء وتحرُّزٍ : «إن أكرم الناس أغنى الناس ، وقد أفلح من اغتنى واقتنى ، وأيسر وأثرى ، وأكل الشهيَّ اللذيذ ، ولبس الفاخر الجديد ، وملك عدداً من السيارات والقصور» .

إنَّ تقليد هذه الحضارة لم يكن لائقاً بالمسلمين والعرب ، يوم كانت هذه الحضارة في أوجها وزهوها ، وكانت تنتج وتثمر ، وكانت شابةً فتيَّةً ، أما وقد شابت ، ووهنت ، وبدأت تتقدم بخطى سريعةٍ إلى الإفلاس والإخفاق ، بل إلى الانهيار والانتحار ، فتقليدها أقبح وأخزى ، ويعلم الذين يتصورون بمراكزها وتياراتها الجديدة أنّها قد أصبحت فاكهةً قد أينعت وحان قطفها ، وأنَّها إذا لم تقتطفها يدٌ قويةٌ ، فإنَّها ستسقط بنفسها على الأرض وتتناثر ، فالذين يربطون حظوظهم ونفوسهم بهذه السفينة المتكسِّرة ، التي قد أشرفت على الغرق يسيئون إلى أنفسهم وإلى أمتهم ، قبل أن يسيؤوا إلى عقيدتهم وملَّتهم .

إنَّ المسلمين في الهند وغيرها من الأقطار الإسلامية غير العربية كانوا يتوقعون من العرب أن يكونوا أشدَّ اعتزازاً بهذا الدين ، وأشدَّ عداءً للأمم الأوربية ، التي انتزعت منهم السيادة العالمية والقيادة الفكرية والسياسية ، وأحرص على الدعوة الإسلامية ، وأعظم تألُّماً لما هو واقعٌ في العالم من المآسي والمهازل . ولما وصلت إليه الإنسانية من الهبوط والتدنِّي ، كانوا

www.abulhasanalinadwi.org

يتوقعون أن يكون العرب أرسخ عقيدةً ، وأشدَّ حماسةً في كلِّ ذلك من المسلمين الذين آمنوا بدعوتهم ، وكانوا أتباعهم في هذا الدين ، لأنَّ العرب أسرة النَّبيِّ ﷺ وقبيلته ، لأنَّ القرآن الذي ارتعشت له الجبال ، وزلزلت به الأرض؛ إنما نزل بلغتهم ، ولا يزالون يفهمونه ، ويحسنون قراءته ، ولا يحزن الإنسان مثل ما يحزنه إذا رأى تقليداً من إمام ، وضعفاً من قويٍّ ، واستجداءً من غنيٍّ .

إنَّ في الهند وباكستان ـ أيها السادة! ـ رجالاً لم تزدهم دراسة العلوم العصرية ، والاطلاع على النظم الغربية ، والاتصال بمراكز الحضارة الأوربية ، والاجتماع برجالات الغرب وقادة الفكر والسياسة فيه ، لم يزدهم كلُّ ذلك إلا اعتزازاً بالإسلام والتضلُّع من حبِّ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والإيمان بأنَّ الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وأنَّ تعاليمه موافقةٌ لكل مكانٍ وأوانٍ ، بل هي سابقةٌ للزمن ، وأنَّ الإنسانية في كل طورٍ من أطوار حياتها تجد فيها الغوث والنجدة ، ولم يزدهم كلُّ ذلك إلا يأساً من الحضارة الغربية التي لا تستطيع أن تحمل نفسها ، وتنجد رجالها ، ولم يزدهم إلا سخطاً على قادة الغرب الذين قد ظهر إخفاقهم في حلِّ المعضلات الإنسانية ، وتجلى إفلاسهم في المؤهلات والوسائل التي يحلُّون بها هذه المعضلات ، وأعظمها: الإخلاص ، والإيمان ، ويقودون العالم إلى الغاية الرشيدة ، ولكنهم لكبرهم لا يعترفون بهذا الإفلاس ، ولا يبحثون عن مصدرٍ يحلُّون به هذه الأزمة التي حلَّت بالإنسانية كلِّها بسببهم ، وينجدون به الإنسانية التي تملكوا زمامها واحتكروا زعامتها، إن كل ذلك لم يزدهم إلا ثقةً بهذا الدين ، وتصلباً في عقيدته وشريعته ، ومحافظةً على آدابه وحضارته ، ولو شئتُ لعددتُ عشرات من هؤلاء الأساتذة المؤمنين ، والعلماء الراسخين ممَّن يجمعون بين الثقافة العصرية الواسعة ، والعقيدة الإسلامية الراسخة ، وكان بعضهم من أفذاذ هذا العصر في بعض العلوم الغربية والفلسفة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأدب .

ولكن ذلك لا يزيد في شرف النَّبيِّ الأميِّ ﷺ بل يشرِّف هؤلاء الذين

www.abulhasanalinadwi.org

ينتمون إلى دينه ، ويعدُّون من أتباعه ، ولم يزل في كلِّ عصرٍ من عصور الإسلام نوابغ وعباقرةٌ من أذكياء العالم ، وكبار ملوك الأرض يفتخرون بالدخول في أتباع النَّبيِّ ﷺ ويعدُّون ذلك أكبر مفخرةٍ لهم ، وينشدون بألف لسان:

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق التراب تراب[1]

إنّ الاعتزاز بالإسلام ـ أيها السادة! ـ والظهور به تقدُّمٌ ، ونبوغٌ ، وذكاء ، ورمزٌ للاستقلال الفكري ، بالعكس من ذلك الانسحاب من الإسلام ، وتقليد الحضارة الغربية ، والإلحاح على تطبيق النظم اللادينية في بلاد الإسلام ، وفي بيوت الإسلام ، رجعيةٌ ، وجمودٌ ، وضعف عقليةٍ وتفكير ، ورمزٌ لمركب النَّقص ، وقد انقضى من غير رجعةٍ ذلك العصر الذي كان فيه يعدُّ الظهور بالمظهر الغربي ، وتقليد الأساليب الغربية في الحياة ، وإطراء النظم الحديثة تقدُّماً ، ورقيّاً ، وظرافةً ، وكياسةً ، أمَّا الآن فقد ضجر الغربيون أنفسهم من حضارتهم ، وانتقدوها انتقاداً لاذعاً وتهكّموا بها ، وقالوا: إنَّها حضارةٌ مرتجلةٌ ، لا تقوم على تصميمٍ وتفكير سابقٍ ، وإنما قفزت من أوضاع كانت تسود في القرون المتوسطة المظلمة.

وبعد ذلك كله لا أرضى لكم أن تكونوا رجالاً لا يهمُّهم إلا أن يكونوا أداةً حقيرةً في هذا الجهاز المادِّي ، ولا تهمهم إلا المصالح الشخصية ، والرفاهة الفردية ، وأن يكونوا ذلك الساقط الهمَّة الذي ذمَّه الشاعر العربي الكريم حاتم الطائي بقوله:

لحا الله صعلوكاً مناه وهمُّه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

ويا ليت فتيان العرب بلغوا في علوِّ همتهم ، وطموحهم مبلغ الشاعر الجاهلي امرىء القيس حيث قال:

ولو أنني أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنني أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدرك المجدَ المؤثَّل أمثالي

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني ديوانه: ٢٤.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ المجد المؤثَّل ـ أيها الإخوة! ـ وهو الذي لم يحلم به الشاعر الطموح ، هو الذي نشده عمر بن عبد العزيز ، فأدركه ، وسعى له طارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم الثقفي فوصلا إليه ، وهو الذي يليق أن يكون مثلكم الكامل ، وغايتكم المنشودة ، إنَّكم أحقُّ الناس بأن تثوروا على جاهلية القرن العشرين ، كما ثار آباؤكم على جاهلية القرن السادس المسيحي ، وأن تتمرَّدوا على المادية العصرية ، كما تمرّد أسلافكم على مادِّية عصرهم ، وتضحوا برفاهيتكم ، وترفكم ، وأمانيكم المعسولة في سبيل الإسلام ، وفي سبيل المصلحة العامَّة ، والسعادة البشرية ، وتنضمُّوا إلى الراية المحمَّدية ، وهي راية العدل ، وراية الحقِّ ، وراية الله في العالم ، التي اختارها الله لكم كرايةٍ ، واختاركم لها كأمَّةٍ وجندٍ إلى آخر الدَّهر .

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

لا تحـرجـوا الأوفـيـاء لـلإسـلام بـمـوقـفكـم أيـهـا الـعـرب

هذا الخطاب ألقاه العلامة الندوي في حفلة تكريمية ، أقيمت في جدة في مستهلِّ ذي الحجة ١٣٨٢هـ ضمَّت عدداً كبيراً من العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وأصحاب القلم ، وأعيان البلد ووجهائه .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّني أتضاءل أمام أيِّ تكريمٍ أُشمل به في أيِّ مكانٍ وأخجل ، فلست أراني أستحقُّ تكريماً ، أو أيَّ تفخيمٍ لشأني ، ويزيد خجلتي هذا الموقف الذي أقفه في بلادٍ أنا مدينٌ لها في ديني ، وعقليتي ، وثقافتي ، وأدين لها بالفضل في كلِّ ما أملكه ، أو ما يشار إليه بالبنان. فما من خيرٍ أعرفه إلا ومصدره هذه البقعة المباركة التي خرج منها أولئك الأبطال من الدعاة والمجاهدين إلى العالم كله ، وإلى بلادنا ـ الهند ـ حاملين رسالة الإسلام والدعوة إلى الله ، والدعوة إلى هجر الأوثان والأصنام ، والعصبيات القومية ، والوطنية ، وإلى هجر كلِّ نزعةٍ تشغل مكان نزعةٍ دينيَّةٍ ، وأنا أقول لكم بشيءٍ من الشَّجاعة غير مبالٍ بما أنا فيه من مقام التكريم : إن آباء كثيرٍ من المسلمين في الهند كانوا يعبدون الشجر ، والحجر ، والروث ، وكلَّ شيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى ، وكانوا معتزين بقوميتهم ، مفتخرين بأمجادهم بل كانوا أكثر الناس فخراً بمآثر السلف المشركين ، ولكن دعوة الإسلام هي التي حوَّلتهم إلى أن يستصغروا ما كانوا يقدِّسونه ، ويستخفُّوا بما كانوا يعظمونه ، فكفروا بجاهليتهم جملةً وتفصيلاً ، وتوارثوا العقيدة الإسلامية السمحاء جيلاً بعد جيلٍ ، ينقلها الآباء إلىٰ الأبناء بالأمانة ، والوفاء ، والنُّصح ، واستعذبوا في طريقهم كلَّ مكروهٍ ، وواجهوا في سبيل دينهم كلَّ صعبٍ ، ولم يثن طولُ النضال هممهم ، ولم توهن الحروب المديدة عزائمهم في الله ، لأنهم كانوا يعدُّون أنفسهم في جاهليتهم أمواتاً غير أحياء ، والإسلام بعثهم من جديدٍ ، وجعلهم أحياءً بما للحياة من معنى ، وتغلغلت العقيدة الإسلامية في أحشاء قلوبهم ، واستحكمت في نفوسهم ، وعادوا لا يرون خيراً إلا فيما جاء به سيدنا محمدٌ ﷺ ، ولا يعرفون شرّاً إلا في غير ما جاء به سيدنا محمدٌ ﷺ وكان الدين وحده المقيم المقعد ، المثير المحرِّك ، الآمر الناهي ، وما كان يضادُّه ، أو يعارضه هو الكريه البغيض ، والشائن المهان.

هذا بعض ما كانوا عليه سابقاً ـ أيها السادة! ـ وهذا ما صاروا إليه ، غير

www.abulhasanalinadwi.org

أنَّ نضالنا ضدَّ الجاهلية في وطننا لم ينته في عصر من العصور حتى في عصرنا هذا ، فكنا لا نزال في حربٍ دائمةٍ مع من لا يقيم للإسلام وزناً ، أو يحاربنا لأجل عقيدتنا ويدعونا إلى تمجيد أبطالنا القدامى من المشركين ، ويدعونا إلى الاعتزاز بمآثرهم ، والفخر بما أسلفوا من علمٍ وحكمة ، ويلومنا في تقصيرنا معهم ، ويطعن في عدم وفائنا لحقوقهم ، ويدعونا إلى كل هذا بلسان الفلسفة ، والأدب ، والعلم ، ونحن حاربنا هذه الدعوات برمَّتها ، ولا نزال نجابهها مصمِّمين على دمغ ادعاءاتهم ، مضحِّين في سبيل الله بالأنفس والأرواح ، نستميت دون كرامة هذا الدين ، ونستهين بكلِّ متعةٍ من متع الحياة في سبيل هذه العقيدة الإسلاميَّة ، عليها نموت وعليها نحيا ، وإن كنا نستطيع أن نلبي دعوة الجاهلية ، ونسهم في إعلاء كلمتها ، وإن فعلنا لكان لنا شأن غير ما نحن فيه اليوم ، ولم يكن أي داعٍ للاضطهاد ، وتقديم الضحايا ، ولكننا لم نفعل هذا ، ولن نفعله.

ولكن هناك عامل محرجٌ عصيبٌ لا نقدر على مجابهته وإن كنا قد ذلَّلنا الصعاب ، وأنشأنا ما كان مستحيلاً في عرف التاريخ ، ولكننا ضعاف اليوم لمواجهة هذه البلية النكراء ، ويستعصي علينا حلُّها ، وهذه المشكلة ـ أيها السادة! ـ هي أن مواطنينا وبني جيلنا في بلادنا يخاطبوننا قائلين: أيها المسلم الهندي! ما بالك لا تعود إلىٰ ملتك الجاهلية الأولى ، وقد أراد كثيرٌ من العرب أن يعودوا إلى جاهليتهم ، يدعون بدعوتهم ، ويتعصَّبون لقوميتهم ، ويحاربون من يخالفها ، فهذه الدعوة التي تبناها بعض العرب ، وعمَّت موجتها في عقلية النشء الحديث ، واعتملت فكرتها في أذهانهم قد خلقت لنا مشكلة ما لنا بها من عهد ، مع كثرة ما فوجئنا به ضدَّ ديننا من المؤامرات ، ولكن هذه المؤامرة فاقت سائر المؤامرات السابقة صعوبةً ودقَّـةً ، حتى استصغرنا دونها المآسي والمكاره ، وما أكثرها اليوم ، ودعوني أقول لكم بكل صراحة: إننا وإن كنا لا نزال مصممين على بقائنا مسلمين أوفياء لديننا مع اعترافنا بواجب النصح للوطن ، والإسهام في بنائه ، ولن يفتَّ في عزيمتنا شيءٌ في الدنيا على بقائنا مؤمنين بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، ولو انسلخت الدنيا بأسرها عن الإسلام ، لم يوهن عزيمتنا

www.abulhasanalinadwi.org

هذه لو عاد الأتراك إلى قوميتهم «الطورانية» وتمسكوا بشعائر جاهليتهم الأولى ، وعقائدها ، وعوائدها ، وأمجادها ، ولو عاد الفرس إلى قوميتهم الساسانية معتزين بأسلافها رستم وسهراب ، ولو عادت مصر إلى فرعونيتها ، ولو عاد العرب ـ لا قدَّر الله ـ إلى جاهليتهم معتزين بأمجاد الجاهلية ، فلم نربط مستقبلنا ومصيرنا بأمَّةٍ أو شعبٍ ، وإنما ربطنا مستقبلنا ومصيرنا بإرادة الله ودينه ، فإن كفر الناس جميعاً لم يسعنا الكفر ، ولم يجز لنا التقليد ، وقد عاهدنا الله أن نثبت علىٰ دينه وأن نعضَّ عليه بالنواجذ ، وقد ضمن الله ببقاء هذا الدين ، وأن لا تزال طائفة من هذه الأمة متمسكة به : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

غير أننا ننظر إلى جزيرة العرب كمعقلٍ للإسلام ، ومَأرِز الدين ، ونتمنى أن يكونوا كما كانوا سابقاً في مأخذ الزمام ، ومقدَّم القافلة ، يقودون العالم إلى الإسلام ، ويكونون المثل الصالح ، والقدوة الحسنة ، فمنها بدأ هذا الدين ، وإليها سيعود .

فإن كنتم ـ أيها السادة العرب ـ تريدون لنا أيَّ مساعدة أو تحبون لنا أيَّ نجاح فلا نسألكم عوناً من المادة والمال ، إنما نطلب منكم شيئاً واحداً ، وهو أن تكونوا مثلاً عالياً للصَّلابة في الدين ، وتكونوا كما كنتم في الماضي ، حاملي الرسالة الإلهية الخالدة ، تطاردون كلَّ من ينادي بغير الله ربّاً ، وبغير الإسلام ديناً ، وعقيدةً ، وإيماناً ، فإن فعلتم هذا ، أسديتم لنا كلَّ عونٍ ومساعدةٍ .

إنَّه من واجب الأدب ألاَّ يتدخل أحدٌ في هذه الأرض ، وقد رزق شيئاً من المعرفة وأدنى حظٍّ من الإنصاف ألا يدخلها إلا مطأطىء الرأس ، خاشعاً متواضعاً ، غاضَّ البصر ، لاهجاً بثناء الله ، لما منَّ الله عليه من فضلٍ بمن خرج من هذه البقعة المباركة من المحسنين للبشرية جمعاء .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

العرب يكتشفون أنفسهُم!

تنظِّم رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة حفلات عامَّة في موسم الحج في قاعة المحاضرات في مركزها ، تدعو قادة الفكر ، وكبار العلماء ، والأساتذة في العالم الإسلامي ، الّذين يحضرون الحجَّ لإلقاء محاضراتٍ في التوعية الإسلامية ، وتوجيه وفود المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، إلى ما فيه صلاحٌ لشعوبهم وبلادهم بصفةٍ خاصَّة ، وللعالم والإنسانية بصفة عامَّة ، وتدعو لحضور هذه الحفلات والندوات ، والاستفادة من حصيلة دراسة هذه النخبة من قادة الرأي ، وأقطاب الفكر ، وزعماء العالم الإسلامي من تصل إليه الدعوة من الحجاج ، وأعيان البلد الحرام ، وأساتذة الجامعات ، والشباب المثقفين ، وقد كان لهذه المحاضرات القيمة ، والندوات العلمية أثرٌ ملموسٌ في الأوساط العلمية ، والدينية ، وقد كانت فيها إنارةٌ لكثيرٍ من الحجاج الوافدين من أنحاء بعيدة ، وإثارةٌ للمعاني الكريمة ، والمشاعر الطيبة ، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٨].

وقد طلبت الأمانة العامة للرابطة من العلامة الندوي ـ الأمين العالم لدار العلوم ـ ندوة العلماء وعضو المجلس التأسيسي للرابطة ـ الّذي جاء ليحضر الدورة الخامسة عشرة للرابطة إلقاء محاضرةٍ ، في موضعٍ يهمُّه ويهمُّ المسلمين في حفلةٍ من الحفلات العامَّة التي نظمتها الرابطة ، في أواخر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة سنة ١٣٩٣ هـ ، وآثر سماحة الشيخ الندوي أن يكون حديثُه ذا صلة بالمعركة الحاسمة التي خَاضَها العرب المسلمون في

www.abulhasanalinadwi.org

شهر رمضان المبارك ، التي كانت لا تزال تشغل العقول والأقلام ، وكان لها أثرها البعيد في تاريخ العرب والمسلمين ، والتي لم يمضِ عليها أكثر من شهرين ، فأعد العلامة الندوي محاضرةً بعنوان «الأمة العربية المسلمة تكشف نفسها» ألقيت في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ.

استعرض العلامة في هذه المحاضرة اكتشاف الشعوب والأمم ، والأفراد ، والقادة لأنفسهم ، وطاقاتهم ، ورسالتهم في عصورٍ مختلفةٍ ، وأمكنةٍ مختلفةٍ ، وما كان لهذا الاكتشاف الجماعي والفردي من أثر بعيدٍ في الأوضاع ، ومصائر الأمم ، وتغيير منحى التاريخ ، وتحويل التيار ، وقد ضرب لذلك أمثلة ، واستشهد بحوادث قد أملت للكتاب تاريخاً جديداً ، وأرغمت العالم على أن ينحو نحواً جديداً ، وذكر أنَّ التاريخ كلَّه خاضعٌ لاكتشاف فرد لنفسه ، أو أمّة لنفسها ، وانتهى في هذه الدراسة والاستعراض التاريخيِّ إلى أنَّ العرب بدؤوا يكتشفون أنفسهم ، في الفترة الأخيرة ، ويعرفون ما أكرمهم الله به من وسائل وطاقات لحماية شرفهم ، ومصالحهم الاجتماعية ، ومقدساتهم الإسلامية ، ويعرفون مدى تأثيرها في واقع الحياة ، وعقلية الشعوب المعاصرة ، والقوى الكبرىٰ ، وما يطلب هذه الاكتشاف من وعيٍ أشمل ، وأقوى ، وكفاحٍ أثبت وأطول ، وإيمانٍ أرسخ وأعمق.

وقد قدَّم العلامة سعادةُ الأستاذ حسين سراج مدير عام رابطة العالم الإسلامي ، واستمع إلى المحاضرة جمهورٌ كبير ، يتقدمهم معالي الأمين العام للرابطة الشيخ محمد صالح القزاز ، وعددٌ من أعضاء المجلس التأسيسي ، وكبار الأساتذة ، ورجال العلم والثقافة ، وأعيان الحجاج ، من بلادٍ مختلفة ، وكانت تترجم بعدَّة لغات في وقتٍ واحد ، وتلقيت هذه المحاضرة باستقبالٍ واستجابة ، وهدوء واهتمام ، وعلَّق عليها الزعيم المغربي الشهير معالي الأستاذ علال الفاسي ، وأبدى إعجابه بها وتأييده لها ، وتلاه الشيخ محمد محمود الصواف ، وعززها بخطابته القوية ، وإيمانه المتقد ، وأشاد بمعانٍ وردت في هذه المحاضرة ، وعقبه الأستاذ محمود بن الشريف الأستاذ بكلية الشريعة بمكة المكرمة ، ونوّه ـ بصفةٍ خاصة ـ بتعبير

www.abulhasanalinadwi.org

ورد في هذه المحاضرة ، وتمنى أن تنتشر هذه الفكرة ، ويروج هذا التعبير ، وهو تعبير العلامة الندوي «صناعة الموت» وطلب من الرابطة أن تبادر إلى نشر هذه المحاضرة على نطاقٍ واسعٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

اكتشاف العرب لأنفسهم وللحقيقة. واكتشاف العالم للعرب عند البعثة المحمدية :

أما بعد: فإنه يسعدني أن أتحدَّث عن اكتشاف الأمَّة العربية الإسلامية لنفسها في هذه الفترة الحاسمة الدقيقة في تاريخ العرب والمسلمين في هذا البلد الطيب المبارك ، الذي اقترن فيه اكتشاف العرب لأنفسهم ، وطاقاتهم ، ومواهبهم المذخورة المطمورة في ركام الجاهلية ، وأنقاض الخرافات ، والوثنية حين أكرمهم الله بالإسلام ، والفهم الصحيح لغاية الحياة ، وحكمة الكون ، وقدرة الله وعدله ، وكرامة الإنسان وشرفه ، ومعرفة مدى جهل الإنسان للخالق والخلق ، وإهانته لنفسه ، وظلم الإنسان للإنسان ، وتسخير فردٍ لفردٍ ، واستعباد قويٍّ لضعيف ، وتضييعه لطاقاته ، وجهاده في غير عدوٍّ ، اقترن كلُّ ذلك باكتشاف العالم لهذه الأمَّة الضائعة التالفة ، المجهولة المغمورة ، المعزولة المفصولة ، وبالأصحِّ المنعزلة المنفصلة عن سائر الشعوب والأمم ، المنطوية على نفسها ، الساهية الحالمة ، المسترسلة في خيالها الواسع ، وفي شعرها الرقيق ، وفي تقاليدها البدوية ، وفروسيتها الطبعية ، ولغتها العبقرية ، وبطولتها الفردية المحلية ، وحروبها وغاراتها القبلية ، واكتشافها لإيمانها العميق ، وإرادتها القوية ، وحماستها الملتهبة ، ورقَّة شعورها ، وعطفها على الإنسان والإنسانية .

فكان اكتشافاً مزدوجاً مقروناً لا نظير له في التاريخ ، فيه كلُّ سعادةٍ للبشرية ، ونهوضٍ للإنسان ، وتحويلٍ لمجرى التاريخ ، ومفاجأةٍ لمن عرف هذه الأمة من قديم ، ولم يعرف إلا تاريخ الفتوح والثورات ، والمغامرات والبطولات ، وجهل حقيقة النبوة والرسالة السَّماوية ، وأعماقها ، وآفاقها ، وما تبدي من معجزاتٍ وما تصنع من عجائب .

www.abulhasanalinadwi.org

قران السعدين الفاصل بين تاريخين:

ففي هذا البلد تمَّ «قران السَّعدين» بالمعنى الحقيقي ، حين قرن سعد الأمة العربية بسعد المجموعة البشرية ، وعلى غلوة(١) من هذا المكان الذي نلتقي فيه نزل الوحي الأوَّل على محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي ﷺ ، فولد العالم من جديد ، وعاشت الإنسانية من جديد ، ووجد العالم ، واكتشف كلَّ ما فقده وجهله من الحقائق الثابتة والمعاني الكريمة ، والأخلاق النبيلة ، والغايات الرشيدة ، والعلم الصحيح ، والإرادة الخيرة ، فكان اكتشافاً ، إذا ذكر اكتشاف مغامر لقارةٍ مجهولة ، أو عالمٍ جديد ، كان إساءة إلى هذا الاكتشاف ـ اكتشاف الإنسان لنفسه وغاية حياته ـ الاكتشاف الذي جعل الإنسان يستأنف رحلةً جديدةً في عالمٍ لا حدود له ولا ثغور ، ويكتشف من العلوم النافعة ، والإمكانيات الواسعة ، وأبعاد الإنسانية ، وآمادها ، وأعماقها ، وأسرار الكون ، وصفات الخالق جلَّ وعلا ، ومجالات خدمة الإنسان وإسعاد البشرية ، ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

الاكتشاف أقوى عامل في صياغة التاريخ وتغيير الأوضاع:

أيها السادة! إنَّ تاريخ الحضارة البشرية ، والتقدُّم الإنساني ، وكذلك تاريخ الثورات والانقلابات لا يدين لشيءٍ مثل ما يدين لاكتشاف فردٍ لنفسه ، وفوق ذلك اكتشاف أمَّةٍ لنفسها ، وما تاريخ نهضة الأمم ، وتطور المدنية والاجتماع ، وصمود المجتمعات ، وهبوطها ، إلا قصة اكتشاف بعض الأفراد لأنفسهم ولطاقاتهم المجهولة ، واكتشاف أمَّةٍ ظلَّت قروناً مطيةً لشهوات المستعبدين لها من أفرادها ، وأفراد أممٍ أخرى يتَّخذونها بقرةً حلوباً ركوباً ، يحلبون ضرعها ، ويركبون ظهرها ، ويجزُّون صوفها ، ويسيئون علفها ، وسقيها ، وهي تجهل أصالتها ، وكرامتها ، وطاقاتها ،

(١) الغلوة: رمية أبعد ما تقدر عليه ، ويبعد غار حراء من مكان المحاضرة رمية سهم تقريباً.

www.abulhasanalinadwi.org

ومواهبها ، وما أكرمها الله به من ثرواتٍ إنسانيةٍ ، ومعدنيةٍ ، وصناعيةٍ ، وطبعيةٍ ، فلا تكون قنطرة لنقل البضائع ، أو حمالاً حقيراً للشحن والتفريغ .

ثم تحدث حادثةٌ حين يريد الله بهذا الفرد أو الأمة خيراً ، تكشف لهذا الفرد أو الأمة مكانتهما الحقيقية ، ووضعهما الصحيح ، وتعرفهما بقوتهما ، وبقدرتهما على النفع والضرر ، والدفاع عن النفس ، وحمايتها عن الإهانة والظلم ، فيفاجىء هذا الفرد العصامي أو الأمة العبقرية كلَّ العالم المعاصر ، ويبهر الألباب ، وينفي المسلمات ، ويكذب القياسات ، ويغيِّر مجرى الحوادث . وما تاريخ القيادات والزعامات ، وما تاريخ الأمم والمجتمعات ، إلاَّ قصةٌ متشابهةٌ لهذه المفاجآت ، أو الاكتشافات ، وقد تكون حادثةٌ تافهةٌ لا تسترعي الانتباه ، ولكنها تلهب الجمرة الضعيفة الأخيرة من غيرة الفرد أو الأمة ، وتدفُّق تلك القريحة ـ ولا أعني بها القريحة الشعرية ، إنما أريدها بالمعنى الواسع ـ الجامدة الهامدة ، فيسقط الغطاء عن القدر ، وينطلق التيار الكهربائيُّ القويُّ ، ويتدفَّق السيل الذي سدَّ طريقه حجرٌ ، أو صخرةٌ ، فزالت ، فإذا هو فردٌ غير الفرد ، وإذا هي أمَّةٌ غير الأمَّة .

والتاريخ الإنساني والإسلاميُّ يحدثنا عن هذه الاكتشافات والمفاجآت الفردية التي غيرت مجرى التاريخ ، ليس تاريخ هؤلآء الأفراد فحسب ، بل تاريخ الأمم والمجتمعات بأسرها ، فدحرت العدو على أعقابه ، وحطَّمت سلاسل العبودية والذلِّ ، وغسلت عاراً للهزيمة النكراء ، وعادت الأمة بفضل معرفة هذا الفرد لنفسه ولطاقات أمته ؛ أشرف ، وأقوى مما كانت في الماضي .

مثال من التاريخ البيزنطي الرومي :

والتاريخ مليء بالشواهد ، وإذا لم نوغل فيه كثيراً ، ولم نتقصَّ أخبار الأمم والمجتمعات تقصِّياً دقيقاً ، كفانا من التاريخ الإنساني العام قصة إمبراطور الدولة البيزنطية ، أو الدولة الرومية الشرقية ، الإمبراطور هرقل (Heraclius) الذي عاصر البعثة المحمَّدية والفتوحات الإسلامية ، والذي

www.abulhasanalinadwi.org

كتب إليه النبيُّ ﷺ ، ودعاه إلى الإسلام ، في قصةٍ مشهورة وردت في الصحاح ، وكتب السيرة ، وكان من حظه بأن يقاتل الجيوش الإسلامية التي ابتعثها الخليفتان أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، ويخسر ممتلكاته الشرقية.

لـغـزة تـاريـخيـة :

إنَّ قصته مع الفرس الزاحفين ، ومع المسلمين الفاتحين لغزة من ألغاز التاريخ التي لم يهتد المؤرخون الفلاسفة ، والمحلِّلون العلميون إلى فكها ، كما اعترف بذلك كاتب مقالة هرقل في «دائرة المعارف البريطانية» (Encyclopedia Britannica) فقد انقسمت حياته القيادية والحربية بين قسمين متناقضين تناقضاً حار في تعليله المؤرخون ، بين صموده الرائع ، وبطولته النادرة أمام الفرس الذين خضدوا شوكة الإمبراطورية الرومانية النصرانية ، وتوغلوا فيها إلى أقصى حد ، وأهانوها إهانةً لم تجربها من قبل في تاريخها الطويل ، وانتصاره على الإمبراطورية الفارسية ، ووصوله إلى قلبها ، واسترداده لملكه السليب ، ومجده الضائع ، وردِّ الاعتبار إلى هذه الإمبراطورية التي كانت تحكم نصف العالم ، وبين استكانته وضعفه أمام الجيوش العربية ، وانهزامه وتراجعه إلى عاصمة ملكه ، فإنَّه لما تمَّ له الانتصار على الفرس ، وبلغ الإمبراطور قمة مجده وذروة شهرته ، ابتلي بالعرب الذين لم يكن يحسب لهم حساب في ميزان الشعوب الفاتحة ، والمدنيات الزاهية الزاهرة ، فلم يزل يلقى هزيمةً بعد هزيمة ، وتراجعاً للجيوش الصليبية على إثر تراجع ، وفضيحةً تتلو فضيحةً ، حتى اضطر إلى أن يلقى على ربوع الشام نظرة الوداع بعينٍ تترقرق فيه الدموع ، وصوتٍ يقاطعه البكاء ، ويقول: سلامٌ عليك يا سورية ، سلاماً لا لقاء بعده.

إنَّ هذه اللغزة أعيت العقلاء الأذكياء من فلاسفة المؤرخين ، وحذاق المؤلفين ، حتى قال كاتب مقالة هرقل في «دائرة المعارف البريطانية»: «إنه قفلٌ مفتاحه مفقود ، لأنَّ الفجوة التاريخية الواقعةِ ، بين عهد هرقل ، وبين هذا العهد والإحاطة غير الكافية بأحواله الشخصية تمنعان من التوصل إلى نتيجةٍ ، والجزم بشيءٍ في هذا الموضوع».

www.abulhasanalinadwi.org

تحـول فـي حيـاة هـرقـل واكتشـافـه لـنفسـه ، مـفتـاح هـذا الـقفـل :

ولكن اسمحوا لي أيها السادة أن أقول : إنَّ المفتاح موجودٌ ، إنَّه مفتاحٌ ميسورٌ لكلِّ من شرح الله صدره للإسلام ، وفتح بصيرته للاستنتاج الصحيح . إنَّ الإرادة الإلهية القاهرة هي التي نفخت في هرقل روحاً جديدة لتحقيق نبوءة القرآن[١] التي جاءت في سورة الروم ، وهي قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ١ ـ ٥] .

إنَّ تاريخ الدولة البيزنطية يحدِّثنا على لسان أكبر مؤرخيه جيبون (Gibbon) : إن هرقل كان في قرطاجنة (Carthage)[٢] وكان ابن حاكم إفريقية الرومي ، ولم يكن شيءٌ يدلُّ على عصاميته ونبوغه ، أو عبقريته القيادية .

ولما قتل فوقس (Phocas) المغتصب ، إمبراطور الدولة البيزنطية الشرعي موريس (Maurice) سنة ٦٠٢ م وانتهز الفرس هذه الفرصة للزحف على الدولة البيزنطية[٣] دعي من قرطاجنة فقتل فوقس ، وبويع بالملك ، واستثار الرومان غيرته الدينية والوطنية ، فلم يلقوا استجابة ، وعقد النية

---

(١) جاءت هذه النبوءة في السنة الخامسة من البعثة سنة ٦١٥ هـ ٦١٦ م والدولة الرومية الشرقية في احتضار تلفظ نفسها الأخير ، وقد تحققت هذه النبوءة في ظرف تسع سنين ، وتمَّ انتصار هرقل على الدولة الفارسية ، وطردها من حدود المملكة الرومية في سنة ٦٢٥ م للسنة الثانية للهجرة وعند معركة بدر .
اقرأ للتفصيل مقالة العلامة الندوي «نبوءةٌ تتحدَّى ومعجزةٌ تتحقّق» البعث الإسلامي عدد / ٤ ج/ ١٥ رمضان ١٣٩٠ هـ .

(٢) مدينة قديمة في إفريقية أسسها الفينيقيون في ٨١٤ ق . م . وبمقربةٍ من أطلالها قامت مدينة تونس .

(٣) اقرأ للتفصيل وأسباب هذا الزحف في مقالة العلامة الندوي «نبوءة تتحدى ومعجزة تتحقق» .

www.abulhasanalinadwi.org

على المحافظة بالبقية الباقية من الملك ، وفكر في العودة إلى قرطاجنة والالتجاء إليها ، وقد بلغت الإمبراطورية أوجها من الذلّ والهوان ، وقطعت الميرة عن العاصمة بعد قيامها لأول مرة ، واستولى الفرس على مصر درّة الإمبراطورية الشرقية ، وانتشرت المجاعة في العاصمة ، وفي ذلك الحين جاءته رسالة الإمبرطور خسرو[١] ، يطالبه بالأتاوة المهينة ، وتقديم ألف فتاة رومية كلّ سنة ، واحتوت هذه الرسالة على كلماتٍ لاذعةٍ مثيرةٍ حركت غيرته ، وألهبت فيه الشرارة الكامنة التي كادت تنطفىء فاستشاط غيظاً ، فإذا بين مسوح الضأن ليث ثائر ، وقد بلغت الإمبراطورية من الفقر والعجز المالي ، إلى أن اضطر الإمبراطور إلى استدانة الكنائس ، والاستعانة بنذورها ، وأوقافها ، وقاد الجيوش إلى حدود الإمبراطورية الفارسية ، يهزم جيشاً بعد جيش ، ويفتح بلداً بعد بلد ، حتى غرز راية الفتح في قلب فارس ، وفتح نينوى ، ودست جرد ، وترامت جيوش الإمبراطورية الفارسية على أقدامه ، وعاد إلى عاصمته ظافراً منتصراً.

إنَّ السرَّ في ذلك ـ أيها السادة ـ هو اكتشاف هرقل لنفسه ، وطاقاته الدفينة ، وقدرة أمّته على أخذ الثأر ، وغسل العار ، وتهيؤها لذلك ، وقد آن أوانه فبرزت من شخصيته شخصيةٌ لم يكن يعرفها هو نفسه ، ولم يكن يعرفها قومه. وكلُّ ما وقع بعد ذلك هو امتدادٌ هذا الاكتشاف الرائع ، ونتيجةٌ حتميةٌ لهذا العثور على كنز دفينٍ مطمورٍ.

فرق بين اكتشاف فرد واكتشاف أمة وبين اكتشاف طاقة واكتشاف رسالة :

ثم لكم أن تتساءلوا ـ أيها السادة! ـ فلماذا انهزم هذا القائد العبقري الذي بهر العالم بهذا الفتح المبين ، والمقدرة القيادية الساحرة أمام جيوشٍ لم تبلغ معشار ما بلغته الجيوش الرومانية من التنظيم والتسليح ، والعَدد والعُدد ، والبراعة في صناعة الحرب وفنونها ، وقد تلقحت معرفتها ومراسها للحرب مع معرفة الفرس ، ومراسهم للحرب ، وأساليب قتالهم كما هي العادة في حرب مملكتين عظيمتين قد بلغتا في الصناعة الحربية

(١) وهو الّذي يسميه المؤرخون العرب «بكسرى أبرويز» وهو ابن هرمز وحفيد نوشروان.

www.abulhasanalinadwi.org

والإستراتيجية أوجها ، انهزم أمام هذه الجيوش العربية التي وصفها أحد مؤرخي العرب المنصفين بأنها كانت «مرقعة الثياب ، بالية الأجفان ، متقطعة الغرز(١)» .

والجواب ـ أيها السادة ـ هو ما قررته في مفتتح حديثي :

إنه اكتشاف لطاقة جديدة ، لقد اكتشف العرب بفضل الإسلام عن نفوسهم وطاقاتهم ، وسموِّ الرسالة التي كانوا يحملونها ، وفضل الغاية التي كانوا يقاتلون لأجلها ، ومدى شقاء الإنسانية ، وبلاء الأمم والشعوب في ظلٍّ حكم الرومان والفرس ، وإيمانهم بأنَّهم مكلفون مأمورون ، مهيؤون مقدرون لهداية الأمم ، وإنقاذ العالم ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وتصديقهم لقول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وتصديقهم لقوله ﷺ : «لتفتحُنَّ كنوز كسرى وقيصر» وكان هذا الاكتشاف الذي أكرمهم الله به عن طريق نبوَّة محمد ﷺ ، وعن طريق عقيدة التوحيد ، والنبوة ، وعقيدة الآخرة ، والإيمان بالقضاء والقدر ، ألاَّ نافع ولا ضارَّ إلا الله ، ولقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] ، ولقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

كان هذا الاكتشاف أقوى وأعمق من اكتشاف هرقل لنفسه ولشعبه ، وللإمكانيات والوسائل التي كان يتمتَّع بها ، إنه إذا كان اكتشاف فردٍ ، فإنَّ هذا اكتشاف أمَّة ، وإنه إذا كان اكتشافاً لفضل النصرانية ، المزيج بالتعليمات السماوية والميثولوجية الرومية الوثنية ، فإنَّ هذا اكتشاف لدين

(١) الركاب.

www.abulhasanalinadwi.org

جديد أساسه عقيدة التوحيد النقي الخالص ، الذي لم يشبه شيئاً من وثنيات الأمم البائدة ، والفلسفات القديمة ، إنه إذا كان اكتشافاً لكرامة الموت في سبيل الوطن وشرف الأمة ، فإنَّ هذا اكتشافٌ لفضل الشهادة في سبيل الله ، والجهاد لإعلاء كلمة الله ، إنَّه الاكتشاف الثاني الذي سعد به العرب في فجر الإسلام ، وفي منتصف القرن السادس المسيحي ، فاق وبرز على كل اكتشافٍ يحدّثنا عنه تاريخ الأمم والديانات ، والفتوح والمغامرات ، والانقلابات والثورات ، وتأسيس الحكومات وإنشاء المجتمعات ، إنه اكتشاف لم يعرف تاريخ البشرية اكتشافاً أعمق جذوراً ، وأبعد مدىً ، وأوسع أفقاً ، وأطول زمناً من هذا الاكتشاف .

تاريخ الحكومات والفتوح والإصلاحات خاضعٌ لاكتشاف بعض الأفراد والجماعات :

ونواصل رحلتنا في التاريخ الإسلامي ، فنرى جميع التحولات في التاريخ التي تفصل بين عهدٍ وعهد ، واتجاهٍ واتجاه ، وتنحو بالمجتمع الإسلامي نحواً جديداً ، وتملي على الكتاب والمؤلفين تاريخاً جديداً ، خاضعةً دائماً لاكتشاف الأفراد لأنفسهم ، ولطاقاتهم المذخورة ، التي كانت تنتظر حادثةً أليمة ، أو ضرورةً ملحَّة ، أو دافعاً قوياً عنيفاً ، ثم خضعت الأمّة بأسرها ، والمجتمع الإسلامي بكامله لهذا الاكتشاف الفردي .

أمثلة من سيرة عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي :

وهذه قصة سيدنا عمر بن عبد العزيز ، الذي نشأ فتىً ناعماً رقيقاً ، كان مثال الأناقة والذوق ، وحسن الهندام ، وجمال الملبس ، فإذا به يفاجىء العالم الإسلامي كلِّه بشخصه العبقري ، وزهده العمري ، وإرادته القوية في تحويل المملكة والمجتمع الإسلامي إلى الحكم الإسلامي المحض ، والحياة الدينية الخلقية التي تتحكم فيها المعايير الإسلامية ، والقيم الدينية ، والمثل العليا ، وقد تمَّ كلُّ ذلك وتحقَّق في سنتين وبضعة أشهر .

وهذه قصة داحر الصليبيين وبطل حطين صلاح الدين بن أيوب الكردي ، الذي لم يزل يجهل نفسه وطاقاته ، والغاية التي خلق له ، والمهمة التي

www.abulhasanalinadwi.org

اختير لها ، والمواهب التي فطر عليها ، إلى أن أرسله مربيه السلطان نور الدين الزنكي ، إلى مصر قسراً وإصراراً ، وقد اعترف بنفسه كما ذكره كاتبه ، وأمين سره ابن شداد : أنه لم يتوجه إلى مصر إلا امتثالاً لأمر سيِّده ، وصاحب الفضل عليه ، وأنه لم يكن ذلك عن طواعية وطيبة نفس ، وقال : آمنت بقوله : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾[1] [البقرة : ٢١٦] ، وكان وروده إلى مصر مقدمة حروبه مع الصليبيين ، واسترداد القدس والمسجد الأقصى ، والذي بقي في حوزة الصليبيين تسعين سنة .

وقد ذكر ابن شدَّاد أنَّه لمن يكن على جانبٍ كبيرٍ من الورع ، وقد نشأ نشأة أبناء الأمراء وقواد الجيش ، قبل أن يُهيَّأ للأمر العظيم ، ولكنه لما سمت همَّته ، وتاقت نفسه إلى تخليص الأماكن المقدسة ، وإجلاء الصليبيين الذي بدؤوا يتحدَّون الحرمين الشريفين ، وتسول له نفوسهم الاعتداء على أقدس الأماكن ، وأعز الشعائر والذخائر عند المسلمين ، انكشفت له وللعالم شخصيةٌ جديدةٌ ، تبعتها حياة جديدة ، وأخلاقٌ جديدة ، فإذا هو بمولودٍ جديدٍ لا يعرف اللذة والعزة في غير مقاتلة الصليبيين المعتدين ، واسترداد المسجد الأقصى وفي غير الجهاد في سبيل الله ، حتى يقول ابن شداد : إنه إذا كان أحدٌ أراد أن ينال منه مطلباً ، ويحقق غرضاً تحدَّث عن الجهاد ، فكان هو الطريق الميسَّر الأقصر لتحقيق المطالب منه والانتفاع به[2] .

أمثلةٌ من تاريخ الشعوب والسلالات الفاتحة المؤسسة للحكومات الكبيرة :

هذه قصة الأفراد أيها السادة ، حين يكتشفون نفوسهم ، ويعثرون على طاقاتهم المخبوءة الدفينة ، أو يسمعون هتافاً غيبياً يدعوهم إلى ساحة الجهاد ، والتفاني في سبيل استرداد الحقِّ السليب ، والكرامة الضائعة ، والأرض المغصوبة ، أما قصة اكتشاف الشعوب والأمم لنفسها ولطاقاتها ، أو لرسالتها ودورها ، الذي يجب أن تمثله على مسرح التاريخ ، ومنصة

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص/ ٣١ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص/ ١٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

الأمم ، وحلبة العالم ، فهي قصةٌ طويلة تطلب مجلداً ضخماً ، بل مكتبةً تاريخيةً كاملة ، ويكفيني في هذه الوقفة القصيرة ، أن أشير إلى نهضة السلاجقة ، وآل عثمان في آسيا الصغرىٰ ، وغرب آسيا ، وإلى الأسرة الغزنوية ، والغورية ، والشعب الأفغاني ، والسلالة المغولية في شبه القارة الهندية ، فقد اكتشفت كلٌّ من هذه الشعوب والسلالات نفسها وطاقاتها المذخورة المسعورة التي لم تزل بكراً ، ولم تزل كنزاً دفيناً طيلة قرون ، فجاء الإسلام فأثارها ، وأخرجها من قفصٍ ضيقٍ مظلمٍ ، كانت تعيش فيه إلى عالمٍ واسع لا تتصل به بصلة ، فإذا بالإسلام يمنحها عقيدةً وغايةً للحياة ، ورسالةً للإنسانية ، ويمنحها ثقافةً وحضارةً ، فتخرج من دنياها المحدودة الضيقة ، وتعنى بقضايا الإنسانية ومصيرها ، وتؤسس حكوماتٍ واسعةٍ أولها في كاشغر ، وآخرها في أنطاكية ، ويرقُّ شعورها ، ويسمو ذوقها ، وتشتعل مواهبها وقرائحها ، فتبلغ شأواً بعيداً في الشعر ، والأدب ، والعلوم ، وفي الفن المعماريِّ حتى تضارع في ذلك أرقى الأمم والسلالات العريقة في المدنية والثقافة ، وتفوقها في أكثر الأحيان ، وفي تاريخ السلاجقة ، والعثمانيين ، والغزنويين ، والمغول ، وآثارهم في نيسابور وأصفهان وفي الأناضول ، وفي شبه القارة الهندية ، ما يبرهن على ذلك .

اكتشاف العرب لطاقاتهم ووسائلهم في الفترة الأخيرة :

ولكن قصة العرب في الأيام الأخيرة وقصة اكتشافهم لنفسهم وطاقاتهم ، وهي قصة تختلف عن قصة الأفراد والجماعات التي تحدثنا عنها ، وعن قصتهم أنفسهم عند ظهورالدعوة الإسلامية ، فلم يكن العرب بعد ما أكرمهم الله بالإسلام ، وكتب لهم فيه السبق والفضل ، وخصَّهم بالإمامة فيها في يومٍ من الأيام في حاجةٍ إلى دينٍ جديدٍ أو نبوةٍ جديدةٍ ، أو رسالةٍ جديدةٍ ، لقد ظلوا ـ والحمد لله ـ مؤمنين بالدِّين الذي انبثق نوره من أرضهم وانتشر في العالم ، فلم يكن هناك محلٌّ اكتشاف لحقائق غيبية جذرية ، أو قفزةٍ من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الوثنية إلى التوحيد ، ومن الخرافة إلى العلم ، فقد ربط الله مصيرهم بمصير هذا الدين ، رضوا ،

www.abulhasanalinadwi.org

أو كرهوا ، وعرفوا هذه النعمة ، أو جهلوها ، لا يستطيع أن يقطع صلتهم من هذا الدين ، ويحول بينهم وبينه ، زعيمٌ أو قائدٌ ، أو فيلسوفٌ ، أو مفكرٌ.

محنة العرب في عهد الغزو الفكري الأوربي والقيادات الزائفة المنحرفة :

إنَّ جل الأمر أنه تراكم على جوهرهم النقيِّ غبارٌ بتأثير الغزو الفكري الأوربي ، فكان كثيرٌ منهم فريسة الدعوة القوميَّة ، أو الاشتراكية ، أو الشيوعية في هذا العهد الأخير . وابتلوا بقياداتٍ كانت من أشد القيادات في العالم جهلاً لشخصية الأمَّة العربية الإسلامية ، ومقومات حياتها ، ومنابع قوتها ورسالتها الخالدة التي أكرمها الله بها ، وكانت أجهل القيادات للطاقات المذخورة في نفس هذه الأمة ، وطرق إثارتها ، وإلهابها ، واستخدامها في صالحها ، وفي صالح الإنسانية ، أو الأمر بالعكس ، فكانت هذه القيادات الذكية من أعرف القيادات وأشدها عداءً لها وحرباً عليها ، ترى ذلك عقبة كؤوداً في سبيل تحقيق أغراضها السياسية وتطبيق مشاريع أصدقائها الأجانب ، وتحقيق مخططاتهم ، فتحاربها حرباً لا هوادة فيها ، وتكرِّس جهودها وذكاءها ووسائلها على إزالتها والقضاء عليها ، وتجفيف منابع الإيمان والغيرة ، والعاطفة الدينية في نفس هذه الأمة ، حتى يزول الخطر كلياً ، ويصفو لها الجو ، لأجل ذلك تخوض هذه القيادات حرباً داخلية هي أشد وأعنف وأطول ، وأعمق من حربها مع قوى الاستعمار ومع الصهيونية ، وتبذل كلَّ ما تملك من طاقاتٍ ووسائل في إزالة ما نسميه الركام العقلي ، أو الأنقاض التاريخية.

الفوضى الفكرية والاضطراب العقائدي والخلقي :

وابتليت الأمة العربية كذلك بأساتذةٍ وكتابٍ متشكِّكين ، ومشكِّكين ، وقد تلقوا ثقافتهم في العواصم الأوربية ، وجامعاتها الشهيرة ، آمنوا به إيماناً راسخاً ، وكانوا نسخةً فكريةً ثقافيةً صادقةً لأساتذتهم الغربيين ، ورسلاً للثقافة والأفكار الغربية ، وأكثر إخلاصاً وحماساً من أساتذتهم ، وأكثر جراءةً ـ إذا لم أقل وقاحةً ـ من هؤلاء المستشرقين ، فشكَّكوا الجيل

www.abulhasanalinadwi.org

الجديد المثقف في كلِّ ما يقوِّي روحه ، وينمِّي العواطف الإسلامية ، ويغذِّي عقله المؤمن ، ويؤهِّله للدفاع عن مقدساته وشعائره ، ويقوِّيه على مقاومة الإغراءات المادِّية والصمود في المعترك الحربيِّ ، والخلقيِّ ، والعقائديِّ ، وأضعفوا الثقة ، وأفقدوها بتاتاً بمنابع الدِّين الأصلية ومصادره الأولية ، وشكَّكوا حتى في شخصيته ، وفي تاريخه ، وصلاحيَّة لغته وأدبه ، وخلود رسالته ، وفضل التشريع الإسلاميِّ ، وصلاحية الإسلام لمسايرة الزمن فضلاً عن سبقه للزمن ولقيادته للركب البشريِّ ، وهم «المسؤول الأول» عن هذه البلبلة الفكرية التي تعانيها الأمة العربية منذ ستين سنة تقريباً ، وكانت من أكبر أسباب النكبات التي نكبت بها ، وفي مقدمتها نكبة ٥ حزيران ، وساعدت على ذلك حركة الطبع والنشر التي قويت في العصر الأخير في بعض العواصم الكبرى ، وتدفَّقت كالسيل العارم ، تحمل معها الغث والسمين والزبد الطافي ، والتي تحررت من كلِّ قيدٍ ، وليس دافعها إلا الارتزاق أو الرواج ، ولو كان على حساب الأخلاق والأعراض .

عزلةٌ عن حياة الفروسية والمغامرات والحماس الدينيِّ :

ويضاف إلى ذلك أنَّ الأمة العربية بقيت مدةً طويلةً بعيدةً عن حياة المغامرات ، وما تطلبه من تضحيةٍ وتقشُّفٍ ، وفروسيَّة ، وقد أقصيت عن ميدان الحروب ، وقيادة الجيوش بعد تغلب العنصر التركي والفارسي على الخلافة العباسية ، وتملّك السلاجقة والأتراك لزمام الأمور ، وظلَّت أربعة قرون متواليةٍ تحميها الدولة العثمانية التي كانت تحكم الأقطار العربية من غربها إلى شرقها ، وكانت مسؤولة عن حماية المقدسات الإسلامية ، والقدس ، والحرمين الشريفين ، فلم يسنَّ للأمة العربية أن تكتشف طاقاتها وصلاحيتها ، وأن تعيد تاريخ الفروسية العربية ، والنخوة الإسلامية إلا ما كان منها في المغرب العربي ضدَّ الاستعمار الفرنسيِّ والإيطاليِّ .

وجاء دور الاستقلال للأقطار العربية ، فأقصي العنصر المكافح الذي تولى كبر الحرب ضد الاستعمار ، واكتوى بنارها ، ذلك العنصر المؤمن الذي دفعه إلى جلاء المستعمر وتحرير البلاد إيمانه القوي ، وحماسه

www.abulhasanalinadwi.org

الدينيُّ ، وتربيته الإسلامية ، وخلفه العنصر المثقف بالثقافة الجديدة الذي استطاع أن يصل إلى كرسيِّ الحكم ببراعته في أساليب السياسة الجديدة ، وحذقه للغات الأجنبية ، وقدرته الفائقة على الدعاية ، وتمتعه بثقة القوى الاستعمارية الأجنبية ، ولم يستطع بحكم ثقافته ـ أو لم يرد بالأصحّ ـ أن يبعث في الأمة قوة الإيمان وروح الفروسية ، والاستماتة في سبيل الله ، والاستهانة بالحياة واللذات ، والتمرد على الشهوات ، واستطابة الموت ، والحنين إلى الشهادة ، وروح الإيمان ، والاحتساب التي أشار الله إليها بقوله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤].

فتساووا في ميزان القوة العددية والحربية ، بل فاق عليهم منافسوهم في الحبِّ للوطن ، والفداء له ، والإخلاص للأمة .

ورافق دور الاستقلال انتشار أسباب الثروة ، والانكشاف عن ينابيعها الطبيعية والصناعية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، فرافقه بطبيعة الحال البذخُ ، والرِّقَّة ، والرَّخاوة ، وأضعف كلُّ ذلك روح الفتوة ، والتقشُّف ، والصَّبر ، وقوة الاحتمال للمكاره .

حروب في غير حريةٍ وعزم :

وقد خاضت الأمَّة العربية في حربين مع إسرائيل كانتا خليقتين بإبراز صفاتها البطولية ، ونفض الغبار عنها ، الأولى : حرب ١٩٤٧ م ، والتي اشتركت فيها جيوش سبع دولٍ عربية ، والثانية : حرب ١٩٦٧ م التي تزعمتها مصر ، ولكن الأولى لم تكن حرباً حرَّة تبرز فيها صفات الجيوش العربية الحقيقية كلَّ البروز ، لأنَّ حبلها كان في يد المؤسسين لإسرائيل ، وكانت قوى الاستعمار هي التي تملك زمامها ، وكانت قيادة فوق جميع القيادات . أما الثانية ، فكانت بمسرحيةٍ أو بروايةٍ من روايات «ألف ليلة وليلة» أشبه منها بحربٍ جدِّيةٍ حاسمةٍ ، ومعركةٍ حقيقيةٍ فاصلةٍ ، كما تبَيَّن ذلك للمبصرين في كلِّ مكانٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

أهميـة «صنـاعـة الـمـوت» فـي حيـاة الأمـم:

وكادت الأمة العربية تنسى «صناعة الموت» الصناعة التي إذا لم تتعلمها أمَّة ولم تحسنها، ولم تستطع أن تحيا حياةً كريمةً ولم تخوَّل حقَّ البقاء، وكادت تتجرَّد عن كل ما يخاف مغبته المستعمر الأجنبيُّ، والعدوُّ المنافس، أو الغاصب المهدر لكرامتها.

الـقـدرة عـلـى الـنفـع والضـرر نـعمـةٌ كـبيـرة:

وقد خلق الله أضعف مخلوق في هذا الكون، مع سلاح يدافع به عن نفسه، ويحمي به وجوده وحياته، ولم يحرم الحشرات الضعيفة هذا السلاح الذي قد لا يرى إلا بمكبرة، وقد لا يجربه الإنسان إلا في أحيان نادرة، وعلى ذلك قام نظام هذا الكون، والإنسان مفطورٌ على احترام القوَّة، والتوقِّي من الضرر، والتفادي من الأذى، وإذا شعر هذا الإنسان ـ مهما أوتي من العقل والعدل ـ بموضع الضعف في عدوِّه وحرمانه من هذا السلاح الواقي اجترأ عليه، ولم يراع له حقّاً ولا ذمَّةً، ولم تأخذه به رأفةٌ، حتى الأمُّ التي لم يخلق الله في هذا الكون وجوداً أكثر حناناً، ورقَّةً، ورأفةً، ورحمة منها لأولادها وأفلاذ أكبادها، قد تبخس حقَّ الطفل الذي لا يعرف البكاء، والاحتجاج، والشكوى، والعتاب، ولا يعرف كيف يبدي مشاعره، ويستجلب عطفها والتفاتها، وتؤثر عليه الطفل العنيد العاتي، الذي يأخذ حقَّه من الرَّضاع، أو الغذاء، ويفرض رغبته على البيت والأسرة.

وقد ذكر هذه الحقيقة شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ببلاغةٍ شعريةٍ، وحكمة نفسية «سيكلوجية» إذ قال:

«لقد تجلَّت حكمة الله في خلق الشوك الذي يحيط بالوردة اللطيفة الناعمة، وساعدت على نشوئهما وبقائهما الطبيعية الحكيمة، وليس إلى حفظ الورد والرياحين سبيلٌ إذا تجرَّد الشَّوك الذي هو سياجٌ لهذه الرياحين الرقيقة من قوة الحماية، وتخلَّق بأخلاق الحرير عوضاً عن الحديد».

www.abulhasanalinadwi.org

طلائع الفروسية والمغامرة ، وأثرها في اعتبارات الشعوب والأمم :

وقد ظهرت الفروسية العربية في الأيام الأخيرة في معركة رمضان ١٣٩٣ هـ ظهوراً غيَّر نظرة المستعمرين والناقدين للعرب المستهينين بشخصيتهم بعض التغيير ، وصاروا ينظرون ـ وقد بدت طلائع هذه الفروسية والمغامرة والصمود في ميدان الحرب ـ .

ولم تبلغ غايتها المتوخاة ـ إلى العرب نظرة فيها الاحترام وفيها الاهتمام ـ ، وليست المساحة التي تستولي عليها دولةٌ أو أمَّة هي كل شيء في ميزان القوة والانتصار والتقدير ، إنَّ المهمَّ هو ظهور روح المغامرة ، والفروسية ، والصمود ، واعتماد الأمَّة على سواعدها ، والإيمان بكونها على الحقِّ ، والقدرة على النفع والضرر ، والانتفاع بوسائلها ، وطاقاتها ، واستخدامها في استرداد الحقِّ ، وردِّ الاعتبار والكرامة .

وقد تجلَّى ذلك بوضوح لأوَّل مرَّةٍ في تاريخ العرب في الأيام الأخيرة حين استخدموا سلاح النفط ، الذي خلقه الله في أرضهم كسلاحٍ أمضى وأكثر تأثيراً من الأسلحة الحربية الكثيرة ، التي تعتمد عليها الدول والجيوش ، وقد اهتزَّ له العالم العربيُّ ، فلم يكن يحلم بأن العرب سيستعملونه كسلاحٍ ، يدافعون به عن حقوقهم ، أو يحمون به كرامتهم ، ويثبتون به قدرتهم على النفع والضرر ، وقد كان يعتقد أنهم ينفعون ، ولا يضرُّون ، وأنَّهم لا يفكِّرون إلا في مصالحهم الفردية ، والشعبية ، والمحلية ، وأنه ليس النفط إلا وسيلة للرفاهية ، والرَّخاء ، وأنَّهم قد تجردوا عن التفكير الاجتماعي والمصلحة الاجتماعية ، التي تقهر الشهوات ، وتتغلب على النزوات ، وتطغى على الأنانيات ، فكان مفاجأة للغرب غيَّرت كثيراً من الموازين ، وأخضعت عدداً من الدول والطاقات أمام هذا العزم الصادق ، والحزم الفائق ، فكان تطوراً في الأحكام ووجهات النظر لا مثيل له في تاريخ الماضي القريب .

www.abulhasanalinadwi.org

طريقٌ طويل إلى النصر:

وهكذا اكتشف العرب نفوسهم وطاقاتهم في الأيام الأخيرة ، فكان اكتشافاً له ما بعده في مصير هذه الأمَّة العربية الإسلامية ، وفاتحة عهد جديد ، لو استقام العرب على هذا العزم ، ولم يدبَّ الوهن إلى نفوسهم ، ولم يتطرَّق الفشل ، والتنازع إلى صفوفهم ، وصدقت عزائمهم في استرداد حقِّهم المسلوب ، وملكهم المغصوب ، وحافظوا على روح الفروسية والمغامرة ، واستهانوا بالحياة واستطابوا الموت في سبيل الدين ، والحق ، والعدل ، والعزِّ ، والكرامة ، والشرف ، وأضافوا إلى ذلك التقدم بعزم وتصميمٍ إلى الاكتفاء الذاتي ، والاستغناء عن الشعوب الغربية في كلِّ ما تتوقف عليه حياة أمَّةٍ شريفةٍ من أسلحة حربيةٍ ، ومصنوعاتٍ وطنية إلى موادَّ غذائيةٍ.

حربٌ على كلِّ شبح للخوف وكلِّ أثرٍ لمركب النقص:

ويحلو لي أن أختم حديثي هذا بقطعة شعرية قالها محمد إقبال يخاطب بها المسلم المعاصر ، ويثير فيه الاعتداد بكرامته ، والاعتزاز بشخصيته ، ورسالته ، ويحارب فيه مركَّب النقص ، وفقد الثقة ، وضعف الإيمان ، وأنا أعتقد أنَّه إذا عاش لخاطب العربيَّ المسلم الثائر الذي أصيب بجهل شخصيته وكرامته ورسالته وازدراء نفسه ، والحب الزائد للحياة ، والإشفاق من الموت ، بتأثير الثقافة الغربية العصرية ، والبعد عن ميدان المغامرة ، والطموح ، والفروسية منذ زمنٍ بعيدٍ ، يقول محمد إقبال:

«عجباً لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلى متى تظلُّ غافلاً جاهلاً ، وتجلس ضائعاً عاطلاً ، إنك نورٌ قديمٌ ، فأنرِ العالم ، وانسخ الليل البهيم ، ولا تزال اليد البيضاء في كمِّك ، تخطَّ حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها ، والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟! لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له ، وترصد به ، أعلم

www.abulhasanalinadwi.org

يقيناً ، أنَّ الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ، ولا يستردُّه ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان ، والحرمان من اليقين»[١].

* * *

(١) انظر : «روائع إقبال» ص/ ٩٨ للعلامة الشيخ الندوي.

www.abulhasanalinadwi.org

أجاهليـة بـعـد الإسـلام أيـهـا الـعـرب ! !

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في الحفل الّذي أقيم لتكريمه في مكة المكرمة في بستان عبد الله السليمان يوم ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٨٢ هـ (٢١ من إبريل ١٩٦٣م) .

وقد ضَمَّ عـدداً مشرفـاً من أساتـذة الجامعات وطلبتهـا ، وأعيـان البـلد والشيوخ ، ورجال العلم والفكر .

www.abulhasanalinadwi.org

أيها السادة الأجلاء! إنَّ هذه الحفلات التي تعقد لتكريم شخصٍ إن كانت لها قيمة ، فهي أنَّها تتيح للضيف أو الشخص المحتفى به فرصةً الاجتماع بمجموعةٍ طيبةٍ كريمةٍ من رجال الثقافة ، وقادة الفكر ، وصفوة البلد ، وتهيىء له فرصة التحدُّث إلى هذه المجموعة الكريمة في مكانٍ واحدٍ ، وفي جوٍّ هادىءٍ تسود عليه الثقة ، والتقدير ، وحسن الإصغاء ، وإن كان لشخصي المتواضع مبررٌ في أن يقبل التكريم من أصدقاء وإخوةٍ كرامٍ في هذا البلد المكرَّم ، فهو أن ينتهز هذه الفرصة الكريمة لحديثٍ يليق بجلال هذا المكان ، وخطر هذا الزمان ، وبالوقت الثمين الذي ينفقه هؤلاء الإخوة الصَّفوة في هذا الاحتفال .

إنها أمانة مقدَّسةٌ في أعناق الدَّاعين إليها ، وإنها أمانةٌ ثقيلةٌ دقيقةٌ في عنق من عقد هذا الاحتفال باسمه ولتكريمه ، فأرجو ألاَّ يسألنا الله جميعاً ولا يحاسبنا على ضياع هذه الفرصة الثمينة ، وعلى ضياعها في تكريم فرد ، وتزكيته على الله ، والشهادة له بما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة ، وفي الحديث الفارغ ، بل تكون هذه الحفلة المخلصة فاتحة خير ، إثارةً للمعاني الكريمة ، وإحياء لما اندرس من المعالم في النفس ، وتحريكاً ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ للقلق المبارك الذي كان مصدراً ومردّاً لكلِّ خيرٍ ، ولكلِّ تقدُّم ، ولكلِّ انقلاب صالحٍ في تاريخ الإنسانية ، ويرجع إليه الفضل الأكبر في سعادة البشرية وانتشار الأديان السماوية ، وانتصار الدعوة الإسلامية ، وعدم رضاً بالحياة ، ومتعها ، وزخارفها ، وعدم ارتياحٍ إلى الحاضر الموجود ، وطلب الغائب المفقود ، واستشرافٍ للمستقبل البعيد السعيد وطموح إلى المزيد الجديد ، وملل من الرَّخاء والرخاوة ، ولذَّةٍ في المجازفة والمغامرة ، وسآمةٍ من الرِّبح الدائم والنَّجاح المطرد ، ورغبة في التَّخلي عن بعض الفوائد والتحمُّل للخسارة في سبيل الصَّالح العام ، والمبدأ الحبيب .

إنه قلقٌ ساور النفوس في هذا الوادي لأول مرةٍ في التاريخ الإنساني بعد

www.abulhasanalinadwi.org

قرونٍ متطاولةٍ ، يوم لا يعرف الناس معنى القلق إلا في دائرةٍ ضيقةٍ ، محدودةٍ شخصيةٍ ، حسدٌ ، وبغضٌ ، وطمعٌ ، وحرصٌ ، وخوفٌ من الموت أو العدوِّ ، وإشفاقٌ من الفقر أو المرض ، وتذمُّرٌ من العدوِّ المتسلِّط ، أو الحروب الطاحنة الطويلة ، أو الغلاء الفاحش ، أو الضرائب المجحفة ، فأصبح فتيانٌ في هذا الوادي لأوَّل مرَّةٍ يقلقون لمعانٍ ، وحقائق أسمى وأوسع من هذه المعاني ، وألطف وأدقّ من هذه المعاني ، أصبحوا في قلقٍ عن الماضي الضائع ، والمستقبل الرهيب ، عن العقائد الضَّالة ، والأعمال القبيحة ، والأخلاق الفاسدة ، يستمدُّون قلقهم عن مصير الإنسانية البائسة ، وعن الوضع الخطير الذي يعيش فيه العالم ، وقوي هذا الشعور ، وغلب على كلِّ شيء ، حتى أقلق العالم ، وغيَّر مجرى التاريخ ، وأفاض السَّعادة والهناء على الإنسانية كلِّها .

سادتي الأجلاء ! لقد قال الشاعر العربيُّ قديماً(١) :

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليَّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

ومعذرتي إلى الشاعر الكبير ، فإنَّ لي كبداً مقروحة مثله ، ولكني لا أريد أن أبيعها ، فهي رأس مالي ، وعمدة بضاعتي ، ولذتي في الحياة ، ولا خير في حياةٍ لا قلق فيها ، ولا خير في إنسان ليس في جنبه قلبٌ جريحٌ ، وكبدٌ مقروحةٌ ، بل أود أن تكون لكلِّ واحد منكم كبدٌ مقروحةٌ ، وقلب دامٍ جريحٌ ، وإني مع الشاعر الذي يتنعم بهذا الألم ، ويلتذُّ بهذه المرارة ، ويعتبرها قيمة الحياة ولذة العيش ، ويقول لعذَّاله على هذا السكر الدائم(٢) :

وقالوا شربت الإثم كلاَّ وإنما ... شربت التي في تركها عندي الإثم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش ... ومن لم يمت سكراً بها فإنه الحزم

---

(١) اختلف في قائلهما فقد نسبا لابن الدمينة وللحسين بن مطير وللمجنون انظر «السمط» : ص ٦٦٠ .

(٢) الأبيات لابن الفارض ديوانه : ص٤٤ ، من قصيدته التي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

www.abulhasanalinadwi.org

على نفسه فليبك مَنْ ضاع عمره   وليس لـه فيهـا نصيبٌ ولا سهـم

ومع الشاعر الذي يأبى التخلي عن الحبِّ ويريد أن يورِّثه من بعده ، يقول :

أهيم بليلى ما حييت ، فإنْ أمُتْ   أوكِّل بليلى من يهيم بها بعدي(١)

أيها السادة! إنِّي لو وقفت غير هذا الموقف وإن كان لي حديث مع غير السادة العرب ، غير أهل الجزيرة ، وغير أهل الحرمين لكان الخطب هيناً يسيراً ، ومجال الكلام واسعاً فسيحاً ، إنَّ أدقَّ المواقف التي يقفها الخطيب هو الموقف الذي يجتمع فيه الحياء والألم ، فالحياء يقول : أمسك ، واعرف قدرك ، والألم يقول : هذا موقفٌ تستطيع أن تنفِّس فيه عن كربتك ، فإياك أن تضيِّعه .

. . . .   والقلـب بينهمـا عصـيٌّ طيِّـع!

أيها السادة العرب! إنَّ الله لم يكرمكم بالإسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام فحسب ، بل أكرمكم زيادةً إلى ذلك بحراسة هذا الدين ، وبالقيام به ، والدعوة إليه ، وآثر بلدكم بأن يكون مصدراً للهداية ، ومعقلاً للدَّعوة ، ومثابةً للناس :

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الحج : ٧٨] .

فأوجب ذلك بحكم الشَّرف ، والعقل ، والذوق ، والمنطق أن تكونوا من أغير الناس على هذا الدِّين ، وأشدِّهم اغتباطاً بهذه الثروة ، واعتزازاً بهذه الكرامة ، وزهداً في كلِّ ما ينافيه من دعوات ، ونزعات ، ومفاهيم ، وقيم ، وكراهية للجاهلية التي اكتويتم بنارها ، واشتهرتم بعارها في الزمن الماضي ، وأعظم الناس إيماناً بفضل هذا الدين ، وضخامة هذه الثروة ، وأحرص الناس على نشرها وتوسيعها وإيصالها إلى أبعد الآفاق ، وأشدِّهم حباً للرسول ، النَّبيِّ الأميِّ العربيِّ ، الذي تلتقون به في النسب والبلد ،

---

(١) البيت في «الأغاني» : ١٢/ ١٠٦ لنصيب .

www.abulhasanalinadwi.org

والدَّم واللغة ، والذي كان ولا يزال مصدر الحياة الجديدة ، وصاحب الفضل الأكبر في تكوينهم ، والذي انبثق عنه تاريخكم الجديد الرائع ، وقد قال القرآن العظيم :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

وثقةً بقيادته وخلود رسالته ، وإنَّه سيد الرسل ، ومنير السبل وإمام الكلِّ في كل عصرٍ وجيلٍ .

إنني أصدق إذا قيل عن أيِّ شعبٍ من الشعوب الإسلامية : إنه خضع أخيراً للمفاهيم والقيم غير الإسلاميَّة ، إنَّه طغت عليه نزعةٌ من النزعات التي لا يوافق عليها الإسلام ، والذي جاء به محمَّد رسول الله ﷺ للقضاء عليها ، وإنَّه أصبح يفكر بالعودة إلى جاهليته القديمة ، أو اقتباس بعض الأفكار والفلسفات من جاهلية الغرب الحديثة . فإنَّ تأثير الدعوة الدينية في عقلية الشعوب والعناصر يقوى ويضعف ، ولأنَّ الإسلام وصل إلى بعض هذه الشعوب بوسائط وعن طريقٍ تبعد أحياناً ، وتطول أحياناً ، ولأنَّ كثيراً منها قليل الحظِّ ، ضعيف الصلة باللغة العربية ، التي نزل فيها القرآن وعبرت بها الدعوة الإسلامية والحقائق الإسلامية عن نفسها ، إنَّني أصدِّق كلَّ ذلك مع الأسف الشديد والحزن العميق؛ لأنَّ تاريخ الدعوات والأديان يؤيِّد ذلك ، ويعرض له أمثلةً كثيرة ، ولكنِّي لا أصدِّق إذا قيل لي : إنَّ العرب بدؤوا يفكِّرون هذا التفكير ، ويتجهون هذا الاتجاه ، ويخضعون لمفاهيم وقيم وروابط وجامعاتٍ وأساليب للحياة لا تتَّفق مع الإسلام ومركزهم في تاريخ الإسلام ، والتي لجأت إليها بعض الأمم الجاهلية لإفلاسها الرُّوحي ، والخلقي ، وقد عرفت ضررها أخيراً ، وأصبحت تزهد فيها وتبحث عن الأصلح الأنفع .

وإذا وقع ذلك لسوء الحظ في بعض نواحي هذه الأمَّة العربية العظيمة حار المهتمُّون بشؤون هذا الدِّين والمؤمنون بخلوده وعالميته ، والذين اعتادوا بأن ينظروا إلى العرب دائماً كأستاذٍ ومرشدٍ وداعيةٍ لهذا الدين وممثِّله الأول ، ويستمدُّون منهم الإيمان القويَّ ، والثقة التي لا تتزلزل ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولا تضطرب لصلاحية هذه الرسالة في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وهي لا شكَّ محنةٌ يحار فيها الحكيم ، ويبتلى الخطيب اللسن بالعيِّ والفهاهة ، فماذ يقول التلميذ الصغير لأستاذه الكبير ، إذ شكَّ هو نفسه في الحقائق والمسلمات ومبادىء العلوم التي لقَّنها تلميذه ، وأراد أن ينقض ما أسّسه ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢] وماذا يقول المريض الجاهل للطبيب الحاذق الذي يعصي بنفسه قوانين الطبِّ ، ويتناول السمَّ الناقع ، ويُضرب عن الدواء النافع؟

إذا كان سليل شرف وربيب نعمة وابن ملك قد شبّ في نعمة أبيه ، وغُذِّي بأطايب الطَّعام ، وألذِّ الفواكه ، واعتاد أن يجلس دائماً مع أبيه وأبناء أسرته الملكية وحاشيته على السُّفرة الملوكية ، والمائدة الفاخرة ، وأطلقت يده وحكم في كل ما تحتوي عليه مملكته الواسعة من المواد الغذائية الصَّالحة ، وحدائق عاصمته من أشهى الفواكه وألذِّ الثمرات ، إذا زهد هذا الشاب المدلل في سفرة بلاطه الملوكية ، وصار يعافها ، ويتنغَّص برائحة أطعمتها الشهيَّة، ويزكم بها ، ونشأت فيه رغبةٌ غريبةٌ في فتات مائدة الخدم، وما يرمى على السباطات والطرقات، ممّا يفضل، ويتعفَّن من طعام الفقراء، وأولع بالجلوس مع الكناسين علىٰ موائدهم ، واستجداء الطَّعام من بيوت الناس ، كرهبان البوذيين في بورما ، ألا يرحمه الناس ، ويرثون له ، ألا يحار في شأنه العقلاء الحكماء ، ويعجز عن تفهيمه وإقناعه كبار البلغاء والخطباء ، إنَّه لا شكَّ فسادٌ في الذوق ، وانحرافٌ في الفطرة ، وابتلاءٌ لعاهل هذه المملكة العظيمة في ولي عهدها ، وابتلاءٌ للمملكة ، وأبنائها ، وشعبها، ورعيَّتها في مَثَلهم الكامل، وزعيمهم المفدَّى ، وقائدهم المطاع.

إنني أشعر الآن وأحبُّ أن تشعروا جميعاً أيها السادة الكرام ونحن نسمع في جوانب هذه المنطقة العربية الإسلامية هتافات: «القومية العربية» و«العروبة» ، و«نحن أبناء الفراعنة والعرب» و«العزَّة للعرب». . إلى غير ذلك من الهتافات الجاهلية ، وأرى اندفاعاً متهوراً مجرداً عن كلِّ أصالةٍ ، وعصاميةٍ ، وابتكار ، ولرغبة في تقليد الغرب في فلسفاته ، ونظمه ، وأساليب حياته ، وفي قيم الأشياء ، وطرق الترفيه ، وصوغ الحياة صوغاً

www.abulhasanalinadwi.org

غريباً خالصاً. إنّني أشعر وأنا أسمع كلَّ ذلك، وأحبُّ أن تشعروا جميعاً أيها السادة! بالألم النفسي العميق، والامتعاض الشديد، والثورة الجامحة كالتي ملكت موسى حين اقترح عليه بنو إسرائيل أن يهيىء لهم موسى أصناماً يعكفون عليها، وآلهةً يعبدونها حين مرُّوا بأمَّةٍ جاهليةٍ على شاطىء البحر الأحمر عاكفةً على أصنامها، كيف تلقَّى موسى هذا الاقتراح العجيب، وهذه الرغبة الغريبة، أشبه برغبة ولي العهد الذي رشح، وهيِّىء لولاية مملكة واسعةٍ في الطعام المرذول المتعفن، والتشبُّه بأسفل الناس. وقد صوَّر القرآن هذا المنظر الغريب الذي تجلّت فيه الحكمة الإنسانية في جانبٍ والغيرة النَّبويَّة في جانبٍ آخر، فكان من أبدع المناظر التي احتوى عليها هذا الكتاب المعجز، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقد مرَّ الرسول العربي الأعظم بنفس هذه التجربة، فكان تصديقاً لقوله تعالى:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

وتصديقاً لقوله ﷺ:

«لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ».

فقد روى الترمذي بسنده الصحيح عن أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ: لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرةٍ للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط[1] فقال النبيُّ ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفس بيده! لتركبنَّ سنة من كان قبلكم»[2].

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية»: ذات أنواط: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون، أي: يعلقون بها سلاحهم، ويعكفون حولها.

(٢) «سنن الترمذي» أبواب الفتن.

www.abulhasanalinadwi.org

وها هو ذا الزمان يستدير كهيئته ، والتاريخ يعيد نفسه ، وبعض إخوتنا المسلمين، وسادتنا العرب يحنُّون إلى أصنام جاهلية، ويتمنَّون ذات أنواط، وذات أنواط شجرة جاهلية خالدة تؤتي أكلها الجاهلية في كلِّ حين، والفطرة الإنسانية هي الفطرة الإنسانية تزهد في الطيب الموجود ، وتطلب الخبيث المفقود ، وتعاف الطعام اللذيذ الشّهيَّ ، وتحنُّ إلى الطعام المرذول الرديء ، تسأم من اللباس النظيف القشيب ، وتولع بالطمر البالي المرقَّع ، الذي خلعه بعض الصعاليك ، بعدما قضوا منه وطراً ، واستبدلوا به لباساً آخر ، وليس هذا الانصراف الذي نلاحظه في بعض الأوساط الإسلامية والعربية عن الإسلام الذي هو سابقٌ للزمن والمعجزة الإلهية: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وانصرافٌ عن مثله العليا ، ومفاهيمه وقيمه الخالدة التي لا تزال الإنسانية مختلفةً عنها ، وإقبالها بشغفٍ زائدٍ ، ولهفٍ شديدٍ ، وإجلالٍ ، وتقديسٍ إلى المثل التي أفلت شمسها ، وولَّى نهارها ، وانقضى أجلها في الغَّرب ، وأصبحت من مظاهر الرجعية والتخلف في العلم والتفكير ، ليس ذلك الانصراف ، وهذا الإقبال إلا مظهراً من مظاهر الطفولة القاصرة التي تزهد في الطعام اللذيذ الذي تهيِّئه الأم الرؤوم ، أو الأب العطوف ، وترغب في طعام الخادم أو الصعلوك ، الذي لا يوافق طبيعتها ولا مع مستواها ، وتلحُّ على ازدراد اللقمة المرذولة ، المسمومة أحياناً.

إنَّ مما يشجي القلب ، ويحيِّر الألباب أن يرى الإنسان إمامه القائد يجري وراء من خُلق لاتِّباعه ، ويحرص على تقليده ، ويرى في ذلك شرفاً ومجداً له والذي كان ينبغي له أن يتحاشى عن أن يحمل منةً لأحدٍ ، ويفضل الظمأ القاتل على الرِّيِّ الممتنّ به، وينشد بيت الشاعر العربيِّ ابن سناء الملك:

وأظمأ إن أبدى لي الماء منّةً   وإن كان لي نهرُ المجرَّة موردا

وقد بدأ هذا السَّيد الكريم الغني في ثروته يتهافت على كلِّ مورد ، بل على كلِّ سرابٍ تهافت الظمآن على الماء والفراش على النور ، كأنه لا ماء عنده ، ولا نور. إنَّنا أيها السادة العرب! في بلادنا العجمية البعيدة عن مهد

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام ننتقد كلَّ نابغةٍ في التفكير ، وكلَّ عملاقٍ في العلم والفلسفة ، وكلَّ عبقريٍّ في الذكاء والإنتاج ، وكلَّ زعيمٍ من زعماء الأمّة والوطن من غير المسلمين ، مهما عظمت مكانته ، وذاع صيته ، وكثرت مآثره على عدم تطفُّله على مائدة محمد ﷺ ، وعلى استقلاله الفكري الذي لا مبرر له ، ونردُّ كلَّ مواضع ضعفه ، وكلَّ أسباب إخفاقه إلى هذا الاستغناء الذي لم يكن إلا نتيجة الجهل ، أو لكبرياء القومية ، أو الحمية الجاهلية ، والعصبية العنصرية ، أو الوطنية ، وقد قال شاعرٌ إيراني قديم:

«إن محمداً ﷺ هو شرف العالم ، وكرامة الإنسانية في الدنيا والآخرة ، والذي يأبى أن يتمسَّك بأهدابه ويمشي في ركابه ، ويطَّرح على أعتابه ، كتب عليه الهوان والصَّغار ، وضربت عليه الذلَّة والمسكنة».

إنَّ بعثته ﷺ هي الخطُّ الفاصل الحاسم في تاريخ الإنسانية ومصير الأمم ، لا يقاس السابق على اللاحق ، والماضي على الحاضر ، فليس من ولد وعاش بعد البعثة المحمدية من الأفراد والأمم كمن كان قبل البعثة ، فكان لمن سبق هذه البعثة أن يصمِّم حياته كما يشاء ، وينهج لحياته منهجاً يختاره ، ولكن ليس لمن جاء بعده أن يصمِّم حياته كما يشاء ، وينهج لحياته منهجاً يختاره ، إنَّ الله حرَّم على كلِّ من آمن به ، وطلعت عليه شمس نبوته ـ التي لا أفول لها ـ أن يزدهر ويسود ، ويعزَّ ، ويفلح إلا بالتمسك بأهدابه ، والمشي في ركابه ، وإنَّ كلمة الرسول الخالدة التي سجلتها دواوين الحديث ، التي قالها حين سأله عمر بن الخطاب عن كتابة أحاديث اليهود: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي»[١] ليست كلمة محدودة المعاني ، قاصرةً على الأحكام الفقهية ، أو العقائد الدينية ، إنما هي كلمةٌ تشمل الحياة كلَّها ، والأمم ، والأجيال كلَّها ، وإذا لم يَسَعْ موسى إلا اتّباع محمد ﷺ إذا أدرك عصره ، فكيف بأمّة موسى ، وعيسى؟ فكيف بالمسلمين أنفسهم؟ ثم كيف بالعرب الذي بعث الله رسوله فيهم، واختاره منهم وخصهم بالدَّعوة الأولى، والأمانة العظمى؟!!

(١) الحديث بطوله رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان ، وهو حديث حسنٌ بطرقه.

www.abulhasanalinadwi.org

هذه كلمة عجلى أيها الإخوة أملاها الإخلاص وواجب الإجلال والشعور بالمركز العظيم ، الذي تتمتعون به في عالم الإسلام ، وفي تاريخ الإسلام ، ويجب على كلِّ مسلم أن يعرف فضلكم ، وسوابقكم ، وحسن بلائكم في الجهاد وفي نشر الإسلام ، ويتقرَّب إلى الله بحبِّكم والولاء لكم.

وأعود فأشكركم على هذا التكريم الذي لا أستحقُّه ، والذي إن دلَّ على شيء فإنَّه يدلُّ على الكرم الأصيل فيكم ، والسماحة التي طبعتم عليها ، وعرفت منكم في كلِّ زمان ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

نظامان إلهيان للغلبة والانتصار
وقفةٌ قصيرةٌ عند الحوادث الأخيرة في العالم العربي

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ١٦/ من شعبان سنة ١٣٨٨ هـ في قاعة المدرسة الثانوية بالمدينة المنورة ، بعنوان «الطريق إلى النصر» وكان حفلاً تاريخياً مشهوراً ، لم ير مثله في هذه البلاد المقدسة منذ أمدٍ بعيدٍ ، وقد حضره العلماء ، والأساتذة ، وشباب المدارس ، والكلّيات ، والجامعة الإسلامية ، والمثقفون في عدد كبير ، وكان الحفل تغشاه سحابة من سكينة وهدوءٍ شامل ، وتأثُّرٍ عميق .

www.abulhasanalinadwi.org

قال بعد ما حمد الله وصلى وسلم على رسول الله:

أما بعد، فياسادتي وإخواني! إنَّ موضوعي اليوم «الطريق إلى النصر» موضوعٌ مطروقٌ متداولٌ، ولو طرح لأيِّ واحدٍ من عامّة المسلمين ومن أهل البلد، فضلاً عن المثقفين، فضلاً عن قادة الفكر، وفضلاً عن حملة الأقلام والمؤلفين، لكان له جولةٌ وصولةٌ في هذا الموضوع، ولكنه إذا بحث ونوقش في مثل هذا المجلس الموقر الذي يضمُّ هذه المجموعات الطيبة المثقفة، كانت له روعة، وقد يثير جوانب من التفكير.

إنَّ مثلي أيها الإخوة في اختيار هذا الموضوع وعرضه على مسامعكم، ولفت النظر إليه كمثل الحكاية التي حكاها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في نفس هذه المدينة الطيبة ورواها البخاريُّ وغيره من ثقات المحدثين، وعقد عليه الإمام البخاري باباً، فقال: «باب طرح الإمام المسألة على الناس يختبر ما عندهم من العلم» يقول عبد الله بن عمر:

قال رسول الله ﷺ مخاطباً للحاضرين من أصحابه رضي الله عنهم: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقط ورقها، إنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال (عبد الله بن عمر): فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنَّها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله ما هي؟ قال: هي النخلة»[(١)].

وكذاك عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: خطبنا النبيُّ ﷺ يوم النحر، فقال: أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى! قال: أيُّ شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أيُّ بلدٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنّه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس بالبلد الحرام؟ قلنا: بلى! قال فإنَّ دماءكم، وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟! قالوا:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم.

www.abulhasanalinadwi.org

نعم، قال: اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامعٍ، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

إنَّني أيها الإخوة! لا أحاول أن أفلسف الحديث، ولا أن أتعمَّق فيه كثيراً، ولا تنتظروا منِّي ـ وأنا أسألكم مخلصاً، وأناشدكم بالله ـ خطابةً رائعة، فالموضوع أدقُّ وأروع، من أن يكون مظاهرةً للخطابة، أو مناورةً لكلام يملأ الأسماع، ويخلع القلوب: ما هو الطريق إلى النصر؟ هذا سؤال أريد أن أبحث فيه، وألفت نظركم إلى بعض النواحي.

إنَّ هناك نظامين أيها الإخوة: نظام طبيعي خلقه الله تبارك وتعالى، واختاره لهذا الكون، واتَّخذه سنَّةً له، وهو أنَّ الكثرة تغلب القلَّة، وأنَّ الغناء يغلب الفقر، وأنَّ الأسباب الكثيرة تغلب الأسباب القليلة، وأنَّ القوة تغلب الضعف، وأنَّ التنظيم، والوحدة، والانسجام، والعزم، وقوة الإرادة، والصَّرامة، والثبات ـ هذه صفات وأخلاق ـ تغلب دائماً أضدادها، وكلُّنا قد جرَّبنا هذا النظام في حياتنا الطبيعية اليومية، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أودع في الأشياء طبائعها، وهي لا تفارقها على مرِّ القرون والأعصار، فأودع في النار طبيعة الإحراق، فالنار تحرق دائماً، وأودع في الماء طبيعته، وأودع في الطين طبيعته، هذه طبائع الأشياء التي لا تفارقها، وهذا النظام الطبيعي قانون عادلٌ محايدٌ لا يراعي أحداً، ولا يفضِّل بشراً على بشر، ولا جماعةً على جماعة، حتى إنَّ هذا القانون لا يميز بين الكافر والمؤمن، وبين التقيِّ والفاجر، وبين الصَّالح والفاسد، وبين المصلح والمفسد، فالنار تحرق كلَّما امتدت إليه، لا تراعي مصلحةً، ولا تخاف عاقبةً، هذا هو الميزان العادل المحايد الذي يزن الأشياء وزناً دقيقاً، ولا يداهن، ولا يحابي، ولا يفرق، ولا يميز، هذا هو القانون الذي جرَّبه الإنسان في رحلته الطويلة، وفي تجاربه المتصلة منذ خلق إلى يوم الناس هذا، وتاريخ الفتوح الإنسانية، والمغامرات البشرية، وتاريخ الانتصارات، والحكومات زاخرٌ بالشواهد والأمثلة، إنَّه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

www.abulhasanalinadwi.org

تاريخٌ متَّصلٌ متكرِّرٌ ، طويلٌ مستمرٌ ، لا تجدون فيه الاستثناء ، فحكوماتٌ تتغلب على حكوماتٍ ، وقوىً تصرع قوىً ، وطاقاتٌ تهدم طاقاتٍ ، وعددٌ يغلب عدداً، هذا كله خاضع للقانون الطبيعي الذي خلقه الله تعالى، ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق، أو استعراضٍ دقيقٍ، ولا إلى تعمُّقٍ، ولا إلى فلسفةٍ، والكتب السماوية والنبوءات لم تبحث في هذا الموضوع، فهو شيءٌ طبيعيٌّ ، معلومٌ ، مجرَّبٌ ، معقولٌ ، بمتناول كلِّ واحدٍ ، هذا القانون هو قانونٌ قاهرٌ نافذٌ ، قانونٌ حرٌّ مطلقٌ ، قانون الأرض لا يقهره شيء ، فإذا ترك الناس هذا القانون تحكَّم فيه تحكماً مطلقاً ، ولم يعق سيره شيء .

ولكن هنالك نظاماً آخر ، هو النظام الذي بحث عنه الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وبحثت عنه الكتب السماوية وشرحته ، وحثَّت عليه ، وهو: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق غاياتٍ أفضل وأسمى ، وأحقَّ بالاهتمام والاحترام من هذه الغايات التافهة ـ إذا صحَّ أن نسميها تافهة ـ فالنَّار تحرق ، والماء يغرق ، والسمُّ يقتل ، والترياق ينجع ، والطبيب يعالج ، والمرض يرهق ويضعف ، والدواء يشفي ويريح ، هذه كلُّها غاياتٌ محترمةٌ ، غاياتٌ معقولةٌ ، غاياتٌ يسير عليها هذا الكون ، ولكن هناك غاياتٌ أفضل من هذه الغايات ، وأحقُّ بالاهتمام ، وهي غاية هذا الخلق ، وهداية البشر ، ومعرفة الله تبارك وتعالى ، وإقامة العدل في العالم ، وإسعاد البشرية ، ومنح الحقوق لأصحابها ، والحياة السعيدة الهنيئة ، الفاضلة العادلة ، والمجتمع الصَّالح المثاليُّ ، التقيُّ الفاضل الذي تحترم فيه الإنسانية ، ويخشى فيه الله تبارك وتعالى ، الذي تؤدَّى فيه الحقوق إلى أصحابها ، والأمانات إلى أهلها ، ويجد الناس فيه طريقاً ميسوراً للوصول إلى الله تبارك وتعالى ، ولتنمية قواهم ، ومواهبهم لمعرفة الله تبارك وتعالى ، والوصول إلى الكمال المطلوب ، الوصول إلى الغاية السامية النهائية التي خلق هذا الكون لأجلها ، هذه هي الغايات التي أنزل الله لها الكتب السماوية ، وبعث لها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه جميعاً ، وهذه هي الغايات التي يجب أن تخضع لها تلك الغايات الطبيعية ، وأن تغير لها هذه الغايات طريقها ، وتترك الطريق للغايات السَّامية التي أنزل

www.abulhasanalinadwi.org

الله لها كتب المعجزة ، وأرسل لها الرسل الصَّادقة المعصومة .

فإذا تصادمت الغايتان ، الغاية الطبيعية ، والغاية الشَّرعية ، الخلقية ، العقلية ، الدينية ، الأساسية ، الرئيسية ، التي هي غاية الخلق ، وغاية هذا الكون ، وغاية النوع البشريّ ، رجحت كفة الغاية الأخيرة ، لذلك لما ألقي إبراهيم في النار ، كانت هناك سنة الله التي نفذت في خلقه ، وسارت السير الطبيعي ، وانطلقت من غير تقييد ، فكانت النار تحرق منذ آلافٍ من السنين ، ما سُجِّلت تجربةٌ واحدةٌ في التاريخ البشري ـ على أمانته ودقَّته في النقل ـ أنَّ النار قد كفَّت وأضربت عن أداء واجبها احتراماً لملك ، أو عالم ، لأنها مأمورة ، لكن لما اصطدمت الغاية الطبيعية ، طبيعة النار ، مع طبيعة الخلق التي خلق الله لأجلها الكون ، بما فيه النار والماء ، وبما فيه الأجرام الفلكية ، والظواهر الكونية ، والأشياء الأرضية ، وجميع المواد الغذائية ، لما اصطدمت طبيعة النار ، مع طبيعة الهداية (الغاية التي خلق لأجلها الكون) أمرت النار بالكفِّ عن الإحراق ، وسلبت من النار طبيعتها ، طبيعتها العريقة في القدم ، قيل لها ـ بحيث سمعت ـ ولم يسمع نمرود ، ولا أحد من الخلق : إيَّاك أن تحرقي إبراهيم ، إنني أنا الذي أودعت فيك طبيعة الإحراق ، ولكن الغاية التي خلقت لأجلها إبراهيم ، وأكرمته بالرسالة ، وبعثته إلى هذا الخلق ، وأمرته بتبليغ هذه الرسالة ، هي الغاية التي يجب أن تخضع لها طبيعتك ألف مرة ، فإيَّاك أن تمسِّي ثياب إبراهيم ، فضلاً عن جسمه الطاهر ، فضلاً عن قلبه المؤمن السليم ، الذي بوَّأه الله لأمانة النبوة ، وهيأه لها ، فقال : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥١] ، فخضعت ، ودانت ، وانقهرت ، وتواضعت هذه الطبيعة النارية للطبيعة الدينية ، للطبيعة التي هي الغاية التي لولاها لكان هذا الكون عبثاً ، ولكان هذا الكون لفظاً بلا معنى ، فدانت ، وأطاعت النار أمر الله تبارك وتعالى ، وتوقفت عن إحراق إبراهيم ، وكانت عليه برداً وسلاماً : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠] .

بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والنسبة بعيدةٌ بينهم وبين أممهم

www.abulhasanalinadwi.org

التي بعثوا فيها ، كما تعلمون جميعاً ، ولستم في حاجة لاستعراض قصَّةٍ بعد قصَّة ، وهذا القرآن مملوء بهذه الشواهد والدلائل ، فلما أرسل نوح قال له قومه: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وقالوا له: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] ، ولمَّا بُعث شعيبٌ عليه الصلاة والسلام ، قال له قومه: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١] وهذا موسى ، سيدنا موسى من أولي العزم من الرسل ، ماذا يقول القرآن عنه؟ كيف كانت النسبة بينه وبين الأمة التي بعث فيها، وبين فرعون وجنوده، وبين موسى وأصحابه؟ اقرؤوا قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤] ، وتعرفون أنَّ الرسول ﷺ كان مستضعفاً في قومه ، وكان أتباعه مستضعفين مهدَّدين ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال: ٢٦] ، وقد أقصاه قومه في مكة إلى هذه المدينة المنورة ، التي نجتمع فيها الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى، قد قهر القانون الطبيعي لهذه الغاية المثلى ، لهذه الغاية الفاضلة ، التي تتوقف عليها سعادة البشرية ، فلو سمح للأسباب أن تعمل عملها ، وأن تسير سيرها الطبيعي من غير تقييد ، لقضي على دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولابتلعتها هذه الأجواء القاسية، والبيئات الضارية.

ولكن الله سبحانه وتعالى كذلك أودع في الأخلاق والصفات طبائعها ، وإنه أودع فيها قوى وطاقات لا تقلُّ عن طاقات هذه الأشياء الطبيعية.. فالصدق له طبيعةٌ ، وله قانونٌ ، والأمانة لها طبيعةٌ ، ولها قانونٌ ، وتقوى الله له طبيعةٌ وقانونٌ ، وإنَّ الصفات الفاضلة الكريمة ، وإنَّ الأخلاق العالية النبيلة ، إنَّ خشية الله ، إنَّ احترام الإنسانية ، إنَّ العدل والمساواة ، إنَّ المساواة والبرَّ ، إن الإحسان ، إنَّ الانصاف من النفس ، إنَّ الإيثار

www.abulhasanalinadwi.org

والفداء ، إنَّ إيثار الآخرة على الدنيا ، هذه كلها أخلاقٌ وسجايا ، وعاداتٌ ، وأعمالٌ ، أودع فيها من الطاقات والقوى الجبارة ، ومن الأسرار ، والروحانية ، ومن قوة التسخير ، وقوة الفوز والنصر ما لم يودع ـ وهو القادر العليم ـ في هذه الأشياء الطبيعية التي قد جرَّبنا طاقاتها ، وتأثيرها ، وخواصها ، وطبائعها.

إنَّ الله سبحانه وتعالى لما بعث الرسل ، وأكرمهم بالرسالة ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ودعوا إلى الإيمان بعقائد ، والتخلُّق بأخلاقٍ ، والاتِّصاف بصفاتٍ ، والتحلِّي بمحاسن ، وعدهم بالنصر على هذه العقائد ، وعلى هذه الأخلاق ، وعدهم بالنصر على هذه الدعوة التي يقومون بها ، وقال لهم: إنَّ قوتكم ، وإن سرَّ انتصاركم في هذه الدعوة ، وإن دعوتكم هي جندنا ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢ ـ ١٧٣] ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [المؤمن: ٥١] ، وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ، إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا فاقدي الرشد ـ أعاذهم الله عن ذلك ـ إنَّهم كانوا على أكبر جانبٍ من العقل السليم ، على أكبر جانبٍ من الذكاء ، ومن معرفة طبائع الأشياء ، ومن قوة المقارنة بين الأشياء ، ومن الحكم الصحيح الدقيق على الأشياء ، إنَّهم لم يكونوا مخدوعين ، ولا مخبولين ، إنَّهم كانوا يعرفون أنَّهم إذا ضربوا الحديد بالحديد ، والعدد بالعدد ، والقوة بالقوة ، والجند بالجند ، إذا تقدَّموا إلى المعركة معتمدين على قوتهم المادِّية ، معتمدين على العدد والعدد ، والميرة والمدد ، معتمدين على سواعدهم وإن كانت قوية ، معتمدين على أصحابهم وإن كانوا أبطالاً شجعاناً ، لاشكَّ في ذلك ، فإنهم يخسرون المعركة ، إنَّهم كانوا يعرفون أنَّ هناك شقَّة شاسعة بينهم وبين أعدائهم ، هذا مما لا يخفى على ذوي البصر فضلاً عن ذوي البصيرة ، وهم أهل بصرٍ وبصيرةٍ ، فاعتمدوا على نصر الله تبارك وتعالى.

تذكرون قصَّة فرعون وموسى ، لما أمر موسى بأن يسري بقومه ، وأن يجتاز بهم إلى جزيرة سيناء ، سيناء التي تثير في قلوبنا الأحزان ، وتدمع

www.abulhasanalinadwi.org

العيون ، سيناء التي فقدناها ، فقدناها بفقدنا للإيمان ، لما أمر موسى بأن يعبر مع قومه البحر الأحمر ، فلما وقف على شاطىء البحر حانت من بني إسرائيل التفافةٌ ، والشكُّ دائماً يساور نفوسهم ، والقلق يشغل قلوبهم ، فهم كثيرو التلفت ، شديدو الإشفاق ، فلمَّا رأوا إلى البحر وهو هائج مائج ، ورأوا إلى العدو من خلفهم وهو ثائر موتور ، قالوا : يا موسى ، ألهذا جئت بنا إلى هنا؟ ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] وقد صدقوا في ضوء التجربة والواقع ، فإنَّهم إذا خاضوا البحر فراراً من فرعون وجنوده ، فإنَّ مصيرهم معلومٌ محتومٌ ، وكلّ من اقتحم البحر من غير سفينة يركبها ، أو طودٍ يأوي إليه ، غرق ، وتلف ، والبحر لا يميِّز بين ظالمٍ ومظلومٍ ، وحاكمٍ ومحكومٍ ، ولكن موسى كان مأموراً بذلك ، وكان على بينةٍ من أمره ، وكان واثقاً بوعد الله ، وكان يعرف بنور النبوة : أنَّ الغاية التي بعث لأجلها ، والرسالة التي أكرم بها. أكرم عند الله من غاية البحر التي خلق لها ، والمهمة التي نيطت به ، فقال في ثقة واعتماد ، ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، هل يستطيع إنسانٌ أن يعتمد على الطبيعة ، هذه الطبيعة المحايدة ، الطبيعة القاسية ، الطبيعة المطلقة ، التي لا تراعي الحقَّ والباطل ، ولا تميِّز بين الفضيلة والرذيلة ، ولا تميز بين الظالم والمظلوم ، هل كان في استطاعة بشرٍ أن يقول هذه الكلمة المؤمنة النبوية ، التي لا يزال لها رنينٌ في الآذان ، ودويٌّ في التاريخ ، ما قالها إنسانٌ قطُّ قبل موسى ، وهكذا كان : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٣ ـ ٦٦].

عرف الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام أنَّهم لا يجوز لهم بحكم العقل والتجربة ، وبحكم الحواس الظاهرة أن يعتمدوا على عَددهم ، وعلى عُددهم وعلى تنظيمهم ، وعلى علوِّ نسبهم ، وكانوا في ذؤابة قومهم ، ومن أفضل خلق الله ، ولكن كانوا يعرفون أنَّ الأنساب لا تنفع ، وكانوا يعرفون أنَّ النسبة بعيدة بعداً لا يتصوَّر بينهم وبين منافسيهم وأعدائهم ، فاعتمدوا على الله ، وعلى الإيمان ، اعتمدوا على الدَّعوة ، وعلى تلك الأخلاق

www.abulhasanalinadwi.org

الفاضلة التي تجرَّد عنها أعداؤهم تجرُّداً شائناً فاضحاً ، وتحلَّى بها أنصارهم وأصحابهم تحلِّياً رائعاً معجزاً ، وتقدَّموا إلى المعركة الفاصلة ، وهم متوكلون على الله ، هم يدعون الله للنصر ، يدعون الله للفتح المبين ، يدعون الله ليحقَّ الحقَّ ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

استحضروا في أذهانكم أيها الإخوان معركة بدر ، وما ساحة بدر منكم ببعيدة ، وما يوم بدر في تاريخكم بمجهول .

اذكروا يوم خرج رسول الله ﷺ بهذه القلة القليلة من المهاجرين والأنصار ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، فلما قاموا مصطفين أمام العدو الثائر الموتور ، القويِّ الشَّاكي السِّلاح ، الذي قد تملَّكه الغضب والحقد ، وهو يفوقهم مراراً عديدةً في العدد والسلاح ، نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، ونظر إلى أعدائه ، وهو من هو؟ في سلامة عقله ، وفي حصافة فكره ، وفي ألمعيته ، وفي فراسته ، وفي تجربته ، رأى أنَّه إذا تُرِكَ المسلمون لحظِّهم ، وإذا أطلق فيهم قانون الطبيعة ، وسمح لهذا القانون أن يعمل عمله في هذين الجيشين المتنافسين ، وفي هذين المعسكرين المتقابلين ، عرف ما هي النتيجة ، إنَّها لم تكن تحتاج إلى ذكاءٍ باهرٍ ، ولا تحتاج إلى ألمعية فائقة ، إنَّ قريشاً جاءت بحدِّها وحديدها ، إنها جاءت وهي ثائرةٌ موتورةٌ تعضُّ البنان حسرةً وندامةً على تنصُّل هؤلاء إلى هذه الناحية البعيدة .

عرف رسول الله ﷺ النتيجة ، عرف أنَّه إذا أُطلق فيه القانون الطبيعيُّ ، وإذا استطاع هذا القانون أن يشقَّ طريقه إلى الأمام ، فلا أمل في انتصار المسلمين ، ولا أمل حتى في رجوعهم إلى المدينة سالمين .

ماذا فعل رسول الله ﷺ؟ استحضروا في أذهانكم! قام يعبد ربَّه ، ويدعو ، عرف أنَّ النَّصر من الله ، وعرف أنَّ الذي خلق القانون يستطيع أن يوقف القانون ، والذي وهب يستطيع أن يستردَّ ، إنَّه لما خلق هذه الطاقات لم يفلت منه الزمام ، كما يعتقد كثيرٌ من الجهلاء ، بنى له أصحابه عريشاً ، وقام فيه يدعو ربَّه ، ويمرِّغ جبينه ، ويعفِّر وجهه في التراب ، ويعرف أنَّ القضاء ينزل من السماء ، لا ينبع من الأرض ، الحكم لله ، والقوَّة لله ، والنَّصر بيد الله ، قام يدعو ربَّه ، ويبتهل ، ويتضرَّع ، حتى رقَّ له قلب

www.abulhasanalinadwi.org

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأشفق عليه ، وقال: حسبك يا رسول الله!

إنَّ بدراً معركةٌ فاصلةٌ معلومةٌ في التاريخ، لا نزال نعيش في ظلِّها، ونأكل من رفدها ، إنَّنا كلّنا ، وهذه الحكومات والشعوب الإسلامية عيالٌ على بدرٍ ، وبدرٌ عيالٌ على الدعوة التي دعا بها رسول الله ﷺ ، والكلمة الخالدة التي قالها ، رأى أنَّ النسبة بعيدةٌ بين الجيشين في العَدد والعُدد ، كفتان متفاوتتان ، كِفةٌ قد ثقلت حتى التصقت بالأرض ، هذه كِفةٌ قريش ، وكِفةٌ خفَّت حتى ارتفعت إلى الفضاء ، وهذه كِفَّة المسلمين ، ماذا تفعلون أنتم إذا رأيتم كفَّتين متفاوتتين ، وأردتم أن ترجحوا كفَّةً على الأخرى؟ تضعون سنجةً ثقيلةً في الكفَّة الطائشة ، فتترجح هذه الكفة ، وتطيش الكفة الثانية.

وضع رسول الله ﷺ هذه السنجة في كفة المسلمين ، ما هي هذه السنجة أيها الإخوة؟ أتركِكم تسبحون في خيالكم ، أسمح لكم أن تفكِّروا في ذلك قليلاً ، قال ـ وجبهته على الأرض ـ الكلمة التي كانت سبباً في الحقيقة لبقاء هذه القلة القليلة من المسلمين ، ولبقاء هذه الأمة ، قال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» وصدَّقه الله تعالى في ذلك ، وانتصرت هذه الجماعة كما تعلمون جميعاً ، وكما يعرف التاريخ ، وكما نرى آثاره الإسلامية حيَّةً باقيةً، إنَّ هذه الكلمة تعني أنَّ مصير الدعوة مربوطٌ بهذه الجماعة، أنَّ مصير سعادة البشرية، والفلاح الإنساني مرتبطان بهذه الجماعة، وأنَّه لا بقاء للدين، ولا بقاء للأخلاق الفاضلة ، لا بقاء للعدل ، لا بقاء لاحترام الإنسانية بغيرهم ، فإذا شئت يا رب أن تضيع هذه المعاني كلَّها ، وأن تتلف هذه الثروة كلها ، وأن تحبط جهود المصلحين ، والأنبياء المرسلين كلَّها ، ويبقى الإنسان ، ولا تبقى الإنسانية ، يبقى الجسم ولا تبقى الروح ، فافعل ما شئت! فلما نصر الله المسلمين في معركة بدر ، وكان الفتح المبين، عُرف أنَّ رسول الله ﷺ كان صادقاً في القول ، وأنَّ قوله: إنَّ مصير الدعوة مرتبطٌ بنواصي هذه الجماعة القليلة، كانت كلمة حقٍّ صدَّقتها الملائكة ، وشهد بها التاريخ ، وصدَّقتها الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وانتصر المسلمون رغم قلتهم وذلتهم ، وانهزم العدوُّ رغم قوَّته وكثرته ، وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

www.abulhasanalinadwi.org

وأذكِّركم بحادثةٍ ثانيةٍ ، ولست من أصحاب القصص والحكايات ، ولكنِّي أذكِّركم بهذه القصَّة ، لأنَّ فيها رسالة ، لأنَّ فيها معنىً جديداً ، يجب أن يكون ماثلاً أمام عيوننا ، وحاضراً في أذهاننا: لما تقدم سعد بن أبي وقاص لفتح المدائن ، لعلكم قرأتم في التاريخ ، أنَّ درجة كانت تزيد ، وكانت في المدِّ ، وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن والقوارب ، ووقف سعد على شاطىء دجلة وقفةً قصيرة ، واستعرض الواقع الحاضر ، استعرض الوضع الاستراتيجي ، كما يقول الكتاب العصريون ، وقال لأصحابه: بماذا تشيرون عليَّ؟ هل نرجع أو نقتحم دجلة؟ كان المسلمون واثقين بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية ، وأنَّ الله قد ربط مصير الإنسانية بهم ، وأنَّ الله رؤوفٌ بالإنسانية ، وأنَّ الله لم يخلق الإنسان سدىً ، ولم يخلق العالم عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كان المسلمون واثقين بهذا المعنى ، فعرفوا أنَّهم هؤلاء الذين يمثلون الإسلام ، وهؤلاء الذين يحملون القبس الإسلامي ، ومشعل الدعوة الإسلامية ، إنَّ هذه الجماعة نواة الأمة الوحيدة التي أخرجت للناس ، وبذورها الطيبة. أما دجلة فهي نهرٌ يوجد مثله آلافٌ من الأنهار ، فكيف يسمح لدجلة بأن تغرق هذا الجيش الذي ليس له غرضٌ ماديٌّ ، لم يخرج من جزيرة العرب ليبدِّل عرشاً بعرش ، وحكماً بحكم ، وملوكاً بملوك ، لينتزع السيادة من الفرس ، ويقدِّمها إلى العرب ، وليأخذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر رضي الله عنه ، هذا حرامٌ على المسلمين ، خرجوا كما قال قائلهم: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فلمَّا استعرض سعد «الوضع الاستراتيجيَّ» عرف أنَّه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله ، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن يبقى هذا الجيش يؤدي رسالته وينشر دينه ، وأنَّه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى سيقهر دجلة إلى أن تفتح لهم الطريق ،

www.abulhasanalinadwi.org

استشار سعد سلمان، فقال: «إنَّ الإسلام جديد» تعجبني هذه الكلمة، وتثير في قلبي، وفي تفكيري معاني وأحاسيس عميقةً جداً، يتجلَّى في جوابه ذكاء المسلم، ولا أقول الذكاء العام، إن ذكاء المؤمن قد مثل خير تمثيل بهذه الكلمة، التي نطق بها سلمان، قال: إنَّ الإسلام جديد، والله لقد ذُلِّلت لهم البحور، كما ذُلِّل لهم البرّ «وليخرجنَّ أفواجاً كما دخلوا أفواجاً» فقول سلمان رضي الله عنه: «إنَّ الإسلام جديد» معنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهره على الدين كلِّه، إنَّ الإسلام لم يؤدِّ مهمته بعد، أمامه مجالٌ واسعٌ، أمامه أممٌ وشعوب بكر، أمامه بلادٌ شاسعة، أمامه دنيا عريضةٌ، إنَّ هذا العالم كلَّه ينتظر الدعوة التي يحملونها، ينتظر تلك الأخلاق الفاضلة التي يتحلَّون بها، ينتظر جيش الإنقاذ، فقال: إنَّ عقلي المؤمن لا يصدِّق أنَّا سنغرق، وإنَّ دجلة ستلتهمنا التهاماً، إنَّ الله سبحانه وتعالى يقهرها، ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق، وهكذا كان.

إخواني! هذان نظامان إلهيان، نظامٌ طبيعي، غلبة الكثرة على القلَّة، غلبة القوَّة على الضعف، غلبة الوحدة على التشتت، والفوضى، غلبة التنظيم على عدم التنظيم، غلبة قوة الإرادة على ضعف الإرادة، غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل، هذا نظامٌ قديم خلقه الله تبارك وتعالى، وحكَّمه في مجالٍ واسعٍ من هذه الدنيا العريضة، ومن هذه الإنسانية الواسعة، ولكن هناك نظاماً آخر كما قلت لكم: هو نظام الإيمان والعقيدة، والصفات، والأخلاق، والدعوة، والرسالة، وهذا هو السِّلاح الذي قاتل به المسلمون، فانتصروا به، هذا السلاح الذي خرجوا به من جزيرة العرب، ثيابهم مرقَّعة، ونعالهم مخصوفة، وجفانهم بالية، وخيلهم متقطعة الركاب. الناس يستخفُّون، ويسخرون منهم، ويقولون: هؤلاء إنما أخرجهم من جزيرتهم الجوع والعري، أطعموهم، واكسوهم يرجعوا إلى بلادهم.

هذان نظامان إلهيان، ولكن إذا تجرَّد فردٌ أو جماعةٌ من هذين النظامين، وثاروا عليهما، فلا خضوع للنظام الطبيعي، ولا احترام له، لا جدَّ، لا عزم، لا إرادة، لا وحدة، لا انسجام، لا عزيمة. وكذلك

www.abulhasanalinadwi.org

لا خضوع للنِّظام الشَّرعيِّ والخلقيِّ ، فلا عقيدة ، ولا خلق ، ولا صدق ، ولا إخلاص ، ولا تألُّم للبشريَّة ، ولا شفقة على الضعيف ، ولا عطف على اليتيم ، ولا عدل للجميع ، إنما هي شهواتٌ ونزعات ، إنما هو الفخر بالقومية وكبرياء ، إنَّما هو كلامٌ فارغٌ ، وهديرٌ كهدير الإبل ، فهل يستحقُّ هذا البلد أو الجيش النصر؟ إنَّ الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين بشرٍ نسب ، إنَّه أنَّب بني إسرائيل على هذا الغرور ، وقال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة : ١٨] ، لا يفضِّل إنساناً على إنسان ، ولا فرداً على فردٍ ، ولا أمَّةً على أمَّةٍ بمجرد نسبٍ وقوميَّةٍ ، وبمجرَّد عنصرٍ وسلالةٍ ، إنما يفضِّل إنســانــاً علــى إنســان بــالتَّقــوى ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، إنما يفضل بلالاً الحبشيَّ على أبي جهل القرشيِّ .

فلما برزنا إلى هذه المعركة ، ولا عندنا هذا النظام الطبيعي ، الذي يقضي باليقظة ، يقضي بالوعي ، يقضي بالوحدة ، يقضي بالانسجام ، يقضي بالإيثار ، يقضي بروح التَّضحية والفداء ، يقضي بالبطولة والشَّجاعة ، يقضي بالاستهانة بزخارف الدنيا ، يقضي بالتقشُّف والجلادة ، لا عندنا هذا القانون ، ولا عندنا ذلك النظام المقدَّس ، النظام الذي ضمن الله له بالنصر ، فقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧٣] إذ قال : إنَّ جندنا غالبون ، لكفى ، وإذا قال : إنَّ جندنا لغالبون ، لكفى ، ولكنه قال : ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧٢ ـ ١٧٣] ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [المؤمن : ٥١] ، فلمَّا خرجنا إلى الميدان ، واعتمدنا على الكلام الفارغ ، اعتمدنا على الدِّعايات ، وجاهدنا في غير عدوٍّ ، وعكفنا على الملاهي والملذَّات ، مثل الأمم التي ضرب الله بها المثل في القرآن ، أيَّ مصيرٍ كنا ننتظره أيها الإخوة؟

بالله قولوا لي! إذا أعطيتكم القلم ، وكان بيدكم القضاء ، أحلف بالله في هذه المدينة ، وأعوذ بالله من أن أكذب في أيِّ بقعةٍ من بقاع الأرض ، فكيف أكذب في جوار رسول الله ﷺ ، وفي رحاب مسجده ، أنا أعطيكم القلم ، وأعطيكم القرطاس ، قولوا : إذا كان هذا وضعنا الذي عرفناه جميعاً ،

www.abulhasanalinadwi.org

عرفناه عن طريق الإذاعات ، وعرفناه عن طريق الصُّحف ، استعرضوا فقط الصُّحف والمجلات التي كانت تصدر أيام الحرب ، وقبل النكبة بقليلٍ ، هل هذه الأخلاق ، وهل هذا النمط من الحياة يرضي الله ورسوله؟ هل أغاني أم كلثوم ترضي الله ورسوله ، وتستنزل النصر؟ وهل هذه السهرات الخليعة ، التي كان يحياها إخواننا في هذا البلد ، الذي وقعت على أكتافه أكبر مسؤوليةٍ للدفاع عن المقدسات الإسلامية ، الإنسان الذي يخشى الله ، ويحكم بالعدل ، ماذا كان يقرر على هذه الكتيبة ؟!

كان واجباً أن يعيش المسلمون جميعاً في «حالة طوارىء» في حالة استعدادٍ دائمٍ ، يحرمون عليهم اللذات التي أباحها الله تبارك وتعالى ، وقد فعل ذلك الجيش الموفق المنتصر دائماً في التاريخ ، لما زحف بابر[١] ، مؤسس الدولة المغولية التي عاشت في الهند مدة خمسة قرون ، لمَّا نزل في الميدان ومعه عشرون ألفاً من المقاتلين ، وقد قاد عدوُّه «رانا سانجا» جيشاً كثيفاً فيه مئتا ألف مقاتل ، هل تعرفون ماذا فعل؟ كان مغرماً بالخمر لا يكاد يصبر عنها ، معروف عنه في التاريخ أنه كان مدمناً للخمر ، وقف في ساحة القتال ، وتاب إلى الله ، وقال: «يا رب إني أحرم على نفسي الخمر ، فلا أقربها! وأقلع عن المحرمات والمنكرات»[٢]، ثم خاض الحرب وقاتل العدو ، فانتصر انتصاراً باهراً ، واستطاع أن يؤسس هذه الدولة العظيمة التي

---

(١) هو ظهير الدين محمد بابر التيموري.

(٢) يقول المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيهابوري المعروف ب «فرشته» في تاريخه: إنَّ «رانا سانجا» توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتلٍ عن أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاط محمد شريف بأنَّ الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمَّم على القتال ، وقال: إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كلِّ جانبٍ من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقتٍ من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية وقاوم رانا سانجا بعشرين ألف مقاتل ، وانتصر عليه وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٣٣ هـ (تاريخ فرشته).

www.abulhasanalinadwi.org

لا تزال آثارها المعمارية والاجتماعية زاهرةً خالدةً ، وقامت الحكومة الإسلامية التي بقيت إلى عهدٍ قريب .

هكذا كانت الجيوش الجادَّة ، هكذا كان الجادُّون ، أما الهازلون ، فحكاياتهم معروفة ، وأنتم أعرف بها منِّي ، ودائماً يهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد ، هل هذه مسرحية من مسرحيات «ألف ليلة وليلة»؟ تقوم فرقة تمثيلٍ فتمثِّل حكايةً ، فهذا ملك ، وذاك وزير ، وهذا قائدٌ ، وذاك جندي ، هزلٌ ومرحٌ ، إذا جاء الجيش الحقيقي الذي يحمل السلاح ، الذي قد قرر الموت ، وجازف بالحياة ، فرَّ الجيش الهازل ، وتقوَّضت المسرحية ، المسرحيات لها مجالٌ خاصٌّ ، لها مجال الهدوء والأمن ، مجال التسلية واللهو ، لماذا لا نستحق هذه النكبة؟ والله إذا آمنا بأنَّ الله من صفاته العدل ، وقد آمنا بذلك ، وآمنتم جميعاً ، فإنَّا كنا نستحق هذا! ، وإذا كان غير هذا ، فإنَّ هذا يثير الدهشة والاستغراب في نفوسنا ، أينصر الله سبحانه وتعالى المسلمين الهازلين اللاعبين ، أعداء إخوانهم وإخوان أعدائهم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح : ٢٩] ونحن رحماء بالأعداء ، أشدَّاء بيننا .

وهذا اليمن المنكوب الشقيُّ ، ما ذنبه؟ لماذا كان مظهراً لهذه البطولة والغرام بالحرب ، ولماذا لم توجه هذه البطولة إلى العدوِّ الحقيقيِّ :

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ....

كيف إذا سأل الله تعالى عن هذه الأمة المنكوبة ، فقال : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ ـ ٩] ، موءودةٌ واحدة قد وئدت في الجاهلية الأولى ، لا يتركها الله تبارك وتعالى من غير عدلٍ ورحمة ، يسألها أمام الناس جميعاً ، ويقول : ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٩] فهل لا تسأل أمَّة بأسرها عن ذنبها ، ألا يسأل اليمن الذي قال رسول الله ﷺ عنه : «أتاكم أهل اليمن أرقُّ أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمان يمانٍ ، والفقه يمانٍ ، والحكمة يمانية»[١] ما ذنب هذا الشعب الوادع؟ بماذا استحق هذا المصير؟

---

(١) حديث صحيح .

www.abulhasanalinadwi.org

إخواني! لم يكن من حظِّي أن أولد في هذه البلاد المقدسة ، إنما ولدت بعيداً عنها ، هذا أراد قضاء الله وحكمته ، ونشأت في بلادٍ لا تنطق باللغة العربية ، وهنا أستاذنا الجليل العلاَّمة الدكتور تقي الدِّين الهلاليُّ المراكشيُّ ، اسألوه عن بلادنا ، فإنَّه مكث فيها مدَّةً ، بلاد بعيدة عن مهد الإسلام ، بلادٌ بعيدةٌ عن لغة العرب ، ولكننا كلنا ـ والحمد لله ـ نعتزُّ بعقيدتنا الإسلامية ، ونعتقد ، ونؤمن مخلصين بأنه لا سعادة لنا ، ولا نصر ، ولا قيام لنا ، إلا باتباع محمد ﷺ ، إنَّ شاعرنا يقول: «إن من لم يرض بأن يكون تراب عينه رسول الله ﷺ ، فليكن التراب على رأسه» ومن لم يرض أن يمشي في ركاب رسول الله ﷺ ويتمسك بأهدابه ، فإنَّه لا وسيلة له عند الله ، ولا أمل له في الانتصار. ولا سبيل لكم أيها الإخوة إلا الخضوع لقيادة محمد ﷺ ، وإذا أبيتم ذلك ـ أعاذكم الله ـ وأبت ذلك كبرياء القومية العربية ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد حرَّم النصر ، وحرَّم العزَّة والكرامة ، وحرَّم الفتح ، إنَّ الله ربط مصير العرب بقدم محمد ﷺ، إنَّ الله ربط سعادة العرب بمحمدِ بن عبد الله ﷺ، لم يربطها بقائدٍ اشتراكيٍّ ، أو زعيمٍ قوميٍّ لا تقوم للعرب قائمة حتى يمشوا في ركاب محمدٍ ﷺ ، إن الله سبحانه وتعالى يوم بعث محمداً ﷺ في مكة ، في اليوم الذي بعثه ، قرَّر في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، وفي تلك اللحظة: أنَّ مصير الإنسانية مربوط بهذا الشخص الكريم ، وأنَّه لا سعادة بغير قيادته ، وبغير اتِّباعه ، إنَّ كثيراً من الحيوانات تعتبر وتنتفع بالتجارب ، فمالنا لا نعتبر؟ ماذا أعطانا هؤلاء الزعماء ، وهؤلاء المتشدِّقون؟ أيُّ مصيرٍ بدَّلوا؟ أيُّ شقوة كانت قد كتبت علينا محوها؟ أيُّ اعتبار كنا فقدناه ردُّوه إلينا؟ هذا التاريخ المشرق الزاهي قد فقد الشيء الكثير من روعته وتأثيره في النفوس ، كنَّا دائماً نفتخر بالتاريخ الإسلاميِّ العربيِّ ، فصعب علينا الآن أن نتمثَّل به في المجالات العامَّة ، فقد أصبحت الفجوة عميقةٌ واسعةٌ بين الماضي والحاضر ، وبين الآباء والأبناء.

احتفظوا أيها الإخوان! بالبقية الباقية من الغيرة الإسلامية ، والكرامة الإنسانية ، قوموا لتحملوا الدعوة الإسلامية إلى الآفاق ، ستستقبلكم هذه الآفاق العالم. يتطلع إليكم أيها العرب ، ليس من المعقول أن يحترمكم

www.abulhasanalinadwi.org

إنسان في الهند ، وفي باكستان ، وفي تركيا ، وفي إندونيسيا ، بمجرد القومية العربية ، ولكن من المعقول جداً ، أن يحترمكم لإسلامكم ، ولإيمانكم ، ولحرصكم على الهداية ، ولأخذكم بيد الضعيف ، ولمنعكم الظالم عن الظلم ، ولاتصافكم بالفضائل الخلقية ، وتمسُّككم بالدعوة الإسلامية ، إنَّ العالم الإسلاميَّ قد فتح ذراعيه ليعانقكم ، ويضمَّكم إلى صدره ، كما ضمَّكم إلى صدره قبل قرون ، إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خرجتم من جزيرتكم ، تحملون مشعل الدعوة الإسلامية ، وفتحت لكم الهند صدرها ، فتح لكم أفغانستان ، وإيران ، وسمرقند ، وبخارى ، فتح لكم البربر هؤلاء الذين ما عرفوا الهزيمة في تاريخهم ، إنَّهم لم يخضعوا بحدِّ السيف ، إنما خضعوا لمعجزة الإسلام ، خضعوا للإخلاص ، خضعوا للعطف والرحمة بالإنسانية ، وللعدل الذي كنتم تحملونه معكم أينما حللتم ، خضعوا لفضل المساواة التي كنتم تعاملون بها الأمم والأفراد ، بالله قولوا لي ، ما هي رسالة القومية العربية للإنسانية ، وأيُّ خيرٍ للإنسانية جمعاء ، في قومية من القوميات ، قوميةٌ بقومية ، وجنسيةٌ بجنسية ، ودمٌ بدم ، ومدينةٌ بمدينة ، إذا افتخرتم أنتم بالقومية العربية فهناك مئات من الشعوب تفتخر بقوميتها ، لا فضل لقوميةٍ على قوميةٍ ، ولا فضل لحضارةٍ بائدةٍ على حضارة بائدةٍ ، إنما الفضل للرسالة الخالدة التي جاء بها محمد ﷺ ، فارفقوا بأنفسكم أيها العرب! قبل أن ترفقوا بغيركم ، ارفقوا بنفوسكم ، ارفقوا بمستقبلكم ، ارفقوا بأجيالكم القادمة ، ارفقوا بتاريخكم ، ارفقوا بهذا الاحترام الذي لا يزال لكم عند الشعوب الإسلامية ، إنَّ العالم ينتظركم مرَّةً ثانيةً لتنقذوه من هذه الجاهلية المعاصرة ، من جاهلية القرن العشرين ، التي غزت العالم ، واكتسحت العرب والعجم ، وأن تعيشوا للإسلام ، وبالإسلام ، فيعود إليكم مركزكم القديم من القيادة والهداية ، ومكانكم القديم من القلوب والنفوس ، ويكون النصر حليفكم في كلِّ معركة .

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

كيف دَخَلَ العرب التاريخ؟

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في حفلةٍ عقدت في المكتبة العامة في دبي (دولة الإمارات العربية المتحدة) ليلة الثلاثاء ٥/محرم ١٣٩٤ هـ (٢٨/ يناير ١٩٧٤م ، حضرها عددٌ كبيرٌ من أعيان البلدين (دبي والشارقة) والأساتذة الكبار ورجال التربية والثقافة والعلماء.

وقد قدَّم العلامة الندوي ورحب به الأستاذان الكبيران الشيخ عبد الودود سلبي نائب المدير العام للأوقاف والشؤون الإسلامية بالشارقة ، والشيخ توفيق عاشور مدير المعهد الديني بدبي باسم البلدين العربيين الإسلاميين اللذين زارهما العلامة الندوي لأول مرَّة ، وقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى وسلم على النبيِّ ﷺ ، وشكر الأستاذين الكريمين على كلمتهما الترحيبية الرقيقة ، ثمَّ ألقى هذه المحاضرة.

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(١) [الزخرف : ٤٤].

إنَّ دخول شعبٍ في التاريخ ـ أيها السادة والإخوان! ـ ليس بالأمر اليسير ، إنَّه حادثٌ يحسب له حسابٌ كبيرٌ ، فقد تظلُّ شعوبٌ كثيرةٌ غنيةً بالمواهب والطَّاقات ، زاخرةً بالحياة والنشاط ، منطويةً على نفسها ، منعزلةً عن العالم ، مغمورةً مطمورةً قروناً كثيرةً ، وآلافاً من السنين ، لا يعيرها التاريخ اهتماماً ، ولا يلقي لها بالاً ، والتاريخ صيرفيٌّ حاذق ، لا يقبل إلا من وفَّى بشروطه ، ورجح في ميزانه ، وهو جادٌّ غير هازل ، مشغولٌ غير عاطل ، ضنينٌ شحيحٌ ، لا يفتح صدره ، ولا يفسح المجال إلا لمن أقنعه بصلاحيته وغنائه ، أو أرغمه على الاهتمام بشأنه بقوَّته وانتصاراته ، وشقَّ طريقه إلى الأمام ، واحتلَّ الصدارة أو الزعامة في مصافِّ الشعوب والأمم ، وعلى مسرح العالم.

وإذا استعرضنا التاريخ استعراضاً شاملاً وجدنا أنَّ هناك مداخل ثلاثة تدخل منها الشعوب والأمم التاريخ ، وتفرض على المؤرخين والمؤلفين التنويه بشأنها ، وتدوين أخبارها ، والاعتراف بفضلها ، وتحجز لنفسها مكاناً خاصاً.

المدخل الأول : وهو مدخلٌ عامٌّ واسعٌ ، دخل منه أكثرُ الشعوب والأمم التاريخ ، هو مدخل الغزو والفتح ، والاستيلاء والحكم ، وخير مثالٍ لهذا النوع من الدخول ، وأعظمه شهرة : الروم ، فقد استولوا في الزمن السابق بفروسيتهم النادرة ، وقوتهم الحربية ، وصلاحيتهم القيادية ، على رقعةٍ واسعة من العالم القديم ، وأسسوا إمبراطوريةً من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وعُرفوا بقوة الإدارة والتنظيم ، وقيادة الجيوش ، وسنِّ

(١) فسر ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه ، «الذكر» في هذه الآية بالشرف ، فقالوا معناه لشرف لك ولقومك (تفسير ابن كثير).

www.abulhasanalinadwi.org

القوانين ، وبقوا مدَّةً طويلةً يحكمون عدَّة شعوبٍ ، وعدَّة ولاياتٍ في القارات الثلاث: أوربا ، وآسيا ، وإفريقية ، وضبطوا البلاد ضبطاً محكماً ، وحكموا بيدٍ من حديد ، ولكن الواقع أنَّ الشعوب التي كانوا يحكمونها لم تفتح صدرها لهم ، ولم تحبّهم قطّ ، بل بقيت تنظر إليهم كمستعمرين وفاتحين ، وحكّام جبارين ، لا يدينون بمبدأ المساواة البشرية ، ولا يحملون احتراماً للإنسانية ، وقد كان الرومان أنفسهم يعتقدون أنَّهم خلقوا ليسودوا ويحكموا ، وأنَّ الشعوب الأخرى خلقت لتطيع وتخدم ، وكانوا يوزّعون العالم كله بين «رومانيين» و«برابرة» ، فكانت الشعوب المحكومة تتحيَّن الفرص للتخلُّص منهم ، وتسرَّب الوهن على مدى الأيام إلى الجهاز الإداري ، والطبقة الحاكمة ، واشتدَّ تذمُّر المحكومين ، فحدثت ثورات إثر ثورات ، وانتشرت الأطراف ، وساد الاضطراب ، فتحررت بلادٌ كثيرةٌ ، واستقلّت ولاياتٌ ، واعتبر أهلها ذلك تحرراً من النير الأجنبي ، والحكم الاستبدادي ، وحسبت نفسها سعيدةً منتصرةً لما خرجت من حكمهم.

والمثل الثاني: هو الفاتح الشهير الذي نال من الشهرة العالمية قسطاً لم ينله فاتحٌ آخر ، ودوَّى له العالم هو الإسكندر بن فيلبس المقدوني ، وقد نهض من أثينا يدوّخ العالم ، ويفتح البلاد ، ويُخضع الشعوب ، والأمم ، ويثلُّ العروش ، ويدوس التيجان ، ويجعل القرى والمدن خاويةً على عروشها ، يسودها الظلام والوحشة ، وكان تفسيراً لما جاء في القرآن في وصف الملوك: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل: ٣٤] ، ولكنَّه كان كعاصفةٍ مرّت بالبلاد والعباد ، فأطفأت النيران ، وأخبت المصابيح ، وخلعت القلوب ، وأرعبت النفوس ، ثم هدأت وغابت كلا شيء ، وعادت الشعوب والبلاد إلى ما كانت عليه ، ولم تذكره الأمم المفتوحة بالخير ، ولم تحفظ له بداً ، فإنَّه لم ينهض في صالح العباد والبلاد ، وإنما قام ليرضي شهوة الفتح والغزو ويثبت قوته الحربية ، وقيادته العسكرية ، وكان كلاعبٍ رياضيٍّ ماهرٍ ، همُّه الوحيد أن يثبت تفوقه على الأقران ، ويسجل «الرقم القياسيَّ» ، فكان ذلك.

www.abulhasanalinadwi.org

والمثل الثالث القريب! الإنجليز ، فقد دخلوا الهند ، واستولوا عليها ، وبسطوا فيها الأمن والاستقرار ، وقضوا على الفوضى والاضطراب ، وأحسنوا تنظيم الإدارة ، وأنشؤوا الشوارع ، وأقاموا الجسور ، وأسسوا خطَّ الحديد ، وأقاموا نظام البريد ، وقاموا بمشاريع عمرانيةٍ بنائيةٍ عملاقةٍ ، وعرفت بهم هذه البلاد التي تأخرت عن ركب الحياة ، وعاشت في عزلةٍ عن العالم العلوم الحديثة ، والصنائع الجديدة ، والوسائل العصرية ، وبسطوا شبكةً دقيقةً واسعةً من المعاهد ، والكليّات ، والجامعات ، وقاموا بإصلاحاتٍ كثيرةٍ ، وتعرَّفت بهم البلاد لأول مرة بالحياة السياسية ، والنظام البرلماني ، والصحافة ، وكان كلُّ ذلك كفيلاً بأن تحبَّهم البلاد ، وتعرف لهم الفضل ، وتشكرهم على النهضة بالبلاد وترقيتها .

ولكن كان الأمر بالعكس ، فلم تفتح لهم صدرها ، ولم تولهم حبَّها أبداً ، باستثناءِ طبقةٍ مرتزقةٍ ، أو الخاضعين لمصالح سياسيةٍ ، ولم يزالوا ينظرون إليهم كأجانب مستعمرين ، ومستولين غاصبين ، وقد طمس على جميع مآثرهم و«أعمالهم الخيرية» عدم إخلاصهم للبلاد والشعب ، فلم تكن لهم غايةٌ إلا بسط النفوذ ، والاستفادة من خيرات البلاد ، وخدمة مصالح بريطانيا العظمى السياسية والاقتصادية ، وتأسيس مملكةٍ واسعةٍ لا تغرب فيها الشمس ، ومزاحمة الشعوب الأوربية المنافسة ، وإثبات تفوقهم عليها ، وكانوا كالإسفنج يتشرب الماء في مكانٍ ويصبه في مكان آخر ، يتشربه في الهند ويصبُّه في جزر بريطانيا ، وعدم الإخلاص لا يخفى ، بل يعرفه الأغنياء والبسطاء فضلاً عن الأذكياء والعقلاء ، وما جاء بالإنجليز إلى الهند غرضٌ سام ، ولا دعوةٌ دينيةٌ أو خلقيةٌ ، ولا رحمةٌ بالإنسانية ، إنما دفعهم الجشع الأرضيُّ والاستغلال الماديُّ .

وكانت القدر تغلي ، والبركان يريد أن ينفجر ، وكانت ثورة ١٨٥٧ م ، وأخفقت لأسبابٍ يطول شرحها ، ولكن البلاد لم تهدأ ، والفكرة لم تمت ، والشرارة كامنةٌ في الرماد ، وأنبتت البلاد كراهيتها للحاكم الأجنبيِّ ، وقويت حركة التحرير والجلاء ، ونادى الزعماء بمقاطعة البضائع الإنجليزية

www.abulhasanalinadwi.org

الأجنبية ، وعدم التعاون مع الحكومة ، ومقاطعة كلِّ ما يتصل بالإنجليز ، ويمتُّ إليهم بصلة ، من شعائر ، ومدارس ، وحضارة ، وثقافة ، واستفحلت هذه الحركة ، وانطلقت كموجةٍ عارمةٍ تكتسح كل ما يعترضها في الطريق ، وأصبحت البلاد شعلةً من سخطٍ ، ومقتٍ حتى جلا الإنجليز وتحرَّرت البلاد في ١٩٤٧ م ، وتلا ذلك اتجاهٌ إلى تحرير البلاد من جميع آثار الاستعمار الإنجليزيّ ، وقامت دعوةٌ إلى التحرُّر من الاستعمار اللغوي ، والثقافي بعدما تحررت البلاد من الاستعمار الاقتصادي والسياسيّ ، وإحلال اللغة الوطنية محل اللغة الإنجليزية الأجنبية ، وتناسى زعماء هذه الحركة ما كان للإنجليزية من فضلٍ في إقامة الوحدة الفكرية ، واللغوية ، ونشوء الوعي واليقظة في البلاد ، وإن كانت هذه الغاية لم تتحقق ولا تزال اللغة الإنجليزية منتشرةً سائدة في البرلمان ، والصحافة ، ودوائر التعليم ، ولكنَّ اللغة الوطنية أصبحت اللغة الرسمية ، وأداة التعليم ، وكلُّ ذلك لأنَّه لم تكن بين الشعب واللغة الإنجليزية صلةٌ دينيةٌ ، ولا عاطفيةٌ ، وليست لها جذورٌ في نفوس الشعب ، وعقائده ، ومشاعره ، وتاريخه ، وكلُّ ما كان هذا شأنه كان سطحياً عابراً ، وأجنبياً طارئاً ، وما يستحقُّ التسجيل .

إنَّ معظم قادة حركة التحرير في الهند ، هم الذين رضعوا بلبان الثقافة الإنجليزية وآدابها ، وكانوا أشدَّ الناس اتصالاً بالإنجليز ، وأعظمهم معرفةً بهم ، وقد عاشوا في بلادهم وجامعاتهم ، وآدابهم ، وعاداتهم مدَّةً طويلةً ، فلم تزدهم هذه المعرفة ، ولم تزدهم الثقافة إلا كراهةً للإنجليز ، وشكّاً في نياتهم وإخلاصهم ، وعلماً بما طبعوا عليه من كبرياء ، وعدم المساواة ، والمغالاة في القومية والعنصرية ، فقادوا حركة التحرير والثورة ، وحملوا لواء الحركة الوطنية ، وواصلوا الكفاح حتَّى تحرَّرت البلاد وجلا الإنجليز .

والمدخل الثاني ـ أيها السادة ـ الذي دخلت به بعض الشعوب التاريخ هو العبقرية الفنِّية ، والذكاء الباهر ، ووضع علوم جديدة ، وقيادة العقل البشري ، وهذا هو المدخل الذي دخلت به يونان التاريخ الإنسانيَّ ،

www.abulhasanalinadwi.org

واستولت به على مشاعر الأجيال ، وتفكيرها ، وثقافتها ، وبقيت تقود العالم في ميدان العلم والفكر قروناً عديدة ، فقد نبغ في أرضها الخصبة فلاسفةٌ ، ورياضيُّون ، وفلكيون ، وأطباء من الطراز الأول ، ووضعوا قواعد وأسساً لعلوم جديدةٍ ، واخترعوا علوماً كثيرةً تجلَّت فيها عبقريتهم ، واستطاعت يونان بفضلهم أن تكون زعيمة العلم والفكر ، ورائد البحث ، ورمز التنوير ، والابتكار ، والإبداع لمدَّةٍ طويلة ، وخضع لها العالم فكرّياً ، وعلميّاً ، يردِّد صداها ، ويتغنَّى باسمها وعلمها.

واستمرَّ ذلك حتى نشأت الأندلس الإسلامية ، ونبغ علماء الإسلام في الشرق والغرب ينقضون كثيراً مما أبرمه العلماء الإغريق ، ويزيدون في ثروة العلم والفكر الإنسانيِّ ، ويقومون بتجارب جديدة في مجال العلوم التطبيقية ، والكيماوية ، والفلكية ، ووصلت إلى أوربا ، فأنارت فكرها ، وأخرجتها من جمودها ، وضيقها ، وتعصُّبها ، وبذرت البذور الأولى للنهضة العلمية الجديدة.

ثمَّ جاء عصر النهضة الفكرية العلمية الأوربية التي تسمَّى : النشأة الثانية (Renaissance) وقامت أوربا برحلةٍ جديدة في ميدان العلم والتجربة ، ففتحت فتوحاً في العلم والاكتشاف ، أزالت دهشة الفتح اليونانيِّ ، وقضت على سيطرتها العقلية ، وزعامتها الفكرية ، وظهر خطأ اليونانيين في كثير من نظرياتهم ، ونتائج فكرهم ، ومقرَّراتهم العلمية ، وظهر جهلهم وخرافية كثيرٍ مما كان يعتبر آخر ما وصل إليه العقل البشري ، وانتهى إليه العلم الإنسانيُّ ، وبدت تحقيقات بطليموس ، وفيثاغورث ، وأقليدس ، وديوجانس ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، التي سُحر بها العالم القديم ، وافتتن بها ، أمام الفلسفة الحديثة ، وعلم الفلك الجديد ، والعلوم الرياضية والهندسية ، والطبِّ ، وعلم الكيمياء ، والصيدلة ، التي توصَّل إليها العلماء في أوربا في أواسط القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، كمحاولاتٍ بدائيةٍ في عالم العلم والتجربة ، وأصبحت كقطرة أمام البحر الزاخر ، وهذه سنَّة الله في خلقه ، ونظام الكون ، وطبيعة الأشياء ، يهزم القويُّ الضعيف ، وينسخ الجيد القديم ، ويحلّ المقيد

www.abulhasanalinadwi.org

الجديد محلّ العتيق البالي ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ولم تدن الشعوب الإنسانية لليونان في زمنٍ من الأزمان بالحبِّ والعاطفة ، والولاء والإخلاص ، ولم تحاول هي بنفسها ولم تدع إليه ، فإنما كانت رسالتها العلم والتجربة ، والتسلية العقلية ، وإشباع غريزة البحث المودعة في الإنسان ، بل بالعكس من ذلك أثارت الشَّكَّ والقلق ، وحبَّ الجدل والاضطراب الفكريّ ، فلم تتجاوز علاقة الشعوب باليونان العلاقة الفكرية وعلاقة البحث والنقد ، والتقدير ، والاعتراف بالفضل في ميدان الفكر والعلم ، لا تقترن به عاطفةٌ قويةٌ ، أو شعورٌ عميقٌ ، أو صلةٌ مقدَّسةٌ ، وكان ذلك شأن علماء اليونان أنفسهم فيما بينهم ، يتباحثون ، ويتناقشون ، ويبرمون ، وينقضون ، ويهزؤون ، ويسخرون في بعض الأحيان ، ولم تكن لفلسفتهم ولا للغتهم عقيدةٌ تحميها ، أو شريعةٌ تحافظ عليها ، أو كتابٌ مقدَّسٌ يصونها ، لذلك انكمشت فلسفتهم ، واندرست لغتهم ، واندثرت آثارهم.

وآن لي أن أتحدَّث عن المدخل الذي دخل منه العرب التاريخ ، وهو أقوى مدخل ، وأعمقه ، وأكثره خلوداً وبقاءً ولا خطر عليه في مكانٍ أو زمانٍ مهما تغيَّرت الظروف والأوضاع ، أو طال الأمد وبعد الزمان ، وهو مدخل الرسالة والهداية ، والرحمة للإنسانيَّة ، والخدمة المخلصة ، المجرَّدة عن الأغراض ، لقد بقي العرب قروناً وآلافاً من السنين منطوين على نفوسهم لا شأن لهم بالعالم ، ولا شأن للعالم بهم ، تتناساهم الشعوب والأمم حولهم ، ويتجاهلهم التاريخ ، وقد كانوا مسلَّحين بجميع الطاقات التي تجعل منهم أمَّةً كريمةً عظيمةً ، تستطيع أن تمثِّل دوراً في تاريخ الغزو والفتح ، فقد فاقوا في الفروسية والشجاعة ، و«صناعة الحرب».

وكانت عندهم كثيرٌ من الأخلاق الفاضلة ، وخلال المروءة التي توجد عند الأمم الأصيلة التي تكون على الفطرة ، وتعيش حياة البداوة والسَّذاجة ، وكانوا يحملون لغةً ذات عبقريةٍ لغويةٍ ، وثروةٍ واسعةٍ ، وكانت

www.abulhasanalinadwi.org

عندهم قريحـةٌ شعريـةٌ تتدفق كالشَّلال ، وتجري كالماء السلسال ، وكانت لهم معلقاتٌ ومذهبات أولعوا بها ، والشعر الكثير ، والحكمة الرائعة ، ولكن كلُّ ذلك كان لا يكفيهم للدخول في التاريخ ، واحتلال الصَّدارة ، أو الزعامة في منتدى العالم.

لقد عاشوا قروناً كثيرة في هذه العزلة ، وفي هذا الانطواء ، وفي هذا الخمود ، وكان يمكن أن يعيشوا قروناً أخرى في هذا الوضع ، ولكنَّ الله أراد غير ذلك ، فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ، وأكرمهم بالإيمان به ، والتَّصديق له ، والإخلاص لرسالته ودعوته ، والتفاني في سبيلها ، فتجرَّدوا عن كلِّ ما ينافيها ، واستأنفوا حياةً جديدةً ، وكأنما ولدوا في الإسلام ولادةً جديدةً.

وكانت الرسالة التي كانوا يحملونها رسالة التوحيد النقيِّ ، والدين الخالص ، ورسالة الطهر ، والأخلاق الفاضلة ، ورسالة العدل والمساواة ، والرحمة والعطف ، ورسالة العلم والعقل ، وكانوا مخلصين في تبليغ هذه الرسالة ، لا يتَّخذونها قنطرةً للوصول إلى الحكم والاستيلاء على الشعوب والأمم ، لا يخرجون الناس من حكم الإنسان إلى حكم الإنسان ، ومن سيادة أمَّة إلى سيادة أمَّة أخرى ، بل يخرجون الناس ، كما قال أحد رسلهم في مجلس رستم أكبر قواد الفرس: «من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

وكان دليلاً على ذلك أنَّهم كانوا يدعون إلى الإسلام أولاً ، فإذا أبى القوم ، دعوهم إلى الجزية ، فإن أبوا حاربوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كلُّه لله[٢] فاستقبلتهم الشعوب المستعبدة المستعمرة ، أو الأمم

---

(١) راجع «البداية والنهاية» ج/ ٧ص/ ٤٠.

(٢) جاء في حديث طويل أخرجه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً «أنَّ النبي ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية كان ما يوصيه به ويأمره أن يقول: إذا لقيت عدوَّك=

www.abulhasanalinadwi.org

المضطهدة ، والأفراد الذين أساءت إليهم الأديان المحرَّفة وقسا عليهم المجتمع الظالم ، وابتزَّ أموالهم ، وشلَّ عقولهم ، وحرياتهم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدُّون عن سبيل الله ، كمنقذين ودعاةٍ ومعلمين ، وآباء مشفقين ، وإخوان متحابين ، واستقبلوهم كفرقة الإسعاف الطبيِّ ، ورجال المطافىء ، لا يعني المريض الجريح ، ولا المنكوب المفجوع الذي وقع في بيته الحريق بالبحث عن جنسيتهم ، والعناية بلغتهم ولهجتهم ، إنما يُعنى بغايتهم ورسالتهم ، ثم رأوا منهم عطف الآباء وحنان الأمهات والمساواة التي لا نظير لها ، والبر والمواساة ، فارتمى في أحضانهم «المنبوذون» والأشقياء ، والتجأ إليهم الطريد الشريد ، وفضَّلوهم عن بني ملتهم ، وأبناء جلدتهم ، والإخلاص لا يخفى ، كما لا يخفى عدم الإخلاص ، وقد بلغ ببعض الشعوب المفتوحة حبها للفاتح الرَّحيم ، والوالد الكريم أن أبدت عواطفها ومشاعرها في أشكال ومظاهر ، لا يقرُّها دين الفاتح ، ولا يرضاها القائد نفسه ، فقد سجل التاريخ أنَّ أهل السند البراهمة الوثنيين الذين غزاهم محمد بن القاسم الثقفي ، وفتح بلادهم ـ ذلك الفتى المغوار الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ـ هاموا بحبه حتى بعد شهادته ، أن نحتوا له تماثيل ، وذلك ما لا يوجد له نظير في تاريخٍ للغزو والفتح .

وقد جرَّبت الأمم المفتوحة مثالاً جديداً للحكم ، لا عهد لها به ، تتحكَّم فيه المعايير الخلقية ، والمبادىء الفاضلة ، وتسود فيه المساواة ،

= من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهنَّ أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم إلى آخر الحديث» .

وكانت أولى هذه الخصال الدعوة إلى الإسلام ، ثم الجزية ، ثم القتال ، وقد ألغى الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز فتح سمرقند بعدما مضى عليه سبعُ سنين ، لأنّ أهلها المشركين شكوا إليه أن قتيبة قد استولىٰ على المدينة ، واستعمر الناس فيها ولم يدعهم إلى الإسلام ، ولم يخيرهم بين الجزية والقتال ، وأمر بخروج المسلمين من البلد والعمل بحكم الشريعة من جديد ، فأسلم معظم أهل البلد .

«اقرأ القصة بطولها في فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٢ طبع بريل ١٨٦٦ م» .

www.abulhasanalinadwi.org

ومبدأ تكافؤ الفرص ، واحترام الإنسانية ، بجميع أشكالها ، وأجناسها ، وألوانها ، وكان الحكام يوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وينفذون حدود الله على الشريف والوضيع ، والحاكم والمحكوم ، ويتناصفون بينهم ، وكان منهم من يؤثر جانب الهداية على جانب الجباية(١) ، وقد شاهدت طرازاً جديداً فريداً للإنسانية لم تشاهده من قبل ، نزاهة نفس ، وسموَّ نظر ، وعلوَّ همَّة ، ورقَّة شعور ، وقوَّة عاطفة ، وسلامة ذوق ، واستهانةً بالزخارف والمظاهر الجوفاء ، وتمرداً على المادة ، قد انفردوا بالنظر والخبر ، وأذان السَّحر(٢) وتقلص ظلُّ العرب من السند والهند سريعاً ، ودخل البلاد شعوبٌ وسلالاتٌ إسلامية لا تتكلم اللغة العربية ، وأسست حكوماتٌ دامت ثمانية قرون ، ولكن بقي للغة العربية سلطانٌ على النفوس والقلوب يتدارسها ، ويبرع فيها ، ويحذقها آلافٌ من الناس في كلِّ جيلٍ ، ويؤثرونها بالتأليف والتحقيق ، ويفضلونها على لغاتهم التي نشؤوا عليها ، وعلى لغات البلاد والأقاليم ، وتستمرُّ حركة التأليف والتعليم والتحقيق قويةً في اللغة العربية إلى يوم الناس هذا ، وتبلغ عناية أهل الهند بها وزعامتهم فيها إلى أن ينبغ فيها مثل العلامة حسن بن محمد الصغاني اللاهوري (م٦٥٠ هـ) الذي يؤلف معجماً كالعباب الزاخر ، والسيد مرتضى البلكرامي المشهور بالزبيدي (م ١٢٠٥ هـ) الذي يتناول القاموس المحيط للفيروز آبادي بالشرح والتحقيق ، فيضع موسوعةً لغويةً في عشرة مجلدات كبار وفي خمسة آلاف صفحة ، يسميها بتاج العروس في شرح القاموس ، ولا نعرف أنَّ معجماً شرح في أيِّ لغةٍ من لغات العالم بهذه

(١) كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله ، وقد شكا إليه ضعف مالية المملكة لإعفاء من كان يدخل في الإسلام عن الجزية «ويحك إنَّ محمداً ﷺ قد بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً» (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم).

(٢) هذا التعبير عن منظومة للشاعر الدكتور محمد إقبال ، قالها على لسان طارق بن زياد حين دعا المسلمين قبل أن تنشب الحرب في الأندلس ، والمقصود: أنَّ العرب كانوا يمتازون بعلم جديد ، وإشراقٍ جديد ، وشعارٍ جديد ، هو شعار التوحيد الّذي كان يدوِّي في الفضاء ، والناس نيام غافلون ، (انظر: روائع إقبال للعلامة الندوي «دعاء طارق» ص ١٤٤).

www.abulhasanalinadwi.org

الدقة والتفصيل ، هذا عدا كتب تعدُّ بالألوف ألفها علماء الهند في اللغة العربية في مقاصد دينية ، وموضوعات علمية[١] ، وفي مصطلحات العلوم ، وغريب الحديث ، وشروح دواوين السنة .

ولم يفكر أهل الهند قطُّ في التحرر من سلطان اللغة العربية والاستغناء عنها ، ولم يعتبروا ذلك قطُّ أثراً من آثار الاستعمار العربيِّ القديم ، ولم ينظروا إليها في حينٍ من الأحيان كلغة أجنبية احتلت البلاد والعقول ، ودوائر التعليم ومجال التأليف ، بل بالعكس من ذلك ورغم الأحداث والانقلابات ظلُّوا عاضين عليها بالنواجذ ، دائنين لها بالحبِّ والولاء ، والإجلال والتقدير ، وهم لا يواجهون أدنى مشكلةٍ من مشكلات اللغات التي تواجهها أمَّـةٌ .

يعشقون كلماتها ، ويتبركون بتعلُّمها وتعليمها ، ويتنافسون في خدمتها ونشرها ، ويوجد منهم اهتمام بها لا يضارعه اهتمام لأيِّ أمة بأيِّ لغةٍ ، وذلك كلُّه لأنَّ هذه اللغة هي اللغة التي نزل بها القرآن ، ودُوِّنت فيها الشريعة ، وتكلَّم بها الرسول وأصحابه ، واقترنت بها عقيدةٌ ، وعاطفةٌ دينية ، فسلطانها لا يُتحدَّى ، ومكانها من القلوب لا يزاحم ، وجذورها في النفوس لا تقتلع ، حتى إن اللغة الفارسية التي بقيت لغة الديوان ، ولغة الرسائل والإنشاء ألف سنة تقريباً ، وكانت لغة فاتحي الهند ، ومؤسسي الحكومات ، ومن غزنوية ، وغورية ، وأفغانية ، ومغولية ، ونبغ فيها شعراء سلم لهم شعراء إيران بالإجادة والإمامة ، وسرت بشعرهم الركبان اعتراها من الضعف ، وانصراف الهمم عنها ، وزهد الناس فيها ، حتى خيف عليها من الانقراض في الهند ، ولولا عناية الجامعات الهندية بها ، وإنشاء قسمٍ خاصٍّ لتدريسها ، والامتحان فيها ، لطوى بساطها ، وخبا مصباحها نهائياً ، لأنَّها لم تقترن بعقيدةٍ وشريعةٍ ، ولم تقم على عاطفةٍ دينّيةٍ عميقةٍ .

---

(١) ليرجع إلى كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلاّمة عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) للاطلاع على سعة الحركة العلمية التأليفية في اللغة العربية في الهند ، وضخامتها ، طُبِعَ في مجمع اللغة العربية بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

وظهر وفاء المسلمين في الهند للغة العربية ، والثقافة الإسلامية ، وشدَّة تعلُّق قلوبهم بكلِّ ما يتصل بالعرب الذين حملوا مشعل الإسلام ، وبجزيرة العرب والحرمين الشريفين ، ومهد الإسلام ، ومهبط الوحي ظهوراً ، كان موضع دهشة الغلاة من القوميين في الهند ، وموضوع نقدهم ولومهم ، ورأى بعضهم أنَّ ذلك ينافي الإخلاص للوطن والحماس له ، وإيثاره على كلِّ شيء ، ولكن المسلمين يواجهون هذا النقد والملام في شجاعةٍ وإيمان ، وثقةٍ واعتزاز ، ولا يزيدهم ذلك إلا قوةً وصموداً ، ويرونه حقّاً من حقوق العرب الذين نالوا بهم سعادة الدنيا والآخرة ، وخرجوا بفضل دعوتهم وإخلاصهم وجهادهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن عبادة الأصنام ، والأنهار ، والحيوانات ، والأشجار إلى عبادة الله وحده(١) .

وظلَّ هذا الصفاء قائماً ، ودامت هذه الثقة لا يضعفها شيءٌ ما دام العرب مخلصين للإسلام ، متجردين له ، معنيِّين بخدمة الإنسانية ، والعطف عليها ، لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية ، وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة ، ولا يتحمَّسون لغير الإسلام ، فلما تغيَّرت أخلاقهم في العهد الأخير ، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية ، وتبنوا ، واحتضنوا دعواتٍ أخرى ، وتحمسوا لها ، تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم ، وتغيَّرت نظرتها ونظرة العالم إليها ، وبدأت هذه الشعوب تتذكَّر قومياتها ، وفلسفاتها ، وحضاراتها ، وأمجادها ، ولغاتها التي تناستها ، واستهانت بها ، وآثرت عليها القومية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية العربية ، وأمجاد الإسلام ، واللغة العربية ، وتوجَّه إليها طعن زعماء القوميات المحلية وتهكَّموا بها ، وصاروا يتساءلون: لماذا لا يسوغ لأبناء الوطن أن يرجعوا إلى قوميتهم وحضارتهم حين بدأ العرب يتغنَّون

---

(١) يقول الدكتور محمد إقبال مخاطباً للرسول العربي ﷺ : «إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقة في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطف حول بلاط الملوك ، وقصور الأمراء ، والفضل في كلِّ ذلك ، يرجع إلى دينك الّذي جئتَ به ، وإلى جهادك الّذي قمتَ به» (انظر : روائع إقبال للعلامة الندوي ص ١٨٧/ ١٨٨) .

www.abulhasanalinadwi.org

بقوميتهم ، ويفكرون في العودة إلى حضارتهم الجاهلية وأمجادهم القديمة ، وأبطالهم القدامى الذين حارب كثير منهم الإسلام ، ودافع عن الجاهلية دفاعاً مستميتاً؟ وصعب للمتمسكين للإسلام في هذه البلاد أن يقنعوا هؤلاء المعترضين ، ويقطعوا ألسنتهم ، وإن كان أولئك الذين شرح الله صدورهم للإسلام لا يزالون مصمِّمين على التمسك بالإسلام ، عاضين عليه بالنواجذ ، مقدرين نعمته جحد الناس هذه النعمة أو قدروها ، وآمنوا بالإسلام ، أو كفروا به.

وأخيراً فليعرف العرب أنَّهم ما دخلوا التاريخ إلا عن طريق الرسالة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، ولم يغرس الله حبهم في النفوس والقلوب ، ولم تنتشر لغتهم هذا الانتشار الواسع ، ولم يكتب لها الخلود والبقاء ، ولم تدون فيها هذه العلوم الكثيرة ، ولم تتكون فيها هذه المكتبة الضخمة التي كان قسط علماء العجم فيها أعظم من قسط العرب أنفسهم إلا بفضل القرآن والشريعة الإسلامية ، ولا يعود العرب إلى مركزهم الأول ولا يدخلون التاريخ مرّةً ثانيةً إلا من هذا المدخل الذي دخلوا منه أول مرّة.

﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مصر جوهرها إسلاميٌّ إيمانيٌّ
محمديٌّ مهما تراكمت عليه الأتربة

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة الترحيبية في ٢٦ مارس ١٩٨٠م ، في قاعة اتحاد الطلبة ، بمناسبة زيارة معالي الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في الجمهورية المصرية لدار العلوم ـ ندوة العلماء على رأس وفد مصر يتكوّن من أساتذة الجامعات المصرية الكبرى ، والمقرىء العالمي الشهير الشيخ عبد الباسط عبد الصمد انتهز العلامة الندوي هذه الفرصة اللآئقة لتبليغ مشاعره ورسالته إلى مصر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّني إذ ذكرت مصر ثارت فيَّ الأشجان ، وثارت فيَّ الأحزان ، وهاج فيَّ الحنان ، وهاج فيَّ الإيمان ، مصر ، وما أدراكم ما مصر؟!

مصر كنانة الإسلام ، كانت كنانة الإسلام ، وستبقى كنانة الإسلام إن شاء الله .

مصر الّتي أنجدت العالم الإسلامي حين تكاثفت الظلمات ، وحين انقطع الرجاء ، كان ذلك حين هجم الوحوش التتار على العالم الإسلامي ، هنالك نَهَضَ الملك الظاهر بيبرس ، ونَهَض أهل مصر ، فهزموهم لأول مرَّة في التاريخ ، إنَّ هناك التقاءً عجيباً بين مصر والهند ، فإنَّ مصر هو القطر الوحيد الذي استطاع أن يردَّ الوحوش التتار على أعقابهم ، وأن يحسر الموجة العاتية الغازية للعالم الإسلاميِّ المتحدِّية للإسلام ، مصر هو القطر العربي الوحيد الذي هزم التتار ، والقارة الهندية ـ هي القطر الإسلامي الوحيد الذي هزم التتار ، وهنالك كان المماليك وها هنا كان المماليك ، هذا التقاء عجيب ، ثم إنَّ مصر هي التي أتحفت العالم العربي بل العالم الإسلامي ، بل أغاثتهما بالملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ، ومبيِّض وجه الإسلام والمسلمين ، الذي أنقذ العالم الإسلامي ، وحفظ مركز الإسلام من أن يقع فريسةَ الغارات الصليبية والاحتلال الأوروبي النصرانيِّ الحاقد ، وأعاد القدس الشريف وفلسطين إلى ولاية المسلمين وإشرافهم . فكان فتحاً تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح .

إنَّ مصر كنانة الإسلام ، فيها سهام تخرجها في أوانها ومكانها . إنني لما عشت في مصر تلك الأيام السعيدة الفريدة ، الحلوة اللذيذة التي عشتها في حياتي ، آمنت بأنها ستكون منطلق الإسلام إن شاء الله ، وتنبعث القيادة الإسلامية الجامعة من مصر مرَّةً ثانيةً .

وإنَّ مصر التي أنجبت حركة الإخوان المسلمين ، وإنَّني من غير اعتذارٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

ومن غير تعليلٍ ، ومن غير استحياءٍ لا يسعني إلا ذكر الإخوان المسلمين وحركتهم التي كان لها الفضل الأكبر في إيقاظ الشرق العربي وإنهاضه ، وإشعال الجمرة الإيمانية التي كادت تنطفىء ، التي كانت كامنةً في نفوس العرب. جاءت حركة الإخوان المسلمين ، فأشعلت هذه الجمرة فحوَّلت الشرق العربي كلَّه شعلة نارٍ . إنَّ مصر التي تستطيع أن تنجد العالم العربي على الأقل ، بل العالم الإسلامي بصفة عامَّة ، بحركة الإخوان المسلمين ، إنَّ مصر هذه لجديرةٌ بأن تسعف العالم العربيَّ في كلِّ زمان.

إنَّ جوهر مصر إسلاميٌّ إيمانيٌّ عربيٌّ محمديٌّ ، ومهما تراكمت عليه الأتربة ، ومهما طرأت عليه العناصر الداخلية ، فإنَّ مصر كانت عربيةً إسلاميةً محمَّديةً ، إنَّ لها صلة بالرسول مرتين ، عن طريق السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل جد الرسول ﷺ ، وعن طريق مارية القبطية أم المؤمنين ، ولذلك جاء في بعض الأحاديث: «استوصوا بأهل مصر خيراً» إنَّ مصر خليقةٌ بأن تُعقد بها الآمال ، إنَّها تحافظ على جوهرها الكريم وعلى عنصرها الكريم ، إننا كلُّنا مدينون لمصر في شيءٍ كثيرٍ. أنا شخصياً مدينٌ لمصر ، في ثقافتي العربية ، أنا قرأت الكتب المقرَّرة الدراسيَّة التي أُلفت ، وطبعت في مصر ، ولما كانت الباخرة تتوجه من جدة إلى السويس ، والله كنت أشعر بحنينٍ في القلب كأنني مقبلٌ على بلادي ووطني ، لماذا؟ لأنني تطفَّلت على مائدة مصر ، إنني اقتبست من مكتبتها ، إنَّ هذا الجيل الجديد الذي نشأ بحول الله وتوفيقه ، نشأ في ظلال الأدب الإسلاميِّ الذي وجد في مصر ، فإنني والحمد لله لا أزال قوي الأمل في مصر وفي مستقبلها ، وإنني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يأتي الدور القريب الذي تبزغ منه شمس الإسلام مشرقةً ، وهَّاجة ، منيرةً ، قويةً.

نسأل السادة الكرام وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ معالي الدكتور عبد المنعم النمر أن يبلغ تحياتنا إلى مصر وأبنائها ، وما في القلوب من حنين وفي النفوس من تقدير ، وإنَّا نتضرع إلى الله أن نرى مصر في مركزها الطبيعي.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ التاريخ المعاصر يشهد بأنَّ كلَّ من حاول أن يصرف شعباً إسلامياً عن مركزه الإسلامي وعن تفكيره الإسلامي وعن عقيدته الإسلامية ، وعن تراثه الإسلامي ، كان حظه الإخفاق ، أراد كمال أتاترك أن يحول الشعب التركي عن طبيعته الإسلامية الأصلية؛ التي تغلغلت في الأحشاء ، فكان نصيبه الإخفاق. إنَّ شاه إيران الذي أراد أن يصرف الشعب الإيراني المسلم عن رصيده الإسلامي ، فكان مصيره كما تعلمون. إنَّ أملنا قويٌّ في الذين يملكون زمام الأمور وفيهم القائمون لحقيقة الإسلام ، وفيهم الذين نشؤوا في ظلال الدعوة الإسلامية ، وفيهم الذين نشؤوا في تربية الإمام الشهيد حسن البنا وزملائهم ، وفيهم من دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، وفيهم من ناضل عن عقيدة الإسلام ، إنَّ هؤلاء الذين يتكلمون بلغة القرآن ، هؤلاء الذين يقرؤون القرآن أحسن منا ، والذين يحفظون القرآن أحسن منا ، وهناك مثل سائر: إن القرآن نزل بالحجاز ، وقُرِىء في مصر. وقد سمعنا هذه التلاوة الحلوة العذبة ، بلسان المقرىء العالمي الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، والشيخ محمود خليل الحصري وأمثالهم ، ولهم تلاميذ في كلِّ العالم ، حرامٌ أن ينقرض منها الإسلام ، وأن يطفأ فيها نور الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] حرامٌ على البلد المسلم الذي يتلى فيه القرآن بهذا الصوت الشجيِّ الذي يأخذ بمجامع القلوب أن تنقطع صلته عن الإسلام ، لا والله! إنني لا أستطيع أن أسيغ هذا ، إنَّ بلداً خدم الإسلام هذه الخدمة الكبيرة ، هذا البلد الذي احتضن الإسلام بأمانةٍ ، وبجدارةٍ ، وبقوّةٍ ، لا أستطيع أن أصدِّق أنَّ هذا البلد تنقطع صلته عن الإسلام ، فظنّوا بمصر خيراً يا إخواني! وانتظروا ذلك اليوم السعيد الذي ستتولى فيه مصر قيادة العالم العربي.

هذه أمانة أيها الإخوان تنقلونها منِّي إلى مصر ، تحياتنا لمصر ، تحياتنا لأبناء مصر ، تحياتنا لعلماء مصر ، تحياتنا للأزهر الشريف ، تحياتنا لمعاهد مصر ، وجامعاتها ومكتباتها التي تدفَّقت كالنِّيل ، بل أكثر من النِّيل ، فاضت حتى تخطَّت الحدود الجغرافية ووصلت إلى هذه القارة الهندية البعيدة ، ولي تحياتٌ قديمة أسميتها: «اسمعي يا مصر!» وإنَّ لنا

www.abulhasanalinadwi.org

لأملاً قوياً في الله سبحانه وتعالى ، وفي جهد إخواننا ، وفي غيرة إخواننا أن يحملوا راية الإسلام ، ليس في الشرق العربي فقط ، ليس في وادي النيل فقط ، بل في العالم الإسلامي كلِّه .

هذا ما شرح الله به صدري ، وألقيت هذه الكلمة في هذه المناسبة ، فيض الخاطر ، وروابطنا قديمةٌ بمصر ، وإنَّه موضوعٌ تاريخيٌّ واسعٌ ، وكثيرٌ من أعلام مصر زاروا الهند ، وتناولوا بعض كتب علماء الهند بالشرح . والعلامة أبو بكر الدماميني شرح الإرشاد في النحو لملك العلماء الشيخ شهاب الدين الدولة الآبادي ، ولم يكن هناك اتجاهٌ واحدٌ ، إنما كان هناك طريقٌ مفتوحٌ وتبادلٌ ، فكان علماء الهند يتناولون كتب المؤلفين المصريِّين بالتدريس ، وعلماء مصر يتناولون كتب الهنود بالتدريس ، ولكن الذي أفادت مصر الهند كان أكثر مما استفادت من الهند ، لأنَّ مصر مركز الإسلام ، ومركز الأزهر .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

واقع العالم الإسلاميّ

خلال زيارة سماحة العلامة الندوي للكويت عام ١٤٠٤هـ (١٩٨٣م) ألقى عدداً من المحاضرات ، حضرها جمٌّ غفيرٌ من المستمعين حيث إنّ القاعات كانت تغصُّ بالحاضرين ، وتضيق على سعتها على غير عادتها ، منها هذه المحاضرة الّتي تقدّم إلى القراء ، ولقد ألقاها العلامة الندوي بدعوةٍ من فضيلة الشيخ عبد الله العقيل (مستشار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقاً) وسعادة الشيخ عبد الله العلي المطوّع رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي في قاعة جمعية الإصلاح بعنوان «واقع العالم الإسلامي» ، وكانت هي الأخيرة ، من أشدِّ محاضراته صراحةً ، وذلك لأنَّ واقع العالمَيْن ـ الإسلام والعربي ـ لا يحتمل عند سماحة الشيخ الندوي ملقاً ، أو تغطيةً ، أو مجاملةً لإرضاء الجماهير ، وكما قال فضيلته قد التقت المهازل مع المآسي في لبنان ، وبلغت الكارثة قمتها في تلك الأيام التي زار العلامة الندوي فيها هذه المنطقة الإسلامية العربية ، ولكنَّه لم ير آثارها وردود فعلها في هذه المدن العربيّة الإسلاميّة ، فلا تزال الحياة فيها لاهيةً ساهيةً كما لم يقع شيءٌ من هذا النوع ، فأطلق سماحة الشيخ الندوي أنات قلبه الجريح ، وكشف عن صدره المكلوم ، وفاضت كأسه الّتي طفحت ألماً وأسىً ، وحُقَّ لها أن تفيض ، وترشح ، وقد كانت الحوادث كافيةً لإثارة مشاعره ، ومبررةً بل موجبة لهذه الصراحة والمرارة ، فقد كان شأنه في موكب هذه الانطباعات والمشاعر ، شأن الشاعر العربي الّذي يقول:

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال سليمى ما سقيت لغنَّت

ويستحق مستمعو هذه المحاضرات ـ وفيهم الشخصيات الجليلة

www.abulhasanalinadwi.org

والعاملون للإسلام ـ التقدير والاعتراف برحابة صدورهم وتقديرهم لكلمة الحق ، مهما كانت مرَّة وقاسية ، فقد تلقوها ببشاشةٍ وتقديرٍ ، وعدم امتعاضٍ أو استنكارٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! إنِّي أتحدَّث إليكم في هذا اللقاء الكريم عن «واقع العالم الإسلاميِّ» اليوم ، وفي الحقيقة أتحدث إليكم عن واقعنا جميعاً ، فهي مسؤوليةٌ مشتركةٌ ، وأمانةٌ جماعيةٌ ، وكنت أتمنَّى أن أتحدَّث عن واقع مشرقٍ جميلٍ زاهرٍ ، يسرُّ المؤمنين ، ويسرُّ أصحاب الواقع ، ويسرُّ المتحدث ، وإنني بدوري أستطيع أن أصور العالم الإسلاميَّ تصويراً رائعاً جميلاً ، فإنَّ اللسان يستطيع أن يعطي واقعاً حالكاً كئيباً صورةً جميلةً مشرقةً ، والقلم أقدر من اللسان على ذلك ، ولكن سيكون واقعاً خيالياً أسطورياً لا صلة له بالحقيقة والواقع ، فسأكون أميناً وصريحاً في تصوير هذا الواقع ، وإن لم أسرَّ المستمعين الكرام ، ولم أدخل على نفسي السرور ، فالرائد لا يكذب أهله.

إخواني! التناقض في حياة فردٍ عاديٍّ لغزةٌ تحتاج إلى حلٍّ ، وفكٍّ ، وإلى ذكاءٍ ، فكيف إذا كان التناقض في مجتمعٍ كبيرٍ؟ وكيف إذا كان في عالمٍ واسع الأرجاء ، كبير الأهمية ، مجيد التاريخ؟ والتناقض الغريب الذي أريد أن أتحدَّث عنه في هذه الأمسية ، وهو أنَّ العالم الإسلاميَّ لم يكن في زمنٍ من الأزمان أكثر حكومات ، وأوسع مساحة جغرافية ، وأعظم أهميَّةً سياسيَّةً ، وأغنى في الطاقات والإمكانيات ، وأملك للوريد في الجسم الصناعي ، لم يكن العالم الإسلامي ـ في حدِّ دراستي ـ وقد درست تاريخ الإسلام سياسياً ، وفكرياً ، وعلمياً ، وروحياً ، في إطار واسعٍ ، وأستطيع أن أقول: في ضوء دراساتي ، إنني ما وجدت العالم الإسلامي في هذا التاريخ الضخم الكبير الحجم ، الواسع مساحةً زمنيةً ، لم أجد العالم الإسلامي في فترةٍ من فترات التاريخ أغنى ، وأقوى ، وأوسع منه في هذا الزمان ، ولكني أقول لكم ، والحزن يملأ قلبي ، والخجل يعتقل لساني؛ إنَّ العالم الإسلاميَّ مع هذا الحول والطول ، ومع هذا العدد الكبير من الحكومات ، لم يكن أهون ، ولا أذلَّ ، ولا أضعف ، ولا أخفَّ في

www.abulhasanalinadwi.org

الميزان السياسيِّ الدوليِّ منه في هذا الزمان ، وهذا تناقضٌ تحار فيه الألباب .

إنَّ العالم الإسلاميَّ في الحقيقة كان قد ضعف في روحه المعنوية ، وفي شخصيته ومميزاته من زمانٍ ، ولكن كان له اسمٌ كبير ، وكانت له مهابةٌ وسطوةٌ ، كانت هنالك الدولة العثمانية ـ على علاَّتها ومحنها ـ كالسور المنيع للشرق العربي ، لا يجترىء كثيرٌ من الحكومات والشعوب الحاقدة ، أن يتسوَّر هذا السور ، ويهين المقدسات الإسلاميَّة ، والبلاد التي كانت تحت حماية الدولة العثمانية ، وقد كان شرف العالم الإسلاميِّ وكرامته منوطةً بذلك الجزء المقدس الحبيب إلى المسلمين في العالم ، وكان للدولة العثمانية الإسلام الكبير ، الحافل بالأمجاد والبطولات ، فكان يصرف الناس عن الامتحان لقوته الحقيقية ، وكان هنالك «نظار»[١] أو مجدار[٢] على التعبير العربي القديم ، وهو العود الذي ينصبه الفلاح في مزرعته ، ويلقي عليه شيئاً من الثياب ، فيتصور الغربان والطيور أنَّ هنالك إنساناً واقفاً ، فلا تتجاسر أن تقع في هذه المزرعة ، وتسبب فيه ضرراً ، فإذا سقط هذا النظار أو المجدار بريحٍ عاصفةٍ مثلاً ، أو عاثت فيه بعض الحيوانات الجريئة فأسقطته ، هنالك يعرف الطيور أنَّه ليس هنالك ما يخاف فتساقط عليها وتتلفها ، فكانت الدولة العثمانية ، وكان الإسلام الكبير الذي تحمله ، وكانت الانطباعات التي كان يحملها الدارسون للتاريخ الإسلاميِّ ، والتصوُّر الكبير الضخم الذي كان أكثر من الحقيقة يمنع كثيراً من الشعوب التي كانت أقوى من الدولة العثمانية وكان في إمكانها أن تسيطر على بعض الممتلكات العثمانية ، ومحمياتها بسهولةٍ من أن تجرب الوقوع في هذه الحمى ، فلما سقط هذا النظار أو المجدار ، أصبحت المزرعة مالاً سائباً ، ونهبةً لكلِّ ناهب وأصبحت الحمى مفتوحةً لا حارس لها .

---

(١) النظار : الخيال المنصوب بين الزرع ، والناطور حافظ الكرم أو الزرع ، والكلمة سريانية .

(٢) ما ينصب في الزرع لطرد الطير والوحش ، ويقال : الفزاعة أيضاً .

www.abulhasanalinadwi.org

هذا مثلٌ للعالم الإسلاميِّ إذا قسنا العالم الإسلاميَّ بمقياس الروح الإسلامية ، وبمقياس القوَّة الإيمانيَّة ، والقوَّة الحربيَّة الحقيقيَّة ، فقد كان قد تخلف فيها تخلفاً كبيراً منذ أمدٍ بعيدٍ ، ولكن كانت له رهبةٌ ، وسطوةٌ.

إنَّ الحقيقة العالمية الخالدة أيها السادة! أنَّ الفرد لا يحترم إلا إذا كان يُخشى ويُرجى ، والجماعة لا تُحترم إلا إذا كانت تخشى وترجى ، وتنفع وتضرُّ ، وكذلك الحكومات والمجتمعات ، لا يحسب لها حسابٌ إلا إذا كانت تُخشى ، وتُرجى ، وتنفع وتضرُّ ، تستطيع أن تضرَّ ولو لم تفعل ذلك ـ بإرادةٍ وقصدٍ ـ مدةً طويلة ، ولكن يجب أن يعرف الناس أنَّها تملك قوة النفع والضَّرر وإن لم تستعملها. إنَّ الفرد ولو كان حقيراً تافهاً كالنملة قد تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تقرص ، والعقرب تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تلسع ، والحية تُخشى؛ لأنها تستطيع أن تلدغ ، والكلب يُخشى؛ لأنَّه يستطيع أن يعضَّ ، ولو حيل بينه وبين ذلك سنين وأعواماً ، وكان كلباً مدللاً أليفاً. فلا بدَّ من التوازن الصحيح ، وهو وجود صلاحية النفع ، ووجود صلاحية الضرر في وقتٍ واحدٍ.

فكان لا بد أن يملك المسلمون بصفة أمَّةٍ ، ويملك الفرد المسلم بصفة فردٍ القدرة علىٰ النَّفع والضَّرر ، وإن لم يضرَّ كما قلت ، لشرفه ، ولسماحته ، وإنسانيته الرفيعة ، وسموِّ رسالته ، ولو لم يأت منه الضرر والأذى قروناً عديدة ، لا بأس ، ولكن ليعرف الزمان أنَّه بمكانٍ يُرهب فيه ، ويُخشى بأسه ، يقول الله تبارك وتعالى وهو رب العالمين ، وأحكم الحاكمين : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠].

فأصبح المسلمون في الزمن الأخير ، يُرجون ، ولا يُخشون ، وينفعون ، ولا يضرون ، وهذا وإن كان موقفاً شريفاً في علم الأخلاق والنفس ، وفي العلم النظري والفلسفات النظرية الخيالية ، وإن كان يدلُّ على شرف الرجل ، وعلى فضله ، وعلى نبله ، وعلى تمسُّكه بالمبادىء السامية ، ولكن الفطرة البشرية منذ أن فطرها الله تعالى تعوَّدت أن تخضع

www.abulhasanalinadwi.org

للقوة ، ولما عند الفرد ، أو الجماعة من قدرة الإضرار والدفاع عن نفسه ، وأخذ الثأر لها ، يقول الدكتور العلامة محمد إقبال :

«إن الوردة الجميلة لا سلامة لها ولا صيانة ، وإذا كان الشوك الذي خلق ليحوطها ويصونها من الأيدي العاتية قد انحرف عن فطرته ، وأصبح حريراً ناعماً ، إذاً فلا بقاء للوردة ، ولا حرمة لها ، واسمحوا لي أن أنشد البيتين باللغة الأردية ، لأني أرى هنا عدداً من إخواننا الباكستانيين والهنديين ليتذوقوا الأبيات في لغتها . يقول إقبال :

تميز خار وكل س آشكارا نسيم صبح كي روشن ضميري
حفاظت بهول كي ممكن نهين هي أكركاني مين هو خوى حريري

يقول : إن نسيم الصباح يعرف طبائع الأشياء ، فيربي الوردة على طبيعته الخاصة ، وهي النعومة ، والرِّقة ، وينشىء الشوك على طبيعةٍ أخرى منافيةٍ ، وهي الشدَّة ، والعنف ، وهذا يدلُّ على فراسة النسيم العليل البليل الذي يهبُّ صباحاً ، يدلُّ على وفائه بالرسالة التي نيطت بها ، ووضع الشيء في محله ، فإذا أصبح الشوك الذي يحيط ويصون الوردة الناعمة ، الوداعة البريئة ، حريراً ناعماً ، فلا بقاء للوردة ، ولا سلامة لها ، فكذلك لا بد للعالم الإسلامي الشريف النبيل صاحب الرسالة السامية ، والمبادىء السماوية ، والتعاليم الربانية ، حامل الرحمة الإنسانية ، وصاحب قلبٍ خفاقٍ ، يذوب للإنسانية الضعيفة ، ويسيل رقةً ورحمةً ، كان واجباً أن يكون هذا العالم الإسلاميُّ يملك ما يُرهب وما يُخشى ، يملك السياج المنيع ، والسور العالي ، والجند الجاهز ، ولكن أصبح العالم الإسلاميُّ اليوم ترجوه كلُّ المعسكرات الآن ، المعسكرات على تناقضها في المبادىء ، وعلى ما بينها من منافسة ومحاربة ، تلتقي على الانتفاع بالعالم الإسلامي ، وحلب درَّته وامتصاص دمه ، كلها تنظر إلى العالم الإسلامي كمادةٍ ثريَّةٍ ، ولكن ليس معسكرٌ من المعسكرات الآن ، وليست حكومةٌ من الحكومات الكبيرة التي تتحكَّم الآن في مصائر الأمم ، وفي المسيرة الإنسانية ، تخشى العالم الإسلامي ، فتحترمه ، إنما نسمع كلمات الاعتراف لبعض الحكومات الإسلامية والعربية ، وكلمات الاحترام في

أحيان أخرى ، ولكنها كلها سياسةٌ ونفاقٌ ، ليس في قلب أحد من هؤلاء الساسة ، والقادة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، خوفٌ من العالم الإسلاميِّ في الحقيقة.

ثم زاد الطين بلَّةً ، هو أن قد عرف العالم الغربيُّ أنَّ هذه الحكومات التي كان يمكن أن تخشاها مشغولةٌ بشعوبها ، مشغولةٌ بالصحوة الدينية التي ظهرت في هذه البلاد، إنَّها في شغلٍ شاغلٍ ، إن همَّها الوحيد أن تقضي على البقية الباقية من الجمرة الإيمانية في هذه الشعوب ، فهي لا تجد فرصةً ، ولا تجد مجالاً لأن تبرز في الميدان الحقيقي وتتحدَّى القوة الأجنبية المحاربة للإسلام ، كالصهيونية أو الصليبية الحاقدة ، أو أن تنهض للانتصار لقضيةٍ إسلاميةٍ من قضايا الشعوب الإسلامية المضطهدة.

ومن المؤسف أنَّ قادة البلاد الأجنبية يعرفون هذه الحقيقة وهذا الوضع أحسن ، وأكثر مما يعرف كثيرٌ من إخواننا الذين يعيشون هذا الواقع ، وعندهم تفاصيل دقيقةٌ ، ودراساتٌ عميقةٌ لواقع العالم الإسلامي اليوم. هم يعرفون أنَّ الجمرة الإيمانية التي كانت تخشى في الزمن القديم ، وهو الاستهانة بالحياة والحنين إلى الشهادة ، قد انطفأت في صدور المسلمين ، أو كادت تنطفىء ، وكان هؤلاء القادة الأجانب يعرفون أنَّ المسلمين يندفعون لهتاف الإيمان؟ ولا يفهمون إلا لغة القرآن والدِّين ، وإنَّهم لا يندفعون إلا لما فيه أجر الآخرة ، ولما فيه رضا الله تبارك وتعالى ، إنَّ عدداً من الأقطار الإسلامية كسبت المعركة مع العدو ، وتغلَّبت عليه بفضل الهتاف بالشهادة في سبيل الله ، والهتاف بالجهاد في سبيل الله ، ولكن لما انتهى هذا الدور وخرجت من المعركة ، فأول ما تحاول وتصرف جهودها إليه هو القضاء على هذه الجمرة الإيمانيَّة ، إلى الآن لا تزال الصلة الأقوى التي تربط المسلمين بصدر القوة التي تأتي بالمعجزات ، هي الصلة بالله تبارك وتعالى ، وبرسوله ، ولا تزال روائح الجنة تفوح مهما حاول السياسيون ، ولكن لا تزال الجمرة الإيمانية كامنةً في الرماد ، ولكنَّ أكثر قادة البلاد عادوا ، لا يربطهم رباط بهذه اللغة الإيمانيَّة ، والحميَّة الإسلاميَّة . وقد ضعفت الصلة بينهم وبين مصادر الإيمان. إنَّه جيلٌ قد نشأ

www.abulhasanalinadwi.org

في أحضان الحضارة الأوربية ، وكليات التربية العسكرية في عواصم أوربا وأساتذتهم ، ومربوهم يعرفون أنَّه قد أفلت الزمام من أيديهم ، وانقطع الخيط الذي كان يربطهم بالمجموعة الإسلامية ، وبالجماهير المسلمة. واستبدلوا به خيطاً سياسيّاً. والأوربيون يعرفون أنَّ هذا الخيط إذا نفع وأفاد في بلدٍ ، فإنه لا ينفع في بلدٍ إسلاميٍّ. منهم من درس القرآن ، ومنهم من درس تاريخ عصر الصحابة ، ومنهم من درس تاريخ صلاح الدين الأيوبي ، وتاريخ الغزوات الإسلامية ، وتاريخ الدعوة إلى الإسلام ، فهم يعرفون أنَّ الخيط الذي يربط قادة البلاد بالجماهير المسلمة ، ليس فيه قوةٌ أبداً إنه ينقطع سريعاً. إنَّ هذه الجماهير على ما أصابها من الوهن وعلى ما أصابها من أدواء وعللٍ ، وعلى ما أصابها من تدهورٍ ، لا تزال تندفع للهتاف الدينيِّ ، والإيمانيِّ في كلِّ مكان.

لقد أصبحت الأمَّة الإسلامية الآن هدف المآسي والمهازل في وقتٍ واحدٍ ، لماذا؟ لأننا هازلون ، وهزيلون. العالم الإسلامي أصبح هزيلاً وهازلاً ، لا جدَّ فيه ، تزور العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلى أقصاه ، من الشرق إلى الغرب ، تجدون هناك بطراً وترفاً ، تجدون هناك فيضاً من ملاهي ، وملاعب ، هل هناك تناسب ، بين ما نعيشه ونمط الحياة الذي نحياه في هذه المدن الآمنة المطمئنة ، وبين ما يقع في الجزء الآخر في العالم الإسلاميِّ؟ هل إذا زار أحدٌ من الزوَّار من الخارج ورأى هذه المدن ، هل يستطيع أن يفهم أن هذا جزء من الجسم الإسلامي الذي تقطَّع أجزاؤه في ناحيةٍ أخرى؟ هل هذه الأمة هي نفس الأمة؟ هذه الأمة التي تسبح في بحرٍ من البذخ هل هي الأمَّة التي أصبحت هدفاً في لبنان وفي أفغانستان ، هل هم كلهم أعضاء الأسرة ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثل المسلمين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى»(١).

يقول الله تعالى :

(١) حديث متفق عليه.

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]
هل نحن أمةٌ واحدةٌ؟ يقول بعض المستشرقين: انهزم الإسلام مراتٍ عديدةٍ سياسياً، وهزم روحياً، وحين انهزم سياسياً هزم الفاتح المسخَّر المدمِّر روحياً.

يجب أن تخمد هذه المعركة الدامية الحامية، هذه المعركة غير الطبيعية، هذه المعركة الصناعية التي استنزفت جهود القادة والسادة، وولاة الأمور، والمفكرين في بلادنا الإسلاميَّة، أن تخمد وتنتهي هذه المعركة غير الحقيقية؛ التي هي حامية بين الشعوب والجماهير والحكومة، فالحكومات تتجه اتجاهاً آخر، والشعوب تتجه الاتجاه القديم الإسلاميَّ إلى الآن، لا الحكومات نجحت في جرِّ هذه الشعوب والجماهير المسلمة، إلى الابتعاد عن جادَّة الإسلام، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلاء الحكام والملوك في استخدام الطاقة الذَّريَّة الهائلة التي هي كامنةٌ في نفوس الجماهير المسلمة، وهي: قوة الإيمان التي هي أقوى من الطاقة الذَّرية، فإذاً من الحكمة، ومن المعقول والنصيحة، ومن التوجيه الرشيد السَّديد أن تنتهي هذه المعركة المصطنعة التي تحتدم، هذا الصراع النفسي، والصراع العملي الذي يحتدم بين من يملك الزمام، سواءٌ من يملك زمام التربية، أو زمام السِّياسة، أو زمام القيادة ـ والذين نشؤوا في أحضان الثقافة الأوربية، ومن الشعوب المسلمة الوادعة المخلصة، البريئة الصادقة، القوية، الوافية، الوفية، الزاكية الزكية، البقية النقية، أليس من الخير، أليس من المعقول أن تنصرف كلُّ الجهود، والطاقات إلى استخدام هذه القوة؛ التي لا يزال المسلمون يملكونها، قوة الإيمان، وقوة الفداء، والوفاء للإسلام، وبذل النفس والنفيس لله تبارك وتعالى.

ثمَّ لا بدَّ أن ينهض هؤلاء الربَّانيُّون الذين ذكرنا بعض النماذج من سيرتهم ومن دعوتهم للإسلام، في كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» و«ربانية لا رهبانية» فإنَّ الربانيين الصادقين، الراسخين في العلم المتبعين للسنة، فيهم وحدهم قدرةٌ على تربية النفوس على الإيمان والإسلام،

www.abulhasanalinadwi.org

والخلق المستقيم ، والتمرُّد على المادَّة وعلى الشهوات ، والتغلُّب على المغريات المعاصرة ، كان وما زال في العالم الإسلاميِّ هذا النمط من الربَّانيين ، ما خلا منهم عصر ، ولكن اجتمعت عدة أسباب ، وعدة أدوات لمحاربة هذه الربَّانية الصافية ، فأقول كما قال الحطيئة :

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

لنملأ فراغ الربَّانية المشرقة الصادقة المؤسسة على الكتاب والسنة ، وعلى الزهد في حطام الدنيا ، والانصراف إلى الآخرة ، والاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى ، واستحضار الآخرة ، حتى نستطيع أن نجرَّ هذه المجموعة الكبيرة إلى برِّ السلام ، إلى حقيقة الإسلام ، وإلى ماضي هذه الأمَّة .

أمَّا بغير ذلك ، فإنَّ العالم الإسلاميَّ ، إنما أتحرج أن أقول ، ولكني أقول ، لأنه قد قال قبلي مفكر كبير وهو أكبر الكتاب في عصر أمير البيان الأمير شكيب أرسلان يقول : «كاد أن يكون العالم الإسلاميُّ بحراً كبحر العروض ، بحرٌ ولا ماء» بحر العروض لا ماء فيه ، أصبح العالم الإسلامي لا يحمل قوةً تُرهب ، ولا يحمل القوات التي هي تمنع عن هذه المآسي .

هذا هو واقع العالم الإسلاميِّ الذي نشاركه جميعاً ولو كنت منفرداً وفي عزلة عن هذا الواقع لما اجترأت أن أقول هذا ، ولكني أشارككم كأيِّ مسلمٍ وكعربيٍّ ليس أقلَّ من نصيبكم ، فيسوغ لي أن أتكلم بهذه الصراحة ، لأنِّي لا أشهد على أنفسكم ، ولا على هذه المنطقة ، ولا على البلاد العربية فحسب ، بل أشهد على نفسي ، وعلى إخواني ، وعلى من أزاملهم ، وأشاركهم ، وأتعاون معهم .

هذا واقع العالم الإسلاميِّ يجب أن يتغيَّر ، وفي صالح الإنسانية أن يتغيَّر ، وفي صالح مصير الإنسانية أن يتغيَّر ، وإرادة الله أن يتغيَّر هذا الواقع ، ويرجع العالم الإسلاميُّ إلى ما كان عليه في قرونٍ مشهودٍ لها بالخير ، في زمن عظمة الإسلام ومجده ، ولا خير ، ولا لذة في الحياة ما دام العالم الإسلاميُّ هذا ، لا لذَّة لملتذٍّ ، ولا عزَّة لمعتزٍ ، ولا قوة لقويٍ ، إذا كان العالم الإسلامي بهذه الصفة .

www.abulhasanalinadwi.org

هذه كلمتي وأنا أشعر بأنَّها قاسيةٌ ، ولكنَّها صريحةٌ ، وصادقةٌ إن شاء الله ، وأرجو من الله أن يكون لها صدى في نفوسنا ، ويكون لها مفعولٌ في نظام تفكيرنا ، والله الموفق والمعين.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

دَور المـرأة فـي بنـاء الـمجتمـع الإسـلامـي

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في كلية البنات جامعة الإمارات العربية المتحدة في مدينة العين ، في ١٦/ من صفر ١٤٠٤هـ الموافق ٢٠/ من نوفمبر ١٩٨٣م ، يوم الأحد .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على خاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، أمَّا بعد:

فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

يسعدني أن أتحدث إلى نصف المجتمع الإسلامي في هذا البلد ، وإلى عماد الأسرة الإسلامية وعمودها الفقري ، إلى بنات المسلمين السيِّدات المسلمات ، فمثل هذه الفرصة يجب أن تُنتهز ويُستفاد منها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا انتهى من وعظ الرجال من الصحابة رضي الله تعالى عنهم انصرف إلى وعظ النساء السيدات ، وكن يشكين ، ويعاتبن ، إذا كان هناك إخلالٌ بحقهنَّ ، وكان الرسول ﷺ أجلَّ من ذلك ، وكنت أحسب نفسي مقصراً ومسيئاً إلى نفسي وإلى مهمتي لو لم تتمَّ لي هذه الفرصة ، فينبغي أن أشكر الذين يرجع إليهم الفضل في تنظيم هذا اللقاء الكريم.

أخواتي وبناتي العزيزات الكريمات الأصيلات في إسلاميَّتهنَّ ، وفي عروبتهنَّ ، وفي شرفهنَّ ومجدهن ، وفي غيرتهنَّ الإسلاميَّة ، والدينيَّة ، والعربية ، هوايتي في التاريخ ، وأكثر مؤلفاتي تدور حول موضوع تاريخيٍّ ، هنالك لغزة من ألغاز التاريخ ، وهي أنَّه كيف استطاع المسلمون العرب الذين خرجوا من جزيرتهم ، وواجهوا حضارتين راقيتين قد بلغتا القمَّة في الرُّقيِّ ، وفي تفنُّن المدنيَّة ، وفي الأناقة ، كيف استطاع هؤلاء العرب الذين كانوا لا يزالون بدائيين (ولا أقول صحراويين) في معيشتهم ، حتى ينقل المؤرخ العربي الأمين الذي يحكم على غيره وعلى نفسه بصدق وصراحة ـ وهذا ما يمتاز به التاريخ العربيُّ والإسلاميُّ ـ يقول: لما رأى

www.abulhasanalinadwi.org

العرب الرقاق من الخبز حسبوها مناديل ، فأخذوها ، وصاروا يمسحون بها أياديهم ، فإذا هي أرغفة تتفتت ، ولما رأوا الكافور حسبوه ملحاً فاستعملوه في الطعام ، ثم عرفوا أنَّه الكافور ، هكذا كان المستوى ، وليس بعجيبٍ ، إنَّ أكثر من فتح العالم ، وأكثر من أنشأ حكوماتٍ راقيةٍ ، أو مدنياتٍ رفيعةً كانوا بدائيين في المعيشة ، وكان عندهم شيءٌ من التقشف في الحياة ، أما الأمم والشعوب التي أصبحت فريسة المدنية الزائفة المصطعنة ، فإنها تنهار بسرعةٍ ، أو بعد فترةٍ قصيرةٍ ، كان العرب بدائيين ، وكانوا محدودين ، وكان حياتهم في جزيرة العرب حياةً بسيطةً بدائيةً محدودةً ، وكان فيها التقشف ، والفروسية ، والجلادة ، والغيرة.

استطاع العرب بذلك أن يحافظوا على خصائصهم العربية التي تمكنوا بفضلها أن يدوِّخوا العالم ، وأن ينشئوا إمبراطورية من أوسع الإمبراطوريات التي قامت في العالم ، ولكن لما خرجوا من جزيرتهم امتُحنوا بمحنةٍ عظيمةٍ دقيقةٍ ، ما هي تلك المحنة؟ المحنة أنَّهم لم يتصلوا بالشعوب الراقية إلا عن طريق التجارة العابرة ، وعن طريق بعض الرحلات ، ولكنَّهم ما ذاقوا طعم المدنية ، وما جرَّبوها عمليّاً ، فلما خرجوا من جزيرتهم ، واجهوا حضارتين من أرقى الحضارات البشرية ، الحضارة الرومانية البيزنطية التي كان مركزها القسطنطينية ، والحضارة الإيرانية الفارسية التي عاصمتها المدائن ، وكانت هاتان الحضارتان قد بلغتا من المبالغة في الإسراف وفي البذخ ، حتى إنَّ كسرى إمبراطور إيران في أثناء لجوئه وتنقله بين البوادي والقرى ، لما لجأ إلى رجلٍ فلاحٍ فقير ، وكان قد اشتدَّ به العطش ، فطلب الماء ، فلما قُدِّم إليه الماء في كوبٍ من خشب؛ قال: والله لو متُّ عطشاً لما استطعت أن أشرب من هذا.

إلى هذا الحدِّ بلغت المدنية ، ومن طبيعة الإنسان أنَّه يخضع للشيء العالي السَّامي الكبير في حسابه ، هذا هو الذي سجَّله التاريخ ، وهو الذي تشهد به مشاهداتنا وتجاربنا. فالواحد حين يزور عاصمةً من عواصم أوربا والمدن الكبيرة في أمريكا يندهشُ ، ويبهر لبُّه ، ويسقط في يديه ، ويقف حائراً مشدوهاً أمام هذه المدنية ، وإن كان قد جرَّبها بعض الشيء في

www.abulhasanalinadwi.org

محله ، من الذي لم يعرف منا المدنية الغربية ، وهو في ركنٍ من أركان هذه الجزيرة ، أو هو في قريةٍ بالقارة الهندية لا ، كلٌّ واحدٍ يعرف ، يعرف بالقياس ، يعرف بالسماع ، ولكنه إذا زار عاصمةً غربيةً يقف حائراً مشدوهاً مغلوباً على أمره.

وهنا يتساءل الدارسُ للتاريخ ويقول: كيف استطاع العرب أن يتماسكوا ، وأن يحافظوا على شخصيتهم الإسلامية والعربية ، وعلى خصائص أمتهم ، وعلى إسلاميتهم؟ كيف استطاعوا أن يحافظوا على العقيدة الإسلامية؟ ثم زيادةً من ذلك: كيف استطاعوا أن يحافظوا على الآداب الإسلامية وعلى نمط الحياة الإسلامية ، هذه لغزة تطلب جواباً دقيقاً ، وليس جواباً سريعاً مرتجلاً . . لا ! إنها تحتاج إلى دراسة ، وإلى مقارنةٍ أمينةٍ من الشعوب وطبائعها ، وملابساتها ، وأجوائها ، وتجاربها. كيف استطاع البيت العربيُّ والإسلاميُّ أن يحافظ على الآداب ، والحياة الإسلامية ، وعلى الحجاب والحشمة ، ويحافظ على الصَّلوات وعلى بساطة المدنية؟ والجواب الدقيق الأمين والمنصف: أنَّ العرب المسلمين والفاتحين للعالم استطاعوا ذلك بفضل النصف الآخر من المجتمع الإسلاميِّ ، وهو السَّيدات المسلمات.

فلولا تماسك السيدات المسلمات ، الصالحات ، القانتات ، الحافظات ، لولا تعاونهنَّ مع الرجال ، لولا اقتناعهنَّ بفضل المدنية الإسلامية ، لولا تمسكهنَّ الشديد بالعقيدة الإسلامية ، لولا غيرتهنَّ على الإسلام وعلى أدب الإسلام لما استطاع العرب ذلك ، ولما كان في إمكان العرب هؤلاء الفاتحين المصابين بدهشة الفتح العقليِّ ، والفتح العقليُّ هو أشدُّ وطأةً ، وأعمق تأثيراً من الفتح السياسي.

وأنا أضرب لكم مثلاً: التتار أخضعوا العالم الإسلاميَّ في القرن السابع الهجري من أقصاه إلى أقصاه ، داسوه بأقدامهم وبسنابك خيلهم ، وأهانوا المسلمين إلى آخر درجةٍ ، حتى أصبح من الأمثال السائرة ، والقضايا المسلمة: «إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق» إلى هذا الحدِّ بلغت

www.abulhasanalinadwi.org

الدَّهشة بسطوة التتار ، ولكن التتار قد خضعوا للإسلام والمسلمين عن طريق الحضارة الإسلامية ، إنهم هزموا المسلمين في الميدان السياسيِّ ، والحربيِّ ، ولكنَّهم انهزموا أمام الحضارة الإسلامية ، وللحضارة ما يكون من التأثير ما لا يكون للسيوف والمدمِّرات.

فكيف استطاع العرب أن يقفوا أمام هذا النفوذ الحضاريِّ وهذه البهرجة الحضاريَّة ، وهذا البريق الباهر للألباب ، والمعشي للعيون؟ كيف استطاعوا أن يقفوا أمامه غير مأخوذين ، غير مسحورين ، غير متأثرين؟

إنَّ التحليل العلميَّ التاريخيَّ يقول: إنَّ الفضل في ذلك يرجع إلى الأسر الإسلامية ، كانت الأسرة الإسلامية مدرسةً كاملةً تربي أبناء المسلمين ، وتنشئهم على العقيدة الإسلامية ، وعلى الخصائص الإسلاميَّة ، وكثيرٌ من كبار المجدِّدين ، ومن كبار المصلحين في الإسلام إنما هم غرس أمهاتهم ، فهذا سيدنا عبد القادر الجيلاني الذي أحدث انقلاباً روحياً ، والذي قامت له حكومةٌ ، ربما كانت أوسع من حكومة العباسيين ، هي الحكومة الرُّوحية الخلقية إنما كان من غرس أمِّه ، يقول: لما خرجت من جيلان قالت لي أمي: يا بني! أوصيك بوصيةٍ واحدة: لا تكذب ، فتمسَّك بهذا حتى قال للصوص الذين أغاروا على قافلته لما سأله أحدكم: هل معك شيء؟ قال: نعم ، عندي دنانير مخيطة في الثوب ، فأخرجها ، وتاب الرجل ، وردّت جماعة اللصوص كلَّ ما نهبوه من القافلة.

وهكذا أنا أعرف من تاريخ الهند أكثر مما أعرف من تاريخ الإسلام العام ، فنرى أنَّ كبار المصلحين ، والدعاة ، وكبار الحكام في الهند كانوا مدينين في تمسكهم ، ومدينين في إنسانيتهم الرقيقة لأمهاتهم ، ولو بدأت أحكي عن أمِّي رحمها الله ، وما كان لها من فضل في تربيتي ، وفي تنشئتي؛ لكان الشيء الكثير ، ولكنَّني أستحي!

فأقول للأخوات المسلمات ، هنالك مدرسةٌ تربي الجيل الجديد ، وهي حجر الأم الرؤوم ، فإذا كانت هذه المدرسة قائمةً بدورها ، ورسالتها الحقيقية؛ لما أشفقنا على جيلنا الإسلاميِّ الجديد في العالم ، وأنا أعرف

www.abulhasanalinadwi.org

عن الزعيم محمد علي ، والذي كان من أقطاب حركة التحرير في الهند ، والذي كان يسيطر على قلوب المسلمين وعلى قلوب الهندوس وعلى قلوب الجماهير ، كان هو نتيجة لتربية أمِّه ، وقد حكى الشيء الكثير عن أساليب تربيتها ، وكيف أنشأت فيه الإيمان ، وهنالك أناشيد على لسان أمِّه تقول له : نفسك فداءٌ للإسلام ، هب نفسك لله ، وهكذا.

أريد أن أقول : إنَّنا أمام الواقع المكرر ، إنَّ الأمَّة العربية الإسلامية الآن تواجه الحضارة الغربية ، والحضارة الغربية من أقوى الحضارات التي عرفت في تاريخ البشر ، ولا شكَّ في ذلك ؛ لأنَّها اقترنت بفتوحٍ سياسيَّةٍ ، وبالفتح العقلي ، والفتح العلميِّ ، والتكنالوجيِّ ، ثم صادف ذلك ضعف المسلمين الذين كانوا هم أصحاب الرسالة الأخيرة ، وكانوا هم القادة للإنسانية.

نحن أمام واقعٍ أليمٍ ومريرٍ ، نحن لا نستطيع أن نواجه هذه الحضارة بشجاعة ، وأن نتخلَّص من مواضع الضعف فيها ، ونقتبس مواضع القوَّة فيها إلا إذا كانت الأسرة الإسلامية قائمةً بروحها ، ورسالتها ، وبخصائصها ، بل الطفل المسلم ، والشابُّ المسلم إنما ينشأان في هذه المدرسة ، ويتخرَّجان منها ـ إذا استخدمنا المصطلحات الجامعية ـ قبل أن يتخرجا في جامعة الإمارات أو الكويت مثلاً ، فيجب أن تبقى هذه المدرسة الداخلية مدرسة الأمِّ المسلمة على صفتها الأولى ، وأن تحافظ على قوَّتها ، وعلى روحها.

وهذه المسؤولية ملقاةٌ على عواتقكنَّ أيتها الشابات والبنات المسلمات العزيزات ، فأنتنَّ إذا أردتنَّ أن ينشأ الجيل الجديد مسلماً في أعماق قلبه ، ومسلماً في حضارته ، ومسلماً في آدابه ، وفي أخلاقه ، وفي سلوكه ، فالمسؤولية تقع عليهنَّ ، والله سبحانه وتعالى قد قرن الجزءين في المجتمع الإسلاميِّ بآيةٍ واحدةٍ في قوله : ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وقال : ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل : ٩٧] وهنالك التاريخ الإسلامي وكتب التراجم حافلةً بذكر السيدات الفاضلات ، العاملات المربيات

www.abulhasanalinadwi.org

المفكرات ، والمعلمات المحدثات ، المفسرات ، الأديبات ، لو بدأت أذكر أخبارهنَّ لضاق الوقت ، ولكنكنَّ ستدرسن إن شاء الله في كتب التراجم ، ومنكنَّ من تستطيع أن تنال الدكتوراه في ذكر السيدة الخنساء الشاعرة الإسلامية المؤمنة؛ التي جهزت بنيها للقتال والموت في سبيل الله ، فلما سمعت بشهادتهم؛ قالت: الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم. والسيدة خولة بنت الأزور المساهمة في غزوات الشام الأولى. وفي ذكر رابعة العدوية البصرية ، والسيدة الكريمة المروذية راوية صحيح البخاري(١) أو في ذكر بعض المسلمات الشهيرات.

والمقصود: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ لا يمكن أن يمشي برجل واحدةٍ. فكلُّ ابن آدم يمشي برجليه ، فالمجتمع الإسلاميُّ مجتمعٌ حيٌّ نام ، بشريٌّ إنسانيٌّ لا يستطيع أن يمشي برجلٍ واحدةٍ مهما كانت قويةً ونشيطةً. وإنَّ المجتمع الإسلاميَّ لا يمكن أن يتحرَّك فضلاً عن أن يمشي إلا برجلين سليمتين ، قويتين ، نشيطتين ، أمينتين. فلتكن هاتان الرجلان مثالاً للعضو البشريِّ السليم الوفيِّ.

قد خلق الله في النساء كلَّ صلاحيةٍ ، وكلَّ قدرةٍ للبلوغ إلى الكمال ، وفي التقدم في مضمار العلم ، وفي الرَّبانيَّة ، والرُّوحانية ، والتقرُّب إلى الله. فالأعلام في التاريخ الإسلامي اعترفوا بفضل بعض السيدات في عهدهم ، ويذكرون من فضائلهنَّ الشيء الكثير ، وكيف استفادوا ، وانتفعوا بكلماتهنَّ الحكيمة ، وسيرتهنَّ العطرة ، وهكذا بل يبقى هذا التيار مستمراً ، تيار الحياة الإسلامية ، والعشرة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي في هذا العصر ، كما استمرَّ وأدَّى رسالته ، وقام بواجبه في العصور الماضية ، ولذلك أنشئت هذه الجامعات وهذه الفروع ، والكليَّات للبنات ، وإلا في أوربا الشيء الكثير ، وفي إفريقية ، وفي آسيا ، وفي غير

(١) هي السيدة الكريمة المروذية (٣٦٥ ـ ٤٦٣ هـ) كانت تروي صحيح البخاري ، قال ابن الأثير : إليها علوُّ الإسناد للصحيحين ، يقال لها أمُّ الكرام وبنت الكرام (ملخصاً من الأعلام للزركلي).

www.abulhasanalinadwi.org

بلاد المسلمين الكثير من الكليات النسوية ، والنساء يواكبن الرِّجال هنا في كل قسمٍ من أقسام العلوم ، ولكن إنَّما أنشئت هذه الكليات في عقر الديار الإسلامية ، وفي الجزيرة العربية ـ التي كانت مهبط الوحي ، ومطلع نور الإسلام لهذا الغرض ، لتشعر البنات المسلمات بواجبهنَّ ، وبرسالتهنَّ ، وبمسؤوليتهنَّ نحو الأسرة الإسلامية ، ونحو الحضارة الإسلاميَّة ، ونحو العصر الحاضر.

هذا ما فتح الله به عليَّ ووفقني ، ولا أريد أن أطيل عليكنَّ ، وأشكر المسؤولين عن الجامعة أنَّهم قد فتحوا هذا المجال للحديث في هذا الوقت الذي كان وقت الدراسة ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على الروح العلمية ، وعلى تقدير إخوانهم الذين يجيئون من بلادٍ بعيدةٍ ، ولا يملكون شيئاً من النفوذ السياسي ، ولا النفوذ الاجتماعي ، إنما قيمتهم خدمة العلم والدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج دروسٌ وعبرٌ ينتفع بها ، وفجواتٌ وثغراتٌ يجب أن تسدَّ

هذا البحث القيِّم ألقاه العلامة الندوي في مؤتمر القاهرة الّذي عقد مؤخراً في ١٠ ـ ١٢ شوال ١٤١١هـ حول «مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج» وهو يشتمل على دروسٍ وعبرٍ تساعد على إعادة البناء واستئناف مسيرة الحياة والنشاط في الخليج .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده!
حضرات السادة!

إنَّ هذا المؤتمر الذي موضوعه «مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج» قد جاء في أوانه ومكانه.

أما الأوان فإنَّ هذه الحرب التي كانت نزوةً طائشةً، أو نوبةً عصبيةً حربيةً، كثرت أمثلتها، ونماذجها في تاريخ القيادات الفردية، والمطامح القيادية، والتهورات الهجومية، لا أكدِّر خاطركم، ولا أعكِّر صفو هذا المجلس الموقَّر الذي يضم نخبةً من كبار العلماء، وقادة الفكر، ورجال السياسة والإدارة في الأقطار العربية والإسلامية بالتصريح بأسماء المسؤولين عنها، وتعيين زمانهم ومكانهم، ولا يخلو ـ مع الأسف والاعتذار ـ عن هؤلاء المغامرين ـ وبالأصحِّ المقامرين ـ تاريخ الإسلام المشرق الطويل الذي كان يتوقع أن يخلو عن مثل هذه الأمثال والنماذج غير اللائقة برسالة الإسلام وتعاليمه وأهدافه الرفيع، ولكن الطبيعة البشرية تعمل عملها ـ إذا جردت عن تربيةٍ عميقةٍ قويةٍ، أوحسبة جماعيةٍ دينيَّةٍ، أو ضميرٍ مؤمن بخالق هذا الكون الذي هو «رب العالمين» و«أرحم الراحمين» وباليوم الآخر الذي يحاسب فيه كلَّ إنسانٍ ـ مهما سمت درجته، وتوسَّعت دائرة نفوذه وتصرفه ـ على أعماله وتصرفاته.

والآن وقد انقشع هذا الضباب، وانتهت هذه المرحلة التي لم تكن جديرةً بالبقاء وقتاً طويلاً، لا دينياً، ولا مبدئيّاً، ولا عقليّاً وواقعيّاً، وعاد الأمر إلى نصابه، والحقُّ إلى أصحابه، ولكنَّها ـ والأسف يملأ جوانحي، ويكاد يفتت كبدي كعاملٍ في مجال الدعوة الإسلامية وحركة «رسالة الإنسانية» لا سيما في منطقةٍ شديدة الحساسية، دقيقة الوضع، كشبه القارة الهندية التي كثرت وتكثر فيها الاضطرابات الطائفية، والمذابح البشرية ـ قد أساءت إلى سمعة الإسلام، العين الأكبر والأشهر الذي يدعو إلى احترام

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسانية ، وصيانة النفوس والكرامات ، ويؤمن بأنَّ الله هو ربُّ العالمين ، ونبيه ـ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ـ هو رحمة للعالمين ، إساءةً لم يسبق لها مثيلٌ منذ أمدٍ بعيد ، أقول هذا بصفتي دارساً ومؤلفاً في التاريخ ، وعاملاً في مجال حركة «رسالة الإنسانية في الهند» التي حققت شيئاً كبيراً من النجاح ، وتمتعت باحترام كبار المثقفين وقادة الرأي في الأكثرية غيرالمسلمة واعترافهم ، وامتازت ندواتها التي عقدتها قيادة هذه الحركة مع التعاون مع عددٍ من كبار المثقفين والرجال من الهنادك بنجاحٍ باهر وإقبالٍ كبير من الشخصيات البارزة في مختلف الطبقات ، وقد أحرج موقف العراق الاعتدائي والهجومي الذي هو شبيه بالقرصنة ، واتَّسم بالتغاضي عن المشاركة في الدين ، والاعتداء الآثم على الأنفس والأعراض ، فضلاً عن الأملاك ، ونكران الجميل ، والهبوط إلى حضيض السفالة والمهانة ، فانتكست رؤوس المسلمين في شبه القارة الهندية ، وتندَّى جبينهم حياءً ، وكان يعتقل لسانهم في توجيه هذا الدعوة إلى إخوانهم المواطنين ، فإنَّهم إذا أشاروا إلى حرب الخليج وموقف القيادة العراقيَّة من الكويت ، البلد الإسلاميِّ السِّلمي ، والأكراد المسلمين الذين أنجبوا في فترةٍ من فترات التاريخ البطل النَّاصر لدين الله السلطان صلاح الدِّين الأيوبي ـ عليه رحمة الله ـ وقالوا: عليكم بالعناية بمركزكم الديني ، وشعبكم النموذجي ، وتوجيه دعوة احترام الإنسانية إليه أولاً ؛ لم يكن لنا جوابٌ.

أقول أيها السادة! إنَّ هذا الضباب وإن كان قد انقشع ، وأنَّ هذه المرحلة المشؤومة وإن كانت قد انتهت ، ولكنها تسترعي انتباه المفكرين والمعنيين بحاضر هذه الأمة ومستقبلها إلى حقائق قد تجلَّت في هذه الآونة ، وفي ضوء هذه الكارثة بوضوح لم تتجلَّ به في الماضي القريب ، ودلَّت بل وضعت أصبغ كلِّ مسلمٍ واعٍ معنيٍّ بشأن هذه الأمة منتفع بالتجارب على فجواتٍ ، بل ثغراتٍ (Gaps) في صفوف هذه الأمَّة ـ وأكبر خطورةٍ من ذلك ـ على ثغراتٍ في تفكير كثيرٍ من طبقات هذه الأمَّة بل في دهمائها ، وخاصة في شبابها ، والجيل الناشىء ، وفي الصحافة ، ووسائل الإعلام ، وكثير من المنظمات الإسلامية ، فلا بدَّ من استعراضها ـ خصوصاً في هذا

www.abulhasanalinadwi.org

المؤتمر الموقر ـ بجراءةٍ خلقيةٍ ، وصراحةٍ بيانيةٍ ، واحتسابٍ محايدٍ جريء للنفس والإخوان في الدِّين والوطن ، والله يقول : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقبل أن أتحدَّث عن هذه الحقائق غير السَّارة ، والفجوات غير المشرِّفة في حياة الأمَّة الإسلامية المعاصرة ـ بما فيها الشعوب العربية المسلمة ـ ألقي بعض الأضواء على أن هذا المؤتمر الموقر كما جاء في أوانه ، قد جاء في مكانه ، فإنَّ الله قد قدَّر لمصر واختارها لتقوم بالدور القيادي الحاسم ، وعملية الإسعاف والإنقاذ للشرف الإسلامي والمقدسات الإسلامية في ساعةٍ عصيبةٍ دقيقةٍ حين : ﴿ بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴾ [القيامة : ٢٦ ـ ٢٧] وذلك مرَّتين على الأقلِّ ، وإلى السادة المؤتمرين إشارة إليهما :

المرحلة الأولى : حين هجمت أوربا النصرانية الصليبية بملوكها وقادتها العسكريين ومقاتليها المتحمِّسين ، في تصميمٍ لا يوجد له نظيرٌ في الماضي ، ولا في الحاضر ـ وكانت تستهدف الجزيرة العربية ، والحرمين الشريفين ، وبالاستيلاء ومحو أثر الإسلام منها ، وإهانة ما يفديه المسلمون بنفوسهم ودمائهم وكراماتهم ، وأكتفي في بيان هذا الهجوم وما نشأ عنه من الخطر على العالم العربي الإسلامي ، بشهادةٍ واحدةٍ لصاحب اختصاص في هذا الموضوع من المؤلفين الغربيين ، وهو ستينلي لين بول (Stanley Lane Poole) صاحب كتاب «صلاح الدين» يقول في كتابه :

«توغَّل الجيش الصليبي في البلاد كما يشقُّ أحدٌ خشباً منخوراً بالياً ، وخيل للناس ولو لبرهةٍ من الزمان أنَّ الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام ويكسرونها تكسيراً .

هنالك قضى الله ـ وهو الرحيم الغلاَّب ـ بأن يكون شرف استعادة القس الشريف ، والقبلة الأولى التي دامت عليها سيطرة الصليبيين تسعين (٩٠) سنة للإسلام والمسلمين للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وذلك في رجب عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

وقد كان صلاح الدين قائد الملك العادل نور الدين الزنكي ، وحاكم

www.abulhasanalinadwi.org

مصر من قبله ، فاقترن اسم مصر بهذا الفتح العظيم ، والمأثرة الكبرى ، ورجع الفضل في هذه المأثرة إلى قيادة مصر التي تركَّزت في شخصية صلاح الدين ولا بدَّ أنَّه استطاع ذلك ـ بحول الله ـ عن طريق الجيش المصري الباسل المسلم ، يقول لين بول :

«إنَّ سيطرة قائد نور الدين ـ سلطان الشام ـ (صلاح الدين) على النيل ،قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأةٍ شديدةٍ من ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيش له من القوة ، وبفضل استيلائهم على مرفأ دمياط والإسكندرية ، أخذوا أسطولاً بحريّاً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوربا»[١] .

وقد كان السلطان صلاح الدين بنفسه يعترف بأنَّ لمصر نصيباً في هذه المأثرة ، فقال مرّةً : «إن الله لما أعطاني مصر ، حسبت أنه قدَّر لي فلسطين أيضاً»[٢] .

والمرحلة الثانية : هي هجوم التتر الوحوش على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري ، وكانت محنة هزَّت العالم الإسلاميَّ هزّاً عنيفاً ، وتركت المسلمين مشدوهين ، واستولى الرُّعب والخوف على العالم الإسلاميِّ من أقصاه ، إلى أقصاه وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل «إذا قيل لك إن التتار انهزموا؛ فلا تصدق»[٣] .

وفي هذه المرحلة الدقيقة التي كادت تفوق أو فاقت حقيقة مرحلة الزَّحف الصليبي ، أحجم الملوك والحكومات والقيادات عن مقاومة التتار ، واعتبروا استيلاءهم قضاءً مبرماً ، وعقوبةً من الله ، هنالك قامت مصر مرّةً ثانيةً بإحراز قصب السبق في مقاومة التتار ، واستطاع حاكمها آنذاك الملك المظفر سيف الدين قطز وجيشه المصري العربي المسلم ، أن

---

(١) السلطان صلاح الدين ص : ٨٩ .

(٢) أيضاً ص ١٨٦ .

(٣) ليرجع للتفصيل إلى الكامل لابن الأثير ج ١٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

يبطل هذا القياس والقضية المسلَّمة. يقول المؤرخون:

كان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة، وكانت مصر وحدها التي لم تصبها ويلات التتار، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أنَّ التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشنَّ عليهم الهجوم في نفس الشام، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية والتتار في عين جالوت يوم ٢٥/ من رمضان سنة ٦٥٨هـ، وانهزم التتار شرَّ هزيمةٍ بخلاف ما سبق لهم من الحروب، فخرجوا منها هاربين، وتعاقبتهم الجنود المصرية، فقتلوهم وأسروا منهم عدداً كبيراً، يقول العلامة السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»:

«وهُزم التتار شرَّ هزيمة، وانتصر المسلمون ولله الحمد، وقُتل من التتار مقتلة عظيمةٌ، وولَّوا الأدبار، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم»[١].

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس، بعد انهزامهم في عين جالوت مرَّاتٍ عديدةً، وأخرجهم من أرض الشام، وطردهم منها، حتى بطل المثل السائر: إذا قيل لك إنَّ التتر انهزموا؛ فلا تصدق.

وفي ضوء هذين المثالين الرائعين اللذين يحقُّ لمصر أن تفتخر بهما، وتحمد الله على توفيقه ونصره، واختياره لها للقيام بالواجب المقدس الخطير، يتحتم على مصر الإسلامية أن تقوم بأداء فريضة اليوم وتحقيق مطالبه، وأن تستخرج سهماً ـ بنَّاء إيجابياً قيادياً ـ من كنانتها، وقد سميت قديماً بكنانة الإسلام، وكنانة الإسلام لا تنفد سهامها، ولا تخطىء مراميها، والسهم المطلوب في هذه الساعة الدقيقة هو الانتباه للحقائق التي تجلَّت بعد الغزو العراقي للكويت وتصرفات الرئيس صدام حسين الطائشة الراعنة، وما كان لها من ردِّ الفعل في الشعوب العربية والإسلامية، وما

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥.

www.abulhasanalinadwi.org

كشفت عن فجوات وثغرات في تفكير الأمّة ، ومنظماتها ، وصحافتها ، وإعلامها .

والآن آن لي أن أتحدَّث عن الحقائق والفجوات والثغرات التي كشفت عنها الأزمة الخليجية الأخيرة ، وأن أشير إلى طريق علاجها ، وملء هذه الفجوات والثغرات في صفوف الأمة ، وتفكيرها ، وصحافتها ، وإعلامها ، وبتعبير أوسع وأوضح : في حياة الأمة ، وتأمين هذه الأمة من عواقبها السيئة ونتائجها الوخيمة ، التي تحدَّث عنها القرآن ، والسنة ، وشهد بها التاريخ الإنساني العام ، وإلى المستمعين الكرام بعض النقاط الهامة :

أريد أن أتحدث إلى بعض فجواتٍ وثغراتٍ شديدة الخطر ، بعيدة الأثر في حاضر الأمة ومستقبلها ، وألفت نظر قادة الفكر والمتملكين لزمام التوجيه والتربية والصحافة والإعلام ، والعاملين في مجال الدعوة و«الصحوة الإسلامية» إلى معالجتها والعناية بها :

١ ـ التهيُّؤ الدائم والقوي للانخداع بهتافات ـ حماسية بصفةٍ خاصة ودعاوى ـ خلابة ووعودٍ برَّاقة ، من غير نظرٍ إلى عقيدة أصحابها ، واستعراض ماضيهم والأحزاب والمخططات السياسية والفكرية التي يرتبطون بها ارتباطاً وثيقاً خصوصاً إذا اقترنت هذه الهتافات ، أو الإعلانات بتحدٍّ أو تهديدٍ لطاقةٍ من الطاقات الكبيرة ، وتظاهر أصحابها بالجراءة والصُّمود ، أحدثت في الدهماء ـ خصوصاً الشباب ـ انفعالاً شديداً شبه اهتياج عاطفي لا سبيل إلى كبحه (Hysteria) لا يفيد فيه النقد الديني والعلمي ، واستعراض الواقع والحقائق ، الأمين المحايد ، وأنتجت ثورةً بمثابة زوبعةٍ في فنجان أو غلي كغلي المرجل ، وقد يؤدي ذلك إلى استهانةٍ بالدين ، وعقائده ، وشعائره ـ فضلاً عن إهانة ممثليها وأصحاب الاختصاص فيها ـ ولا أبلغ في وصف هذه الفئة وتصويرها من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي اكتوى بهذه النار ، وواجه هذا الوضع أكثر من كثيرٍ من أئمة الإسلام وقادته؛ إذ قال في وصف أهل العراق «أتباع

www.abulhasanalinadwi.org

كلِّ ناعق». فلا بدَّ من إيجاد الوعي الدينيِّ والمدنيِّ في الشعوب الإسلامية، حتى في الطبقات المتدينة المثقَّفة، وقوة التمييز بين الصَّالح والطالح، والدعوة إلى فهم القضايا المعاصرة، والحركات والتيارات العاملة النشيطة، والمنابع التي تستقي منها فكرها وعقيدتها، وتستمدُّ منها نشاطها وحماسها، وفي بعض الأحيان إمكانياتها المادية والسياسية.

ولا بدَّ من الدعوة إلى فهم القضايا المعاصرة، والحركات والتيارات العاملة النشيطة وموقفها في الإسلام وأثرها في الحياة، وخطرها على مستقبل هذا الدين، والجيل الإسلاميِّ، والاطلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات، وتتسلم زمام توجيه المجتمع وفق عقائدها وقيمها ومثلها، وسبك الحياة سبكاً جديداً، فإنَّ التغاضي عن هذه القوات والطاقات، والحركات، والقيادات، وانطواء الجماعات الإسلامية على نفسها، ومعتمدة على تمسكها بالدِّين والدعوة إليه، والاشتغال بالفرائض، والواجبات الدينية، وحياة الطُهر، والعفاف، والعبادات، والطاعات، يحول بعد مدةٍ من الزمن بينها وبين حرية العمل بالدِّين، وتطبيق أحكام الشريعة، ويضيق الخناق حولها حتى ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وبقاء هذا التهيُّؤ للانخداع بالهتافات والدعاوى، والمظاهرات والتمثيلات خطرٌ كبيرٌ دائمٌ على هذه الأمة، وارتباطها بعقيدتها ورسالتها ودورها في توجيه الإنسانية والوصاية عليها، بل على بقائها على الشريعة السماوية، والدين الذي ختم به الأديان والرسالات، وكذلك يحبط مساعي المصلحين والمجددين المجاهدين، والشهداء المخلصين المتفانين من العصر الأول إلى هذا العصر، وفتح المجال في هذه الأمة وفي بلادها العريقة في الإسلام لقبول مبدأ المجتمع الغربي المسيحي:

«إن الدين قضيةٌ شخصيةٌ، وقضية بين الفرد والخالق، لا شأن له بالحياة، والتشريع، والسياسة».

www.abulhasanalinadwi.org

٢ ـ ومن قبيل الإنصاف ، والتحليل النفسي لأصحاب هذا الاندفاع المتهوّر إلى الهتافات والمظاهرات المتحدِّية التمثيلية ـ وإن لم يكن ذلك مبرراً لوجود هذا الاندفاع إلى حدّ التقديس ـ إنَّ من أسبابه عدم وجود قيادةٍ قويةٍ جريئةٍ إن لم أقل بطوليةٍ؛ قلت جهادية نضالية ، معتدة بعقيدتها ومركزها القيادي في العالم، مستغنية إلى حدٍّ ممكنٍ عن الاعتماد على الطاقات الغربية أو الشرقية الكبرى ، التي لا تزال تمثل دور إحباط الجهود الإسلامية والحركات الدينية القوية الواسعة الآفاق ، وحرمان هذه البلاد من شخصياتٍ قياديةٍ عملاقة يسيطر عليهم التفكير الدينيُّ ، وتطبيق التشريعة في بلادها ، والعمل لمجد الإسلام ، وإنهاض المسلمين ، بمؤامراتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ أفقدت هذه البلاد خيرة قادتها وزعمائها في العصر القريب، والناس ما زالوا مفطورين على إجلال العزّة وروح المخاطرة ـ والمغامرة أحياناً ـ لأنَّ الإجلال لشيءٍ لا يجده الإنسان عنده ، شيء طبيعي ، ولأنَّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالبطولات والمغامرات ، وقد سئم أصحاب الضمائر الحيَّة، وضاقوا ذرعاً بسياسة الحكومات والقيادات الرّخوة الضعيفة المستسلمة .

ومن الحقائق أنَّ عدداً كبيراً من المسلمين ـ خصوصاً الشباب ـ مطلعٌ على هذه المؤامرات ، ممتعضٌ من أصحابها ، حانقٌ عليهم .

فلا بدَّ إذاً من الاهتمام بوجود قيادةٍ قوّيَةٍ جريئةٍ مؤمنةٍ عاقلةٍ مكتفيةٍ بما أنعم الله به على بلادها من ثرواتٍ وطاقاتٍ ، معنيَّةٍ بالزيادة فيها ، وبالتكنالوجية ، والصناعات والقوى الحربية ، مستغنيةٍ عن هذه الطاقات الأجنبية ـ إلى حدٍّ ممكن ـ في الاعتماد والاستيراد ، تستطيع باعتمادها على القوّة الإيمانيَّة ، وإخلاص شعوبها ، وتفانيها في سبيل العقيدة ، والدفاع عن الإسلام ، أن تحتجَّ ضدَّ عدوانٍ أو مؤامرةٍ ، ضدَّ مصلحةٍ إسلاميةٍ ، أو قيادة صالحةٍ ، أو محاولة نفوذٍ ، أو تدخلٍ في قضايا هذه البلاد .

٣ ـ العناية بوجود حركةٍ إيمانيةٍ دعويَّةٍ إيجابيةٍ قويَّةٍ في البلاد ، ومعرفة فضلها وقدرها حقَّ قدرها إن كانت موجودة ، بدلاً من التخوُّف منها ، ومحاولة القضاء عليها ، تقترن هذه الحركة بصفات الرُّجولة والطموح ،

www.abulhasanalinadwi.org

وعلو الهمَّة ، وبعد النظرة ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملَّكت زمام قيادة البشرية ، وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ، من غير حقٍّ ومبرِّر .

ومن المعلوم الثابت أنَّ الشعوب الإسلامية ـ على علاتها وبعض مواضع الضعف فيها التي تحدثنا عن بعضها ـ لا تزال تمتاز بين شعوب العالم ـ بما فيها الشعوب الغربية والشرقية ـ بالإيمان بالله واليوم الآخر والاستهانة بالحياة واللذات في سبيل الله ، والحنين إلى الشهادة ، والشوق إلى الجنة ، ونيل رضا الله ، وتصديق ما وعد الله عليه من الأجر والثواب وبذل النفس والنفيس فيه ، إذا قُـدِّر لها الداعي المخلص القوي ، المثير فيها الحماس الإسلامي ، والمشعل لشعلة الإيمان ، كما شوهد حتى في الماضي القريب بفضل القادة المخلصين الربانيين[1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الميزة التي يمتاز بها المسلمون عن غيرهم من الشجعان والأبطال الماديين من الشعوب والديانات التي انقطعت صلتها عن الرسالة السماوية ، والمنابع الإيمانية بقوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وهذه ثروةٌ لم تعدلها ثروةٌ ، وطاقةٌ لا تساويها طاقة ، فمن الجناية على هذه البلاد والشعوب الإسلامية ـ بل على القيادات والحكومات التي تحكم هذه البلاد والشعوب ـ والإشفاق منها ، واعتبارها الخطر الأكبر لمستقبل هذه القيادات والحكومات ، والمنافس الخطير في مجال الحكم والإدارة ، إلى أن يؤدي ذلك إلى تجنيد الطاقات ، وتركيز القوى والوسائل ـ بما فيها الصحافة ووسائل الإعلام ، ونظام التربية ـ على القضاء عليها والتخلُّص من أثرها ونفوذها ، فيكون جهاداً في غير جهاد ، وحرباً على أعزِّ أبناء هذه الأمَّة والبلاد وأنفعهم عند الحاجة إذا جدَّ الجدُّ .

---

(١) كالإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، شهيد بالاكوت (١٢٤٦ هـ) وسيدي أحمد الشريف السنوسي في طرابلس (م ١٣٥١ هـ) والأمير عبد القادر الجزائري (١٣٠١ هـ) وغيرهم .

www.abulhasanalinadwi.org

ومعلومٌ أنَّ هذه الشعوب الإسلامية تتميَّز كذلك بالإخلاص إذا وَجدت محلَّه وناداها أحد باسم الله ، وباسم الإسلام ، فتلبي النداء بحماسٍ وتفانٍ قلما يوجد نظيره في هذا الزمان ، فمن الجناية على نفس القيادات والحكومات والتعامي عن الحقائق وعدم الانتفاع بهذه الثروة والطاقة ، وبذل كلِّ طاقةٍ وذكاءٍ ووسائل في القضاء عليها ، والتخلص منها .

٤ ـ الإسلام هو قومية العالم العربيِّ ، ومحمَّد ﷺ هو روح العالم العربيِّ وإمامه وقائده ، والإيمان هو قوّة العالم العربيِّ ؛ التي حارب بها العالم البشري كلَّه ، فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه .

والعالم العربي ـ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ : «لا وجود ، ولا اعتبار له بالحدود والثغور ، إنما وجوده واعتباره بالانتماء إلى محمّدٍ العربيِّ ﷺ ، وهو الذي أبرزه إلى الوجود ككائنٍ متميِّز ، وحقيقة ثابتةٍ ، فلا بدَّ من تسليم هذه الحقيقة ، واحتضانها ، والتحمُّس لها ، بدل القوميات ، والوطنيات ، وهي الرابطة الوحيدة التي تربط الأقطار والشعوب العربية بالعالم الإسلامي وأقطاره الغربية والشرقية ، وتجعلها تحدب عليها ، وتتقرب إلى الله بحبِّها ، والدفاع عنها ، والاستماتة في سبيلها ، وهي الحقيقة الوحيدة التي تمنحها مكانةً مرموقةً ، وقيمةً مشرفة ، وحساباً خاصّاً عند الشعوب ، والأقطار الغربية غير الإسلامية» .

٥ ـ الابتعاد ـ بحدِّ الإمكان ـ من حياة التَّرف والدَّعة ، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة ، والإسراف والتبذير ، أو الاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة ، والفخر والزينة ، والابتعاد إلى حدٍّ ممكن من كلِّ ما لا يرضاه الله ورسوله من أعمالٍ وأخلاقٍ ، ويحول بينه وبين نصر الله وتأييده . وقد تماسك العرب الأولون ـ المسلمون ـ واحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية العربية ، والبساطة والاقتصاد ، وحياة التقشف والفروسية ، مقابل الحضارتين الرومية والفارسية اللتين بلغتا الغاية في التأنق والتوسع ، والحياة المصطنعة ، وإن كان لا بد فيستعان بـ«تمدين» هذه المدنية ،

www.abulhasanalinadwi.org

وإخضاعها للمبادىء والغايات التي أكرم الله بها هذه الأمَّة عن طريق الإسلام، وإخضاع هذه الحضارة وما لابدَّ منه في مسايرة العصر للشخصية الإسلامية.

وقد دل التاريخ بوضوحٍ على أنَّ كلَّ أمَّةٍ، أو جيلٍ أصيب بالترف والبطر، والبذخ الزائد، والتمرُّغ في النعيم، وفشت فيها عادات جاهلية، وظهرت منكرات خلقية؛ أصبح فريسة لهجوم وحشيٍّ، وغزوٍ أجنبيٍّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

كان ذلك شأن المجتمع الإسلامي ـ بصفةٍ عامَّة ـ في القرن السابع الهجري عند غارة التتر الوحشية التي كانت كإبادةٍ جماعية نسلية ودينية، ونكتفي هنا بشهادةٍ لمؤرخ كبير[١] يصف المجتمع المسلم العائش في بغداد قبل الغزو التتاري، وهي صورة لا تختلف عنها صورة العواصم الأخرى، والمدن الإسلامية الرَّاقية في ذلك القرن.

«مرفَّهون بلينِ المهاد، ساكنون على شطٍّ بغداد، في ظلٍ ثخين، وماءٍ معين، وفاكهةٍ وشراب، واجتماع أحباب وأصحاب، ما كابدوا حرباً، ولا دافعوا طعناً، ولا ضرباً»[٢].

وهي حكاية عن المجتمعات والشعوب الإسلامية والحكومات الواسعة الراقية في تاريخ المسلمين الطويل، وقد لقيت نفس النتيجة، على تفاوت في العنف والشدة، والطول والسعة حسب قامات هذه المجتمعات والحكومات وقيمتها[٣].

٦ ـ تأليف جمعية شعوبٍ وحكوماتٍ عربية إسلامية تحلُّ محلَّ جمعية الأمم المتَّحدة (United Nations) للإشراف على متطلبات الأقطار والحكومات الإسلامية ـ وفي مقدمتها وعلى رأسها الأقطار العربية الإسلامية ـ السياسية الدولية، والدفاعية، وتقوية معنوياتها وحريتها

---

(١) هو المفتي قطب الدين النهروالي المكي، في كتاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام».

(٢) الإعلام ص ١٨٠.

(٣) راجع للتفصيل تاريخ الحكومة المغولية في الهند، والخوارزمية في تركستان وإيران.

www.abulhasanalinadwi.org

وشرفها ، وتتولى الدفاع عن بلدٍ صغير يهاجمه بلدٌ كبير ، يستعان بها ويرجع إليها في ذلك ، بدل جميعة الأمم المتحدة ، أو طاقةٍ من الطاقات الكبرى ، وتملك من الحول والطول ونفاذ الكلمة والاحترام المتبادل ما يمكنها من رد الغارة والعدوان على بلد إسلاميٍّ ، وتحسب لها الطاقات الكبرى حساباً ، وترهبها القوى العدوانية ، والقيادات المثبتة الأنانية .

ويكون في مقدمة واجبات هذه الجمعية ، الدفاع عن الحرمين الشريفين والحجاز ، بصفةٍ خاصة ، والجزيرة العربية بصفةٍ عامة ، إذ هي معقل الإسلام ورأس مال الدعوة الإسلامية ، ويربط بها شرف المسلمين أينما كانوا ، ومتى كانوا [يقول الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧] فدلَّ ذلك على أنَّ نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام ، كما أنَّ نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبط بالدعوة التي أسس لها هذا البيت ، فيجب أن يكون المسلمون في كلِّ بقعةٍ من بقاع العالم أصحاب غيرةٍ شديدةٍ ، وحساسيةٍ زائدةٍ في شأن مركز الإسلام ، ومهبط الوحي ، ومطلع الصبح الصادق الجديد للإنسانية ، ويكون المسلمون من ضفاف النيل إلى أرض كاشغر ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ جيشاً حارساً للحرم ، ورجلاً واحداً في الدفاع عنه ، والاستماتة في سبيله .]

وأخيراً لا آخراً كلمة لولاة الأمور ، والمسؤولين عن الأقطار والحكومات الإسلامية والعربية .

إنَّ أنفع شيءٍ وأجداه ، أيها السادة! في ضوء القرآن والسنة وتاريخ الدعوات ، والقيادات ، والتطورات ، والانقلابات ، هو الصدق مع الله والإنابة إليه ، وتغيير ما يمكن تغيير في حياة الفرد والمجتمع ، وتطبيق ما يمكن تطبيقه في حياتهما من الإصلاحات وإزالة المنكرات ، وما يبعد من رحمة الله ويحول دون نصرته ، من تناقضاتٍ ، أو تساهلاتٍ في الإطار الفردي ، والاجتماعي ، والإداري ، والسياسي ، والقرآن شاهدٌ على ذلك ، وفي السنة الصحيحة ، والأسوة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ،

www.abulhasanalinadwi.org

والملوك الصالحين ، نماذج من ذلك لا تحتاج إلى تفصيل وتعيين أسماء وحوادث ، وهو أكبر مؤثرٍ وجالبٍ لرحمة الله تعالى ولمصير الأمم والمجتمعات ، عند الأزمات ، لا يعادله شيء آخر من الأسباب العادية والطاقات العسكرية ، وحماية الحكومات الكبيرة ومؤازرتها .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المأساة الأخيرة في العالم العربيِّ

دراستها من الناحية الدِّينيَّة ، والخلقيَّة ، والمبدئيَّة ، والدعويَّة ،
وتحليل أسبابها وانعكاساتها

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده .

وبعد : فقد كانت أعمال حركة «رسالة الإنسانية» بوسائل وإمكانياتٍ محدودةٍ ، تجري بنشاطٍ ، وتتوسع آفاقها إلى نهاية شهر يوليو ١٩٩٠م ، وقد كان مؤتمر دلهي التاريخيِّ المنعقد في ١٧/ مارس ١٩٩٠م ، واجتماع لكهنؤ الناجح الذي انعقد في ٢/ يوليو ١٩٩٠ م خير مثال للقبول والشعبية التي كانت تنالها هذه الحركة ، وتأثيرها على النفوس ، ومما يدلُّ على هذه الشعبية المتصاعدة ، الخطابات التي انهالت على مكتب الحركة ، والطلبات التي تلقاها المسؤولون بعقد هذه الاجتماعات في المدن الهندية الأخرى ، وكانت هذه الرسائل تشفُّ عن حرص المواطنين على تصعيد هذه الحركة وتعميمها ، وعن رغبتهم الملحَّة في حضور مثل هذه الاجتماعات .
وكان مما يبعث على التفاؤل الكبير أنَّ هذه الحركة بدأت تنال تأييد المثقفين وأصحاب الأذهان الخالية من العصبية الطائفية من السياسيِّين ، وأصحاب الضمائر الحرَّة من المواطنين من غير المسلمين ، وتسترعي استجابتهم لدعوتها استجابةً حارة ، فأخذت هذه الدائرة تتوسَّع ، ولمع بريق الأمل على أفق الهند بأن الضمير الوطنيِّ سينتصر نهائياً ، وأنَّه يمكن معالجة هذا الوضع غير الطبيعي الذي يهدِّد سلامة البلاد في شكل الاضطرابات الطائفية ، وسفك دماء الأبرياء ، وأنَّ القوى الفعالة الواعية ستدرك الخطورة ، وتتصدَّى لها ، وتبذل مجهوداً مركَّزاً موحَّداً لتغيير هذا الوضع .

بجانب هذه التطلُّعات برز هناك عامل استبشارٍ آخر لا يقلُّ عن انتصار بالنسبة للملَّة الإسلامية في الهند ، حالها ومستقبلها ، وهو : أنَّ المسلمين في هذه البلاد بدؤوا مرَّةً أخرى يشعرون بضرورة العودة إلى تمثيلِ دورهم كدعاة الحقِّ ، وحماة الإنسانية ، ومعلمي الأخلاق ، وبدؤوا يفكِّرون من هذه الزاوية ، فكان هذا الشعور معقد الأمل بأنَّ المسلمين سيستعيدون في هذه البلاد مرَّةً أخرى دورهم القياديَّ بجدارةٍ ، واستحقاقٍ ، وأنَّهم

www.abulhasanalinadwi.org

سيكسبون ثقة المواطنين كمجدفين لسفينة البلاد ، وكمنقذين لها من الشَّقاء والدَّمار ، ويعتقد الناس أن جبهة خدمة الإنسان والإخلاص في حبِّ الوطن كانت قد أصبحت مكشوفة غير محروسة منذ زمن بعيد ، وأنَّ المسلمين الذين يؤمنون بأنَّ الله «ربُّ العالمين» وأنَّ محمداً رسول الله «رحمةٌ للعالمين» هم أجدر وأحقُّ بأن يتولوا هذه الزعامة ، وكان يتوقع أن هذه الحركة الإنسانية ، والمجهود الإنساني سيؤدي إلى إزالة سوء التفاهم وعدم الثقة والكراهية بين المسلمين وغيرهم من الطبقات ، ويكشف زيف الدعايات والأباطيل الشائعة عنهم ، والتي ألقىٰ ظلالها الكثيفة التاريخ المزوَّر ، والمصالح السياسية ، وبالتالي تنجو البلاد من الخطر المحدق عليها نابعاً من الاضطرابات الطائفية ، وإراقة الدماء ، والأعمال ، والأفعال التي تثير غضب الله وسخطه ، وتجلب عقابه.

كذلك كان مما يبشر بخيرٍ ، ويبعث على التفاؤل الكثير: أنَّ العالم العربيَّ الذي كان الداعي الأول إلى الإسلام ، والذي يشمل المقامات المقدسة المباركة ، وهو الحارس الأمين لها ، وهو المختبر الأول لاحترام الإنسانية ، والعدل ، والمساواة ، وهو مهد الدعوة إلى الأمن والسَّلام ، يعيش منذ مدة بأمنٍ وسلامٍ وثقةٍ متبادلة ، ورفاهيةٍ ورخاءٍ ، واحترامٍ للإنسانية ، وهو في موقفٍ لتوجيه الدعوة إلى العدل والإنصاف ، واحترامِ الإنسان ، والتعايش السلمي إلى العالم الخارجي ، وأن يقدِّم له من واقع الحياة ما فيه نموذج وقدوة ، وهو يحمل كفاءةً لأن يحتل المنصَّة العالمية لتوجيه هذه الدعوة ، ويتولى مرَّةً أخرى منصب الإمامة ، والقيادة الإنسانية.

كان هذا هو الوضع السائد إلى آخر يوليو ١٩٩٠م ، فكانت الآمال معقودةً ، وكان العاملون في مجال الدعوة والإرشاد متفائلين ، رافعي الرأس ، وكان في عيونهم بريق الأمل ، فإذا بالعالم يهتز في ٢/ أغسطس ١٩٩٠م بحادثةٍ مروعةٍ لم نكست رؤوس الدعاة إلى العدل والاحترام الإنساني فحسب ، بل نكست رأس الملَّة الإسلامية بكاملها «داخل الهند وخارجها» وغضَّت بصرها ، وتندَّى لها جبينها ، وإني كدارسٍ متواضعٍ للتاريخ الإسلامي ومؤلفٍ فيه ، لا أذكر أن المسلمين من حيث الملة أصيبوا

www.abulhasanalinadwi.org

بمثل هذه الصدمة العنيفة التي أدَّت إلى خجلٍ وذلَّةٍ ، ومهانةٍ منذ قرون عديدةٍ ، وتزيد هذه المأساة شدَّةً ووطأةً: أنها وقعت في منطقةٍ عربية مجاورةٍ للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان ، والعدل ، والإحسان ، وجزاء الإحسان بالإحسان والكرامة ، ونجدة المظلوم والضعيف ، وتطور هذا الإشعاع إلى حركة عالميةٍ ودعوةٍ طبقت الآفاق ، أعني بذلك الغزو العراقيُّ المفاجىء للكويت ، الذي أذاعته محطاتُ العالم ، ووسائل الإعلام العالمية كصاعقةٍ.

إنَّ خطورة هذا الحادث المؤلم ، وضخامته ، وتأثيره السيىء على الضمير الإسلاميِّ والإنسانيِّ ، ترجع إلى أسباب عديدةٍ منها :

١ ـ إنَّ غزو بلدٍ عظيم كالعراق لبلدٍ صغير كالكويت بعد أن حقَّق ذلك البلد انتصاراً على بلدٍ عظيم واسع الأطراف كإيران ، يقدِّم مثالاً سيِّئاً لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلقية ، والتقاليد الإسلامية فحسب ، بل إنه يتنافى مع الضمير الإنسانيِّ ، ومبادىء الأخلاق العامَّة ، ويعتبر إجراءً مذموماً ، ومرادفاً للقرصنة ، ومما يزيد خطورةً أنَّ كلا البلدين المعتدي منهما والمعتدى عليه ، بلدٌ مسلمٌ وعربيٌّ ، ثم إنَّه اعتداءٌ لبلدٍ على بلدٍ كانت له منـةٌ وفضلٌ عليه في العهد القريب في وقت المحنة والبلاء ، وكان قد أجزل العطاء عليه ، ولم تكن له جريمةٌ يستحقٌّ بها هذا العقاب .

٢ ـ تعاقبت بعد غزو العراق للكويت واستيلائه عليها الأعمال والتصرُّفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تاريخ الحروب ، والفتوح المماثلة ، وقد أشار القرآن الكريم إليها بلسان ملكة سبأ ، فأصبحت خالدةً إلى يوم القيامة :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النَّمل : ٣٤].

٣ ـ ثم إنَّ القائد العراقي الرئيس صدام حسين قام بنسخ كلِّ ما سجَّله من بطولاتٍ وانتصارات ، وتضحياتٍ خلال حربه مع إيران ، على شروط من طرفٍ واحدٍ ، وطرح بذلك جانب الحائط ما خاضه من معارك ضارية معها

www.abulhasanalinadwi.org

لرفض هذه الشروط ، وما ضحَّى به شعبه من نفوس غالية تبلغ مئات الألوف ، وما تسبب منها من خسائر جسيمة ، وكان ذلك بمثابة إساءةٍ إلى تلك الأرواح الغالية ، وذهبت دماء خيرة الشباب ومعاناتهم سدىً ، واستحقَّ أن يسأل : بأي ذنب قتلت[١] .

إننا كنا نقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] فكنا نعتقد ـ وتلك حقيقة ـ : أن الله تبارك وتعالى وصف في هذه الآية عاقبة الأعمال في الآخرة ، وإنه ذكر مصير بعض النفوس التي لم تصدر منها الأعمال الصالحة لنيل رضا الله ، وإنما كانت لغرضٍ من أغراض الدنيا ، فحبطت أعمالها ، وبهذه التجربة مع الرئيس العراقي في صدر التضحيات التي بذلت في الحرب مع إيران ، علمنا مصداقية هذه الآية على الحياة الدنيا كذلك ، وإنَّ صاحب العمل نفسه يعامل أحياناً بالنسبة لأعماله هذه المعاملة ، ويلجأ إلى موقف مضادٍّ ، أو معكوسٍ تحبط به أعماله الجليلة ، فتصبح منجزاته هباء منثوراً .

٤ ـ كان الرئيس صدَّام يُعقد به الأمل في بعض الأوساط المتفائلة لعل الله تبارك وتعالى يوفقه ليمثِّل دوراً قيادياً يعيد إلى المسلمين والعرب عزَّتهم وكرامتهم ، وإنه يجمع قدراته ، وكفاءاته ، ويقوم بتعبئة ما تتوفر لديه من إمكانات ليشكل جبهةً ضدَّ إسرائيل ، أو يوفقه الله تعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف وترصيفها لمواجهة إسرائيل ، فيتمُّ على يديه تحرير واسترداد القدس .

ولكن خابت هذه الآمال والتطلُّعات ، ولم تلبث هذه الأمانيُّ إلا قد انقلب هذا البطل المغوار على إخوته وأشقائه ، وفتح جبهةً جديدة داخل البلاد فزحزح كل ما يعقد به المسلمون من أملٍ وثقةٍ ، بل بتعبيرٍ أصحَّ : حطَّم جميع هذه الآمال المعقودة به ، وخابت به الظنون .

---

(١) وقد تساءل وزير خارجية بريطانية : ماذا كانت جريمة هؤلاء القتلى الذين قتلوا في الحرب ، أليس ذلك ظلماً وإساءة إليهم؟!

www.abulhasanalinadwi.org

٥ ـ إنَّ غزو العراق للكويت ، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب المسلمين ، وعدم إنصاته لنصيحتهم ، وتماديه في موقفه ، وتغاضيه عن جميع الأطر التي تترتب من مثل هذا الموقف الطائش ، قد أثارت شبهاتٍ ومخاوف بألا يسوقه طمعه أو طموحه ـ لا قدَّر الله ـ إلى التعرُّض للجزيرة العربية وعلى أخصها المملكة العربية السعودية التي تتولَّى خدمة الحرمين الشريفين ، وحفظها وصيانتها ، والاحتفاظ بقداستها ، والتي أنجزت تلك الخدمة التار يخية التي لا يوجد لها نظير في تاريخ القرون الماضية في تأمين الأمن والسَّلاَمة للأماكن المقدسة ، ورعاية ضيوف الرحمن ، وحسن وفادتهم ، وتوفير وسائل الراحة والأمان ، وخاصة توفير مياه الشرب ، والمواصلات ، فلا يطمع في المساس بها ، فتقع هذه المنطقة المحروسة عرضةً لمطامعه وهوسه للقيادة والحكم ، الذي لا يستبعد من أيِّ قائدٍ كان في نشوة الانتصار العسكري ، أو كانت وراءه قوة عسكرية قاهرة ، وقد أشار شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال في شعرٍ له إلى هذه الحقيقة التي يصدقها غزو العراق للكويت ، يقول :

«هذه رسالة التاريخ الخالدة : إن نشوة القوة تنذر بخطرٍ جسيم» .

كانت هذه المخاوف والشبهات التي لا تعتبر من المستحيل في تاريخ القوى الطامحة ، هي التي حملت حكومة المملكة العربية السعودية على الاستعانة بالولايات المتحدة وبريطانيا لتهيئة الوقاية العسكرية ، وكم تمنى المسلمون في العالم ، وخاصة المسلمين في القارة الهندية (الذين تجرَّعوا مرارة السلطة الأوربية) لو كانت إحدى الدول الإسلامية قادرةً على الدفاع بنفسها عن جزيرة العرب ، والحرمين الشريفين بمساعدة المملكة العربية السعودية عسكرياً في هذه الفرصة الغالية ، وتعتبر الدفاع عن هذا الأماكن المقدسة ، أكثر شرفاً وسعادة واعتزازاً من الدفاع عن بلدها ، وتعدُّه وسيلةً للقربىٰ عند الله ونيل رضاه .

٦ ـ ولو قيل في تبرير غزو العراق للكويت ، وطمعه في البلد العربي الآخر : إنَّ هذه البلدان العربية ، والإمارات الخليجية كانت تستدعي مثل

www.abulhasanalinadwi.org

هذه الإجراءات التأديبية منذ زمانٍ ، وإنه كانت نتيجة لحياة الترف والبذخ فيها ، وإن القرآن الكريم قد أشار إلى نتائجها السيئة ، وأنذر منها ، فإني أقول باعتذار ، وأرى نفسي مضطراً إليه : إنه لم يتجرأ أحدٌ في الشطر الأخير من القرن الميلادي الجاري (١٩٤٠م ـ ١٩٩٠م) ليس في بلاد العجم بل في العالم العربي كله في نقد الأحوال السائدة في هذه المناطق كما وفق الله تعالى لذلك هذا العبد الضعيف ، وقد صرح ذلك في كتاباته وكلماته التي ألقاها في مناسباتٍ عديدةٍ ، ويرى ذلك من واجبه الديني[١] .

أقول : إنَّ علاج هذه الأوضاع لم يكن طريقه الصحيح أن يغزو بلدٌ كبيرٌ بلداً صغيراً غزواً مباغتاً ، ويستولي عليه بلا هدفٍ معينٍ للدعوة والإصلاح وتصحيح الأمور ، وإنما كان علاجها الدعوى الإسلامية والحركة الهادفة للإصلاح ، والمجهود المخلص ، والجدِّيّ لإحياء الدين ، والجهد لإنشاء نظامٍ إسلاميٍّ صحيحٍ في البلاد ، ومنهجٍ إسلاميٍّ للحياة ، وإنشاء نظامٍ صالحٍ للتعليم والتربية ـ يقوم بصياغة ذهن الشباب والنشء الجديد ـ وإيجادُ مجتمعٍ إسلاميٍّ مثاليٍّ ، وبيئةٍ إسلاميةٍ صالحة . تجذب القلوب ، وتؤلف النفوسَ ، وتكون قدوةً للآخرين ، ومثالاً لهم يقتدى به .

ولكن مع الأسف الشديد أنَّ البلد الغازي ؛ العراق ـ كما تدلُّ عليه معلوماتي ودراستي ـ لا يتَّصف بأيِّ وصفٍ من هذه الأوصاف ، أو أيِّ سمةٍ من هذه السِّمات ، فلا مبرر له شرعياً ، ولا خلقياً لاقتحام مثل هذه المجازفة ، لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري ، وأقضَّ مضجعي إلى حدٍّ لا أذكر أنِّي تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي ؛ لأني ـ ذلك فضل الله وتقدير العزيز العليم ـ منذ أن تطورت في القدرة على الكتابة ، والخطاب والدراسة ، كرست ما كنت أملكه في قدرةٍ محدودةٍ للتعبير ، وما

(١) لتصديق هذا البيان يراجع كتب ورسائل العلامة الندوي : «العرب والإسلام» ، «إلى الإسلام من جديد» ، «المسلمون وقضية فلسطين» ، «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟» ، «اسمعوها مني صريحةً أيها العرب» «اسمعي يا مصر» ، «اسمعي يا سورية» ، «اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)» والكلمة الأخيرة التي ألقاها في جدة : «حاجة العالم إلى مجتمع إسلاميٍّ مثاليٍّ أفضل» .

www.abulhasanalinadwi.org

توفَّر لي من وقت ، على قضايا العالم العربي ، وكانت الأمة العربية والدول العربية مجال عملي وشغلي الشاغل وموضوع دراستي ، وخطابي ، وكانت معظم مؤلفاتي ، وكتاباتي باللغة العربية أصالةً ، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى ، وأستعير هنا ما قاله شاعر الإسلام محمد إقبال تحديثاً بالنعمة ، وتعبيراً عن حقيقة الحال : «إن كان مزماري عجمياً ، فإن ألحانه عربيةٌ ، ونغمي عربيٌّ».

ولصلتي بهذه المنطقة قلبياً وفكرياً ، كان من الطبيعي تألمي بهذه الحادثة المفجعة ، وما يترتب عنها من أخطار ، وتهديدات للدول العربية المجاورة ، وخاصة أرض الجزيرة العربية المحبوبة إلى النفس ، والأماكن المقدسة ، والحرمان الشريفان ، فقد عشت فيها قلبياً وذهنياً في الحقيقة والأحلام .

إنَّ ما يتعلق بالجزيرة العربية ، والحجاز المقدس ، والحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وحرمةً ـ وما يتعلق بمستقبلها ، وحرمتها ، وكرامتها ، وقداستها ، ووقايتها من المكروه بطرقٍ غيبيةٍ حقيقةٌ من حقائق التاريخ ، فإنَّها مهبط الوحي ، ومطلع الدين الأخير الخالد ، والملجأ الأخير له ، ويشهد القرآن ، ويشهد التاريخ أنَّها بقيت مصونةً ومأمونةً منذ حادثة الفيل وغزو جيش أبرهة ، وحتى بعد زوال الخلافة العثمانية التي كان سلطانها وخليفتها يعد ذلك من شرفه وسعادته أن يصف نفسه بخادم الحرمين الشريفين ، وبعد استيلاء الدول الأوربية الاستعمارية لمعظم البلدان العربية والإسلامية بقيت على كرامتها وحرمتها ، وظلَّت هذه الأماكن في عيون المسلمين أغلى وأثمن وأكرم من أوطانهم ، ولا يزال يرنُّ في أذني ما قاله العلامة محمد إقبال :

«فليتَّحد المسلمون في العالم لحماية الحرم من ساحل النيل إلى سفوح كاشغر» .

إني واثق برحمة الله تعالى التي أحاطت دائماً بهذا الدين الأخير ، والدين المقبول عند الله ، وهو الإسلام ، ويشهد به التاريخ . إنَّ هذه السحب

www.abulhasanalinadwi.org

المتراكمة ستنقشع ، وستزول المخاوف ، والشبهات ، وسيطلع من خلال هذه السُّحب الكثيفة ، والظلام الحالك ضوءٌ جديدٌ ، ينير الطريق ، ويبعث على الطمأنينة ، والسكينة ، ويعيد الشَّرف والعزَّة والكرامة ، والدعوة إلى الحقِّ وإنقاذ الإنسانية ، وسيقول ممثل هذه الإنسانية التائهة البائسة للدعاة الأولين إلى الإسلام والحاملين للقرآن ، وحراس الحرم :

لقد دمَّرت القوى الطاغية الإفرنجية هذا العالم ، فانهض يا عامر الحرم وابدأ بتعمير عالمٍ جديدٍ .

ولكن هذا الهدف لا يتحقَّق ، وهذا الحلم لا يتحوَّل إلى حقيقةٍ إلا بإحداث انقلابٍ في الحياة ، والسيرة ، والسُّلوك ، والأخلاق ، ليس في العالم العربي وحده ، بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وفي المجتمعات الإسلامية . إنَّه يتحقق بصياغة الحياة صياغةً إسلاميةً ، وسبكها في بوتقة التعاليم الإسلامية السمحة . إنَّه يطلب إعادة الإيمان بصدق الإسلام ، وكونه منهجاً أبديًاً للحياة والدعوة إليه ، واتِّباعه في الحياة ، وإيجاد حماسٍ وعاطفةٍ له في القلوب . إنَّه يحتاج إلى اتِّباع حياة وَعَد الله تعالى النصر عليها ، والرحمة ، والفضل ، وتجنب ما يسخط الله من أعمالٍ ، وعادات ، وسلوك ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا

هذه الكلمة ارتجلها العلامة الندوي في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامية نيابةً عن أعضاء المجلس بمناسبة حضور السيد ياسر عرفات زعيم حركة فتح لتحرير فلسطين ، يبدي فيها مشاعر المسلمين إزاء قضية فلسطين ، وخاصةً مسلمي الهند الّذين يتابعون دائماً القضايا الإسلامية حيثما كانت وأينما كانت ، ويستعدُّون لأيِّ تضحيةٍ في ذلك السبيل ، أكَّد فيها العلامة على جعل القضية قضيةً إسلاميّة ، واتِّباع المنهج الإسلاميِّ لحلها .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فلي الشرف العظيم أن أتكلَّم باسم هذا المجلس الموقر في مثل هذا الموقف الدقيق الحساس باسم المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، وباسم مئات الملايين في شبه القارة الهندية ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ ، فإنَّما يدلُّ على عالمية القضية الفلسطينية ، وإنسانيتها ، وإسلاميَّتها ، إنني في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا أريد أن أطيل ، وأن أشقَّ عليكم ، إنما أقتصر على دعاءٍ في هذه الساعة المباركة الميمونة ، وفي رحاب البيت ، أقتصر على دعاءٍ واحدٍ ، وأرجو الله أن يتقبل هذا الدعاء في هذه السَّاعة المباركة في ليلة الجمعة المباركة ، وهو أن يقيِّض الله لفلسطين ، بل للمسلمين جميعاً ، بل للإسلام صلاح الدين الأيوبي الثاني ، وإذا كانت حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن تختار من بين الأكراد كرديّاً يتوارى نسبه بعد ثلاث أو أربع وسائط في ظلمات الجاهلية ، وقد أسلم آباؤه قريباً ، فلم يكن عريقاً في الإسلام ، فكيف لا تقتضي حكمة الله ورحمته أن تختار عربياً ، ينحدر من أصولٍ عربيةٍ إسلاميةٍ عريقةٍ في القدم. كيف لا تقتضي حكمة الله أن تختار من بين العرب ومن بين المسلمين صلاح الدين الأيوبي الثاني. إنَّني أخاطب الأمَّة العربية بلسان خير الدين الزركلي الشاعر العربي ، إنَّ الحلَّ الوحيد لقضية فلسطين أن يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية ، وعلى مسرح الجهاد الإسلامي مرَّةً ثانية ، يقول الزركلي:

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا وجدِّدي حطين أو شبه حطِّينا

هاتي صلاح الدين ـ أيتها الأمة العربية المسلمة ـ ثانيةً فينا ، وجدِّدي حطين أو شبه حطينا.

ماذا كان سرّ انتصار صلاح الدين الأيوبي الانتصار الباهر الذي حيَّر

www.abulhasanalinadwi.org

العالم ، وغيّر مجرى التاريخ؟ إنما السّرُّ أنّه كان مسلماً مؤمناً محمدياً لا يعرف غير لغة القرآن ، ولا يعرف غير لغة الإيمان ، ولا يعرف غير لغة الحنان ، والمسلمون ما زالوا ولا يزالون: اكتبوا عني أيُّها الكتاب بقلمٍ عريض! وسجِّلوه أيُّها المستمعون الكرام ، إنَّ المسلمين إلى هذا الوقت وإن كانت الماديّة الرعناء ، والتربية العصرية قد فعلتا فعلتهما فهم لا يفهمون غير لغة القرآن. إنَّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، مهما تعددت لغاتهم ، ومهما فاق ذكاؤهم ، ومهما فاقت ألمعيتهم ، وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمَّد عليه الصلاة والسلام الذي آمنوا به كنبيٍّ خالدٍ ، وكرافعِ علم الجهاد المقدس ، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن مهما أقحمت عليهم اللغات ، ومهما فرضت عليهم الثقافات ، ومهما تنوَّعت في بلادهم الحضارات ، إنَّهم لا يفهمون ، ولن يفهموا ، وإلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها لا يفهمون إلا لغة القرآن ، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن أيها الإخوان لا بلغة السياسة! أثيروا فيهم الحنان ، والإيمان ، بكلمة الجهاد ، بكلمة الحنين إلى الشهادة ، إنَّهم لا يزالون يحسنون فهم هذه اللغة ، إنما كان سرُّ سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنَّه فهم هذا السرّ ، وفطن لهذه النكتة . إنَّ المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد ، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتاً من القيادات ، وضروباً وأنواعاً من الشعوب الإسلامية ، يستغرب الأوربيون الغربيون ، كيف استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يوحِّد كلمة العالم الإسلامي الممزَّق المتشتت ، المنقسم على نفسه ، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعدَّدت عناصره ، وتعدَّدت ثقافاته ، وتعدَّدت مذاهبه الفقهية ، كيف استطاع أن يوحِّد العالم الإسلاميَّ في هذه الفترة الحالكة العصيبة تحت راية محمَّد عليه الصلاة والسلام ، ذلك فقط ، لأنه رفع راية محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام ، لم يرفع راية القومية العربية ، اسمحوا لي أن أقول: أنا هندي الأصل ، أنا هندي الثقافة ، أنا رجل ولدت ، ونشأت في الهند ، ولكن اؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، واؤمن بالقرآن. إنَّ هنالك قلوباً تعدُّ بالملايين ، تهفو ، وتصبو إليكم ، وتستهين في سبيلِكم بأجسامها وحياتها وسلامتها ، إنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

مذبحةً كبيرةً وقعت في الهند في أحمد آباد في مدة قريبة ، وماذا كان السبب؟ ذلك لأجل التجمُّع الإسلامي الكبير الذي حصل تأييداً لقضية فلسطين ، إنما وقعت هذه المجزرة ، ووقع هذا الاضطراب الطائفي الهائل لأن المسلمين في أحمد آباد تجمَّعوا على بعد الدار ، وحيلولة البحار ، وعدم معرفتهم للغة العرب ، تجمَّعوا هذا التجمُّع الخالد التاريخيَّ ليدافعوا عن قضية فلسطين ، وذلك برهانٌ ساطعٌ على أنَّ هنالك قلوباً مخلصةً لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى . قلوبٌ مؤمنةٌ صادقةٌ ، لا تعرف لغة السياسة ، ولا تعرف اللباقة ، إنما تعرف الإيمان ، إنما تعرف الحنان ، إنما تعرف لغة القرآن ، فأنتم تملكون ثروةً لا تملكها أمريكا ، ولا تملكها روسيا ، تلك ثروة الإيمان ، تلك ثروة الإيمان الدافق ، تلك قوة الإيمان التي استطاعت أن تُظهر العالم الإسلامي كلَّه ، وتكوِّن حضارةً ، وتكوِّن دولةً من أكبر الدول والإمبراطوريات ، وهي تستطيع والحمد لله في هذا الوقت ، أقول هذا في رحاب البيت العتيق ، إنَّ هذه الثروة موجودةٌ. ولكنها تحتاج إلى إثارةٍ تحتاج إلى تحريكٍ ، تحريكٍ صادقٍ مؤمن.

وفيكم الأمل ، إنني أرجو الله أن يستخدمكم في هذه القضية ، وأن يجعل منكم صلاح الدين الأيوبي الآخر ، وليس الأخير ، والإسلام كمثل غيثٍ لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره كما جاء في الحديث النبوي الشريف ، وإني أقول لك أيها الأخ الكريم! أيها الزعيم! أنا أتبرك بتراب نعل الفرس في ساحة الجهاد ، وأفضله على العبير ، وعلى كثيرٍ من العطور [إنني أقول لكم: اذكروا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٤] ، هذه ميزتكم ، اليهود فقدوا كلَّ شيء ، وقطعوا كلَّ خيطٍ كان يربطهم الله ، وبالصحف السَّماوية ، أصبحوا شعباً ماديّاً بحتاً ، لا يُعنون إلا بسيطرتهم على العالم ، ليست أمامهم غايةٌ نبيلةٌ ولا غير نبيلة ، إنما هو شعب عنصريٌّ يؤمن بالعنصرية ، والله تبارك وتعالى لا ينظر إلى العنصري ، إنَّ الله لا ينظر إلى وجوهكم وأجسادكم ، إنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، فأنتم تملكون ولا تزالون تملكون هذه الثروة ، وترجون من الله

www.abulhasanalinadwi.org

ما لا يرجون ، استمدُّوا هذه القوة وأثيروا هذا الدفين الكامن. هذا الكنز الخفيّ المطمور الذي لا يزال في صدور زملائكم ، إنَّكم ـ كمسلمين مجاهدين ـ ترجون من الله ما لا يرجو اليهود ، فلماذا تهنون ، والله يقول: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هذه كلمة أخٍ لكم في الله ، أخٍ لكم في الدين ، لا يربطه بكم إلا الخيط الإيمانيُّ الربَّانيُّ النورانيُّ ، الذي انبثق من هذا البلد ، ولا يزال لامعاً ، ولا يزال بازغاً ، ولا يزال منيراً للقلوب والنفوس ، يبدِّد الظلمات ، ظلمات الجاهلية ، ظلمات المادية والظلمات الأمريكية ، والظلمات السوفييتية. إننَّا نحن المسلمين ـ والحمد لله ـ أغنى من كلِّ أمَّةٍ وأقوى من كلِّ أمَّةٍ ، وتاريخنا طاهرٌ ، وتاريخنا نزيهٌ ، لم تتلوث أيدينا بالدماء البريئة أبداً فكن على ثقة أيها الأخ الكريم! أيها المناضل ، إنَّ وراءك جيشاً عرمرماً من المسلمين ، من القلوب المؤمنة ، من الأرواح السعيدة ، من الذين يستهينون بحياتهم ، ويستهينون بكرامتهم في سبيل الله ، فهل جرَّبتموه؟ لا . والله إلى الآن لم يسنح لكم أن تجرِّبوهم ، لا تزال هذه الأرض بكراً ، ولا تزال هذه التجربة جديدةً ، جرِّب أيها الأخ هذه الأمة التي ملأت العالم كلَّه ، وهي وراءكم وأمامكم إن شاء الله ، تأخذون منها ما هو أغلى ، وأعلى ، وأثمن ، وأعزُّ من كلِّ سلاحٍ تأخذه من أيِّ قوةٍ كبيرةٍ.

هذه كلمتي ، وأنا قد أسهبت فيها واسترسلت أكثر مما قدرت ، وما زورت الكلام وما ادخرت ، ولكن هو الدافع الإيماني ، العرق العربيُّ الإسلاميُّ الذي ينبض ، ويثور ، والذي يملك على مشاعري ، الذي يدفعني إلى أن أقول هذه الكلمة المرتجلة ، وأتركها مدوِّيةً مجلجلةً في رحاب العالم كلِّه.

وتقبلوا منِّي أطيب التحيات ، وأصدق التمنِّيات.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة لن تعبد!

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي ، في الموسم الثقافي (١٧) الّذي دعي إليه ، لإلقاء محاضراتٍ في موضوع الدعوة الإسلامية ، بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، لدولة قطر ، في شهر ذي القعدة الموافق إبريل ١٩٩٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيد المرسلين ، خاتم النبيِّين محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧] سادتي وإخواني! أنا حائرٌ في أمري ، هل أقرأ المحاضرات التي أعدَّت ، لهذه المناسبة الكريمة ، أو أن ارتجل كلامي ارتجالاً ، وقد جربنا وشاهدنا مراراً ، أنَّ الكلمة المكتوبة إذا تُليت تلاوةً قد تشقُّ على المستمعين ، ويتبرَّمون من سماعها ، فأعتمد على الله ، فأقول ما يفتح الله به عليَّ في ضوء هذا المقال الذي سيطبع ، وسيوزع إن شاء الله تبارك وتعالى ، وتطلعون عليه.

إخواني! إننا جرَّبنا على المجتمع البشري وعلى الأفراد الإنسانية ، وعلى إخواننا وعلى أنفسنا أيضاً. إنَّنا إذا مررنا بلوحاتٍ ولافتاتٍ مرَّاتٍ كثيرةٍ ، وبطريقٍ عـاديٍّ يوميٍّ ، فإنَّـها لا تسترعي الانتباه ، وقد يمكن إذا سئل أحدهم: ما هي اللوحات التي تمرُّون بها كلَّ يومٍ؟ وما هي اللافتات؟ وما هي المنـازل المكتوب عليها أسماء الساكنين؟ لم يتيسر لهم الجواب ، لأنَّ الإنسان إذا مـرَّ بشيءٍ عاديٍّ ليست له عنايةٌ به ، أو ليست عنده حمايةٌ إليه ، فإنه يمرُّ به مرَّاً سريعاً ، وكذلك يحدث مع الدارسين للتاريخ الإسلاميِّ ، والتاريخ البشريِّ ، وتاريخ الحروب الطاحنة ، وتاريخ الثورات الكبيرة ، التي يرتبط بها مصير الأمم والشعوب ، فإنَّهم قد يمرُّون بجملةٍ ، أو بعبارةٍ أو بحادثةٍ تسترعي انتباههم ، وتستوقفهم وقفةً طويلةً ، وقفة شاسعة ، وقفة متأملةً ، كيف وقع هذا؟ وكيف تكلَّم فلانٌ بكذا؟ ذلك لأنَّه اعتاد قراءة الاطلاعات على الحوادث ، ودراسة التاريخ ، فيقرأ التاريخ كأنه شيءٌ عاديٌّ ، وهذا يقع كثيراً ، فأعتبر نفسي ، وأعتبركم من المطلعين على التاريخ ، ومن الدارسين المتتبِّعين لتاريخ الإسلام ، والسيرة النبوية ، فإني أنتهز هذه الفرصة الكريمة ، التي أتاحها الله لي ، وأكرمني بها ، أن أستلفت

www.abulhasanalinadwi.org

انتباهكم ونظركم إلى جملة تأتي في التاريخ ، والسيرة النبوية ، ولكنَّها لا تسترعي انتباهنا ، ولا تستوقفنا ، وكانت جديرةً أن تستوقفنا وقفة خاشعٍ ، حائرٍ متأمِّلٍ ، دارسٍ ، باحثٍ ، متسائلٍ ، كيف قال فلانٌ هذا الكلامَ؟ كيف وقع هذا؟ نقرأ في التاريخ والسيرة النَّبوية :

أنَّه لما زحفت قريش إلى المدينة ، وكان عدد المقاتلين كما رواه التاريخ بالإجماع أنَّهم كانوا ألف رجل شاكي السِّلاح ، مدججين به. وكان عدد الذين جاؤوا إليهم ليقاتلوهم لا يتجاوز عن ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، وكانت النسبة بعيدة ، والفجوة لم تكن عميقة ، فحسب ، بل كانت شاسعةً جداً ، وكان القياس يقتضي ، وكان العقل البديهيُّ ، وكانت تجارب العقل الإنساني يقضي ، بأنَّ المسلمين ـ لا قدَّر الله تعالى ، وأستغفر الله العظيم ـ سيُهزمون ، لأنه لا نسبة بين العددين في أيِّ حالٍ ، وهم ألف جنديٍّ بسلاحٍ تام ، وهؤلآء ثلاثمئة رجلٍ ، فكان العقل العام واستنتاج النتائج في ضوء الوقائع وفي ضوء العقل العام ، يُقرر ويقضي بأن المسلمين ـ لا قدر الله ـ سيُهزمون ، واستعرض الرسول ﷺ هذا الواقع ، وإنَّ استعراض الشيء شيءٌ معقول ، وشيءٌ إنسانيٌّ ، شيءٌ حسِّي لا بأس به ، استعرض الواقع ، فرأى أنَّ الفجوة بعيّدةٌ جدّاً ، وأنَّ التفاوت عظيمٌ جداً لا يقاس ، ألف رجل شاكي السِّلاح ، مدربين للحرب ، ومتحمسين جداً للقضاء على المستقبل الإسلاميِّ ، للقضاء على الدعوة الإسلاميَّة ، وهناك ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم بعض الصبيان ؛ الذين جاؤوا وحرصوا على المشاركة وأن يُسمح لهم بالخوض في المعركة والمشاركة في الحرب ، فلما رأى الرسول ﷺ هذا الواقع قام يصلِّي ، لأنَّه يعرف أنَّ النَّصر بيد الله تبارك وتعالى ، وأنَّ السِّلاح ليس هو القاضي المقرِّر للمصير ، والعدد ليس هو القاضي المقرِّر للمصير ، وليس التجريب الحربيُّ ، والحماس الحربيُّ هو القاضي المقرِّر للمصير ، والقاضي لإرادة الله تبارك وتعالى ، فبدأ يصلِّي ، ويخشع ، ويرقُّ قلبه ، وتدمع عيناه ، حتى رقَّ له قلب سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال : يا رسول الله! توكل على الله ، لا تفزع! وهو لم يستطع أن يحتمل هذا المنظر. فقال رسول الله ﷺ جملة هي تستلفت

www.abulhasanalinadwi.org

نظركم ، واتِّجاهكم ، وتأمُّلاتكم ، إنَّ هذه الجملة ـ وسامحوني إذا قلت ـ تفوق كثيراً من التأمُّل فيها ، والاعتبار بها ، ومعرفة قيمتها : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ، وفي روايةٍ «لن تعبد أبداً» وجاء في بعض الروايات وبعض السير : «لن تعبد على الأرض» فكيف يكون هذا الرسول العارف بالله تبارك وتعالى ، العارف بغنائه ، العارف بصمديته ، العارف بقدرته ، العارف بأنَّه أسمى من كلٍّ هذا ، ومهما انهزمت الطوائف ، وانتصرت الطوائف ، وقامت الدول ، أو زالت الدول ، وتقلبت الأحوال والأوضاع ، فإنَّ الله غنيٌّ عن كل ذلك .

كيف قال الرسول ﷺ هذا الكلام : «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»؟ يعني كان سبباً للنصر ، النصر المبين ، النصر الخارق للعادة ، المحيِّر للعقول والألباب ، والتجارب الحربية ، وتاريخ الحروب الساحقة ، لما قال الرسول ﷺ : إن تهلك هذه العصابة ، كان معنى ذلك نصر الله المسلمين . وكان معنى ذلك أنَّ قيمة المسلمين ، وأن شريطة بقاء المسلمين ، وأنَّ مبرر وجودهم ، رغم هذه المعارضات العنيفة ، وهذه المؤامرات الدقيقة ، وهذه العزائم القوية ، وهذه الأسلحة المدمرة ، هو أنهم يدعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى ، يعبدون الله وحده ، ويجاهدون ، ويجتهدون لتنفيذ أوامر الله تبارك وتعالى وشرائعه ، وهذه هي القيمة لهذه الأمَّة .

إخواني ! لا أدلَّ من هذا ، ولا أوضح من هذا الكلام ! وأنا أقول ذلك في ضوء دراساتي الواسعة المقارنة ، وتجاربي الحيوية ، والطبيعية ، والعقلية .

أولاً تستغرب كيف قال الرسول ﷺ هذه الكلمة الواضحة الصَّريحة التي لا يقولها الرسول بنفسه ، وهو العارف بالله تبارك وتعالى ، وأقول هذا وأنا في بيت الله ، وفي الجامع أمام الناس جميعاً : إنَّ رسول الله ﷺ أعرف الناس قاطبةً بغير استثناء ، أعرف بجلال الله ، وأعرف بغنائه ، وهو يعرف أنَّه غنيٌّ عن العالم كله ، وأنَّـه لا يحتاج إلى الأسباب ، لا يحتاج إلى من يدعو إليه ، ويدعو إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده ، هذا الرسول أعرف بني

www.abulhasanalinadwi.org

آدم بغناء الله تبارك وتعالى ، وبصمديته ، ولكنَّه قال ذلك بإلهام من الله تعالى ، أنا أومن بأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما جرت علَى لسانه هذه الكلمة ، الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول والألباب ، وغير المتوقع ، لم يكن أحد يتوقع أن يقول الرسول هذه الكلمة ، إنَّما كانت إلهاماً من الله تبارك وتعالى ، في معركة بدر على رغم قلَّة العدد ، ورغم ضعف أسلحتهم ، كان ذلك برهاناً على أن قيمة بناء هذه الأمَّة عزيزةً منصورةً ، غالبةً فائزةً ، منتصرةً وعاليةً ، وكلمتها عاليةٌ ليست إلا من عند الله تعالى ، ولولا هذه الأمَّة الإسلامية لما كان هناك أحد يدعو إلى عبادة الله وحده ، ويعبد الله وحده ، ويحاول تنفيذ شرائعه وأحكامه ، في الأرض ، ومعنى ذلك أنَّ قيمة وشريطة وجودهم . وأنا أقول بكل صراحة ، كما افتتحت حديثي هذا بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧] ، فشريطة بقاء هذه الأمة ، عزيزةً شريفةً مكرمةً ، منصورةً من الله غالبةً ، رغم المعارضات ، ورغم المؤامرات ، ورغم المناورات ، والمناوشات ، والحروب الطاحنة ، التي تقضي على الأمة ، وتستأصل أمَّةً بأصلها ، إنَّ شريطة بقاء هذه الأمة ، هي أن تعبد الله وحده أينما كانت ، وتنفِّذ أوامره ، وتطيعه ، وتنقاد له ، وتجاهد في تنفيذ شرائعه في العالم كلِّه ، فإذا فقدت هذه الأمَّة هذه الميِّزة ، أقول لكم بكلِّ صراحةٍ: الميزة التي كانت سبباً لانتصارها على العدو الغالب الكاسر ، شاكي السلاح المسلح ، شريطة بقاء هذه الأمة أن تظلَّ دائماً في كلِّ مكانٍ ، وفي كلِّ زمانٍ متمسكةً بعبادة الله تعالى ، وعقيدة توحيد الله ، أقول لكم بكل صراحة ، حتى في هذه البقعة الشريفة ، في الجزيرة العربية ، التي انبثق منها نور الإسلام ، وانتشر منها ضوء الإسلام ، ومنها نال الجيل البشري في كل عصرٍ ثروتين عظيمتين ، ونعمتين كبيرتين ، ثروة الإيمان ، ونعمة القرآن الكريم ، نعمة الإيمان بالرسول ﷺ ، وبشريعته وبكتابه تبارك وتعالى ، الكتاب المحفوظ ، الذي يقول الله فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فشريطة بقاء هذه الأمَّة ، أقول لكم بكل صراحةٍ: ليست الاقتباس المدني من هذا البلد ، وذاك البلد ، ولا مسايرة الموضات

www.abulhasanalinadwi.org

ومسايرة العادات والتقاليد ، ومسايرة الأحكام الحضارية ، ومسايرة قوانين الحضارة ، ليس شيء من ذلك هو الضامن لبقاء هذه الأمة ، الشيء الوحيد الضامن أن تظلَّ هذه الأمة متمسكةً بعقيدة التوحيد ، متمسكةً دائبةً على عبادة الله تبارك وتعالى وتنفيذ أحكامه وشرائعه في العالم ، كلَّما سنحت لها الفرص ، وكلَّما فتح الله لها ، ونصرها الله تعالى ، وكلُّ بقعةٍ تدخلها ، وتحكمها ، وكلُّ مجتمعٍ تسوده ، تنفذ فيه إرادة الله ، وتخضع لله تعالى ، وتواطىء رأسها أمامه ، تدعوه ، وتبتهل إليه ، وترجو منه ، تخافه ، وتنفِّذ شريعته ، وتطبِّق أحكامه على البشرية كلِّها ، وعلى المجتمع البشريِّ كلِّه ، فإذا فقدت هذه الأمة ـ لا قدَّر الله لها ـ هذه الشريطة ، فقد فقدت جدارتها للحياة ، واستحقاق هذا البناء .]

أقول لكم هذا وأنا أحمد الله تبارك وتعالى أنَّ الله سبحانه وتعالى هيَّأ لي هذه الفرصة الكريمة لإطلاق هذه الكلمة في أرضٍ ندين لها في الدين ، ندين لها في الإيمان ، وفي الإنسانية ، في الفضيلة ، وفي الحضارة ، وفي الثقافة ، وفي كلِّ شيءٍ ، وفي هذه اللغة التي تعلمناها منكم ، أنا نشأت في الهند ، ولكنَّ الإسلام هو الذي هيّأ الطريق للعثور على هذه اللغة العربية ، في بلادٍ تحارَب فيها اللغة الوطنية الأردية الفصيحة العامرة ، الزاخرة بالمكتبات ، والزاخرة بالآداب الرفيعة ، والشعر البليغ ، البلاد التي تحارَب فيها اللغات المحلية ، تغزو فيها هذه اللغة العربية ، وهنالك مدارس تدرِّس اللغة العربية ، وشباب يهبون حياتهم ، وكفاءتهم ، وذكاءهم ، وطاقاتهم كلَّها لدراسة اللغة العربية .

فأقول يا إخواني! إنَّ أكبر شيء يجب أن تحرص عليه الأمة الإسلامية ، وتعض عليه بالنواجذ ، وتتمسَّك به بكلِّ قوَّةٍ ، هو الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وتبليغ أحكامه ، وتنفيذ أوامره ، والدعوة إلى التوحيد الخالص ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ، فإذا فقدت هذه الأمة ـ لا قَدَّر الله لها ـ هذه الشريطة فقط ، امتلكت كلَّ شيءٍ ، امتلكت ما تمتلك أمريكا ، وما تمتلك بريطانيا ، إنكم تعرفون جميعاً: إذا قيل لواحد: إنك لو فعلت كذا ، لأعطيتك كذا ، فإذا فعل هو كان عليه أن يوفي له الوعد ، وإذا لم يحقق هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الشريطة فلا يستحق هذه الجائزة ، فجائزة هذه الأمة مشروطة ـ ولا أقول رضا الله ونصر الله تبارك وتعالى ـ مشروطة لبقاء هذه الأمة على هذه الصفة ، الصفة الفريدة ، المميَّزة ، والصفة المشخصة والصفة الكبرى التي تدعو هذه الأمة أن تعبد الله ، وتدعو إلى عبادته ، وليس معنى ذلك أن تكتفي بالصلاة ، وإن كانت الصلاة لها أكبر فضل ، ولكن لا يكفي أن تصلِّي هذه الأمة وأفرادها في المسجد فقط ، وتكتفي بها وهذا المسجد عامر بعبادة الله تبارك وتعالى ، بل من الواجب أن تدعو البشرية كلَّها إلى عبادة الله وحده ، وإلى عقيدة التوحيد ، وأذكر لكم على سبيل المثال كلاماً حضرني الآن ، وهو أن رستم قائد قواد الفرس الذي كان يلي يزدجرد ، ويلي إمبراطور إيران في المنزلة وفي المكانة وفي القوة ، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: أرسل إليَّ أحداً من جيشك ، نسأله ، ونستفسره ، ونستوضحه ، لماذا جاء العرب ، وقد مضت عليهم قرونٌ متطاولةٌ ، ولم يحلموا بغزو الفارس ، بل لم يروا في المنام أنهم يغزون الفرس ، فإنَّ العرب ما كانوا يحلمون بذلك ، وما كانوا يرون حتى في المنام أنهم سيغزون الفرس ، ورومة الكبرى ، ولكن حقق الله هذا ، وتحقَّق ، فقال: ما الذي جاء بكم؟ الجواب الذي أجاب به سيدنا ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قد فات كثيراً من المؤرخين والعالمين والمتأملين ، أو الخطباء والمؤلفين ، قيمة هذا الجواب ، وهذا جوابٌ لا يوجد له نظير ـ في ضوء دراساتي ـ وأنا تلميذٌ من تلاميذ التاريخ ، وهوايتي التاريخ ، فمثل هذا الجواب لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات وتاريخ الغزوات في وقتٍ واحد. قال له رستم: ما الذي جاء بكم؟ فكأنه ينتظر أن يقول له: إننا ضقنا ذرعاً بعيش الصحراء ، نركب الإبل ، نسكن ونعيش في أخبئة من أدم أو جلد ، أو هكذا ، وسئمنا هذا العيش ، وخرجنا لنأخذ نصيبنا من هذا الغنى ، ومن هذه الثروات ، ومن هذه الأساليب الباذخة الرفيعة للعيش ، ولكن الجواب الذي أجاب به ، كان المفاجىء التاريخي والعقلي كذلك ، قال: «الله ابتعثنا» كلُّ كلمةٍ تحتاج إلى التأمُّل ، لم يقل: خرجنا ، لا ، ولم يقل: الله بعثنا ، وهذا من بلاغته العربية وعقله المؤمن ، إنه ميّز بين بعثنا

www.abulhasanalinadwi.org

وابتعثنا ، قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء. لم يقل: لنخرج من نشاء ، كلُّ كلمة تدل على إيمانه ، وعمق تفكيره ، ودقَّة فكره ، وكان كل حديثه مرتجلاً ، ولم يكن نتيجة فكره ، وأنا أعتقد أنَّه لم يتوقع أنَّه لما وجه إليه هذا السؤال فإنه سيرد عليه: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده» وأغرب من كلِّ هذا: «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» والله لو قال: «وأنا في يد الله» لو قال من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، لما استغربنا؟ إنَّ الآخرة في الحقيقة أوسع ، وكلُّ مؤمنٍ يؤمن بأن الآخرة أوسع وأرفع من هذه الدنيا ، ولكن كيف يقول لرستم ، وهو رجل ما يدري هل كان قد تغذّى أم لا ، ما ندري هل كان يملك ما كان يسدُّ الرَّمق ، إنه يقول: من ضيق الدنيا ، يا رستم! يا قائد قواد الفرس! ما جئنا لأجلنا ، وما جئنا في مصلحتنا ، ما جئنا في قضاء وطرنا ، ما ساقنا إليكم أيها الفرس! الطمع في الملك أو الطمع في الثروة ، إنما ساقنا إليكم الترحُّم عليكم ، والإشفاق عليكم ، العطف عليكم ، كيف تعيشون؟ «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» أنتم في ضيق ، أنتم كمثل البلبل في قارورة من زجاجٍ ، قد وضع فيها الماء ، أنتم تعيشون كبلبل ، تحتاجون في كل شيء إلى كل شيءٍ كما رواه المؤرخون الأمناء ، منهم أستاذٌ كبيرٌ ، أستاذٌ في دنمارك ، وله كتابٌ خاصٌّ بالساسانيين يقول: إن يزدجرد ، خرج لما رأى أنه لا محلَّ له في العاصمة الفارسية العربية ، رأى أنه لابد أن يلجأ إلى التهرب ، فأخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف مربٍّ للصقور ، فقال: يا ويلتا كيف أعيش بهذه القلة القليلة! ما أشقاني! ما أتعبني! أخرج بهذه القلة القليلة ، كيف أعيش؟ فنحن خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها يقول هذا ربعي بن عامر. والله قد فات كثيراً من المؤرخين ، والمتبصّرين ، والمعلقين ، والمعلمين ، والمحلِّلين للحوادث التاريخية أن يفكروا فيها ، ويعطوا هذه الكلمة حقَّها من التأمل ، كيف يقول ربعي بن عامر وهو رجلٌ يسكن في خيمةٍ: قد خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا ، قد أخرجنا الإشفاق عليكم ، والعطف عليكم ، والرحمة بكم ، قد خرجنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان

www.abulhasanalinadwi.org

إلى عدل الإسلام ، هذه الميزة لهذه الأمة ، يا أمة محمد ﷺ ويا سكان الجزيرة العربية ، والبلاد العربية ، والناطقين باللغة العربية ، والفاهمين للقرآن بالطريق المباشر! تفكَّروا في هذا ، ووزانوا هذه الأمة أن ترثي لأهل أمريكا ، وأن ترثي لأهل بريطانيا ، وأن ترثي للدول الكبيرة ، كلُّها تعيش في ضيق ، كلُّها عبيد الموضات ، والأحكام التي هم وضعوها ، وهم عبيد أنفسهم ، وعبيد حضارتهم ، لا يستطيع أحدٌ أن يخرج في غير اللباس الذي يلبسه الناس ، ولا يستطيع أن ينصف الناس ، وهو يعيش في مكان متخيَّلٍ مصطنع ، صناعي سام ، كلهم عبيد مدنيتهم ، وعبيد عاداتهم ، وعبيد موضاتهم ، وعبيد قوانينهم ، فكان المتوقع ، والمرجوُّ ، والمعقول أن تشفق هذه الأمة وأن ترقَّ قلوبها لهؤلآء ، بدل أن تحسد ، وأن تغبط: يا ليتنا نعيش كما يعيش الأمريكيون! يملكون الثروات العظيمة ، ويملكون الملايين ، يا ليتنا عشنا كما يعيش البريطانيون والهندوس! لا ، أبداً ، كان الواجب أن نترحم ، وأن ترقّ قلوبنا لما هم في ضيق ، لما هم عبيدٌ لموضاتهم وقوانينهم وأنفسهم.

أيها الإخوان! إن شريطة بقائنا ، وعزِّنا ، وشرفنا ، وشريطة نصر الله لنا أن نعيد خصائصنا وميزاتنا التي رفعنا الله بها على الأمم ، وأما أن نقلدهم في موضاتهم وثرواتهم ، ونحسدهم على سلطتهم مثلاً ، فهذا عدم تقديرٍ لنعمة الله تبارك وتعالى ، فلابدَّ أن نذكر دائماً أنَّ الله تعالى قد نصرنا في بدرٍ ، لأنه صدق قوله: «إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» فصدّق الله تبارك وتعالى هذا ، فيجب أن نحافظ على هذه الشريطة ، وأن نقوم بواجب الدعوة ، لا نحسدهم ، ولا نغبطهم ، بل ترقُّ قلوبنا لهم ، وأن نخرج إلى هذه البلاد دعاةً ، هادين ، موجهين ، مرشدين ، نعم! ونضرب لهم مثلاً في البساطة ، ومثلاً في صلابة الإيمان ، وندعوهم إلى أن يجلّونا ويعتمدوا علينا ، ويقتبسوا منَّا ، ويستنيروا منا نور الحياة ، ونور الفطرة السليمة ، ونور خشية الله تبارك وتعالى ، ونور الاعتماد على الله ، ونور المساواة البشرية الحقيقية ، هذا الذي نخافه الآن ، إنَّ المسلمين قد نسوا أو تناسوا هذه الشريطة ، إنَّ الله قد نصرهم ، لأنَّه صدق قول الرسول ـ عليه الصلاة

www.abulhasanalinadwi.org

والسلام ـ «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» فيجب أن نعود إلى هذه الميزة ، وإلى هذا الفارق الأصيل الجذري ، بين الأمم ، وأن نكون دعاةً إلى الله ، وإلى التوحيد ، ودعاة إلى المساواة البشرية ، وإلى العدل الإنسانيِّ ، ودعاةً إلى الخضوع لله ، بدل أن نعتبر تقليد الحضارة الغربية ، والشعوب الغربية الفوز الأكبر ، فيجب أن نكون معتزين بعقيدتنا ، وبحضارتنا ، ومعتزين بتعاليم النبوة ، وواثقين بنصر الله ، وهنا تتغير خريطة العالم ، وهي لا تتغير بالمؤامرات التي تُحاك هناك ، والمخططات التي توضع هناك ، تتغير خريطة العالم بعودة هذه الأمة إلى منهجها ومبدئها ، وإلى غايتها ، وإلى ميزتها ، وإلى الكرامة التي أكرمها الله بها .

هذه كلمتي القصيرة ، إنما لخصت كلمتي ، وسيطبع هذا المقال إن شاء الله تعالى ، وتطلعون عليه ، ولكني استحييت وخفت أن أدخل السآمة عليكم إذا قرأت هذا المقال الطويل ، ولم يكن طويلاً ، بل قصيراً ، وأرجو من الله تبارك وتعالى أن أكون قد برئت من ذمتي قليلاً ، وقد قمت بواجب الشكر والامتنان لكم ، لأنني قد تعلمت كلَّ ذلك منكم ، تعلَّمت من هذه الجزيرة العربية ، وتعلمت من المسلمين ومن الأمة الإسلامية الأولى ، ومن كتبها وعلومها ، ومن الذين نشروا الإسلام في كل العالم ، فأرجو منكم أن تتولوا منصب القيادة ، وأن تأخذوا مكانكم في مجال هذا العصر ، وفي هذه الساحة ، تأخذوا مكانكم اللائق بكم ، المشرف لكم ، والمنقذ للبشرية كذلك ، هذه كلمتي القصيرة ، وأشكركم على حسن الاستماع ، وحسن الانتفاع كذلك ، والأمر بيد الله تعالى .

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمدٍ وعلى آله وصحبه وبارك وسلَّم .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

«ألا تفعلـوه تـكـن فـتنـةٌ فـي الأرض وفسـادٌ كـبيـر»

هذه المحاضرة ارتجلها العلامة الندوي ، في الأمسية الّتي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية يوم ٢٤/ من شهر أغسطس ١٩٩٨ م الموافق ٢/ جمادى الأولى ١٤١٩ هـ بقاعة جامع الشهيد الملك عبد الله بن الحسين في عمان بالمملكة الأردنية الهاشمية ، وذلك بمتابعة زيارة سماحته لها لحضور اجتماع مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية المنعقد بين الفترة ٢٠/ ٢٥/ أغسطس ١٩٩٨ م.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، خاتم النبيين ، محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

إخواني وأخواتي ، سادتي وسيداتي!

إنني كلَّما مرَّت بي هذه الآيات القرآنية ، وقرأتُها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقفت حائراً مشدوهاً أمام هذه الآية القرآنية ، بصفتي ـ والحمد لله تبارك وتعالى ـ أؤمن بالقرآن بفصِّه ونصّه ، عقائد ، وأحكاماً ، وأخباراً ، وكدارسٍ للتاريخ ، وباحثٍ في التاريخ كذلك ، خصوصاً تاريخ القرن السادس المسيحي الذي كانت فيه البعثة المحمدية ، وبصلتي بالسيرة النبوية دراسةً واسعةً متنوعةً في اللغات.

إنني أحار عند قراءة هذه الآية ، إنَّ الجاهلية قد كانت مخيمةً على العالم كلِّه ، ضاربةً أطنابها على السُّهول والجبال ، وعلى القفاز والبراري ، على البلاد المتمدنة ، وعلى البلاد المتأخرة ، كما اتفق عليه المؤرخون ، قد كانت الجاهلية هي الديانة الوحيدة التي تؤمن بها ، وتعمل بها شعوب العالم كلها ، فكان الجزء المتمدِّن المعمور الراقي ينقسم في جزءين ، الجزء الشمالي الغربي ، والجزء الشرقي ، كانا خاضعين لإمبراطوريتين جاهليتين ، إن لم أقل وثنيتين ، لكن بتحرِّي الصِّدق والدقَّة ، أقول: إمبراطوريتين جاهليتين ، الجزء الكبير والمتمدن المعمور كان خاضعاً للإمبراطورية الرومية التي كانت تسمى بالإمبراطورية المسيحية ، والجزء الثاني: وهو الجزء الشرقي ، كان خاضعاً للإمبراطورية الفارسية الإيرانية المجوسية الساسانية ، وكان باقي أجزاء العالم المعمورة المتمدنة الراقية وغير الراقية كلُّها كانت خاضعةً لوثنيَّةٍ فاحشةٍ ، لوثنيَّةٍ سافرةٍ ، ووثنيَّةٍ عاريةٍ ، حتى الهند التي كانت تملك فلسفاتٍ عميقةً ، وكانت تملك مدارس فكريةً

www.abulhasanalinadwi.org

كبيرةً في بعض الأزمان ، كانت خاضعةً للوثنية الفاحشة ، يقول أستاذ كبير ، صاحب اختصاص في التاريخ بروفيسور في جامعة دلهي ، يقول: «قد وصل عدد المعبودات والمعبودين في الهند إلى مئة مليون في بعض الأحيان» ، والبوذية أخفقت في إصلاح الحال وفي توجيه البلاد ـ كما يدَّعي مؤرخوها وكما يدَّعي دعاتها ـ إلى التوحيد ، قد أخفقت تماماً ، كما اعترف به المؤرخون في الهند ، كذلك كانت الدولة المجوسية الإيرانية ، وكانت فارس كذلك ، وكانت كلُّ أصقاع العالم ، وكلُّ قطع العالم ، وكلُّ النواحي ، كلُّها خاضعةً للوثنية ، وخاضعةً للأوهام والخرافات ، وخاضعةً للاضطهاد ، وخاضعةً للخرافات ، ولكن كانوا هم الذين يملؤون العالم ، وكان عددهم لا يُحصى ، لا يمكن إحصاؤه ، ولا أعرف مؤرخاً أحصى عدد الموجودين في ذلك الزمان قبل البعثة المحمدية ، أو عند البعثة المحمدية في العالم ، ما كان هناك إحصاءٌ عالميٌّ ، إحصاءٌ دقيقٌ عالميٌّ ، ففي جانبٍ أوسع عالمٍ ، وأكثر ، وأملك للطاقات البشرية ، وأملك للقوى الحربية ، وأملك للمكتبات العلميَّة ، وأملك لكلِّ القيم ، ولكلِّ الخصائص التي تتَّصف بها الأمم ، كانوا في جانبٍ قد اتخذوا جبهةً ، جبهةً وثنيَّةً ، جبهةً للدعوة الوثنية ، والإغراء للوثنية ، والخضوع للخرافات ، والخضوع للأساطير ، والخضوع للاستبداد ، وقهر الملوك ، هكذا كان وضع العالم في ذلك الحين.

وكان مقابل ذلك المسلمون ، المسلمون وهم حفنةٌ بشريَّةٌ ، وهذا تعبير غير مُبالغ فيه ، حفنةٌ بشريَّةٌ ، تملأ الكف ، يعني إذا قيسوا في العدد والعُدد ، وفي القوة ، وفي الطاقات والآلات ، إذا قيسوا بهذا العالم المتمدِّن المعمور ، المالك لأزمَّة الأمور ، والموجه للعالم كلِّه توجيهاً كما يشاء ، إذا قوبل بينهم وبين هذه الحفنة البشرية كانوا في الحقيقة ملء الكف ، فقد صحَّ في الأحاديث الصحيحة ، وقد جاء في صحيح البخاري: أنَّه كان هنالك ثلاثة إحصاءات ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإحصاء المسلمين في المدينة المنورة ، ما عدد المسلمين المهاجرين ، والذين آمنوا بالإسلام في المدينة المنورة ، فكان الإحصاء الأخير لا يتجاوز ألفاً

www.abulhasanalinadwi.org

وخمسمئة ، هذا الذي جاء في صحيح البخاري ، وكان ذلك عند غزوة أحد ، وبعضهم يقول عند حفر الخندق ، كانوا لا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، وهؤلاء ألف وخمسمئة ، يخاطبون في القرآن الكريم بقوله تعالى : [﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال: ٧٣] أي: إن لم تكونوا جبهةً ، إن لم تكوِّنوا معسكراً ، إن لم تكوّنوا اتجاهاً ، اتجاهاً سافراً معلناً به ، اتجاهاً واضحاً للدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وللدعوة إلى التوحيد الخالص ، وللدعوة إلى احترام الإنسانية ، وللدعوة إلى الإخاء الإنسانيِّ ، والأخوة البشرية ، والدعوة إلى الإنصاف ، والدعوة إلى المساواة ، والدعوة إلى خشية الله تبارك وتعالى ، والعطف على الإنسانية ، إلا تفعلوه ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، كيف يفهم الإنسان بسهولة إذا لم يكن عنده إيمانٌ عميقٌ بالقرآن ، ودراسةٌ دقيقةٌ عميقةٌ وتحرٍّ للصواب ، ولواقع العالم البشري .]

فقد كان هناك ملايين وملايين من البشر ، من الناس ، بعضهم مثقَّف ، عددٌ كبيرٌ منهم مثقف ، وعددٌ كذلك غير مثقف ، كلُّهم يخضعون للوثنيَّة خضوعاً فاحشاً سافراً دائماً ، وعندهم خرافاتٌ وأساطير ، ومفروضاتٌ ، وعاداتٌ ، وتقاليد جاهليةٍ فاحشةٍ ، ظالمةٍ ، جائرةٍ للإنسانية ، والشرف الإنسانيِّ ، وهناك حفنةٌ من البشر ، لا يتخطَّى عددهم ، ولا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، فكيف غير الله تبارك وتعالى ؟ أقول لكم بصراحة : كيف غير الله تبارك وتعالى ؟ كان يستطيع أن يقول هذا ، هناك ملايين من البشر ، وملايين وملايين من البشر ، يملكون كلَّ طاقةٍ ، ويملكون كلَّ وسيلةٍ ، ويملكون كلَّ عدَّةٍ ، ويملكون كلَّ سلاحٍ ، ويملكون كلَّ تصرفٍ في البشرية ، وهناك حفنة بشرية ، قد تجوع ، يجوع مئات منها ، ولا يستطيع كثير منهم أن يستر جسمه ستراً كافياً وافياً ، أو يقوت عياله ، هناك حفنةٌ بشريةٌ قليلة العدد ، قليلة العَتاد ، وقليلة الأسلحة ، وقليلة القوى والطاقات ، وهناك بحرٌ خضمٌّ ، بحرٌ لا يُعرف قعره ، ولا عمقه ، بحرٌ مستفيضٌ فائضٌ على الصعيد كلِّه ، على الأرض كلها ، قاراتٌ ، وأبالاتٌ ، ومدنٌ ، وقرى ، وكذلك محلاتٌ

www.abulhasanalinadwi.org

صغيرةٌ وكبيرةٌ ، وحكوماتٌ ، وفقرٌ مدقعٌ ، وعريٌ ، وفاقة .

وهكذا كان العالم موزعاً في ذلك الحين بين هذه الأكثرية الساحقة ، الغالبة ، الماحقة ، المعاندة ، المتشبثة ، الملحة ، المصرَّة على الوثنية ، وهناك كان حفنةٌ بشريَّة لا تستطيع أن تعول نفسها ، وتعلمون جميعاً أنَّ كلَّ مهمةٍ كبيرةٍ تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها ، والذي يقبل مسؤوليتها هو أن يكون صاحب كفاف ، ويكون صاحب كفاية وقوَّة ، فهنا كان من جهة العدد ، ومن جهة العُدد ، ومن جهة الآلات ، ومن جهة الطاقات ، هذه حفنةٌ بشريَّةٌ قليلةٌ ، وهذا العالم الممتدُّ ، عالمٌ كالبحر مائجٌ هائجٌ ، فكيف غير الله تبارك وتعالى يستطيع أن يقول : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣]؟! .

هذا لأنَّ العبرة بالقيمة لا بالقامة ، إنَّ المسلمين كانوا صغاراً في القامة ، ولكنَّهم كانوا كباراً في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، يدلُّ عليه التاريخ ويثبته التاريخ من أوّله إلى آخره ، إنَّ القيمة دائماً تغلبت على القامة ، وهزمت القامة ، لولا هذا لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاءٌ ، ولا كيانٌ أبداً ، لولا أنَّ القيمة إنَّما غلبت واستطاعت أن تتغلَّب ، واستطاعت أن تهزم القامة ، مهما كانت كبيرةً وشامخةً ، لما بقيت هناك عقيدةٌ صحيحةٌ ، ولا دينٌ صحيحٌ ، ولا دعوةٌ صحيحةٌ ، ولا كرامةٌ بشريَّةٌ .

إخواني! ينبغي أن نتأمَّل ، وأن نؤمِّل ، وأن نفكر في هذه الآية ، في هذه المقارنة ، لإلقاء التبعة ، تبعة الدعوة ، وتبعة الإنسانيَّة ، والمسؤولية الإنسانية على هذا العدد القليل ، وعلى هذه الحفنة البشرية .

ولقد أثبت التاريخ أنَّ هذه الحفنة البشرية لمَّا قامت ، واضطلعت بمسؤوليتها ، وقبلت مسؤوليتها ، وقامت بمسؤوليتها ، غلبت على هذا البحر الخضم الممتدِّ على صعيد الأرض كلها ، تغلَّبت عليه ، وهزمت هذا العدد والعدد والعتاد ، وهذه المملكات الشامخة ، وهذه الطاقات الباذخة كلِّها ، تغلبت هذه الفئة القليلة ، هذه القلَّة على هذه الكثرة ، في هذه الآية في الحقيقة تبصيرٌ لنا ، وإثارةٌ لعواطفنا ، وإثارةٌ لإيماننا ، وإثارةٌ لعزيمتنا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وإثارةٌ لنخوتنا ، وإثارةٌ لإبائنا وعزتنا أن نقوم أمام هذه الكثرة الشامخة ، هذه الكثرة الفاشية التي نراها اليوم ، ونقوم أمامها بقيمتنا لا بقامتنا ، بدعوتنا لا بما عندنا من إمكانيات ، ومن فرص ، ومن عتاد ، نقوم بالدعوة بإخلاص ، بقوة الإخلاص ، وبقوة الإيمان ، نقوم بالميِّزة الخلقيَّة ، نقوم بالإخلاص التامِّ ، لا نكون خاضعين للعَدَد ، والعُدد ، نكون خاضعين لله تبارك وتعالى ، ولإرادته ، ولنصرته ، فالله سبحانه وتعالى قد وعد بالنَّصر ، ووعد المسلمين ، ووعد القائمين بالحقِّ ، وبالدعوة الصحيحة ، وبالنَّصر المبين ، والتاريخ يشهد بذلك من أوله إلى آخره ، بأنَّ فئاتٍ قليلة العدد تغلبت على فئاتٍ كثيرةٍ ، ولا أقول فئاتٍ ، بل تغلبت على بحارٍ من العدد ، والعُدد ، بقوة الإيمان وبالإخلاص في الدعوة ، وبالرِّثاء للإنسانية ، وبالتضحية والزهد ، هذه هي الأسلحة التي تستطيع بها ، هذه الأمَّة أن تتغلب بها على العالم الماديِّ الخاضع للشهوات ، وقد حققت الدول الغربية في إنجاز هذه المهمة نجاحاً لا يوجد له مثيل ، فإنَّ المثقفين في البلدان الإسلامية الذين يتولون زمام الأمور ، ويحملون قدراً من التعبير في اللغات الأجنبية ، ويحملون الشهادات العلمية ، ويعرفون النظم السياسية في العالم ، تأثروا بهذه الدعاية تأثراً عميقاً ، واطمأنوا بها ، وأيقنوا أنه لا حاجة إلى تغييرٍ ، وأنَّه يكفينا أن نصلِّي ونصوم ، ونعمل بأحكام الطلاق والزواج ، ونكون أحراراً فيها ، وأن نعيش في أمنٍ وسلام ، وذلك ما نبغيه ، فإذا قيل لهم : إنَّ الإنسانية تحتضر اليوم بابتعادها عن المُثُل الخلقية ، وإنّ المسلمين هم أحقّ بالقيادة لإنقاذ البشرية ، فإنَّ القوى التي تسلمت القيادة ولا تستطيع أن تقود البشرية إلى السعادة ، والنجاح لأنها لا تؤمن بالله ، ولا تخشى الله ، ولا تحمل الاحترام للإنسانية ، فلا تقبل هذه النفوس هذا التفكير ، لقد قيل للمسلمين : إنَّ المسلمين ليسوا بعامل مؤثر ، وإنما هم ممثلون ، إنهم لا يستطيعون أن يكتشفوا أو يبادروا إلى شيء ، أن يصطنعوا شيئاً ، وإنما هم مسيَّرون ، إذا طلب منهم شيءٌ عملوا به ، إنهم يستطيعون أن يحرسوا الحدود ، أو يحافظوا على شيء ، أما محاسبة التاريخ وانتقاد ما يحدث في العالم وما يجري فيه من تيارات ،

www.abulhasanalinadwi.org

وصراعات، وميول، أو المقاومة للمخططات المعادية للإنسانية، فلا تقبلها أذهان المسلمين المثقفين والطبقة العليا.

عندما صدر كتابي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي تناولت فيه ما لحق بالعالم من خسارةٍ بتخلي المسلمين عن القيادة، وما خسره العالم الإنسانيُّ بتراجع المسلمين، وانسحابهم عن دور القيادة العالمية، وما كان كسبه العالم بقيادة المسلمين في عهد قيادتهم، وما أتحف المسلمون العالم به من حضارةٍ، ومثلٍ، وقدمت دراسةً علميةً وأثبتُّ ذلك في كتابي، فكان ذلك مفاجأة عند كثيرٍ من المثقفين والدارسين في المسلمين، واعتبروا ذلك اكتشاف فإنَّ المعالجين للتاريخ الإسلامي لم يعالجوا الموضوع من هذه الزاوية ولم يلقوا الضوء على ما كان العالم يعيش فيه قبل الإسلام، وما هو الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، وكيف غيَّر الإسلام مجرى الحياة.

أتيحت لي فرصة زيارة مصر في عام ١٩٥١ م، وسبق أن صدر هذا الكتاب، وكان موضوع البحث والنقاش في الأوساط العلمية وخاصةً عنوان الكتاب، وخلال زيارتي لمصر، كتب أحد الكتاب البارزين في صحيفة واسعة الانتشار، أنَّ كتاباً صدر بعنوان: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأعرب الكاتب عن استعجابه بهذا العنوان، وقال: كيف يسبب انحطاط المسلمين خسارة للعالم؟ وهل كان للمسلمين وزنٌ يغيِّر مصير العالم، إنَّ هذا تعبيرٌ غير مفهوم لا تستسيغه أذهانهم، كيف يكون لانحطاط المسلمين وقعٌ على مسير العالم!؟

وحار الكتاب والمعلقون في الصحف في تأويل هذا التعبير وفهمه، وكان ذلك بسبب الدعاية والتلقين من علماء الغرب ومفكريه، بأنَّ المسلمين هم مجرد ممثلين، وقد رسخ هذا التفكير الخاطىء في أذهان العقلاء وقبله المثقفون، وأيقنوا أنَّ المسلمين أتباعٌ مسيَّرون، وأنَّهم لا يحملون كفاءةً ولا صلاحيةً لفرض إرادتهم، وإبداء رأيهم، وأن يؤثروا

www.abulhasanalinadwi.org

على اتجاه العالم ، وقد أدرك هذه المؤامرة وأبعادها العلامة إقبال ، وفضح هذه المؤامرة في قصيدةٍ له يقول فيها :

إنَّ الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجللوا خطبها ، وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم «الجمهورية» وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرها ، فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذا رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، ألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تحصر في وجود شخصٍ ترتكز فيه الملوكيةِ ، وفردٍ يستبد بالسلطان ، وإلا فأنا أخاف على الإنسانية كلِّها ، على البشرية كلِّها ، وحتى على أجزاء العالم الراقية المتمدنة القائدة الرائدة للعالم ، فإذا لم تكن هنالك دعوةٌ فإنه لا يؤمن على البشرية التائهة الضالة الظالمة ، لا يؤمن لها بالبقاء لمدةٍ أطول .

فهذا في صالح الإنسانية وفي صالح المسلمين ، وفي صالح العرب أولاً ، وللعرب حقٌّ أكبر ، وحقٌّ رئيسيٌّ في توجيه هذه الدعوة ، وفي الاضطلاع بهذه الدعوة بصدقٍ وإخلاصٍ ، وشجاعةٍ ، وجراءةٍ ، وصراحةٍ. أقول لكم هذا ، ولا أريد أن أطيل عليكم ، فأتلو الآية الكريمة مرَّةً ثانيةً لتتأملوا فيها : إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] ألا تفعلوه ، أيها المسلمون! أيتها الحفنة البشرية الضئيلة العدد! إذا لم تقوموا بالاضطلاع بهذه الدعوة الإنسانية الكريمة الواسعة المنقذة للبشرية ، إن لم تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ، هذا ما نشاهده بعيوننا بأمِّ عيوننا ، نشاهد كيف هذه البلاد التي يضرب بها المثل في المدنية وفي الحضارة وفي الثقافة ، والبلاد التي توجه العالم العام توجيهاً فكريًّاً ، وثقافيًّاً ، ومدنيًّاً ، وحضاريًّاً ، وسياسيًّاً ، هذه كلها في خطر ، إذا فهم قادتها ، ومنهم من

www.abulhasanalinadwi.org

وصراعات ، وميول ، أو المقاومة للمخططات المعادية للإنسانية ، فلا تقبلها أذهان المسلمين المثقفين والطبقة العليا .

عندما صدر كتابي : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي تناولت فيه ما لحق بالعالم من خسارةٍ بتخلي المسلمين عن القيادة ، وما خسره العالم الإنسانيُّ بتراجع المسلمين ، وانسحابهم عن دور القيادة العالمية ، وما كان كسبه العالم بقيادة المسلمين في عهد قيادتهم ، وما أتحف المسلمون العالم به من حضارةٍ ، ومثلٍ ، وقدمت دراسةً علميةً وأثبتُّ ذلك في كتابي ، فكان ذلك مفاجأة عند كثيرٍ من المثقفين والدارسين في المسلمين ، واعتبروا ذلك اكتشاف فإنَّ المعالجين للتاريخ الإسلامي لم يعالجوا الموضوع من هذه الزاوية ولم يلقوا الضوء على ما كان العالم يعيش فيه قبل الإسلام ، وما هو الانقلاب الذي أحدثه الإسلام ، وكيف غيَّر الإسلام مجرى الحياة .

أتيحت لي فرصة زيارة مصر في عام ١٩٥١ م ، وسبق أن صدر هذا الكتاب ، وكان موضوع البحث والنقاش في الأوساط العلمية وخاصةً عنوان الكتاب ، وخلال زيارتي لمصر ، كتب أحد الكتاب البارزين في صحيفة واسعة الانتشار ، أنَّ كتاباً صدر بعنوان : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأعرب الكاتب عن استعجابه بهذا العنوان ، وقال : كيف يسبب انحطاط المسلمين خسارة للعالم؟ وهل كان للمسلمين وزنٌ يغيِّر مصير العالم ، إنَّ هذا تعبيرٌ غير مفهوم لا تستسيغه أذهانهم ، كيف يكون لانحطاط المسلمين وقعٌ على مسير العالم!؟

وحار الكتاب والمعلقون في الصحف في تأويل هذا التعبير وفهمه ، وكان ذلك بسبب الدعاية والتلقين من علماء الغرب ومفكريه ، بأنَّ المسلمين هم مجرد ممثلين ، وقد رسخ هذا التفكير الخاطىء في أذهان العقلاء وقبله المثقفون ، وأيقنوا أنَّ المسلمين أتباعٌ مسيَّرون ، وأنَّهم لا يحملون كفاءةً ولا صلاحيةً لفرض إرادتهم ، وإبداء رأيهم ، وأن يؤثروا

www.abulhasanalinadwi.org

وإثارةٌ لنخوتنا ، وإثارةٌ لإبائنا وعزتنا أن نقوم أمام هذه الكثرة الشامخة ، هذه الكثرة الفاشية التي نراها اليوم ، ونقوم أمامها بقيمتنا لا بقامتنا ، بدعوتنا لا بما عندنا من إمكانيات ، ومن فرص ، ومن عتاد ، نقوم بالدعوة بإخلاص ، بقوة الإخلاص ، وبقوة الإيمان ، نقوم بالميِّزة الخلقيَّة ، نقوم بالإخلاص التامِّ ، لا نكون خاضعين للعَدَد ، والعُدد ، نكون خاضعين لله تبارك وتعالى ، ولإرادته ، ولنصرته ، فالله سبحانه وتعالى قد وعد بالنَّصر ، ووعد المسلمين ، ووعد القائمين بالحقِّ ، وبالدعوة الصحيحة ، وبالنَّصر المبين ، والتاريخ يشهد بذلك من أوله إلى آخره ، بأنَّ فئاتٍ قليلة العدد تغلبت على فئاتٍ كثيرةٍ ، ولا أقول فئاتٍ ، بل تغلبت على بحارٍ من العدد ، والعُدد ، بقوة الإيمان وبالإخلاص في الدعوة ، وبالرِّثاء للإنسانية ، وبالتضحية والزهد ، هذه هي الأسلحة التي تستطيع بها ، هذه الأمَّة أن تتغلب بها على العالم الماديِّ الخاضع للشهوات ، وقد حققت الدول الغربية في إنجاز هذه المهمة نجاحاً لا يوجد له مثيل ، فإنَّ المثقفين في البلدان الإسلامية الذين يتولون زمام الأمور ، ويحملون قدراً من التعبير في اللغات الأجنبية ، ويحملون الشهادات العلمية ، ويعرفون النظم السياسية في العالم ، تأثروا بهذه الدعاية تأثراً عميقاً ، واطمأنوا بها ، وأيقنوا أنه لا حاجة إلى تغييرٍ ، وأنَّه يكفينا أن نصلِّي ونصوم ، ونعمل بأحكام الطلاق والزواج ، ونكون أحراراً فيها ، وأن نعيش في أمنٍ وسلام ، وذلك ما نبغيه ، فإذا قيل لهم : إنَّ الإنسانية تحتضر اليوم بابتعادها عن المُثُل الخلقية ، وإنّ المسلمين هم أحقّ بالقيادة لإنقاذ البشرية ، فإنَّ القوى التي تسلمت القيادة ولا تستطيع أن تقود البشرية إلى السعادة ، والنجاح لأنها لا تؤمن بالله ، ولا تخشى الله ، ولا تحمل الاحترام للإنسانية ، فلا تقبل هذه النفوس هذا التفكير ، لقد قيل للمسلمين : إنَّ المسلمين ليسوا بعامل مؤثر ، وإنما هم ممثلون ، إنهم لا يستطيعون أن يكتشفوا أو يبادروا إلى شيء ، أن يصطنعوا شيئاً ، وإنما هم مسيَّرون ، إذا طلب منهم شيءٌ عملوا به ، إنهم يستطيعون أن يحرسوا الحدود ، أو يحافظوا على شيء ، أما محاسبة التاريخ وانتقاد ما يحدث في العالم وما يجري فيه من تيارات ،

www.abulhasanalinadwi.org

صغيرةٌ وكبيرةٌ ، وحكوماتٌ ، وفقرٌ مدقعٌ ، وعريٌ ، وفاقة .

وهكذا كان العالم موزعاً في ذلك الحين بين هذه الأكثرية الساحقة ، الغالبة ، الماحقة ، المعاندة ، المتشبثة ، الملحة ، المصرَّة على الوثنية ، وهناك كان حفنةٌ بشريَّة لا تستطيع أن تعول نفسها ، وتعلمون جميعاً أنَّ كلَّ مهمةٍ كبيرةٍ تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها ، والذي يقبل مسؤوليتها هو أن يكون صاحب كفاف ، ويكون صاحب كفاية وقوّة ، فهنا كان من جهة العدد ، ومن جهة العُدد ، ومن جهة الآلات ، ومن جهة الطاقات ، هذه حفنةٌ بشريَّةٌ قليلةٌ ، وهذا العالم الممتدُّ ، عالمٌ كالبحر مائجٌ هائجٌ ، فكيف غير الله تبارك وتعالى يستطيع أن يقول: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]؟!.

هذا لأنَّ العبرة بالقيمة لا بالقامة ، إنَّ المسلمين كانوا صغاراً في القامة ، ولكنَّهم كانوا كباراً في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، يدلُّ عليه التاريخ ويثبته التاريخ من أوّله إلى آخره ، إنَّ القيمة دائماً تغلبت على القامة ، وهزمت القامة ، لولا هذا لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاءٌ ، ولا كيانٌ أبداً ، لولا أنَّ القيمة إنَّما غلبت واستطاعت أن تتغلَّب ، واستطاعت أن تهزم القامة ، مهما كانت كبيرةً وشامخةً ، لما بقيت هناك عقيدةٌ صحيحةٌ ، ولا دينٌ صحيحٌ ، ولا دعوةٌ صحيحةٌ ، ولا كرامةٌ بشريَّةٌ.

إخواني! ينبغي أن نتأمَّل ، وأن نؤمِّل ، وأن نفكر في هذه الآية ، في هذه المقارنة ، لإلقاء التبعة ، تبعة الدعوة ، وتبعة الإنسانيَّة ، والمسؤولية الإنسانية على هذا العدد القليل ، وعلى هذه الحفنة البشرية .

ولقد أثبت التاريخ أنَّ هذه الحفنة البشرية لمَّا قامت ، واضطلعت بمسؤوليتها ، وقبلت مسؤوليتها ، وقامت بمسؤوليتها ، غلبت على هذا البحر الخضم الممتدِّ على صعيد الأرض كلها ، تغلَّبت عليه ، وهزمت هذا العدد والعدد والعتاد ، وهذه المملكات الشامخة ، وهذه الطاقات الباذخة كلِّها ، تغلبت هذه الفئة القليلة ، هذه القلَّة على هذه الكثرة ، في هذه الآية في الحقيقة تبصيرٌ لنا ، وإثارةٌ لعواطفنا ، وإثارةٌ لإيماننا ، وإثارةٌ لعزيمتنا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وخمسمئة ، هذا الذي جاء في صحيح البخاري ، وكان ذلك عند غزوة أحد ، وبعضهم يقول عند حفر الخندق ، كانوا لا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، وهؤلاء ألف وخمسمئة ، يخاطبون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] أي: إن لم تكونوا جبهةً ، إن لم تكوّنوا معسكراً ، إن لم تكوّنوا اتجاهاً ، اتجاهاً سافراً معلناً به ، اتجاهاً واضحاً للدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وللدعوة إلى التوحيد الخالص ، وللدعوة إلى احترام الإنسانية ، وللدعوة إلى الإخاء الإنسانيّ ، والأخوة البشرية ، والدعوة إلى الإنصاف ، والدعوة إلى المساواة ، والدعوة إلى خشية الله تبارك وتعالى ، والعطف على الإنسانية ، إلا تفعلوه ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، كيف يفهم الإنسان بسهولة إذا لم يكن عنده إيمانٌ عميقٌ بالقرآن ، ودراسةٌ دقيقةٌ عميقةٌ وتحرٍّ للصواب ، ولواقع العالم البشري.

فقد كان هناك ملايين وملايين من البشر ، من الناس ، بعضهم مثقَّف ، عددٌ كبيرٌ منهم مثقف ، وعددٌ كذلك غير مثقف ، كلُّهم يخضعون للوثنيَّة خضوعاً فاحشاً سافراً دائماً ، وعندهم خرافاتٌ وأساطير ، ومفروضاتٌ ، وعاداتٌ ، وتقاليد جاهليةٍ فاحشةٍ ، ظالمةٍ ، جائرةٍ للإنسانية ، والشرف الإنسانيِّ ، وهناك حفنةٌ من البشر ، لا يتخطّى عددهم ، ولا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، فكيف غير الله تبارك وتعالى ؟ أقول لكم بصراحة: كيف غير الله تبارك وتعالى ؟ كان يستطيع أن يقول هذا ، هناك ملايين من البشر ، وملايين وملايين من البشر ، يملكون كلَّ طاقةٍ ، ويملكون كلَّ وسيلةٍ ، ويملكون كلَّ عدَّةٍ ، ويملكون كلَّ سلاحٍ ، ويملكون كلَّ تصرفٍ في البشرية ، وهناك حفنة بشرية ، قد تجوع ، يجوع مئات منها ، ولا يستطيع كثير منهم أن يستر جسمه ستراً كافياً وافياً ، أو يقوت عياله ، هناك حفنةٌ بشريةٌ قليلة العدد ، قليلة العَتاد ، وقليلة الأسلحة ، وقليلة القوى والطاقات ، وهناك بحرٌ خضمٌّ ، بحرٌ لا يُعرف قعره ، ولا عمقه ، بحرٌ مستفيضٌ فائضٌ على الصعيد كلِّه ، على الأرض كلها ، قاراتٌ ، وأبالاتٌ ، ومدنٌ ، وقرى ، وكذلك محلاتٌ

www.abulhasanalinadwi.org

كبيرةً في بعض الأزمان ، كانت خاضعةً للوثنية الفاحشة ، يقول أستاذ كبير ، صاحب اختصاص في التاريخ بروفيسور في جامعة دلهي ، يقول: «قد وصل عدد المعبودات والمعبودين في الهند إلى مئة مليون في بعض الأحيان» ، والبوذية أخفقت في إصلاح الحال وفي توجيه البلاد ـ كما يدَّعي مؤرخوها وكما يدَّعي دعاتها ـ إلى التوحيد ، قد أخفقت تماماً ، كما اعترف به المؤرخون في الهند ، كذلك كانت الدولة المجوسية الإيرانية ، وكانت فارس كذلك ، وكانت كلُّ أصقاع العالم ، وكلُّ قطع العالم ، وكلُّ النواحي ، كلُّها خاضعةً للوثنية ، وخاضعةً للأوهام والخرافات ، وخاضعةً للاضطهاد ، وخاضعةً للخرافات ، ولكن كانوا هم الذين يملؤون العالم ، وكان عددهم لا يُحصى ، لا يمكن إحصاؤه ، ولا أعرف مؤرخاً أحصى عدد الموجودين في ذلك الزمان قبل البعثة المحمدية ، أو عند البعثة المحمدية في العالم ، ما كان هناك إحصاءٌ عالميٌّ ، إحصاءٌ دقيقٌ عالميٌّ ، ففي جانبٍ أوسع عالمٍ ، وأكثر ، وأملك للطاقات البشرية ، وأملك للقوى الحربية ، وأملك للمكتبات العلميَّة ، وأملك لكلِّ القيم ، ولكلِّ الخصائص التي تتَّصف بها الأمم ، كانوا في جانبٍ قد اتخذوا جبهةً ، جبهةً وثنيَّةً ، جبهةً للدعوة الوثنية ، والإغراء للوثنية ، والخضوع للخرافات ، والخضوع للأساطير ، والخضوع للاستبداد ، وقهر الملوك ، هكذا كان وضع العالم في ذلك الحين.

وكان مقابل ذلك المسلمون ، المسلمون وهم حفنةٌ بشريَّةٌ ، وهذا تعبير غير مُبالغ فيه ، حفنةٌ بشريَّةٌ ، تملأ الكف ، يعني إذا قيسوا في العدد والعُدد ، وفي القوة ، وفي الطاقات والآلات ، إذا قيسوا بهذا العالم المتمدِّن المعمور ، المالك لأزمَّة الأمور ، والموجه للعالم كلِّه توجيهاً كما يشاء ، إذا قوبل بينهم وبين هذه الحفنة البشرية كانوا في الحقيقة ملء الكف ، فقد صحَّ في الأحاديث الصحيحة ، وقد جاء في صحيح البخاري: أنَّه كان هنالك ثلاثة إحصاءات ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإحصاء المسلمين في المدينة المنورة ، ما عدد المسلمين المهاجرين ، والذين آمنوا بالإسلام في المدينة المنورة ، فكان الإحصاء الأخير لا يتجاوز ألفاً

www.abulhasanalinadwi.org

وخمسمئة ، هذا الذي جاء في صحيح البخاري ، وكان ذلك عند غزوة أحد ، وبعضهم يقول عند حفر الخندق ، كانوا لا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، وهؤلاء ألف وخمسمئة ، يخاطبون في القرآن الكريم بقوله تعالى: [﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] أي: إن لم تكونوا جبهةً ، إن لم تكوّنوا معسكراً ، إن لم تكوّنوا اتجاهاً ، اتجاهاً سافراً معلناً به ، اتجاهاً واضحاً للدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وللدعوة إلى التوحيد الخالص ، وللدعوة إلى احترام الإنسانية ، وللدعوة إلى الإخاء الإنسانيّ ، والأخوة البشرية ، والدعوة إلى الإنصاف ، والدعوة إلى المساواة ، والدعوة إلى خشية الله تبارك وتعالى ، والعطف على الإنسانية ، إلا تفعلوه ، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، كيف يفهم الإنسان بسهولة إذا لم يكن عنده إيمانٌ عميقٌ بالقرآن ، ودراسةٌ دقيقةٌ عميقةٌ وتحرٍّ للصواب ، ولواقع العالم البشري.]

فقد كان هناك ملايين وملايين من البشر ، من الناس ، بعضهم مثقَّف ، عددٌ كبيرٌ منهم مثقف ، وعددٌ كذلك غير مثقف ، كلُّهم يخضعون للوثنيَّة خضوعاً فاحشاً سافراً دائماً ، وعندهم خرافاتٌ وأساطير ، ومفروضاتٌ ، وعاداتٌ ، وتقاليد جاهليةٍ فاحشةٍ ، ظالمةٍ ، جائرةٍ للإنسانية ، والشرف الإنسانيّ ، وهناك حفنةٌ من البشر ، لا يتخطَّى عددهم ، ولا يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة ، فكيف غير الله تبارك وتعالى ؟ أقول لكم بصراحة: كيف غير الله تبارك وتعالى ؟ كان يستطيع أن يقول هذا ، هناك ملايين من البشر ، وملايين وملايين من البشر ، يملكون كلَّ طاقةٍ ، ويملكون كلَّ وسيلةٍ ، ويملكون كلَّ عدَّةٍ ، ويملكون كلَّ سلاحٍ ، ويملكون كلَّ تصرفٍ في البشرية ، وهناك حفنة بشرية ، قد تجوع ، يجوع مئات منها ، ولا يستطيع كثير منهم أن يستر جسمه ستراً كافياً وافياً ، أو يقوت عياله ، هناك حفنةٌ بشريةٌ قليلة العدد ، قليلة العَتاد ، وقليلة الأسلحة ، وقليلة القوى والطاقات ، وهناك بحرٌ خضمٌّ ، بحرٌ لا يُعرف قعره ، ولا عمقه ، بحرٌ مستفيضٌ فائضٌ على الصعيد كلِّه ، على الأرض كلها ، قاراتٌ ، وأبالاتٌ ، ومدنٌ ، وقرى ، وكذلك محلاتٌ

www.abulhasanalinadwi.org

صغيرةٌ وكبيرةٌ ، وحكوماتٌ ، وفقرٌ مدقعٌ ، وعريٌ ، وفاقة .

وهكذا كان العالم موزعاً في ذلك الحين بين هذه الأكثرية الساحقة ، الغالبة ، الماحقة ، المعاندة ، المتشبثة ، الملحة ، المصرَّة على الوثنية ، وهناك كان حفنةٌ بشريَّة لا تستطيع أن تعول نفسها ، وتعلمون جميعاً أنَّ كلَّ مهمةٍ كبيرةٍ تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها ، والذي يقبل مسؤوليتها هو أن يكون صاحب كفاف ، ويكون صاحب كفاية وقوَّة ، فهنا كان من جهة العدد ، ومن جهة العُدد ، ومن جهة الآلات ، ومن جهة الطاقات ، هذه حفنةٌ بشريَّةٌ قليلةٌ ، وهذا العالم الممتدُّ ، عالمٌ كالبحر مائجٌ هائجٌ ، فكيف غير الله تبارك وتعالى يستطيع أن يقول : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣]؟! .

هذا لأنَّ العبرة بالقيمة لا بالقامة ، إنَّ المسلمين كانوا صغاراً في القامة ، ولكنَّهم كانوا كباراً في القيمة ، والعبرة بالقيمة لا بالقامة ، يدلُّ عليه التاريخ ويثبته التاريخ من أوّله إلى آخره ، إنَّ القيمة دائماً تغلبت على القامة ، وهزمت القامة ، لولا هذا لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاءٌ ، ولا كيانٌ أبداً ، لولا أنَّ القيمة إنَّما غلبت واستطاعت أن تتغلَّب ، واستطاعت أن تهزم القامة ، مهما كانت كبيرةً وشامخةً ، لما بقيت هناك عقيدةٌ صحيحةٌ ، ولا دينٌ صحيحٌ ، ولا دعوةٌ صحيحةٌ ، ولا كرامةٌ بشريَّةٌ .

إخواني! ينبغي أن نتأمَّل ، وأن نؤمِّل ، وأن نفكر في هذه الآية ، في هذه المقارنة ، لإلقاء التبعة ، تبعة الدعوة ، وتبعة الإنسانيَّة ، والمسؤولية الإنسانية على هذا العدد القليل ، وعلى هذه الحفنة البشرية .

ولقد أثبت التاريخ أنَّ هذه الحفنة البشرية لمَّا قامت ، واضطلعت بمسؤوليتها ، وقبلت مسؤوليتها ، وقامت بمسؤوليتها ، غلبت على هذا البحر الخضم الممتدِّ على صعيد الأرض كلها ، تغلَّبت عليه ، وهزمت هذا العدد والعدد والعتاد ، وهذه المملكات الشامخة ، وهذه الطاقات الباذخة كلِّها ، تغلبت هذه الفئة القليلة ، هذه القلَّة على هذه الكثرة ، في هذه الآية في الحقيقة تبصيرٌ لنا ، وإثارةٌ لعواطفنا ، وإثارةٌ لإيماننا ، وإثارةٌ لعزيمتنا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وإثارةٌ لنخوتنا ، وإثارةٌ لإبائنا وعزتنا أن نقوم أمام هذه الكثرة الشامخة ، هذه الكثرة الفاشية التي نراها اليوم ، ونقوم أمامها بقيمتنا لا بقامتنا ، بدعوتنا لا بما عندنا من إمكانيات ، ومن فرص ، ومن عتاد ، نقوم بالدعوة بإخلاص ، بقوة الإخلاص ، وبقوة الإيمان ، نقوم بالميِّزة الخلقيَّة ، نقوم بالإخلاص التامِّ ، لا نكون خاضعين للعَدَد ، والعُدد ، نكون خاضعين لله تبارك وتعالى ، ولإرادته ، ولنصرته ، فالله سبحانه وتعالى قد وعد بالنَّصر ، ووعد المسلمين ، ووعد القائمين بالحقِّ ، وبالدعوة الصحيحة ، وبالنَّصر المبين ، والتاريخ يشهد بذلك من أوله إلى آخره ، بأنَّ فئاتٍ قليلة العدد تغلبت على فئاتٍ كثيرةٍ ، ولا أقول فئاتٍ ، بل تغلبت على بحارٍ من العدد ، والعُدد ، بقوة الإيمان وبالإخلاص في الدعوة ، وبالرِّثاء للإنسانية ، وبالتضحية والزهد ، هذه هي الأسلحة التي تستطيع بها ، هذه الأمَّة أن تتغلب بها على العالم الماديِّ الخاضع للشهوات ، وقد حققت الدول الغربية في إنجاز هذه المهمة نجاحاً لا يوجد له مثيل ، فإنَّ المثقفين في البلدان الإسلامية الذين يتولون زمام الأمور ، ويحملون قدراً من التعبير في اللغات الأجنبية ، ويحملون الشهادات العلمية ، ويعرفون النظم السياسية في العالم ، تأثروا بهذه الدعاية تأثراً عميقاً ، واطمأنوا بها ، وأيقنوا أنه لا حاجة إلى تغييرٍ ، وأنَّه يكفينا أن نصلِّي ونصوم ، ونعمل بأحكام الطلاق والزواج ، ونكون أحراراً فيها ، وأن نعيش في أمنٍ وسلام ، وذلك ما نبغيه ، فإذا قيل لهم : إنَّ الإنسانية تحتضر اليوم بابتعادها عن المُثُل الخلقية ، وإنّ المسلمين هم أحقّ بالقيادة لإنقاذ البشرية ، فإنَّ القوى التي تسلمت القيادة ولا تستطيع أن تقود البشرية إلى السعادة ، والنجاح لأنها لا تؤمن بالله ، ولا تخشى الله ، ولا تحمل الاحترام للإنسانية ، فلا تقبل هذه النفوس هذا التفكير ، لقد قيل للمسلمين : إنَّ المسلمين ليسوا بعامل مؤثر ، وإنما هم ممثلون ، إنهم لا يستطيعون أن يكتشفوا أو يبادروا إلى شيء ، أن يصطنعوا شيئاً ، وإنما هم مسيَّرون ، إذا طلب منهم شيءٌ عملوا به ، إنهم يستطيعون أن يحرسوا الحدود ، أو يحافظوا على شيء ، أما محاسبة التاريخ وانتقاد ما يحدث في العالم وما يجري فيه من تيارات ،

www.abulhasanalinadwi.org

وصراعات ، وميول ، أو المقاومة للمخططات المعادية للإنسانية ، فلا تقبلها أذهان المسلمين المثقفين والطبقة العليا .

عندما صدر كتابي : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي تناولت فيه ما لحق بالعالم من خسارةٍ بتخلي المسلمين عن القيادة ، وما خسره العالم الإنسانيُّ بتراجع المسلمين ، وانسحابهم عن دور القيادة العالمية ، وما كان كسبه العالم بقيادة المسلمين في عهد قيادتهم ، وما أتحف المسلمون العالم به من حضارةٍ ، ومثلٍ ، وقدمت دراسةً علميةً وأثبتُّ ذلك في كتابي ، فكان ذلك مفاجأة عند كثيرٍ من المثقفين والدارسين في المسلمين ، واعتبروا ذلك اكتشاف فإنَّ المعالجين للتاريخ الإسلامي لم يعالجوا الموضوع من هذه الزاوية ولم يلقوا الضوء على ما كان العالم يعيش فيه قبل الإسلام ، وما هو الانقلاب الذي أحدثه الإسلام ، وكيف غيَّر الإسلام مجرى الحياة .

أتيحت لي فرصة زيارة مصر في عام ١٩٥١ م ، وسبق أن صدر هذا الكتاب ، وكان موضوع البحث والنقاش في الأوساط العلمية وخاصةً عنوان الكتاب ، وخلال زيارتي لمصر ، كتب أحد الكتاب البارزين في صحيفة واسعة الانتشار ، أنَّ كتاباً صدر بعنوان : «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وأعرب الكاتب عن استعجابه بهذا العنوان ، وقال : كيف يسبب انحطاط المسلمين خسارة للعالم؟ وهل كان للمسلمين وزنٌ يغيِّر مصير العالم ، إنَّ هذا تعبيرٌ غير مفهوم لا تستسيغه أذهانهم ، كيف يكون لانحطاط المسلمين وقعٌ على مسير العالم!؟

وحار الكتاب والمعلقون في الصحف في تأويل هذا التعبير وفهمه ، وكان ذلك بسبب الدعاية والتلقين من علماء الغرب ومفكريه ، بأنَّ المسلمين هم مجرد ممثلين ، وقد رسخ هذا التفكير الخاطىء في أذهان العقلاء وقبله المثقفون ، وأيقنوا أنَّ المسلمين أتباعٌ مسيَّرون ، وأنَّهم لا يحملون كفاءةً ولا صلاحيةً لفرض إرادتهم ، وإبداء رأيهم ، وأن يؤثروا

www.abulhasanalinadwi.org

على اتجاه العالم ، وقد أدرك هذه المؤامرة وأبعادها العلامة إقبال ، وفضح هذه المؤامرة في قصيدةٍ له يقول فيها :

إنَّ الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجللوا خطبها ، وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم «الجمهورية» وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرها ، فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذا رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، ألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تحصر في وجود شخصٍ ترتكز فيه الملوكيةِ ، وفردٍ يستبد بالسلطان ، وإلا فأنا أخاف على الإنسانية كلِّها ، على البشرية كلِّها ، وحتى على أجزاء العالم الراقية المتمدنة القائدة الرائدة للعالم ، فإذا لم تكن هنالك دعوةٌ فإنه لا يؤمن على البشرية التائهة الضالة الظالمة ، لا يؤمن لها بالبقاء لمدةٍ أطول .

فهذا في صالح الإنسانية وفي صالح المسلمين ، وفي صالح العرب أولاً ، وللعرب حقٌّ أكبر ، وحقٌّ رئيسيٌّ في توجيه هذه الدعوة ، وفي الاضطلاع بهذه الدعوة بصدقٍ وإخلاصٍ ، وشجاعةٍ ، وجراءةٍ ، وصراحةٍ .
أقول لكم هذا ، ولا أريد أن أطيل عليكم ، فأتلو الآية الكريمة مرَّةً ثانيةً لتتأملوا فيها : إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] ألا تفعلوه ، أيها المسلمون! أيتها الحفنة البشرية الضئيلة العدد! إذا لم تقوموا بالاضطلاع بهذه الدعوة الإنسانية الكريمة الواسعة المنقذة للبشرية ، إن لم تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ، هذا ما نشاهده بعيوننا بأمِّ عيوننا ، نشاهد كيف هذه البلاد التي يضرب بها المثل في المدنية وفي الحضارة وفي الثقافة ، والبلاد التي توجه العالم العام توجيهاً فكريّاً ، وثقافيّاً ، ومدنيّاً ، وحضاريّاً ، وسياسيّاً ، هذه كلها في خطر ، إذا فهم قادتها ، ومنهم من

www.abulhasanalinadwi.org

يفهم هذا ، إذا فهم قادتها ، فإنهم خافوا على هذه البلاد نفسها ، وخافوا على أنفسهم ، وبدؤوا يطالعون الدين الأخير ، الخاتم الصحيح ، الدين المنقذ للبشرية ، وكان هنالك دورٌ آخر للتاريخ ، وليس ذلك على الله بعزيز ، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفِّقنا ، ويوفِّق إخوتنا ، ويوفِّق العالم المتمدِّن كذلك للتعرف بهذا الخطر الداهم ، الخطر القاصم ، الخطر المبيد ، ليس لبلادٍ فقطٍ بل للإنسانية كذلك.

أحمد الله تبارك وتعالى على سنوح هذه الفرصة للحديث معكم ، وهذا شرفٌ عظيمٌ لي ، فأحمد الله تبارك وتعالى ، وأشكركم وأشكر القائمين بهذه المناسبة.

جزاهم الله خيراً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الدور الّذي تلعبه المسيحية اليوم في العالم

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مكة المكرمة: تعليقاً على رسالة وردت من جمعية الصداقة المسيحية والإسلام في مجلس رابطة العالم الإسلامي في جلسته المنعقدة في ٢٣/ ١٠/ ١٣٩٦هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

سماحة الرئيس والسادة الأعضاء الزملاء: إن نظرتنا إلى المسيحية يجب أن تتطور مع تطورها وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ومع الأحداث الأخيرة التي تتصل بها اتصالاً وثيقاً ، ومع دورها الذي لعبته في تاريخ العالم ، وفي تاريخ الإنسانية والمدنية ، والموقف الذي وقفته تجاه الإسلام وتجاه الحضارة وتجاه الشعوب والأمم ، وهذه طبيعة الأحياء الذين يرزقون الوعي وصلاحية الاستنتاج ، واستعراض الواقع ، تتطور نظراتهم إلى العالم المعاصر والشعوب التي تعيش حولهم ، وتنمو وتتطور.

وإن الجانب الأول الذي يجب أن يكون في حسابنا إذا تحدثنا عن المسيحية أن المسيحية المعاصرة ـ وقد مضت عليها قرون ـ تختلف عن المسيحية الأولى التي تحدث عنها القرآن وعاصرت ظهور الإسلام ، كل الاختلاف ، ولا نعرف ديانة من الديانات السماوية العالمية ابتعدت عن أصلها القديم واختلفت عنه ابتعاد المسيحية واختلافها ، فكأنها من نبع آخر ، كأنها ديانة مستقلة ، قفزت في العصور المتأخرة ، والذي يطالع المسيحية مطالعة عميقة حرة يصعب عليه أن يسميها «النصرانية» أو «المسيحية» التي قامت على تعاليم المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانبثقت عن دعوته وعن التوراة والإنجيل ، وقد لا يرى لها اسماً أقرب إلى الواقع والحقيقة العملية من الديانة البوليصية ، ويرى للبوليص فيها حظاً أكثر وسلطاناً أقوى من سيدنا المسيح ، وهي وليدة قرارات مؤتمرات مسيحية كانت تعقد بين آونة وأخرى ، واتفاقيات يتوصل إليها ممثلو هذه الديانة وعلماؤها بعد دخول قسطنطين في النصرانية واحتضانه لها.

كانت كل القرائن والآثار تدل على أن المسيحية التي دعت إلى عقيدة الأول ، وإلى التمسك بالحقيقة والجوهر ، وامتازت بالرقة والخشوع والعطف على الضعفاء والمحرومين في المجتمع ، وإلى العدل والمساواة ، وحب الإله ، وثارت على قسوة اليهود وجفافهم ، وتمسكهم

www.abulhasanalinadwi.org

بالقشور والمظاهر ، ومحاربة كل إصلاح وتجديد ، وتعرضت لسخط اليهود وحنقهم الشديدين ، وتعرض نبيها الكريم وأمه الصديقة البتول لافترائهم وإهانتهم التي لا إهانة فوقها ، حتى كانوا سبباً لصلبه كما يزعم اليهود ، وكما يعتقده المسيحيون ، ولرفعه إلى السماء كما يعتقده المسلمون ، وحاربها اليهود في كل دور من أدوار التاريخ حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة وطاردوها وكادوا لها ، وكانوا دائماً يمالئون أعداءها ، ويحرضون عليها ، ويدلون على عورات المسيحيين كما فعلوا في حرب فارس والروم في القرن السادس المسيحي ، وقد نظر القرآن والمسلمون إلى المسيحية والمسيحيين في العصر الأول بغير العين التي نظروا بها إلى اليهود والمشركين وميز بينهم تمييزاً واضحاً وقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

كانت كل القرائن والآثار تدل على أن المسيحية تمد إلى الإسلام والمسلمين يد الصداقة ، وتكون على الأقل بعيدة عن التحرش بهم في غير لزوم ، وإسعار الحروب التي أسعرتها ، وإذا خيرت بين صداقة اليهود وصداقة المسلمين آثرت صداقة المسلمين الذين يفرض عليهم دينهم الإيمان بنبيها عيسى ابن مريم وتبرئة أمه والإيمان بعفافها وطهارتها فيقول القرآن ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ ولا يتحقق إيمان المسلم إذا لم يؤمن بعيسى ويسميه تارة بروح الله وتارة بكلمة الله وتؤثر صداقة المسلمين على صداقة اليهود الذين عادوا المسيح ونسبوا إليه كل قبيح ، وتتعاون هاتان الديانتان العظيمتان اللتان يؤمن بهما أكبر عدد من المتدينين في العالم ، وقد أرادت حكمة الله أن تمثلا أكبر دور في التاريخ وأن توجها المدنية توجيهاً لم يكتب لغيرهما من الديانات والأمم أن تتعاونا في بناء المدنية وإسعاد الإنسانية والقضاء على قوى الشر والتدمير ، ومحاربتها .

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن الذي وقع كان مع الأسف عكس ذلك ، فقد حاربت المسيحية وبالأصح المسيحيون الإسلام والمسلمين حرباً شعواء مسعورة متصلة لا انقطاع فيها ، كان من جملتها الحروب الصليبية التي كونت تاريخاً مستقلاً ، وحاربت الدولة العثمانية مدة طويلة ، واقتسمت ممتلكاتها وغزت العالم الإسلامي غزواً سياسياً وثقافياً وحضارياً ، وزحفت أوربا المسيحية إلى الشرق الإسلامي ، فاستولت على أكثر بقاعه واستعبدت أممه وشعوبه ، وكان أكثر شقاء العالم الإسلامي ، وأكبر محنه وأزماته ومشاكله على يد الغرب الذي يدين بالمسيحية ، ولا تزال الروح الصليبية تسيطر على عقلية كثير من قادته وتصرفاتهم وتثبت وجودها وحياتها في حوادث كثيرة .

بالعكس من ذلك صالحت المسيحية الوادعة الرحيمة اليهودية الموتورة الحاقدة ، واتفقت الطبيعة المسيحية الرقيقة التي تؤمن بمبدأ الرحمة والمساواة مع الطبيعة اليهودية السلبية الهدامة التي تحقد على الإنسانية كلها ، ولا تفكر ولا تعمل إلا لمصلحة «شعب الله المختار» وعفا ممثل المسيحية الأكبر ونائب المسيح البابا عن اليهود جريمتهم في صلب المسيح وبرأهم عن ذلك ، وفتحت المسيحية لليهودية ذراعيها واحتضنتها في الدور الأخير ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نالت اليهود العالمية منها كل عطف وتشجيع وتعاون ، وفي الحقيقة كانت المسيحية قنطرة وصلت بها اليهودية العالمية بل الصهيونية إلى ما وصلت إليه من أوج وعز وسيادة ونفوذ في العالم، وبها وحدها تمكنت من تأسيس إسرائيل، وبفضلها تحقق هذا الحلم الذي كان يعتبر ضرباً من الهوس وأمنية من أماني جحا، ولولا المساعدة التي نالتها الصهيونية من بريطانيا وأوربا المسيحية لما وصل اليهود إلى ما وصلوا إليه في آلاف من السنين ولما حققوا ما حققوه في هذه المدة القصيرة .

وإن مثل المسيحية مع اليهودية كمثل الرجل الذي وجد ثعباناً أصابه البرد والهزال وتعطل عن الحركة ودنا من الموت ، فرق له قلب الرجل وعني بشأنه وجره إلى الهواء النقي والشمس الساطعة وهيأ له الدفء ، وغذاه باللبن فعاش وانتعش وعاد إلى الحركة والقوة فلسع الذي أحسن إليه وقتله ،

www.abulhasanalinadwi.org

هذا شأن المسيحية الرحيمة بثعبان اليهودية الذي تعرض للموت وتعطل عن الحركة ولا ندري متى يلسع هذا الثعبان منقذه المسيحي ولكن مما لا شك فيه أنه لسع الإنسانية وأصبح خطراً عليها فضلاً عن العرب المسلمين الذين استولى على مركزهم. وهكذا أصبحت المسيحية بشعور وإرادة أو بغير شعور وإرادة ـ باحتضانها لليهودية وبتزعمها للحضارة ـ التي قطعت صلتها عن تعاليم الأنبياء وفيهم المسيح عليه السلام وأبادت جميع القيم الخلقية وقامت على أساس عبادة المادة والقوة ومحاربة الإسلام الدين الوحيد الذي بقي في ميدان الحياة يحارب اللادينية والإلحاد ، والشيوعية المتطرفة والرأسمالية الغاشمة ، ويدعو إلى القيم الخلقية والمعاني الروحية ، أصبحت المسيحية بذلك كله أكبر عامل في تقويض المدنية ونشوء الفوضى الخلقية في العالم ، وبذلك تهيأ المسرح الذي يظهر عليه الدجال اليهودي الذي أخبر به الأنبياء وحذروا منه ، وأخبر به خاتم النبيين ﷺ وحذر منه أكثر من كل نبي لأنه الرسول الأخير ورسالته هي الرسالة الأخيرة ، ويمثل هذا الدجال الذي يكون أكبر رمز للمادية الرعناء والقوة العمياء المسرحية الأخيرة في محاربة الإيمان والأديان والأخلاق والفضائل.]

فلنكن دقيقين وواقعين في كل ما نقرره هنا ، وفي الموقف الذي نتخذه إزاء هذا المشروع والفكرة ، ولتكن نظرتنا إلى الموضوع أعمق وأوسع وأكثر إحاطة بالتاريخ الماضي ، وظروف الحال والمستقبل.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

شعب يقرر ويعاهد الله

وجه العلامة الندوي خطاباً في مؤتمر التعليم الإسلامي في جلسته الأخيرة المنعقدة في لكهنؤ قبل بضعة أعوام ، ناشد فيه كل مشترك أن يحمل معه رسالة ويقطع عهداً على نفسه لتكون حياته مصداقاً لهذا العهد.

وحيث إن التجمعات للالتقاء الفكري قد أصبحت ميزة هذا العصر فلا ينفض مجلس إلا ويحدد موعد لاجتماع آخر في مكان آخر.

ينقل هذا الخطاب في هذا الكتاب ليكون رسالة العلامة إلى كل مشترك في مثل هذه التجمعات.

www.abulhasanalinadwi.org

أيها السادة: نحن الآن في الجلسة الأخيرة من جلسات المؤتمر وسترجعون إلى بلادكم ومراكزكم ، وأحرص على أن لا ينفض هذا المجلس إلا وأنتم تحملون رسالة معكم ، ولا تقوموا من هذا المجلس إلا بعد ما عاهدتم الله وأخذتم من نفوسكم ميثاقاً ترتبطون به في حياتكم ، وإن مستقبلنا يتوقف على هذا الميثاق.

إن لهذا الميثاق جزءين ، أولهما : أن نؤمن بأن هذه البلاد ـ الهند ـ هي بلادنا ووطننا ، وسنعيش فيها كأبناء وحقنا على هذه البلاد لا يقل عن حق أكبر مواطن وأقدم مولود فيها ، وليس لأعظم شخصية في بربوع الهند ، سواء كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزارة أن يدعي أن حقه على هذه البلاد يزيد على حقنا ، فهذا البلد حبيب إلى نفوسنا ونحن حرسة دستوره لا نسمح بخيانة فيه ، أو مؤامرة ضده ، إن كل شبر من أشبار هذه الأرض الواسعة الجميلة يحمل ذكرياتنا الخالدة ، ويشهد بعهدنا الجميل الزاهر ، ومواهبنا النادرة وإنتاجنا الضخم ، لقد كانت هبتنا لهذه البلاد ونصيبنا في ترفيهها وترقيتها وتزيينها يفوق نصيب كل شعب حكم هذه البلاد ، لقد ولدت هذه البلاد في عهدنا ولادة جديدة ، ووصلت إلى أوج الحضارة والتمدن ، ومن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتاج العقول وما أضفوا عليها من الجمال والكمال فلينظر إلى ما كانت عليه قبل دخول المسلمين ، ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعد ما استمر الحكم الإسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن ، فهذه البلاد بلادنا ، إنه وكرنا الذي نأوي إليه ونطير منه وحقنا عليه حق الطائر على عشه ، وعلى روضته التي ولد وعاش فيها يتمتع بأنهارها وأشجارها ويتغنى بأزهارها وأثمارها ، يجلس على أي غصن شاء ويطير في الأجواء في حرية وانطلاق ومن غير خوف وإشفاق.

فوطنيتنا صادقة ، وحقوقنا المدنية لا تتحدى ولا تناقش ، يجب أن

www.abulhasanalinadwi.org

تكون هذه عقيدتكم ، وأن تكونوا من ذلك على ثقة ووضوح ، لا يخالجكم في ذلك تردد واضطراب ، ولا يساوركم فيه خوف أو ارتياب ، نحن أبناء الهند ، وسنعيش فيها كأبناء وأصحاب البلد ، وسنسهم في تقدمها ورقيها وتحقيق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية بكل نشاط وحماسة وبكل رغبة وسرور ، وسنظل محافظين على كرامتها وشرفها وروح دستورها ، وسنقوم بواجبنا وإن تخلف عن أداء الواجب كل هندي وكل مواطن فنحن أبناء بررة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء ، هذا هو الميثاق الذي أخذناه من نفوسنا ، ونريد أن نجدده في هذا المجلس.

والشطر الثاني من هذا الميثاق ، أننا عاهدنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا الملية وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية وبأخلاقنا الاجتماعية وبشخصيتنا المسلمة ، لا نتخلى عن شعيرة من شعائرها ، ولا نتنازل عن جزء من أجزائها ، يحرم علينا أن نعيش مجردين عن هذه الخصائص وعن هذه الحضارة وعن هذه الشخصية ، ولا لذة في الحياة ولا خير فيها بعد ذلك ، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا ، وأن نعلمهم كما تفرضه علينا مبادئنا وعقائدنا الإسلامية ، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نقر عيناً بإسلاميتهم ونشأتهم الدينية ، فليست هذه الحياة حياة الأشراف الأحرار فضلاً عن أن تكون حياة المسلمين الأبرار ، إنما هي حياة البهائم والسائمة ، حياة الثيران والحمير والكلاب ، إن الكلب يكفيه أن ينال راتبه من أكل وشرب ، وأن يكون مصوناً عن الأعداء ، وأن يكون حراً في الإنتاج ، وأن ينال شبعه وريّه على يد سيده ، وكذلك يكفي الثور أن ينال علفه وأن يكون آمناً في مربطه أو حراً في غابته ، فإذا تم له ذلك طابت حياته ، وتحققت رغباته ، وكملت حريته ، ولا يفكر في تربية أولاده على أسلوب خاص ، ولا يفكر في عقيدة ينقلها إلى أولاده أو يأخذها بها ، حتى إذا منع من ذلك وحرم فرصه ووسائله ثار واضطرب وتكدر عيشه.

ولكن الإنسان يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فلا يكفيه أن يقطع له من الرزق ، أو يأتيه رزقه رغداً ، ويرتب له غذاؤه وقوته ، وما لا يعيش بغيره ، وأن يحفظه من الاعتداء على النفس والعرض والمال ، إنه يريد أن

www.abulhasanalinadwi.org

يضم إلى ذلك حرية تربية أولاده وتعليمهم ، وأن ينقل إليهم عقيدته وعقليته وثقافته وما يؤمن به من مبادىء ، ويتمسك به من أصول ، ويستميت في سبيله من دين ، وأن يرى أولاده وخلفاءه وأفلاذ كبده على الطريق الذي اختاره لنفسه وآثره على غيره ، لا تسلط عليه عقيدة يكفر بها ، ولا ثقافة يعارضها ، لا يملك من أولاده ومستقبلهم وسيرتهم شيئاً ، يراهم يرتدون عن دينه وينسلخون عن حضارته ، ويتجردون عن خصائصه ، فلنعاهد الله على أن نعيش عيش الأشراف الأحرار ، عيش بني آدم الذين أكرمهم الله بالإنسانية ولا نعيش عيش البهائم الداجنة أو الكلاب المقتناة ، ولا نقتنع بحرية الأكل والشرب ، وضمانة الرواتب وتكافؤ الفرص في قضاء مآرب النفس وتربية الأجسام وتولي الوظائف فحسب ، إننا نرفض هذا الأسلوب من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، وهذا النوع من الحرية ، وهذا القدر من الوطنية.

سادتي : إن في هذه البلاد منبوذين ينحدرون من الشعوب التي استعبدها الذين فتحوا هذه البلاد قبل آلاف من السنين واضطروهم إلى أن يعيشوا في ظلم وفقر وضعف وسخرية ، يتنجس الإنسان إذا مسهم ويعاب إذا جالسهم ، ويعاقب إذا واكلهم ، إن هؤلاء الأشقياء جنوا على أنفسهم يوم دخل هذه البلاد الفاتحون من أواسط آسيا جناية يحتملون جريرتها إلى هذا اليوم وسيتحملونها إلى قرون وآلاف من السنين ، كان ذلك أنهم آثروا حياة الذل على موت الشرف ، إن الشعوب تخطىء مرة وتعاقب لآلاف من السنين ، لا تريد أن ترتكب هذا الخطأ ، إننا نعاهد على أن نعيش في الهند حياة كريمة شريفة ، لا حياة الكلاب ولا حياة المنبوذين ، إننا لا نعيش فيها حياة العبيد ، إننا أبناء هذه البلاد ، لنا من الحقوق والحظوظ ما لغيرنا . إننا بناة هذه البلاد ومن مؤسسي حضارتها ، وأصحاب الفضل عليها ، وليس لقوة في العالم أن تسلبنا هذا الحق الطبيعي ، وهذا الحق الدستوري ، لقد انقضى عهد الاستعباد والاستعمار ، وليس لشعب أن يستعبد شعباً آخر ، وليس لحضارة أن تقتل حضارة أخرى ، وليس للغة أن تقضي على لغة أخرى ، وقد أصبح العالم اليوم أسرة واحدة لا يخفى ظلم أو اضطهاد في

www.abulhasanalinadwi.org

قطعة أو بقعة ، لقد استيقظ الضمير العالمي فإذا ظلم السود في إفريقية أو الملونون في أمريكا صرخ الضمير العالمي وثار الرأي العام ، إننا نحن المسلمين ـ بصفة خاصة ـ أسرة عالمية منتشرة في الأرض مرتبطة بالعقيدة والدين والأخوة الإسلامية ، ولنا إخوان في جميع بقاع الأرض يتألمون بألمنا ، إننا سنحارب كل ظلم ، وكل ثورة على الدستور ، إننا أمة لا تزال تملك تلك المواهب العظيمة التي خدمت بها الإنسانية وهذه البلاد ، إننا لم نفلس في عقولنا وفي أخلاقنا . إن سحابتنا التي هطلت على الأرض لم تصبح جهاماً ، إنها لاقحة غنية بالماء والخصب .

سادتي: إن الإنسان كثيراً ما يصاب بضعف أو وهن في قرارة نفسه ويتصور مشكلة ويتخيلها ، ثم يراها في الخارج ، وقد يجفل الإنسان من ظله ويذعر من خياله ولا حقيقة له ، ولا وجود في الخارج ، إن قضية التعليم أيها الإخوة سهلة واضحة إذا واجهتموها بشجاعة وقوة وعزم وصرامة ، فقد نص الدستور أن لكل طائفة في هذه البلاد أن تعلم أبناءها دينها ، وعقيدتها المختارة ، وليس للحكومة أن تعطل مؤسسة أو مدرسة أو تقطع عنها المساعدة على أساس أنها تعلم الدين ، فادفعوا التردد وعاهدوا على أنكم تعيشون في هذه البلاد حياة الأشراف الأحرار ، حياة المسلمين بإيمانهم وعقيدتهم ، وثقافتهم وحضارتهم وتعليم أولادهم محافظين على خصائصهم ، وشخصيتهم ، لقد كان لا بد لكم أن تعاهدوا على ذلك ما دمتم مسلمين ، وتتحملون في ذلك كل ما يواجهكم من صعوبة ومحنة ، ولكن من سعادتنا أن دستور البلاد يكفل ذلك ، ويضمن الحقوق المدنية والمساواة لجميع المواطنين وجميع الطوائف والأديان في هذه الجمهورية العلمانية ، وأن تقوموا بأعباء تعليم أولادكم التعليم الإسلامي الديني وتكاليفه ، لأن الحكومة لا دين لها ، وأنها لا تستطيع أن تقوم بتعليم الأديان للطوائف وأن تعتبروا ذلك من أهم واجب عليكم ، وحاجة أشد من حاجة أولادكم إلى الطعام ، والكسوة والتعلم والعلاج ، فإن دينكم يحتمه عليكم ويجعلكم مسؤولين عنه في الدنيا والآخرة .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

ارتباط مسيرة الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم، ودورهم في تكوين وحدةٍ، وتوجيه دعوةٍ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في منظمةٍ إسلامية قياديةٍ، تمثل العالم الإسلامي في إطارٍ واسعٍ كمّاً وكيفاً، وكانت المحاضرة مرتجلةً، نقلت من الشريط المسجَّل.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

أيها السادة! إنني كلما تلوت هذه الآية : وكلما مرَّت بي أثناء قراءة القرآن الكريم ، أثارت فيَّ الدهشة ، وحملتني على تفكُّرٍ وتأمُّلٍ جديدٍ ، لمن يقال هذا؟ وأيُّ وضعٍ كان يسيطر على العالم كلِّه في ذلك الحين؟

كان العالم يعيش عيشةً جاهليةً ، عيشةً ظالمةً مظلمةً ، موبقةً مبيدةً في هذا الجوّ القاتم ، وفي هذه الغاشية التي غشيت العالم كلَّه يقال لحفنةٍ من لبشر[١] أنها إن لم تتألف ، ولم تكن وحدةً تلتقي على العقيدة ، والاهتمام بالبشرية ، ومصير العالم ، ولم تصمِّم على إنقاذ البشرية من الانتحار والانهيار ، وعبادة النفس والأهواء ، والطاقات والثروات ، فضلاً عن الأشجار ، والأحجار ، والحيوانات ، والأنهار (كما كان الشأن في بعض البلاد الواسعة المتمدِّنة كالهند) فالعالم كلُّه على خطرٍ ، والإنسانية في الاحتضار .

يقال لهذه الحفنة البشرية : إن لم تتألَّفوا ، ولم تكوِّنوا وحدةً دينيةً

(١) جاء في صحيح البخاري عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمئة رجل. فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمئة. فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف (كتاب الجهاد والسير، باب كتاب الإمام الناس) قال الحافظ ابن حجر: لعلهّ كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها، ثم رأيت في شرح ابن التين الجزم بأن ذلك كان عند حفر الخندق وحكى الداودي احتمال أنَّ ذلك وقع لما كانوا بالحديبية [فتح الباري: ٦/٢٠٦] والثابت أنَّ سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر حين كان عدد المسلمين كما سبق أو أقلَّ منه .

www.abulhasanalinadwi.org

إيمانيةً ، دعويةً جهاديةً ، مقابل التجمع الكبير والموالاة التي توجد وتشاهد للكفر والجاهلية ، ولم تتضلَّعوا بأعباء الإنقاذ البشريّ من الجاهلية الوثنية ، العقائدية ، والخلقية ، ولم تقبلوا مسؤوليته ، تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير.

كانت هذه المجموعة الإسلامية الصغيرة التي أعبِّر عنها بالحفنة[1] البشرية ، صغيرةً في القامة كبيرةً في القيمة ، والشأن في القيمة لا في القامة ، كذلك يجب أن يكون شأن الأمة الإسلامية في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ ، لأن الاعتبار للروح لا للجسد ، وللعقيدة والإيمان ، لا للعَدد والعُدد ، وللروح السارية في الجسد المسيطرة على العمل والاتجاه ، لا للمظاهر والوسائل.

والعالم البشريُّ الآن يعاني عللاً وأسقاماً ، وموبقاتٍ وأخطاراً لا يوجد لها نظيرٌ في كثير من القرون الماضية ، والعالم الإسلاميُّ نفسه يعاني أهوالاً ومحناً ، فريدةً طريفة ، أنواعاً لم تخطر ببال ، ولم تكن تسنح للخيال ، إنه يعاني مؤامراتٍ ومعارضاتٍ ، وتختلف في الأشكال ، ولكنها تلتقي على نقطةٍ واحدةٍ ، وهي إبادة الأثر الإسلاميِّ ، وأثر التعليمات الإسلامية على العالم الإسلاميِّ ، وإفقاد الثقة بصلاحية الإسلام للبقاء في هذا العهد الراقي المتطور ، فضلاً على صلاحيته لقيادة قطر ، فضلاً عن صلاحيته لقيادة البشرية والمدنية.

وقد التقى في هذا المشروع المدمِّر ، والمخطَّط المبيد ذكاء إسرائيل (وبالأصح شطارة إسرائيل) مع وسائل أمريكا وطاقاتها ، التقى هذان العنصران القويان المبيدان على محو الأثر الإسلاميِّ ، حتى في العالم الإسلاميِّ ، وفي الأقطار الإسلاميَّة ، العريقة في الإيمان بالإسلام ، والتضلُّع بالدعوة الإسلامية ، ونشرها في العالم ، وذات الحمية الإسلامية ، والغيرة الدينية ، والنضال الإسلاميِّ ، وذات الثروات الواسعة الغنية في العلوم الإسلامية الدينيَّة ، والعلمية ، السنِّية ، والفقهية ،

---

(١) الحَفنة والحُفنة : ملء الكفين من الشيء.

www.abulhasanalinadwi.org

والأدبية ، والتي قامت في بعض الفترات التاريخية بمقاومة الهجمات ، والزحفات المتحدية لبقاء الإسلام والمسلمين ، «كالهجوم الصليبيِّ الفاتك ، والزحف التتاري المبيد»(١).

وكان ذكاء إسرائيل واستعراض أمريكا للواقع (رغم وجود تناقض من أشدِّ التناقضات في العقيدة فيما يتصل بنبي الله عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ مصيبين في اختيار هذا العنصر الوحيد الذي يهدِّد الاستعمار الأجنبي ، والتخطيط الأجنبي المدمِّر ، وقد جاء تقرير المصير للأمم والشعوب في أيدي حكومةٍ عالميَّةٍ ، ذات وسائل تجاريةٍ ، ووسائل سياسيةٍ ، ووسائل مدمِّرة ، مع أن مستقبل الإنسانية متوقفٌ على بقاء المسلمين ، هم يوجهون العالم إلى ما فيه السداد ، وإلى ما فيه الرشاد ، وإلى ما فيه السعادة ، وإلى ما فيه النجاة الأخروية ، والسلامة الدنيويَّة ، وإلى ما فيه التآلف والتعاطف ، والتعاون على البرِّ والتقوى.

ثم هناك معركةٌ حاميةٌ أخرى غير طبيعيةٍ ، وغير معقولة. وهي التي استنزفت جهود القادة والسادة ، وولاة الأمور والمفكرين في البلاد الإسلامية ، وهي المعركة الحامية بين الشعوب والجماهير ، والحكومات ، فالحكومات تتجه إلى العلمانية والقومية ، وتنفيذ الحضارة والقيم الغربية ، والثقافة الحرَّة الخاضعة للقيم الغربية ، أو المستوردة من الأقطار الغربية في الأقطار الإسلامية ، والإشفاق والحذر من كل ما يتصل بمطالبة تنفيذ الشريعة المحمدية ، والفكر الإسلامي ، والحضارة الإسلامية في المجتمع الإسلامي ، والبلد الإسلامي.

ونشأت عند قادة الأقطار الإسلامية حساسيةٌ زائدةٌ في هذه القضية ، فالحكومات تتجَّه الاتجاه الغربيَّ العلمانيَّ ، أو القوميَّ ، والشعوب تتجه

(١) قامت مصر بدور رائع حاسم في مقاومتهما وبتراجعهما. والفضل في الأول يرجع إلى صلاح الدين الأيوبي الذي كان حاكماً في مصر عند زحف الصليبيين، وفي الثاني يرجع إلى السلطان ظاهر بيبرس حاكم مصر الذي هزم الجيش التتاري. واضطره إلى التراجع حين كان المثل السائر : «إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدّق».

www.abulhasanalinadwi.org

الاتجاه القديم الإسلاميّ ، فلا الحكومات نجحت في جرِّ هذه الشعوب والجماهير المسلمة إلى الابتعاد عن جادة الإسلام ، ولا الجماهير نجحت في إقناع هؤلآء الحكام والمشرِّعين باستخدام الطاقة الذرّية الهائلة ، التي هي كامنةٌ في نفوس الجماهير المسلمة ، وهي قوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، وطلب الأجر من الله والدخول في الجنة ، القوة الكامنة التي لا بديل لها ، والتي يرجع إليها فضل البطولات الخارقة للعادة ، المحيِّرة للألباب ، والتي أشار الله إليها بقوله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٠٤] .

فالمطلوب من القيادات الإسلامية الدعويَّة ، والفكريَّة ، والثقافيَّة ، مهما صغر حجمها ، ومهما اعترضت لها عوائق ومشكلاتٌ ، ومطارداتٌ ومعوّقاتٌ ، أن تخلِّص بلادها ومجتمعها من هذا النضال القياديِّ الفكريِّ ، والتشريعيِّ ، والتنفيذيِّ ، والحضاريِّ ، والسياسيِّ ، الذي هو في غير أوانه ومكانه ، وتجمع الكلمة والعزيمة على مقاومة النفوذ الغربيِّ ومخططاته السلبية المشفقة من النفوذ الإسلاميِّ ، والكارهة له ، وتجمع الكلمة والطاقات الكامنة في نفوس الجماهير المسلمة ، وتوقد الشرارة الإيمانية في نفوس المسلمين التي صنعت العجائب ، وجاءت بخوارق في التاريخ الإسلاميِّ ، بل التاريخ البشريِّ الطويل ، ولا تقابلها الطاقة الذريَّة المبيدة السلبية ، ولا تنظر في ذلك إلى حجمها ونطاق وسائلها ، وكثرة العوائق والمؤامرات ، واختلاف الزمان والمكان ، ولتكن الآية التي حلَّينا بها هذا الحديث نصب عينها ، ومثيرة عزمها ، وغيرتها .

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الأمم والحضارات
لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات

هذه كلمة ألقاها العلامة الندوي رئيس وفد رابطة العالم الإسلامي إلى دول آسيا الغربية في حلفة أقامها في تكريم الوفد سعادة الشيخ محمد حمد الشبيلي سفير المملكة العربية السعودية في أفغانستان ، وذلك في ليلة يوم السبت الموافق ٨/ يونية ١٩٧٣ ، بفندق كابول .

وقد حضر هذه الحفلة أكثر سفراء الدول العربية والإسلامية وعدد من وزراء أفغانستان ورجال الحكومة وأعيان البلاد والعلماء والمشايخ وأساتذة الجامعة والكليات .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، حضرات السادة الأجلاء!

إنني أنتهز الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقية المصطفاة باسم رابطة العالم الإسلامي التي أتشرف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة ، وأشكر أهل هذه البلاد حكومة وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ، ودماثة الخلق التي قابلونا بها ، ولا غرابة في ذلك ، فالكرم أصيل ، وقديم في هذا الشعب ، وقديماً قالت العرب : «الشيء من معدنه لا يستغرب» وقد تجلت هذه الروح الطيبة ـ بمعناها الواسع ـ في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الإسلام والثقافة والحضارة وحسن الإدارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً ، وكان من المعقول والمتوقع جداً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدة طويلة بحكم وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخر هذه الزيارة إلى هذا الوقت ، ولعل لله في ذلك حكمة خفية .

أيها السادة الأجلاء :

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمون هذه المنطقة الشرقية كلها «خراسان» فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا !!

وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض الطيبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة ، وجودة المناخ ، وكثرة الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولما نزلنا منزلا طله الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، حضرات السادة الأجلاء!

إنني أنتهز الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقية المصطفاة باسم رابطة العالم الإسلامي التي أتشرف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة ، وأشكر أهل هذه البلاد حكومة وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ، ودماثة الخلق التي قابلونا بها ، ولا غرابة في ذلك ، فالكرم أصيل ، وقديم في هذا الشعب ، وقديماً قالت العرب : «الشيء من معدنه لا يستغرب» وقد تجلت هذه الروح الطيبة ـ بمعناها الواسع ـ في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الإسلام والثقافة والحضارة وحسن الإدارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً ، وكان من المعقول والمتوقع جداً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدة طويلة بحكم وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخر هذه الزيارة إلى هذا الوقت ، ولعل لله في ذلك حكمة خفية .

أيها السادة الأجلاء :

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمون هذه المنطقة الشرقية كلها «خراسان» فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا   ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا !!

وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض الطيبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة ، وجودة المناخ ، وكثرة الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولما نزلنا منزلا طله الندى   أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه   منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

www.abulhasanalinadwi.org

وقد كان هذا شأننا عند ورودنا هذه البلاد والشيء بالشيء يذكر ، فقد ذكرتنا هذه البلاد وما حباها الله من الحسن والإحسان شخصية كان لها من الفضل في هذه الحياة الجديدة شخصية نقلتنا من حياة إلى حياة ، ومن عالم إلى عالم، ومن طور إلى طور ، ألا وهي شخصية سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، فقد كنا جسداً ولا روح ، واسماً ولا مسمى ، وصورة ولا حقيقة ، شعوباً لا غاية لحياتها ولا رسالة ، فأفاضت وأضفت هذه الشخصية الحبيبة على هذه الأمم والشعوب شخصية جديدة ومنحتها رسالة جديدة ، أما الشخصية فهي الشخصية الإسلامية القوية التي تجمع أفضل صفات الإنسان ، وعناصر القوة والفتوة والخلق ، وأما الرسالة فهي الرسالة التي عبر عنها رسول العرب المسلمين في مجلس يزدجرد إمبراطور إيران خير تعبير فقال لما سأله الإمبراطور : ما الذي جاء بكم؟ «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» .

يا أصحاب السعادة السفراء ويا أصحاب المعالي الوزراء !

إني أنظر إليكم كممثلين حقيقيين للشعوب والأقطار التي تمثلونها سياسياً وإدارياً ، وأتمنى أن تكونوا أكثر من ذلك وأعظم ، وأعتقد أن مهمتكم يجب ألا تقتصر على الأعمال الرتيبة و«الروتينات» .

إن الشرق يطلب منكم مجالاً أوسع من هذا المجال ، وعملاً أضخم من هذا العمل . إن الشرق اليوم يعيش على هامش الحياة وفي مؤخر الركب ، وإن الغرب يأمره فيطيع ، ويقول فيسمع ، ويقوده فينقاد ، ويعلمه فيتعلم ، لأنه يعيش على فتات مائدته ، إنه لا شخصية له ولا رسالة ، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات ، فيجب أن تبحثوا لهذا الشرق عن شخصية ورسالة ، شخصية فيها القوة والثقة ، شخصية فيها الأصالة والاستقلال ، شخصية فيها الجدة والابتكار ، شخصية فيها الاعتداد والاعتزاز ، ورسالة فيها الإخلاص والنزاهة والعطف والرحمة والعدل والمساواة والإخاء والسلام ، وإنكم لا تحتاجون إلى أن تبعدوا النجعة ،

www.abulhasanalinadwi.org

وتشقوا الشعرة ، فإن هذه الرسالة بمتناول يدكم وبمقربة منكم ، وهي رسالة الإسلام التي أكرمكم الله بها ، وحملكم إياها ، ولسنا في حاجة إلى دين جديد ، إنما نحن في حاجة إلى إيمان جديد بهذا الدين ، ولسنا في حاجة إلى رسالة جديدة ، وإنما نحن في حاجة إلى حماس جديد لهذه الرسالة ، إننا في حاجة إلى تقوية هذه الشخصية الإسلامية ، وتنميتها حتى يعيد التاريخ نفسه ، ويرتد الدهر على أعقابه !

ومعذرتي إليكم إذا كنت تجاوزت حدودي وموضوع هذه الحفلة ومقاصدها ، وإذا بدرت مني كلمة لا تليق بمقامكم السامي ، فللغريب حديث يحتمل، وللضعيف حق لا ينكر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

بين الدين والمدنية

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في الجامعة الملِّية الإسلامية بنيودلهي (الهند) عام ١٩٤٢ م ، حضرها نخبة من كبار العلماء وأساتذة الجامعات .

نالت هذه المحاضرة إقبالاً عظيماً في الأوساط الدينية والدعوية في الهند وخارجها.

نقلها إلى العربية الأستاذ شمس الحقّ الندويُّ.

www.abulhasanalinadwi.org

تساؤلاتٌ مشتركةٌ بين الدِّين والفلسفة والمدنيَّة :

للدين والفلسفة والمدنية تساؤلات مشتركة متشابهةٌ ، يقوم أساس كلٍّ منها على جوابها ، مثلاً : ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ فإن كانت فما هي طبيعتها؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة؟ ثمَّ ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع ، ومن الذي يديره بمثل هذه الدقَّة والنِّظام ، والحكمة البالغة الشَّاملة ، والقانون المحكم المتين؟ وما هي صفاته وصِلتهُ بالإنسان؟ وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به؟ وهل هناك قانونٌ خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم؟ فإن كان فما هي تفاصيله؟ وما هي مكانة الإنسان الصحيحة ، ومنصبه في هذا الكون؟ هل هو حرٌّ طليقٌ لا يتقيَّد بقيودٍ وأحكام ، أم هو تابعٌ محكومٌ؟ هل هو مسؤول أمام أيِّ قوةٍ ومحكمة أخرى ، أم أنه حرّ طليق لا مسؤولية عليه؟ ثمَّ ما هو أسمى مطلوبه؟ .

هذه الأسئلة الأساسية الأوليَّة ، هي التي لا يستطيع أن يهملها أو يصرف عنها النظر ـ ولو للحظة ـ أيُّ نظامٍ له صلةٌ بأعماق الحياة ، وتتعمَّق جذوره إلى نفس الإنسان وعقله ، وتتشعب فروعه ، فتسع جميع أجزاء الحياة الإنسانية ، وتحيط بجميع نواحيها وجوانبها .

الدِّين يدَّعي أنَّه يضمن الإجابة على هذه الأسئلة بحتميَّةٍ ووضوح ، والفلسفة تبحث عن هذه المسائل ، والمدنية (بمعناها الواسع العميق) تقيم بناءها على هذه الأسس والمبادىء ، إننا لا نستطيع أن نبتَّ في أيِّ مسألةٍ من المسائل الحقيقية للحياة قبل أن نردَّ على هذه الأسئلة ، كما أنَّنا لا نستطع أن نُعِدّ أيَّ تخطيطٍ للمدنية والاجتماع بدون ذلك ، وكلُّ مدنيةٍ أو حضارةٍ مهما كانت سطحية مادِّية ، تضمن جانباً من جوانب الإجابة على هذه التساؤلات ، الأمر الذي يقوم مقام الحجر الأساسي لبنائها ، ويؤثِّر من أعماق أساسها إلى ذروة قصورها وقمَّتها على السواء ، فمن هذا المنبع الفكري تنبع جميع

www.abulhasanalinadwi.org

منابع حياتها ، وتتعين اتجاهاتها . إنَّ الاجتماع ، والمعاملات ، والأخلاق ، والسياسة ، والقانون ، والعلم ، والفلسفة ، والتربية ، والثقافة ، وما عدا ذلك من مظاهر الحياة الخارجية منها والداخلية ، كلُّ ذلك ظلّ لهذه الفكرة الأساسية ، فإن كنت على خبرةٍ بأنَّ أمّةً أو مدنيَّةً اختارت في الإجابة على هذه الأسئلة المذكورة الجانب الفلاني؛ يتسنى لك أن تقوم أنت بنفسك بملء كلِّ فراغ أو خليَّةٍ تتضمنها حياتها ، أما إذا كانت عندك معرفةٌ دقيقةٌ لخصائص حياةٍ خاصَّةٍ ، أو مدنيَّةٍ خاصَّةٍ؛ تستطيع أن تتوصَّل إلى الجانب الذي اتخذته ، أو المنهج الذي انتهجته في الإجابة على هذه الأسئلة .

إنَّ هذه الأسئلة تنبع من الفطرة الإنسانية ، وتاريخها قديمٌ كقدم الإنسان ، ولقد انبعثت هذه التساؤلات في كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ ، وأُجِيبَ عليها كذلك ، ثمَّ قامت على أساس هذه الأجوبة فلسفاتٌ وحضاراتٌ مختلفةٌ ، وظهرت نظمٌ عديدةٌ للحياة تقوم بدراستها حيناً لآخر ، وطالما لا تسمح لنا رسومها الظاهرة وزخارفها البارزة بأن نقوم بتحليل عناصرها الأولية ، نطَّلع على طبيعتها التي تمتاز بها عن المدنيات الأخرى .

وهنا نقف وقفةً قصيرةً ، ونبحث عن الوسائل التي تساعدنا في الإجابة على هذه الأسئلة ، وكيف واجهها الناس من قبل ، ولكي نردَّ عليها يجب أن نتفقَّد قوانا ومداركنا قبل كلِّ شيء؛ التي تعيننا على الإجابة الصحيحة على هذه التساؤلات .

وسائل الجواب ونقدها عمليا :

الحواس : إنَّ الحواسَّ الخمس هي الموهبة الكبرى العامّة التي منحها الله إيانا لاكتساب العلم والمعرفة ، والتي نتمكن بها من اكتساب علم اليقين[1]؛ إذ ليست عندنا معارف ومعلوماتٌ أكثر بداهةً وقطعيَّةً من

---

(١) إنَّ كثيراً من فلاسفة الغرب يقولون: إنَّ الحواسَّ وسيلةٌ ضعيفةٌ مشكوكٌ فيها ، لا يعتمد عليها ، يقول نكولاس مليبرانش (Nicolas Malebranche) أحد علماء القرن السابع عشر في كتابه «البحث عن الحق»: إنَّ أكبر مصدر للخطأ هو اليقين =

www.abulhasanalinadwi.org

المحسوسات ، وإننا لم نكتشف هذا العالم ، ولم نرتبط به إلا عن طريق هذه الحواسّ؛ التي اطّلعنا بها على كثيرٍ من القوانين الطبيعية ، والظواهر الكونية ، عندنا ذخائر كبيرةٌ من المناظر والمسموعات ، ومن المرئيات والمحسوسات ، ولذلك فلا بدّ من التفكير في الأسئلة المذكورة أعلاه من جديد والتوصُّل إلى حلّ كلّ سؤالٍ بقوّة هذه الحواس .

أفهل نستطيع أن نفعل ذلك؟ إذاً فلنبدأ بالسؤال الأول : ما هو مبدأ الإنسان ومصيره؟ وأعني بذلك : كيف بدأ العالم ، وإلى ما ينتهي ، ويصير؟ هل تساعدنا في التوصل إلى الإجابة الصحيحة في هذا الباب أبصارنا ، وآذاننا ، وهل تفيدنا حاسّة اللمس ، وحاسّة الذوق ، وحاسّة السمع ، وحاسّة الشمّ في هذا الصّدد فائدةً ما ، ولو فرضنا أنّ هذه الحواس سليمة وقوّية .

إنّنا نشاهد أنّنا لا نستفيد من هذه الحواسّ سوى وجودنا في مكانٍ معين ، فإنّ هذه القوى كلّها تنتهي إلى حدٍّ خاصٍّ أولاً وآخراً ، ولا تتخطّى هذه الحدود التي رسمتها الفطرة . إنّنا لا نستطيع أن نبصر إلا في مساحة معيّنة ، أمّا ما عداها؛ فيرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير ، وكذلك قوتنا السّامعة لا تعمل إلا في نطاقٍ محدودٍ معلومٍ ، أمّا قوى الحس الأخرى؛ فهي أضعف وأقصر مدىً من القوّتين السابقتين .

هل هناك حياةٌ بعد هذه الحياة ، أم لا؟ هذا السؤال لا يدخل في

= الخاطىء بأنّ الحواسّ إنّما أعطيت لأغراضٍ عمليّةٍ تكشف لنا حقيقة الأشياء .

ويقول مونتين(Montaigne) : إنّ علم الإنسان لا يزال ناقصاً ، وإن حواسّه مشكوكٌ فيها ، قابلةٌ للخطأ ، إننا لا نستطيع أن نقول : إنّ الحواسّ كشفت لنا الحقيقة . إنّ العالم يبدو للحواس مطابقاً لطبيعة هذه الحواس ووضعها . إنّ الحواس الظاهرة لا تدرك الأشياء الخارجية إدراكاً كاملاً ولا تستوعب حقيقتها . إنّ جلّ عملها أن ترى طريقةَ إدراكها لهذه الأشياء ، ونحن في حاجةٍ إلى أن تكون عندنا آلةٌ نعرف بها صدق هذه الحواس وكذبها قبل أن نجزم بصحة هذه الحواس في عمليتها ، وهذه الآلة كذلك في حاجة إلى آلةٍ أخرى تنقدها ، وتحكم عليها بالصّحة والخطأ . ودواليك إلى غير نهاية .

www.abulhasanalinadwi.org

اختصاص هذه الحواسّ وفي نطاقها ، فهي لا تستطيع أن تردَّ عليه بإثباتٍ أو نفيٍ ، وذلك لأنَّ هذه الحواسَّ تابعةٌ لهذه الحياة ، داخلةٌ ومحدودةٌ في نطاقها ، فهي لا تستطيع أن تحكم على شيءٍ خارج هذا النطاق سلباً ، أو إيجاباً ، أو تقوم بتصديق أو تكذيب شيءٍ ، وجلُّ ما يمكن عن طريقها هو إنكار وجودها الحسِّيِّ ، لا وجودها المطلق ، فهل هما اسمان لشيءٍ واحدٍ ، والذي ليس محسوساً لا يكون موجوداً! وهل نحن في حياتنا اليومية نعمل بهذا المبدأ ، فالذي لا نحسه لا نؤمن بوجوده؟ كلا! لأنَّ الأمر إذا كان كذلك لن يوجد أيُّ فرق بين الإنسان والحيوان ، وينهار بناء العلم والمدنية انهياراً كليَّاً ، فإن كنا لا نستطيع أن ندرك الحياة الآخرة بحواسِّنا؛ فكيف ندرك تفاصيلها ، وأحوالها الأخرى الكثيرة؟

وكذلك إذا وجَّهنا إلى الحواس السؤال عن هذا الكون من حيث المجموع : ما هو؟ نجدها عاجزةً عن الإجابة عليه. إنَّ الحواسَّ تتمكن من إخبارنا بأجزاء هذا الكون ، وكسوره ، ولا شكَّ أنَّ لهذا الكون مئات من الكسور والأجزاء ، تدركها الحواسُّ ، ولا نزال ندركها بحواسِّنا أيضاً ، ولكن هل تستطيع حواسُّنا أن تكشف لنا عن الرابطة التي تربط بين هذه الوحدات الكثيرة المتناثرة ، فتجعل منها وحدةً متناسقةً متَّزنةً ، كما أنَّها تكشف لنا السبب الحقيقي لهذا الترابط والاتزان ، والمركز الأصيل لهذا العالم ، ذلك الذي يكتسب منه هذا العالم الحياة والقوة والنور ، والارتباط بين العناصر المتناقضة ، والتنظيم بين الأجزاء المتفرقة ، وهكذا يمكن أن نكسب جانباً من العلم بقوانين الطبيعة عن طريق حواسِّنا؛ لأننا نشاهد كثيراً من نتائجها وآثارها ، ونحسُّ بها ، وكثيرٌ منها ما نعلمه بالبداهة ، إنَّنا نجرب كلَّ يومٍ أنَّ النار تحرق ، وأنَّ الماء يروي الغليل ، والسُّمَّ يقتل الإنسان ، أمَّا في مجال الأخلاق؛ فليس عندنا من التجارب والمشاهدات ما نستطيع بها أن نقطع بنتائج الأعمال والأخلاق وخواصِّها ، ونصل بها إلى علمٍ يقينيٍّ ، كما كان شأننا مع النار ، والماء ، والسمِّ ، والدواء في دائرة المحسوسات ، فنعرف أنَّ الظلم مرتعه وخيمٌ ، وأنَّ الكذب ، والخيانة ، والجنايات الخلقية تجرُّ على صاحبها الوبال ، وأنَّها أخلاقٌ ذميمةٌ؛ لأنَّ ذلك

www.abulhasanalinadwi.org

لا يدرك بالحواسِّ ، إنَّ ذلك يحتاج إلى وجدانٍ خلقيٍّ ، أو إيمان دينيٍّ ، والشعور الذي يحصل لنا منه يختلف عن الشعور بوهج النار ، وباحتراق اليد ، وألمها .

وكذلك فيما يتصل بالإنسان ، فإنَّه يتراءى لنا حرّاً طليقاً حبله على غاربه ، يبدو غير مسؤول أمام أيِّ محكمةٍ أو حكومةٍ غير إنسانية ، لا فرق بينه وبين السوائم وسائر الحيوانات ، غير أنَّه ناطق ، أو أنَّه حيوانٌ راقٍ ، ليست له غايةٌ أسمى من أن يحقق شهواته البهيمية بذكائه الإنسانيِّ ، ويمعن في نهب اللذات بكلِّ ما يملك من وسائل .

هذا هو العمل الطبيعيُّ لحواسِّنا الظاهرة ، وتلك هي نتائجها الطبيعية ، ولا أتحدَّث الآن عن مصير البناء الذي يقوم على الاعتماد على هذه الحواسِّ وحدها ، وعن مدى الضعف في بنيانه ، والاعوجاج في جدرانه؛ إذا قام هذا البناء الحضاريُّ على هذه المحسوسات فقط .

العقل :

إنَّ الشيء الوحيد الذي يقف حدّاً فاصلاً بين الإنسان والحيوان هو العقل .

جلُّ هذه القضايا التي تحدَّثنا عنها هي القضايا الإنسانية التي تؤثر في مصيره ، لذلك نرجع إلى العقل الإنساني ، ونلاحظ هل نستطيع أن نحلَّ لُغْزَ الحياة الإنسانية والكون عن طريقه؟ إنَّنا لو نقدنا العقل نقداً عقلياً جريئاً ، مجرَّدين عن سيطرة العقل على العقل ، نرى أنَّ العقل وحده عاجزٌ في أداء وظيفته الطبيعية ، بل هو مضطرٌّ إلى الاستعانة بأشياء هي أقلُّ منه قيمةً ، ففي إدراك ما لم يدركه العقل من قبل ، يحتاج إلى استخدام المعلومات التي حصلت له مسبقاً ، ولا تكون هذه المقدِّمات إلا المحسوسات ، فلو حلَّلت المعقولات كلَّها تحليلاً دقيقاً ، وسمعت قصة رحلة العقل الطريفة والطويلة المدى؛ عرفت أنَّ وسيلة العقل في اكتشاف العوالم الجدد والغوص في البحار المجهولة؛ إنما هي هذه المحسوسات التي تبدو تافهةً حقيرةً ، والمعلومات البدائية التي لولاها ولولا ترتيبها ترتيباً خاصاً؛ لما وصل العقل

www.abulhasanalinadwi.org

إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة الكبيرة ، فحيث تشلُّ الحواس البشرية ، وحيث لا تكون لدى الإنسان ذخيرةٌ من معلومات ، وإذا كان في أمر على جهل تامٍّ بمبادئه ، فهنالك يعجز عقله عن شقِّ الطريق إلى الأمام ، والوصول إلى نتيجةٍ في هذا الموضوع كما يعجز أحدنا عن أن يعبر البحر من غير سفينة ، وأن يطير في الجوِّ من غير طائرة .

فإن شئت جربت ولا تخطئك التجربة ، هب أنَّ رجلاً ذكياً فطناً ليست له معرفة بمبادىء العلوم الرياضية الأولية ، حتى إنه لا يعرف العدد ، لا يستطيع مثل هذا الرجل أن يحلَّ معضلةً من المعضلات الرياضية ، ولو كان على جانبٍ كبيرٍ من الذكاء والألمعية ، كذلك من لم يكن عنده معرفةٌ بالأصول الموضوعة في علم الإقليدس؛ لن يسعه أن يثبت شكلاً من الأشكال ، ولو كان هذا الرجل على قمَّةٍ من الذكاء والفطانة ، كذلك إذا كان الرجل يجهل حروف لغةٍ من اللغات وخطَّها؛ لم يستطع أن يقرأ سطراً من السطور التي كتبت في هذه اللغة ، ولو صبَّ ذكاءه ، وأمعن في القياس ، فالذي لا يعرف مفردات لغةٍ لا يستطيع أن يفهم عبارةً من عبارات هذه اللغة بمجرَّد ذكائه ، أو بقوَّة قياسه ، وعلى ذلك تقاس مبادىء كلِّ فنٍّ وعلم .

فلنرجع الآن إلى التساؤلات السالفة الذكر ، إنَّها ذات الصلة الوثيقة بما بعد الطبيعة ، أو بعالم الغيب على تعبير الديانات وأهلها ، فهل عندنا معلوماتٌ وتجارب حول قضيةٍ من هذه القضايا ، كبداية هذا العالم ونهايته ، وكالحياة بعد الموت ، وهذا الكون ، وخالقه ، ومدبِّره؟ وهل عندنا معلوماتٌ عن ذاته وصفاته ، وغاية الخلق والضوابط الخلقية ، ومركز الإنسان ومكانته؟ أيُّ قضية من هذه القضايا نملك فيها شيئاً من المعلومات الأولية والتجارب العملية ، أو نملك فيها مبادىء نتوصل بها إلى نهاياتٍ ونتائج؟

يجب أن يكون موقف العقل من هذه القضايا كلِّها أن يسكت سكوت المحايد؛ إذ لا يسعه أن يثبت هذه المسائل بقوَّته ، أو يأتي لها بشرح ، كما لاحقَّ له قانونياً أن يتناولها بالإنكار من أجل عجزه عن إثباتها وتقريرها ،

www.abulhasanalinadwi.org

كالأعمى لا يسوغ له أن ينكر مشاهداتٍ وتجارب رجلٍ بصيرٍ على أساس عدم إبصاره لها ، فلا يخوِّل له عاقلٌ هذا الحق ، وأكثر ما يستطيع أن يفعل هو أن ينكر مشاهداته الشخصية ، كذلك ليس للأعمى حقٌّ في أن يتناول مشاهدات البصير بالشرح والتفصيل ، فإنَّه لا سبيل له إلى ذلك لعماه ، وليس في استطاعته؛ إذ أنه لا يدركها إدراكاً ما ، لكنَّ الفطرة الإنسانية غيرُ قانعةٍ ، وطبيعتها : الفحص ، والتجسُّس ، ومحاولة إدراك ما لم تدركه ، ولذلك فإنَّها بدأت بالتجسُّس في هذه المسائل الخاضعة لطبيعتها ، والعامل القويُّ الذي حرَّضها على عملها هذا هو إعجاب أدعياء العقل بعقولهم ، فأجابت عليها بعقلها ، وفهمها ، وقياسها ، وعيَّنت لها تفاصيلها ، وذلك القياس والتقعير هو الذي يسمَّى بالفلسفة .

الـفلسـفـة :

وسوف لا يكون أيُّ اكتشافٍ علميٍّ لأيِّ طالبٍ متمتِّعٍ بالفطرة السليمة في تاريخ العلم الإنسانيِّ كلِّه أبعث على الغرابة من اكتشاف أنَّ الفلسفة التي تدَّعي أنَّها مؤسسةٌ على العقل والاستدلال ، وعلى الأصول المنطقية؛ استمرَّت نحو ألفي سنة وخمسمئةٍ[1] في البحث عن قضايا لم تكن لديها أيُّ معلوماتٍ عنها ، حتى عن مبادئها الأولية ، وظلَّ النوابغ والأذكياء تائهين إلى هذه المدَّة الطويلة وراء غايةٍ لم يكن عندهم من معالمها شيءٌ ، إنَّهم بحثوا عن ذات الله وماهيته ، وعن صفاته وحقيقتها ، وعلاقتها بالذات ونسبتها إليها ، وكيفية ظهور هذه الصفات ، وصدور أفعال الله وكيفيتها ، وحدوث العالم وقدمه ، وعن الحياة بعد الموت ، وعن قضايا أخرى من الإلهيات ، وما بعد الطبيعة في ثقةٍ وقطعيَّةٍ وتفصيلٍ وتدقيقٍ ، مما لا يوجد إلا عند الخبير الكيماوي لدى قيامه بالعمل التحليلي والتجارب الكيماوية .

ومما يبعث على الاستغراب : أنَّ الناس لم يتفطَّنوا لهذا الخطأ في حياة الفلسفة الطويلة ، ولم ينتبهوا لهذا الخطأ المبدئيِّ بالرَّغم من جولتهم في

(١) مات سقراط سنة ٣٩٩ ق . م . وكانت قد ظهرت الفلسفة إلى حيز الوجود من قبل .

www.abulhasanalinadwi.org

ميدان النقد والبحث بكلّ حرِّيَّةٍ ، وكذلك لا توجد في مكتبة الفلسفة الضخمة أسماء فلاسفةٍ رفعوا أصواتهم ضدَّ هذه الطريقة الخاطئة إلا نادراً جداً.

وهذا الإمام الغزاليُّ الذي كان مطَّلعاً على حدود العقل اطلاعاً جيِّداً ما كان ركونه إلى التصوُّف ومشاهدة الحقِّ إلا بعد أن عرف عجز الفلسفة واندحارها ، إنَّه صرَّح في مؤلفاته في عدَّة مواضع بأنَّ علوم الفلسفة في العلوم الإلهية ومسائلها ظنونٌ وتخميناتٌ لا أساس لها ، بخلاف علومهم الطبيعيَّة والرياضيَّة. يقول في كتابه: «تهافت الفلاسفة»: «إنهم يحكمون بظنٍّ وتخمينٍ من غير تحقيقٍ ويقينٍ» ، ومن الغريب أنَّ الغزالي لم يتخذ هذا المبدأ أساساً للنقد في نفس هذا الكتاب الذي يختصُّ بالردِّ على آراء الفلاسفة وأفكارهم في الإلهيات ، بل جعل أساس النقد تناقض أقوال الفلاسفة ، واختلافها ، وتهافت أدلتهم العقلية.

والذي تفطَّن لهذه النكتة في تاريخ الفلسفة العربية تفطُّناً جيداً ، وقرَّر في دقةٍ وبلاغةٍ أنَّ بضاعة الفلاسفة في الإلهيات وما وراء الطبيعة بضاعةٌ مزجاةٌ ، هو نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م) الذي لم يكن فيلسوفاً مشهوراً في علوم ما بعد الطبيعة ، في معنى المصطلحات الفنيَّة الضَّيقة ، ولكنَّه كان حكيماً مفطوراً على العمق وسلامة الذوق ، وكان قد رزق عقلاً كبيراً ، لا يقبل ذهنه السليم شيئاً معوجاً مفترضاً ، إنه تناول هذا الأصل بالنقد في عدة مواضع من مقدمته الشهيرة ، وكان عارفاً بحدود العقل ، وبالمناسبة نقتطف من مقدمته ما يوضح الموضوع ، يقول رحمه الله:

«ولا تثقنَّ بما يزعم لك الفكر من أنَّه مقتدرٌ على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كلِّه وسفِّه رأيه في ذلك ، واعلم أنَّ الوجود عند كلِّ مدركٍ في بادىء رأيه منحصرٌ في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحقُّ من ورائه ، ألا ترى الأصمَّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من

www.abulhasanalinadwi.org

الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردُّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقرّوا به ، لكنَّهم يتَّبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف ، لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ، ونطق؛ لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطةً لديه بالكليَّة .

فإذا علمت هذا؛ فلعلَّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا؛ لأنَّ إدراكاتنا مخلوقةٌ محدثةٌ ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهولٌ ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط؛ فاتَّهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتَّبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك؛ لأنَّه من طورٍ فوق إدراكك ، ومن نطاقٍ أوسع من نطاق عقلك ، وذلك ليس بقادحٍ في العقل ومداركه ، بل العقل ميزانٌ صحيح ، فأحكامه يقينيةٌ لا كذب بينها ، غير أنَّك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد ، والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكلَّ ما وراء طوره ، فإنَّ ذلك طمعٌ في محالٍ ، ومثال ذلك: رجلٌ رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك ، وهو لا يدلُّ على أن الميزان في أحكامه غير صادقٍ ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدَّى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنَّه ذرةٌ من ذرات الوجود»[١] .

وقد أشار إلى ذلك العالم الكبير شيخ الإسلام عبد الحليم أحمد بن تيمية (م ٧٢٨) في مؤلفاته في عدة مواضع ، وأبان هذه الحقيقة في بحوثه الكلامية مراراً ، إنَّه ردَّ على أخطاء المتكلمين أصلاً وفرعاً بكل جرأةٍ وشجاعةٍ[٢] .

وأما من كشف الغطاء عن هذا الانخداع النفسي في دور الفلسفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ الطبعة البهية المصرية .

(٢) راجع مؤلفاته (نقض المنطق) و(الرد على المنطقيين) وكتاب (النبوءات) على سبيل المثال .

www.abulhasanalinadwi.org

الأخيرة ، ودحض طلسم الفلسفة الخيالية هذا ، هو العالم الألماني (إيميونول كانت Emmanuel Kant) (١٧٢٩ ـ ١٨٠٤ م) الذي عيَّن حدود العقل ، متجاسراً ، مصرحاً ، مبيناً ، كما يقول الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال في كتابه (تجديد الفكر الإسلامي): «إنه هدم أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تراب ، وذلك عن طريق كتابه الشهير (نقد العقل الخالص (Critique of Pure Reason).

فإن رفع أحدٌ خلال هذه القرون المتطاولة صوتاً ، لم يصادف من الناس آذاناً صاغية ، وذهب صوته أدراج الرياح ، دون أن تقف الفلسفة في سيرها الحثيث وقفة تفكيرٍ ، أو تأمل.

الفلسفة الدينية:

من تمام العدل أن ننتقد في هذه المناسبة تلك الفلسفة التي نشأت بإزاء الفلسفة القديمة للدفاع عن الدين ، ولكنها لم تكن الفلسفة بذاتها ، وإن كانت تشبهها في الموضوع ، وفي طريق البحث ، والاستدلال ، والفكر الأساسيِّ ، أعني: محاولة إثبات ذات الله ، وصفاته ، وقضايا ما وراء العقل عن طريق العقل ، وهما بالرَّغم من الخلاف ، والصراع بينهما ، تلتقيان في الأساس ، وأعني بالفلسفة الدينية هذه ، علم الكلام ، ذلك الذي حلَّل. ودقَّق هذه المسائل الإلهية وقضايا ما بعد الطبيعة ، مثل الفلسفة ، وأتت بتدقيقات وتقعيرات كانت سمة الفلسفة اليونانية وشعارها ، وإن كان كلٌّ منهما يختلف عن صاحبه في النتائج التي توصَّل إليها ، والغايات التي توخَّاها.

ومن الغريب الطريف أنَّ هذه الفلسفة الدينية عندما برزت لمحاربة هذه الفلسفة والهجوم عليها بنفس الأسلحة؛ ردَّ بعض الفلاسفة وقتذاك هذا الهجوم بسلاحٍ كان من المتوقَّع المعقول أن يستخدمه علماء الكلام وعلم التوحيد ، وكان أمضى سلاحٍ في الحقيقة في الهجوم على الفلسفة اليونانية ، ولعلَّ علماء الكلام ذهلوا عنه في المعركة الكلامية التي خاضوها ، وأعني به تحديد العقل الإنساني ، ونقد وسائل العلم ، ومن

www.abulhasanalinadwi.org

العجب العجاب أنَّ المتكلمين ما تنبهوا لهذا السلاح على الرغم من استخدام الفلاسفة له ، ولجوئهم إليه ، وما زال الفريقان آخذين بتلابيب بعضهم البعض ، إلى قرونٍ طويلةٍ باحثين في المسائل والبحوث الفروعية بصرف النظر عن هذا البحث المبدئي .

على كلٍّ فإنَّ ارتفاع هذا الصوت على لسان الفلسفة مهما كان خافتاً ومتأخِّراً من أوانه ، لم يكن خالياً من فائدة ، ولقد صنَّف الإمام الغزالي كتاباً سمَّاه : (تهافت الفلاسفة) كردٍّ على الفلسفة بعدما تشبَّع من الفلسفة ، وثارت في نفسه شكوكٌ منها ، وقد أثار هذا الكتاب قلقاً في الأوساط الفلسفية . إنَّ القاضي ابن رشد الأندلسي الذي كانت وفاته بعد الغزالي بتسعين سنة ، والذي كان يعتبر من كبار المحامين للفلسفة اليونانية ، ومن كبار المتحمِّسين لفلسفة أرسطو ، ردَّ على الغزالي بكتابٍ أسماه : (تهافت التهافت) مدافعاً عن جماعته ، إنَّه يقول في هذا الكتاب ، محتجّاً ضدَّ بحوث الغزالي الفلسفية :

«هذا كلُّه عندي تعدٍّ على الشريعة ، وفحصٌ عمَّا لم تأمر به الشريعة ، لكون قوى البشر مقصرةً عن هذا ، وذلك أن ليس كلُّ ما سكت عنه الشرع من العلوم يجب أن يفحص عنه ، ويصرَّح للجمهور بما أدَّى إليه النظر : أنه من عقائد الشرع ، فإنه يتولَّد عن مثل هذا التخليطُ العظيم ، فينبغي أن يمسك عن هذه المعاني كل ما سكت عنه الشرع ، ويعرف الجمهور أنَّ عقول الناس مقصرةٌ عن الخوض في هذه الأشياء»[1] .

أما الكتاب الذي صنَّفه في الرد على المتكلمين باسم «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة» فقد أثبت فيه قوة الاستدلال القرآني ، وتفوُّقه إزاء أسلوب الاستدلال الكلامي بقطعيةٍ ، ويعتبر نموذجاً جيداً لسلامة فهمه ، إنَّه أبان فيه في عدة مواضع عجز الجمهور عن إدراك هذه الأمور والمسائل ، إنني أوافق رأيه هذا كلياً ، بأنَّ قوى البشر وعقولهم مقصَّرةٌ عن إدراك هذه المسائل ، والبحث عنها ، والتأمُّل فيها ، ولكنني لا أعتقد

(١) تهافت التهافت ص ١١٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

الفلاسفة إلا بشراً ، وما كان أفلاطون ، وأرسطو ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد نفسه ، إلا أفراداً من النوع البشري فيما أعتقد ، فكانوا كسائر أفراد الجمهور مكلفين بأن عرفوا قدرهم ، ويؤمنوا بأن عقولهم كعقول سائر الناس مُقصِّرةٌ عن الخوض في هذه الحقائق التي لم يرزقوا وسائل الاقتناع بها ، والاحتواء عليها ، ولم يملكوا من المعلومات الأوليَّة والمواد والمقدمات ما يتوصلون بترتيبها إلى النتائج القطعيَّة والمعرفة الصحيحة .

وكانت طبقة المعتزلة أكثر تنوراً وأخضع للعقل من بين هؤلاء الفلاسفة الدينيين الذين قاسوا الله على الإنسان ، والآخرة على الدنيا ، ثم بحثوا عنهما من حيث الأحكام الإنسانية وقوانين هذا العالم بغايةٍ من الجرأة والحرية ، وبصرف النظر عن حدود العقل تماماً ، ولعلَّ هذا الضعف مرافقٌ للمرحلة البدائية للعقلانية (عندما يكون العقل في دور الطفولة) ، إن عالماً معاصراً ومؤرخاً كبيراً قد ظلَّ معجباً بالمعتزلة ، معترفاً بخدماتهم العلمية يحدِّث عن ضعفهم هذا بإنصافٍ وصراحةٍ ، يقول الدكتور أحمد أمين :

«ولعلَّ نقطة الضعف فيهم أنَّهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، أعني في قياس الله على الإنسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله ـ مثلاً ـ بالعدل كما يتصوره الإنسان ، وكما هو نظامٌ دنيوي ، وفاتهم أنَّ معنى العدل ـ حتى في الدنيا ـ معنىً نسبيٌّ يتغيَّر تصوره بتغير الزمان ، وأنَّ ما كان عدلاً في القرون الوسطى يعدُّ ظلماً الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله ـ وكذلك الشأن في قولهم في الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ـ إنَّا نرى أنَّ الإنسان إذا ضاق نظره حكم على الأشياء حكماً ، فإذا اتَّسع تغيَّر حكمه»[1] .

«وكذلك قولهم في أنَّ صفات الله هي عين الله ، أو غير الله ، كلُّ براهينهم مبنيةٌ على قياس الغائب على الشاهد ، ولكن الشَّبه معدومٌ ، وقد فرضوا أنَّ العينية ، والغيرية ، والزمانية ، والمكانية ، والسببية ، والمسببية ، ونحوها قوانين لازمةٌ لكلِّ موجودٍ ، وهذا ـ في نظري ـ خطأٌ

(١) ضحى الإسلام ص ٦٩ ، ج ٣ (المعتزلة) .

www.abulhasanalinadwi.org

محضٌ ، فيه قوانين إنسانيةٌ ، وإن تسامحنا قليلاً قلنا: إنها قوانين عالمنا هذا ، لسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا ، أو لا تنطبق ، فإصدار حكمنا على الله على اعتقاد أنَّها قوانين شاملةٌ للإنسان والله جرأةٌ لا يرتضيها العقل الذي يعرف قدره ، ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعدهم من علماء الكلام كذلك»(١) .

الإشـراق:

بإزاء الحركة (العقلانية والفلسفة) حركةٌ قديمةٌ أخرى ، وهي الإشراق والروحانية ، وكانت مصر والهند مركزاً كبيراً لهذه الحركة في الزمن القديم ، ونالت هذه الحركة قبولاً في اليونان والروم ، بتأثير الديانات الشرقية واختلاط المصريين كردِّ فعلٍ طبيعيٍّ للعقلية المتجاوزة عن الحدِّ ، ولكن مركزها الكبير الذي ازدهرت فيه ، هي (الإسكندرية) التي كانت ملتقى العقلية الشرقية والغربية والديانات ، وهي كانت في مصر نفسها .

والمبدأ الأساسي لهذه الحركة ولهذا النظام: أنَّ الحواسَّ والعقل ، والعلم ، والقياس ، والاستقراء ، والبرهان ، والاستدلال ، والنقد ، والتحليل لا يفيد شيءٌ منها في معرفة الحق واليقين في قليلٍ ، أو كثير ، بل يقف حاجزاً منيعاً ، وحجاباً صفيقاً في العثور عليه ، ويجني على صاحبه ، ولا بدَّ من المشاهدة لحصول الحقيقة على وجه اليقين ، ولا تمكن هذه المشاهدة ، إلا بتنبيه حاسَّةٍ داخليَّةٍ من نور الباطن ، وتزكية النفس ، الحاسَّة التي تدرك الروحانية وما وراء الطبيعيات ، كما تدرك العيونُ الأشياء الظاهرة ، ولا تنتبه هذه الحاسة إلا إذا قضي على الماديَّة ، وأميتت الحواسُّ الظاهرة ، ولا يمكن تحصيل الحقائق إلا بهذا العقل الخالص الصميم (حكمة الإشراق) وبهذا النور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولَّد بالمجاهدات ، وإماتة النفس ، والفكر والمراقبة .

والحقيقة أن كلاًّ من الفلسفة والإشراق يتجهان اتجاهاً واحداً ، وتسيطر عليهما روحٌ واحدة ، فكما أنَّ الفلسفة وعلم الكلام تجتهدان لمعرفة

(١) أيضاً ص ٧٠.

www.abulhasanalinadwi.org

الحقيقة ، كذلك يعتمد أهل الإشراق على قواهم الباطنة ، ومجاهداتهم الداخلية ، فالحقيقة أنَّ غاية الفريقين (الفلسفة والإشراق) واحدةٌ ، وإن تعددت الطرق ، فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التحلُّق في الجوِّ ، أو عن طريقٍ خفيٍّ من سرداب ، ولا شكَّ في أنَّ ما وراء المادة عالماً آخر لا تدركه الحواسُّ الظاهرة ، وكما أنَّ عند الإنسان قوةً باطنيَّةً وحاسةً داخليةً لو أثارها الإنسان وربَّاها لاستطاع أن يدرك كثيراً من عجائب هذا الكون وموجوداته التي لا يمكن إدراكها بحاسة من الحواسِّ الظاهرة.

ولكن ما هو المحصول؟ سوى إثبات حاسَّةٍ باطنيةٍ غير هذه الحواسِّ الظاهرة ، وإثبات عالم لا يمكن إدراك حقائقه وأسراره بالحواسِّ الخمس.

وأقول: إنَّ وجود هذه الحاسة الزائدة أمرٌ لا شكَّ فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواسُّ أخرى كهذه ، كما يصحُّ أن تكون هناك عوالم أخرى غير هذا العالم تستلزم لإدراكها قوىً تليق بها ، وتناسبها.

وعلى كل حالٍ فإنَّها حاسَّةٌ إنسانيةٌ ، ضعيفةٌ محدودةٌ ، مثل الحواس الأخرى ، قابلةٌ للخطأ والتأثر والخضوع للعوامل الخارجية ، شأن سائر القوى الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أنَّ هذه الحاسَّة ليست محدودةً ولا قابلةً للأخطاء ، ولا تتعرض محسوساتها ومشاهداتها للغلط والانخداع والغرور بالنفس؟

ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارضٌ ولا تناقضٌ ، ولم يخالجها اضطرابٌ أو إمكان للخطأ ، ولم تتورط في مزالق وأغاليط في القضايا المهمَّة الحاسمة ، كما هو الواقع.

ولكن بالعكس من ذلك نرى أنَّ في محسوسات هذه الحاسَّة ، وتحقيق هذا العالم تعارضاً واختلافاً أكثر مما يقع في محسوسات الحواس الظاهرة ، وفي علوم أهل الكشف والإشراق من التناقض ما لا نظير له إلا في الفلسفة فيما أظنُّ.

خذوا الإشراقية الجديدة مثلاً ، فإنَّ في عقائد رائديها وأعمالهم خلافاً

www.abulhasanalinadwi.org

شديداً ، إن مؤسس الإشراقية الجديدة (فلاطينس Plotimus) لا يعترف بنظام عصره الدينيِّ والعبادات ، بل إنَّه فيلسوفٌ حرٌّ ، لا يؤمن إلا بالتفكير والمراقبة ، ولكن تلميذه النجيب (بارفري Porphyry) زاهدٌ متقشفٌ وصوفيٌّ.

كان فلاطينس يعتقد أنَّ الروح الإنسانية تنتقل إلى قالب الحيوانات ، ولكن (بارفري) منكرٌ لذلك ، والإمام الثالث الأكبر لهذا الموضوع هو براكلس (Proclus) كان خاضعاً لتقاليد مصر الدينية وعاداتها جميعاً ، وكان يعبد الشمس في النهار ثلاث مرَّات ، أما دينه الذي كان يدين به فكان مزيجاً لمعتقداتٍ مختلفةٍ ، ومذاهب متعددةٍ ، وكل هؤلاء كانوا من أهل المشاهدات واليقين.

ثم هذه الإشراقية الجديدة التي كانت منافسةً للمسيحية بقيادة بارفري ساعدت (جولين Julian) في عصره في حركة إحياء الوثنية الرومية والجاهلية (paganism) وأيَّدت بحماسٍ الوثنية والجاهلية المشركة تأييداً كبيراً[١] ، نور الإشراقيِّين وقوة باطنهم ، لم يمنعهم عن هذا العمل القبيح ، بل ربطت الإشراقية الجديدة مصيرها بسفينة هذه الجاهلية الغارقة ، كما صرَّح بذلك محاضر «دائرة المعارف للدين والأخلاق» ويقرِّر هذه الحقيقة فيلسوفٌ هنديٌّ معاصرٌ هو الدكتور رادهاكرشنن Radhakrishnan) مؤلف كتبٍ كثيرةٍ في الفلسفة الهندية ، ومحاضرٌ في جامعة (كامبردج Gambridge) الإنجليزية ورئيس الجمهورية الهندية سابقاً ، فيضرب الأمثال لوقوع الخلاف الجوهري في تأمُّلات الإشراقيين والروحانيِّين القدماء في الشرق والغرب فيقول:

«كما أنَّ نتائج الكشف والتأمُّل الإشراقي في الشرق مثل (أوبنشد) و(بهكوت كيتا) و(شنكرا) و(رام نج) و(رام كرشنن) و(البوذية) وكشوف الشيخ جلال الدين الرومي ، ومشاهداته يختلف بعضها عن بعض ، كذلك يوجد الخلاف في الغرب في فكر (أفلاطون Plotinus) و(بال Paul) و(براكلس Proclus) و(تاولر Tauler) و(فلاطينس Plotinus) و(إكارت

---

(١) موسوعة الدين والأخلاق (Neo plationism).

www.abulhasanalinadwi.org

ECkharat) ، وليس هذا الخلاف بسبب الجو ، أو باعتبار الأحوال الجغرافية ، بل إنَّ إشراقيي جيلٍ واحدٍ وثقافةٍ واحدةٍ يختلفون في الاتجاهات والتقاليد»[١].

ولا بدَّ من التصريح بحقيقة أنَّ الكشف والإشراق كانا قد نالا أهمِّيَّةً واعتباراً كبيراً بين الصوفية المسلمين ، حتى أنك لتجد فيهم اتجاهات ومحاولاتٍ لمشاهدة الحقِّ واليقين عن طريق الكشف ، على أنَّ الوسيلة لذلك لم تكن ولا تكون إلا العلم القطعي الذي جاءنا عن طريق محمَّدٍ ﷺ ، القائم على الوحي والتنزيل ، وكان ذلك العلم بمتناول يد الصوفية المسلمين ، في كلِّ وقتٍ ومكانٍ؛ إذ كان الإشراقيون في اليونان والهند بمعزلٍ عنه ، ولم يدركوا ذلك النور الذي أشرق من جزيرة العرب.

وقد جاء في رسالة الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي (م ١٢٤٠ م ـ ٦٣٨ هـ) التي وجهها إلى الإمام فخر الدين الرازي ، وقد جاء في هذه الرسالة:

«ويجلُّ الله سبحانه أن يعرفه العقل بنظره وفكره ، فينبغي للعاقل أن يخلِّي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله من حيث المشاهدة».

ويستمرُّ في كلامه ، ثمَّ يقول: «فارفع الهمة في ألا تأخذ علماً ، إلا منحه سبحانه على الكشف ، فإنَّ عند المحقِّقين ألا فاعل إلا الله ، فإذاً لا يأخذون إلا عن الله ، لكن كشفاً لا عقلاً ، وما فاز أهل الهمَّة إلا بالوصول إلىٰ عين اليقين أنفة بقاءٍ مع علم اليقين»[٢].

وكذلك المرحلة التي اطمأنَّ فيها قلب الإمام الغزالي في رحلة البحث عن الحقِّ واليقين ، هي أن مشاهدة الحقيقة وعين اليقين لا يحصلان إلا بطريق الإشراق ، وصفاء النفس ، كما صرح بذلك في كتابه (المنقذ من الضلال) ، يقول:

---

(١) الديانات الشرقية والفكر الغربي. Eastern Religions And Western Thought. Oxford University press London (1940) p. 46.

(٢) ثلاث رسائل.

www.abulhasanalinadwi.org

«واعلم أنَّ هذا هو الحقُّ اليقين عند العلماء الراسخين في العلم ، أعني : أنَّهم أدركوه بمشاهدةٍ من الباطن ، ومشاهدة الباطن أقوى وأجلُّ من مشاهدة الأبصار ، وترقَّوا فيه عن حدِّ التقليد إلى الاستبصار»(١) .

إنَّ أهل الكشف والإشراق من المسلمين يُحتمل وقوع الخطأ في كشفهم ومشاهداتهم أيضاً ، ووجود الخلاف والتعارض في نتائج تأملاتهم ومجاهداتهم النفسية ، فإنَّ واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أنَّ كشفه بعيدٌ عن الحقيقة ، غيرُ مطابقٍ للأصل ، وقد يحمله على السكر وغلبة الحال ، وقد يقول : إن هذه المرحلة مؤقتةٌ بدائيةٌ يمرُّ بها السالك ويتقدَّمها ، وهناك تبدو له مشاهداتٌ وكشوفٌ خلاف ما رآه في المرحلة الأولى .

لا يخفى على أهل العلم ما للشيخ محيي الدين بن عربي من مكانةٍ عليا في الكشف والإشراق . يقول عنه إمامٌ آخر صاحب الكشف والمكانة العليا في الربَّانية الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٦ م) المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني ، في إحدى رسائله :

«من أعجب الأمور أنَّ الشيخ محيي الدين بن عربي يبدو من المقبولين عند الله ، ولكن أكثر علومه التي جانب فيها مذهب أهل الحق (أتباع الكتاب والسنَّة) يتجلَّى فيها الخطأ والبعد عن الصواب»(٢) .

ويقول الشيخ في مكانٍ آخر : «إنَّ أكثر معارفه الكشفية التي خالفت علوم أهل السنَّة بعيدةٌ عن الصواب»(٣) .

يعرف الجميع الخلاف المشهور بين الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ أحمد السرهندي المجدد في مسألة وَحدة الوجود ، وتحقيق كلٍّ واحدٍ منهما يقوم على المشاهدة الشخصية ، والكشف ، وقد قال الشيخ المجدد عن شيخه الكبير عبد الباقي الدهلوي وعن نفسه : «بأنهما كانا في مقامٍ استولت

(١) المنقذ من الضلال .
(٢) مجموع رسائل ج ١ ، رقم ٢٦٦ .
(٣) أيضاً .

www.abulhasanalinadwi.org

عليهما فيه فكرة وحدة الوجود ، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدةً بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي ، فسما بهما إلى مقام أسمى من هذا المقام ، رجعا عنه» ، يقول الشيخ المجدد:

«وإن كان شيخي الشيخ الكبير عبد الباقي البدخشي الدهلوي قائماً على نظرية وحدة الوجود كما تظهر من رسائله ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى قد رقَّاه من هذا المقام البدائي ، وأخرجه من مضيق هذه المعرفة ، إلى جادةٍ واسعةٍ ، وإلى الصراط المستقيم»[١].

ويقول أحد تلاميذه وخواصِّه الشيخ عبد الحق[٢]: إنَّ الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي قال قبل وفاته بأسبوع: «إنَّني عرفت بعين اليقين أنَّ وحدة الوجود طريقٌ ضيِّقٌ ، أما الآن فحصل لي يقينٌ آخر ، وهو أنَّ الطريق غير هذا» ، ويقول في نفس هذه الرسالة: «وقد قضيتُ مدَّةً في حضرته معتقداً لهذا المشرب ، كنت على نظرية وحدة الوجود لأجل سيدي ، وقد لاحت لي مقدماتٌ كشفيةٌ في تأييد هذا الطريق ، ولكن عناية الله جلَّ وعلا أخذت بيدي ، وشرفتني بعده بمقامٍ هو أسمى من هذا المقام ، وطورٍ هو وراء الطور»[٣].

إنَّه يتحدث في إحدى رسائله رداً على سؤالٍ: عمَّا إذا كان يمكن وجود الخطأ في العقل والعلوم الروحانية؟ فيقول:

«سؤال: إنَّ العقل في حدود ذاته ، وإن كان ناقصاً في فهم أسرار الأحكام الإلهية ، ولكنه لماذا يستطيع بعد التزكية والتصفية أن يقترب إلى الله تعالى بطريق مباشرٍ بحيث يتلقَّى الأحكام الإلهية من الله تبارك وتعالى من غير حاجةٍ إلى نبيٍّ يبعث ، ويتلقى الوحي بواسطة الملك».

---

(١) يعني عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي تقوم على الفرق بين الخالق والمخلوق والعبد والمعبود.

(٢) لعل المراد به العلامة الشيخ عبد الحق بن يوسف الدين البخاري الدهلوي أحد كبار ناشري علم الحديث ، وحامل لوائه في الهند ، مات سنة ١٠٥٢ هـ.

(٣) مجموع رسائل ج/١ ، مكتوب رقم/٤٣.

www.abulhasanalinadwi.org

وهذا السؤال تعبيرٌ عن مذهب الإشراق ، فلنقرأ جوابه على لسان رجلٍ قد سلك الطريقين ، وعنده تجربةٌ عمليّة بهذه «التصفية » و«التزكية»يقول رحمه الله مجيباً عن ذلك :

«مهما اقترب العقل ، واتّصل بالله تعالى إلى أنّ علاقته بهذا الجسم المادية لا تزول بتاتاً ، ولا يستطيع أن يتجرّد عنه تماماً ، فلا بدّ من حدوث الأوهام والشبهات بصفةٍ دائمةٍ ، ولا تفارقه القوة المتخيلة ، والشهوانية ، والغضبية بأيّ حالٍ ، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفةٍ مستمرّةٍ ، أضف إلى ذلك صفات السهو ، والنسيان ، والخطأ التي هي من لوازم النوع البشريّ ، لا تنفكُّ عنه أبداً .

ولذلك فإنّ العقل ليس موضع ثقةٍ في قضية الأحكام الإلهية التي إذا تلقّاها؛ لم تكن بنجوةٍ عن موضع الشك والارتياب ، ولا تفارقه شائبة النسيان ، ومظنّة الخطأ ، بخلاف المَلَك الذي هو مصونٌ عن جميع هذه الصفات البشرية وبعيدٌ عن هذه الرذائل ، فلا بدّ من أن يكون محفوظاً عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان .

وفي بعض الأحيان يبدو أنّ العلوم التي أخذت بالتلقّي الروحانيّ ، تنضمُّ إليها ـ وهي في طريقها إلى القوى والحواس الباطنية ـ أمورٌ لا نصيب لها من الواقعية كانت من القضايا المسلّمة عند هذا الرجل ، وكان مصدرها الوهم والخيال (أو العقائد الموروثة ، والتقاليد الشائعة في أمّته أو مجتمعه) وتمتزج هذه الرواسب بهذه العلوم التي تلقّاها عن طريق الروح ، أو صفاء النفس ، أو المجاهدة من غير أن يكون لإرادته دخلٌ في هذا ، أو أن يكون له شعورٌ به امتزاجاً كليّاً ، لا يستطيع معه أن يميز بين هذا الأصل وتلك الظلال ، وقد يكشف الله هذا الخلط ، وقد لا يكشف ، فلا شكّ أن تلك العلوم الصحيحة تصبح مشكوكاً فيها بعيدةٌ عن الصواب غير جديرةٍ بالثقة والاعتماد لهذا الاختلاط بين الحقّ والباطل ، وامتزاج الخالص بالزائف» .

وفي الحقيقة ـ كما قرر الشيخ المجدد ـ أيُّما قوةٍ من قوى الإنسان العقليّة أو الروحانيّة لا تتجرّد عن التأثيرات الخارجية ومفعول الحواس كلياً ، بل

www.abulhasanalinadwi.org

لا بدَّ من أن تتأثر مشاهداته وتحقيقاته ببيئته ، وأفكاره ، وعقائده ، ومقدَّماته المسلمة عنده ، أو عند جماعته وقومه.

ولذلك كان الإشراقيون ، الإغريق والمصريون يرون في كشفهم ومشاهداتهم تأييداً لكثيرٍ من الأوهام المصرية واليونانية وأخيلتهم ، كما كان الإشراقيون المسلمون تتراءى لهم المفروضات التي افترضها فلاسفة اليونان حقائق ثابتةً وموجوداتٍ مسلمةً ، فكانوا يشاهدون في تأملاتهم «العقول» التي تدور حولها الفلسفة اليونانية ، وقد تتَّفق لهم المحادثة مع «العقل الأول» أو مصافحته في بعض الأحيان(١).

ثم لو سلَّمنا قوة هذه الحاسة كلِّيّاً ، فهنالك نتساءل ، ما هي محسوسات هذه الحاسة ، وما هي الأشياء التي ندركها عن طريقها؟ ولا شيء غير أن يتمتَّع الإنسان بأسرار عالم الأرواح وعجائبه ، ويطير في أجوائه الواسعة بحرِّية ، وينكشف عالمٌ بأجمعه أمام حاسَّةٍ جديدةٍ من حواسِّه ، ويرى صوراً وألواناً من ذلك العالم ، يقيس بها قدرة الله ، وسعة هذا الكون ، ولكن كل ذلك لهوٌ ولعبٌ ، كما يقول الشيخ المجدد:

«لم تكن الصورة الحسِّيَّة وأنوارها قليلةً حتى يتمنَّى أحد صوراً غيبيةً وأنوارها بوسيلة الرياضيات والمجاهدات؛ إذ كانت هذه الصور وتلك الأنوار كلتاهما من مخلوقات الله نموذجاً لصنعته. إنَّ لنور الشمس والقمر الذي يوجد في عالم الشهود هذا رجاحةً بوجوهٍ مختلفةٍ على تلك الأنوار التي يرونها في عالم المثال ، ولكن بما أنَّ هذه الرؤية دائمةٌ يشارك فيها كلٌّ من العامة والخاصَّة لا تنال قدراً وأهمِّيَّة ، لذلك يحنُّ كثيرٌ من أهل الطُّموح إلى رؤية الأنوار الغيبية ، كما قال بعض الشعراء ما معناه: «كل نهر يمر ببابك يبدو حقيراً».

فكيف تنحلُّ من هذا الإشراق والنور الباطني والمكاشفات والمشاهدات

---

(١) كما حكى ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي في بعض مكشوفاته وفتوحاته ، مع أنَّه تحقق ألا وجود لهذه «العقول» إلا في ذكاء فلاسفة اليونان واسترسالهم في الخيال والافتراض.

www.abulhasanalinadwi.org

تلك الأسئلة البدائية الأساسيَّة؛ التي عجزت عن الإجابة عنها الحواسُّ والعقل والفلسفة؟ إنَّ العلم التفصيلي لمشيئة الخالق، والنظام المعين للأخلاق والأعمال وراء إدراكهم، كما أنَّه بعيدٌ عن متناول العقل والفلسفة.

ومن أجل ذلك ما زال الإشراقيون مرتبطين في عصورهم بنظام خُلُقيٍّ، أو روحانيٍّ من الأنظمة الموجودة في عصرهم، وما استطاعوا أن يبدعوا نظاماً دينياً إيجابياً أو سلبياً.

إنَّ مكانة الشيخ ابن عربي في الكشف والإشراق معروفةٌ ومسلَّمةٌ عند المتصوِّفين، ولكنه مع ذلك كلِّه كان يتبع مذهب الظاهرية[١]، ومن المشهور المستفيض أنَّ الشيخ ابن عربي كان متمسكاً بالشريعة المحمَّدية، حريصاً على اتباع السنن النبوية، يعمل بذلك، ويدعو إليه، ويوصي به.

وقبل أن أذكر المصدر الأخير لحلِّ هذه المسائل بالقطع واليقين، الذي هو الوحي والكتاب، ووسيلتهما الرسالة والنُّبوَّة، وأقدم أمامكم صورةً لهذه الحياة التي توجد باتِّباع النبيِّ والعمل بتعاليمه، ويقوم هذا العالم على أساسه ومبادئه، أريد أن أذكر تلك المدنيات، ونظم الحياة التي قامت على الحسِّيَّات والعقليات، أو على أفكار الإشراق ونظرياته.

* * *

(١) كان إمام هذا المذهب الإمام داود الظاهري (٢٧٠ هـ) وكان لا يرى القياس، ويعمل بظاهر الحديث.

www.abulhasanalinadwi.org

مَدنِيـات العَـالـم الثَّلاث الهَـامَّـة
وَنـظم الحيَـاةِ

المدنـيَّـة الـحسِّـيَّـة :

من مدنيات العالم القديمة ، والمقبولة جدّاً عند الإنسان ، مدنيةٌ يقوم أساسها على الحواسِّ ونتائجها ، وليس للإنسان أساسٌ أسهل وأعمُّ من هذا الأساس ، ولا تحليل أسهل من التحليل الذي يقوم على أساس هذه الحواسِّ ، ولا نظام أسهل وقوعاً منه وإشباعاً للنفس من هذا النظام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولا تحتاج هذه المدنية إلى عمقٍ ، ولا رقيٍّ عقليٍّ ، ولا إلى إيثارٍ وتضحية ، ولذلك فيها من الجاذبية والاستهواء والفتنة للنفوس ما ليست في مدنيةٍ أخرى ، ولم يحز رأي نظام آخر من النجاح والانتصار ما حقق هذا النظام من انتصاراتٍ متكرِّرةٍ في تاريخ الحضارة الإنسانية .

ولا بدَّ للمدنية التي يقوم أساسها على المحسوسات أن يكون من خصائصها الفطرية ما يلي :

نفيٌ وإنكارٌ واستخفافٌ بكلِّ ما لا يأتي تحت الحسِّ ، ولا تصدقه الحواس الظاهرة ، وكنتيجةٍ حتمية لهذا المبدأ لا يستتبُّ الإيمان بذاتٍ أو قوَّةٍ غير مرئيةٍ ، مما يتجاوز حدود الحواس ، وإذا لم يكن هنالك إيمانٌ بهذا الوجود أو القوَّة الغيبية فلا أمل إذاً في وجود الخوف منها ، أو حسابها في الأعمال والتصرُّفات ، فإذا وجدت عقيدة عدَّة آلهةٍ بسبب الشرك والأوهام التي ترافق المدنية الحسِّيَّة كثيراً ، فلا تحدث هذه العقيدة أيَّ تأثيرٍ على

www.abulhasanalinadwi.org

الفكر والأذهان ، ولا على الحياة العملية ، ولا تحدث في النزعة الحسِّيَّة والاتجاه الحسِّيِّ في الحياة ، ولا في أساس الأخلاق والأعمال الماديِّ المحض اضطراباً أو ضعفاً ، فإنَّ عقيدة تعدُّد الآلهة تصطلح مع جميع الأنواع من الأعمال ، والأخلاق ، والأهواء ، والنزعات ، وتتجاوب معها ، فلا يكون بينها وبين هذه صراعٌ ، أو نضالٌ ، كأنَّ هذه العقيدة تؤمن بمبدأ (التعايش السلمي) على حدِّ التعبير الحديث ، فلا تقف حاجزةً في سبيل ما يريده أصحاب الحول والطول والقوَّة والسلطة من ظلمٍ ، أو وحشيةٍ ، أو شهوانيَّةٍ جامحةٍ ، كما يدلُّ على ذلك تاريخ الأمم الوثنية والمؤمنة بآلهةٍ كثيرة.

فإذا كانت شهادة الحواس لازمةً لإثبات شيءٍ ، فكيف السبيل إلى الإيمان بأشياء لم تشهد بوجودها الحواسُّ ، والنتيجة المنطقية لهذا الاستدلال الحسِّيِّ تحتِّم علينا أن ننكر كلِّيّاً وجود حياةٍ أخرى بعد هذه الحياة ، ووجود عالمٍ آخر وراء هذا العالم ، ذلك الذي يُستدلُّ على وجوده بدليلٍ آخر غير الحواسِّ ، أو يلزم للإيمان به إيمان بشيءٍ آخر ، وكنتيجة حتميةٍ لإنكار حياة أخرى بعد هذه الحياة ، تصبح هذه الحياة هي الغاية القصوى ، ويتحرَّر المرء عن خوف أيِّ محاسبة في المستقبل ، ويتولَّد في طبيعته انطلاقٌ وفوضى ، لا تؤثر فيهما قيودٌ أو قانونٌ مؤقت ، وبما أن طروء الموت على الإنسان وحضور وفاته تختلف عن قضية الحياة بعد الموت (التي أخبر بها الأنبياء وحدهم ، ونطقت بها الصحف السَّماوية) وهي حادثةٌ متكرِّرةٌ مشهودةٌ كلَّ يومٍ لا تقبل المراء والجدال ، تنبعث ـ طبعاً ـ في نفس الإنسان دوافع التنعم في هذه الحياة ، والتمتُّع بملذاتها ومباهجها ، وذلك أمرٌ معقولٌ جدّاً يتفق مع وجهة نظر (المحسوسات) والاستدلال الحسِّيِّ وترتيب مقدماته.

وفي المرحلة البدائية لهذه المدنية (وأحياناً في عهد النهضة أيضاً) يكون الباعث على العمل ودافعه الأغراض والمنافع الشخصية ، لا الأخلاق المجردة عن الأغراض والفوائد الجماعية ، وعندما تمرُّ هذه المدنية بمراحل النُّمو بسبب الحياة الاجتماعية ، تتولد في لغتها كلمة (الأخلاق) أيضاً ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن يكون أساسها على فلسفة اللذة للنفس ، فتعني الأخلاق في هذه الفلسفة ، الحصول على اللذة وحظوظ النفس ، فإذا قطعت شوطاً آخر انتقلت من الاعتماد على مبدأ اللذة (أو الفلسفة الأبيقورية ، إلى الاعتماد على مبدأ النفعية) فيصبح قوام الأخلاق أن يستفيد بهذا العمل منها أكبر مجموع من الأفراد ، ولكن كثيراً ما يكون الفكر الحسّيُّ والحرص على طلب اللّذة ، عاملاً أساسياً لتعيين مقياس النفعية.

والميّزة الطبعية الثانية لهذه المدنيَّة الحسِّيَّة والمادِّيَّة (وهي في الواقع تابعة للميزة الأولى) أن تؤثر في هذه المحسوسات أيضاً العاجل على الآجل ، والانتفاع الحالي على الانتفاع المؤجل ، إذ هو أقرب إلى الحواس ، ولأنَّ الحاجة في هذه العملية إلى استخدام العقل والقوة الفكرية أقلُّ ، ولذلك نرى أنَّ من سمات هذه المدنية (الحسِّيَّة المادِّيَّة) وجميع مظاهر هذه الحياة وأشكالها السطحية والغرام الزائد بالبريق ، وجمال الظاهر. وتسري في هيكل هذا المجتمع وحياته طبيعة الاستغلال ، والتمتُّع ، والأثرة ، واللاإنسانية ، والنظر إلى كل قضية بالمنظار الشخصي.

وكنتيجةٍ لازمةٍ لهذه الفكرة المادِّيَّة ، وهذا النوع من الحياة: أنَّ هذه المدنية تؤثر المنافع العاجلة والمصالح الشخصية على المبادىء وعلى القيم الخلقية وعلى العقائد ، وتضحِّي في سبيلها بالمبادىء الكبرى ، وعقائد أفضل ، وتضحِّي بأفضل التعاليم الخلقية مقابل فوائد حقيرةٍ جداً ومصالح تافهةٍ كلَّ حين وآن ، فمعتنقو هذه الفكرة ، وأصحاب هذه السيرة (من أية ديانة كانوا ، ومهما بلغ تمسُّكهم بفرائض هذا الدين وشعائره) على استعدادٍ دائمٍ وغريبٍ للتَّعاون مع كلِّ نظام وكلِّ حركة قائمةٍ مقبولةٍ ، وصلاحيةٍ غريبةٍ للانصهار في كلِّ بوتقةٍ ، مثل الشمع الذي يُصاغ في أيَّة صورةٍ. إنَّهم يكوِّنون إلهاً لكلِّ نوع من النظام ، ويحاربون تحت كلِّ راية ، ويضحُّون بأنفسهم لكلِّ غاية ، ويقاتلون لها؛ إذا كان لهم فيه نفعٌ شخصيٌّ مهما قلَّ وتفه ، بل ولو كان مشكوكاً فيه ، وموهوماً ، وقد تجاوزت هذه الفلسفة حدود الذات إلى حدود أمة وقوم ، فتنشأ الفلسفة القومية التي تؤمن بفائدة الشعب

www.abulhasanalinadwi.org

والأمّة ، بصرف النظر عن المبادىء والقيم ، والحق والباطل ، والعدل والظلم ، ولا فرق بين كلتا الفلسفتين إلا أن الأولى تقوم على تمجيد الذات وعبادتها ، ودائرتها ضيقةٌ ، والثانية على تمجيد الأمة أو البلاد وعبادتها ، ودائرتها واسعةٌ ، وتكون دعوتها في كلتا الحالتين السير مع الرياح ، والجري وراء المنافع ، والأرباح .

وحيث إنَّ الحواس هي المصدر الوحيد للعلم في هذه المدنية الحسِّيَّة العلمية ، والحواسُّ كما وضَّحت سابقاً لا تشهد للإنسانية غير أنَّه حيوانٌ ناطقٌ ، فتتولد فيهم طبعاً نزعة المراجعة إلى حياة الحيوان ، فإذا أرادوا البحث عن الحلقات المفقودة من تاريخه ، وأحبُّوا أن يعيّنوا لحياته أحكاماً وضوابط ، اتجهوا إلى الحيوانات (في الغابة) ومعرفة طبائعها ، ودراسة تاريخها لملء هذا الفراغ ، واختاروا لحياتها نظاماً لا يختلف كثيراً في روحه وغاياته عن حياة الحيوان المحضة .

[إن إعادتي لذكر المدنية الحسِّيَّة ووصفها لا يعني أنَّ المدنية الحسِّيَّة نوعٌ من حياة الغابة التي لا توجد فيها حضارة البلد وثقافتها ، فإنَّني أسميها «الحسِّيَّة» باعتبار روحها ، ومأخذها ، وأما باعتبار الحياة الحضرية فهي من أرقى مدنيات العالم ، ولها حظٌّ كبيرٌ في أناقة الحياة ، وفي تأمين الراحة في الحياة ، وهي أكبر حظّاً في الظرافة والترف ، وباعتبار المادِّية أكثرُ تنوعاً ورقيّاً وأكثرُ تدقيقاً واختراعاً لاعتمادها فيها أحياناً المدنية الإلهامية والمدنية «العقلانية» ، ولاغرو ، فإنَّها ركَّزت كلَّ قواها على هذا الجانب الوحيد ، فجاءت فيه بالطَّبع بأحسن النتائج .

وقد ازدهرت هذه المدنية في العالم أكثر من المدنيات الأخرى كلِّها . إنها جعلت الأرض بصناعتها مخضرَّةً خصبةً ، عامرةً بالأزهار والرياحين ، وجعلت الحياة ربيعاً بالملاهي والملاعب . إنها شقَّت الجبال ، وفجَّرت منها الأنهار ، وأنبتت على الحجر الأزهار ، وبنت الآثار الشامخة الفخمة ، والمباني الضخمة الشاهقة ناطحة السماء ، وأتت بعجائب من صنع الإنسان

www.abulhasanalinadwi.org

وذكائه ، توهم كأنَّهـا مدنيـةٌ حكيمـةٌ عقليَّـةٌ ، والحـقُّ أنهـا سخرت العقـل لمنافعها الحسِّيَّة المادِّيَّة .

إنَّ قوم عادٍ الذين كانوا في قديم الزمان في جزيرة العرب كانوا أكبر ممثلي المدنية الحسِّيَّة والمادية في عصرهم ، وإنَّ مدنيتهم كانت من أرقى المدنيات في ذلك العصر ، وقد تمثلت فيها أكثر خصائص المدنية الحسِّيَّة ، ومن ألقى عليهم نظرةً عرف أنَّهم لا يعرفون الله ، ولا يؤمنون بالآخرة . إنهم كانوا يبنون مباني كبيرةً ضخمةً عبثاً بغير حاجة ؛ ترويحاً لنفوسهم ، وتفاخراً بين أبناء جنسهم ، قد نسوا الآخرة ، ويحسبون أنَّهم سيخلدون في الدنيا ، ولا يموتون ، كان يظهر من حروبهم الطاحنة وبطشهم الشديد أنهم لا يؤمنون بقوَّةٍ أعلى وأجلَّ من قوتهم ، فخاطبهم نبيُّهم ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

وخلفهم قوم ثمود ، وانغمسوا في لذَّات الدنيا ومتاعها ، وأخلدوا إلى هذه الحياة ، واطمأنُّوا بها ، ونسوا الدار الآخرة ، وشغلوا عنها ، ومن رأى اهتمامهم بهذه الحياة وقلَّة مبالاتهم بما ورائها ، عرف أنَّهم لا يؤمنون بشيءٍ لا يُرى بالأبصار ، لذلك قال لهم نبيهم : ﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء : ١٤٦ ـ ١٤٩] .

إنَّ الحسِّيَّة والمادِّيَّة والخضوع للمظاهر (وأرقى أشكالها الوثنية) رافق أحدهما الآخر في أدوار تاريخها المختلفة ، وكثيراً ما ظهر الاتجاه الديني لـلأمـم الحسِّيَّة والمـادِّيَّة فـي شكـل عبـادة الأصنـام ، والـذيـن تعـودوا المحسوسات يصعب عليهم الإيمان بإلهٍ لا تدركه الأبصار ؛ لأنَّ الصورة الجسميـة تلفـت الأنظـار ، فيخضعـون بسـرعـةٍ لعبـادة الأوثـان ، تسليـةً لعواطفهم ، ويجعلونها أيضاً حسِّيَّة كشعب حياتهم الأخرى . كان إبراهيم نشأ في قومٍ من هذا القبيل ، وكانت الوثنية قد بلغت القمَّة من الرُّقيِّ كمجالات حياتهم المادية الأخرى .

www.abulhasanalinadwi.org

وقد حكى الله عنهم فقال: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُن
تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِ
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿
وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
[الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢].

وليست نتيجة هذه المادِّيَّة الجامحة والحسِّيَّة المطلقة، والانسياق ا النزعات والأهواء بصرف النظر عن المبادىء والأخلاق، إلا أن تفقد الفط البشرية أصالتها ونظافتها، وتصبح في زمنٍ قريب مريضةً ممسوخةً، و يتعطل الوجدان السليم، ويُشلَّ الحسُّ الخلقيُّ، فلا يعمل، ولا يؤثر ويصل الإنسان في ثورته على الفطرة، وفي انحرافه وشذوذه، إلى در يفوق فيها ويبزُّ حيواناً لا يملك ضميراً، ولا ينقاد إلاَّ لغريزته، وقد ولد ن الله لوط عليه السلام في أمَّةٍ هذا شأنها، وقد بلغت الذروة في الانحط الخلقي، وفي السفالة والرذيلة، ويخاطبهم لوط عليه السلام فيقول ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وقال أيضاً: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

إنَّ طبيعة التمتع باللذات والمنافع وانتهاز الفرص لا تفرق بين ما يجـ وما لا يجوز، وبين العمل الشَّرعيِّ وغير الشَّرعيِّ، بل إنها تؤثر المنف الشخصية على الفائدة الاجتماعية، وتؤثر الفوضى على ما يقتضيه النظام مهما تولَّد من ذلك مفاسد جسديةٌ وويلاتٌ اجتماعيةٌ، والخيانةُ ف التجارة، والتطفيفُ في الميزان، من أدنى معطيات هذه الفكرة، وهـ السيرة، وكانت هذه الخصلة السيئة عامَّةً في تجار مدين، وقد جسّ نبيُّ

www.abulhasanalinadwi.org

شعيب ـ عليه السلام ـ هذا النبض في أمّته ، وضرب على هذا الوتر الحسّاس فقال :

﴿ ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣] .

وكانت مصر ، والشام ، وإيران ، والعراق ، واليونان مركزاً لهذه المدنية في عهدها ، وقد ظهرت هناك هذه المدنية بخصائصها الفطرية التي تحدَّثنا عنها .

وكانت المدنية الرومية نموذجاً مثالياً للمدنية الحسِّيَّة والمادِّيَّة ، وطرازها الأخير ، وهي التي تجلَّت فيها فلسفة الأخلاق والاجتماع الحسِّيَّة ، وهدف الحياة المادِّيّ ؛ الذي كانت الحياة تدور حوله في أروع أشكالها ، وقد خلَّفت روما هذه الأفكار ، والعلوم ، والفلسفة ، والمدنيَّة ، والحضارة كتراثٍ ورثته أوروبا التي خلَّفتها في القرون الوسطى ، وبقيت دعائم الحضارة الرومية ثابتةً رغم حروبٍ طاحنةٍ ، وعواصف هوجاء ، وقامت بناية الحضارة الجديدة على هذه الأسس . يقدم المؤرِّخ الأوربيُّ الشهير ، والأديب الإنجليزي الكبير (John William Draper) صورةً عن الانحلال الخلقي والاجتماعي عند الروم خلال العهد الذهبي للإمبراطورية ، فيقول :

«لما بلغت الدول الرُّومية في القوة الحربيّة والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدِّين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أنَّ الحياة إنما هي فرصةٌ للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترفٍ ، ومن لهوٍ إلى لذَّةٍ ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام .

ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعةً بالجواهر ، ويحتف خدامٌ في ملابس جميلةٍ خلابةٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

وغاداتٌ روميَّةٌ حسانٌ ، وغوانٍ عارياتٌ كاسياتٌ غير متعففاتٍ ، تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمَّاماتٌ باذخةٌ وميادين للَّهو واسعةٌ ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال ، أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخرَّ الواحد منهم صريعاً يتشحَّط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوَّخوا العالم أنَّه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة لأنَّه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين ، وكدِّ اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوَّة ساعده؛ فحينئذٍ يمكن له أن يصادر الأموال ، والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع ، وأنَّ رأس الدولة الرومية هو رمزٌ لهذه القوة القاهرة ، فكان تقدُّم رومة المدنيُّ يشفُّ عن أبَّهة الملك ، ولكنه كان طلاءً خدَّاعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها»[1] .

إنَّ العهد الجاهليَّ العربيَّ «الذي ينتهي في القرن السابع بعد بعثة محمد ﷺ» كان مرآةً لهذه الحسِّيَّة والمادية في نفسيته ، وأفكاره ، واجتماعه ، كانت أذهانهم لا تسيغ عقيدة الآخرة ، وعقيدة الحياة بعد الموت ، إنَّهم كانوا يعتقدون «أن أساس هذه العقيدة هي الحواسُّ» إنَّ السماء والأرض ، وتقلُّب الليل والنهار كحجري الرحا يطحنان الإنسان كحبةٍ ، وليست هناك قوَّةٌ غير هذه القوة تقضي على حياتنا .

يذكر القرآن عقيدتهم فيقول : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون : ٣٧] .

ويحكي عنهم فيقول: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

يحرض شاعر جاهلي (شداخ بن يعمر الكناني) قومه على القتال ضدَّ قبيلةٍ أخرى بهذه الحجَّة ، ويقول: لا تدوم حياتكم ولا حياتهم ، فما

---

(١) History of The Conflict Between Religion And Science London,1927, PP. 31- 2.

www.abulhasanalinadwi.org

السبب لهذا الجبن؟ وإنَّ هذا الطراز للاستدلال نموذجٌ جيِّدٌ للنفسية الحسِّيَّة ، يقول الشاعر :

قـاتلـي القـومَ يـا خـزاعُ ولا يـدخلكـم مـن قتـالـه فَشَـلُ
القـومُ أمثـالُكـم لهـم شَعَـرٌ في الرأسِ لا ينتشرون إنْ قُتِلوا[١]

والنظرية التي تتولَّد من إنكار الآخرة كانت موجودةً بنفسها في العصر الجاهلي ، إنهم كانوا يقولون: الموت حق ، فلماذا نقضي هذه الأيام العديدة من الحياة «التي ليست بعدها حياة أخرى» في الظمأ والحرمان ، والموت بالارتواء أفضل من الموت في الظمأ ، يقول الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد يمثل هذه الفكرة:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟
فإن كنتَ لا تستطيعُ دفع منيَّتي فـدعنـي أبـادرْهـا بمـا ملكـتْ يـدي
كريم يروِّي نفسه في حياته ستعلـم إنْ متنـا غـداً أيُّنـا الصَّـدي

كانت غايته القصوى «الانتفاع باللذة والنعمة» في مثل هذه البيئة الحسِّيَّة الجاهلية المحضة التي ليست لها غايةٌ أسمى من السمعة والرياء ، وإظهار القوة والشجاعة ، ولا يحلِّق الذهن الجاهلي أكثر من هذا التحليق ، ولا يتصوَّر غايةً أسمى من هذه الغاية ، يصور الشاعر الجاهلي ـ الطموح عالي الهمة ـ عواطفه الحقيقية ، فيقول:

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجـدِّك لـم أحفـل متـى قـام عـوَّدي
فمنهنَّ سقيُ العاذلات بشربةٍ كميـت متـى مـا تعـل بـالمـاء تـزبـد
وتقصيرُ يوم الدَّجن والدَّجن معجبٌ ببهكنـةٍ تحـت الخبـاء المعمَّـد
وكرِّي إذا نادى المضاف مجنباً كسيـد الغضـا نبَّهتـه المتـورد[٢]

وتتولد مع هذه الأخيلة فلسفةٌ جاهليةٌ؛ إذ لا يخلو عصرٌ من عصور البداوة والجهالة أيضاً من (الفلسفة) مهما بلغت هذه البداوة من الانحطاط والجهل ، وتوجد في هذه الفلسفة سطحيةٌ مثل جميع العلوم التي تنشأ

---

(١) ديوان الحماسة ، باب الحماسة.
(٢) المعلقات السبع ، معلقة طرفة بن العبد.

www.abulhasanalinadwi.org

وتتكَّون في العصر ، ويرافقها الاستدلال بالأشياء الظاهرية قياسٌ مع الفارق ، وترجيح الموجود على غير الموجود . وقد أبدى الشعراء الجاهليُّون هذه الفلسفة مع أفكارهم وعواطفهم هذه الرُّوح الجاهليَّة كما يقول الشاعر طرفة بن العبد ، الذي سبق ذكره .

إنَّ نتيجة الزُّهد ، والكفِّ عن الشَّهوات ، وكبح الجماح ، ونتيجة الاسترسال في إشباع الرغبات ، والانسياق مع دوافع الهوى والشباب واحدةٌ ، انظروا إلى قبر زاهدٍ متَّقٍ ومن كان بالعكس ، خلع عذاره ، وطرح الحشمة ، ولبَّى داعي الشهوة تراهما كومتين من ترابٍ ، مصمدتان من صفائح ، وإن كان يقارن الشاعر هناك بالرَّجل البخيل ، الحريص ، المشرف ، المترف ، ولكن فكرة غير محدودٍ في هذه الحدود البتَّة .

يقول :

أرى قبر نحَّام بخيلٍ بماله ... كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
ترى جثوتين من ترابٍ عليهم ... صفائح صمٌّ من صفيحٍ منضَّد

ومع هذه الخواص النفسية يوجد في الحياة الجاهلية الاجتماعية نوعٌ خاصٌّ من علم الأخلاق الحسِّيِّ ، يعتبر الجاهلي ـ إذ لم تنتشر في عصره الرقة والتخنث ـ الشجاعةَ والفروسية أسمى خصال الرجولة ، وأعظم المفاخر في حياته ، إن لم تكن لهما غايةٌ شريفةٌ ومحلٌّ صحيحٌ ، والحرب عند الجاهليين فضيلةٌ ، وإن لم تكن خاضعةً لغايةٍ جميلةٍ ، أو إرادةٍ صالحة ، ويغلون فيها إلى حدٍّ تصعب مع الحياة من غير حرب ، فتصبح الحرب لهم شغلاً ، ومسلاةً ، ومقصودةً بذاتها ، فإذا لم يجدوا عدواً يحاربونه يحاربون حلفاءهم إبقاءً لعادته وملئاً للفراغ الواقع في حياتهم ، يقصُّ الشاعر (القطامي) قصة هذه العقلية الحربية بصراحةٍ فيقول :

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

الحرب للحرب وإظهاراً للقوة فقط ، عاطفةٌ جاهليةٌ خالصةٌ ، وكثيراً ما تنبعث هذه العاطفة في المدنية الحسِّيَّة وحضارتها ، يعرب شاعرٌ جاهليٌّ عن شغفه بالحرب ، وغرامه لها ، فيتمنَّى نشوب الحرب في القبائل إذا

www.abulhasanalinadwi.org

بلغت مهرته السن التي تصلح فيها للركوب والخوض في المعركة؛ ليثبت فروسيته، ويسلّي نفسه، وإن جرّت هذه الحرب ويلاتٍ وشروراً على حياة هذه القبائل، وكانت مشأمةً وكارثةً في تلك الناحية، يذهب ضحيتها نفوسٌ بريئةٌ، وبراعم غضَّةٌ طريَّةٌ، ولكن لا عليه إذا جال بفرسه في هذه الدماء والأشلاء، وأثبت تفوُّقه على الأتراب والقرناء، يقول:

إذا المهرةُ الشَّقراءُ أدركَ ظهرُها فشبَّ الإلهُ الحربَ بينَ القبائلِ
وأوقد ناراً بينهم بضرامها لها وهجٌ للمصطلي غير طائلِ

وإذا كان بين الأمم الجاهلية نوعٌ من الاتحاد والتعاون، فلا تكون له شروطٌ وحدودٌ، ولا يكون مقياسٌ من الحقِّ والباطل، بل يقوم أساسه على الحميَّة الجاهلية، والعصبية الجماعية. فإن استغاث بهم أحد لا ينظرون إلى ما يدعو إليه، وهل هو مصيب أم مخطىء، ومظلومٌ أم ظالم؟ إنما ينظرون إلى من هو الداعي والمستغيث وما علاقته بهم، وكان عملهم بالمبدأ الجاهلي القديم الذي تمثله الجملة المأثورة منهم «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[١].

يقول الشاعر الجاهلي:

إنْ أنا لم أنصر أخي وهو ظالمٌ على القوم لم أنصرْ أخي حين يُظلم

ويقول شاعر جاهليٌّ آخر:

وما أنا إلا مِنْ غزيَّة إنْ غَوَتْ غويتُ وإن ترشُد غزيةُ أرشدِ

وقد هجا الشاعر الجاهليُّ قريط بن أنيف قبيلته بني العنبر على خذلانها لأخيها، وتقاعدها عن نصره، لعدم وضوح الموقف، ومدح بني مازن على مبادرتها إلى النصر من غير تثبت واستيضاح، فقال:

(١) نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» عن إمام اللغة المفضل الضبي، أن أول من قالها في الجاهلية هو جندب بن العنبر. والمراد منه المفهوم اللفظي الظاهر، وقد قلبها رسول الله ﷺ، وفسَّرها تفسيراً جديداً فقد قال مرة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله! «هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟» قال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه» (حديث متفق عليه).

www.abulhasanalinadwi.org

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[١]

ولما كانت هذه المدنية الحسِّيَّة المادِّيَّة أكثر المدنيات انتشاراً في العالم وأحبَّها إلى النفوس ، أفضنا في عرض ملامحها ، وقسماتها ، وأطلنا فيها بعض الإطالة .

المدنية العقلية[٢] :

لم نجد في تاريخ المدنيات والحضارات الطويل مدنيةً تستحقُّ بجدارة أن توصف بمدنيةٍ عقليَّةٍ خالصةٍ يكون المحك في جميع قضاياها ، وفي قبولها ، ورفضها للأشياء ، وفي سلوكها ، وتصرفاتها العقل وحده ، فلا تخطو خطوةً ، ولا تتخذ موقفاً في الحياة حتى تعرضه على العقل ، وتزنه في ميزانه ، فإذا حكم العقل بصحَّته وحسنه؛ قبلته ، وإذا حكم بفساده ، أو ضعفه؛ رفضته .

فإن قامت هذه المدنية ـ على سبيل الافتراض ـ في بقعةٍ من بقاع الأرض ، ضاقت الحياة على الناس ، وضاقوا بها ذرعاً ، وصعب أن تعيش هذه المدنية أقصر مدةٍ من الحياة ، كما قال أديبٌ غربيٌّ : «إنَّ الإنسان في حياته وأفعاله غير عاقلٍ أكثر منه عاقلاً» ، وذلك يصدق على المدنية كذلك . فالنظريات ، والأفكار ، والعقائد ، والأخيلة ، والتقاليد ، والعادات ، ومبادىء الاجتماع والأخلاق ، والثقافة لا تستطيع أن تدخل في إطار العقل كليّاً ، أو يقوم أساسها كليّاً على العقل ، أو يكون العقل مقياساً لقبولها ، ورفضها ، وتكون أكثر هذه الأمور مرتجلةً ، ومن غير استفتاءٍ من العقل والمنطق ، أو تحت ضغط العوامل التي لا صلة لها بالعقل والمنطق . فإذا أصدر العقل حكمه في هذه القضايا بالنفي أم التزييف؛ نبذه المجتمع ، وأعرض عنه .

وفي بعض الأحيان يرى العقل مصلحته (وبالأصحِّ يرى زعماء العقل

---

(١) ديوان الحماسة .

(٢) هذه المدنية العقلية أيضاً كما سيأتي في الصفحات الآتية ، مدنية حسية ومادية في الحقيقة ولكنها ذكرت هنا باستقلال لاشتهارها بالمدنية العقلية ، والدعاية التي قامت لوصفها بالعقل والعلم .

www.abulhasanalinadwi.org

وممثلوه مصلحتهم) في أن يؤيده ويمنحه شهادة الصحة ، أو يصبح له محامياً بارعاً ، فيقيم الدلائل العقلية على صحة هذه الأعراف والعادات ، أو المُثل والقيَم ، أو العقائد والأفكار ، مهما كانت ممعنةً في الخرافة والسفاهة ، أو مقرونة بالظلم والقسوة ، حتى يستريح العقل منها ، وتستريح هي منه ، فلا يكونان في نظامٍ دائم ، وفي عراكٍ دائمٍ ، فكم دافع العقل اليونانيُّ عن البغاء الرَّسمي ، وحرفة المومسات ، والشذوذ الجنسي ، الذي ظهر في المجمع الإغريقي عندما بلغ أوجه في المدنية ، والفلسفة ، والرياضيَّات ، وكان من المدافعين عن ذلك الذين فلسفوه ، وشقوا الشعرة في فوائده ومصالحه كبار فلاسفة اليونان؛ الذين لم يكن يرجى منهم الدفاع عن مثل هذه الرذائل.

وكذلك شأن العقلية الرومانية مع تقليد «المجالد Gladiator» ومصارعة الإنسان للسبع (من الأسود والنمور) حتى الموت ، وفيها من القسوة والضراوة والوحشية ما لا يخفى ولكنَّ العقل الروماني قد ذهب كل مذهبٍ في تعليله ، وإقامة الدلائل والبراهين على أنها نزهةٌ بريئةٌ ، وتسليةٌ مباحةٌ لأشراف روما ، وهواة المتعة واللهو ، وكذلك فقل عن تقليد وأد البنات عند العرب في الجاهلية ، وإحراق السيدات الهنديات لنفسهن مع أزواجهن ، فقد كان كلُّ ذلك مؤيداً بالدلائل العلمية والعقلية في العصر الجاهلي العربي ، وفي الحضارة الهندية القديمة ، والأعراف الارستقراطية المقدَّسة في الهند قبل أن يلغى هذا التقليد رسمياً في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي.

وإذا كان لنا سبيلٌ إلى الاطِّلاع على ما قيل وكتب عن هذين التقليدين الوحشيين في الأدب القديم ، وكيف كان يدافع عنهما المحافظون المتحمِّسون من هاتين الأمَّتين: العربية ، والهندية؛ عرفنا مدى مرونة العقل وصلاحيته لمسايرة الموجود المقبول ، وإبطال الحقِّ ، وإحقاق الباطل في ذلاقةٍ ومقدرةٍ ، حتى يخيَّل لكثيرٍ من الناس: أنَّ ما يقوله ، هو التِّبر الذي لا زيف فيه ، واليقين الذي لا يخالجه شك.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ المدنية والاجتماع مرحلتان متأخرتان ، فإنَّهما تتكونان من عناصر كثيرةٍ غير العقل ، فإنَّ الحكمة والفلسفة نفسها لا تخلوان كليًّا من عناصر غير عقليَّةٍ .

وكم في الفلسفة اليونانية التي تعتبر جوهراً للعقل الإنساني من نصيب لعلم الأصنام والأساطير «الميثالوجيا اليونانية Greecian Mythology» ، والأوهام اليونانية ، والعقائد الأسطورية ، وامتزاج كلٍّ ذلك بلحم الفلسفة اليونانية ودمها ، حتى يستحيل تجريدها عن هذه الأجزاء في أكبر معملٍ كيمياويٍّ للعمل التحليليٍّ ، حتى ما أمكن لكبار الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطاطاليس ، رغم حريتهما الفكرية ، التي تغنّى بها التاريخ ودوَّى بها العالم ، التجردُ من تأثير بيئتهما ، وما كانت أخذته كمسلَّماتٍ علميَّةٍ ، وحقائق عقليةٍ ، لا تقبل الشكَّ والجدال .

إنَّ مدنيات العالم التي تظهر عند النظرة الأولى العابرة ، مدنياتٌ علميَّةٌ وعقليَّةٌ ، ولكنَّها بعد النقد المحايد ، والفحص الحرِّ تثبت مدنيات حسيَّةً محضةً ، وماديَّةً خالصةً ، وأكثر هذه المدنيات خداعاً وفتنةً المدنية الغربية الحاضرة ، تعتبر بقوة دعايتها الساحرة أكثر المدنيات البشرية عقليةً وعلميَّةً في التاريخ الإنساني ، رغم أنَّ كل تلميذٍ للفلسفة الحديثة يعرف أن تاريخها يقوم على ثورة الماديَّة ، وعبادة الحسِّ ، والخضوع للتجارب التي قامت ضدَّ العقلية والإيمان بما وراء الحسِّ والعقل ، وانتهت إلى انتصار المادة علىٰ العقل ، والحواس على الروح ، والتجربة على الإيمان الانتصار الحاسم النهائي .

فمن الحقائق التاريخيَّة المقرَّرة أنَّ فلاسفة أوربا وعلماء الاجتماع والأخلاق فيها شنُّوا حرباً شعواء ضدَّ العقل ابتداءً من القرن السابع عشر المسيحي . إنَّهم قالوا علناً وجهاراً : إنَّ كلَّ حقيقة تستعصي على التجربة ، وكلَّ ما لا يدخل من الكائنات الموجودات في نطاق الكيل ، والإحصاء ، والوزن ، وكلَّ الأخلاق التي لا تظهر فائدتها؛ لا تصلح للقبول والاعتراف به . إنَّهم دعوا في كلِّ قوَّةٍ وصراحةٍ إلى التفكير في الكون بحرية ، من غير أن

www.abulhasanalinadwi.org

يقوم ذلك على أساس نظرية ما بعد الطبيعة ، أو على الإيمان بوجودٍ هو فوق مستوى البشر. إنهم أنكروا وجود كلِّ شيءٍ غير المادة والحركة ، وقالوا بصراحةٍ: إنَّها لا تعمل في هذا الكون قوةٌ نفسيَّةٌ ، أو روحيةٌ ، أو عقليَّةٌ ، فتقرّر أنَّ التفسير الطبعي للكون هو الطريق العلميُّ للاستدلال والبحث ، وصارت كلُّ طريقةٍ غير هذه النظرية للبحث وأسلوب الفكر والاستدلال طريقةً غير علميَّةٍ ، وغير معقولةٍ ، وتدرَّجت الميكانيكية ، والتجريبية ، والنفعية إلى السيطرة على جميع شُعَب الحياة ، فأصبحت التجربة أساس الأخلاق والاجتماع ، والسياسة والخلق ، ولم تسلم شعبةٌ من شُعَب الحياة أو مجالٌ من مجالات القلب والذهن من الخضوع لهذه الفكرة السائدة.

ولا شكَّ في أنَّه لم يتردَّد في الأدب الغربي كلمةٌ بمقدار ما ترددت كلمة (العقل) و(الطبيعة) ، ولم يتغنَّ هذا الأدب بلفظٍ رنَّانٍ ، ولم يطرب مثل ما تغنَّى بهاتين الكلمتين ، وطرب بهما ، وليس لكلمةٍ سحرٌ على العقول مثل ما لها ، ولكن كلما بحث القارئ عن هاتين الكلمتين ، وراجع ما لهما من معانٍ وتفسيراتٍ في الحياة ، تحقَّق أنَّ المراد بالعقل هو العقل الحيواني لا غير ، (إذا صح هذا التعبير) الذي يخضع للمحسوسات ، والتجربة ، وكلِّ ما عداهما ، فهو سرابٌ خادعٌ ومنافٍ للعقل ، ويعبر عن ذلك أحد فلاسفة القرن السابع عشر في أوروبا فيقول: «إنَّ نتائج علمنا لا تصل إلى درجة اليقين ، إلا عن طريق العلوم الرياضية. إنَّ العقل هو عصارة التجربة لذلك ، هو وليد العصر ومحصله. إنَّ جميع الأفكار التي لا تؤيدها التجربة تستحقُّ الرفض؛ لأنَّ التجربة هي أمُّ العلوم كلِّها»[١].

وكذلك المراد من الطبيعة عندهم الطبيعة الحيوانية ، وهي التي تكون حرَّةً من كلِّ نوع من الأحاسيس اللطيفة، والضمير الخلقي، والقلب السليم، والعقل الصحيح ، وتشمئزُّ عن كلِّ نوع من التقييد والتحديد ، وهي لا تقضي إلا أن يعيش الإنسان في حرِّيَّةٍ كاملةٍ يأكل ، ويشرب كيفما يشاء.

(١) ليوناردس (Leonardo) راجع تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور Herold Hoffdring .

www.abulhasanalinadwi.org

فإنَّ المجالات التي يطلق فيها كتَّاب الغرب هذه الكلمة تعيِّن بوضوحٍ أن المراد منها هو الطبيعة البهيميَّة لا غير.

إنَّ الفكرة الإجمالية عن كون الإنسان «حيواناً راقياً» التي قامت عليها المدنية الحسِّيَّة، والعلم الحسِّيُّ أصبحت حقيقةً مشروعةً واضحةً مدعمةً بالدلائل العلمية في الفترة الأخيرة التي اتسمت بالبحث، والدراسة، والنهضة العلميَّة، والتي قادتها أوروبا الحديثة، وسرت هذه النظرية في جسم الحياة كلِّها، كالروح، وصار مقياس السعادة الإنسانية أن يكون الإنسان أقرب إلى طبيعته الأصلية، فكان بمقتضى هذه النظرية الطبيعية أن أصبحت اللذة والمتعة (Enjoyment) هي الغاية العليا، والمقصد الرئيسيُّ للحياة، الأمر الذي وصفه الشاعر الإيراني بلغته الشعرية ما معناه «تمتع بالحياة ما استطعت، فما بعد الحياة من حياة»، وأعرب عنه الشاعر العربي بشيءٍ من الدقة، فقال:

كـريـمٌ يـروِّي نفسـه فـي حيـاتـه ستعلم إن متنا غداً أيُّنا الصَّدي

وأعرب عنه الشاعر الآخر متعللاً بقلة الحياة، وقصر مدتها، فقال:

تمتَّـع مـن شميـم عـرار نجـدٍ فمـا بعـد العشيـة مـن عـرار

وأبان عنهم الغربيون الذي لا يعرفون التكلُّف، وجانبوا الأساليب الشعريَّة المقنَّعة فقالوا في وضوح وصراحة: «كل، واشرب، وكن مرحاً (Eat& Drink& be Merry)» وتجلَّت هذه الفكرة المادِّيَّة والأنانية في جميع مجالات الحياة الغربية، فاتَّخذت في الاقتصاد صورة الرأسمالية، وفي السياسة صبغة الاستعمار والسيطرة على البلدان، كما واختارت في النظريات والأفكار أيضاً من بين أسلوبين متقابلين، الأسلوب الذي كان أقرب إلى المادِّيَّة، مثلاً: يمكن الاتحاد العالمي على أساس الوحدة والدين، ولكن الاتحاد على أساس القومية الواحدة أو الجنس الواحد، أو الوطنية الواحدة، أقرب إلى الحسِّيَّة والمادِّيَّة، وللحواس فيه جاذبيةٌ كبيرةٌ بالنسبة للأساس السابق، لذلك آثرت أوروبا القومية الضيقة على القومية العالمية، والإنسانية والوطنية المحدودة جغرافياً على النظر إلى الأرض

www.abulhasanalinadwi.org

كلِّها كوطنٍ واحدٍ ، وكلما ضعفت صلة أوروبا بالدين ، وازدادت غلبة الحسِّيَّـة والماديَّة عليها؛ توثقت عاطفة القومية والوطنية بقدر ذلك ، كأنهما كفتا ميزان إذا رجحت الأولى؛ شالت الأخرى .

وتحتل كلمة الروحانية (Spiritualism) في أدب أوروبا الجديد مكاناً كبيراً ، وبدأ الناس يهتمُّون بها في العصر الأخير ، لكنه من الخطأ أن نعتقد بأنها تعني حركةً ربانيةً ونظاماً لتزكية النفوس ، وتصفية القلوب ، وإنما هي تربية بعض القوى الإنسانية الخفية ، وتنميتها ، ومناورةٌ لعجائبها وشعوذتها التي أصبحت علماً مستقلاً من العلوم (Science) كالتنويم المغناطيسي ، وأصبحت صناعة من الصناعات (Art) لا أثر لها على الأخلاق والروح .

ولكن ليست أوروبا كلُّها لا دينية بالإعلان، بل معظمها تابعةٌ للمسيحية، يجتمع الناس يوم الأحد في الكنيسة ، ويحتفلون بالأعياد والمهرجانات المسيحية ، والتقاليد الدينية في حماسٍ واهتمامٍ بالغٍ ، ويرى الإنسان كثيراً من المظاهر الدينية في المجتمع الأوروبي ، ولكن الحقيقة التي لا شكَّ فيها أنَّ دين أوروبا هو الماديَّـة فقط ، كما يتحدث مسلم أوروبي سليم الفكر عن حياة أوروبا وماديَّتها ، فيقول :

«إن الأوروبي العادي ، سواءٌ عليه أكان ديموقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً ، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبُّد للرقيِّ الماديِّ ، أي : الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدفٌ آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة» إنَّ هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء ، وأما كهنة هذه الديانة؛ فهم الصيارفة ، والمهندسون ، وكواكب السينما ، وقادة الصناعة ، وأبطال الطيران ، وإنَّ النتيجة التي لا مفرَّ منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوَّة والمسرَّة ، وذلك بخلق جماعاتٍ متخاصمةٍ مدججةٍ بالسلاح ومصمِّمةٍ على أن يفني بعضها بعضاً حيثما تتصادم مصالحها المتقابلة ، أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق طرازٍ بشريٍّ تنحصر

www.abulhasanalinadwi.org

فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العلمية ، ويكون أسمى فارقٍ لديه بين الخير والشر ، إنما هو التقدُّم المادي .

إننا نجد في التطوُّر الأساسيِّ الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً ، وكلُّ الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية ـ كالمقدرة الفنية (العلمية التقنية) والوطنية والشعور القومي ـ هي اليوم موضعٌ للمديح ، ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول ، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر إلى اليوم المثل العليا من جهة قيمتها الخلقية الخالصة ، كالحبِّ الأبويِّ ، والعفاف ، فهي تخسر قيمتها بسرعةٍ؛ لأنَّها لاتمنح المجتمع فائدة مادِّيَّـةً محسوسةً. لقد ولَّى العصر الذي كانت فيه متانة الروابط التي تربط الأسرة مقياساً لسعادة الأسرة والقبيلة ورفاهيتهما ، وخلفه في الغرب الحديث عصرٌ يُعنى بالتنظيم الاجتماعي تحت شعاراتٍ أوسع مدىً من روابط الأسَر والبيوتات. والمجتمع الذي يكون أساسه فـنِّـيّـاً آليّاً ـ ويخطو خطىً واسعةً بسرعةٍ كبيرةٍ إلى غايته الإلهية ـ لا يكون سلوك الابن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعيةٍ كبيرةٍ؛ ما دام أفراد هذه الأسرة يعيشون في حدود الاحترام العام الذي فرضه المجتمع لمعاملة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض ، وبالتالي فإنَّ الوالد الأوروبي يفقد في كل يوم شيئاً من سلطته على ابنه ، وكذلك الابن يضعف احترامه لأبيه على مرِّ الأيام ، ولقد أصبحت صِلاتهما المتبادلة ضعيفةً وفي طريقها إلى الزوال ، وذلك لقيام مجتمعٍ آليٍّ يميل إلى إلغاء كلِّ امتيازٍ لفردٍ ما على آخر ، ونتيجته المنطقية أنَّ الحقوق التي كانت تفرضها الأرحام والوشائج الدموية تصبح نسياً منسياً ، وبساطاً مطوياً»[1] .

* * *

(١) الإسلام على مفترق الطرق (Islam at the Cross) للأستاذ محمد أسد Leopold Weiss سابقاً.

www.abulhasanalinadwi.org

المَدَنِيَّة الإشراقية

الإشراق ضدُّ الخضوع لحكم الحواسِّ والمادِّيَّة. وكما أنَّ الحسِّيَّة تنكر الروح وما والاها، وتصرف النظر عنها، كذلك يحارب الإشراق الجسم والمادِّيَّة. إنَّه يقوم على أساس الاعتقاد بأنَّ الجسم قفصٌ وطائر الروح مقيَّد في هذا القفص، وأنَّ هذا القفص هو حجر عثرة في سبيل الرقيِّ والطيران، والروح لا يمكنها أن تتصل بمركزها الأصلي ومنبعها الحقيقي حتى تفارق هذا القفص. فإذاً يجب أن يكسر هذا القفص، أو تضعف أسلاكه، ليطير طائر الروح إلى وطنه متى شاء.

يقول بارفري (Porphry) عالم من علماء الإشراقية الجديدة: «إنَّ غاية الفلسفة حضور الوفاة وقربها، إذ به يتأتى انفصال الروح عن الجسم الذي هو غاية الحياة الحقيقية».

ويقول علماء هذا المذهب الآخرون: «إنَّ الآفة الكبرى للإنسان اللذةُ والسرور؛ لأنَّ الروح لا تتمسَّك بالجسم، ولا تعنى به، إلا لأجل هذه اللذة وهذا السرور، ويضمحل بسببها عنصر الروح الإلهية، وتسير الروح على طريقٍ يهديها إليه الجسم منحرفةً عن جادة الحقيقة، ولا يمكن حصول الفلسفة إلا بالعقل الخالص المحض بعد إماتة الحواس الظاهرة، ولا يزال الجسم يضلُّ الروح، ولا نستطيع أن نعرف الحقائق الأصلية ما دامت الروح أسيرةً في القفص المادِّيِّ.

وكلَّما تأثر مذهبٌ ونظامٌ خلقيٌّ من هذه الفلسفة الإشراقية، دخل في فرائضه ومبادئه تعذيب الجسم، والاستئصال للرغبات الإنسانيَّة كلِّها،

www.abulhasanalinadwi.org

وإماتة العواطف ، والتبتُّل ، والرهبانية ، وسُلِّم أن الجسم والروح ضدَّان لا يجتمعان ، وأنَّ سعادة الإنسان في أن يُقهر الجسم ، ويصرف النظر عنه من أجل الروح.

والنتيجة الحتمية لهذه الفلسفة أن يصبح الجسم وما إليه عرضةً للتغافل والإعراض ، بل الذي يؤمن بهذه الفلسفة يعادي جسمه ، كما يعادي سالكٌ في طريق الحجر الذي تتكرر عثرته به ، وكما يعادي طائرٌ طال عهده بعُشِّه قفصه الذي قُيِّد فيه.

فيحسب ذلك الإنسان دنياه دار العذاب ، وحياته عبئاً ثقيلاً ، وعلاقات الدنيا أغلالاً وسلاسل. ومن المعلوم البيِّن الظاهر: أنَّ هذه التصوُّرات تجتثّ أصول المدنية ، ويمكن بها تخريب أيَّة مدنيَّةٍ بسهولة. وأما استخدامها هذه الفلسفة (السلبية) في بناء مجتمعٍ وتأسيس حضارةٍ؛ فلا مجال له. إن الحسِّيَّة والروحانية الخالصة هما على طرفي النقيض ، ولكنها بينهما فرقٌ كبير ، وهو أنَّ الحسِّيَّة تفوز في إفاقة المدنية على مبادئها بسهولة ، وأما الروحانية الخالصة فلم تقم على فلسفتها حياةٌ متحضرةٌ في أضيق نطاقٍ ، وأصغر رقعةٍ في تاريخ الإنسانية الطويل.

فكانت النتيجة أنَّ الذين قبلوا الفلسفة الإشراقية ، عاشوا على أسس الماديَّة والحسِّيَّة منقطعين في حياتهم الخارجية عن المبادىء الإشراقية والروحانية ، واضطروا في حياتهم إلى التلقيح بين الماديَّة والروحانيَّة ، فكانوا في معابدهم إشراقيِّين وروحانيِّين ، أما على بساط السياسة؛ فكانوا ماديِّين وحسِّيين بكلِّ معنى الكلمة. إنَّ الإمبراطور الهندي (أشوك Ashok) الذي كان يؤمن بالبوذية في حماسٍ وإخلاصٍ ، وكان مع ذلك حاكماً كبيراً ، وفاتحاً منتصراً ، هو مثالٌ جميل لهذا الموقف المتناقض ، والسلوك المزدوج.

ولما اعتنق قسطنطين المسيحية (التي مسخت على أيدي أئمتها ودعاتها ، وصارت تعليماً للروحانية الخالصة والإشراقية) سلك في نفس هذا الطريق التناقض ، ولقَّح روحانية المسيحيَّة بماديَّة الروم الوثنية

www.abulhasanalinadwi.org

وجاهليتها ، فإذا لم يكن الأمر كذلك ، بل بالعكس تسنَّى لتعاليم روحانيةٍ خالصةٍ التأثير في الحضارة وإلقاء ظلالها عليها ، تعرضت تلك الحضارة للانحطاط والتخلّف ، واحتضرت تلك الأمَّة والحضارة بالتدريج ، فإمَّا تنقرض تلك الأمة والحضارة وتطوى ، وإذا كانت هذه الأمة تملك قوة مقاومة؛ فإنها تخوض حركة ردٍّ فعلٍ عنيفةٍ ضد هذه الروحانية الغالية ، ولا تنتهي هذه الحركة المعادية إلا عند المادِّيَّة المحضة ، ولا تسمح بتفاهمٍ مع تلك الروحانية ، أو بتعايشٍ معها ، فتتحول هذه الحضارة من روحانيةٍ غاليةٍ ، إلى مادِّيَّةٍ متطرِّفةٍ .

وهذه هي قصة أوروبا ، فقد أصبحت الديانة المسيحية فيها (بتأثير الإشراقية أولاً ، وبجهل زعماء هذه الديانة وتحريفهم ثانياً) نظاماً ثائراً على الفطرة ، قائماً على الرهبانية الغالية ، تعتبر الحياة الزوجية معصيةً كبيرةً ، وتنظر إلى طبقة الإناث كلعنةٍ للدنيا ، وترى الاتصال بها أكبر حاجزٍ في الكمال الدينيِّ ، ودخل كلٌّ ذلك في أصول الديانة ، ودعا أكبر علمائها إلى حياة التبتُّل والعزوبة في قوةٍ وحماسٍ ، وكان رهبان القرون الوسطى وأحباره ينتزعون الأطفال من حجور أمهاتهم ، ويهرِّبونهم إلى قلب الصحراء ، ويحوِّلونهم إلى رهبان ، ويفتخرون بذلك ، وحكايات الغلو في المسيحية الممسوخة ، وتخطِّيها لحدود الاعتدال ، ومعاداتها للمدنيَّة ، وتعذيب الجسم ، وإيذاء النفس ، وقصص الرياضة المؤلمة غير الفطرية ، وإقامة الرهبان في كهوف السباع ، والآبار الغائرة ، والمقابر الموحشة ، وستر الجسم بالأشعار الطويلة ، والمشي على الأيدي مثل البهائم ، وأكل العشب مكان الطعام ، والوقوف على قدمٍ واحدةٍ لمدَّة طويلةٍ ، التي حكاها (ليكي Lecky) في كتابه «تاريخ أخلاق أوروبا» تقشعرُّ منها الأبدان ، ويشمئزُّ منها الوجدان ، فكانت نتيجة هذا النظام الرُّوحانيُّ المعادي للإنسانية أن تضعضعت أسس المدنية في كلِّ بلادٍ كانت تحكمها المسيحية ، والدين المسيحيُّ ، وبدأ عمران تلك البلاد يتضاءل بسرعةٍ ، وتفشَّت الأمراض ، والأموات ، والجدب ، والمجاعات ، وكاد العلم يفنى ، وآثار الحضارة تنمحي ، ولم يبقَ من وسائل الحياة إلا اسمها ، وسادت

www.abulhasanalinadwi.org

الجهالة ، والوحشية ، والظلمة على دنيا المسيحية كلِّها ، حتى سميت القرون الوسطى بـ(القرون المظلمة Dark Ages) .

وكان طبيعياً أن ينشأ ردُّ فعلٍ ضدَّ هذا الوضع ، فلما انهزمت الروحانية والرهبانية في القرن التاسع عشر المسيحي هزيمةً أخيرةً تهافتت أوروبا على المادِّيَّة مثل الفقيرالمدنف على الطعام ، وكانت هذه المادية انتقاماً من الظلم الذي استباحه رهبان المسيحية وأحبار الكنيسة على الإنسانية عدة قرون ، ولكن كان هذا ظلماً آخر على الإنسانية ، ويصعب القول : أيُّهما أكبر ، وأيّهما كان أكثر ضرراً للمقومات الإنسانية؟ كما يصعب التكهُّن : متى تثور أوروبا ثورةً ثانية ضدَّ هذا الوضع غير الطبيعي ، وتنشأ حركة ردِّ فعلٍ أخرى ضدَّ هذه المادية البهيمية ، بل السبعية ، وهذه الجمادية الميكانيكية ، وأين ينتهي ذلك؟

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

طـريـق آخَـرُ لجـوَابِ هَـذه الأسئِـلـة

«الـرسـالــة»

حاصل هذا البحث والتنقيح الذي شغلكم طويلاً ، بأنَّ جميع قوى البشر ، الظاهرة منها والباطنة ، وحواسَّه وعقله وشعوره الباطنيّ ، ومشاهداته الباطنيَّة ، عاجزةٌ عن حلِّ هذه الأسئلة الهامَّة الأساسية ، وكلَّما حاول الإنسان حلَّها على أساس هذه القوى في تاريخه الطويل؛ مُنِيَ بالإخفاق ، وكلما حاول أن يقيم كيان حضارته وحياته على أسس هذه الأجوبة المشبوهة القياسية ، والمفترضات؛ وقع في أساسه اعوجاج ظلَّ به جداره منحرفاً إلى الثريَّا .

ولكن هل نستطيع أن نقتنع بهذه النتيجة السلبية؟ وهل يسوغ لنا أن نقرر أن هذه التساؤلات ما لها من جواب مقنع ، وأنها ستظل ألغازاً على مَرِّ القرون والعصور؟

إننا حين نسرِّح النظر في الكون ، ونرى سعته وعظمته ، وصنعته وحكمته ، وسعة قوانينه التي تحكمه ، واعتدال عناصره وتناسب أجزائه ، وتعاون بعضها مع بعض؛ لا يقبل عقلنا السليم أن يفرض أنَّ هذا الجهاز العظيم البديع ظهر إلى الوجود من غير صانعٍ ، ويسير بلا سائقٍ ، ليس له غرضٌ ولا غايةٌ ، وسوف ينتهي بنفسه .

وكذلك حين نلاحظ هذا الاهتمام الكبير الذي أُحيط به الإنسان في الدنيا ، من مولده إلى موته ، ونلمس هذه التنظيمات الواسعة التي تساير الإنسان وترافقه ، وتيسِّر مهمته في كلِّ خطوةٍ يخطوها ، وفي كلِّ مرحلةٍ يدخل فيها ، ونلاحظ أنَّ الإنسان هو نقطةُ الدائرة والقطب الذي تدور حوله

www.abulhasanalinadwi.org

رحى الحياة ، ونستعرض الوسائل المتوفرة المنتشرة على الأرض لإكمال كلِّ شعبةٍ من شُعَب حياته ، ولتحقيق كلِّ رغبةٍ من رغباته المخفيَّة السرِّيَّة أحياناً ، ونتأمل في نظام الدلالة والهداية الدقيق ، والإلهام الفطري الحكيم الذي يكتنفه في جميع مجالات الحياة؛ يأبى عقلنا أن يُسيغ ويقبل أنَّ حياة هذا الإنسان المحتفل به هذا الاحتفال العظيم ، من غير غاية ، وأنَّه خُلِق عبثاً ، وتُرِكَ سُدىً ، وأنَّه لا يرتفع عن مستوى البهائم والحشرات ، وأنه ليست هنالك دلالةٌ أو إرشادٌ فيما يتصل بهذه التساؤلات النابعة من فطرته السليمة ، وفي هذه القضايا الحسَّاسة الحاسمة التي تقرِّر المصير ، والتي فيها سرُّ سعادته ونجاته ، وأنَّ المجال الروحي هو المجال الوحيد المهجور الذي لا نور فيه ولا دلالة .

ونلقي نظرةً على الكون ، فنرى أنَّه كاملٌ لا من الناحية الفردية بل من حيث المجموع . إنَّ أجزاءه تكوِّن هذه المجموعة المتناسقة الكاملة بتعاون بعضها لبعضٍ ، ولا يستطيع جزءٌ من هذه الأجزاء أن ينوب عن آخر ويقوم مقامه . والنظام الإنسانيُّ قائمٌ هو الآخر بهذا التعاون وتوزيع الأعمال والوظائف .

[ونحن الآن ، بعدما بحثنا عن الكون ونظامه بحثاً دقيقاً وتفصيلياً كذلك ، اعترفنا بعجزنا من أن نفكَّ هذه الألغاز بأنفسنا نحن ، وفي الوقت نفسه ندرك أننا في حاجةٍ إلى نظام مُنَزَّلٍ من الله للهداية والإرشاد ، وفي هذه القضايا ، ولكننا ليس لنا أن نلحَّ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد البشرية أهلٌ للقيام بعمل الهداية ، لأنه يتنافى مع سُنَّة فاطر الكون ، وطبيعة هذا العالم .

الأنـبيـــاء :

وهنا يتمثَّل أمامنا رجالٌ يدَّعون أنَّهم يرشدوننا في هذه القضايا على بيِّنة من الله . إنهم يقولون : قد كشف الله لنا كثيراً من أسرار هذا العالم ، وأخبرنا بعالمٍ جديد (عالم الغيب)[1] .

---

(١) الغيب في الاصطلاح : حقيقةٌ لا تدرك بالحسِّ المحض ، والعقل الخالص .

www.abulhasanalinadwi.org

إننا نرى هذا العالم حين يريناه الله كما ترون هذا العالم (عالم الشهود) ، إنَّه منحنا علم ما يرضاه لعباده وما لا يرضاه ، وعلم الأحكام بطريقٍ مباشر ، وجعلنا واسطةً بينه وبينكم ، وأنزل علينا كتابه ، وهذه الجماعة هم الأنبياء .

إنَّ هؤلاء الذين يقولون إنَّهم أنبياء انكشفت لنا عن سيرتهم نواحٍ وسِماتٍ يتَّسمون بها ، عرفناها بدراسة حياتهم ، وبشهادات جيرانهم ، ومعاصريهم ، وبالأخبار المتواترة المستفيضة في التاريخ ، وهي كما يلي :

١ ـ إنهم كانوا على جانبٍ عظيم من سموِّ الأخلاق ونزاهة السيرة ، لا مغمز في حياتهم ، ولا مأخذ من المآخذ التي تكثر في حياة غيرهم . لم يُسجَّل عليهم كذبٌ ، أو تزويرٌ في أتفه الأمور ، فضلاً عمّا له شأنٌ وخطرٌ ، ولم يُروَ عنهم قطُّ أنَّهم خدعوا أحداً ، وقد احتجَّ بهذا الماضي المشرق النزيه والرصيد الغني ، الذي أقرّت الفطرة السليمة والعقول المستقيمة في الأمم المعتدلة قديماً وحديثاً بقيمته ومكانته ـ آخر الأنبياء ﷺ ، فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦].

٢ ـ إنهم يمتازون بكمال العقل ، وسلامة الفطرة ، وإصابة الرأي في جميع الأمور ، والاعتدال ، والاتزان في كلِّ ما يأتون ويذرون ، لا يؤثر عنهم شيءٌ يشكِّك في رجاحة عقلهم ، ونباهتهم ، وصحة قواهم الفكرية ، وقد نفى خالقهم الذي أرسلهم عنهم كل ظنَّةٍ ومرضٍ عقليٍّ ، فقال: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣]. وقال أحدهم متحدِّياً لقومهم: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ : ٤٦].

٣ ـ إنهم في قضايا العالم الأخرى رجالٌ وسط ، يعيشون كما يعيش الناس حياةً عاديَّةً هادئةً ، تتسم بالاعتدال والاستقامة ، لا يدَّعون في أنفسهم في قضايا الحياة وعلوم البشر اختصاصاً أو تفوقاً على غيرهم ، أو براعةً في فنٍّ من الفنون ، لا يشاركهم فيها غيرهم ، بل يقول الواحد منهم في كلٍّ بساطة وصراحة : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠].

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول الله تبارك وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٤ ـ إنهم يخبرون بالأخبار والعلوم التي يعرف الإنسان بداهةً أنَّ مصدرها غير مصدر العلوم التي تستفاد من العلماء والمعلمين، وأهل الحذق والبراعة من أفراد البشر. فعلومهم تختلف عن العلوم البشرية المكتسبة من الكتب والمصادر العلمية والتجارب المبنيَّة على الذكاء، والاجتهاد، والملكة العلمية اختلافاً بيِّناً، ولا صلة لها بتلك الوسائل التي توارثتها البشرية، وقام عليها صرح العلم قديماً وحديثاً من تعليمٍ، وقراءةٍ، وكتابةٍ، ومراجعةٍ للكتب، وتأمُّلٍ، وتمرينٍ، وإلى ذلك أشار الله تعالى في قولـه:

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ [هود: ٤٩]، وبقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

٥ ـ ويكونون في الغالب بمعزلٍ عن المصطلحات العلمية التي يخضع لها ويستخدمها أهل الصناعة العلمية والمنخرطون في سلك العلماء والمؤلفين، ولا يستغنون عنها، إنَّهم يستخدمون الطرق الفطرية الموهوبة، ويرسلون النفس على سجيتها، ويخاطبون الفطرة البشرية بلغتها التي تفهمها والأسلوب الذي ألفته في جميع البيئات ومراحل الحياة، فلا تحتاج إلى شارحٍ أو ترجمانٍ، وإلى ذلك يشير أحدهم (وهو محمد ﷺ) بقوله ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، إن ينبوع الحقيقة يفيض من لسانهم، كما ورد على جنانهم، لا يحبسه حابسٌ، ولا يتلوَّن بلونٍ خارجيٍّ، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، ولا يتصرَّف فيه النبيُّ وفقاً لمصلحةٍ، أو خوفاً من ضررٍ، أو معارضةٍ، فيقول آخر الأنبياء ﷺ: ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ [يونس: ١٥].

٦ ـ إنهم يقضون ردحةً من حياتهم لا يأتون فيها بدعوى، ولا ينتظر الناس

منهم ذلك ، ولا يستشرفون بأنفسهم إلى منصبٍ يمنحونه ، أو كرامةٍ يكرمون بها ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ كما حكاه القرآن عنه : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] ويقول الله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [القصص : ٨٤].

٧ ـ إنهم يمتازون بالاستقامة الخلقية ، قد عصمهم الله تعالى من كلِّ رذيلةٍ ، أو وصمةٍ من وصمات الحياة الجاهلية ، أدَّبهم ربهم ، فأحسن تأديبهم ، وقد ظهرت علائم الرشد منذ نعومة أظفارهم ، وامتازوا بين أترابهم وأعضاء أسرتهم بسلامة الفطرة، وصفاء القلب ، ويقظة الروح ، وحبِّ الاعتدال ، والإنابة إلى الله ، وكراهة الظلم ، والبعد عن الفحشاء ، والعطف على الضعفاء ، والفقراء ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١]، ويقول : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٢٤].

٨ ـ ولا يتسم العلم الذين يأتون به بالتَّدرُّج والانتقال من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ من النضج ، والحصافة ، والرقيِّ ، كما جرت به العادة في العلوم البشرية ، والصناعات العلمية ، ولم يعدّ ذلك عيباً بل عدّ كمالاً ونبوغاً ، ومدح به العلماء ، ووصف به العلم في تاريخ العلم وتطوره في كلِّ أمَّة ودور ، ولكنهم بالعكس من ذلك ينكشف عليهم الحقُّ فجأةً وكاملاً ، ولا يتغيَّر بتقدُّم في العمر وبزيادةٍ في العلمِ والتجارب ، أو الحنكة والممارسة . يقولُ القرآن : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢].

٩ ـ إنَّ ثقتهم بالحقائق الغيبية ، والعلوم التي يكرمهم الله بها ، ثقةٌ لا تقاس بثقة أهل العلوم بعلومهم ، فإنَّ جميع هذه الحقائق التي يكشفها الله عليهم تصبح لهم حسِّيَّةً بديهيَّةً ، ووجدانيَّةً ذوقيَّةً ، ولا يتطرَّق إليها شكٌّ ، ولا ترتقي إليها شبهةٌ ، ولا تقبل مراءً ، ولا جدالاً ، يقول الواحد منهم تارة : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾

www.abulhasanalinadwi.org

[يوسف: ١١٨]، ويقول طوراً: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] ويقول الآخر: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

١٠ ـ إنَّ أمور الغيب التي يطالبون بالإيمان بها كالأصول الموضوعة هي الدائرة الوحيدة التي لا يتناولها العقل بنقدٍ (لأنَّه لا يملك المبادىء الأولية، والوسائل البدائية التي تمكِّنه من ذلك).. أما ما عدا ذلك من التفاصيل والتعاليم والنظم التي يدعون إليها ويعلمونها، كالعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وتدبير المنزل، وسياسة المدن، فللعقل مجالٌ فيها، وأنَّه يهتدي إلى الحكم والمصالح التي تتضمنها هذه التعاليم، وقد تحقَّق أنَّهم دعوا إلى منهجٍ للحياة لم يعرف أنَّ حكيماً من الحكماء قدَّم منهجاً أفضل منه، ولم تجرب البشرية في سيرها الطويل نظاماً أمثل من هذا النظام، وأعود على البشرية بالسعادة والسلام، وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

لقد أصبح الذين دانوا بتعاليمهم (بعدما آمنوا بمبادئهم الأولية التي دعوا إليها) شامةً بين الناس، ونارًا على عَلَم في حسن سيرتهم، وكرم أخلاقهم، وطهارة نفوسهم، وفي جامعيتهم، وفي اعتدالهم، وتوازنهم، وفي تقواهم، وخشيتهم لله، وفي معرفتهم للحقِّ وحمايتهم له، لا يجاريهم في ذلكَ من نشأ في أحضان المصلحين الآخرين، وتخرَّج في مدارس خلقيةٍ تربويَّةٍ في مختلف أدوار التاريخ، وشتَّى أنحاء العالم. يقول القرآن عن بعض مَن نشأ في أحضان هذه التعاليم النبوية، وفي ظلال هذه التربية الفريدة: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إلى غير ذلك من الخصائص التي مُدحت بها الأمَّة التي رضعت بلبان التعاليم النبوية.

١١ ـ إنَّهم لا يدَّعون علم الغيب استقلالاً وبصفةٍ دائمة، ولا يستطيعون أن

www.abulhasanalinadwi.org

يجيبوا على كل سؤالٍ من عند أنفسهم في كلِّ وقتٍ. يقول القرآن على لسان نبي من الأنبياء وهو محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وإنما يتطلَّعون إلىٰ نزول الوحي، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ولا يكون في وسعهم أن ينالوه متى شاؤوا، وكيف شاؤوا.

وفي بعض الأحيان يكون هذا التنزيل والوحي مخالفاً لهواهم، وأحياناً مخالفاً لقياسهم وعملهم، وقد يعاتبون فيه، وينصحون، وفي القرآن شواهد على ذلك منها قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وفي آية أخرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقال في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]. وقد نزلت سورةٌ بأثرها في تنبيه النبيِّ على موقفٍ اتَّخذه إزاء كافرٍ مستغنٍ ومؤمنٍ مخلصٍ طالبٍ للحق، وما كان ذلك إلا لحرصه ﷺ على نشر دعوته وتقويتها، وهي سورة «عبس».

١٢ ـ إنَّهم على صلة وثيقة استثنائية بالله تعالى، يساندهم تأييد الله، ونصرته، وقوى الكون كلِّه تبدو مسخَّرةً لهم، وقد تظهر في توثيقهم، وتصديق نبوتهم أحداثٌ غريبةٌ تبدو معارضةً لنظام الكون الطبيعي، وأسبابه، يقصر ذهن الإنسان وتجربته عن فهمها، وإدراك علَّتها، غير أنَّها تظهر بقدرة الله، وتبرهن على أنَّهم من أوليائه، وأيضاً لا يكون لهم خيارٌ في ظهور هذه الوقائع، ولا يستطيعون إظهارها بهواهم كلما طالبهم الناس بذلك. يقول القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. ويقول: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥].

www.abulhasanalinadwi.org

هذه هي جماعة الأنبياء وميِّزاتهم ، والشهادات على صدق دعواهم ، والقرائن الدَّالة عليه وعلاماته ، ولكن أكبر شهادة لهم هي شخصيَّتُهم وسيرتُهم ، التي هي معجزةٌ متَّصلةٌ ممتدَّةٌ على فترةٍ زمنيةٍ طويلة ، بل هي مجموع معجزات قد يبلغ عددها إلى مئات وآلاف ، وهي المعجزة التي آمن بها أكبر عددٍ من أتباعهم .

والشهادة الثانية الكبيرة هي تعاليمهم ، وصحيفتهم التي هي معجزةٌ حيّةٌ خالدةٌ ، والتي تتضمن مئاتٍ من المعجزات البيانية البلاغية ، والمعنوية ، والتربوية ، منها ما هي داخلة فيها ، ومنها ما هي نابعة منبثقة عنها ، ومنها معجزات هي من صميم هذه المعجزات ، ومنها ما هي جانبيةٌ .

فلنفكر الآن قليلاً ما الذي يدعو إلى التشكك فيما إذا كان الله اختصَّ عبداً من عباده لتبليغ رسالاته وكلامه ، وأحكامه إلى خلقه ، واجتباه لدلالتهم وإرشادهم ، هل في ذلك ما يتنافى مع العقل السليم ، أو ينقض قانوناً من قوانينه ، أو السنن التي سنَّها؟ .

هل ذلك مما لا يتفق مع ما علمناه وجرَّبناه من صفاته تعالى من القدرة المحيطة التي عَبَّر عنها بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]؟ . وعلمه المحيط الشامل ، ومنه علمه بضعف البشر ، وحاجتهم ، وافتقارهم إلى الهداية والدلالة ، وتفاوت مداركهم ، ومستويات فهمهم وعقولهم ، وكون بعضهم عيالاً على بعضٍ في العلوم والصنائع البشرية ، الحقيقة التي عَبَّر عنها بقوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] . بل إنَّ عكس ذلك وهو تعطيل الأجيال البشرية وتركها هملاً ، حبلها على غاربها ، هو الذي يتنافى مع ما اتصف الله تعالى به من الرحمة والعدل ، والاهتمام الكبير لسعادة البشر ، وراحتهم ، وبلوغهم الغاية التي خلق استعدادها في نفوسهم : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] .

وهل هذا خلافٌ لقدرة الله وشهادة التاريخ؟ ولا يصحُّ ذلك! فقد بعث الله الأنبياء في كلِّ زمانٍ احتاجت فيه البشرية إلى الهداية والإرشاد ، وفي كلِّ

www.abulhasanalinadwi.org

أمّةٍ ضلَّت ، وتاهت ، ولم تقم حجّةٌ وبرهانٌ على خلاف ذلك ، واقترنت دعواهم بمئات من الحجج والشواهد ، وكان في مواجهة دعوتهم دعاوٍ فارغةٌ لا دليل معها ، ولا برهان.

وهل يخاف ذلك الحسُّ والتجربة؟ ولا شكَّ أنَّ الحواسّ والتجارب الإنسانية بشكل عام لا تصلح أن تكون محكّاً للنُّبوّة يمكن بها تصديقها ، أو تكذيبها؛ لأنها خلقت لممارسة أعمالٍ طبيعيةٍ محدودةٍ ، وقضاء حاجاتٍ بشريّةٍ عاديّةٍ ، ولكنّها تستطيع أن تساعدنا في فهم هذا الطور الذي يبلغ إليه الأنبياء ويُستأثرون به ، وفي تسليم إمكان هذا التفاوت العظيم بينهم وبين عامّة الناس يجب علينا أن نفكر في معارفنا ومعلوماتنا ، فإنّها لم تتيسر لنا في بداية العمر وحالة الجهل ، وقد جهلها كثيرٌ ممّن سبقنا من الآباء والأجداد ، ولكنّها حصلت لنا بالتعليم وبنظامٍ خاصٍّ من التلقين والاكتساب ، فما هو المانع من أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حصلت لهم معارف وعلوم ، هي أسمى وأدقُّ وأصحُّ من علومنا المكتسبة ، بالتعليم الإلهي وبواسطة الملك ، ونزول الوحي؟!

وقد ردَّ القرآن على هذه الشكوك الثلاثة في آيةٍ واحدةٍ ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وتفيد الكلمات الأولى في الآية أنَّ الذي ينكر الرسالة والنبوة ، هو لا يعرف صفات الله في الحقيقة ، ولم تحصل له معرفةٌ تامّةٌ بها ، فمن كان يعرف شيئاً من صفة ربوبيته وصفة رحمته ، وصفة عدله ، والذي له معرفة بلطفه ، وعنايته؛ التي تعمُّ الإنسان من أول أمره؛ لا يستطيع أن ينكر الرسالة التي هي أهم شعبةٍ من ربوبيته ، وأكمل مظهرٍ من مظاهر رحمته ، وأوضح دليلٍ لعدله ، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ثم تعرضت هذه الآية للردِّ على من ادّعى أنَّ دعوى النبوة بدعٌ من الأمر لم يسبق له نظيرٌ ، فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن

www.abulhasanalinadwi.org

شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهنا يتساءل القرآن فيقول: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. وخبر نبوة موسى من الأخبار المستفيضة المتواترة التي لا تقبل الجدال، وقد كان من هؤلاء المستغربين للنبوة المحمَّدية، وفي مقدمتهم يهود المدينة، فقال مخاطباً لنبيه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. ثم قدَّم حجة حسِّيَّةً وتجريبيَّةً على إمكان النبوة، وهو تدرُّج الإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الأمية إلى الثقافة، والتوسع في المعلومات، والتضلع من العلم، والانتقال من درجةٍ إلى درجةٍ، حتى يكون بين الأميِّ والمتعلِّم، وبين متوسطٍ في العلم ومشاركٍ فيه، وبين متبحِّرٍ ضليعٍ وإمامٍ مجتهدٍ، من البون الشاسع، والفرق الواسع ما لا يبلغه قياس كثيرٍ من الأذكياء، وهو دليل على أنَّ المعارف لا نهاية لها، وأنَّ مدارك البشر لا تمكن الإحاطة بها ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وهو قوله تعالى مستدلاً على إمكان حصول علمٍ خاصٍّ للأنبياء: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي الحقيقة ليست في إمكان النبوَّة واختصاص بعض البشر بالوحي والتنزيل والرسالة والنُّبوَّة استحالةٌ عقليَّةٌ، ولكن الذي لم يترقَّ فكره وذهنُه إلى هذا السموِّ الفكريِّ ليس في وسعه أن يقيس ذلك المقام، وليس له بديل سوى الاعتماد على النبيِّ وتقليده.

وجاء هذا الفرق الطبيعيُّ والفجوة الواسعة العميقة التي تقوم بين من يكرم بالنبوة وتعليمها، وبين من يكون بمعزلٍ عنها، مصوَّرةً مجسَّمةً في حكاية جبل الصفا وخطبته، وهو المثل الحكيم البليغ لما يمتاز به النبيُّ عن أفراد البشر، وما يتمتع به من نورٍ وبيِّنةٍ ومشاهدةٍ لا حظ فيها لغيره.

وهو ما تحكيه السيرة النبوية: أنَّ رسول الله ﷺ لما أمر بإنذار عشيرته؛ صعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: «يا صباحاه!» وكان من عادة العرب أنَّهم كانوا يعلنون بهذا الصوت الخطر العظيم، وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم،

www.abulhasanalinadwi.org

وسموه: (الصادق الأمين) وفهموا معناها ومغزاها وملابساتها ، وأمامهم سلسلةٌ طويلةٌ من التجارب والحوادث ، فلم يتأخر في تلبية هذا النداء فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه ، وبين رجلٍ يبعث رسوله[١] ، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»[٢].

وكان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ أُميِّين غير مثقَّفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلم المنطق ، ولم يألفوا التعمُّق والتدقيق ، ولكنهم كانوا واقعيِّين عمليِّين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك. إنَّهم رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحبَّ الخير ، قد وقف على جبل يشاهد ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمُّل طويلٍ أنَّ له الحقّ في أن يتحدَّث عما في السفح المقابل من عدوٍّ رابضٍ ، وخطرٍ كامنٍ ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذبوا وينفوا رؤيته ، على أساس أنَّهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، فقالوا : نعم! نصدِّقك؛ لأنك صادقٌ أمين ، وأنت واقف على الجبل.

فقال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»[٣].

وفي الحقيقة كان هذا تمثيلاً للنبوَّة ، وأوثر له هذا الأسلوب الحكيم. فالذين لا يكونون على هذه القمَّة التي يكون عليها النَّبيُّ ليس لهم أن ينكروا هذه الحقائق والعلوم التي يقدِّمها النَّبيُّ بتنزيل الله ووحيه ، على أساس قياسهم وتخمينهم ، ليس لهم إلا أن ينكروا مشاهدتهم ، وينفوا علمهم ، ولكن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّ عدم العلم لا يستلزم علم

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ج ٣ ، ص ٣٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر هذا الحديث بالتفصيل في كتاب العلامة الندوي «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

www.abulhasanalinadwi.org

العدم» فبينهما فرقٌ كبير ، فليس ما جهله الإنسان كان معدوماً ، وكم من موجود في الدنيا يجهله ملايين من البشر .

فإذا جادل النبيَّ وباحثه رجالٌ ليس لهم علم بالنُّبوَّة ، ولا إدراك لحقائق وأسرار ما وراء الحسِّ والعقل ، وحاجُّوه فيما هو له بديهيٌّ ومشاهد؛ أجابهم النبي ، وقد ضاق صدره من محاجَّة هؤلاء ، ومكابرتهم في الواقع ، فقال: ﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكذلك إذا عجز نبيٌّ من الأنبياء ـ بطبيعة الحال ـ عن أن يشرك غيره فيما يراه ويشاهده ، ويخلق فيه ذلك اليقين الذي حصل له ، قال معتذراً: ﴿ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨].

إنَّ كثيراً من هؤلاء الناس الذين يملكون حواسَّاً سليمةً ، وعقلاً كبيراً يستعينون به في قطع هذه المسيرة وترقية الحياة وترفيهها ، وإذا واجهوا علوم النبوَّة الدقيقة ، وما يخبر به الأنبياء عن عالم الغيب وحياة أخرى ونعمائها ، خانتهم قواهم ، وخذلهم ذكاؤهم ، فتذرَّعوا تارةً بالشكِّ ، وتارة بالإنكار ، وطوراً بالعيِّ والعجز والعمى ، وهم الذين صوَّرهم القرآن في قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النحل: ٦٦] ويقول: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. ولو تكلموا في هذه القضايا لم يعتمدوا عل يقينٍ ومشاهدة ، إنما بنوا على قياسٍ وتخمينٍ وجزافٍ من القول: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

* * *

تعاليم الأنبياء

وندرس الآن ما هي المعلومات التي حملها الأنبياء الكرام عن ذات الله ، وصفاته ، ومخلوقاته ، وهذا الكون ، وعلاقة الرب به وعلاقته بالرب ، وحقيقته ، وعاقبته ، وغاية حياة الإنسان ، وما نقلوا إلينا من الأخبار عنه ، وعن الكمال المطلوب ، وما هو الأساس للمدنية والاجتماع والأخلاق الذي شيدوه ، ثم ندرس بها حياة الإنسان التي تقوم على هذا الأساس ، وما هي ميزاتها.

ولا يفوتنا هنا أنَّ تعاليم الأنبياء متفقٌ عليها ، وهي تلتقي على أساسٍ واحدٍ ، وتنبع من مصدرٍ واحدٍ ، بخلاف كلام الفلاسفة والإشراقيين الذي يكثر فيه التناقض والاضطراب ، والذي ينقض بعضه بعضاً[1] ، وكان جديراً هناك أن نستعرض نموذجاً من أقوال الأنبياء ، ولكن أكثر صحفهم قد ضاعت ، ولم يصحَّ ما بقي منها ، فلا يمكننا استعراضها؛ إذ عبثت بها أيدي الأحبار والملوك والحوادث الدامية ، كما عرفنا من تاريخهم ، ولذلك نكتفي بأمثلة من القرآن الكريم ، وهو آخر الصحف المنزلة والمهيمن عليها ، وهو كافٍ في تمثيلها.

* * *

---

(١) راجع كتاب «مقاصد الفلاسفة» لحجَّة الإسلام الغزالي ، وكتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وراجع تاريخ الفلسفة الحديثة لهيرالد هوفدرنك (Dr. Herold Hoffdring).

www.abulhasanalinadwi.org

الكون وخالق الكون

صفات الله وأفعاله:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤].

خلق العالم ونظامه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ملكوت الله وحاكميته:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

لم يخلق هذا الكون عبثاً وما كان خلقه باطلاً:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص: ٢٧].

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

إن حياة الإنسان ليست بلا غايةٍ والإنسان لم يُترَك سُدىً:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]. ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

غاية الموت والحياة ابتلاءٌ للإنسان وامتحانه:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

زينة الدنيا لاختبار الإنسان:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

الإنسان أشرف خلق الله:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

الإنسان خليفة الله في الأرض:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

الإنسان أمينٌ لخزائن الله في الأرض:

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

www.abulhasanalinadwi.org

جميـع مـا فـي الأرض لـلإنـسـان :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

غـايـة خلـق الإنـسـان عبـادة الله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧] .

نعـم الله وخيـراتـه خلقـت لـينتـفـع بـهـا الإنـسـان :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

لـيـس الأكـل والـشـرب مـعـصيـة ، إنـمـا الـمعصيـة فـي الإسـراف :

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

الـنـاس مـن آدم ، لا فـضـل لأحـدٍ عـلـى أحـدٍ إلا بـالـتقـوى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

حيـاة أخـرى

وتلي هذه الحياة حياة أخرى حيث يُجزى الإنسان على أعماله، ويُحاسَب عليها، حتى على مثقال ذرّة: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤].

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

حياة الدنيا فانيةٌ تافهةٌ، وحياة الآخرة باقيةٌ خالدة:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

العاقبة للذين لا يريدون علوّاً في الأرض:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

منجزات تعاليم الأنبياء
ومميزات الحياة الإسلاميّة

هذه هي حقائق وعلومٌ ، ومسلماتٌ عن خالق الكون والحياة . والإنسان ، ومصيرها ، ونشأتها الثانية التي تحصل للإنسان عن طريق الأنبياء ، وكلُّ بناءٍ للحياة يقوم على هذا الأساس العلميِّ ، الفكريّ الخلقيِّ ، لا يصعب أن يقاس عليه خططها وتفاصيلها ، فكما لا يصعب على أيِّ إنسانٍ واعٍ أن يتكهَّن برؤية بذرةٍ بنوعِ الشَّجر الذي ينبت منها ، وعن هيئة أوراقه وثماره ، ويستطيع طبيبٌ ، أو عالمٌ من علماء النبات أن يبيِّن تفاصيل نشأة هذه الشجرة ومصيرها .

وكذلك يستطيع الذين يدركون كيف تؤثر عقيدةٌ أو نظريةٌ تتعلق بالعالم ونظامه ، مبدئه ومصيره ، وغاية حياته ، ومنزلة الإنسان ، ومسائل أساسية ورئيسيةٍ أخرى ، على التفاصيل الأخرى للحياة ، ويستطيعون بسهولة أن يبيِّنوا ملامح الحضارة التي تقوم على ذلك الأساس .

ولا حاجة إلى أن ألفت نظركم إلى التناقض القائم في المبادئ والأصول الحسِّيَّة ، والعقلية ، والإشراقية ، وبين هذه التعليمات والمدنية الإلهامية ، وأنَّ هذا التناقض قائمٌ في التفاصيل كما هو في الإجمال ، وأن الفارق الذي يلاحظ بين نواة التمر العربي ونواة التمر الهندي يلاحظ كذلك بين أثمارهما ، وأوراقهما ، وطعمهما ، ولن يتلاشى هذا الاختلاف بنمو الأشجار ، وازدهارها ، وبقائها مدةً طويلةً ، فإن رأيت شبهاً جوهرياً في نظامي حياةٍ متناقض الأصل؛ فاعلم أنك إمَّا أخطأت في تعيين أساس

www.abulhasanalinadwi.org

ومبادئه ، أو أنَّ هذه المدنية قد مرَّت بعملية تلقيحٍ بنظام حياة أخرى ، ويمكن أن تأتي هذه الشجرة بنوعين من الثمر .

وقد وقع هذا مع المدنية الإلهاميَّة مراراً ، أنَّها لقحت بالمدنية الحسِّيَّة والإشراقية ، وقد وقع ذلك في التاريخ الإسلامي غير مرَّةٍ بعد الخلافة الراشدة ، أنَّ هذه الشجرة لقحت بالجاهلية العربية ، وأخرى بملوكية العجم ، وحيناً بالإشراقية اليونانية والإيرانية ، وبالحياة الحسِّيَّة المادِّيَّة ، ثم تسمَّى هذه الشجرة الملقَّحة المزدوجة بالحضارة الإسلامية ، أو الثقافة الإسلامية ، توسعاً في التعبير ، أو جهلاً لحقيقة الحضارة الإسلامية الأصيلة ، وقد اعتاد كثيرٌ من المؤلِّفين والمؤرخين المسلمين أن يتفاخروا بثمار هذه الشجرة وما آتته من أُكُلٍ في عصورٍ وبقاع مختلفة .

وكلَّما أُطلقت كلمة الحضارة الإسلامية ابتدر الذهن إلى دمشق وبغداد ، وقرطبة ، وغرناطة ، وأصفهان ، وسمرقند ، ودلهي ، ولكهنؤ ، ويتمثل للعيون طرازٌ خاصٌ للفنِّ المعماري (الذي جرت العادة بتسميته الفن الإسلامي) ومن نماذجه الرائقة قصور الملوك الفخمة ، والسرايات الجميلة ، والدهاليز الواسعة ، والمقابر الجميلة البديعة ، وتجدَّدت ذكرى أناقة الأمراء المسلمين ، وتظرُّفهم في الحياة والأزياء ، واحتضانهم للفنون الجميلة ، والحياة المترفة الزاهية ، التي كانوا يعيشونها في عواصم الحكومات الإسلامية ، وأصبحت مناظرها الزاهية الزاهرة ماثلةً للعيون .

إنَّ كثيراً من هذه التأنقات لم تكن إلا وليدة التبذير والعدول عن التعاليم الإسلامية ، وكانت نتيجةَ السُّخرة الجائرة ، وحين تقوم المدنية الإسلامية بروحها وهيكلها لم يكن لما ذكرنا وجود؛ إذ لا يسمح الإسلام بالبناء الزائد عن الحاجة عبثاً بلا ضرورة ، لا غاية له إلا المظاهرة بالحشمة والفخفخة ، أو إظهار الترفُّه والسُّمعة وخاصةً بناء المقابر العظيمة عملٌ غير إسلاميٍّ ، وإسرافٌ وتبذيرٌ ، ومن الظلم أن يحتل الإنسان حتى بعد موته مساحةً واسعةً من الأرض بغير حاجة ، ويضيع في بناء مقبرته وجدرانها ما به قوام الحياة وما يغطِّي حاجات مئاتٍ من الناس ، ومن الناحية الشرعية الإسلامية فليس

www.abulhasanalinadwi.org

من المستحسن تخليد الاسم بأيِّ طريقٍ سوى العمل الصالح ، والأولاد الصالحين ، والصدقات الجارية ، والآثار العلمية الدينية ، والمبرّات والمآثر البريئة التي أريد بها نفع الخلائق ، وما عداها فمحاولةٌ جاهلية ، وكذلك الإسلام لم يشجع الموسيقا والغناء ، وأما نحت الأصنام ونصب التماثيل فحرامٌ في الشريعة الإسلامية ، ولا تسمح الشريعة الإسلامية للرجل أن يلبس الحرير ، كما أنَّ أواني الذهب والفضة محظورةٌ في الشريعة الإسلامية .

وكلُّ ما يؤدِّي إلى الغفلة في الحياة ، وانشغال القلب بالدنيا والترف محرمةٌ في المدنية الإسلامية ، ولا ينظر إليه الإسلام بعين الرضا ، وقد ورد في الحديث : «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» . ودعا النبي ﷺ فقال : «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا غاية رغبتنا» ، وأما ما يسمَّى بالمدنية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، وما تعوَّده مصنِّفوناً ، ومؤرِّخونا القوميون ، ويسرُّون بتقديمه مقابل المدنية الغربية سرور الانتصار والافتخار؛ فهو أسلوب حياة الملوك المسلمين ، الذي لا يتحمَّل الإسلام وشريعته مسؤولية أعمالهم كلِّها .

فإذا لم تكن هناك عملية التلقيح ، ونمت شجرتان مختلفتان على طبيعتهما ، بعيدة إحداهما عن الأخرى ، فلا تتحدان ، ولا يكون بينهما لقاءٌ ، غير أنَّهما شجرتان ثابتتان على هذه الأرض ، ولا يوجد أيُّ شبهٍ بين هاتين المدنيتين غير الاشتراك في أداء وظائف الحياة ، ومظاهر الفطرة البشرية ، وخواصِّها الإنسانية .

وفوق ذلك؛ إنَّ نظام صحتهما ، ووسائل رقيِّهما وحامليهما مختلفةٌ بعضها عن بعض ، وفي بعض الأحيان يتصادمان ، فإنَّ العوامل والأحوال التي تعتبر عوامل الرقيِّ والنموِّ للمدنية الإلهاميَّة تعدُّ في نفس الوقت عوامل انحطاط المدنية الحسِّيَّة والمادِّيَّة . إن العوامل التي تفتخر بها المدنية الحسِّيَّة تعافها وتغار منها المدنية الإلهامية ، فربيع إحداهما خريفٌ للآخر ، والشيء الذي يكون مصدر الحياة للأولى يصبح السُّمَّ القاتل للأخرى .

www.abulhasanalinadwi.org

ولْنُلقِ نظرةً على العناصر التركيبية للمدنية الإلهامية ، ونتناولها بالنقد والتحليل ، ونعرف ما هو التأثير الثوري الذي تخلِّفُه هذه العناصر على عقلية الإنسان وطبيعته ، وعلى أخلاقه واجتماعه.

إنَّ المدنية الإلهامية تؤمن قبل كلِّ شيء بأنَّ هذه العالم ليس بلا ملك ، ولا دولةٍ مشتركةٍ لعددٍ من الملوك ، بل له ملكٌ واحدٌ وهو خالقه ، وصانعه ، وحاكمه ، ومدبره ، له الخلق والأمر كلُّه ، وله الحكم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولا يوجد في هذا العالم شيءٌ إلا بأمره وقدرته ، وإنَّ العلة الحقيقية لوجوده هي إرادتُه وقدرتُه. إنَّ هذا الكون كلَّه خاضعٌ له في كونه ووجوده ، ومنقادٌ له وطوع أمره ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وعلى المخلوقات التي تملك إرادة وخياراً أن تخضع له ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وإنَّ الأثر العقلي الأول الذي يترتَّب من هذه العقيدة على الإنسان هو أنَّ العالم كله تابعٌ لمركزيةٍ ونظامٍ واحدٍ ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ، ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسيرٍ كاملٍ للحياة ، وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمةٍ وبصيرةٍ.

إنَّ الفلسفة الغربية تعترف بهذا الأثر ، وتعترف بعجزها عن خلقه. يقول مؤرّخ الفلسفة الحديثة (الدكتور هوالد هو فدنج):

«إنَّ فكرة كلِّ دين قائمةٌ على التوحيد ، وهي تقوم على أن علَّة الوجود لجميع ما في الكون واحدةٌ ـ وبغضِّ النظر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورةٍ لازمةٍ ـ يخلِّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهتماً على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأنَّ جميع الأشياء في العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحد ، بغضِّ النَّظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلة واحدةً أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرةُ وجود هذه الوحدة في الكثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود

www.abulhasanalinadwi.org

الكثرة في المظاهر الطبيعية التي كان يتيه ، ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة»[١].

وتخلِّف هذه العقيدة تأثيراً أهمَّ منه ، وأكثر ثورةً فيما يتعلَّق بالأخلاق والأعمال ، فتقتلع عن الفكرة والقلب جذور الحرية المطلقة ، والشعور بعدم المسؤولية أمام أيَّة قوةٍ أو محكمةٍ ، فلا يحسب سكان هذه الأرض وخزائنها ، بل وطاقاته وجسمه وأعضائه ملكاً لنفسه ، إنما يعتبرها أمانةً من الله ، ويحذر من استعمالها ضدَّ قانونه ومرضاته ، إنَّه يحسب نفسه محكوماً ، تابعاً لأكبر قوةٍ وأعلاها ، ومسؤولاً لدى محكمةٍ عظيمةٍ. ويمكننا أن نقيس تأثير هذه العقائد والخضوع لها في فروع الأعمال والأخلاق ، وفي شعب الحياة كلِّها.

إنَّ الاعتقاد بأنَّ لهذا العالم ولهذه الحياة غرضاً وهدفاً ، وأنهما لم يخلقا عبثاً ، وأنَّ الإنسان تابعٌ ومحكومٌ بلا ريب ، يُحدِث في الإنسان الشعور بالمسؤولية ، والشعور بقيمة الحياة الحقيقية ، فيغتنم كلَّ لحظةٍ من لحظات حياته ، وكلَّ نفسٍ من أنفاس عمره ، ولا يحب أن يضيِّعها ، لتتوفر له السعادة في الحياة ، والتمتُّع بها.

بل وإنَّما يفعل ذلك تأميناً للحياة الآتية لإسعادها وتوفير الراحة فيها ، وهو يعتبر الحياة وزينتها وزهرتها امتحاناً وبلاءً له ، فلا يخوض فيها إلا كما يدخل أحدٌ في الاختبار (بدلاً من أن يسرح فيها كما يسرح غافلٌ في متنزهٍ فسيحٍ ، ويعتقد أنَّ الحياة فرصةٌ طويلةٌ للتَّرف والنِّعمة) ولا يخطو إليها إلا بتفكيرٍ وتفهمٍ دقيقٍ ، ولا تصدر منه أعماله إلا بعد فكرٍ طويلٍ ، ويزيل من نفسه السكر والإهمال ، أو التريث ، والتهاون في العمل. سأل رجل عبد الله بن عباس أن يصف عمراً ، فقال عبد الله : «كان كالطير الحذر كأن له بكل طريق شركاً».

إنَّ الاعتقاد بأن هذه الحياة فانيةٌ ، والحياة بعد الموت باقيةٌ خالدةٌ؛ يمنع

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور هرالد هوفدنج.

www.abulhasanalinadwi.org

الرجل من تركيز عنايته على الدنيا ونعيمها ، فلا يكون المقياس للنجاح في هذه الحياة ظواهر الأشياء والأفعال ، فتتغيَّر له الموازين والمقوِّمات البتة للأخلاق والأعمال ، فلا يبقى ميزانٌ ولا مقياسٌ إلا النفع في الدين ، والأجر في الآخرة[١] ، فلا ينغمس مثل هذا الرجل في لذَّة الدنيا ونعيمها أبداً ، ولا تتولد فيه عاطفة المنافسة في جعل هذه الحياة أكثر راحةً ورخاءً ، إنَّهم يقضون حياة زهدٍ وفقر لا يمثلها الرهبان ، والزُّهَّاد ، وسكان الصحارى ، وهم يملكون زمام الأمور ، ويتولَّون الحكم ، إنَّ قصة زهد عمر معروفةٌ متواترةٌ في التاريخ ، وكان إذا أصرّ عليه أحد على أن يتناول طعاماً لذيذاً كان يقول أخاف أن يقال لي يوم القيامة : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف : ٢٠] وإن قدَّم إليه أحدٌ طعاماً لذيذاً سأله عمر : أيأكل المسلمون كلُّهم مثل هذا الطعام ، أو يستطيعون أن يأكلوه؟ فإن كان الجواب في النفي ، كان لا يصيب منه شيئاً ، وإنَّ قصة رحلته إلى بيت المقدس بعد فتحها ستخلد في التاريخ ، قال أبو العتاهية :

«قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الجابية على جملٍ أو رق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوةٌ ولاعمامةٌ ، رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب ، وطوؤه كساء بنجابيٌّ ذو صوف ، هو ركابه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرةٌ أو شملةٌ ، محشوَّةٌ ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميصٌ من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه»[٢] . وهذه هي رحلة أكبر حاكمٍ على وجه الأرض في زمانه .

سأل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ضرار بن ضمرة أن يصف علياً

---

(١) إنَّ الأثر الذي يترتب على أعمال الإنسان وأخلاقه بفعل هذه العقيدة يعترف بعمقه وسعته علماء الأخلاق الماديِّون أيضاً ، يقول (لكي Lecky) في كتاب «تاريخ أخلاق يورب» :
«لو عرف الإنسان وأيقن أنه سوف يجد جزاء أعماله كثوابٍ دائمٍ أو عذابٍ خالدٍ في محكمة حاكمٍ خبيرٍ وبصير ، كانت هذه العقيدة محركاً كبيراً للأعمال الصالحة ، ولا يخطر بباله خاطرُ المعصية» .

(٢) البداية والنهاية ج/ ٧ ، ص/ ٥٩ ـ ٦٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

رضي الله عنه ، وقد صحبه طويلاً ، وعرفه عن كثب ، فاعتذر ضرار بن ضمرة ، ولكن لما ألحّ معاوية وصف علياً رضي الله عنه وصفاً يصوِّر به حاله في الإمارة والخلافة ، قال:

«كان يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا ، لا نكلمه هيبةً ولا نبتديه ، فإن تبسَّم فعن أسنانٍ مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهل الدين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد تمثَّل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا! أبي تعرَّضتِ ، أم لي تشوَّفتِ ، هيهات هيهات! غُرّي غيري! وقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ ، فعمرُكِ قصيرٌ ، وعيشك حقيرٌ ، وخطرك كبيرٌ ، آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق!»[(١)].

كان الإيمان بالآخرة وخوف الحساب فيها وخشية الله ، قد أحدث فيهم شعوراً بالمسؤولية ، والحذر الشديد والورع ، يصعب تصوُّره ، ولعلَّ هذه القصص القليلة تصوّر بعض هذه الجوانب:

كان أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: مثل خلافتي وإمارتي مثل ثلاثة ركبٍ سافروا ، فأودعوا نفقتهم رجلاً منهم ، فقالا له: أنفق علينا ، فهل له أن يستأثر عليهم بشيءٍ؟. وكان يقول في بعض الأحيان: مثلي كوليِّ اليتيم إن أغناه الله استعفَّ ، وإن مسَّته الحاجة أخذ منه بقدرها.

قَدِمَ أحنف بن قيس على عمر بن الخطاب في وفدٍ من العراق ، قدموا

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ، ص ١٢٢.

www.abulhasanalinadwi.org

عليه في يومٍ صائفٍ شديد الحرِّ ، وهو معتجرٌ بعباءةٍ ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة ، فقال: يا أحنف! ضع ثيابك وهلمّ! فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنَّه من إبل الصدقة ، فيه حقُّ اليتيم ، والأرملة ، والمسكين ، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلاَّ تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك ، فقال عمر: «وأيُّ عبد هو أعبد منِّي؟!»[(١)].

وكان لعمر بن عبد العزيز غلامٌ يأتيه بقمقم من ماءٍ مسخَّنٍ يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله! قال: أفسدته علينا ، قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها ، فيجعله حطباً في المطبخ. قال: وأصابته جنابةٌ في ليلةٍ باردةٍ فأسخِن له ماءٌ ، فأتي به ، فقال: أين سخنته؟ قال: على مطبخ العامَّة ، قال: فنحِّه ، قال: فناداه رجل وخاف عليه إن اغتسل بالماء البارد في تلك الليلة؛ أنشدك الله يا أمير المؤمنين في نفسك ، فإن كان لا بدَّ فعوِّضه قيمةً ، ثم أدخله بيت مال المسلمين ، ففعل ذلك عمر[(٢)].

وكان عمر يصلي العتمة ، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهنَّ ، فدخل عليهن ذات ليلة ، فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ قالت: إنه لم يكن عندهنَّ شيءٌ يتعشينه إلا عدسٌ وبصلٌ فكرهن أن تشمَّ ذلك من أفواههن. فبكى عمر ، ثم قال لهن: «يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان ، ويمرُّ بأبيكن إلى النار». قال: فبكين حتى علت أصواتهنَّ. ثم انصرف[(٣)].

ووفد على عمر بن عبد العزيز بريدٌ من بعض الآفاق ، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعةٍ غليظةٍ ، فأجَّجها ناراً ، وأجلس الرسول وجلس عمر ،

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ، ص/ ٦٢.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص/ ٤٤ ـ ٤٥.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص/ ٥٥.

www.abulhasanalinadwi.org

فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وغير ذلك من أمور المسلمين فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة ، يسأله فيحفي السؤال ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته ، قال له: يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تعنى بشأنه؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته ، وقال: يا غلام! عليَّ بسراجٍ ، فدعا بفتيلةٍ لا تكاد تضيء ، فقال: سل عما أحببت ، فسأله عن حاله ، فأخبره عن حاله ، وحال ولده ، وعياله ، وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إيَّاها ، وقال: يا أمير المؤمنين؟ رأيتك فعلت أمراً ما رأيتك فعلت مثله ، قال : وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إيَّاك عن حالك ، وشأنك! فقال: يا عبد الله! إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقدّ بين يديَّ فيما يصلحهم ، وهي لهم ، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين[1] .

كذلك يتولَّد بالإيمان شعورٌ بكرامة الإنسان ورفعته ، فلا يرضى الإنسان في حالٍ من الأحوال أن ينزَّل منزلة البهائم ، ولا يرتاح قلبه بأن يعامل بني جنسه معاملة العجماوات والجمادات ، ولا يستعبدهم لتفوُّقه الشخصي والغلبة عليهم ، ولا يرى فارقاً بينه وبين بني جنسه فيذلَّهم ، ويهينهم. وهنا قصةٌ طريفةٌ في هذه المساواة البشرية ، واحترام الإنسانية :

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كنا عند عمر بن الخطاب رضوان الله عليه؛ إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر ، فقال: يا أمير المؤمنين! هذه مقام العائذ بك! قال: وما لك؟! قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص ، فقال: فرسي ورب الكعبة! فلما دنا مني عرفته ، فقلت: فرسي ورب الكعبة! فقام إليَّ يضربني بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين! قال: فوالله ما زاده عمر على أن قال له: اجلس ، ثم كتب إلى عمرو: «إذا جاءك كتابي هذا

(١) نفس المصدر السابق ص/ ١٦١ ـ ١٦٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

فأقبِلْ ومعك ابنك محمد». قال: فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: لا، قال: فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدم على عمر، قال أنس بن مالك: فوالله أنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزارٍ ورداءٍ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصريُّ؟ فقال: ها أنا ذا! قال: دونك الدِّرَّة، فاضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه! فقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت مَن ضربني، قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو! متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً! ثم التفت إلى المصريِّ، فقال: «انصرف راشداً، فإذا رابك ريبٌ فاكتب إليَّ»[1].

إنني ما عثرت في تاريخ المدنية والحضارة كلِّه مجتمعاً كهذا، كان مجتمعاً مبدئياً محضاً، وأخلاقياً محضاً، لم يكن فيه مقياس العزِّ والفضيلة والوجاهة، والمال والثروة والمنصب، والتسامي بالنسب والكرامة، بل كان مقياسه الأخلاق، والتديُّن، والخوف من الله.

لم يكن يحصل فيه العزُّ والشرف والرئاسة والتفوُّق بالملابس والمظاهر والوسائل الأخرى، بل كان جلُّ العز والشرف بالإيمان بالله، والعمل الصالح، والسيرة الحسنة.

فممَّا حكاه التاريخ لنا في هذا الباب:

أنه حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعةٌ، فمنهم سهيل بن عمرو، وعيينة بن حصين، والأقرع بن حابس، فخرج الآذن، فقال: أين صهيب؟ أين عمار؟ أين سلمان؟ فتمعَّرت وجوه القوم، فقال واحدٌ منهم: لم تتمعَّر وجوهكم؟ دعوا ودعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر؛ لما أعدَّ الله لهم في الجنة أكثر.

وجاء الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص٨٦ ـ ٨٧.

www.abulhasanalinadwi.org

الله عنه ، فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر ، فيقول: ها هنا يا سهيل؟ ها هنا يا حارث! فينحيهما عنه ، فجعل الأنصار يأتون عمر فينحيهما عنه حتى صارا في آخر الناس ، فلما خرجا من عنده ، قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو : ألم تر ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أيها الرجل لا لوم عليه ، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا ، دعي القوم فأسرعوا ، ودعينا فأبطأنا.

ثم أتيا عمر رضي الله عنه ، فقالا له: قد رأينا ما فعلت اليوم ، وعلمنا أنا أُتينا من قبل أنفسنا ، فهل من شيء نستدرك به؟ فقال لهما: لا أعلمه إلا هذا الوجه ، وأشار لهما إلى غزو الروم ـ فخرجا إلى الشام ، فماتا بها رحمهما الله»[(١)].

وعندما قال أبو عبيدة لعمر وقت قدومه إلى الشام: «العيون شاخصةٌ إليك يا أمير المؤمنين! لو أصلحت من ثيابك قليلاً! فقال عمر عندما سمع هذا الكلام: أوه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنَّكم كنتم أذلَّ الناس ، وأحقر الناس ، وأقلَّ الناس ، فأعزَّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزَّ بغير الإسلام؛ يذلكم الله»[(٢)].

وكان سالم مولى أبي حذيفة من الموالي ، وقد قال عمر عند وفاته: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته.

وقال الشعبي: خطب بلالٌ وأخوه إلى أهل بيتٍ من اليمن ، فقال: أنا بلال ، وهذا أخي عبدان من الحبشة ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا عبيدين فأعتقنا الله ، إن تنكحونا؛ فالحمد لله ، وإن تمنعونا؛ فالله أكبر.

ويكون متبعو هذا الدين وممثلو هذه المدنية ، حاملي لواء الحقِّ والعدل في الدنيا ، وجنود الله على الأرض ، لا ينحرفون عن جادَّة الحقِّ والعدل قيد شعرة ، لا في الصداقة ، ولا في العداوة ، ولا يفرقون بين الأقارب

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ، ص/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير.

www.abulhasanalinadwi.org

والأباعد، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ولا يكون اشتراكهم في العمل وتعاونهم فيه غير مشروطٍ، وغير محدودٍ، فلا يتعاونون إلا في البرِّ والعدل، يقول الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ ﴾ [المائدة: ٢].

وكان من نتيجة هذه التربية أنَّ النبي ﷺ عندما قال بمناسبة ما: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقالوا: يا رسول الله! «هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً»، هنالك فسره رسول الله ﷺ تفسيراً يتَّفق مع تعاليمه السابقة الدائمة، فقال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إيَّاه»[1]، هنالك اقتنع الصحابة، وشفيت صدورهم، فازدادوا إيماناً على إيمان، وهو مثالٌ بليغٌ رائعٌ من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول.

إنَّ تأييد جماعةٍ، أو فردٍ على أمرٍ من الجاهلية، والانحياز إلى أسرةٍ، أو قومٍ، أو جماعةٍ بدون حقٍّ، يسمَّى في الإسلام بالعصبية الجاهلية، وهو منافٍ لروح الإسلام ومقاصده، ومعصيةٌ شرعيَّةٌ، وقد عدّه بعض كبار الفقهاء، وأئمة الإسلام من الأسباب الرئيسية لردِّ الشهادة، فمن دعا إليها فهو مردود الشهادة عندهم، ويوضِّح الإمام الشافعي روح الإسلام الحقيقية، وفكره في تفصيلٍ في كتابه الجليل ـ كتاب الأم ـ المجلد السادس، فيقول:

«من أظهر العصبية بالكلام، ودعا إليها، وتألَّف عليها، وإن لم يكن يشهد نفسه بقتالٍ فيها؛ فهو مردود الشهادة، لأنه أتى محرماً، لا اختلاف بين علماء المسلمين فيما علمته، الناس كلُّهم عباد الله تعالى، لا يخرج أحدٌ منهم من عبوديته، وأحقُّهم بالمحبة أطوعُهم له، وأحقُّهم من أهل

(١) حديث متفق عليه.

www.abulhasanalinadwi.org

طاعته بالفضيلة أنفعُهم لجماعة المسلمين من إمام عدلٍ ، أو عالمٍ مجتهدٍ ، أو معينٍ لعامتهم وخاصَّتهم ، وذلك أنَّ طاعة هؤلاء طاعةٌ عامَّة كثيرةٌ ، فكثير الطاعة خير من قليلها ، وقد جمع الله تعالى الناس بالإسلام ، ونسبهم إليه ، فهو أشرف أنسابهم ، قال: فإن أحبَّ امرأً فليحبَّ عليه ، وإن خصَّ امرؤٌ قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ، ما ليس يحل له ، فهذه الملة ليست بعصبيةٍ ، وقلَّ امرؤ إلا وفيه محبوبٌ ومكروه ، فالمكروه في محبة الرجل من هو منه أن يحمل على غيره ، وحرم الله تعالى عليه من البغي والطعن في النسب والعصبية ، والبغضة على النسب لا على معصية الله ، ولا على جناية من المبغض على المبغض ، ولكن بقوله أبغضه لأنَّه من بني فلان ، فهذه العصبية المحضة التي تردُّ بها الشهادة.

فإن قال قائل: ما الحجة في هذا؟ قيل له: قال الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال رسول الله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً». فإذا صار رجلٌ إلى خلاف أمر الله تبارك وتعالى اسمه ، وأمر رسول الله ﷺ بلا سبب يعذر به ، ويخرج من العصبية؛ كان مقيماً على معصيةٍ لا تأويل فيها ، ولا اختلاف بين المسلمين فيها ، ومن أقام على مثل هذا؛ كان حقيقياً أن يكون مردود الشَّهادة»(١).

إنَّ القرآن الكريم يصف جماعة المسلمين وصفاً دقيقاً ، ويحدِّد ملامحها بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

[وليست في الإسلام عناصر رفض الدنيا وأسبابها ، ولا عناصر الرهبانية ، والعيش في الصحراء والقفار ، كما تدعو إليه الفلسفة الإشراقية ، ونظامها ، فالانتحار حرامٌ في شريعة الإسلام ، والتنكيل الجسماني والتجرُّد ، وترك النكاح فعلٌ لا يستحسن ، كما أنَّ الحياة في

(١) كتاب الأم ، شهادة أهل العصبية ، المجلد السادس ص / ٢١١ ـ ٢١٢.

www.abulhasanalinadwi.org

الصحراء احتساباً ، والخلوة الدائمة فعلٌ منكرٌ ، ورياضةٌ تخالف الفطرة كذلك التطرُّف في كبت النفس ، والغلوّ في العبادة والزهد يخالف تعاليم الإسلام ، وقد سبق قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ، وفي آية أخرى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال النبي ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام» وقال أيضاً: «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» ، وقال لعبد الله ابن عمرو الذي كان يصوم دائماً ، ويصلّي الليل كلَّه: «فإن لجسدك عليك حقّاً ، وإن لعينك عليك حقّاً ، وإن لزوك عليك حقّاً ، صم وأفطر» ، ودعاء المسلمين الذي استحسنه القرآن وحثَّ عليه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وليست الرجولة في هذه العقيدة الإسلامية أن يذكر الرجل ربَّه في غارٍ منقطعاً عن الدنيا والخلق ، بل الرجولة في أن يذكر الله في فتنة الحياة ، وصخب الأسواق ، وكثرة الأشغال ، فيقول القرآن في معرض المدح والثناء: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧].

ولا يقتصر الإسلام على الدعوة إلى ذكر الله وعبادته ، بل يدعو كذلك إلى كسب المعاش الطيب ، والارتزاق الكريم ، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

إنَّ في هذه التعاليم النَّبويَّة الزكيَّة مبادىء وحقائق محكمةً ثابتةً للأخلاق والاجتماع ، وللأخلاق أُسسٌ قائمةٌ متينةٌ لا تتزلزل ، ولا تقبل أيَّ تأويلٍ وتحريفٍ ، على عكس التمدُّن العقلي ، فكل ما هو شرٌّ في عينها يظلُّ شرّاً إلى يوم القيامة ، والخير خير في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، فالحياء ، والأدب ، والسلوك ، والوفاء ، والإيفاء بالعهد ، والصدق ، والأمانة ، والعفاف ، والاجتناب عن المعاصي حسنٌ جميلٌ لكلِّ عصرٍ وبلدٍ على كلِّ حال ، وهذه الصفات التامَّة والأخلاق كلُّها تستحقُّ كلَّ تقديرٍ وإعجابٍ ، ولا بدَّ منها

www.abulhasanalinadwi.org

للإنسان والإنسانية ، ولا تتغيَّر مبادئها وحقائقها ، وأمَّا أضدادها ؛ فمستقبحةٌ مذمومةٌ دائماً في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ، وإنَّ حكم العقل القاصر الخاضع ـ لعوامل داخليةٍ وخارجيةٍ من بيئة فاسدةٍ ، وتربيةٍ غير سليمة ـ وأفتى بصلاحها وفوائدها في بعض الأحوال والظروف .

ولا يكون ذوق الإنسان ووجدانه ، أو تجاربه وعقله معياراً للأخلاق ؛ إذ كلُّ شيءٍ من هذه الأشياء متغيِّرٌ يتأثر بأشياء كثيرة .

وكثيراً ما تقع الأمَّة والمجتمع فريسةً «للسوفسطائية» في عهد المدنية العقلية والفلسفة ، فينكر الفرق بين حقائق الأشياء والأخلاق والصفات ، ويشك في المقاييس القديمة الدائمة للخير والشرِّ وتعريفهما ، ولا يعتبر فيه الأخلاق والصفات والحسن القبيح إلا نسبياً يتغيَّر بتغير الزمان والمكان ، ويستوجب هذه النفسية الاجتماعية أشدُّ انحلالٍ خلقيٍّ واختلالٍ اجتماعيٍّ ، وإذا غشيت هذه الغاشية جماعةً إنسانيةً في عصرٍ من العصور ، لا ينجِّيها شيءٌ من الهلاك والدَّمار ، وما هلكت الأمة اليونانية القديمة إلا بها ، وكذلك أباحت إيران القديمة كلَّ شيء ، وقلبت نظام المدنيَّة والاجتماع رأساً على عقب ، فانقرضت ، وبادت ، وقد سجّل مؤرخو الروم وإيران ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن تاريخ هاتين الأمَّتين العظيمتين ، وعن تدهورهما وانهيار حضارتهما ، وانقراض الإمبراطوريتين في صراحةٍ ووضوحٍ ، وكان مردُّ ذلك في نظرهم تضعضعُ أسس المثل والقيم الخلقية ، وتفكُّكُ نظام الأسرة ، وانتشار الفوضى ، وروح الثورة والقلق في المجتمع الروماني والمجتمع الإيراني حتى لفظتا نفسهما الأخير ، وخبا مصباحُهما إلى الأبد .

ولا تختلف أوضاع أوروبا اليوم عن المصير الذي صارت إليه الأمَّتان القديمتان ، فالمفكرون ، والمصلحون الغربيُّون يشعرون بخطرٍ محدقٍ بهذه الحضارة منذ زمان ، ويُنذرون منه ، ويرفعون صيحات إنذارٍ إثر صيحاتٍ في محاضراتهم ، وكتاباتهم ، ويصرِّحون بأنَّ هذه الحضارة في احتضار ، وفي طريقٍ إلى الانتحار ، وأنَّ أيامها بل ساعاتها معدودةٌ ، ونهايتها قريبةٌ ، ولكن لا يجدون كذلك حلاًّ لهذه الأزمة ، فقد أفلت الزمامُ ، ودنا الحِمام .

www.abulhasanalinadwi.org

ولن يغيث هذه الحضارة المنتحرة ولا ينقذها من الساعة الرهيبة إلا تعاليمُ النبوة الأخيرة، والدين السماويُّ المحفوظ؛ التي لا تترك زمام الحكم في الأخلاق ومقياس الحسن والقبيح إلى العقل والتجربة وحدهما ـ وقد وضح ضعفهما، وسرعة خضوعهما للعوامل والمؤثرات الدخيلة الطارئة ـ بل تملكه بنفسها، ولا تزال تقود المدنية البشرية وتجدِّف سفينتها، وتحرسها من القرصان والأمواج الطاغية من الطوفان، وتقول بلسان القرآن: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وليس من الممكن أن تقدِّم ملامح المدنيَّة الإسلامية، وقسماتها وخصائصها كلَّها ـ التي لا تسعها الكتبُ الكبيرة ـ في هذا البحث المقتضب، وما أردت الآن إلا تقديم عصارتها وطبيعتها الخاصَّة، ولعلكم فهمتم روحها من هذا العرض الوجيز، والإلمامة القصيرة، وتمثَّل في أعينكم الفرقُ الأساسيُّ والجوهريُّ الذي يوجد بين الحضارات المذكورة، وبين هذه الحضارة الإلهية.

وأقول لكم أخيراً إن كانت المدنيَّة المادية جديرةً بالتفضيل والإيثار، وكانت هي خيرتكم، وأنتم مقتنعون بأنَّ نتائجها ومعطياتها هي أنفعُ للإنسانية والأخلاق، فلا مجال للبحث، ولا داعي للكلام؛ لأنَّ هذه المدنية «السعيدة» تحكم اليوم أكبر رقعةٍ من الأرض، ومع أنَّ فيها انجذاباً مغناطيسياً لعددٍ كبيرٍ (بل أكبر عدد) من أفراد الجنس البشري مع ذلك، إنَّ هنالك جهوداً جبارة، وعبقرياتٍ عظيمةً وكفاياتٍ نادرةً تتركز على توسيع نظامها، وترقيق حواشيها ووشيها، والزيادة في ثروتها وسرعتها: وهي ليست في حاجةٍ إلى أن تضموا أصواتكم إلى صوتها وتنضموا إلى معسكرها القويِّ المنتصر، وتصفقوا لها في حماسٍ وقوَّةٍ، وفي طربٍ ونشوةٍ، فهذا بحرٌ واسعٌ زاخرٌ من شرق الأرض إلى غربها، وتيارٌ جارفٌ كالسَّيل العرم، ليس لكم إلا أن تجتهدوا في البحث عن مكانٍ لكم في ركنٍ من أركان هذه الحضارة، وفي هامشٍ من صفحتها، وفي مؤخر ركبها، وتتشرَّفوا بذلك، وتعتبره أكبر فتح وانتصار.

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن إذا كان اختياركم بالضدِّ ، فالحاجة ماسَّةٌ إلى أن تجاهدوا في سبيل قيام الحضارة الإسلامية جهاداً كبيراً ، وتسبحوا ضدَّ مجرى هذا النهر الفائض ، وتعكسوا التيار ، بل إلى أن توجهوا النهر إلى غير وجهته ، وتغيِّروا مجرى التاريخ ، وترغموا مجاري الأمور على أن تنحو نحواً جديداً ، ويلزم قبل كلِّ شيءٍ أن تضحُّوا بهذه الأهواء ، والأفكار ، والطقوس ، والعادات ، والمثل ، والقيم التي آمنتم بها ، وصارت جزءاً من حياتكم ، لنشوئكم في المدنيَّة الحسِّيَّة والمادِّيَّة ، والحضارة الغربية منذ زمنٍ طويل .

ويجب أن تتركوا لهذه الغاية السامية غاياتٍ أخرى من الحياة ، ويجب أن يكون نظام تعليمكم وتربيتكم تابعاً ومنسجماً ، وكذلك يجب أن تسبك سبكاً جديداً ، منسجماً مع الغاية الكريمة ، متجاوباً لها .

فحقيقٌ أنَّ هذه الغاية أكبرُ خدمةٍ للإنسانية ، وليس مسؤوليتها إلا على عواتقكم؛ إذ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقد نثر الذكاء الإنساني ، والتجربة البشرية جعبتها ، وأفرغت كلَّ سهامها ، فما كانت إلا سهاماً طائشةً ومسمومةً ، ولم يبق للإنسانية أملٌ في النَّجاة إلا في الرسالة السماوية الأخيرة ، وحضارتها المثلى .

وأختم هذه الفصل بمقطوعةٍ شعريَّـةٍ لإقبال ، هتف فيها بالمسلم ، وأثار فيها الغيرة والإيمان ، وناشده باسم العالم والإنسان ، يقول :

«أنت للناموس الأزلي حارسٌ وأمين ، ولسيِّد هذا الكون يسارٌ ويمينٌ[1] ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم ، وبقاء الأمم ، اشرب كأساً فائضةً من اليقين ، وانهض من حضيض الظنِّ والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته .

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرَّةً بالرقَّة والدلال ، ومرَّةً بالقيود والأغلال ، وتارة

(١) يعني : أنه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها .

www.abulhasanalinadwi.org

مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز»[١]. لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم ، ياباني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدَّت وطأته»[٢].

* * *

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة ، تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند ، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها.

(٢) «زبور عجم» ١١٦ ـ ١١٨ باختصارٍ وتوسُّع.

www.abulhasanalinadwi.org

القـرن الـخـامس عشـر الـهجـري الـجديـد

فـي ضـوء الـتـاريـخ والـواقـع

طُلب من العلامة الندوي أن يفتتح مناسبة أسبوع مطلع القرن الخامس عشر الهجري الجديد ، التي نظمتها «المنظمة الإسلامية لطلاب (s.I.M) في مدينة لكهنؤ (الهند) ، في قاعة المحاضرات الكبرى في المدينة ، وذلك في ٢٢ من ذي الحجة سنة ١٤٠٠هـ والموافق ١ من نوفمبر سنة ١٩٨٠م ، فألقى العلامة في هذه المناسبة التاريخية الكبيرة كلمةً مستفيضة ارتجلها بوحي من المناسبة المباركة ، وأفاض في بيان الحقائق التاريخية ، واستعراضٍ لواقع بعض القرون الإسلامية الماضية ، وأحداثها التي غيَّرت مجرى التاريخ . وهي تحمل عبرةً ودروساً للعاملين والمفكِّرين ، والمخططين للعملِ الإسلاميِّ ، والدعوة الإسلاميّة في هذا العصر ، وعرض صورةً واضحةً صادقةً للقرن الرابع عشر الهجري الّذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، يحاسب المسلمون في ضوئها أنفسهم ، ويقارنون بين أرباحهم وخسائرهم ، وأخطائهم وإصابتهم ، ثم انتقل إلى الحديث عن القرن الخامس عشر الهجري الّذي كان على الباب ، وما يتطلب من استعدادٍ وعزمٍ ، ومواجهةٍ للحقائق ، ومعالجةٍ حكيمةٍ للقضايا ، وسموٌ همةٍ لقيادةٍ رشيدةٍ جديدةٍ للعالم ، نابعةٍ من الرسالة والتعاليم السّماوية التي جاء بها محمّدٌ ﷺ آخر الرسل ، وهاجر في سبيلها ، فكان تاريخاً جديداً للبشرية ، وتقويماً جديداً في العالم . وسُجِلت الكلمة ، ونقلت من الشريط ، وقد قام الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي أستاذ الأدب العربي بدار العلوم ـ ندوة العلماء ، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» بنقلها إلى العربية .

www.abulhasanalinadwi.org

قال بعد الحمد والصلاة:

أصبح الحديث عن القرن الخامس عشر الهجري حديث النوادي والمحافل، وشغل الناس الشاغل، وشغلت المعنيين بحاضر المسلمين ومستقبلهم، تنبؤاتٌ وتكهُّناتٌ، وتمنِّياتٌ وتطلُّعاتٌ، ويجب علينا أن نكون جادِّين واقعيِّين، قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا وعلى أمتنا، وأن نعتبر بالماضي، ونأخذ حذرنا للمستقبل.

ولا يخفى أن التقويم الإسلامي ـ والقرن الخامس عشر جزء منه ـ يبتدىء من هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة، حين تبتدىء التقاويم الأخرى، بوجهٍ عامٍّ، بميلاد شخصيةٍ كبيرةٍ، أو وفاتها، أو قيام دولةٍ، أو تحقُّق انتصاراتٍ عظيمة في التاريخ[١]، وكانت مصدر تقويمٍ مستقلٍ، ولكن الإسلام يتميَّز عن الديانات الأخرى في ذلك، فلم يسم دينه باسم نبيه، ولكن باسم رسالته؛ إذ أنَّ الإسلام ليس اسماً لشخصية، إنما هو اسمٌ لمنهج، وحكمٌ إلهي، يعني: الخضوع أمام أحكام الله، وتلك هي ميزة هذا القرن، فإنه لم يبتدىء بوجود شخصية، حتى إنه لم يبدأ بشخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت، ولا تزال أحبَّ شخصيةٍ إلى المسلمين بعد الله تعالى، ولكن هذا التقويم لا علاقة له بولادته صلى الله عليه وآله وسلم، ولا بوفاته رغم أنَّهما حدثان كبيران في هذا العالم، ولكنَّه يتَّصل بهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) مثلاً التقويم المسيحي الّذي يسود العالم كلَّه ينتمي إلى سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، والتقويم البكرمي الّذي ساد الهند ينتمي إلى الملك «بكرماجيت» وفي إيران ولدى الزردشت عرف تقويمان، وكلاهما ينتميان إلى يزدجر الثالث، أحدهما يبتدىء بتاريخ جلوسه على العرش، والثاني يبتدىء بوفاته، وكذلك التقويم الغريغوري ينتمي إلى البابا غري غوري الثالث عشر الّذي يسود في أوربا كلِّها منذ عام ١٥٨٢م (باستثناء الاتحاد السوفياتي واليونان).

www.abulhasanalinadwi.org

ومعنى ذلك: أنَّ القرن الهجري الجديد سيطلع علينا برسالةٍ، ودعوةٍ، وأنَّه لا يجدِّد ذكرىٰ شخصيَّةٍ، أو أمَّة فحسب، بل يجدِّد ذكرى رسالة، وهي أنَّ النبيَّ ﷺ هاجر من وطنه العزيز إلى موطنٍ جديدٍ وراء غايةٍ عظيمةٍ. إنَّ هذه الهجرة تذكرنا برسالةٍ ساميةٍ، وبإقدامٍ كبيرٍ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقم بها لإنقاذ نفسه، أو أصحابه المعدودين، ولكنه قام للحفاظ على الرسالة التي أكرم بها، ولإتاحة الفرصة لتبليغها إلى العالم كلِّه. إنَّ هذا القرن يذكرنا بما للغاية الكريمة، والهدف العظيم من أهمِّيَّةٍ وقيمةٍ، تسهل على المرء أن يضحي في سبيلها بكل نفيس وغالٍ، إنها رسالةٌ خالدةٌ ذات روحٍ عاليةٍ في تاريخ العالم كلِّه، تؤكد أنَّ أمراً مهمَّاً كان نادراً وغريباً، ومهما وضع في طريقه من عراقيل، وأثير حوله من النقع، إذا كان نابعاً من إخلاص النية، وكان القصد من ورائه إسعاد الإنسانية مع تصميم العزم، فإنه يسطع ضوءه، وينقشع عنه الضباب، ويتكلَّل بالنجاح عاقبة الأمر.

لذلك فإنَّ هذا القرن الخامس عشر الهجري لا يبعث همَّة المسلمين فحسب، بل إنَّه يوجه رسالة ثقةٍ وتفاؤل إلى النوع البشري كلِّه، وإلى جميع من يتوخَّون غاية صالحةً، ويحملون راية دعوةٍ نافعةٍ، ويبذلون مجهوداتٍ في سبيل هدفٍ أفضل، أو غايةٍ عظيمةٍ. فيحثهم على مواصلة الجهود، ويبشرهم بنجاحٍ تحار فيه الألباب.

إمَّا أن يكون هذا القرن الجديد سعيداً للمسلمين، وعن طريقهم للإنسانية كلِّها، أو أن يكون مشؤوماً! فذلك أمرٌ لا يمكن أن نصدر عليه حكماً الآن، [فمن قضاء الله تعالى وحقائق القرآن الأبدية التي لا تتغير هو أهمية السعي الإنساني وتأثيره، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] إنَّ الإنسان في حياته الدنيا وفي آخرته لا يدرك أكثر مما يسعى، إنما يدرك ما أنتج له سعيه، كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] إنَّها رسالةٌ خالدةٌ للنَّوع البشريِّ كلِّه، ولجميع أدوار التاريخ، إنَّ سعي الإنسان لا يخلو من نتائجه التي يراها ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١].

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ هذه الآية الكريمة رسالةٌ تحمل في طيِّها معاني كريمةً من الهمَّة العالية والروح الفيَّاضة، وإذا كان الشاعر الإسلامي محمد إقبال خاطب الإنسان في بيته الذي معناه: «إنَّ حياتك أيها الإنسان! إنما هي رهين عملك ، فإمَّا إلى الجنة ، أو إلى النار ، فإنَّك بفطرتك لست من أهل النور ، ولا من أهل النار» فإنني أنشد هذا البيت ، وأخاطب به القرن الجديد ، فإن هذا القرن ـ وما سبقه من قرونٍ ـ ليس في طبيعته سعيداً ، ولا مشؤوماً في الواقع ، فإنَّ السعادة والشقاء إنما يتوقفان على مساعي الإنسان واتجاه أعماله ، ونحن لا نستطيع أن نحكم مسبقاً لأي قرنٍ ، أو سَنةٍ ، أو شهرٍ ، ويومٍ ، وساعةٍ أنَّ فيه سعادةً ، أو شؤماً ، ليس في الإسلام نظرية الشقاء أو السعادة التي كانت ولا تزال توجد لدى أممٍ جاهليةٍ ظلت بعيدةً عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، لا يسمح لنا الإسلام بأن نحكم على قرنٍ قادمٍ بأنَّه سعيدٌ جداً ، تسعد فيه الأمة الإسلامية كلَّ السعادة ، أو أنَّ هذه القرن مشؤوم للأمَّة أو للأقدار الإنسانية ، إنَّه ليس تفكيراً إسلامياً ، ولا يؤيده الكتاب والسنَّة ، ذلك لأنَّ التصوُّر عن زمنٍ خاص أنَّه سعيدٌ ميمونٌ بوجهٍ دائمٍ ، أو باعث على الشُّؤم والشقاء ، يجني على الإرادة الإنسانية ، وصلاحيته للعمل وطاقاته ، إنَّ الإنسان إذا اعتقد أنَّ هناك ساعةً مشؤومةً تستقبله قريباً باءت قوته العملية بالانهيار ، وتعطلَّت قوة حكمه ، وقدرة صموده بتاتاً.

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى نهائياً على التعلُّق بالأوهام ، والمغالاة في الاعتقاد بشيءٍ ، والإعجاب بشخصيةٍ ، انكسفت الشمس ذات مرَّة في عهد صلى الله عليه وآله وسلم ، وصادف ذلك وفاة سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقليل[١] ، وكأنَّ الله سبحانه قد أراد في ذلك تربية الأمَّة ؛ لأنَّ العرب المسلمين آنذاك كانوا قريبي العهد بالجاهلية ، ولم يكن العالم قد تخلَّص من تأثيرها تماماً ، ثم إنَّ حادث الوفاة كان أمراً غير عاديٍّ ، أثار العواطف ، فتكلَّم بعض المسلمين ، وقالوا: كيف لا تنكسف الشمس وقد توفي ابن رسول الله

(١) توفي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عام ١٠ من الهجرة ، وكان ابن سنةٍ ونصف.

www.abulhasanalinadwi.org

صلى الله عليه وآله وسلم؟! ولو كان مكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المناسبة الحزينة أيُّ داعٍ من الدعاة، أو زعيمٍ من الزعماء، أو قائد دعوةٍ وحركةٍ، وجماعةٍ؛ لسكتَ على هذا الكلام، إذا لم يوفق إلى نفيه، ظناً منه: أنَّ ذلك الكلام إنما هو في صالح دعوته وحركته، وظنَّ أنَّه لم يسترع الانتباه إلى هذه الناحية، بل إنَّ الناس بأنفسهم فكروا في ذلك، وقالوا: إنَّ الشمس إنما انكسفت لوفاة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذاً فهو ليس مكلفاً بنفي هذا التفكير، وذلك هو الفرق بعينه بين النبيِّ وغيره، فإنَّ الأحداث التي يستغلها أصحاب التفكير السياسيِّ - وإن كانت حوادث طبعية - يرى الأنبياء الكرام عليهم السلام استغلالها على حساب الدين حراماً، وأمراً يرادف الكفر، لا أدري إنَّ أحداً سوى محمد صلى الله عليه وآله وسلم يكون قد صدق في هذا لامتحان من غير الأنبياء، ومن مؤسسي الجماعات، وزعماء السياسة.

وهنالك قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً في القوم، فقال: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته»[1] كأن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم سألهم عمَّا ذا قالوا؟ ثم ردَّ عليهم بأنَّ الشمس والقمر لا يتغيَّران لموت أحدٍ من الناس، ولا لحياته، إنما هما آيتان من آيات الله، ومقيدان بقانون يخصُّهما، لا يؤثر عليهما موتٌ ولا حياةٌ، ولو أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آثر السكوت في هذه المناسبة، لم يك ذلك سبباً لفسادٍ، بل إنَّ ظناً خاطئاً كان قد وجد سبيلاً إلى قلوب الناس بناءً على الحبِّ والإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويحكم الاضطرار، ولكن لم يتحمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسرعان ما نفاه، وقال: كلا، إنَّ ذلك الحادث لا علاقة له بأسرتي، أو بولدي، فإنَّ الكون أوسع من ذلك، وإنَّ ذات الله تعالى أغنى عن ذلك، وقانونه أسمى من مثل هذه الأمور، لقد كان ذلك إرشاداً مبدئياً يتعلَّق بالأساس، وجه إلى النوع البشري كله، بل العقل الإنساني كلِّه،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الكسوف، ج/١ ص ٢٩٢.

www.abulhasanalinadwi.org

فإنَّ العقل الإنساني أهمُّ من النوع الإنساني ، وإنَّه يحكم النوع الإنساني ، وليس بالعكس ، لقد كان ذلك انحرافاً للعقل الإنساني خطيراً ، وكان لا بدَّ من وضع الحدِّ عليه .

كنت أتحدث وأقول : إن قرناً من القرون ليس سعيداً بذاته ، ولا مشؤوماً ، وأضرب لكم مثالاً للكأس ، إنَّها إذا كانت فارغة لا نحكم عليها بشيء ، إنَّ ذلك يتوقف على ما فيها من مظروف ، فإن كانت فيها خمر ـ أعاذ الله منها ـ كانت الكأس كأس الخمر ، أو كان فيها سُمٌّ ، دعيت بكأس السم ، وإن كان فيها ماءٌ زلالٌ ، أو لبنٌ سائغ ، أو عسلٌ مصفًّى ، دعيت به ، ونسبت إليه ، وأما الكأس بذاتها فهي بريئةٌ وشيءٌ حياديٌّ ، والأمر إنما يتوقف على ما تملأ به الكأس ، فإن ملأها أحدٌ بالزمزم ؛ فهي كأس الزمزم ، وإن ملأها بالخمر ؛ فهي كأس الخمر ، وهنا نستطيع أن نقول : إنَّ سعادة أو شقاء هذا القرن إنما يتوقف على سعي الأمَّة التي أخرجها الله تعالى لحمل رسالته الأخيرة .

وبالمناسبة أضرب لكم ثلاثة أمثال ، مثالٌ منها لقرنٍ ابتدأ بأحداث هائلة مخيفةٍ ، وأوضاع قاتمةٍ عابسةٍ ، تبعث على اليأس ، وتقطع الآمال ، وقد استقبله مؤرخو ذلك العهد بشيءٍ كثيرٍ من القلق والحزن ، وبالجروح والدُّموع ، وقد شهد المؤرخون ابن الأثير وابن كثير ، كيف أنَّ الأوساط الإسلامية استقبلت القرن السابع الهجري ، فقد كانت الدلائل والمؤثرات كلُّها تشير إلى أن ذلك القرن ليس في مصلحة المسلمين ، ولا في مصلحة الأمة الإسلاميَّة ، ولا في مصلحة الإسلام ، وسيكون أشأم قرنٍ في حقِّ الإنسانية كلِّها ، فقد كان هذا القرن استهلَّ بحادث غير عادي كما يقول المؤرخ ابن الأثير الجزري (المتوفى ٦٣٨هـ) «فلو قال قائل : إن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ؛ فإنَّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ، ولا ما يدانيها»[١] .

وأعني بذلك زحف التتار الذي تمَّ في عام ٦١٦هـ على أكبر مملكة

(١) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٤٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

إسلامية في ذلك الوقت ، وهي مملكة خوارزم شاه ، كان ذلك في مبدأ القرن السابع الهجري ، وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد نهض التتار كجراد منتشر ، واكتسحوا العالم الإسلامي كلَّه ، ودمَّروا تركستان وإيران ، وأتوا على المدن الكبيرة بأسرها ، وأبادوها ، حتى إنهم رفعوا مناور عاليةً من رؤوس القتلى، وجثثها ، وصعدوا عليها ، وأعلنوا فتحهم وانتصارهم ، وتحولت المدن إلى مقابر ، ولكي نقدِّر هول الحادث؛ يحسن بنا أن نقرأ ما كتبه «إيدورد جون» في كتابه (سقوط وانحطاط رومةDecline and fell of the roman ompire) «حينما اطلع سكان السويد على الزحف التتاري عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم من الخروج لصيد الأسماك كعادتهم ، إلى سواحل إنجلترا»[١] .

تصوروا موقع السويد الجغرافي وسواحل إنجلترا من المنطقة التي زحف إليها التتار. إنَّ صيادي الأسماك في السويد الذين كانوا يمارسون مهنة صيد السَّمك قد بلغ منهم الخوف إلى حدٍّ تركوا فيه مهنتهم ، ولم يتمكن مؤلفو كتاب «تاريخ العهد المتوسط» الصادر من جامعة كيمبردج من تصوير هول الحادث والتعبير عنه سوى أن قالوا: «إنّ السماء وقعت على الأرض ، فدمَّرت كلَّ ما فيها»[٢] .

هذا نموذج تعليقات المؤلفين الغربيين على الحادث وانطباعاتهم ، الذين لم يتأثروا كثيراً بهذا الحادث ، ولم يكونوا هدف الهجمات التتارية بطريقٍ مباشر ، ولكي نعرف مدى تأثر المسلمين بهذا الحادث ، ونظرتهم إليه؛ يجب أن نتذكر المثل السائر في ذلك العهد الذي جاء فيه «إذا قيل لك: إنَّ التتر انهزموا فلا تصدِّق» إنَّ المسلمين الذين لم يكونوا يعرفون لغة اليأس والقنوط ، وأمرهم القرآن فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] والذين كانوا يقرؤون في القرآن: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] استولى عليهم اليأس ، وتقرَّر عندهم أن التتار لا ينهزمون.

---

(١) جبون ص ١٤ .
(٢) من كتاب «جنكيز خان» د . هيرلد ليمب .

www.abulhasanalinadwi.org

هؤلاء التتار إنما خرجوا من حصارهم القديم من أجل خطأ سياسي صدر من خوارزم شاه ، يطلع عليه من درس تاريخه ، وقد استهدف المسلمون لزحفهم فدمَّر التتار تركستان ، وإيران ، وأتوا عليهما بجميع ما فيها من تراثٍ علميٍّ وحضاريٍّ ، وفي تلك الفترة الحالكة لجأ كثير من أبناء البيوتات الشريفة ، العريقة في الدين والعلم ، وكبار العلماء ، وأئمة الفنون وأصحاب العبقرية من المسلمين ، واتَّجهوا إلى الهند التي كان يحكمها الملوك الأقوياء المسلمون من السلالة التركية ، كان ذلك في القرن السابع الهجري ، والقرن الثالث عشر الميلادي ، وقد حاول الأستاذ «آرنولد» الإنجليزي في كتابه : الدعوة إلى الإسلام (Preching of Islam) أن يصوِّر الجو الرهيب من اليأس والشعور بالهزيمة ، الذي كان يعيش فيه المسلمون ، وكان يستطيع في ذلك الوقت كلُّ شخص يتمتع بالشعور والمشاهدة وقوة الاستنتاج من ترتيب المقدمات والأسباب ، أن يتنبأ فيعتقد أنَّ الإسلام قد ولَّى عهده ، وأوشكت شمسه على الغروب ، ولا شكَّ فإنَّ المسلمين هم الذين كانوا هدف الهجمات التتارية في الواقع ، وقد ضاق عليهم مجال العمل والأمل معاً ، يقول «آرنولد» وهو يتحدَّث عن منافسين قويين للإسلام وهما : البوذية والمسيحية : «كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار وليس هناك في تاريخ العالم نظيرٌ لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كلُّ ديانةٍ تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ؛ الذي داسو بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم ، إنَّ مناهضة الإسلام لمنافسيه (الديانة البوذية والديانة المسيحية) واستئثاره بالمغول ، وإحباط مساعي الدعاة البوذيين والمسيحيين ، كان يتراءى شبه المستحيل[١] كل الدلائل كانت تشير إلى أنَّ المسيحية ستنتصر ، لأنَّها لم تكن الخصم المناهض في هذه الحروب ، ثم إنَّ المسيحيات والمسيحيين كانوا في قصور الأمراء من

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ـ ص ٢٥٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

أبناء جنكيز خان ، وأركان دولته ، فإذا كانت هناك قضية اعتناقهم لدين جديد ، كانت المسيحية هي الديانة المفضلة لدى هؤلاء الفاتحين ، لم يكن يشكُّ أحدٌ في اعتناقهم لها .

ولكن هل تعرفون ماذا وقع؟ لقد اضطر آرنولد إلى الاعتراف بالواقع ، يقول : «ولكن الإسلام فاجأ العالم ، ونهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك القاتحين الوحوش ، الذين نثروا عليهم كنانة ظلمهم فأسلموا»[١] .

ويقول : «وعلى الرغم من جميع المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل الوحشية آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف ، وداسوها بأقدامهم»[٢] .

إنَّ القرن الذي بدأ بالشؤم ـ إذا كان في الإسلام مجالٌ لكلمة شؤم ـ القرن الذي بدأ بالظلام الشامل ، واليأس القاتل ، إنما تحوَّل إلى قرن «فتحٍ مبين» للإسلام ، وبهت به العالم ، وقضى العجب مما رأى من التتَّار الذين لم تزل أيديهم مخضوبةً بدماء المسلمين ، كيف خضعوا للإسلام ، يقول : «هورث» :

«وقد بلغ من سوء المعاملة التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيل من أهل الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحاً أظهروا البِشر والحبور في صِلفٍ وإعجاب بعرض صورةٍ تمثِّل رجلاً مسناً ذا لحيةٍ بيضاء يجرُّه حصانٌ قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، إنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين»[٣] .

والواقع أنَّ المسلمين إنما كانوا قد فقدوا كل شيء ، ولكنهم لم يفقدوا الإيمان بالله ، والثِّقة به ، وقوة العقيدة ، والصلة الصادقة به ، ولذلك فإنَّ

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ص٢٤٦ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام : ص٢٥٨ .

(٣) تاريخ المغول لهورث ، ج١ ، ص ١٥٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام لم يمن بالهزيمة إنما مني بها الملوك المسلمون الخرّق ، والمجتمع المريض الفاسد ـ أقول ذلك بصراحةٍ وتألمٍ ـ أمّا الإسلام فقد كان سليماً ثابتاً في مكانه من غير أن يُزرأ في أصالته وقوّته ، كان المسلمون قد ظنُّوا أنَّ إخضاع التتار بالسيف مستحيلٌ؛ لأنَّ سيف الإسلام مفلولٌ بك مكسَّرٌ ، أو عائدٌ إلى الغمد ، وقد أثبت التتار أنَّ لديهم قوةً عسكريةً أقوى من المسلمين ، وأنَّهم بعيدون عن الأدواء التي يجرها البذخ ، والحكومات الطويلة المستبدة ، والمدنية المصطنعة ، وأنهم يملكون من قوة التحمُّل والصبر على المكاره والشدائد ما كان ميزة العرب الأقوياء ، وفاتحي الإسلام في العهد الأول ، وأنَّهم لم يخرجوا من محيط الصحراء إلا بعد قرونٍ ، فلا تزال طاقتهم كامنةً عندهم ، لا يمكن أن تقاومهم السيوف التي تحملها الأيدي التي سرى فيها الوهن ، وأفسدتها المدنية.

فهل تعرفون من انتصر على التتار المنتصرين على العالم ، ومن حبب إليهم كلمة الإسلام؟ لقد نهض في ذلك الوقت العصيب ، والظلام الحالك رجالٌ من أصحاب القلوب الصافية؛ الذين كانوا يتمتَّعون بالرَّبانية الصادقة ، والقوة الروحية الدافقة ، أسلم على أيديهم التتار عن بكرة أبيهم ، في ظروف نصف قرن ، إنَّ التاريخ كله يزخر بقصص إسلام الناس أفراداً وجماعاتٍ ، ودخول المدن بأسرها في الإسلام ، ولكن أمثلة إسلام الناس كأمةٍ لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة أمثلة فيما أعلم ، فإنَّ العرب أسلموا كأمَّة ، والأفغان أسلموا كأمَّة ـ وهم يعانون اليوم من الأسف محنةً من أشدِّ المحن التي تقرر مصير الأمم ، وتحوُّلها من جهةٍ إلى جهةٍ وكذلك الأتراك والتتار لم يسلموا أفراداً ، إنَّما دخلوا في دين الإسلام كأمَّة ، مئةٌ في المئة ، إنَّه لغزٌ من ألغاز التاريخ وقد واجهته أنا شخصياً كذلك ، وهو أن يتم هذا الواقع الذي غيَّر مجرى التاريخ ، وخلَّف تأثيراً عميقاً على مستقبل العالم كله وأعني به إسلام التتار كأمَّة ـ ثم لا نجد في التاريخ أسماء أشخاص يرجع إليهم الفضل في إسلام هذه الأمَّة العظيمة؟ ما السرُّ في ذلك ؟ !

لقد تذكرت بالمناسبة قصة جنديٍّ مسلمٍ في فتح المدائن عثر على تاج

www.abulhasanalinadwi.org

كسرى ، فأخفاه في ثيابه ـ شأن المال المسروق ـ وجاء به إلى قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقال أيها الأمير: يبدو كأن هذا شيء ثمين ، وأنا أسلّمك إياه ، لكي تجعله في بيت مال المسلمين وقبل أن يتسلم التاج ، نظر الأمير ـ وهو من العشرة المبشرة ـ إلى الرجل بشيءٍ من الدَّهشة ، وتحدَّث في نفسه فقال: كيف لم تفسد نية هذا الرجل المسكين البدوي في هذا التاج الثمين ، المرصَّع الغالي؟! كيف لم يفكر فيما إذا ذهب به إلى خيمتـه ، وامتلكه دون أن يسلِّمه إلينا؟! فسأله الأمير عن اسمه ، فتولَّى عنه، وقال: إنَّ الذي عملت له يعرف اسمي ، وانصرف.

هذه قصة فردٍ واحدٍ ، وأظنُّ أنَّ الذين كان إسلام التتار قاطبةٍ في حسابهم كانوا يتسمون بهذه الميزة ، وأنَّهم أخفوا أسماءهم. وقد واجهت أنا صعوبة في تحقيق أسماء هؤلاء العظام حينما بحثت في الموضوع أثناء تأليفي للجزء الأول من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»(١) وبعد بحثٍ وعناءٍ طويلٍ عثرت على اسمين أحدهما لوزيرٍ صالح يدعى بالأمير توزون(٢) الذي كان رئيس الوزراء لملك التتار؛ الذي كان يحكم العراق ، كان هذا الوزير رجلاً صالحاً من العباد والزهَّاد ، وظل يلقي إلى الملك قولاً عن الإسلام ويحببه إليه ، حتى فوجىء أهل بغداد في يوم جمعة أن رأوا الملك التتاري السلطان قازان ووزراءه معه متجهين نحو الجامع يحملون بأيديهم السبح ، يقول ابن كثير في البداية والنهاية: «ونثر الذهب والفضة على رؤوس الناس يوم إسلامه وتسمَّى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة وخرب كنائس كثيرةً ، وضرب عليهم الجزية ، وردَّ مظالم كثيرةً ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار ، والحمد لله وحده»(٣).

والمأثرة التاريخية الثانية هي للشيخ جمال الدين ، وقد انتشر الإسلام بفضل إخلاصه ، وورعه في أحد فروع التتار الكبيرة ، الذي عرف بفرع

---

(١) يقع الكتاب في أربعة أجزاء ، وقد صدر مصحَّحاً ومنقَّحاً عن «دار ابن كثير» دمشق.

(٢) يسميه آرنولد وغيره من المؤرخين «نوروزبيك».

(٣) البداية والنهاية جـ١٣ ـ ٢٤٠.

www.abulhasanalinadwi.org

جغطائي الذي كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مركزها كاشغر ، وأسلمت الفصيلة بكاملها ، وكان من خبره: أنَّ الشيخ جمال الدين كان متجهاً مع جماعة إلى جهة ، وكان التتار يكرهون أهل إيران ، ويحتقرونهم ، وكان الشيخ إيرانياً ، وصادف ذلك يوم القنص للأمير تغلق تيمور ولي عهد الأسرة الجغطائية ، وقد كانت مناسبة تتويجه قريبةً ، ومعلوم أنَّ الهائمين بالنقص لهم أوهامٌ وتشاؤمات لاسيما الأمراء ، وأبناء الملوك ، فلم تزل لهم أوهامٌ وخرافاتٌ يؤمنون بها ، فلما رأى الأمير أنَّ الشيخ جمال الدين قد دخل في الحمى الذي كان قد خصصه لنفسه ، أمر بأن توثق أيديهم ، وأرجلهم ، ويمثلوا بين يديه ، لأنه تشاءم به ، وتنغّص من أجلهم ، وسألهم في غضبٍ: كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض؟ قالوا : إننا أجانب ، وما علمنا أنها أرضٌ ممنوعة ، محميةٌ للصيد ، فتورطنا في الدخول فيها ، ومعذرةً! ولما علم أنهم إيرانيون ، قال الشيخ : وأشار إلى كلبه ، وقال : أيكما أشرف ، أنت أم كلبي؟ تصوروا جلال الموقف ودقَّته ، وماذا يكون ردُّ فعله؟ ولكنه لم يحدث أيُّ تغييرٍ ، ولا اضطرابٍ في الشيخ جمال الدين ، إنَّه أجاب في هدوء وقال: إنه لا يمكن أن نحكم الآن في هذا ، فسأله الأمير : ومتى يمكن ذلك ؟ فقال: إن ذلك يتوقف على خاتمتي ، إذا كانت على الإيمان فأنا أشرف وأسعد من الكلب ، أما إذا لم أسعد بحسن الخاتمة؛ فلا شك أنَّ الكلب هو أحسن مني.

أثر هذا الكلام الصريح في قلب الأمير؛ لأنَّه كان صادراً من القلب ، فوقع في القلب ، ولا شكَّ أنَّ هذا الجواب قد اقترنت به وسبقته دعواتٌ مخلصة ، ودموعٌ منهمرة ، وكأنه قد قال بلسان حاله: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي ، وأنت تملك أن تمنح كلامي هذا تأثيراً في القلب ، وتلك هي لحظة قضاء الله في إسلام الأمير ، لأنَّه إذا سعد بالإسلام سعد به حظُّ المسلمين(١).

---

(١) سرد «آرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» هذه الحكاية ، وذكر أن الشيخ أجاب قوله: «لولا أن الله أكرمنا بالإسلام وشرف به قدرنا ؛ لكنّا أخس من الكلب».

www.abulhasanalinadwi.org

وسأل الأمير عن الإسلام والإيمان ، هنالك عرض الشيخ على الأمير تغلق تيمور قواعد الإسلام في غيرةٍ وحماس ، رقَّ لها قلب الأمير ، حتى كاد يذوب كما يذوب الشَّمع ، وصوَّر له الكفر بصورةٍ مروِّعةٍ اقتنع معها بضلال معتقداته ، وفسادها ، وقال : «لكني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم ، فأملهني قليلاً ، فإذا بلغك أني بويعت بالحكم ، وآلت إليَّ مملكة أجدادي؛ فعد إليَّ ، وذلك أن إمبراطورية جغطائي انقسمت في ذلك الوقت إلى إماراتٍ صغيرةٍ ، وظلت على ذلك سنين طويلةً حتى نجح تغلق تيمور في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل.

وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضه الأخير ، فلما أشرف على الوفاة ، قال لابنه رشيد الدين : «سيصبح تغلق تيمور يوماً ملكاً عظيماً ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السَّلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي» ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استردَّ عرش إمبراطورية آبائه ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطيع أن يظفر بالمثول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيراً لجأ إلى حيلةٍ طريفة ، فكان يؤذن ويصلي على مقربة من فسطاط الخان ، وذات يوم حين كان يؤذن في الصباح الباكر أقلق ذلك الصوت نوم الخان ، وأثار غضبه ، فأمر بإحضاره ، ومثوله بين يديه ، وهناك أدَّى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده ، وقال : «حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي ، ولكنَّ الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة ، ثم أقرَّ بالشهادتين ، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين ، وأشرقت شمس الإسلام ، ومحت بنورها ظلام الكفر.

ودعا الملك تغلق تيمور رئيس وزرائه ، وقال له : إنني أحمل في صدري سرّاً منذ زمن ، لقد وقع ما سمعته من الشيخ جمال الدين في قلبي ، ولا يزال له سلطان عليَّ ، وقد قررت أن أسلم ، فما رأيت؟ فقال له الوزير

www.abulhasanalinadwi.org

أيها الملك إنني مسلم من زمان ، وكنت أخفي إسلامي ، وقد اهتديت إليه في إحدى رحلاتي إلى إيران ، ودعا الوزراء والآمراء إلى الملك ، وأسلموا بعد ما علموا بإسلام الملك.

هؤلاء التتار لم يكن لهم حظٌ في العلم ولا في الحضارة ، ولا شأن لهم بدينٍ سماويٍّ تستسيغه عقولهم ، فلم يكن بوسع التتار أن يقوموا بتدبير هذه المملكة الواسعة الراقية ، بالعكس من ذلك ، كان هناك مقننون بارعون من المسلمين ، ونظام الري ، وجباية الضرائب ، وأحكام القضايا ، وكان لدى التتار قانون محدود للتعزير ، وضعوه على أساس تجاربهم في حياة الصحراء المحدودة ، فكانوا في أشدِّ حاجةٍ إلى المسلمين من قبل ، وكان المسلمون من العلماء وخبراء القانون قد أدَّوا واجبهم نحو هذه المملكة الواسعة ، إنَّهم ساعدوهم في تدبير شؤون المملكة ، وطبعوا في نفوسهم توجيهات الإسلام للحياة ، وكفاءته الواسعة في تنظيم المجتمع والدولة ، إنَّهم رأوا أنَّ مرحلة الإيمان والعقيدة التي كانت تترقب دورها قد تحققت الآن.

وما أن أسلم الملك تغلق تيمور إلا وقد أسرع التتار في إيران نحو اعتناق الإسلام ، وتمَّ إسلام الجميع في عدة أيام ، وكانت الأسرة التتارية الحاكمة في العراق ، قد سبقتهم إلى الإسلام بجهود الأمير توزون ، وكانوا يتتابعون في قبول الإسلام ، ويتسابقون في عدد جمٍّ يبلغ مئات الآلاف ، وكل ذلك قد تم بفضل مجهودات العلماء ، والوعاظ ، والدُّعاة المخلصين ، وخاصةً بالجهود المخلصة التي بذلها العلماء الرَّبانيون من أهل القلوب ، وتلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان ، فإنَّ التاريخ شاهد عدلٍ على ما قام به أصحاب القلوب المؤمنة دائماً من القيام بالدَّعوة ، وتغيير مصير الأمم في سرِّيَّةٍ وخفاءٍ ، واستدركوا بذلك ما لقيه المسلمون من هزائم سياسيةٍ ، وما واجهوه من إخفاقٍ في مجال السياسة ، وقبلوا الوضع ظهراً على بطن.

وقد أشار البروفيسور حتي (Hitti) إلى هذه الحقيقة التاريخية بقوله :

www.abulhasanalinadwi.org

طالما حدث أنَّ «الإسلام الديني» أحرز نجاحاً كبيراً في أحرج ساعات انتكاس «الإسلام السياسي»[١] .

ولا بدَّ من تعليقٍ على هذا الرأي ، وهو أنَّ المقصود : أنَّ الإسلام كدين ورسالة أحرز النجاح ، واستدرك ما فات ، حين مني الإسلام كقوةٍ حاكمةٍ ممثلاً في دولة تتزعمه بالإخفاق والفشل ، وليس هنالك «إسلامٌ دينيٌّ» و«إسلامٌ سياسيٌّ» ، كما توهم عبارة «حتي» والإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والسياسة .

ويقول أحد الفضلاء الهولنديين لوكي كارد (Frede Lokke Goard) :

«رغم أنَّ الإسلام أصيب بالانحطاط السياسي مرّات كثيرةً ، إلا أنَّ الإسلام الروحاني ما زال متقدماً نحو الأمام»[٢] .

وهذا المستشرق الشهير (H.A.R.Gibb) ألقى ذات مرّةٍ خطاباً أمام مجلس جامعة آكسفورد ، فقال :

«طالما شهد تاريخ الإسلام أنَّ الثقافة الإسلامية قوبلت بمنافساتٍ شديدةٍ ، ولكنها لم تنهزم رغماً من ذلك ، ذلك لأنَّ الأسلوب التربوي الروحي[٣] وتفكير العلماء الربَّانيين أسرع إلى دعمها وتأييدها ، ومنحها قوةً لم تصمد في وجهها أي طاقةٍ مضادّةٍ»[٤] .

ولا شك فإنَّ هؤلاء التتار يسجلون في كتاب العلماء الربانيين ، وإنَّ هؤلاء الآلاف المؤلفة الذين غيروا مجرى التاريخ حينما يبعثون يوم القيامة ، يعدُّون في حسابهم ، أولئك الذين كانوا موضع نقدٍ لاذع في السنين الأخيرة

---

(١) History of Arabs P. 46 s.

(٢) Islam Taxtationin The Clanic.

(٣) يعني به نظام التربية الروحية والتزكية والإحسان اللذين يوجد أصلهما في القرآن والسنة ، وقد سمي في العهد الأخير بالتصوُّف ، وطرأت عليه من طوارىء الفلسفة والبدع ما يعلمه المتبصِّرون.
اقرأ للتفصيل كتاب العلامة الندوي «ربانية لا رهبانية» صدر عن دار ابن كثير دمشق.

(٤) Iscamic Culture 1942 p,268.

www.abulhasanalinadwi.org

من غير هوادة وإنصاف ، أو استثناء ، ولكنَّهم ينطبق عليهم قول الشاعر العربي القديم(١) :

أقلُّـــوا عليهـــم لا أبـــا لأبيكـــم
من اللوم، أو سدُّوا المكان الذي سدُّوا

وبالمناسبة فإنَّ من أشدِّ حاجات المجتمع الإسلامي الدائمة وجود ربانيين صادقين ، متبعين لا مبتدعين ، راسخين في العلم والدين ، يربطون القلوب بالله ـ عند النكسة التي تصاب بها الحكومات الإسلامية ، أو فتنة المادة والشهوات ، والتنافس في البذخ والثراء التي تمنى بها المجتمعات المسلمة ـ ربطاً وثيقاً جديداً ، ويبعثون في النفوس التسامي عن الأغراض الخسيسة ، والتكالب على حطام الدنيا ، ويكرهون إليها الحياة الذليلة ، والمتعة الرخيصة ، والخضوع المستكين للسلطات والثروات ، وبيع الضمائر والذمم ، والمساومة في الشعوب والأمم ، ويحببون إليها الاستماتة في سبيل العقيدة والمبدأ ، والشهادة في سبيل الله ، ويحاربون اليأس القاتل ، ويجددون الأمل في روح الله ونصره ، ويشتغلون بالدعوة إلى الله ، وتربية النفوس ، وإمداد المجتمع المتداعي المنهار برجالٍ أكفاء ، أقوياء ، أمناء ، يحفظون ثغور الإسلام ، ويرابطون في سبيل الله ، ويمثلون في بيتهم ومجتمعهم دور الإمام الحسن البصري في العصر الأموي ، ودور الحافظ ابن الجوزي ، وحجة الإسلام الغزالي ، والإمام عبد القادر الجيلاني في العصر العباسي .

إنَّ وجود هؤلاء الربانيِّين حاجةُ المجتمع الإسلامي في كلِّ عصرٍ ومصر ، هم الذين ينجحون حين تخفق الحكومات ، وينتصرون حين تنتكس الرايات ، وغيابهم وانقراضهم ـ كما وقع مع الأسف في بعض الأقطار الإسلامية التي أغدق الله عليها الخيرات ، ووسع لها في الرزق ـ عوزٌ لا يسدُّ ، وخسارةٌ لا تعوَّض ، وخطرٌ على المجتمع الإسلامي والدعوة

(١) هو الشاعر الإسلامي الأموي الحطيئة بن جرول بن أوس (توفي نحو ٤٥ هـ) .

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامية ، لا يزال بالمنظمات السياسية ، والأساليب العلمية ، والوسائل الدعائية ، ومجرد الهتافات العالية الفارغة .

ضربت لكم مثلاً بالقرن الذي بدأ بأحداث هائلة كانت تهدد بقاء الإسلام، لكن المسلمين لم يخسروا الهمّة العالية ، والعزم الأكيد ، إذا كانوا قد خسروا الدولة والمملكة ، وتلك حقيقةٌ ثابتةٌ ، فإنَّ الدولة يمكن أن يخسرها المسلمون عشر مرات ، ولكنها تستطيع أن تعود في المرَّة الحادية عشرة ، أما الهمَّة إذا خسرها صاحبها مرّةً واحدةً فإنَّها لا تعود في أغلب الأحوال .

ظلَّ دعاة الإسلام مشغولين بوظيفتهم في صمتٍ من غير دعايةٍ ، وليت شعري هل كان المسلمون قد أسسوا حينذاك جمعيةً لدعوة التتر إلى الإسلام ، أو نشروا إعلاناً أن التتار إذا أسلموا أفاد ذلك عودة المسلمين إلى الحكم المفقود والحصول على السلطة؟ المرجح أنَّ شيئاً من ذلك لم يوجد! ولكنني أعلم أنَّ هؤلاء الدعاة قاموا بواجب الدَّعوة في هذه الأمة التتارية من غير أن يطلع عليه الناس ، وما هي إلا مدَّةٌ قليلة؛ إذ فوجىء العالم بإسلام الأمّة التتارية جمعاء .

إنني مثلت لكم بالقرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي الذي بدأ بأحداث مروعةٍ أفزعت قلوب المسلمين ، ولولا أنهم كانوا يملكون قوة العقيدة لهجمت عليه ردةٌ فكريةٌ وحضاريةٌ ، إن لم تكن ردةً إيمانيَّةً ولكن لم تحدث هناك ردةٌ حضاريةٌ ، ولا فكريةٌ ، فضلاً عن الردَّة الإيمانيّة .

وأضرب لكم مثالاً آخر للقرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) ولا أتوغل بالمناسبة في تاريخ العالم الإسلامي الواسع ، بل أتحدَّث عن الهند التي أطلَّ عليها منتصف القرن العاشر الهجري في ظروفٍ قاسيةٍ كانت تهدِّد حرمان الهند قيادة الإسلام وتوجيهاته ، بل كادت تحرم فضل الإسلام ونعمته ، كان يبدو أن ذلك يتم في ظرف أيامٍ ، اقرؤوا

www.abulhasanalinadwi.org

تفاصيل ذلك في كتب التاريخ[١] .

وقد وجدت آنذاك في العالم الإسلامي مملكتان كبيرتان مملكة العثمانيين في آسيا الصغرى والشرق العربي ، ومملكة المغول في شبه القارة الهندية ، وكانت المملكة الصفوية في إيران على الدرجة الثالثة ، وقد حدث هنا في الهند أن عدداً من عباقرة العلماء والمثقفين ـ يتميز من بينهم أبو الفضل وفيضي عن غيرهم ـ انضمُّوا إلى حركةٍ كان يقودها إمبراطورٌ عظيمٌ ذو عزمٍ أكيدٍ وذكاء نادرٍ ، وغزوٍ وانتصارٍ ، وكانت تهدف هذه الحركة إلى تغيير وجهة الهند من الإسلام إلى دين جديدٍ اخترعه الإمبراطور «أكبر» وسمَّاه «الدِّين الإلهي» و«إلى وحدة الأديان»[٢] التي كانت الكفَّة فيها راجحة إلى جانب آخر بصفةٍ دائمةٍ[٣] .

كان ذلك ملتقىً خطيراً للقوة المادِّيَّة والذكاء النادر ، أو كانت مؤامرةً ضدَّ الإسلام ، تتولاها مملكةٌ مطلقةٌ ، وعقليةٌ منحرفةٌ ، يتعذر نظيرها في التاريخ ، وكان الناس يعلنون جهاراً أنَّ القرن العاشر أوشك على النهاية ، والقرن الحادي عشر (الذي يبتدىء به الألف الثاني من التقويم الهجري) على الأبواب ، وإنَّ ألف سنة مدةٌ كبيرةٌ لأيِّ دينٍ من الأديان ، وقد قام رجال من العلماء والمثقفين ممن لم يكونوا على جانبٍ كبير من العلم والورع ،

(١) مثلاً «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» المجلد الثالث ، للعلامة الندوي ، صدر عن «دار ابن كثير ، دمشق.

(٢) يعني أن الأديان كلَّها سواء ، لا فضل لأحدٍ على آخر ، وكلها طرقٌ موصلةٌ إلى الله ، وإن اختلفت في التفاصيل والشعارات ، وسمَّت الله بأسماء مختلفة ، ولا تزال الدعوة قائمة في الهند يقودها بعض الزعماء الهندوس والعلمانيون ، وهي فتنةٌ كبيرةٌ يقاومها العلماء ومسلمون غيارى على الإسلام الَّذين يؤمنون ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

(٣) إنَّ هذه الحركة الَّتي أسست على التسامح والصلح الكامل لم تكن عادلة في حق الإسلام فرجحت فيها طبعاً كفة الديانة والفرقة التي كانت ذات تأثيرٍ في البلاط ويميل إليها الإمبراطور ، فقد اعترف مؤرخو «تاريخ الهند بايجان» «مورليند» وا ، س ، جترجي : بأن قوانين البلاط الأكبري كانت أقرب إلى الديانة الهندوكية إلى دين الإسلام وأكثر حمايةً لها .

www.abulhasanalinadwi.org

وكانوا يحرصون على المناصب ، فوفروا لذلك دلائل في ضوء تاريخ الديانات ، وأثبتوا أنَّ ديناً لم يدم أكثر من هذه المدَّة ، وكلَّما مرَّ عليه ألف سنة حل محله دينٌ جديد ، وقيادةٌ فكريَّةٌ جديدة ، وقالوا: إنَّ الدين العربي قد أدَّى رسالته ، وقضى حاجته ، ومرَّ على نبوة محمد ﷺ ألف سنة ، والجيل الجديد بحاجةٍ إلى دستورٍ جديدٍ ، وشريعةٍ جديدةٍ ، وما أكثر الفتن التي تنشأ من فلسفاتٍ تتحرر عن قيود الدين والأخلاق.

تصوروا هذا الخطر المتفاقم ، لقد كان حامل لواء هذه الحركة ورمزها ذلك الإمبراطور الذي كانت الهند كلها ترتجف أمام سيفه ، الذي كان قد ذلل كلَّ عقبةٍ كأداء ، وما كان يعرف للهزيمة والفشل معنىً ، كان دم الشباب والقوة يجري في عروقه وشرايينه ، ويقتفي آثار آبائه وأجداده في حل المشكلات ، والطموح إلى المعالي ، وكان بجوار هذا الإمبراطور القوي ، عالم متفنِّنٌ في علومٍ كثيرةٍ ، وله باع طويل في الآداب والكتابة ، والإنشاء والتأليف ، خلف وراءه كتاباتٍ تشهد بعبقريته ، وفرط ذكائه ، هو أبو الفضل علامي[١] أحد أركان الدول ، وكبار الوزراء.

فماذا كان؟! حلَّت أواخر القرن العاشر تحمل في طيِّها دلائل ثورةٍ على الإسلام، وتنبئ أنَّ الإسلام لم يعد له قرار في هذه البلاد، ويكاد يودع أهلها، الأمر الذي يعني أنَّ السلطة الدينية والروحية تكاد تنتقل من أهلها إلى طاقاتٍ وفلسفاتٍ جديدةٍ، مع انتقال السلطة السياسية إلى غير أهلها ، إنَّ هذه الثورة كادت تقضي على تلكم المجهودات التي بذلها الغزاة المغامرون لفتح هذه البلاد منذ عدة قرون ، وفي جانبٍ آخر كانت تضيع ثمار ذلك الجهاد الذي قام به الشيخ معين الدين الجشتي ، وخلفاؤه المخلصون ، أولئك الذين وجَّهوا من داخل زواياهم إلى أرواحٍ سعيدةٍ دروس الإنسانية ، والحبِّ ، والمساواة ، والعدالة الاجتماعية ، وأشرفوا على الحكومة الحاضرة دينيّاً ، وخلقيّاً من خارج زواياهم ، وهيؤوا للدولة والمجتمع أفراداً صالحين أقوياء

(١) لقب كان يلقب به كبار علماء البلاط.

www.abulhasanalinadwi.org

أمناء، ورعين محبين للإنسانية ، ونفخوا في حركات البلاد العلمية والتربوية روحاً جديدة[١] .

ثُمَّ ماذا حدث؟ لقد طلع نجمٌ من زاوية الإيمان ، والإخلاص ، والعلم ، والحكمة ؛ التي ظلَّت متدفقةً بالحياة والنشاط على الدوام ، إنَّه لم يطلع من أفقٍ ماديٍّ أو سياسيٍّ ، وقد عرف باسم الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) ذلك الرجل العظيم الذي تحدَّث عنه محمد إقبال الشاعر الإسلامي فقال ما معناه :

«ذلك الرجل الكبير الذي نهض لصيانة تراث الدين ، الذي نبهه الله على الخطر المحدق بالأمة في أوانه ، ذلك العصامي الذي لم يحن رأسه أمام الملك جهانكير ، ونفخ في الأحرار روحاً وثَّابةً من الإيمان والحنان» .

ولمقاومة تلك المؤامرة ضدَّ الإسلام التي دبرها عباقرة ذلك العصر ، يقوم رجل فقيرٌ في إحدى زوايا «سرهند» ، ويعتزم أنَّ ذلك لا يكون ، إنه ساءل نفسه ، فقال : لماذا يحرم المسلمون في هذه البلاد أن يعيشوا أحراراً أعزاء، متمسكين بشعائرهم الدينية؟ ولماذا يضيق عليهم وحدهم مجال الحياة؟

فماذا كانت النتيجة؟ لما بدأ القرن الحادي عشر الهجري رأى العالم أنَّ الأوضاع تغيَّرت ، وأن مستقبل الإسلام في هذه البلاد أصبح مضموناً إلى ما بعده بقرون ، قام هذا الرجل العظيم من سرهند لدحض الأباطيل ، والمغالطات العلمية ، والإشراقية التي كانت متجهةً إلى إنكار حاجة البشرية إلى النبوة والأنبياء ، وخلود الرسالة المحمدية، وإنَّ الشريعة دائمةٌ لم تنسخ ، والمسلمون مكلَّفون بها في كلِّ مكانٍ وزمانٍ ، والسنَّة قائمةٌ لم تزل، وسعادة المسلمين منوطةٌ بالتمسُّك بها ، ولا بديل عنها ، وبذلك أعاد ثقة كثيرٍ من الذين اضطربت عقائدهم بالشريعة الإسلامية ، وردَّ اعتبارها[٢] .

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله» و«المسلمون في الهند» للعلامة الندوي صدر عن دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) ليراجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» المجلد الثالث ، للعلامة الندوي ، صدر عن دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

لم يحاول تنظيم قوةٍ ضدَّ الإمبراطور «أكبر» ، لقد تفطَّن بدراسته التاريخية ، وبصيرته القرآنية ، أنه سيمنى بالإخفاق الذريع ، إذا أبدى خصومته له ، وتمثَّل أمامه كمنافس ، فالدولة قويَّةٌ فتيَّةٌ لم يتسرَّب إليها الوهن ، ولم يسر إليها الهرم ، وسوف تصد في وجهه الطرق ، فينبغي له أن يدعو الله ، ويجمع حوله مخلصين أكفاء ، ويتناولهم بالتربية الشاملة التي تنجو بهم من مزالق المال والحكم ، وتجعلهم بعيدي النظر ، لا يطمحون إلى الجاه والمنزلة ، والزلفى عند الحاكم ، يُصلح بهم الأوضاع الفاسدة ، ويحوِّل بهم اتجاه الدولة والمجتمع.

وحدث بإمبراطور «أكبر» حدثُ الموت ، وخلفه ابنه جهانكير ، ولم يكن معانداً للإسلام ، ولم يكن راضياً بكثيرٍ من تصرفات أبيه الراعنة ، وسياسته المناوئة للإسلام ، وكان حوله رجالٌ من العنصر الكريم ، وأهل الغيرة على الإسلام. فبدأ يراسل هؤلاء الأمراء وقادة الجيش ، وبطانة الملك ، يثير فيهم الغيرة الإسلامية ، ويشعل شرارة الإيمان الكامنة في نفوسهم ، ويذكرهم بمسؤوليتهم نحو الإسلام الذي يمرُّ بمرحلةٍ خطيرةٍ في الوقت الحاضر ، حتى يقوموا بدورهم ، وذلك كله بطريقةٍ علميَّةٍ في أسلوبٍ أدبيٍّ قويٍّ يأخذ بمجامع القلوب ، وبثقةٍ من القلب ويقينٍ منه ، وتوجعٍ للنوع الإسلامي المحزن ، يفتت الكبد ، ويثير الأحزان.

وهؤلاء الأمراء تطول قائمة أسمائهم ، ويجدر بالذكر منهم عبد الرحيم خان خانان ، والأمير مرتضى خان (سيد فريد) فكانت النتيجة أنَّ الوضع تغيَّر في ظرف ١٥ ـ ٢٠ عاماً ، حتى انتقل مركز الثقل في العلوم الدينية إلى الهند ، والقيادة الفكرية والروحية ، وانتهت إليها رئاسة التدريس ، والنشر لعلم الحديث ، والتربية الروحية ، وظهر تفوقها حتى في اللغة العربية وآدابها. إنَّ المكانة التي حظيت بها الهند في خدمة العلوم الإسلامية ، ونبوغ رجال العلم والدين الكبار فيها ، إنما يرجع الفضل في ذلك إلى هذه الجهود المخلصة التي بذلها الإمام السرهندي ، وظلَّت مصابيح العلم ، والتحقيق تتوقَّد في أرجاء هذه البلاد.

www.abulhasanalinadwi.org

وظهر بعد مدَّة الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦) الذي أسس علم كلامٍ جديدٍ، وقام بشرح وإيضاح معنى نظام الخلافة، وعرض مخطط الحكم الإسلامي الصحيح الذي لم يسبق له نظير فيما أظنُّ[١] مع ما بذل من محاولاتٍ لإنقاذ الحكومة الإسلامية في الهند ـ التي لم يكن لها بديل في ذلك الوقت ـ من الوضع المنهار، وبعث روحاً جديدة في جسمها، ذلك أنَّ سقوطها وضعفها كان يهدِّد بخطرِ الاضطراب الكبير خلقيّاً وسياسيّاً[٢].

وقام أبناؤه الموفقون الأفاضل (وفي مقدمتهم الإمام عبد العزيز بن ولي الله رحمه الله) بنشر علوم الكتاب والسنَّة في هذه البلاد، ووجد منه إقبالٌ عامٌّ على دراسة القرآن، وتفهم معانيه، وانبثقت منه حركةٌ قويَّةٌ لتدريس الصحاح الستَّة، والعناية بالحديث الشريف، ونشره ونقله إلى اللغة الأردية، وانطلقت موجةٌ عارمةٌ لإصلاح العقائد والأعمال، ومعارضة التقاليد الهندوسية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي الهندي.

كانت حركة الإصلاح والجهاد، وإحياء السنة، والخلافة الكبرى التي قادها العالمان الشهيران الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) والعلامة محمد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي، الشهيد (١٢٤٦ هـ) في شبه القارة الهندية، حلقةً متينةً ذهبيَّةً لهذه السلسلة الذهبية، وقد وفقت هذه الحركة الجليلة لتقديم نماذج من السيرة الإسلامية، والحميَّة الدينيَّة، وتربية الإنسان، وصناعة الرجال، جددت ذكرى القرون الأولى، إنَّ هذه الجماعة تابعت جهودها على جبهة الدعوة والإصلاح الواسعة التي يتعذر نظيرها في تاريخ العالم الإسلاميِّ سابقاً[٣].

---

(١) والدليل على ذلك كتابه الفريد «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» بالفارسية.

(٢) لمزيد التفصيل راجع «رسائله السياسية» التي كتبها إلى أمراء المسلمين وقادتهم، وقد جمعها البروفيسر خليق أحمد نظامي، في مجموعة، وقدَّم لها، وعلَّق عليها.

(٣) راجع للتفصيل «حركة الهند الإسلامية الأولى» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله وكتاب «الإمام الَّذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف» للعلامة الندوي.

www.abulhasanalinadwi.org

ثم جاء عهد المدارس الدينيَّة ، وتأسَّست مدرسة دار العلوم بديوبند ، ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، ودار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ ، وغيرها من المدارس الإسلامية في أنحاء البلاد التي قامت علىٰ أساس الكتاب والسنة ، ونشر تعاليمها[١] وقد تمَّ بجهود مؤسسي هذه المدارس الكبار وأفاضلها المخلصين ، والراسخين في العلم إصلاح العقائد والأعمال على أوسع نطاق ، ونشأ ذوقٌ دينيٌّ ، وغيرةٌ إسلاميةٌ في الناس ، وأسهم منهم عددٌ وجيهٌ في حركة تحرير البلاد ، والنشاطات العلمية والأدبية ، ولم تحدث تلك الفجوة الواسعة العميقة بين جماهير هذه البلاد ، والطبقة المثقفة وبين علماء الدين ، كما حدثت في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية حتى آلت إلى الثورة والعداء في بعض الأحيان ، ولم يأخذ المجتمع الإسلامي في هذه البلاد بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» كما أخذت به بعض المجتمعات الإسلامية في بلادٍ أخرى ، ولم تزل ولا تزال الصِّلات قويةً بين الشعب والعلماء ، ولا يزال للدِّين وممثليه سلطانٌ على الدَّهماء.

وبفضل جهود هؤلاء العلماء العلمية تمتعت الهند بمركزيةٍ دينيَّةٍ ، حتى أتى عليها حينٌ من الدهر إذا أراد أحدٌ في اليمن في أقصى الجنوب ، ومراكش في أقصى الشمال ، وغيرهما من الدول الإسلامية ، أن يصل إلى درجة اختصاص في الحديث الشريف ، ويتخرَّج فيه؛ أمَّ الهند ، وكذلك من أراد منهم أن يكمل تربيته الدينية ، والتزكية النفسيَّة ، ويتدرَّج إلى مدارج السموِّ الروحيِّ ، والصفاء النفسيِّ ، توجَّه إلى الهند ، ظهر الشيخ خالد الرومي في الجزء الشمالي للعراق والشام الذي كان ضمن تركيا ، وأتمَّ دراسته الدينية في «شهرزور» و«دمشق» ، ولكنه لما أراد أن يطفىء ظمأه الروحيَّ ، ويقوي إيمانه بأوامر الله ، وحقائقه الغيبية مثل الإيمان بالبديهيات ، ونتائج العلوم الرياضيَّة ، قصد الهند ، ووصل من بلده

---

(١) كالمدارس السلفية ، والمعاهد التي أنشأها إخواننا أهل الحديث في أنحاء البلاد وللاطلاع عليها راجع كتاب «المسلمون في الهند» وهو استعراضٌ تاريخيٌّ موجزٌ.

www.abulhasanalinadwi.org

«شهرزور» إلى دهلي رأساً[١] ، ونزل في زاوية الشيخ غلام علي (م ١٢٤٠ هـ) .

ولازمه حتى أذن له بعد تكميل دروسه الروحية بالعودة إلى بلده ، وأفاد الخلق بعلمه وأخلاقه ، والحقائق الدينية في بلدان العراق والشام وتركيا ، ونفخ فيها روحاً جديدة لا تزال لها آثارها .

إنَّ حديثي هذا وإن كان محدوداً إلى ذكر حركات الهند الإصلاحية والتجديدية إلا أنه لا بدَّ بالمناسبة من الإشارة إلى بعض الحركات الدينية الكبيرة التي قامت خارج الهند ، وخاصة حركة تطهير العقائد ودعوة الدين الخالص الكبرى؛ التي قامت في مركز الإسلام (الجزيرة العربية) قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) الذي عاصر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الهند[٢] ، وقد كسبت دعوته هذه ـ نظراً لأسبابٍ تاريخيَّةٍ وسياسيَّةٍ خاصةً ـ نجاحاً لم يلقه كثيرٌ من الدعاة والمصلحين ، فقد نشأ نتيجةً لها جيلٌ مستقلٌ ، ومملكةٌ واسعةٌ ، ومدرسةٌ فكريةٌ بلغ تأثيرها إلى أنحاء بعيدة .

وفي نفس هذا العصر ولد في اليمن العلامة محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ ـ ١٢٥٥ هـ) وفي «عسير» أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني مؤسس السلسلة الإدريسية (م ١٢٥٣) وفي ليبيا السيد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٦ ـ ١٢٧٦ هـ)[٣] الذين قاموا في بلادهم بحركةٍ إصلاح

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» للعلامة ابن عابدين (مجموعة رسائل ابن عابدين) .

(٢) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم في السن تقريباً ، إذ أنَّ الشيخ الدهلوي ولد في (١١١٤ هـ) والشيخ عبد الوهاب من مواليد (١١١٥ هـ) وللاطلاع على أحوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وترجمة حياته. راجع كتاب «محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترى عليه» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله .

(٣) المجاهد الشهير ، والمصلح الكبير السيد أحمد شريف السنوسي (الإمام السنوسي) كان حفيد الشيخ محمد بن علي السنوسي الَّذي أبلى في حربِ طرابلس وبرقة ضد =

www.abulhasanalinadwi.org

العقائد والتقاليد ، ونشر الكتاب والسنة ، والتربية على الجهاد والسيرة النموذجية ، ويحاول مستشرقو الغرب إثبات أنَّ هؤلاء المصلحين كلهم من غرس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه مباشرةً أو بواسطةٍ ، ولكن القضية ليست كليّة معلقةً ، إنَّ العقلية الغربية عاجزةٌ عن تفهُّم هذه الحقيقة ، وهي أنَّ دراسة الكتاب والسنة الواعية المخلصة تفتق العقول والقرائح ، وتزيل الغشاوة عن العيون ، وتلهب جذوة الإيمان والحماس ، فتنهض في كلِّ فترةٍ تاريخية ـ قد تطول ، وقد تقصر قادةٌ وأئمةٌ ، ومصلحون ومرشدون ، يثورون على الأوضاع الفاسدة ، ويعلنون الحرب على العقائد الزائفة ، والتقاليد الجاهلية ، وستدوم هذه السلسلة إلى يوم القيامة .

وبرز بعد ذلك بقليلٍ إلى ساحة العمل والدعوة العلامةُ السيد جمال الدين الأفغاني (م ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٧ م) فنفخ في صورِ الغيرة الإسلامية والجامعة الإسلامية الذي ارتج به الوطن الإسلامي الكبير من مصر إلى الشام وتركيا ، لقد أسهم هو وتلميذه النجيب المفتي محمد عبده المصري (م ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م) في إيقاظ الوعي الفكري لدى الشباب المسلم القلق الذكيِّ إسهاماً كبيراً[(١)] .

أما ما يتصل بالقرن الرابع عشر الهجري فإنَّه من وجهة نظر المسلمين قرن الانتصارات والإخفاقات ، والأخطاء وتداركها ، وقرن سذاجة

= الطليان بلاءً حسناً ، ظلَّ يقاوم إلى مدَّة ١٣ عاماً هذه القوى الكبرى بنجاحٍ كبيرٍ ، وقوَّةٍ صامدةٍ . لقد جمع بين السيف والمصحف في وقت واحد ، كان يعتبر من كبار المربين في عصرة توفي بالمدينة المنورة في عام (١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م) وللاطلاع على التفاصيل راجع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان : ج ٢ .

(١) منذ سنوات عديدة ماضية أصبحت كلتا الشخصيتين (الأستاذ والتلميذ) موضوع البحث والنقد ، ونشرت الجرائد والمجلاَّت العربية مقالات ، وألقيت محاضرات في الندوات العلمية تقلل من عظمة الشخصيتين ولم تعدَّا كما كانت قبل اليوم بربع قرن . ولكن الواقع الَّذي لا ينكر أنَّهما مثلا دوراً له قيمته في إعادة ثقة الشباب المسلم لصلاحية الإسلام في العصر الحاضر وحيويته . ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب العلامة الندوي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» .

www.abulhasanalinadwi.org

«شهرزور» إلى دهلي رأساً[1] ، ونزل في زاوية الشيخ غلام علي (م ١٢٤٠ هـ) .

ولازمه حتى أذن له بعد تكميل دروسه الروحية بالعودة إلى بلده ، وأفاد الخلق بعلمه وأخلاقه ، والحقائق الدينية في بلدان العراق والشام وتركيا ، ونفخ فيها روحاً جديدة لا تزال لها آثارها .

إنَّ حديثي هذا وإن كان محدوداً إلى ذكر حركات الهند الإصلاحية والتجديدية إلا أنه لا بدَّ بالمناسبة من الإشارة إلى بعض الحركات الدينية الكبيرة التي قامت خارج الهند ، وخاصة حركة تطهير العقائد ودعوة الدين الخالص الكبرى؛ التي قامت في مركز الإسلام (الجزيرة العربية) قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) الذي عاصر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الهند[2] ، وقد كسبت دعوته هذه ـ نظراً لأسبابٍ تاريخيَّةٍ وسياسيَّةٍ خاصةً ـ نجاحاً لم يلقه كثيرٌ من الدعاة والمصلحين ، فقد نشأ نتيجةً لها جيلٌ مستقلٌّ ، ومملكةٌ واسعةٌ ، ومدرسةٌ فكريةٌ بلغ تأثيرها إلى أنحاء بعيدة .

وفي نفس هذا العصر ولد في اليمن العلامة محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ ـ ١٢٥٥ هـ) وفي «عسير» أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني مؤسس السلسلة الإدريسية (م ١٢٥٣) وفي ليبيا السيد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٦ ـ ١٢٧٦ هـ)[3] الذين قاموا في بلادهم بحركةٍ إصلاح

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» للعلامة ابن عابدين (مجموعة رسائل ابن عابدين) .

(٢) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم في السن تقريباً ، إذ أنَّ الشيخ الدهلوي ولد في (١١١٤ هـ) والشيخ عبد الوهاب من مواليد (١١١٥ هـ) وللاطلاع على أحوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وترجمة حياته . راجع كتاب «محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترى عليه» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله .

(٣) المجاهد الشهير ، والمصلح الكبير السيد أحمد شريف السنوسي (الإمام السنوسي) كان حفيد الشيخ محمد بن علي السنوسي الَّذي أبلى في حرب طرابلس وبرقة ضد=

www.abulhasanalinadwi.org

ثم جاء عهد المدارس الدينيَّة ، وتأسَّست مدرسة دار العلوم بديوبند ، ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، ودار العلوم ندوة العلماء في لكهنؤ ، وغيرها من المدارس الإسلامية في أنحاء البلاد التي قامت علىٰ أساس الكتاب والسنة ، ونشر تعاليمها[١] وقد تمَّ بجهود مؤسسي هذه المدارس الكبار وأفاضلها المخلصين ، والراسخين في العلم إصلاح العقائد والأعمال على أوسع نطاق ، ونشأ ذوقٌ دينيٌّ ، وغيرةٌ إسلاميةٌ في الناس ، وأسهم منهم عددٌ وجيهٌ في حركة تحرير البلاد ، والنشاطات العلمية والأدبية ، ولم تحدث تلك الفجوة الواسعة العميقة بين جماهير هذه البلاد ، والطبقة المثقفة وبين علماء الدين ، كما حدثت في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية حتى آلت إلى الثورة والعداء في بعض الأحيان ، ولم يأخذ المجتمع الإسلامي في هذه البلاد بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» كما أخذت به بعض المجتمعات الإسلامية في بلادٍ أخرى ، ولم تزل ولا تزال الصِّلات قويةً بين الشعب والعلماء ، ولا يزال للدِّين وممثليه سلطانٌ على الدَّهماء .

وبفضل جهود هؤلاء العلماء العلمية تمتعت الهند بمركزيةٍ دينيَّةٍ ، حتى أتى عليها حينٌ من الدهر إذا أراد أحدٌ في اليمن في أقصى الجنوب ، ومراكش في أقصى الشمال ، وغيرهما من الدول الإسلامية ، أن يصل إلى درجة اختصاص في الحديث الشريف ، ويتخرَّج فيه ؛ أمَّ الهند ، وكذلك من أراد منهم أن يكمل تربيته الدينية ، والتزكية النفسيَّة ، ويتدرَّج إلى مدارج السموِّ الروحيِّ ، والصفاء النفسيِّ ، توجَّه إلى الهند ، ظهر الشيخ خالد الرومي في الجزء الشمالي للعراق والشام الذي كان ضمن تركيا ، وأتمَّ دراسته الدينية في «شهرزور» و«دمشق» ، ولكنه لما أراد أن يطفىء ظمأه الروحيَّ ، ويقوي إيمانه بأوامر الله ، وحقائقه الغيبية مثل الإيمان بالبديهيات ، ونتائج العلوم الرياضيَّة ، قصد الهند ، ووصل من بلده

(١) كالمدارس السلفية ، والمعاهد التي أنشأها إخواننا أهل الحديث في أنحاء البلاد وللاطلاع عليها راجع كتاب «المسلمون في الهند» وهو استعراضٌ تاريخيٌّ موجزٌ .

www.abulhasanalinadwi.org

«شهرزور» إلى دهلي رأساً[١] ، ونزل في زاوية الشيخ غلام علي (م ١٢٤٠ هـ) .

ولازمه حتى أذن له بعد تكميل دروسه الروحية بالعودة إلى بلده ، وأفاد الخلق بعلمه وأخلاقه ، والحقائق الدينية في بلدان العراق والشام وتركيا ، ونفخ فيها روحاً جديدة لا تزال لها آثارها .

إنَّ حديثي هذا وإن كان محدوداً إلى ذكر حركات الهند الإصلاحية والتجديدية إلا أنه لا بدَّ بالمناسبة من الإشارة إلى بعض الحركات الدينية الكبيرة التي قامت خارج الهند ، وخاصة حركة تطهير العقائد ودعوة الدين الخالص الكبرى؛ التي قامت في مركز الإسلام (الجزيرة العربية) قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) الذي عاصر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الهند[٢] ، وقد كسبت دعوته هذه ـ نظراً لأسبابٍ تاريخيَّةٍ وسياسيَّةٍ خاصةً ـ نجاحاً لم يلقه كثيرٌ من الدعاة والمصلحين ، فقد نشأ نتيجةً لها جيلٌ مستقلٌّ ، ومملكةٌ واسعةٌ ، ومدرسةٌ فكريةٌ بلغ تأثيرها إلى أنحاء بعيدة .

وفي نفس هذا العصر ولد في اليمن العلامة محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ ـ ١٢٥٥ هـ) وفي «عسير» أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني مؤسس السلسلة الإدريسية (م ١٢٥٣) وفي ليبيا السيد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٦ ـ ١٢٧٦ هـ)[٣] الذين قاموا في بلادهم بحركةٍ إصلاح

(١) ليرجع للتفصيل إلى رسالة «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» للعلامة ابن عابدين (مجموعة رسائل ابن عابدين) .

(٢) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم في السن تقريباً ، إذ أنَّ الشيخ الدهلوي ولد في (١١١٤ هـ) والشيخ عبد الوهاب من مواليد (١١١٥ هـ) وللاطلاع على أحوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وترجمة حياته . راجع كتاب «محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترى عليه» للأستاذ مسعود الندوي رحمه الله .

(٣) المجاهد الشهير ، والمصلح الكبير السيد أحمد شريف السنوسي (الإمام السنوسي) كان حفيد الشيخ محمد بن علي السنوسي الَّذي أبلى في حرب طرابلس وبرقة ضد =

www.abulhasanalinadwi.org

العقائد والتقاليد ، ونشر الكتاب والسنة ، والتربية على الجهاد والسيرة النموذجية ، ويحاول مستشرقو الغرب إثبات أنَّ هؤلاء المصلحين كلهم من غرس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه مباشرةً أو بواسطةٍ ، ولكن القضية ليست كليَّة معلقةً ، إنَّ العقلية الغربية عاجزةٌ عن تفهُّم هذه الحقيقة ، وهي أنَّ دراسة الكتاب والسنة الواعية المخلصة تفتق العقول والقرائح ، وتزيل الغشاوة عن العيون ، وتلهب جذوة الإيمان والحماس ، فتنهض في كلِّ فترةٍ تاريخية ـ قد تطول ، وقد تقصر قادةٌ وأئمةٌ ، ومصلحون ومرشدون ، يثورون على الأوضاع الفاسدة ، ويعلنون الحرب على العقائد الزائفة ، والتقاليد الجاهلية ، وستدوم هذه السلسلة إلى يوم القيامة .

وبرز بعد ذلك بقليلٍ إلى ساحة العمل والدعوة العلامةُ السيد جمال الدين الأفغاني (م ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٧ م) فنفخ في صورِ الغيرة الإسلامية والجامعة الإسلامية الذي ارتج به الوطن الإسلامي الكبير من مصر إلى الشام وتركيا ، لقد أسهم هو وتلميذه النجيب المفتي محمد عبده المصري (م ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م) في إيقاظ الوعي الفكري لدى الشباب المسلم القلق الذكيِّ إسهاماً كبيراً[١] .

أما ما يتصل بالقرن الرابع عشر الهجري فإنَّه من وجهة نظر المسلمين قرن الانتصارات والإخفاقات ، والأخطاء وتداركها ، وقرن سذاجة

= الطليان بلاءً حسناً ، ظلَّ يقاوم إلى مدَّة ١٣ عاماً هذه القوى الكبرى بنجاحٍ كبيرٍ ، وقوَّةٍ صامدةٍ . لقد جمع بين السيف والمصحف في وقت واحد ، كان يعتبر من كبار المربين في عصرة توفي بالمدينة المنورة في عام (١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م) وللاطلاع على التفاصيل راجع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان : ج ٢ .

(١) منذ سنوات عديدة ماضية أصبحت كلتا الشخصيتين (الأستاذ والتلميذ) موضوع البحث والنقد ، ونشرت الجرائد والمجلاَّت العربية مقالات ، وألقيت محاضرات في الندوات العلمية تقلل من عظمة الشخصيتين ولم تعدًّا كما كانت قبل اليوم بربع قرن . ولكن الواقع الَّذي لا ينكر أنَّهما مثلا دوراً له قيمته في إعادة ثقة الشباب المسلم لصلاحية الإسلام في العصر الحاضر وحيويته . ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب العلامة الندوي «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» .

www.abulhasanalinadwi.org

الشعوب الإسلامية واغترارها ، وقرن الوعي واليقظة السياسية في وقتٍ واحدٍ ، وقيام دولٍ وحكوماتٍ مسلمةٍ كثيرة ، وقرن حركات إسلاميَّةٍ قويَّةٍ متعدِّدةٍ ، فإنَّ هذا القرن يجمع من تنوع الحوادث والوقائع وتناقضها ما يتعذَّر نظيره في القرون الماضية .

لما ابتدأ القرن الرابع عشر كانت راية الخلاقة العثمانية خفاقةً على ممتلكاتها ، وكانت ظلال الخلافة الإسلامية تظلُّ المسلمين ، وكان السلطان عبد الحميد خان الثاني (١٢٩١ ـ ١٣٢٧ ـ هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م) على سرير الخلافة ، الذي ظلَّ هدفاً للنقد والطعن إلى أواسط القرن العشرين ، وإنَّ المؤلفين الغربيين جندوا أقلامهم لتشويه وجهه ، ولكن البحوث والدراسات التاريخية التي نشرتها بعض المجلات العربية والتركية الموقَّرة حديثاً ، أثبتت في ضوء مذكراته أنَّه كان حاكماً إسلامياً ذا حميَّةٍ وغيرةٍ إسلاميةٍ كبيرة ـ رغماً من بعض خصائصه الطبعية ومواضع الضعف؛ التي قد تكون خصيصةً للمملكة الموروثة ، وردٌ فعلٍ للمعارضات الداخلية والخارجية ، والمؤامرات التي دبرت حوله من كل جانب ـ لم تكن تستطيع القوى الغربية في عهده أن تنجح في توزيع تركيا كمالٍ سائبٍ ، ولم يكن احتلال اليهود في أيِّ جزء من فلسطين ممكناً ، وهو الذي رفض بازدراء كلَّ ما تقدَّم به الوفد اليهودي الممتاز إليه من مساومات ورشى ، وقال لهم ، وقد حمل حفنة من تراب الأرض: أنتم تريدون مني بيت المقدس ، وأنا لن أرضى بإعطائكم مثل هذه الحفنة من تراب فلسطين[1] . وهو الذي نفخ في جسم الخلافة الإسلامية روحاً جديدةً ، وفي العالم الإسلاميِّ حماساً جديداً للوحدة الإسلامية ، و«الجامعة الإسلامية» .

إنَّ الدولة العثمانية التي كانت تتشرَّف بتولِّي الحرمين الشريفين وشرف الخلافة الإسلامية كانت حصاراً حديدياً للمقدسات الإسلامية ، والدول العربية ، ومنبع قوةٍ وعزَّةٍ للأمَّة الإسلامية ، أينما كانت ، رغم ضعفها

(١) حدَّث العلامة الندوي بذلك سماحةُ المفتي الأكبر السيد محمد أمين الحسني رحمه الله عدَّة مرات ، وهو من أوثق رواة هذا الموضوع .

www.abulhasanalinadwi.org

والفتن الداخلية والخارجية والمؤامرات المروعة التي كانت تحيط بها ، فلم تكن هذه المقدسات والدول العربية ـ التي كانت ترتبط بها قلوب المسلمين وشرفهم ـ لكي توزع كمال اليتيم ، إنَّ الدولة العثمانية كانت تمتدُّ وتتسع في بداية هذا القرن إلى اليمن ، وعسير شرقاً ، إلى أدرنة ، وألبانيا في أوربا ، وإلى طرابلس ، وتونس ، وفزان في إفريقية غرباً ، وإلى أسوان ، ومصر ، وبرقة جنوباً، وإلى بلغاريا ، ودويلات بلقان ، طرابزون وأدريا نوبل شمالاً ، وكانت الدولة العثمانية تتضمن معظم أجزاء آسيا الصغرى كالشام (وضمنها كانت فلسطين الحالية ولبنان ، والأردن) ومصر ، والجزيرة العربية والعراق والقبرص ، وكانت لا تزال تحسب «للرجل المريض»[١] حساباً خاصًّاً.

ولكنَّ المسلمين لم يقدروا هذه النعمة ، التي كان الله سبحانه قد أنعم بها عليهم في صورة الخلافة وإمبراطورية مسلمةٍ واسعةٍ ، إنَّ عزل السلطان عبد الحميد خان في عام ١٩٠٩ م لم يكن حادثاً ذا شأن يغير مجرى التاريخ ، ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الأوضاع السياسية في ذلك الوقت ، أو نتيجة المؤامرات والدسائس ضدَّ السلطان ، وقد تتابع على عرش الخلافة بعده السلطان رشاد ، والسلطان وحيد الدين خان ، والسلطان عبد المجيد ، ولكن الحادث المؤلم الذي نكب به العالم الإسلاميُّ كلُّه وأهين ، والذي خسر من أجله المسلمون بيت المقدس ، هو احتلال الاستعمار الغربي في الدول العربية كمصر وسورية الطبعية الكبرى والعراق ، والجزء الشمالي لإفريقية إما مباشرةً أو بواسطةٍ ، ويبدو أنَّ مدَة هذا العقاب (خاصةً فيما يتعلق بالدول العربية في آسيا الغربية) لم تنته بعد.

وقد حمل العرب السلاح على الدولة العثمانية لما وقعوا فريسة مؤامرة الأقلية المسيحية الداهية التي كانت تقطن في الدول العربية ، وثقوا بمواعيد الاتحاديين الخداعة ، وسحروا بسحر القومية العربية إبان الحرب الكونية الأولى في عام ١٩١٤ م .

---

(١) إن المؤلفين والسياسيين الأوربيين يسمون المملكة التركية والأمة التركية بالرجل المريض (Sick Man).

www.abulhasanalinadwi.org

وقد قاد الشريف حسين الثورة ضد الأتراك في ١٠ يونيو ١٩١٦ م ، وتحررت الشام ، وفلسطين من سلطة الأتراك ، كنتيجةٍ لها في عام ١٩١٧ م وتمَّت السلطة البريطانية على مصر ، واحتلَّ الإنجليز بيت المقدس في ٩ ديسمبر ١٩١٧ م ، وفي أول أكتوبر لعام ١٩١٨ م دخل الأمير فيصل نجل شريف حسين والجنرال اللنبي منتصرين في دمشق ، واتجه الجنرال الفرنسي «غورو» إلى قبر فاتح بيت المقدس ومفخرة الإسلام السلطان صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) ورفسه قائلاً : لقد انتصرنا اليوم يا صلاح الدين ، ودخلنا عقر دارك ، فإلى متى تبقى نائماً؟!

ومع نهاية شهر أكتوبر ١٩١٨ م كانت الجزيرة العربية ، والشام ، ولبنان ، والعراق ودول العرب كلها قد خرجت من أيدي الأتراك وتم عليها تسلُّط الاتحاديِّين .

لقد كان العالم الإسلاميُّ كلُّه قلقاً بهذا الوضع ، والمسلمون مهانين ، ولكنَّ أثر هذه النكبة على مسلمي الهند كان أعمق وأقوى من سائر المسلمين في أنحاء العالم ، وتظاهروا باضطرابهم القلبيِّ والفكريِّ ، في نفس هذا الوقت قامت حركة الخلافة في الهند (التي تعتبر حركة دينية وسياسية كبرى في هذا القرن) وهزَّت الهند كلها بقيادة العلماء المسلمين وقادتهم ، كان في مقدمتهم وعلى رأسهم الشيخ عبد الباري الفرنجي محلِّي ، وشيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، والزعيم مولانا محمد علي جوهر ، وأخوه مولانا شوكت علي ، ومولانا ظفر علي خان ، وغيرهم من العلماء والقادة الذين يندر نظيرهم في العالم الإسلامي كلِّه في قوة الشخصية ، والغيرة الإسلامية ، والحماس الخطابي ، وبهذه المناسبة سالت قلوب المسلمين دماً ، وتفجر شعورهم المليُّ كالبركان ، إن هذه الحركة العملاقة أنشأت في الهند كلها ـ في المسلمين وغيرهم ـ وعياً سياسياً وكراهيةً شديدةً للسلطة الغربية ، والحضارة الغربية ، حتى إنَّ الزعيم غاندي أيد هذه الحركة تأييداً كلياً ، وقام مع زعمائها بجولاتٍ واسعةٍ على مستوى عموم الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن لما أعلن مصطفى كمال باشا (كمال أتاتورك) في ٣ مارس ١٩٢٤ م نهاية الخلافة مادت بالمسلمين الأرض ، وأظلمت عليهم الدنيا ، وفي هذه المناسبة بالذات قال الشاعر محمد إقبال ما معناه:

«لقد شقَّ التركيُّ الجاهل رداء خلعة الخلافة ، ما أشدَّ المسلم سذاجةً وعدوَّه دهاءً».

كان هذا العصر مدهشاً مؤلماً للعالم الإسلاميِّ ، وكان مماثلاً في شيءٍ كثيرٍ بالنصف الأول من القرن السابع الهجري الذي قضى فيه التتار على السلطة الإسلامية بالهجوم على مدن العالم الإسلامي الرئيسية المخصبة ، ثم باحتلالهم فيها ، وأبدلوا عزَّة المسلمين بالذل والعار ، ولكن ذلك لم يكن إلا غارةً عسكريةً لشعبٍ شبه متوحشٍ لم يصمد في وجهه العالم الإسلامي المتمدِّن المترهِّل ، ولم تكن ترافقه فلسفةٌ فكريةٌ ، وحضارةٌ جديدةٌ ، وأفكارٌ وقيمٌ جديدةٌ ، ولكن غارة الأمم الغربية وبلدانها ـ التي تمَّت في الثلث الأول للقرن الرابع عشر الهجري وأوائل القرن العشرين الميلادي ـ اختلفت عنها كلياً؛ فقد رافقتها فلسفاتٌ جديدةٌ ، ونظامٌ جديدٌ للتعليم والتربية ، وأفكارٌ وقيمٌ جديدةٌ ، وجيشٌ هائلٌ جديدٌ للإلحاد والتشكيك ، ومذهبٌ جديدٌ للماديَّة.

ومما زاد الطين بلَّةً أنَّ الثورة البلشفية حدثت في مارس ١٩١٧ م ، التي لم تكن تتناول التاريخ والجغرافية والخريطة السياسية بالتغيير والتحريف فقط ، ولم تكن مقصورة في مجال الاقتصاد والسياسة فحسب إنما كانت تهدم أسس العقيدة ، والعمل ، والأصول ، والمبادىء ، والأخلاق ، والمجتمع ، بل أساس الحياة الإنسانية والشعور الإنسانيّ بأسره ، لكي تقيم على أنقاضه بناءً جديداً ، وكانت تهدف الإسلام والمسلمين بأضرارها وضرباتها أكثر من أي شيءٍ ، أولئك المسلمين الذين كانوا حاملي دينٍ إيجابيٍّ واضحٍ ، وخاتمٍ للأديان كلِّها ، والذين كان من بين واجباتهم الدينية «الحسبة على المجتمع البشري» ومع الأسف لم يكن هناك من يشعر بهذا الخطر الداهم في وقته ، ويقاومه إلا قليلاً . إنَّ المسلمين لم يثبتوا فراستهم

www.abulhasanalinadwi.org

الإيمانية التي كانت تتوسم أقلَّ الأخطار قبلها ، ولقد شعر بخطر «البلشفية» شعوراً صحيحاً في غربي العالم الإسلامي المؤمن المجاهد الغازي المرحوم أنور باشا وزير حرب تركيا سابقاً الذي أسَّس جبهةً قويَّةً ضد الشيوعيين بتنظيمه سكان تركستان. وقد وقعت عدَّة اشتباكات بينه وبين البلشفيين في الفترة بين ١٩٢١ ، ١٩٢٢ م وفي ٤ أغسطس ١٩٢٢ م شن غارةً بمقربةٍ من قرية «شكن» على كتيبة من القوات الروسية ، وكان عددهم كبيراً فاستشهد في هذا الغارة أنور باشا رحمه الله ، صادف ذلك يوم الجمعة ٧ من شهر ذي الحجة ١٣٤٠ هـ على الأغلب[١].

هذه الثورة البلشفية لم تشمل دول آسيا المتوسطة الخصبة التاريخية ذات السكان المسلمين ، وتركستان الروسية والصينية وحدها ، ولم تهدِّدها بالردَّة الفكرية والحضارية فحسب ، بل جعلت أجيالها الصاعدة في مواجهة الردة الإيمانية والعقائدية ، وأصبحت تعيد تاريخ الأندلس الذي حدث في القرن التاسع ، بل الواقع أنَّ الدول العربية ومركز الإسلام فضلاً عن شبه القارة الهندية أجبرت على مواجهة هذا الخطر الكبير ، وقد بلغ الأمر ببعض الدول العربية إلى أنها لم تكتف باستيراد السلاح والصناعات الجديدة منها ، بل استوردت فلسفتها وأيدولوجيتها ، وتحمَّست في حمايتها ، والدعوة إليها.

وبالأمس القريب تمَّ للسلطة الشيوعية الغزو العسكري في أفغانستان التي كانت تعتبر معدن الشجاعة الإسلامية ، والحميَّة الدينية ، والتي أتحفت الهند في كل عهد بإداريين أكفاء ، وحكامٍ وقادةٍ وعلماء ربانيين ، وكانت حصنها الخارجي ، وحارس حريتها الأمين ، وهكذا وصلت هذه الفتنة العالمية إلى أبواب شبه القارة الهندية.

ومن خلال هذا الظلام الحالك الذي عمَّ أواسط القرن الرابع عشر

---

(١) للاطلاع على تفاصيل دوافع أنور باشا الإسلامية وخدماته الجليلة راجع مقالة الأمير شكيب أرسلان الرائعة (الَّذي كان يعرفة معرفةً شخصية) في حواشي كتاب «حاضر العالم الإسلامي».

www.abulhasanalinadwi.org

الهجري ، حينما لم يكن يتراءى بريق أمل في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، بدت تباشير يقظةٍ جديدةٍ كما صورها إقبال في شعره الذي معناه :

«جرى دم الحياة في شرايين الشرق الميتة ، إنَّه لسرٌّ لا يستطيع أن يدركه ابن سينا والفارابي ، والواقع أن موجة الغرب الهائلة بعثت في المسلم حياةً من جديد ، ومن تلاطم أمواج البحر ترتوي الدرر في الأصداف» .

نشأ في العالم الإسلاميِّ وعيٌ سياسيٌّ بشكل بارزٍ في جانب ، ورفعت أعلام الحرية والاستقلال ضد الاستعمار الأجنبي في البلدان المتعددة ، مما أنتج استقلال مصر ، والشام (بجميع أجزائها) والعراق ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وقامت في إفريقية دولٌ مسلمةٌ جديدةٌ ، وتحررت إندونيسيا ، وماليزيا ، وتكوَّنت مملكة باكستان الإسلامية العظيمة ، وأسهم مسلمو الهند في حرب التحرير ، وقدموا فيها تضحياتٍ غاليةً كانت دليلاً على وعيهم السياسيِّ ، وحبهم للوطن ، حتى برزت على خارطة العالم السياسي أكثر من ٤٥ دولة مسلمة مستقلة ، ٢٤ منها تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ، وتخفق أعلامها على مبنى الأمم المتحدة الشامخ ، كما يتمتع المسلمون بوزنٍ خاصٍّ في الأمم المتحدة ، وفي المشكلات ، والمذاكرات العالمية ، وفي كفة ميزان العالم السياسيِّ أيضاً ، ولو أنَّ هؤلاء المسلمين نضج وعيهم السياسيُّ ، ونشأ فيهم شعورٌ بقوتهم السياسية ، وتمت لهم الوحدة ، لاستطاعوا أن يكفُّوا ألواناً من الجور والظلم ، وساعدوا كثيراً من الشعوب المضطهدة والدول الضعيفة ، ولو أنَّ الله سبحانه رزقهم قادةً مخلصين ، متعففين ، أو أكرم زعماء حكوماتهم بالتوفيق والهداية؛ لاستطاعوا أن يؤسِّسوا دولةً إسلامية صحيحة في بلدانهم الإسلامية ، ومناطق نفوذهم ، وينفِّذوا النظام الشرعي ، ويطبقوا القوانين الشَّرعية ، واستطاعوا أن يقيموا في حدود دولهم وأقطارهم مجتمعاً إسلامياً نموذجياً ، وبيئةً فاضلةً خلقيَّةً ، وروحانيةً مطيعةً لله وأحكامه ، شاعرةً بمسؤوليتها ، وواجباتها ، لا يوجد لها أمثلة إلا في صفحات التاريخ بمسافة قرونٍ ، وقد قطع منها العالم أمله بتاتاً ، وحتى المسلمين أنفسهم أغفلوها ، واستغنوا عنها ، وهي تكفي اليوم أيضاً لكي تنبّه الفكر الإنسانيَّ ، وتجبر المعسكرين

www.abulhasanalinadwi.org

الشرقيَّ والغربيَّ على التفكير في القضية جدِّياً ، وأن تمهد لنشر الإسلام طريقاً جديداً .

كذلك إذا عزم المسلمون على استعمال وزنهم وأهمِّيَّتهم السياسية في محلها ، وشعروا بمسؤولياتهم وواجباتهم شعوراً كاملاً ؛ لاستطاعوا أن ينقذوا تلك الإنسانية التي يتحكم فيها المعسكران الشرقيُّ والغربيُّ كما يريدان ، وإنَّهم في الهند كذلك لا يستطيعون أن يصونوا حقوقهم الملِّية فحسب بذكائهم ، وتضامنهم ، وقوتهم الخلقية ، بل يتمكنون من منحها قيادة خلقيَّةً ، وروحيةً ، مع إنقاذها من ذلك الدَّمار العام الذي يخطو إليها بخطواتٍ حثيثةٍ من أجل القلق السياسيِّ المتزايد ، وأزمة الأخلاق .

هذا وقد نشأت في العالم الإسلامي حركاتٌ ثوريةٌ فكريةٌ وإصلاحيةٌ على نطاقٍ أوسع وأقوى يتعذر وجود نظيرها في سعتها ، وقوَّتها في الأمس القريب ، ومن مزايا هذه الحركات الباعثة على الأمل أنَّها استطاعت التأثير في طبقة المثقفين ، وأهل التفكير والعقل (Intellectuals) وتوفير موادَّ علميةً واضحةٍ جذابةٍ لإقناعها ، وإعادة ثقتها بالإسلام في جانبٍ ، وفي جانبٍ آخر : فإنَّ نطاقها يتخطَّى الحدود الجغرافية ، وهي تغطِّي مساحةً واسعةً في العالم الإسلاميِّ ، كما أنَّ لها جانباً لامعاً آخر يسترعي الانتباه ، وهو أنَّ الشباب المثقَّف لأول مرةٍ في التاريخ لم يعجبوا بها فحسب ، بل إنهم تحمَّسوا في الدعوة إليها ، والانتصار لها أكثر من الشيوخ ، ومن يتقدَّمهم في السنِّ .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بحركة «الإخوان المسلمين» الحركة الإسلامية الكبرى في مصر ، والحركة النورية في تركيا ، وحزب التحرير في الأردن وفلسطين ، وحزب ماشومي في إندونيسا ، ودعوة التبليغ العالمية في شبه القارة الهندية ، والجماعة الإسلامية فيها ، ولا يشترط أن يوافق هذه الحركات أحد مئةٌ في المئة ، إلا إنه ممَّا لا يمكن جحده أنَّ لها من التأثير والسعة والقبول ما لا يستهان بقيمته ، كما أنَّ لشعر محمد أقبال القوي والباعث للروح والطموح (الذي يفوق في القوة والتأثير والشمول

www.abulhasanalinadwi.org

الأدب الإسلامي وشعره ، في القرون السابقة) سهماً كبيراً في بعث الإيمان والهمَّة والإباء بين الشباب المسلم والطبقة المثقفة.

ومع تقييم أساليب الدعوة والعمل الإسلاميِّ الذي تقوم به هذه المنظمات والجماعات الإسلامية ، وتقدير جهودها ، لا مانع من الإشارة - ولو في غاية الإجمال - إلى النقاط التالية التي يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية التي يتطلبها القرن الخامس عشر الهجري في ضوء الواقع وتجارب الماضي.

١ - تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الدِّينيِّ فيها ، فإنَّ تمسُّك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمُّسها له ، هو السُّور القويُّ العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثيرٍ من القيادات ، وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادَّة الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأيِّ غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية ، وأحسنها سلامة صدر ، وقوة عاطفة ، وإخلاص.

ذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحقُّ بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلُّب على المشكلات ، والانتصار على العدوِّ ، لتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كلِّ أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النَّار والدمار.

هذا مع تنمية الوعي الصحيح وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرَّر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسةً للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية ، والثقافية ، ولعبة القيادات الدَّاهية ،

www.abulhasanalinadwi.org

والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الدينيِّ ، والعقل الإيماني .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصوُّرات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنُّب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية ، والنظم الإنسانية ؛ لأنَّ هذه الحقائق الدينية ، هي أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السَّماوية .

والحذر من كل ما يقلِّل من قيمة الصلة بين الله والعبد ، والإيمان بالآخرة ، وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب ، والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحوُّل يفقد هذه الأمة شخصيتها ، وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كلِّ ما يقلِّل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجليِّ ، والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات ، والحكومات غير الإسلامية ، فإنَّ ذلك يتَّجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماويِّ إلى المنهج الجديد السياسيِّ .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعاطفة بالنبيِّ ﷺ ، والحبِّ العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل ، والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل ، والحذر من كلِّ العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنَّة ، وتجرؤاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكلِّ ما يحرك هذا الحب ويغذيه ، ولعلَّ البلاد العربية (بفعل أحداث ، ودعوات قومية) أحوجُ إلى العناية بهذه النقطة ، وأحقُّ بها من

www.abulhasanalinadwi.org

غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ، ونطق الرسول.

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية ، والتربوية ، والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام ، وقدرته ، لا على مسايرة العصر ، وتطوراته ، وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى برِّ السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشريِّ من الانهيار والانتحار؛ الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنَّه ليس «بطاريةً» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالةً قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها.

إنَّ ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داءُ هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسؤول عن كلِّ تصرفاتها ، وسبب الردَّة الفكرية ، والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق ، الواسع بين القيادات والحكومات ، والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات فيما لا يعود على الأمَّة والبلاد بفائدة.

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتَّفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، وبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادّياً : العلوم وحداتٌ متناثرةٌ متناقضة ، والطبيعة حرَّةٌ قاهرةٌ ، والتاريخ حوادث غير مرتبطةٍ ، خاضعةٍ لقلقٍ وصراعٍ دائمين ، وهكذا ، ولا يصلحه إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير

www.abulhasanalinadwi.org

ذلك لا يقوم العالم الإسلاميُّ على قدميه ، وبرأسه ، وعقله ، وإرادته ، وتفكيره ، ولا تدار الحكومات ، والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجالٍ مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومات والإدارة ، والتربية والإعلام ، والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه .

٦ ـ حركة علميَّةٌ قويَّةٌ دوليَّةٌ ، تعرِّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية ، وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن : أنَّ الفقه الإسلاميَّ وقانونه من أرقى القوانين ، وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساسٍ من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يومٍ من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتغنيها عن كلِّ قانونٍ وضعته أيدي الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية ، وفي مشاعر الأمة ، وأحاسيسها ، وتجريد أمةٍ عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها وكان في صياغتها نصيبٌ كبيرٌ للذوق الديني الخاص ، وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادفٌ لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة ، والطقوس الدينيَّة الضيِّق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلا بدَّ للحكومات الإسلامية ، والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدنيِّ الإسلامي المستقل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها ، وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومتنزهاتها ، وإلى حدٍّ في مكاتبها ، وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية ، والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوةٍ صامتةٍ للإسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلاميِّ حضارةً قويةً ، عصريةً ، مؤسسةً على الإيمان ، والأخلاق ، والتقوى ،

www.abulhasanalinadwi.org

والرحمة ، والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج ، والرفاهية ، وحبِّ الابتكار في جانبٍ آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمّتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غربٍ وشرقٍ ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميلٍ وقرينٍ؛ إن كان في حاجةٍ إلى أن يتعلموا منه كثيراً ، فهو في حاجةٍ إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

٩ - إقناع الحكومات - في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلاميِّ - المشغولة بحرب إبادةٍ للعنصر الإسلامي ، أو عملية «تطوير للإسلام» ، وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، وأنها سياسة عقيمةٌ لم تنجح في بلدٍ إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدوٍّ مشتركٍ ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة ، وإقناع الحكومات المسلمة - المسالمة للإسلام - بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجوِّ المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادةٍ ، وبركةٍ ، ونصرٍ من الله ، وسعيٍ لتكوين قيادةٍ موحدةٍ تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البرِّ والتقوى - والشعور بالتقصير على الأقلِّ - بعدم وجود الإمامة العامَّة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون ، وسيحاسبون عليها.

١٠ - أما البلاد غير الإسلامية : فالقيام بالدعوة إلى الإسلام ، والتعريف به بأساليب حكيمة تتَّفق مع طبيعة الإسلام ، وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة : فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية ، والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقيِّ ، والخواء الروحيِّ ، والتدهور الاجتماعيِّ الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومةً وشعباً ، حتى يتهيَّأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيَّأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغيِّ والقياديِّ في هذه البلاد.

إنَّ التاريخ شاخصٌ ببصره في مطلع هذا القرن إلى من يحقق مطالب

www.abulhasanalinadwi.org

العصر والإسلام التي شرحناها ، ويقوم بهذه التجارب الجريئة الحكيمة ، والمؤرخ ممسكٌ قلمه يسطِّر به سطور الثناء والإجلال ، ويقلِّده الزعامة الحقيقية في العالم الإسلاميِّ ، والعبقريَّة والعصاميَّة في التاريخ الإسلامي.

إنَّ الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنَّها لا تعيش ، ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنها ليست في هذا المجال ـ من تعاسة الحظ ـ حضارةٌ تحلُّ محلَّها ، وتسدُّ فراغها. إنَّ جميع الحضارات المعاصرة والقيادة الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إمَّا هي مقلدةٌ جامدةٌ وصورةٌ شاحبةٌ للحضارة الغربية ، وإما هي ضعيفةٌ هزيلةٌ ، مريضةٌ سقيمةٌ ، منسحبة منهزمةٌ ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة ، أو تقف معها جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلاميُّ بصورةٍ عامَّة لسدِّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القيادة؛ رُدَّ إليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرَّةً ثانيةً ، المنصب الذي لا يفوض إلا إلى أمَّةٍ فتيَّةٍ قويَّةٍ أبيَّةٍ تحمل كلَّ عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والازدهار! ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ما هو أولى لهم وأجدر بشأنهم : التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الإنسانية ، وهداية الشعوب الضالة التي لا كرامة ـ بعد النبوة ـ مثل هذه الكرامة؟ ذلك المنصب العالي الساميُّ؛ الذي تتلاشى عنده جميع هذه الألقاب والشارات ، والشعارات ، والهتافات ، والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والإغراءات الماديَّة الجنسية. إنَّها سلعةٌ غاليةٌ لا يخسر بها المشتري ، ولو ضحَّى بنفسه مئة مرَّةٍ.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام والمستشرقون

تعاليم الإسلام في الحكم الإسلامي بالعدل وإقامة الوزن بالقسط

ألقى العلامة الندوي ، هذه المحاضرة في مؤتمرٍ عقدته «دار المصنفين» في أعظم كره في الهند ، وذلك ما بين ٢٦ و٢٨ ربيع الآخر عام ١٤٠٢هـ ، الموافق ٢٢ ـ ٢٣ ـ من فبراير عام ١٩٨٢م ، بين يومي الأحد والثلاثاء ، في ساحة كلية شبلي الكبيرة .

بدأت جلسة المؤتمر الافتتاحية في الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأحد في ٢٦ من ربيع الآخر ، ٢١/ فبراير ، واختير الباحث الإسلامي الكبير فضيلة الدكتور العلامة يوسف القرضاوي رئيساً لهذه الجلسة ، ثمَّ قدَّم الأمين العام لمجمع دار المصنفين الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن كلمته الترحيبية ، وقد غصّت الساحة بممثلي الوفود والهيئات ومندوبي جامعات البلدان العربية .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ، والصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، أما بعد :

فإنَّ من أصعب العمليات وأشقِّها على المشتغلين بالتأليف ، والبحث ، والتحقيق ؛ الذين يعرفون قيمة العلم ومدى عناء المؤلف والباحث في تأليفه وبحثه ، وإجهاده للنفس ، واستنفاده لطاقته ومجهوداً في إخراج الكتاب في أتمِّ شكلٍ ، والوصول إلى نتائج علميَّةٍ ثابتةٍ ، هو الحكم على طبقةٍ أو جماعةٍ علميَّة حكماً قاسياً جائراً ، وغمط الحق معهم ، والطمس على محاسنهم إطلاقاً ، وقياسهم بمقياسٍ واحد .

ومن المعلوم أنَّ طبقة العلماء والباحثين الحقيقيين قديماً وحديثاً امتازوا من بين طبقات المشتغلين بصناعةٍ واحدةٍ ، والمشاركين في فنٍّ واحدٍ برحابة الصدر ، وسعة النظر ، وسلامة القلب ، والاعتراف بالفضل ، والاستفادة من مجهود الأولين ، بل المعاصرين ، بل من كان دونهم في السنِّ والطبقة ، وطول الممارسة لصناعة التأليف والبحث ، وإنَّ أكثر ما تتنافى هذه القسوة ونكران الجميل ، وجحد الحق والفضل ، تتنافى مع تعاليم القرآن وآداب الإسلام ، فالقرآن يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

ويقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة : ٨] .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٩] .

وإذا كان لا بدَّ من نقدٍ وتقييمٍ لعملٍ علميٍّ ، أو تحقيقٍ لباحثٍ والاختلاف عنه ، أو نقضه وتزييفه ، أو تبيين الخطأ فيه ، فليكن في أسلوبٍ علميٍّ ، ونقدٍ نزيهٍ ، وبنسبةٍ عادلة معقولة ، فالضرورات ـ كما يقول فقهاء الإسلام ـ تقدر بقدرها .

www.abulhasanalinadwi.org

اعتـرافٌ ببعـض جـهـود الـمستشـرقـيـن الـعلميـة الـمـوضـوعيـة:

لذلك أعترف بكلِّ وضوحٍ وصراحةٍ أنَّ عدداً من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسيةٍ ، أو اقتصادية ، أو دينيةٍ ، بل لمجرد ذوقهم ، وشغفهم بالعلم ، وبذلوا فيه جهوداً ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثيرٌ من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة ، وأصبحت مصونةً من الورثة الجاهلين ، وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علميةٍ ، ووثائق تاريخيةٍ لها مكانتها وقيمتها صدرت لأوَّل مرَّةٍ بفضل جهودهم وهمتهم ، وقرَّت بها عيون العلماء في الشرق .

يجدر بالذكر منهم ـ على سبيل المثال ومن غير استيعاب ـ البروفيسور ـ ت ـ و ـ آرنلد T.w. Arnold صاحب الكتاب القيم The Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) واستانلي لين بول Stanly Lane Poole صاحب كتاب Saladin (صلاح الدين الأيوبي) وMoors in Spain (العرب في الأندلس) والدكتور اسبرنجر Dr. Aloys Sprenger صاحب المقدمة الإنجليزية النفيسة لكتاب «الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني» طبع المجمع الآسيوي الملكي بكلكته ، وإدوارد لين (Edward William Lane) صاحب المعجم الكبير المنسوب إليه المعروف بـ(- Arabic English Lexicon) لشرح المواد العربية باللغة الإنجليزية شرحاً موسعاً ، يعتمد عليه ، ويستفيد منه كثير من علماء اللغة العربية والنحو ، طبعت ثلاثة من أجزائه التسعة بعد وفاته ، وا.ى ونسنك (A.J Wensinck) صاحب المعجم المفهرس العام التفصيلي الذي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة وكتب السيرة والمغازي المشهورة[1] ، ورتَّب كتابه على المعاني والمسائل العلمية والأعلام

(١) ليرجع إلى أهم أسماء الكتب وطريقة المؤلف في التأليف في مقدمات الكتاب.

www.abulhasanalinadwi.org

التاريخية ، ورتّب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ فؤاد عبد الباقي وسماه «مفتاح كنوز السنة» وقدَّم له العلامة السيد رشيد رضا ، والعلامة أحمد محمد شاكر.

وأشرف الأستاذ ونسنك كذلك على ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوية[١] الذي رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ، ونشره الدكتور في سنة ١٩٣٦م ، والاستفادة منه سهلة ميسورة جداً ، وقد جاء في هذا الكتاب في سبعة مجلدات كبار.

و ج. ب استرتنج (G. B. Strenge) صاحب كتاب Lands of The Easten Caliphate) (جغرافية الخلافة الشرقية).

وكلها مؤلفاتٌ وبحوثٌ[٢] تدلُّ على عناء المؤلفين ودراساتهم المغنية المخلصة للموضوع ، المتجردة ـ في أغلب الأحوال ـ عن العصبية الدينية ، ومجانبة الحق.

تصيُّد مواضع الضعف والعورات في كتابات كثير من المستشرقين:

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعملهم لا يمنعني شيءٌ في هذا المجلس العلمي الموقر ، من أن أصرِّح بأنَّ طائفةً كبيرةً من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية ، والحضارة ، والتاريخ الإسلامي ، وإبرازها لأجل غايةٍ سياسيَّةٍ ، أو دينيَّةٍ ، فكان شأنهم في ذلك شأن من لا يرى في مدينةٍ ذات بهجةٍ ونضارة ، ونظامٍ ونظافةٍ ، إلا مزابل ومراحيض ومستنقعات ، كما هو دأب مفتش الأوساخ والمياه المصرفة

---

(١) وهي التي وردت في الكتب الستة ، ومسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل.

(٢) اقتصر العلامة الندوي على مؤلفات المستشرقين بالإنجليزية التي خلت ـ بصفة عامة ـ من طعن في الإسلام وصاحب رسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتحريف الحقائق. ولم يتعرض للكتب المؤلفة في غيرها من اللغات الأوربية ، كالفرنسية ، والألمانية والهولندية ، لعدم معرفته بها معرفة شخصية.

www.abulhasanalinadwi.org

(Drain Inspactor) في البلديات وأمانات العواصم ، فرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارئ ـ بطبيعة الحال ـ إلا الحديث عن العفونات والأوساخ.

فنرى كثيراً من المستشرقين يركزون كلَّ جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام ومجتمعه ومدنيته ، حتى في ديانته وشريعته ، وتمثيلها في صورةٍ مروِّعةٍ مضخَّمةٍ ، إنهم ينظرون إليها عن طريق «المجهر» (Microacope) ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرَّة جبلاً ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في كثيرٍ من الكتابات في تشويه صورة الإسلام ، ويثيرون بذلك في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه ـ ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى ، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب شبهاتٍ حول الإسلام والمصادر الإسلامية ، ويحدثون في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظنٍّ بماضيه ، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم في رفع هتاف «تطور الدين» و«إصلاح القانون الإسلامي».

«الاستراتيجية» الاستشراقية الدقيقة:

ومن دأب كثيرٍ من المستشرقين أنَّهم يعيِّنون لهم غايةً ، ويقرِّرون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكلِّ طريقٍ ، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كلِّ رطبٍ ويابسٍ ـ ليس لها أيُّ علاقةٍ بالموضوع ، سواءٌ من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب والشعر ، أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهةً لا قيمة لها ، ويقدِّمونها بعد التمويه بكلِّ جرأة ، ويبنون عليها نظرةً لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم ، وأذهانهم.

إنَّهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه في النفوس ، بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة ، وذلك كي يقف القارئ خاشعاً مؤدباً أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن. إنَّهم يصورون بيئة دعوةٍ أو

www.abulhasanalinadwi.org

شخصيةٍ وتاريخهما وعواملهما الطبيعية بلباقةٍ وبلاغةٍ ، تصوران أنَّ هذه الدعوة والشخصية لم تكونا إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل وردَّ فعلها الطبيعي ، وكأنَّ البركان كان متهيئاً للانفجار ، فتناولته هذه الشخصية بشرارةٍ فانفجر ، فينكر القارىء أيَّ اتصالٍ بمصدرٍ غير ماديٍّ ، ولا يعترف لهذه الشخصية أو الدعوة بعظمةٍ ، أو تأييدٍ إلهيٍّ أو إرادةٍ غيبيَّةٍ[١] .

وكثيرٌ من هؤلاء المستشرقين يدسُّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من «السم» ويحترسون في ذلك ، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارئ ، ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إنَّ كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجلٍ متوسط في عقليته أن يخرج منها ، أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

اعتماد الأوساط العلمية والجامعات الشرقية على كتب المستشرقين :

ومما يدلُّ على ضعف العالم الإسلامي والعربي ، وفقر وسائلهما العلمية : أنَّ هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة ، منذ زمنٍ بعيدٍ ، وهي مؤلفاتٌ تحتلُّ مكانة «الكتاب المقدس» (Gospel) في موضوعها ، فإنَّ كتاب ر . ا . نكلسن (R. A. Nicholson) في موضوع تاريخ آداب العرب (A Literary History of Arabs) وكتاب الدكتور حتي (Dr P. K. Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارول بروكلمان (Carl Broklemann) في تاريخ الآداب العربية (Cescht Irder Arabichen Literatre) باللغة الألمانية وترجمتها إلى الإنجليزية باسم (The History Of Arab LIterature) وكتاب جولد تسيهر (Goldziher) في العقيدة والشريعة في

(١) وهذا كان شأنهم في تصوير العصر الجاهلي ، والجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية .

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام (Introduction Islamic Theology and Law) وكتابه «دراسات إسـلاميـة » (Muhammadanische Studien Halle) وكتـاب شـاخـت (Schacht) في مصادر الفقه الإسلامي باسم (The Origins Of Mohammadans Jurisprudence) وكتاب و ـ س ـ اسمث (W. c> smith) في الإسلام المعاصر واتجاهاته وحركاته ، (Islam In Modern History) وكتاب (Whither Islam (A. R. Gibb) (وجهة الإسلام) وكتب مونتجمري وات (Montjomery Watt) في السيرة النبوية (Mohammad In Mecca) محمد في مكة (Mohammad In MaDina) محمد في المدينة ، و(Mohmmad, Prophet and Statesman) (محمد كنبيٍّ وقائدٍ سياسيٍّ).

كل ذلك يخيَّل إليهم أنه مما ينفرد في موضوعه ، ويعدُّ مصدراً علمياً له أهميته وقيمته لجامعات الشرق في قسميها العربي والإسلامي ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين في قسم الدراسات الإسلامية (Islamic Studies DePartmen) في الجامعات .

إنَّ «دائرة المعارف الإسلامية» (Encyclopaedia of Islam) التي ألفها المستشرقون (ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) وصدرت منها طبعاتٌ متعددةٌ تعدُّ أكبر مصدرٍ للمعلومات والحقائق الإسلامية ، وأثمن ذخيرةٍ لها ، وتعبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم أساساً للمعلومات الإسلامية ، وتقوم بترجمتها إلى لغاتها بنصِّها وفصِّها ، وكان المتوقع المأمول منها أن تضع موسوعاتٍ إسلاميَّةٍ أصيلةٍ بقلم الباحثين المسلمين أصحاب الاختصاص في الموضوعات الإسلامية[1] .

لا بد من الاكتفاء الذاتي في البحث والتأليف :

ولسد تأثير المستشرقين السلبي وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام ورجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ،

(١) مما يجب الاعتراف به أن عمل جامعة بنجاب في لاهور (باكستان) في إخراج هذه الموسوعة يتسم بكثيرٍ من الأصالة والتنقيح والحذف والزيادة ، حتى أصبح الكتاب مستقلاً له قيمته العلمية .

www.abulhasanalinadwi.org

ويقدِّموا للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة ، ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازةً من حيث أصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر ، وتأكيد المصادر وصحتها ، واستدلالها القويّ ، بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملةً لجميع نواحي الإتقان والصحَّة ، بعيدةً عن الأخطاء والنقائص العلمية .

محاسبة كتابات المستشرقين العلمية :

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكِّرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ، ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم، وأخطائهم في فهم النصوص ، وبيان المعنى، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها ، وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها ، ويطلعوا على ما يضمر كثيرٌ منهم في نفوسهم من عداءٍ للإسلام ، وما يكنونه من أغراض سياسيَّةٍ ، ودينيَّةٍ في خفايا دعوتهم وتربيتهم، وكلُّ ذلك مؤامرةٌ على الإسلام والأمّة الإسلامية يجب إحباطها[١] .

لا بدَّ من عملٍ إيجابيٍّ بنَّاءٍ :

أما بدون الجمع بين هذا العمل الإيجابي الذي يقتضي تأليف كتبٍ تحليليةٍ ، وأبحاثٍ عميقةٍ حول المواضيع الإسلامية مع الإحالة إلى المصادر بضبط وإتقان ، والفهارس المفصلة المفيدة المتنوعة (وذلك كله مما يعتبر من خصائص المستشرقين) والإفادة من مواد لم تستخدم بعد ، وكتب ومظان لا يتبادر إليها الذهن ، وليست في صميم الموضوع ولا من التاريخ

(١) اطلع العلامة الندوي خلال زيارته للاهور في باكستان في يوليه ١٩٧٨م على مشروع البروفيسور ظفر علي القريشي ، في جمع ما كتبه المستشرقون عن السيرة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام ونقدها بشكل علمي ومحاسبتها والردِّ عليها ، وقد أعدَّ الأستاذ ظفر علي بحثاً قيماً في هذا الموضوع في اللغة الإنجليزية يمتد على آلاف الصفحات .

www.abulhasanalinadwi.org

«الرسمي» الذي يدور حول البلاط ، والأسر الحاكمة ، والحروب ، والحوادث الجسيمة ، وكلُّ ذلك مع تحرٍّ للدقَّة والوجازة والبعد عن التنميق والاستطراد ، وبين العمل العلميِّ ، وهي المحاسبة العلمية في أسلوبٍ علميٍّ نزيهٍ ، وكلامٍ وقور رزينٍ ولفظٍ موزونٍ بعيدٍ عن التهكم والتنكيت ، والتجني والافتراض ، فإنَّ كلَّ ذلك يُفْقِد النقد قيمته العلمية ، ووقعه النفسي ، وبدون الجمع بين هذا وذاك لا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة وسيطرتهم العلمية ، تلك الطبقة التي تعدُّ من أذكى الطبقات في العالم الإسلاميِّ ، وأكثرها طموحاً ، والتي تدرس في جامعات أوربا ، وأميركا الكبرى ، أو في جامعات بلادها ، وتحبُّ دراسة الإسلام بلغات الغرب التي تتقنها .

والفراغ في ناحية من نواحي الحياة البشرية وحاجاتها لا يبقى طويلاً ، وهو مخالف لسنة الله في خلقه والفطرة البشرية ، فيسد ذو الحاجة حاجته بشيءٍ سقيمٍ إذا لم يجد شيئاً سليماً ، وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة ـ التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه ـ من سيطرتهم ، لا تزال الأقطار الإسلامية تواجه عاصفة الاضطرابات العقلية ، والردَّة الفكرية ، ويتبنى حملة التجديد والتغريب أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية ، حاولوا تطبيق كلِّ ما ينافي روح الإسلام على المجتمع ، وتنفيذه في الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعاً لا يشبه المجتمع الإسلامي القديم إلا في الجنسية والقومية ، ولكنه مجتمعٌ أجنبيٌّ يتَّجه نحو الغرب والمادِّيَّة في الحقيقة والواقع ، ويصحُّ عند ذاك أن يخاطَب قادةُ العالم الإسلامي وعلماؤه بالبيت الفارسي الذي معناه : مهلا أيها الأعرابي! فإنَّ الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى تركستان ، وأنت تريد الكعبة! .

استعراضٌ إجماليٌّ للعمل الإسلاميِّ في مجال البحث والتحقيق في العالم الإسلامي في العصر الحاضر :

فهل تحقَّق هذا الأمل؟ وهل قام الباحثون الإسلاميُّون والكتَّاب المسلمون باللغات الأوربية ذات النفوذ العالمي ، بدورهم وواجبهم في هذا

www.abulhasanalinadwi.org

الاتجاه؟ إنَّه يحتاج إلى استعراضٍ أمينٍ محايدٍ ولو إجمالياً، حتى نعرف الأشواط التي قطعناها، وبرأنا بها ذمَّة الله وذمَّة الإسلام، وهنا نظرةٌ إجمالية على بعض المنجزات في هذا المجال.

لا يخفى على القارىء الخبير أنَّ العالم الإسلامي ـ ولا سيما بلاده الأربع تركيا، ومصر، وإيران، والهند ـ اضطر أن يواجه منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحي، الحضارة، والثقافة، والأفكار، والفلسفات، والمثل الغربية. إنَّ هذه الأوضاع، وتلك الحقائق المشار إليها كانت كفيلةً بوفرة الإنتاج، وكثرة وضع الكتب عالية المستوى بأرقى اللغات الأوربية، وأوسعها نطاقاً في كلِّ الدول والمجتمعات الإسلامية المواجهة على الأقل في شرح العقائد، والأصول، والقوانين، والحضارة، والثقافة الإسلامية، وفي تاريخ العهود الإسلامية الذهبية، وعهود قيادة المسلمين السياسية، ونظام الحكم الإسلامي، والاقتصاد الإسلاميِّ، وفلسفة الإسلام الأخلاقية، وكانت كفيلة بأن تتخذ لهذه الأقطار اللغة الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الهولندية[1] على الأقل وسيلةً للبحث والتحقيق، ونقد الحضارة الغربية، وإبانة مواضع الضعف فيها، وعرض محاسن الإسلام، وأن يستخدم أبناؤها المسلمون الملكات الخطابية، والكتابية في هذه اللغات على المستوى الكبير، وتتكَّون فيها مكتبةٌ واسعةٌ في مدَّة قصيرةٍ تمدُّ الشباب المسلم بالثقة بالذات والإباء، والشعور باكتفاء الإسلام الذاتيِّ في جميع مجالات الحياة، وترغم المفكرين الغربيين، والطبقة المثقفة في أوربا وفي أميركا، والمستشرقين عامَّة على الدراسة الجادَّة للإسلام على الأقل ـ إن لم تستطع أن تبعثهم على الدخول في حظيرة الإسلام ـ وتحدث سيلاً جارفاً من الأبحاث الإسلامية، والإنتاج الأدبي واللغوي، تصطدم أمواجه القوية بجدران الجامعات الشهيرة في العالم في أوربا، وأميركا، وكندا.

---

(١) هذه هي اللغات الأربع التي كثرت فيها المؤلفات والبحوث في الموضوعات الإسلامية.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان من المتوقع أن يجعل هؤلاء البارعون في اللغات الأوربية من أبناء الإسلام جامعاتهم غنيةً بالمواد والأبحاث فيما يتَّصل بالتاريخ الإسلاميِّ والقوانين الإسلامية ، واللغات الشرقية ، وآدابها ، ونقدها ، وتاريخها ، وأنَّهم لا يدعون الدارسين في هذه المواضيع الحسَّاسة عالةً على أيِّ نكولسون (Nicholson) وعلى أيِّ براؤن (Browne) وعلى أيِّ حتي (Hitti) في دراسة التاريخ الأدبي والسياسي والحضاري لبلاد العرب وإيران ، ولا على أيِّ جولدتسيهر (Goldziher) وعلى أيِّ شاخت (Schacht) فيما يتَّصل بدراسة الشريعة الإسلامية وتاريخ تدوين الحديث والفقه ، ولا على أيِّ مارغوليوث (Morgolioth) في دراسة لغة القرآن الكريم ، وعلومها ، وآدابها ، وشعرها ، ولا على أيِّ بروكلمان[1] (Brockelman) فيما يتعلق بالاطلاع على الحركة التأليفية والكتابية في العهد الإسلامي ، والتراث الإسلامي العلمي ، وإنتاجات المسلمين العلمية ، ومجهوداتهم القلمية .

إنَّ كلَّ ذلك لا يقف سدّاً منيعاً فحسب ، أما الرِّدة الفكرية التي تكاد تكتسح الشباب الإسلاميَّ المثقَّف الذَّكيَّ والتي كانت تنتشر في البلاد التي كانت مستعمراتٍ غربيةً ، انتشار النار في الهشيم ، بل يفتح الباب على مصراعيه في أوربا لمد الدعوة الإسلامية ، وللتعرُّف بالإسلام ، والقرآن ، والسيرة النبوية ، وبالتالي يجذب من أراد الله به خيراً من سكان هذه الرقعة من أرض الله إلى عين الإسلام الصَّافية ، وحصنه المنيع .

قلة الإنتاج العلمي التحقيقي في الدول المواجهة ، في اللغات الغربية :

كلُّ الدلائل كانت تشير إلى أنه سيبتدىء في العالم الإسلاميِّ عهدٌ جديدٌ للبحث والتحقيق ، والتصنيفي المواضيع الإسلامية ، وأنَّ اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية بصفة خاصَّةٍ ، ستعد زاخرةً بالمؤلفات ذات المستوى العالي التي سيؤخذ الأوربيون والأميركان أنفسهم بعذوبة

---

(١) مع الاعتراف بمجهوده الكبير وقيمته العلمية والاستفادة منه .

www.abulhasanalinadwi.org

لغتها ، وجمال أسلوبها ، وقوة استدلالها ، ولباقة عرضها للمواد ، وقدرة مؤلفيها التأليفية والكتابية.

ولكن من الحقائق المؤلمة أن أبدي في هذه المناسبة التاريخيَّة التي تجمع بين خيرة رجالات العلوم الإسلامية ، وبين النوابغ في اللغات الشرقية ونقّادها؛ استغرابي العلمي والتاريخي من عدم تحقُّق هذا الرجاء، ذلك الذي يبعث المؤرخ الأمين الواسع الأفق، الواسع الاطلاع على العجب والعجاب.

ميزة الهند من بين الأقطار المواجهة:

وكانت الهند في طليعة دول المواجهة الإسلامية والغربية ، حيث تمكنت بريطانيا ـ أقوى ممثلٍ للحضارة الغربية ، والعلوم والثقافة الغربية ، وأشدُّ تحمساً لها ـ من بسط سيطرتها السياسية الكاملة على الهند منذ وقتٍ مبكرٍ ، على حين كانت بلادٌ أخرى تتأثر بالحضارة والثقافة الغربية عن طريقٍ غير مباشر عن وكالاتها الأدبية والثقافية ، إضافة إلى ذلك أسس السيد أحمد خان المرحوم ـ الشخصية القوية المؤثرة ـ فعلاً بعد عام ١٨٥٧م مؤسسةً ثقافيَّةً في «علي جراه» (Aligarh) باسم «مدرسة العلوم» كان الإشراف عليها ـ عقليّاً ، وثقافيّاً ، وخلقيّاً ـ بأيدي الأفاضل الإنجليز المحنكين ، أمثال المستر بيك ، (Mr. Beek) والمستر موريسون (Mr. Morison) والمستر آرجبول (Mr. Archibold) وتحولت في ١٩٢١م إلى جامعة ، وقد جذبت إليها الشباب الذكي في شبه القارة الهندية ـ من خليج بنغال إلى مضيق خيبر ـ جذب المغناطيس للقطع الحديدية.

رغم ذلك كلِّه كان الشعب الإسلاميُّ الهنديُّ أرهف شعوراً دينيّاً [1]،

---

(١) ومما يدل على ذلك أنَّه ألف حاكم الولاية الشمالية في الهند ، وهي كبرى الولايات ، وأرقاها ـ السير وليم ميسور (Sirwallian Muir) كتابه الشهير بالإنجليزية (Life of Mohammed) (حياة محمد) وكان فيه تحاملٌ على السيرة النبوية ، ومسخٌ لبعض الحقائق ، لم يتمالك السيد أحمد خان الذي كان من أكبر الدعاة إلى التعليم الحديث الغربي ، والاقتباس من الحضارة الغربية ، وكان بينه وبين الحكم الإنجليزي ورجاله صداقةٌ وثقةٌ متبادلةٌ ، فنهض للردِّ عليه ، وسافر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م إلى =

www.abulhasanalinadwi.org

وأرقَّ وعياً إسلاميّاً ، وأشدَّ غيرةً على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى ، لأسبابٍ لا تعنينا بهذه المناسبة ، يدلُّ على ذلك مساهمتهم القوية بعد حركة الخلافة ، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة ، وبشعائرهم الدينية ، فكان إنتاجها في هذا المجال أكثر من الإنتاج ـ في اللغات الأجنبية ـ في أقطارٍ إسلاميةٍ أخرى ، وإن كان أقلَّ من الواجب المطلوب .

في مجال نقد النصرانية على الأسس العلمية :

وكان من نتائج هذه الغيرة الدينية التي يمتاز بها الشعب المسلم الهندي ومبادرته إلى قبول تحدِّيات التبشير ـ وبالأصح التنصير ـ التي وجهت إلى شبه القارة الهندية ، بعد قيام الحكم الإنجليزي المسيحي ، المنتصر الثائر الموتور ، أن وضعت أفضل الكتب وأقواها في الردِّ على المسيحية ، ونقد العهد القديم ، والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) في الهند ، فقد واجه الشعب المسلم الهندي الدعوة المسيحية وجهاً لوجه ، وخاض هذه المعركة قبل أن يواجه هذه الدعوة ويخوض هذه المعركة شعبٌ آخر في قطرٍ إسلاميٍّ أو عربيٍّ .

وقد قيَّض الله لقيادة هذه الحركة الهجومية ـ لا الدفاعية ـ خيرة رجال هيؤوا نفوسهم لهذا العمل الخطير الدقيق الذي تشاغل المسلمون عنه (العلماء والمؤلفون) قروناً لعدم توفر الدواعي ، وما يضطرُّ إلى ذلك ، في مقدمتهم وعلى رأسهم العلامة المجاهد الشيخ رحمه الله الكيرانوي (١٢٣٣ ـ ١٣٠٨هـ) وقد تهيَّأت عنده جميع المؤهلات العلمية ، والجدلية ، والوهبية ، لإنجاز هذا العمل ، إلا معرفة اللغة الإنجليزية ، والاطلاع على المصادر الأجنبية بطريقٍ مباشر ، هنالك ساق الله إليه مسلماً غيوراً هو الدكتور محمد وزير خان الأكبر آبادي الذي سافر إلى لندن سنة ١٨٣٢م

= لندن لجمع المواد وباع لذلك بعض أثاثه ومتاعه وألف كتابه المشهور «خطبات أحمدية» الّذي هو من أحسن كتبه ، ولعلّها كانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في العالم الإسلامي ، وإن كانت خطوةً بدائيةً تتصف بكلّ ما تتسم به المحاولات الأولى في البحث العلمي .

www.abulhasanalinadwi.org

يدرس الطبَّ الجديد ، وقد نال فيه شهادةً عالية ، وأتقن اللغة الإنجليزية ، ودرس اللغة اليونانية ، وعني بدراسة المسيحية من مصادرها الأصلية ، واقتناء كتبها ، واستصحب هذه المكتبة الثمينة إلى الهند فاستفاد منها الشيخ كل الاستفادة ، وهنالك قرر مناظرة القس فندر (Dr. c. G Pfander) الذي تحدَّى علماء المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، وألف كتابه «ميزان الحق» وظنَّ ألا قبل للمسلمين به[١] ، وقامت هذه المناظرة التاريخية في / ١١ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠/ من إبريل ١٨٥٤). في أكبر آباد آكره إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية ، وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند ، وفي حيٍّ من أحيائها المعروف بحارة «عبد المسيح»[٢] وحضرها ولاة المديرية ، وموظفو الثكنة الإنجليزية من الإنجليز ، وعددٌ كبيرٌ من أعيان البلد ووجهائه ، أسفرت هذه المناظرة عن اعتراف «القس فندر» بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل ، وتزايد عدد الحاضرين في الغد ، وازداد عدد الحكام الإنجليز والمسيحيين والهنادك والسيخ ، وظهر ضعف «فندر» في المناظرة وتعنته ، ولم يرجع القس إلى المناظرة في اليوم الثالث وأصبح شعاراً له أنه إذا علم بوجود الشيخ في مكان غادره.

وقد ألف الشيخ رحمه الله كتابه «إظهار الحق»[٣] على اقتراح الخليفة العثماني السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا ، وكان الشيخ قد هاجر إلى مكة المكرمة عقب ثورة ١٨٥٧م وزار القسطنطينية سنة ١٨٦٤م على طلب من خليفة المسلمين ، فألفه في الآستانة سنة ١٢٨٠هـ ، وقد آثر في هذا الكتاب خطة الهجوم كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ، واعتمد في الكتاب على

---

(١) صدرت للكتاب الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة ١٨٤٩م من أكره، والطبعة الثالثة بالأردوية سنة ١٨٥٠ ، والترجمة الإنجليزية سنة ١٩١٠م.

(٢) لعلها باسم متنصر تسمى بهذا الاسم النصراني.

(٣) وللشيخ رحمه الله ثلاثة كتب أخرى في نقد النصرانية ، وإثبات الإسلام وهي «إزالة الأوهام» و«إزالة الشكوك» و«أصح الأحاديث في إبطال التثليث».

www.abulhasanalinadwi.org

التناقضات الواضحة ، والبديهات الجلية من الأخطاء التي لا تقبل التأويل ، واستخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان ، ووضع عقيدة التثليث في النصرانية على محكِّ العقل ، ونقدها نقداً علمياً ، وأضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم ، وإثبات أنَّه كلام الله ، والسيرة النبوية ، وذكر المعجزات والبشارات التي وردت في شأن النبيِّ ﷺ . نقل الكتاب إلى عدَّة لغات أوربية ، وقد كتبت كبرى صحف إنجلترا (London Times) تعليقاً على هذا الكتاب «لو دام الناس يقرؤون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم»[١] .

وألَّف علماء مسلمون آخرون في الهند كتباً ذات قيمةٍ علميةٍ ونقدية كبيرة في الردِّ على المسيحية ، ونقد «الكتاب المقدس» ، منهم العلامة السيد آل حسن الموهاني (١٢٨٧هـ) صاحب كتابي «الاستفسار» و«الاستبشار» والشيخ عنايت رسول الجرياكوتي (١٣٢٠هـ) صاحب كتاب «البشرى» (وكان قد درس اللغة العبرانية وأتقنها) .

وساهم في هذا العمل الشيخ عبد الحق الحقاني صاحب التفسير المشهور باسمه ، والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء ، والقاضي محمد سليمان المنصور فوري ، والسيد نواب علي اللكنوي صاحب كتاب «تاريخ الصحف السماوية» ومولانا ثناء الله الأمر تسري .

وهكذا تكوَّنت أكبر مكتبةٍ وأكثرها قيمةً علميةً في الردِّ على النصرانية في الهند ، لأسبابٍ دعت إلى ذلك ، ولشدة غيرة المسلمين على دينهم ، وصمودهم أمام هجمات الديانات الأخرى الدعوية والعلمية .

حصاد قرنٍ كامل :

لو اعتبرنا بداية العهد فيما يتصل بإقبال الشعب المسلم الهندي على اللغة الإنجليزية ، والعناية بتعلُّمها وتحصيلها ، عام ١٨٧٥م ، حيث أسست «مدرسة العلوم» في «علي جراه» ونسقط من الحساب عام ١٧٥٧م ،

---

(١) ملخصاً من تقديم العلامة الندوي لكتاب «إظهار الحق» طبعة قطر سنة ١٩٨١م .

www.abulhasanalinadwi.org

حينما ذاق المسلمون هزيمةً شاملة على يد الاستعمار الإنجليزي ، وكانوا مذعورين بفعل الغزو والفتح الإنجليزي المتتابع ، ونعتبر النهاية سنة ١٩٨١م ، وقد أنجبت خلال هذه المدة كلية (m. A. o. College) والجامعة الإسلامية فيما بعد رجالاً كانوا يتميزون بغيرتهم الإسلامية ، وحميتهم الدينية ، واقتدارهم على اللغة الإنجليزية ، كأبنائها؛ وجدنا كتباً مؤلفةً باللغة الإنجليزية هي قليلة الغدد بالنسبة إلى مدة أكثر من قرن ، ولكنَّها كبيرة القيمة ، وكثيرة العدد بالنسبة إلى أقطارٍ إسلاميَّةٍ أخرى .

بعض مؤلفات الكتاب الهنود المسلمين الإنجليزية الممتازة:

ونجد في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وأوائل القرن العشرين مؤلفين باللغة الإنجليزية يضعون في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية كتباً يؤخذ برشاقة لغتها أبناء اللغة الإنجليزية أنفسهم، ويستقطبون اهتمام الغرب بغناء مقالاتهم ، وقيمة موادِّها ، وجمال عرضها ، على رأسهم وفي مقدمتهم السيد أمير الذي ألف كتابه (The Spirit of Islam) (روح الإسلام) الذي لا يسعنا أن نتفق مع جميع الأفكار والآراء التي أودعها فيه ، ولكنه أثار الإعجاب والتقدير في الأوساط العلمية والأدبية في إنجلترا ، وأرغم عدداً وجيهاً من المثقفين الإنجليز الأفاضل على الاعتراف بصدق الإسلام وحقيقته ، وقد قال عنه المستشرق آسبورن (Osborn).

«إنَّ هذا الكتاب يستحقُّ الإعجاب حقّاً ، وقد كُتب بأسلوبٍ يدلُّ على ملك كاتبه لناصية اللغة الإنجليزية ، أسلوبٍ قلَّ من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوبٍ خلا من العيوب التي وقع فيها مثقفو الهنود. . . ويجب أن يهنأ مسلمو الهند بأن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، ومن المستحيل على من فاتحة أعماله هذا الكتاب ألا يكون له في مستقبله أثرٌ فعالٌ عميقٌ في قوته ، أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه في كثير من مسائله ، وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد»[١].

---

(١) «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ص ١٤٠ للدكتور أحمد أمين.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد ظل كتابه (A short History of The Saracens) (تاريخ العرب المختصر)[١] موضع القبول والعناية إلى مدَّةٍ طويلةٍ بفضل سلاسة لغته، ورشاقة كتابته، وما يتسم به من الاعتدال والاتزان.

والمؤلف الثاني المسلم الذي تجاوزت شهرته الهند، هو «صلاح الدين خدابخش» الذي نقل عدداً من الكتب في الموضوعات الإسلامية من الألمانية إلى الإنجليزية. أمَّا كتبه التي وضعها بالإنجليزية فمن أشهرها المجلد الثاني من كتاب (Contribution To The History of Islamic Civilizatin) (مساهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية) وكتابه (,Essays India Islanic[٢] (مقالاتٌ في الهند والإسلام).

ولكنَّ المؤسف أنَّ كثيراً من آرائه نال معارضة من المثقفين الذين كانت لديهم معرفةٌ صحيحةٌ بالإسلام وبتاريخه.

وكانت سمة كتابات الكتَّاب المسلمين بالإنجليزية في هذه الردحة من الزَّمن (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) البارزة، الإعجاب الزائد بالغرب، وبالفلسفة الغربية، والعلوم الطبيعية، التي كانت لا تزال إلى هذا العهد تقطع مراحل الطفولة، والتأويل البارد المتطرِّف للحقائق الغيبية والمعجزات النبوية، وأنباء ما وراء العقل، والمحاولات المتكلَّفة للتوفيق بينها وبين المعلومات العصرية، والمبادي الطبيعية، والتوفيق بين روح الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أضف إلى ذلك كله أنَّ أكثر هذه الكتب قد وضعت بالأساليب الدفاعية الاعتذارية (Apologetic).

وبعد هؤلاء المؤلفين إن كان هناك من المؤلفين باللغة الإنجليزية من يجدرون بالذكر بفضل علو كعبهم، وقيامهم بعملٍ تأليفيٍّ وكتابيٍّ قيم، استرعى انتباه العالم، واستفاد منه رجال العلم في أوربا، وأحالوا عليه في

---

(١) طبع جامعة كلكته، ١٩٣٠، والمجلد الأول ترجمة كتاب وان كريمر (Von Kremer) من الألمانية.

(٢) تأليف ١٩١٢م.

www.abulhasanalinadwi.org

مؤلفاتهم وكتاباتهم فهما للعلامة محمد إقبال صاحب كتاب «الصياغة الجديدة للفكر الديني في الإسلام»[١]. (Reconstruction of Religious Thought Islam) الذي هو مجموع محاضراته التي ألقاها بمدينة «مدراس» بالهند. مما يبعث على التفكير الجديد، ويزخر بالمواد القيمة ـ رغم بعض الآراء الشاذة التي يتضمنها، والتطرف الفلسفي في تفسير بعض العقائد، والحقائق الدينية[٢]، وقد أعاره رجالات الفكر في أوربا أهميةً بالغةً، واقتبسوا منه في كتاباتهم، كما لقي ما قام به العلامة عبد الله يوسف علي من ترجمة القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، إعجاباً كبيراً، وقبولاً نادراً بفضل نقاء لغتها، وحلاوة موسيقاها، وقوة عرضها، وجمال أسلوبها ـ في أوربا وأميركا، وظهرت لهذه الترجمة طبقاتٌ كثيرةٌ في باكستان، والمملكة العربية السعودية، والبلاد الإسلامية وغير الإسلامية الأخرى أيضاً.

وكذلك عرفت الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم التي قام بها (M.M. Pickthall) بفضل عذوبة لغتها، وأسلوبها، وخصائصها التي تتميَّز بها، وقد قوبلت بحفاوةٍ، وتحبيذٍ، وإقبالٍ، على أنها لا تخلو من الأغلاط.

وسيكون من الإجحاف وغمط الحقوق ـ ونحن في سبيل الحديث عن التراجم الإنجليزية للقرآن الكريم ـ ألا أتعرض لقيمة ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية للأستاذ الكبير المرحوم عبد الماجد الدريابادي ـ الكاتب الأردي الكبير ـ وقيمة هذه الترجمة في الواقع هي تلك التعليقات الغنية التي هي نتيجة دراسةٍ موسَّعةٍ عميقةٍ للديانات وللمصادر اليهودية والمسيحية، وقد استخدم الأستاذ هذه الدراسة لتقرير حقيقة ما يتضمنه القرآن من حقائق وعلوم، ولإثبات إعجازه وتأكيده، الأمر الذي يتميز به الأستاذ المغفور له من بين جميع المترجمين المعاصرين، ومن المؤسف أنَّ هذه الترجمة لم

---

(١) وقد نقله إلى العربية باسم «تجديد الفكر الديني في الإسلام» الأستاذ عباس محمود، وطبع في مصر، كما ترجم الكتاب إلى اللغة الأردوية.

(٢) وقد اعترض على ذلك العلامة الأستاذ السيد سليمان الندوي، ونبه عليه العلامة الندوي في مقدمة كتابه «روائع إقبال».

www.abulhasanalinadwi.org

تقدِّر حقَّ قدرها ، وما أولتها الأوساط العلمية من العناية ما تستحقه[١] .

عمل الجماعة الأحمدية في مضمار التأليف والدعوة:

وقد كان للجماعة الأحمدية التي كان يقودها ويرأسها الأستاذ المعروف بمولانا محمد علي اللاهوري[٢] نشاطٌ ملحوظٌ في تأليف كتبٍ في الإنجليزية للتعريف بالإسلام ، والسيرة النبوية ، تحلُّ من الطبقة المثقفة الجامعية في الهند وغيرها محل القبول والرضا في لغةٍ إنجليزية لا بأس بها ، وبالأسلوب العصري ، كان في طليعة هؤلاء المؤلفين الأستاذ محمد علي اللاهوري المذكور رئيس الفرع ، فأصدر ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية .

وقد أقبل على قراءتها عددٌ كبيرٌ من المثقفين الجدد في الهند وخارج الهند ، وهي تحمل تفسيراً وتعليقاتٍ بقلمه ، وشغف بها كثيرٌ ممَّن لم يتعمق في الفهم الديني ، ولم يجد من الكتب الإسلامية الموضوعة في ذلك العهد في اللغة الإنجليزية ما يسدُّ حاجته ، ويرضي نهامته للقراءة ، إلا أن تفسيره وتعليقاته على هذه الترجمة يغلب عليها اتجاه تفسير المعجزات والأمور الغيبية بالأمور الطبعية والحوادث العادية ، إلى حدِّ التطرف والإغراق ، ولو أبى ذلك اللغةُ العربيةُ واللفظ الصريح ، ويغلب عليه الخضوع الزائد للمقررات الطبعية التي كانت لا تزال في دور التحول والتطور ، وله كتاب في السيرة النبوية باسم (Muhammad The Prophet) قرىء في شبه القارة الهندية وخارج الهند في نطاقٍ واسع ، وأعجب به

(١) وقد قام بنشر هذه الترجمة شركة تاج (Tuj Copany) وأصدرت طبعتها الأولى ، ويقوم المجمع الإسلامي العلمي في ندوة العلماء مسروراً ومشكوراً بإصدار الطبعة الثانية المنقحة لهذه الترجمة .

(٢) وهو رئيس الفرع اللاهوري المنشق عن الجماعة القاديانية (التي تؤمن بنبوة المرزا غلام أحمد في صراحة ووضوح) ويؤمن هذا الفرع بأن المرزا غلام أحمد كان مجدداً للقرن الرابع عشر والمصلح الأكبر ، ويعتقد أنَّه المسيح الموعود ، وعلى ذلك تلتقي الطائفتان ، ويعتبرهم المسلمون جميعاً أقليةً غير مسلمة ، وعلى ذلك صدر القرار الرسمي من باكستان ، راجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» فصل الفرع اللاهوري . طبع عن دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

الشباب المثقف وأساتذة الجامعات؛ الذين لم يكونوا يجدون كتاباً آخر في السيرة، يكشف لهم عن عظمة النبوة المحمَّدية والرسالة الإسلامية، ويصور لهم البيئة والملابسات التي جاءت فيها، وعن دورها في الإصلاح، ويوجز لهم الحوادث التي مرت في الحياة الكريمة، وذلك كله يدلُّ على ضرورة وجود الكتاب الإسلامي الذي يشبع به الناشئون والمثقفون رغبتهم في معرفة الإسلام وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، فإذا لم يجدوا الشيء الكامل المثالي أشبعوا رغبتهم من الشيء الموجود الميسور.

ويلي الأستاذ محمد علي اللاهوري زميله وقرينه الداعية الإسلامي المعروف في إنكلترا والخطيب المصقع بالإنجليزية خواجه كمال الدين صاحب كتابي (The Ideal Prophet) (النبي المثالي)، و(Sources of Christianity) (منابع المسيحية) وقد كان على نفس شاكلة صديقه وأميره الأستاذ محمد علي في الاعتقاد في المرزا غلام أحمد وإجلاله له، وهو صاحب مركز (Woking Mission) في لندن.

المؤلفون المعاصرون:

وإذا صرفنا النظر عن هذه الطبقة، فالذي طبق صيتُ عمله العلمي الشرقَ والغربَ، إنما هو صديقنا الفاضل الدكتور حميد الله الحيدرآبادي الهندي النزيل حالياً «بباريس» وهو صاحب الترجمة الفرنسية لمعاني القرآن الكريم التي نالت قبولاً واعتماداً في الأوساط العلمية الفرنسية، وأخصُّ بالذكر من مؤلفاته بهذه المناسبة كتابين، الأول «التعريف بالإسلام» (Introduction to Islam) والثاني «محمد رسول الله» (Mohammad Rasoolullah) الكتابان اللذان عن طريقهما استطاع آلاف المسلمين الناطقين باللغة الإنجليزية وحدها أن يعرفوا ويفهموا الإسلام ونبيه ﷺ والتطور[1]، وله كتابٌ في

---

(١) اقرأ أمثلته ونماذجه العجيبة في كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» في الفصل الثالث «الفرع اللاهوري عقيدته وتفسيره».
ومن الحقائق العلمية والتاريخية التي يجب أن تسجل أن الزعيم السيد أحمد خان رائد التعليم الغربي في الهند، ومؤسس الجماعة الإسلامية في علي جراه، هو الّذي شق=

www.abulhasanalinadwi.org

السيرة النبوية باسم (Muhammad the عليه وآله وسلم ، لكن الذي يدل على جلالة شأنه ، وطول باعه ، وسهره على البحث والتحقيق ، والجهود المضنية وإعمال التفكير الطويل ، هو كتابه «صحيفة همام بن منبه» Sahifa Hammam bin Munabbih الذي أكد فيه بحجج لامعة أنَّ عملية جمع الحديث وتدوينه قد بدأت في عهد النبوة ذاته ، ودامت مستمرةً حتى عهد أصحاب الصحاح والسنن ، ولا تتخللها فترةٌ أو فجوةٌ زمانيةٌ ، وقد قام الأستاذ من خلال وضع كتابه هذا بخدمةٍ قيّمةٍ لا للحديث فحسب ، بل للإسلام ، تستوجب الاعتراف والتقدير والشكر من أبناء الإسلام.

ولا يسعنا أن نغضَّ البصر عن خدمات الأستاذ الدكتور مصطفى الأعظمي في هذا الصدد ، الذي أيّد رأي الدكتور حميد الله بوثائق تاريخية ، وقام بتصعيد عمل الدكتور من خلال الكتاب الذي وضعه باسم (StuDies in Early Hadith LIterture -) وعضد الدعوى بتفصيلٍ أكثر ، ودليلٍ أقوى ، ويعد كتاب الأستاذ ايم ـ اي شوستري (Outlines of Islam Culture) وتأليف الدكتور برهان أحمد فاروقي (the Mujaddid,s Conception of Tauhid) إضافةً قيّمة إلى المكتبة الإسلامية.

ولا بأس أن ندرج في قائمة المؤلفين باللغة الإنجليزية على المواضيع الإسلامية ـ مع الاعتراف والتقدير ـ الحافظ غلام سرور ، والدكتور السيد عبد اللطيف الحيدر آبادي اللذين قاما بترجمة القرآن باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى أعمالهما الأخرى ، وسير مين جنك ، والدكتور مير ولي الدين ، والدكتور عبد المعيد خان ، والأستاذ ظهير الدين الفاروقي[1]

= هذا الطريق وسبق إليه في تفسيره للقرآن ، وكل من جاء بعده اقتطف منه ، وسار على منهجه ، ووفاق عليه في كثر من الأحيان كما هي العادة في مثل هذه الاتجاهات.

(١) له كتاب جيد عن الإمبراطور أورنك زيب عالميكر الملك المسلم الّذي احتدم النقاش حوله واتخذ غرضاً للهجوم والاتهامات في الأوساط الهندكية الطائفية ومؤلفات المؤرخين الهندوس والإنجليز، واسم كتاب الأستاذ الفاروقي (Auyangebc HisAge) «أورنك زيب وعصره».

www.abulhasanalinadwi.org

والسيد مظفر الدين الندوي[١] والحاج مولانا فضل الكريم ، والسيد أطهر حسين ، والسيد محيي الدين ، لكن ذلك كله لا يغطي المساحة الزمانية التي تمتد على قرنٍ كاملٍ ، وتبتدىء من ١٨٧٥م وتنتهي إلى ١٩٨١م.

بعض مؤلفات الكتَّاب «المهتدين» القوية:

ومما يبعث على العجب ، ويدلُّ على قوة الإسلام وإعجازه ، وقدرته على الغزو العلمي ، أنَّ رجلاً حديث العهد بالإسلام وضع كتابين باللغة الإنجليزية ، هما من أحسن الكتب التي تبعث الإيمان ، وتشحذ الروح ، وتغذِّي القلب ، وتفيض بروح الثقة والاعتزاز ، أعني محمد أسد الذي كان يتسمى قبل أن يتشرف بالإسلام ، (Leopold Weis) وهو ألماني ينحدر من سلالة يهودية ، وقد أثار كتابه الأول «الإسلام على مفترق الطرق» (Islam At The cross Roads) اليقظة الفكرية ، وروح الثقة واليقين عبر العالم الإسلامي ، لا عبر آسيا فحسب ، فلا نعلم كاتباً ولا كتاباً منذ عهدٍ بعيد يدافع عن السنة النبوية ، والحضارة الإسلامية هذا الدفاع القوي الذي يقوم به هذا الكتاب ، كما أنه لا نجد كاتباً أوربياً تحدَّث عن نقط الافتراق والاختلاف فيما بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية في هذا الوضوح والتفصيل والدِّقَّة ، وتناول الحضارة الغربية بهذا النقد اللاذع المرِّ المدعم بالدلائل والوثائق ، وقد وضع الأستاذ محمد أسد هذا الكتاب خلال إقامته بالهند ، وقد نقله الأستاذ عمر فروخ إلى اللغة العربية باسم «الإسلام على مفترق الطرق» وظهرت له طبعات.

أمَّا كتابه الثاني فهو (Road to Mecca) الذي استُقبل في أوربا وأميركا بحفاوةٍ وإقبال ، وقرىء بشوقٍ ورغبةٍ ، تحدَّث فيه المؤلف عن فضل الحضارة الإسلامية ، وشمولية الإسلام وعظمته بلباقةٍ وقدرةٍ ، وحاول محاولةً موفَّقةً ـ من خلال تصوير جزيرة العرب والمجتمع الإسلامي ، ومجتمعات الدول الإسلامية تصويراً دقيقاً ـ أن يثبت فضل المجتمع

---

(١) هو صاحب كتاب (Muslim Thuoght & Source) «الفكر الإسلامي ومصدره».

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامي والحضارة الإسلامية في أذهان الأميركان والأوربيين في طي الحديث عن التجارب التي مر بها في رحلته الصحراوية ، وأثناء القيام «بمهنته الصحافية» التي من أجلها تجشم هذا السفر الطويل الخطر ، وذلك كله في ثوبٍ قشيبٍ من لغته الأدبية الرفيعة ، ونقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية باسم «الطريق إلى مكة» وترجمه إلى اللغة الأردية فقيد الدعوة الإسلامية المرحوم الأستاذ محمد الحسني على سماحٍ من المؤلف ، ونشره المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ[1] ، وظهرت ترجمته إلى اللغة الهندية أيضاً.

ولا يمكن التغاضي بمناسبة الحديث عن المؤلفات الإنجليزية ، على المواضيع الإسلامية التي دبجها قلم السيدة مريم جميلة الحديثة العهد بالإسلام ، وهي امرأة أمريكيةٌ فاضلةٌ ، مثقفةٌ ثقافةً واسعةً ، وكانت تعرف قبل أن يكرمها الله سبحانه بالإسلام بـ (Margaret Marcus) إنَّ كتاباتها تتأسس على دراسةٍ عميقةٍ لتاريخ الحضارة الغربية وانطلاقٍ وتحررٍ كامل عنها بل وثورةٍ شاملةٍ عليها ، وكتاباها (Islam Versus the west) «الإسلام إزاء الغرب» و(Islam & Modernism) «الإسلام والتجدُّد» من أهم الكتب التي تمتاز بأصالة الفكر والدراسة ، وعمق النظر ، وتنمُّ عن الفهم الإسلامي ، والاستقلال الفكري في نقد الحضارة الغربية ، وتقييم حركات التجدد والتغريب.

المجمع الإسلامي العلمي وإنتاجه:

ومن أحدث المجامع العلمية سناً وأكثرها إنتاجاً (وخاصة في اللغة الإنجليزية) «المجمع الإسلامي العلمي»[2] في ندوة العلماء بلكهنؤ ، الذي قام في سنة ١٩٥٩م ، وكان المقصود من هذه المؤسسة إعادة الثقة في الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام ، ليس للبقاء والاستمرار ، بل

---

(١) بعنوان «طوفان سي ساحل تك» مع مقدمة للعلامة الشيخ الندوي.

(٢) يعرف بالإنجليزية (The Acalemy Of Islamic Reserarch & Publicatin).

www.abulhasanalinadwi.org

لقيادة الركب البشريّ ، وحلّ المعضلات العصرية ، والإيمان الجديد القويّ بصاحب هذه الرسالة ـ ﷺ ـ وبأنه هو «خاتم الرسل» وإمام الكلّ ، ومنير السبل ، وسيرته وتعاليمه ، والدراسات المقارنة ، والبحوث العلمية التي تجمع بين التعبير الصحيح عن الإسلام ، وإقناع العقل الجديد ، وقد بدأ كنواةٍ صغيرةٍ بإمكانياتٍ محدودةٍ ، لا تتصور لمثل هذه المشروع العلمي الأكاديمي الواسع ، وقد قام في فترة تقلُّ عن ربع قرن بنشر ١٥٥ كتاباً في لغات مختلفة ، منها خمسون (٥٠) في الإنجليزية ، وأكثر من ستين (٦٠) في الأردية ، وسبعة وثلاثون (٣٧) في العربية وستة (٦) في اللغة الهندية .

ومن أجدر مطبوعاته بالذكر ترجمة كتاب «السيرة النبوية» لصاحب هذا البحث باسم ـ (Mohammad Rasulullah) وكتاب «الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة» و«الدراسة المقارنة» باسم (Four Pillars of Islam) وترجمة كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» باسم (Western Civilization Islam and Muslims) وترجمة كتاب «الصراع بين الإيمان والمادية» باسم (Religion & Civilization) وكتاب «بين الدين والمدنية» باسم (Religion & Civilization) وكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» باسم (Islam & the World) وسلسلة كتب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» باسم (Saviours of Islam Spirit) (١ ـ ٢ ـ ٣) وترجمة كتاب «القادياني والقاديانية» باسم (Qadianism A critiCil study The Musalman).

وهذه الكتب كلها بقلم صاحب هذا المقال ، أمّا لغيره : فقد نشر المجمع ترجمة كتاب «خطبات مدارس» «الرسالة المحمدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، باسم (Muhammad The Ideal Prophet) وكتاب في الخلفاء الراشدين للسيد أطهر حسين ، باسم (The Glorious Caliphate وسلسلة كتب «معنى الحديث ورسالته» للعالم الشهير الشيخ محمد منظور النعماني منشىء مجلة «الفرقان» (Meening and Message of the Traditions وكتاب «ما هو الإسلام؟» (what Islam is?) وكتاب «الدين والشريعة» باسم (Islam, Faith and Practice) وكتاب «بماذا يحدِّث

www.abulhasanalinadwi.org

القرآن؟» له أيضاً باسم (The Quran and you) ورسالة القرآن (The Messaq of Quran) للسيد أطهر حسين.

هذا ما عدا كتب في التاريخ والأدب كترجمة كتاب «روائع إقبال» باسم (Glory of Iqbak) وكتاب «الهند في العهد الإسلامي» للعلامة السيد عبد الحي الحسني باسم (India During Muslim Rule) و«هندوستاني مسلمان» باسم (Muslims in India) وكتاب في سيرة الإمام السيد أحمد الشهيد، وحركته الإصلاحية والجهادية الكبيرة باسم (Saiyid Ahmad Shahid) للسيد محيي الدين، عدا مجاميع محاضرات ألقيت في أوربا وأميركا، كحديث مع الغرب باسم (Speaking Plainly to The west) وأحاديث صريحة في أميركا باسم (From The Depth of Heart in America).

وقد اقتصرنا على الكتب التي نشرت في اللغة الإنجليزية، وقد كان للدكتور محمد آصف القدوائي، والسيد محيي الدين الفضل الكبير في نقل أكثر هذه الكتب إلى اللغة الإنجليزية الأدبية العصرية[١]، وقد كان للدكتور محمد آصف القسط الأوفر في هذا العمل العلمي الأدبي[٢]، وقد نالت هذه الكتب والترجمات رضاً وإعجاباً في الأوساط العلمية والدعوية وفي القارات الثلاثة: أوربا، وأمريكا، وإفريقية، ولا يزال لها طلب وعليها إقبال في هذه القارات يصعب على المجمع الإسلامي العلمي ـ بإمكانياته المحدودة ـ تحقيقه ومسايرته.

الإنتاج العلمي التحقيقي الكبير في اللغة الأردية:

هذا كلُّ ما تحدثت عنه من الإنتاج العلمي أو العمل الأكاديمي في مقاصد إسلاميةٍ وموضوعاتٍ علمية، الذي تم في القرن العشرين الميلادي، وكان كله أو جله برز إلى الوجود في شبه القارة الهندية قبل التقسيم، إلا النزر القليل الذي تم بعده، إنما يختص باللغة الإنجليزية.

---

(١) يستثنى من ذلك كتاب (Rallanism) ترجمة الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري.

(٢) قال للعلامة الندوي بعض أدباء الإنجليزية: إنَّ ترجمة كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بالإنجليزية مثال رائع للترجمة، قلّ ما يوجد له نظير.

www.abulhasanalinadwi.org

أمَّا إذا تخطينا حدود اللغة الانجليزية ، فأخذنا اللغة الأردية بعين الاعتبار ، اللغة التي كانت ولا تزال اللغة العلمية الراقية الثانية بعد اللغة الإنجليزية ، ولغة التأليف والتفاهم بين المسلمين بصفةٍ عامة ، ولغة التعارف في الولايات الهندية ، والتي يدرسها ويفهمها عددٌ لا يستهان به من المثقفين الهنادك ، فمما يجب الاعتراف به وتسجيله للتاريخ والأجيال الصاعدة: أنَّ الإنتاج العلميَّ المؤسس على الدراسة العميقة ، والجدية والأصالة ، وغزارة المادة والقيمة العلمية ، كان أضخم وأعظم فيها من كلِّ لغةٍ من لغات العالم الإسلامي ، وكان للعلماء المتخرجين في «المدرسة (بأوسع معانيها) الدينية الشرقية العربية» الدور القيادي في هذا النشاط العلمي والفكري ، واليقظة الإسلامية والجهاد المعنوي الذي كان في بعض الأحيان أفضل الجهاد في هذا الصراع الفكري ، والقلق النفسي الذي كان يعانيه الشباب المسلم الجامعي ، بل في زمن الردَّة الفكرية والحضارية ـ والردَّة العقائدية في بعض الأحيان ـ التي كانت تغزو شبابنا المتخرج من الجامعات الأوربية ، بل الجامعات الهندية كذلك ، نقول ذلك في ضوء الدراسة المقارنة المحايدة الدقيقة ، وفي ضوء الواقع والشهادات.

العلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي ومجمع «دار المصنفين»:

ويسعدني ، ويحلو لي أن أقول ذلك وأعلنه في مكانٍ كان له ولمؤسسه العظيم وزملائه الفضلاء وتلاميذه النجباء فضلُ الانتباه لأهميته ، وخطره ، وضرورته ، والدعوة إليه ، والبدء به ، أعني: «دار المصنفين» التي نلتقي على صعيدها ، ونعقد هذه الندوة العلمية العالمية فيها. وكان أول مجمع علميٍّ تحقيقيٍّ شعبيٍّ أنشىء في العالم الإسلامي (في حدِّ معلوماتنا) لمواجهة خطر الغزو الفكري، وكتابات المستشرقين المغرضة ، ولإقناع الشباب المثقف بفضل تعاليم الإسلام ، والتعرف بالشخصية النبويَّة الجليلة ، وبسيرتها، والجيل الذي تربى في أحضانها، وبقيمة الثروة الإسلامية العلمية.

ولما أصدر الأستاذ جرجي زيدان كتابه المشهور «تاريخ التمدُّن

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامي» من مصر في أوائل القرن العشري كان له دويٌّ في الأوساط العلمية ، وقد كان في كتاب جرجي زيدان ـ رغم غزارة المادة ، ووفرة المعلومات ـ تجنٍ على الخلفاء الأمويِّين والعباسيِّين ، وتحريفٌ لبعض الحقائق التاريخية ، وإعادةٌ لأسطورة حرق مكتبة الإسكندرية الخرافية؛ ثارت في العلامة النعماني الحميَّة الإسلامية ، ولم يمنعه ثناء المؤلف عليه وإشادته بخطره[1] ، ولا بعد المكان ، عن تناوله بالنقد العلمي المدعم بالدلائل والوثائق ، وألَّف كتاب «الانتقاد على التمدن الإسلامي» بالعربية سنة ١٩١٢م وتلقته الأوساط الإسلامية العلمية في الهند ومصر بالشكر والرضا والقبول[2] .

وقد خلفت مدرسة شبلي التأليفية آثاراً لامعةً من البحث والتحقيق والدراسة المضنية ، والاتزان الفكري ، وسداد الرأي ، وإصابة التفكير ، والتعمُّق والإمعان ، بجانب سعة الاطلاع ، ووفرة المعلومات ـ فيما يتَّصل بالمباحث والدراسات الإسلامية الأولى ـ وللمتخرجين فيها الدور الطليعي في ذلك ، لأنهم حازوا قصب السبق فيه ، فقد اختاروا من الأساليب اللغوية ، والمناهج الأدبية ، والبيانية ما يتفق مع المباحث العلمية الجادة كلَّ الاتفاق ، ويوجد فيها من الحلاوة الأدبية والكتابية ، والرشاقة الإنشائية ـ بكميتها الصحيحة ، ونسبتها المعتدلة ـ ما كان لا بدَّ منه لاستقطاب الشباب والجيل المعاصر الذي نشأ ، وتربَّى في المحيط الأدبي ، والبيئة المولعة بانتقاء اللغة ، وتنقيح مناهج الكلام إلى أمثال تلك المباحث العلمية والتاريخية الجافَّة ، وقد كان لكتاباتهم فضلٌ كبيرٌ في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد والمقررات الدينية ، وبالحضارة والثقافة الإسلامية ، وبتاريخهم الزاهر ، وبلغتهم وآدابهم ، وفي إحياء الاعتداد بالنفس ، والثقة بالذات ، وإزالة «مركب

(١) الجزء الثاني من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي مقدمة الطبعة الأولى ص ٢٦٠ .

(٢) صدر الكتاب عن مطبعة آسي بريس لكهنؤ طبع الحجر في ٨٢ صفحة طبع الحجر وصدر أخيراً بعناية المحقق عن دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

النقص» الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في ١٨٥٧م ، وأصَّلته الثقافة الغربية ، والغزو الفكري الأوربي.

ثم إنَّ كتاباتهم تتميَّز بالأصالة (Origenality) ، والنزاهة ، والتجرُّد ـ إلى حدٍّ كبير ـ من التطرُّف ، وسوء الفهم ، ذلك الذي ينشأ طبيعياً من الدراسة غير المباشرة ، ومن المعلومات الحاصلة بالوساطة ، وبطريقٍ غير مباشرة، والذي وقع ـ ولا يزال يقع ـ فريسته المستشرقون ، ورجالاتُ العلم والبحث في أوربا ، وتلاميذهم في الشرق والغرب. . . وذلك بفضل تعمُّق هؤلاء العلماء والمؤلفين في اللغتين العربية والفارسية ، وتحصيلهم للعلوم الإسلامية ، وتخرجهم فيها بطريقٍ منظَّمٍ ، واطلاعهم المباشر على المصادر ، والمراجع الإسلامية الأصلية ، واقتدارهم على الاستفادة منها ، والرجوع إليها متى شاؤوا.

وكان من أكبر مآثر العلامة شبلي النُّعماني صاحب فكرة «دار المصنِّفين» ومشروعها[١] ، البدءُ بتأليف سيرة النبي على صاحبها الصلاة والسلام في إطارٍ أوسع ، وفكرةٍ أشمل وأكمل مما جرى عليها مؤلفو السيرة في الزمن القديم والحديث ، وقد وسَّعها ومدَّها تلميذه وخليفته النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي ، فأكملها في سبعة أجزاء ، الجزء الأول من هذه السلسلة بكامله بقلم العلامة شبلي النعماني ، والجزء الثاني فيه زيادات من تلميذه العلامة السيد سليمان الندوي ، والأجزاء الباقية كلها بقلمه السيَّال وبيانه السلسال ، وتفصيله: إنَّ المجلد الثالث يتعلق بالدلائل والمعجزات ، والرابع خاص بمنصب النبوة ، ويبحث عن حقيقة منصب النبوَّة وخصائصها ، وعن واقع العالم المتمدِّن والجزيرة العربية عند

(١) كانت «دار المصنفين» (المجمع العلمي التحقيقي) أمنية العلامة شبلي النعماني العزيزة ، وقد خطط ، ووقف لها أرضاً من ملكه ، ولكن لم يمهله الأجل ، فقام بإنشائها وإبرازها إلى حيِّز الوجود تلميذه وخليفته العلامة السيد سليمان الندوي في نوفمبر ١٩١٤م.
وكان العلامة حميد الدين الفراهي (عبد الحميد الفراهي) رئيسها الأول ، وكان الشيخ مسعود الندوي مديرها العام والمسؤول عن المكتبة والأمور الإدارية.

www.abulhasanalinadwi.org

البعثة ، ويبحث في العقائد الإسلامية في تفصيل ، والخامس خاص بالعبادات البدنية والمالية والقلبية ، والجزء السادس يشتمل على التعليمات الخلقية ، وفلسفة الأخلاق في الإسلام. وهو من البحوث التي تعتبر من مزايا هذا الكتاب ، أما السابع الأخير فيبحث عن المعاملات والسياسة ، وهكذا أصبح الكتاب موسوعةً في السيرة وتعاليمها وآثارها.

ومنها كتاب العلامة النعماني في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المعروف «بالفاروق»[١] الذي يعدُّ من الآثار الأدبية الخالدة ، ومثالاً للإنشاء البليغ القوي ، الذي غرس في قلوب كثيرٍ من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حبَّ الإسلام ، وبذور الإيمان ، وأصبح حافزاً لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية ، الفكرية والحضارية ، وعرض نموذجاً عصرياً راقياً ـ كان المثال المحتذى ـ في تأليف سير الرجال والعظماء ، وذلك في كتبه «الغزالي» و«جلال الدين الرومي» و«المأمون» و«الإمام أبو حنيفة النعمان» وصاغ تلاميذه التاريخ الإسلامي الذي كاد يكون مهجوراً ، أو مطموراً في بطون الدفاتر ، صياغةً جديدةً تتفّق مع الأسلوب العصري ، والمنهج الفكريِّ الجديد ، وذلك في ضمن كتب «أسوة الصحابة» و«سير المهاجرين» و«وسير الأنصار» و«سير التابعين» وغيرها[٢].

وإذا كانت قيمة بحثٍ علميٍّ وكتابٍ جليلٍ تتمثل في موادِّه ، وغنائه بالمعلومات المستندة إلى الدلائل العلمية القوية ، المبنية على التحليل والاستعراض ، المنتقاة من الوثائق والشواهد ، والحجج اللامعة ، فإنَّه يمكن القول بكلِّ تأكيد ، إنَّ «شعر العجم» للعلامة شبلي النعماني في تاريخ الشعر الفارسي ، وتحليله ، ونقده ، وتراجم شعراء إيران ، وكتابيه: «الجزية في الإسلام» و«حقوق الذميين» اللذين يبحثان في حقيقة الجزية الإسلامية وحقوق الذميين ، وواجباتهم في الإسلام ، وكتابيه القيمين:

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ جليل الحفناوي ، وطبع حالياً بالقاهرة.

(٢) انظر للاطلاع على ترجمة العلامة النعماني ومآثره القيمة في مجال العلم والتأليف كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري».

www.abulhasanalinadwi.org

«مكتبة الإسكندرية» و«نظرة على أورنك زيب عالمكير». اللذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة والعامة، ويكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة(١). إنَّ هذه الكتب من أعلى نماذج كتابة التاريخ، والنقد العلمي؛ والدراسات التحليلية.

ثم يأتي بعد ذلك دور العلامة السيد سليمان الندوي أنبغ تلاميذ العلامة شبلي النعماني، ومن كبار أبناء ندوة العلماء ونوابغها، فيضع كتاب «أرض القرآن» وهو أول كتاب في لغةٍ شرقيةٍ إسلاميةٍ على جغرافية أرض النبوات وعهد القرآن، بحث فيه عن تاريخ العرب، وحروبهم قبل الإسلام، وموجات الهجرة من الجزيرة العربية، وإليها، وعن ألسنتهم، وأديانهم، وتجارتهم، وطرق حضارتهم، ألَّفه سنة ١٩١٥ م وقد استفاد فيه من المصادر الأجنبية في توسُّع، وكتاب «عرب ومندكي تعلقات» (الصلات بين العرب والهند) و«عربون كي جهان راني» (الملاحة عند العرب) و«خيام» الكتب التي هي وليدة بحثٍ دقيق، ودراسةٍ موسعةٍ، وغوصٍ في أغوار المكتبة الإسلامية الغنية الزاخرة، وشغفٍ منقطع النظير بالعلم والبحث والاطلاع، والاستفادة، والتوسُّع والتعمُّق في المعلومات، وعلى ذلك فهي تمثِّل النمط العلميَّ، والأدب العالي الذي يحقُّ لِلُّغة الأردية، وللجيل الجديد، أن يفتخرا به.

إنَّ «عمر خيام» كان مفخرة إيران، ومن نوابغ شعرائها، وكبار علماء العلوم الرياضية فيها، لكنها ـ إيران ـ لا تستطيع أن تقدِّم كتاباً يضارع هذا الكتاب ـ في قليلٍ أو كثير ـ في إزاحة اللثام عن جوانب عظمة هذا النابغة، ومآثره العلمية. وفي الدراسة المضنية التاريخية الموضوعية.

أما كتابه «خطبات مدراس» الذي نقل إلى اللغة العربية باسم «الرسالة

(١) كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين للاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية مدخلاً واسعاً للشبهات حول الإسلام وحضارته أيام حكمه ومعاملته لمن كان تحت حكمهم، وكان لا بدَّ من العناية بعرض التاريخ الصحيح، ودحض الشبهات، ونفي الافتراءات.

www.abulhasanalinadwi.org

المحمدية»[١] فهو من أقوى ما كتب في السيرة النبوية ، والرسالة المحمدية ، وأكثره تركيزاً ، وأغزره مادةً ، وأشده تأثيراً ، وكذلك كتابه «سيرة عائشة» من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، وفي سيرة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها .

وقد فاق العلامة السيد سليمان الندوي أستاذه أحياناً في سعة الدراسة ، والاطلاع على المصادر الحديثية والفقهية ، والتزام ما عليه الجمهور من أهل السنة من المسلك في المسائل الخلافية والكلامية ، ولكلٍّ درجات[٢] .

وقد التفَّت حول العلامة السيد سليمان الندوي ـ روح هذه المؤسسة العظيمة وقطبها ـ مجموعةٌ من الكتاب الإسلاميِّين ، والمؤرخين الباحثين ، أكثرُهم من متخرجي دار العلوم ندوة العلماء التي كانت ، ولا تزال ، تمدُّ هذه المؤسسة بأبنائها النجباء، نكتفي هنا في هذه العجالة بذكر الكاتب القدير البحاثة الشيخ عبد السلام الندوي[٣] صاحب كتاب «أسوة صحابة» الذي تلقي بالقبول في الأوساط الدينية العلمية و«شعر الهند» و«حكماء الإسلام» وغيره من الكتب ، والعالم الجليل الشيخ عبد الباري الندوي أستاذ الفلسفة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، صاحب البحث القيم في المعجزات النبوية من زاوية الفلسفة الحديثة والعلوم العقلية المدرج في الجزء الثالث من سيرة النبي ﷺ ، وكتابي «بين الدين والعقل»[٤] و «بين الدين والعلم»[٥] والأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوي ، والكاتب

---

(١) نقله الأستاذ محمد ناظم الندوي إلى العربية ، وصدرت له عدة طبعات في البلدان العربية .

(٢) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٣) يعتبره كثير من النقاد أشبه تلاميذ العلامة شبلي النعماني بأستاذه في الأسلوب والبيان واللغة .

(٤) اسمه في الأردوية «مذهب وعقليات» وقد نقله إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوي بعنوان «بين الدين والعقل» .

(٥) اسمه في الأردوية «مذهب وسائنس» نشره المجمع الإسلامي العلمي ، في ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند).

www.abulhasanalinadwi.org

الأديب الناقد والمؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوي ، والأستاذ الباحث السيد رياست علي الندوي ، والأستاذ السيد نجيب أشرف الندوي ، والشيخ سعيد الأنصاري ، والشيخ عبد السلام القدوائي الندوي ، والأستاذ مجيب الله الندوي ، والأستاذ ضياء الدين الإصلاحي ، وأخيراً لا آخراً المؤرخ الأديب ، والكاتب الكبير ، السيد صباح الدين عبد الرحمن مدير دار المصنفين حالياً ، ورئيس تحرير مجلة «المعارف» التي كانت ولا تزال تعدُّ أرقى المجلات العلمية التي يصدرها مجمعٌ علميٌّ في شبه القارة الهندية ، وللبحوث والمقالات التي تنشر في هذه المجلة قيمةٌ كبيرةٌ في الأوساط العلمية .

ندوة المصنفين في دلهي :

وقد قام بعد دار المصنِّفين (التي قامت سنة ١٩١٤م) مجمعٌ علميٌّ آخر باسم «ندوة المصنِّفين» في دلهي ، مُنشئها ومديرها سماحة الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني ، وقد نشأت عام ١٩٣٨م ، وكان من أصحاب فكرتها والذين يرجع إليهم الفضل في نشوئها الزعيم المسلم المجاهد المرحوم الشيخ حفظ الرحمن سكرتير جمعية العلماء سابقاً ، وهي تصدر مجلةً علميةً شهريةً هي مجلة «برهان» يرأس تحريرها فضيلة الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي ، ولها مطبوعاتٌ قيِّمةٌ حازت القبول والتقدير في الأوساط الإسلامية العلمية ، وقد تجاوزت منشوراتها مئة كتابٍ في علوم القرآن والحديث والسنة ، والأخلاق والتربية ، ونظام الإسلام السياسي والاقتصادي ، وتاريخ البلاد ، وتاريخ الفقه ، وتاريخ التصوُّف الإسلامي ، وأئمته ورجالاته في الهند[١] ، وفي التراجم والسير ، يعدُّ عدد منها فريداً في موضوعه ، وذا قيمةٍ علميةٍ ، وتحقيقيةٍ كبيرةٍ .

---

(١) من أهمها كتاب «ترجمان السنة» في أربعة أجزاء للعالم الكبير الشيخ بدر عالم الميرتي و«قصص القرآن» للشيخ حفظ الرحمن و«الرق في الإسلام» و«صديق أكبر» للأستاذ سعيد أحمد الأكبر إله آبادي «وتاريخ مشايخ جشت» للأستاذ خليق أحمد نظامي .

www.abulhasanalinadwi.org

كـتـاب وبـاحـثـون آخـرون:

وقد لمعت أسماء بعض المؤلفين الباحثين خارج هاتين المؤسستين العلميتين الكبيرتين ، وصدرت لهم كتبٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ في موضوعها ، من أشهرها مولانا أبو الكلام آزاد الزعيم المسلم المشهور ووزير التربية الأسبق في الجمهورية الهندية ، صاحب ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الأردية المعروفة «بترجمان القرآن» مع تعليقاتٍ ذات قيمةٍ علميةٍ وأدبية وبعض بحوثٍ مبتكرةٍ ، والكتاب رغم أنه لم يكمَّل فقد أثر في الطبقة المثقفة تأثيراً قوياً ، وقرَّبها إلى دراسة القرآن ، والاعتراف بإعجازه ، وذلك لمستوى الكتاب الأدبي الرفيع ، والأسلوب البليغ القويّ ، والعلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني صاحب كتاب «النبي الخاتم» و«تدوين الحديث»[١] و«نظامنا التربوي القديم» و«نظام الاقتصاد الإسلامي» و«حياة الإمام أبي حنيفة السياسية» وغيرها ، والأستاذ عبد الماجد الدرياآبادي ، صاحب «محاضرات وبحوث في القرآن» ، وكتاب: «التصوُّف الإسلاميُّ» والعلامة عبد الرؤوف الدانافوري صاحب كتاب «أصحُّ السير» و«الإسلام والقضايا المدنية» والأستاذ الكبير السيد أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند صاحب كتاب «الجهاد في الإسلام» الذي أصدرت طبعته الأولى «دار المصنفين» سنة ١٩٣٠م وكتاب «الحجاب في الإسلام» و«مسألة الربا» ، ومجموع مقالات في نقد الحضارة الغربية وقيمتها ومثلها المعروف «بتنقيحات» ومجموع مقالات أخرى في موضوعات إسلامية المعروف «بتفهيمات» وتفسير «تفهيم القرآن» تتميز كتاباته العلمية بإيثار طريقة الهجوم على طريقة الدفاع والاعتذار ، وكان رغم اختلافنا عن بعض وجهات النظر وبعض الملاحظات ، الاختلاف الذي يتسع مجاله مع كل عالم وباحث وفي كل عصر ومصر[٢] ، لا بدَّ من الإشارة إلى أنه كان لبحوثه العلمية الأولى التي تكلَّم فيها عن مستوى عالٍ وفي أسلوب قوي ، ولمقالاته ورسائله في

(١) نقله إلى العربية الدكتور عبد الرزاق الإسكندر .

(٢) ليراجع كتاب العلامة الندوي «التفسير السياسي للإسلام» طبع الهند ومصر .

www.abulhasanalinadwi.org

مشكلات العصر ، وحلولها الإسلامية ، دويٌّ في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقاً فكرياً ، وكانت في دور انتقال ، وكان لها فضلٌ في إعادة الثقة في الطبقة المثقفة بجدارة الإسلام وفضله ، والحاجة إليه ، والأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي صاحب كتب: «الرق في الإسلام» و«الصديق الأكبر» وغيرهما من المؤلفات ، والبروفيسور خليق أحمد النظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة علي كره ، والدكتور نذير أحمد رئيس القسم الفارسي في تلك الجامعة ، والأستاذ ضياء الحسن الفاروقي ، والدكتور نجاة الله الصديقي.

وهناك كتابٌ ناهضون لهم مستقبلٌ زاهرٌ في عالم التأليف والبحث ، لا يتسع هذا المجال لذكرهم ، فليس هذا المقال المستعجل الذي يسطر على تشتت بالٍ ، وانشغال فكرٍ ، دليلاً شاملاً لأسماء الكتاب والباحثين ، إنما هو تعريفٌ موجزٌ للنشاط العلميِّ والحركة التأليفية في الهند.

الدراسات الإسلامية في باكستان:

ومعذرةً من ذكر الكتاب الإسلاميين المرموقين في البلد الشقيق الجار باكستان في تفصيلٍ واستقصاء[1] ، فقد شمل الحديث عن شبه القارة الهندية هذا الجزء ، وإن لم يتسع المجال والوقت للتوسُّع ، فلا يسع التغاضي عن ذكر العلامة المرحوم محمد شفيع المشرف على دائرة المعارف الإسلامية الأردية ، الصادرة من جامعة بنجاب ، والدكتور اشتياق حسين قريشي وزير المعارف الأسبق ، والدكتور محمد رفيع الدين صاحب الكتاب القيم «القرآن والعلم الحديث»[2] والدكتور السيد عبد الله المشرف على دائرة المعارف الإسلامية ، والأستاذ بزمي أنصاري ، والأستاذ محمد أسلم ،

---

(١) وقد منعت الحواجز المصطنعة غير الطبيعية عن الاطلاع الواسع والتتبع الدقيق للحركة العلمية ، والمؤسسات الفكرية ، والكتب ، والمجلات الصامدة في هذا القطر الإسلاميِّ الكبير.

(٢) له كتابان مهمَّان بالإنجليزية أحدهما (Manitesta of Islam) وآخر (Ideology og Tuture).

www.abulhasanalinadwi.org

والشيخ عبد القدوس الهاشمي الندوي صاحب مؤلفاتٍ وبحوثٍ كثيرةٍ ، وفضيلة الشيخ محمد تقي العثماني صاحب المقدمة المنيرة المستفيضة عن ترجمة كتاب «إظهار الحق» للعلامة الشيخ رحمة الله الكيرالوي ، والأستاذ عبد الحميد الصديقي ، والأستاذ مظهر الدين الصديقي ، والأستاذ خورشيد أحمد.

وقد نشأت بعد قيام باكستان مؤسستان للبحث الإسلاميِّ العلمي ، والدراسات الإسلامية ، أولاهما: مؤسسة الثقافة الإسلامية في لاهور ، والثانية: مجمع البحوث الإسلامية في إسلام آباد ، (Islamic Researeh Insitute Islamabad) التابع للجامعة الإسلامية في إسلام آباد ، يرأسه الآن الدكتور عبد الواحد هالي بوتا ، وتصدر هذه المؤسسة مجلة في اللغة العربية باسم «الدراسات الإسلامية» ومجلة في أردو باسم «فكر ونظر».

تفرق خريجي المدرسة القديمة في البحث والإنتاج العلمي:

حقيقةٌ تاريخيةٌ أنَّ علماء الهند الذين درسوا العلم على الطريقة القديمة ، لم يتخلفوا عن ركب العلم والبحث والتحقيق فترةً قصيرة من الزمن ـ بالعكس من عديد من الدول الإسلامية ـ ولم تنقطع صلتهم بلغات بلادهم وآدابها ، كما حدث في كثير من الدول الإسلامية والدول العربية ، فظلُّوا يؤدُّون دوراً قياديّاً في المجالات العلمية والأدبية ، بجانب القيام بالدور الطليعي في مجال السياسة وحركة تحرير البلاد ، وخلفوا مآثر في الأدب والنقد والشعر ، تنطق بذوقهم الأدبي الفائق ، وبتذوقهم للغة وآدابها ، واقتدارهم على النقد الأدبي ، ومهما أسماها بعض من هبَّ ودبَّ بمحاولات بدائية ، ولكنها في الواقع كمعالم في الطريق «فمقدمة شعر وشاعري» و«يادكار غالب» لمؤلفهما الشيخ ألطاف حسين الملقب في الشعر «حالي» و«موازنة أنيس ودبير [١]» للعلامة شبلي النعماني ، وكذلك كتاب «كل رعنا» لزميله العلامة السيد عبد الحي (رحمه) الله الحسني ـ أمين ندوة

---

(١) مقارنة بين شاعرين أورديين ومعاصرين متنافسين: «أنيس» و«دبير».

www.abulhasanalinadwi.org

العلماء العام الأسبق ـ في تاريخ أردو وتراجم شعرائها ، و«ياد أيام» في تاريخ ولاية «كجرات» العلمي ، والثقافي ، والبنائي ، والاجتماعي ، والأخلاقي ، وتقدمها في ميدان التعليم والتربية والصناعات ، في عهدها الإسلامي الذهبي ، وفي تراجم علمائها ، ومشايخها ، وسلاطينها ، وهو نموذجٌ مثاليٌّ رائعٌ للكتابة في مثل هذا الموضوع يجب أن يتَّبعه الكتاب والمؤرخون في كتاباتهم العلمية والتاريخية ، وأودع المؤلف في كتابه «كل رعنا» مباحث ونظريات طريفة ، ووضع من خلالها الأصبغ على أخطاء تاريخية ، وآراء شاذةٍ متطرفةٍ ، تضمنها كتاب «آب حياة» للكاتب الشهير محمد حسين آزاد؛ الذي كان له سحرٌ في الأوساط الأدبية ، شغل الناس عن التمحيص والتحليل والنقد الجريء ، و«شعر الهند» للأستاذ عبد السلام الندوي ، وكلُّها حلقاتٌ ذهبيةٌ في هذه السلسلة العلمية ، ومهما تقدَّم العلم والنقد خطوات ، ومهما تكثَّفت الجهود في هذا الموضوع؛ فإننا لن ننسى ما كان لهؤلاء المؤلفين والباحثين من الفضل في خدمة اللغة والأدب ، وسوف نظلُّ مدينين لجهودهم المخلصة في هذا المجال .

أفرادٌ يقومون بدور المجامع العلمية :

وقد قام بعض الأفراد في الهند وحدهم بما تقوم به المجامع العلميَّة ، بمكتباتها الغنيَّة ، ووسائلها الوفيرة ، وجهازها التحريريِّ والإداريِّ الكبير ، من بحثٍ وتحقيقٍ ، وكتابةٍ وتأليفٍ ، وذلك كلُّه في عزلةٍ علميَّة ماديَّةٍ ، وزهادةٍ في المعونات الحكومية ، وبعدٍ عن الدعاية والشهرة ، وخمولٍ وانزواءٍ ، وإن دلَّ ذلك على شيءٍ ، فإنَّما يدلُّ على أن البيئة العلمية والتربوية القديمة التي نشأ وعاش فيها هؤلاء المؤلفون كانت أقدر على بعث روح المثابرة ، والصبر ، والجلد ، والتضحية ، وتحمُّل العناء ، والمشاقِّ من البيئة العلمية الحديثة ، والجامعات العصرية .

نخصُّ بالذكر من هؤلاء العلماء والمؤلفين العلامة محمود حسن خان التونكي (م ١٣٦٦هـ) صاحب كتاب «معجم المصنفين» (في العربية) في نحو ستين ٦٠ مجلداً ، يحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات ، وعلى

www.abulhasanalinadwi.org

تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وقد ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء على نفقة الحكومة الآصفية في حيدر آباد سنة ١٣٥٤هـ من بيروت ، الجزء الأول في أمورٍ عامَّة مفيدةٍ ، كأبوابٍ وفصولٍ في تقييم العلم ، وفي أوائل ما ظهر من العلوم ، وفصول في مللٍ وأممٍ مختلفةٍ بحسب عنايتها بالعلوم ، وبابٌ خاصّ بالتدوين في الإسلام ، وأبوابٍ في المؤلفين والمؤلفات على اختلاف طبقاتهم وأنواعها ، وفصولٍ في مختلف العلوم والفنون ، ومن أكبر مزايا الكتاب شموله واحتواؤه ، يقول المؤلف في مقدِّمة الكتاب بعد ذكر «كشف الظنون» للجلبي وما استدرك عليه :

«فبذلك جاء كتابنا هذا شرحاً للكشف واستدراكاً عليه في باب المصنفات ، ولم آل جهدي في الاستقصاء ، فبالغت في إحراز تراجم العلماء الذين صنفوا في العلوم التي تداولت في عهد الإسلام ، ومن العلوم الإسلامية وغيرها من معقولات الفلاسفة ، من العلماء الذين نشؤوا في بلاد العرب والعجم ، والعراق ، ومصر ، والأندلس ، والروم ، وخراسان ، وما وراء النهر ، والسند ، والهند وما وراء ذلك ، ولا أقول : إني أوعبت العلماء محلَّهم في الكتاب ، وإنه لا يغادر صغيراً ولا كبيراً من أهل التأليف إلا أحصاه بل ذلك خارجٌ عن طوق البشر»[1] .

ويدلُّ على استيعاب الكتاب أنَّ عدد من جاء ممن اسمه إبراهيم بلغ إلى ٣٤٨ اسماً ، ومع الأسف بقي هذا الكنز الثمين دفيناً في إحدى المكتبات الخطية في حيدر آباد ، لأنَّ الأعمال في الشرق الإسلامي ـ مع الأسف ـ ليست بقيمتها العلمية ، وعناء المؤلفين فيها ، وحاجة المشتغلين بالعلم إليها ، بل بالدعاية ، ووسائل النشر ، وتبنِّي المؤسسات ، والحكومات لها .

والعلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»[2] في ثمانية مجلدات تحتوي على أكثر من أربعة

---

(١) المجلد الأول ص ٢٩ .
(٢) صدرت للكتاب طبعتان من دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد (الهند) .

www.abulhasanalinadwi.org

آلاف وخمسمئة ٤٥٠٠ ترجمة من أعيان الهند ورجالاتها ، من القرن الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، وهو الكتاب الذي عليه الاعتماد في الشرق والغرب فيما يتصل بتراجم رجال الهند وأخبارهم ، والكتاب يغطي المساحة الزمنية الممتدة من القرن الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، والمساحة المكانية الممتدة من مضيق خيبر إلى خليج بنغال ، وتلك ميزةٌ لا يُشاركه فيها كتاب في الطبقات والترجم أُلِّف في قطرٍ من الأقطار الإسلامية والعربية[١] ، وهذا عدا ما التزمه المؤلف من التحرِّي الدقة والأمانة العلمية ، وحسن الاختيار والتلخيص ، وتحديد اختصاص صاحب الترجمة وطبقته. وكتاب «الثقافة الإسلامية في الهند»[٢] الذي هو كدليلٍ شاملٍ كاملٍ لمؤلفات علماء الهند في الفنون الإسلامية ، والأدبية ، والحكمية ، وتاريخ الحركة العلمية وتطورها ونموها ، والمناهج الدراسية ، وما طرأ عليها من تقلبات في مختلف العهود مع بيان أسبابها وخلفياتها ، ولا نعرف بلداً إسلامياً أرَّخ المنهج الدراسي فيه ، والمقررات الدراسية ، هذا التاريخ المتصل مع بيان عوامله وأسبابه ، وكتاب «الهند في العهد الإسلامي»[٣] الذي هو حلقةٌ ذهبيَّةٌ من سلسلة كتب الخطط والآثار لمختلف البلاد والأمصار ، وفصلٌ واحدٌ منه يتضمن ما انتشر في مكتبة ، وصفحةٌ واحدةٌ تقوم بكتابٍ كبيرٍ[٤] .

ويدخل في هذا الطراز من المؤلفين العلامة حميد الدين الفراهي المعروف بالمعلم عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩هـ) الذي هو صاحب منهجٍ

(١) فجميع هذه الكتب المؤلفة في الطبقات والتراجم خارج الهند تختص بقرون مخصوصةٍ ، أو ولايات مخصوصة ، أو طبقات معينة كالمحدثين والفقهاء أو النحاة أو الأطباء وغيرهم من جميع الطبقات من أهل النباهة والشأن.

(٢) قام بنشره المجمع العلمي بدمشق سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) وقد نفدت هذه الطبعة وستصدر الطبعة الثانية مع ذيول للكتاب وتتمة من مجمع اللغة العربية .

(٣) قام بنشره دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد .

(٤) انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

www.abulhasanalinadwi.org

خاصٌّ في التفسير ، يُعنى : بنسق الآيات وربطها بصفةٍ خاصَّةٍ ، له نظام الفرقان ، وهو صاحب كتاب «الإمعان في أقسام القرآن» و«الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح» وهو خير ما أُلِّف في هذا الموضوع[١] .

وكذلك العلامة عبد العزيز الميمني (م ١٣٩٨هـ) الراجكوتي صاحب «أبو العلاء وما إليه»[٢] وهو أحسن كتاب في الموضوع تحقيقاً ودقة وعمقاً ، وكتاب «سمط اللآلي»[٣] وكان المرحوم ، أحد أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق ، وجماعة تصحيح لسان العرب لابن منظور[٤] .

ومن علماء الهند البارزين الذين قاموا بدور العمل المجمعيِّ الموسوعيِّ فردياً في علم الحديث ، العلامة عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، الأعظم كرهي (م ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي» في ثلاثة مجلدات كبار ، وجزء مفرد بالمقدمة ، يدلُّ على علوِّ كعبه في معرفة أسماء الرجال وفنِّ الجرح والتعديل ، وطبقات المحدثين ، وتخريج الأحاديث[٥] .

والشيخ العلامة المحدِّث محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي السهارنفوري (المهاجر إلى المدينة المنورة) ويكفي دلالةً على سعة نظره ، ومدى عنائه في البحث والتحقيق كتابه : «أوجز المسالك إلى موطأ مالك» في ستة أجزاء كبار ، ومقدمته على هذا الكتاب ، وعلى كتاب : «لامع

---

(١) انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٢) نشرته دار المصنفين في أعظم كره في سلسلة مطبوعاتها، وطبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٤هـ، وفي الكتاب تقريظ وأداء بقلم العلامة أحمد تيمور، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ عبد الوهاب النجار، والعلامة أحمد محمد شاكر .

(٣) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر سنة ١٩٣٦م في ثلاثة مجلدات كبار .

(٤) انظر ترجمته وآثاره القيمة في اللغة العربية وآدابها في كتاب المحقق « الأعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٥) انظر للاطلاع على ترجمته ومؤلفاته كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

الدراري على جامع البخاري» موسوعتان صغيرتان فيما يتصل بهذين الكتابين الجليلين ومؤلفيهما العظيمين ، وبحوثٌ مفيدةٌ في أصول الحديث ، وأسماء الرجال ، ومعلوماتٌ قيِّمةٌ عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم ، وفيما يختصُّ بالهند وأخبارهم كبار الأساتذة والمحدثين فيها ، وكذلك كتابه : «حجة الوداع» و«عمرات النبي ﷺ» يمتاز باستيعابٍ شاملٍ ، واستقصاءٍ كاملٍ في هذا الموضوع(١) .

ومنهم المحدِّث الكبير الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، وقد تجلَّى اختصاصه في علم الحديث ، وأسماء الرجال ، وتبصره في علوم الحديث ، ودقة نظره في إخراجه لمصنف الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (م ٢١١هـ)(٢) ، وقد أفرد جزءاً خاصًّا بمقدمة هذا الكتاب ، وقد عُني قبل هذا بتحقيق مسند الحميدي ، وسنن سعيد بن منصور(٣) . وكتاب «حياة الصحابة» في ثلاثة مجلدات كبار للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي (أمير جماعة التبليغ) (م ١٣٨٤ هـ) يكاد يكون موسوعةً في حياة الصحابة ، وسيرتهم الإيمانية والدعوية والخلقية والسلوكية ، ومن أجمع ما كتب في الموضوع وأكثره احتواءً وتنوعاً(٤) .

---

(١) انظر للاطلاع على ترجمته ومؤلفاته كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

(٢) قام بنشره وطبعه في بيروت المجلس العلمي الذي له مكاتب في سملك دابتهيل الهند، وكراتشي، وجوهانس برغ، وقد أنشأه الشيخ محمد ميان السملكي الهندي المقيم في جوهانس برغ (م ١٣٨٢).

(٣) وقد حقق «كتاب الزهد والرقائق للإمام عبد الله بن مبارك المروزي» و«كشف الأستار عن زوائد البزار» على الكتب الستة تأليف الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي وقد نشرت منه مؤسسة الرسالة الأول والثاني والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر العسقلاني ، وانظر ترجمة المحدث الأعظمي بكاملها وتعريف مؤلفاته كلها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

(٤) صدرت الطبعة الأولى عن مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، والطبعات التالية من مختلف البلاد العربية لا تُحصى ، وصدرت الطبعة الأخيرة عن دار ابن كثير بدمشق=

www.abulhasanalinadwi.org

ويدخل في هذه القائمة الموقرة للباحثين المحققين ، الأستاذ الكبير امتيازي علي قرشي الرامفوري (م ١٩٨١م) الذي قام بتحقيق «تفسير القرآن الكريم» للإمام سفيان الثوري ، والتعليق عليه ، والمقارنة بأصول الكتاب الأخرىٰ ، مع مقدمة ضافية في تاريخ تأليف التفسير ، وترجمة الإمام الثوري والكتاب يقع في ٢٤٤ صفحة . وفي آخره خاتمة في تراجم رجال الثوري ، والاستدراك ، ثم فهرس المآخذ والمراجع ، طبع في رامفور (الهند) سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) .

وله من الكتب التي حققها وعلق عليها : «كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ ، واختلف في المعنى» لأبي عبيد القاسم ابن سلاّم ، طبعته المطبعة القيمة لمباني الهند سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م) .

دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد :

ومن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضلٌ كبيرٌ في إحياء الكتب الدينية والعلمية ، وبعثها من مدافنها في المكتبات العتيقة ، ونشرها بتصحيحٍ وتحقيقٍ في العالم الإسلامي ، دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد التي تأسست عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامي ، ومولانا عبد القيوم ، ومولانا أنوار الله خان أستاذ سمو «النظام» ، وقد نشرت أكثر من مئة وخمسين كتاباً قيّماً من كتب الحديث ، وأسماء الرجال ، والتاريخ ، والعلوم الرياضية ، والحكمية ، حُرِمها العالم الإسلامية ، والأوساط العلمية من عهدٍ بعيد ، وتسامع بها العلماء والمدرسون ، فكانت خدمةً جليلةً للعلم والدِّين ، وبرهاناً على ما كان ـ ولا يزال ـ للمسلمين الهنود من اتصالٍ روحيٍّ وفكريٍّ بالثقافة الإسلاميَّة ، وحبٍّ عميقٍ لها ، وقد اعترف بجهود هذه المؤسسة العظيمة وجلالة عملها

= عام ١٩٩٩م بتحقيق رائع وتعليقات مفيدة للشيخ إلياس الباره بنكوي ، وهي في أربعة مجلدات ضخمة .

www.abulhasanalinadwi.org

وقيمة ما تنشره من التراث العلمي كبار العلماء ، ورجال الثقافة في الشرق ، وأوروبا[١].

العمل التأليفي والتحقيقي في اللغة العربية في العالم العربي:

أمّا في اللغة العربية التي هي اللغة العلمية العالمية للعالم الإسلامي ، وأولى اللغات بأن تتمّ فيها الدراسات الإسلاميَّة ، والبحوث العلميَّة على مستوىً أعلى وإطارٍ أوسع ، فقد ظهرت فيها في العالم العربي مؤلفاتٌ وبحوثٌ إن لم تكن جديرة بسعة هذه اللغة ، وسعة العالم العربي وأهميته كمّاً وعدداً؛ فإنّها لا شكَّ تعتبر نماذج للبحث العلمي ، وغزارة المادة وحسن التحليل ، وتأتي في طليعة هذه الكتب سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» للدكتور أحمد أمين بك ، على ما فيها من مآخذ وملاحظات ، وفي بعض آراء المؤلف شذوذٌ ومجالٌ للنقاش[٢] وقد سجلت تعليقاتي عليها أثناء دراستي لها ، وأخبرت بذلك المؤلف الفاضل في أولى لقاءاتي له في القاهرة في يناير ١٩٥١م ، فأحبَّ الاطلاع عليها والاحتفاظ بنسختي ، ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ هذه الكتب نموذج لجمع المواد المبعثرة في المصادر القديمة ، وتحليلها العلمي ، والاستنتاج منها ، وعرض التاريخ الإسلامي في الأسلوب العصري الذي لا تتفوق عليه كتابات كبار المستشرقين ، وهذا مع مجاراة الطبع والرواء ، وعدم التكلف ، وحسن الإنشاء ، وجمال العرض.

---

(١) من أهم مطبوعاتها مسند أبي داود الطيالسي ، والسنن للبيهقي ، والمستدرك للإمام الحاكم ، ومعرفة علم الحديث للحاكم في الحديث وعلومه ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، وتهذيب التهذيب لابن حجر في علم الرجال ، والتاريخ الكبير للإمام البخاري ، والمنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي ، في التاريخ ، وكتاب البيروني في تحقيق ماللهند ، والإكمال لابن ماكولا ، والأزمنة والأمكنة لأبي علي المرزوقي في علوم مختلفة.

(٢) ليرجع إلى كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي ص ٢٨١ ـ ٣٠٢.

www.abulhasanalinadwi.org

ويلحق بذلك كتابات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وتعليقاته ، خصوصاً كتابه الجليل «الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية»[١] (١ ـ ١٠) وحواشيه على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» في أربعة أجزاء ، والكتاب من تأليف (Lothrop Stoddard) وترجمة الأستاذ عجاج نويهض ، فالأول: موسوعةٌ صغيرة فيما يتعلق بالأندلس الإسلامي ، والثاني: موسوعةٌ في واقع العالم الإسلامي ، ورجالاته ، وحركاته ، وبلاده ، وقد جاء فيه نقدٌ بصيرٌ للمستشرقين والمؤرخين الأوربيين ، ودراساتٌ قيِّمةٌ عن الحضارة الإسلامية ، والحركة العلمية فيها ، ومعلوماتٌ وثيقةٌ عن الدولة العثمانية ، وما كان يتخلَّلها من نزعاتٍ وحركاتٍ متناقضة ، وعن فتوح العرب والفتوحات الإسلامية في مختلف البلاد ، وعن تاريخ الاحتلال الأجنبي في مختلف البلاد الإسلامية والحركات المناوئة له ، وعن النهضة الإسلامية في القارات المختلفة ، ومقالاتٌ وبحوثٌ مفيدةٌ في الدفاع عن الإسلام ، ودحض الأباطيل ، وكتاب «غزوات العرب في فرنسة ، وشمالي إيطالية ، وفي سويسرة».

وكان كتاب «الأعلام» للأستاذ خير الدين الزركلي (في اثني عشر (١٢) مجلداً من أصل الكتاب ومستدركه ومجموع خطوط وصور) معجماً في سير الأفراد وقاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ، والمستعربين والمستشرقين ، والكتاب عملٌ موسوعيٌّ مجمعيٌّ يشكر مؤلفه عليه ، ويعترف بمجهوده الفردي ، وقد ظهرت براعة المؤلف في الاطلاع الواسع والاحتواء الكبير ، وفي حسن التلخيص والاقتباس ، وتوفير الوقت والمجهود على المؤلفين والباحثين.

وكذلك مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، والأستاذ محمد كرد علي ، فإنها تمتاز بالعمق ، وسعة الدراسة والثقافة ، والاطلاع على المصادر الأجنبية ، وكتب العقاد في العبقريات ، وكتابه «المرأة في القرآن» و«أثر العرب في الحضارة الأوربية» و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»

---

(١) طبعت منه ثلاثة أجزاء.

www.abulhasanalinadwi.org

وغير ذلك من المؤلفات والبحوث ، وكتاب الأستاذ محمد كرد علي «الإسلام والحضارة العربية» ، وكتابه «خطط الشام» مثالٌ للكتابة العلمية والعمل المجمعيّ الموسوعيّ.

كذلك كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي ، وكتاب «تاريخ التراث الإسلامي» لفؤاد سزكين؛ عملٌ مجمعيٌّ يستحقُّ التقدير ، مع الاحتفاظ ببعض الملاحظات ، والنقد؛ الذي هو حقُّ الباحثين ، وطلاب العلم في كلِّ عصرٍ. وكتب اللواء الركن محمود شيت خطاب في الغزوات والفتوح الإسلامية بعنوان قادة الفتح الإسلامي ، و«الرسول القائد» كتبٌ ذات قيمةٍ علميَّةٍ تاريخيةٍ وعسكريةٍ، ومادةٍ غزيرةٍ من المعلومات والدراسات.

ولا ينسى في هذا الصدد المشروع العلمي الكبير والمخطط الواسع النافع الذي يقوم به صديقنا الأستاذ أنور الجندي وحده وهو «موسوعة مقدمات العلوم والمناهج» المجلد الأول منه خاصٌّ بالفكر الإسلامي ، والمجلد الثاني في تاريخ الإسلام ، والمجلد الثالث في العالم الإسلامي المعاصر ، والرابع في اللغة والأدب والثقافة ، وقد صدرت هذه المجلدات الأربعة ، أمَّا الخامس ففي التبشير والاستشراق والدعوات الهدَّامة ، والسادس في المجتمع الإسلامي ، والسابع في الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية ، والثامن في الإسلام وموقفه من الفلسفات والأديان ، والتاسع في الشبهات والأخطاء الشائعة ، والعاشر في حركة اليقظة الإسلامية ، ولو تمَّ هذا العمل وصدر الكتاب بجميع أجزائه كانت موسوعةً كبيرةً فيما يتَّصل بالإسلام والمسلمين ، ومكتبةً غنيَّةً في العلوم والآداب الإسلامية.

ويلحق بكتاب الأعلام للزركلي ، وتاريخ التراث الإسلامي لفؤاد سزكين ، كتاب «معجم المؤلفين» (تراجم مصنفي الكتب العربية) تأليف عمر رضا كحالة ، في خمسة عشر جزءاً وإن كان ينقصها أسماء كثير من المؤلفين المعاصرين ، ولكنه مجهود يستحقُّ التقدير والشكر[١].

---

(١) ألف الكتاب في ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م) ونشرته مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي.

www.abulhasanalinadwi.org

أمّا في الموضوعات الدينية الشرعية ، فكتب العلامة محمد أبي زهرة في مؤسسي المدارس الفقهية والعقائدية في الإسلام ، وفي تاريخ الفرق الإسلامية وعقائدها ، وكتاب صديقنا المجاهد الداعية الدكتور مصطفى السباعي «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وهو أفضل ما كتب في الموضوع ، وأجمعه ، وكذلك كتابه «المرأة بين الفقه والقانون» ، وكذلك كتاب زميله وصديقنا الأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء «المدخل الفقهي العام» مجهودٌ علميٌّ كبير يسد حاجة الأقطار الإسلامية التي يعنيها تطبيق الشريعة الإسلامية ، والقانون الإسلامي المدني ، وكذلك كتاب «التشريع الجنائي الإسلامي ، مقارناً بالقانون الوضعي» للأستاذ عبد القادر عودة الشهيد ، عمل علميٌّ تحقيقيٌّ ، وإنتاجٌ حقوقيٌّ كبير .

كذلك عمل الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي والد الإمام الشهيد حسن البنا في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل على الأبواب الفقهية وتحقيقه ، عملٌ جليلٌ تاريخيٌّ ، وهو المسمى «بالفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني»[١] وكذلك عمل العلامة أحمد محمد شاكر في هذا الموضوع نفسه عملٌ فرديٌّ شاقٌّ ينوء بالعصبة أولي القوة[٢] .

دراسات إسلامية عميقة ومقارنة :

وقد ظهر في هذه الفترة كتابٌ دلَّ على سعة دراسة عالمٍ دينيٍّ فقيهٍ ، وعمق نظره في الفلسفة القديمة والحديثة ، واطلاعه الواسع الدقيق على ما وصل إليه العلم الحديث ، ـ من الفيزياء والفلك ـ وحسن عرضه للعقيدة الإسلامية وإثباتها بالدلائل العلمية ، في إطار قصةٍ شائقة ، وهو كتاب

(١) مع الأسف لم يكمل هذا العمل ، وقد صَدَرَ عن هذا الكتاب العظيم اثنان وعشرون جزءاً ، ومع الكتاب بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني .

(٢) خرّج العلامة أحمد محمد شاكر أحاديث الكتاب ، ورقمها ، وجعل لها فهارس للموضوعات ، وعلق تعليقات قيمة ، وقد طبع من الكتاب خمسة عشر جزءاً ، واخترمته المنية قبل أن يتمه رحمه الله .

www.abulhasanalinadwi.org

«قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» للشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي[١].

وكذلك كتابان للعالم العراقي الأستاذ محمد باقر الصدر يتَّسمان بعمق الدراسات المقارنة والاطلاع الواسع ودقة النظر في الفلسفات والنظم المعاصرة ، وهما كتاب «اقتصادنا» في جزءين ، الجزء الأول في دراسة موضوعية للمذاهب الاقتصادية ، والجزء الثاني في محاولةٍ لاستنباط المذهب الاقتصادي في الإسلام ، والكتاب الثاني «فلسفتنا» وهي دراسةٌ موضوعيةٌ في معترك الصراع الفكري القائم ، ومن البديهي أنَّه لا يستلزم هذا الاعتراف الموافقة الكلية على ما جاء في هذين الكتابين.

ويأتي بعد ذلك دور كتابات الأستاذ سيد قطب الشهيد ، في مقدمتها كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ومؤلفات أخيه محمد قطب ككتابه: «شبهات حول الإسلام» وكتبه في التربية الإسلامية وعلم النفس والحديث وكتاب الدكتور محمد البهي «الفكر الإسلاميُّ الحديث» وكتاب الأستاذ محمد المبارك «في الفكر الإسلامي الحديث» وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» و«حصوننا مهددة» للدكتور محمد محمد حسين ، أما كتاب صديقنا الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي «فقه الزكاة» فهو عملٌ موسوعيٌّ كبيرٌ ، وأجمعُ كتابٍ في هذا الموضوع ، وقد نقل إلى اللغة الأردية.

كتاب الدعوة ودعاة الفكرة الإسلامية:

قد خصَّصنا بحثنا هذا بالكتب والبحوث التي تتناول الموضوعات التي كانت تعتبر من خصائص المستشرقين ومجالات تأليفهم ، وتمتاز بالاتجاه الموسوعي الأكاديمي والدراسات المقارنة ، والاستفادة من المصادر الأجنبية ، وإلا فقد نشأت نهضةٌ أدبيَّةٌ وتأليفيَّةٌ قويةٌ بتأثير حركة «الإخوان

(١) وهو ابن الشيخ حسين الجسر صاحب «الحصون الحميدية» الكتاب الَّذي ملأ فراغاً في الحلقات الدراسية والمدرسية القديمة ، وسدَّ حاجة من حاجاتها العلمية والتعليمية ، كذلك «الرسالة المحمدية».

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمون» الكبرى في مصر وانتقل الأدب والكتابة والتأليف من دائرة البحث والتحقيق ، المقصورة على العلماء والدارسين ، إلى دائرة شعبيةٍ أوسع ، ونبغ كتاب ومؤلفون يخاطبون الجمهور ، ويحركون العاطفة والإيمان ودوافع العمل الباطنية ، وتمسُّ كتاباتهم القلوب كما أنها تغذي العقول ، كان في مقدمتهم وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالي ، والأستاذ سيد سابق (صاحب كتاب «فقه السنة» الكبير) والأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي وغيرهم ، واستعراض هؤلاء الكتاب وكتاباتهم الإسلامية الدعوية من موضوع مؤرخي الفكرة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، ومجالُ البحث واسعٌ يحتاج إلى كتابٍ مستقل[١] .

البحث والتحقيق في الجزيرة العربية :

وقد عاشت الجزيرة العربية فترةً من الزمن في عزلةٍ عن حركة البحث والتحقيق التي نشطت ، وتوسَّعت في مصر والشام بصفةٍ خاصَّةٍ ، بفضل المجامع العلمية (الأكاديميات) والجامعات الكبيرة الكثيرة ، والمجلات العلمية الراقية ، إلا أنها بدأت رحلتها في عهد الحكومة السعودية أخيراً ، وظهرت كتاباتٌ وبحوثٌ وتأليفاتٌ تمتاز بالروح التحقيقية ، ويتَّسم بعضها بالطابع الموسوعيِّ الأكاديميِّ ، تظهر نماذجه في بحوث الأستاذ حمد الجاسر الجغرافية التحقيقية[٢] ، وبحوث الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في اللغة والمعاجم[٣] . والشيخ عبد القدوس الأنصاري في الخطط

---

(١) نشرت مجلة «البعث الإسلامي» الصادرة عن ندوة العلماء لكهنؤ ، الهند سلسلة مقالات لفضيلة الأستاذ واضح رشيد الندوي عنوانها «أدب الصحوة الإسلامية» وهي تدخل في هذا الموضوع . («البعث الإسلامي» الأعداد الثامن والتاسع والعاشر من المجلد السادس والعشرين ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م) .

(٢) صاحب الكتابين «في سراة غامد وزهران» «وفي شمال غرب الجزيرة» وهو صاحب الإسهام في «الموسوعة الجغرافية لجزيرة العرب» صدر منه خمسة عشر مجلداً ، كلها من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض .

(٣) ككتابه «الصحاح ومدارس المعجمات العربية» وتحقيقه لتهذيب الصحاح للزنجاني ، والصحاح للجوهري ، مقدمة تهذيب اللغة للأزهري .

www.abulhasanalinadwi.org

والآثار[١]، والأستاذ محمد أحمد باشميل في سلسلة «من معارك الإسلام الفاصلة»، و«الغزوات النبوية الشهيرة»[٢].

عدا هذا كتاباتٌ وكتبٌ في موضوع الفقه والتشريع الإسلامي، والحديث والتفسير، وبعض القضايا الإسلامية المعاصرة، وقائمة أسماء العاملين في هذا المجال تطول، وأخشى أن تفوتني في هذا الفرصة القصيرة أسماء تستحق التنويه.

وقد ساقت الظروف القاسية والأوضاع السياسية المتقلبة في مراكز الثقافة الإسلامية العربية الكبرى في الشرق العربي أقوى العناصر العلمية، وخيرة الأساتذة والباحثين الإسلاميين إلى المملكة العربية السعودية، وإلى الكويت، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وإلى لبنان، والأردن أحياناً، فكان في ذلك مكسبٌ لهذه الأقطار التي كانت تستورد البضاعة العلمية في الغالب، ولا تصدرها، وعينوا أساتذةً في جامعاتها، فنشطت حركة البحث والتأليف، وإعداد البحوث والرسائل العلمية، خصوصاً في جامعات المملكة الست[٣] وفي جامعة الكويت، جامعة قطر في الدوحة، وجامعة العين في الإمارات، وظهرت بحوثٌ ورسائل تتفاوت في قيمتها العلمية، وتختلف مستوياتها، ولكنها تعود على المكتبة العربية بفوائد وتثريها، وقائمة هؤلاء الأساتذة المهاجرين أو اللاجئين، أو الزائرين طويلةٌ، ولكنها مشرفة لهذه الجامعات، ومصدر خيرٍ كثيرٍ.

(١) ككتابه «آثار المدينة المنورة» و«مدينة جدة».

(٢) صدرت منها عشرة أجزاء وهي غزوة بدر الكبرى، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بني قريظة، غزوة خيبر، غزوة مؤتة، غزوة حنين، غزوة تبوك، فتح مكة، صلح الحديبية.

(٣) وهي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة الرياض، وجامعة الملك عبد العزيز، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة، وجامعة البترول في ظهران.

www.abulhasanalinadwi.org

رسائل الدكتوراه والبحوث الجامعية :

وكان لنظام رسائل الدكتوراه الجامعية ، والبحوث التي يعدها طلبة الدكتوراه سهمٌ في التمرُّن على البحث العلمي على الأسلوب العصريِّ الجديد ، وإن كان أكثرها لا يحمل قيمة كبيرة لكثرة الراغبين في ذلك ، وعدم وجود الإشراف الدقيق ، والتوجيه البصير الجادِّ في كثيرٍ من الجامعات ، ولكن بعضها يحمل الخصائص الحسنة التي اشتهرت بها كتابات المستشرقين ، من جمعٍ للمواد المبعثرة في مظانها ، وفي غير مظانها ، وحسن تنظيمها ، والاستنتاج منها ، بجانب المزايا التي لا يقدر عليها إلا أبناء اللغة ، والناشئون في البيئة الإسلامية ، يذكر من ذلك ـ على سبيل المثال ـ كتاب «المجتمعات الإسلامية في القرن الأول» رسالةٌ جامعيةٌ للدكتور شكري فيصل[١] ، وكتاب «أبو الكلام آزاد» رسالةٌ جامعيةٌ للدكتور الشيخ عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف بمصر سابقاً)[٢] وكتاب «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ» للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف المدرس في كلية الآداب جامعة عين شمس[٣] ، وكتاب «الطائف في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام» للدكتورة نادية حسني صقر[٤] ، وكتاب «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» للدكتور محمد سيد الطنطاوي ، و«الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير» تأليف الدكتور رمزي نعناعة .

في إيران وتركيا :

أما في إيران ، وتركيا ، فمعرفتي بالنتاج العلمي التحقيقي فيهما قليلةٌ ، أستثني من ذلك كتب الدكتور السيد حسين نصر باللغة الإنجليزية ، وهي على مستوىً رفيعٍ من البحث واللغة .

---

(١) قامت بنشره مكتبة المثنى ببغداد ، والخانجي بمصر ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م) .

(٢) وله كتاب «تاريخ الإسلام في الهند» وكتاب «كفاح المسلمين في تحرير الهند» من أحسن ما كتب مؤلفٌ غير هندي عن المسلمين في الهند .

(٣) نشرته دار الفكر العربي في مصر .

(٤) طبع دار الشروق جدَّة ١٩٨١ م .

www.abulhasanalinadwi.org

في المغرب العربي الإسلامي :

أما ما يتصل بالمغرب العربي الشمالي ، فما زالت المدرسة المغربية العربية الإسلامية ، تحمل طابعاً خاصًّا يتَّسم بسعة الدراسة ، ونقاء اللغة ، والاطلاع الواسع على مصادر السنة ، ودواوين الحديث ، وقد كانت مؤلفات العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني الحسني الإدريسي ، وخصوصاً كتابه «التراتيب الإدارية» في نظام الحكومة النبوية أشبه بموسوعاتٍ علميَّة تحمل العلم الغزير والفوائد الكثيرة .

وقد نبغ في المغرب العربي مؤلفون باحثون تعمقوا في الدراسات الدينيَّة وفهم مقاصد الشريعة الإسلامية ، مثل العلامة زعيم المغرب الأستاذ علال الفاسي ، والشيخ طاهر بن عاشور ، وابنه الفاضل فاضل بن عاشور ، والأستاذ مالك بن نبي ، والأستاذ محمد بشير الإبراهيمي ، ولا يزال الأساتذة محمد الفاسي ، وعبد الله كنون ، وعبد الكريم الخطيب ، ومهدي ابن عبود ، وعبد السلام بسين في المغرب الأقصى ، والأساتذة الدكتور الحبيب بالخوجة ، والشاذلي نيفر ، وأحمد الحماني ، يكتبون ويفيدون ، ويثرون المكتبة العربية الإسلامية ببحوثهم وتحقيقاتهم ، وهنالك كتَّابٌ وباحثون يظهرون على منبر «دعوة الحق» المغربية ، والمجلات العلمية الصادرة من هذه الناحية في العالم العربي ، يبشرون بمستقبلٍ زاهرٍ في مجال البحث والتفكير ، من الصعب العسير استقصاء أسمائهم .

جهاد اليوم وواجبه المحتم :

وأختم هذا المقال بقطعة أستعيرها من كتابي «ردةٌ ولا أبا بكرٍ لها» :

إنَّ جهاد اليوم ، وإنَّ خلافة النبوة ، وإنَّ أعظم القربات ، وأفضل العبادات أن تقاوم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلامي ، وتغزو عقوله ومراكزه ، وأن تعاد الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب والطبقات المثقفة بمبادىء الإسلام ، وعقائده ، وحقائقه ، ونظمه ، وبالرسالة المحمدية ، وأن يزال القلق الفكريُّ ، والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف ، وأن يقنعوا بالإسلام عقلياً وثقافياً ، وأن

www.abulhasanalinadwi.org

تحارب المبادىء الجاهلية التي رسخت في النفوس ، وسيطرت على العقول علمياً وعقلياً ، وأن تحلَّ محلَّها المبادىء الإسلامية باقتناعٍ ، وإيمانٍ ، وحماسةٍ .

لقد مضى علينا قرنٌ كاملٌ وأوربا تغتصب شبابنا وعقولنا ، وتنبت في عقولنا الشكَّ والإلحاد والنفاق ، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية ، والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية ، ونحن معرضون عن مقاومتها ، معتمدون على ما عندنا من تراثٍ ، مضربون عن الإنتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ، ونظمها ، ومحاسبتها محاسبةً علميَّةً ، ونقدها وتشريحها ، كتشريح الأطباء الجراحين ، متعللون بالبحوث السطحية المستعجلة ، وبالزيادة في ثروتنا العلمية القديمة ، حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة ، وملك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيلٌ لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ، ولا يتحمَّس لها ، ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا «القومية الإسلامية» أو المصالح السياسية .

إنَّ العالم الإسلاميَّ في حاجة إلى منظماتٍ علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القويِّ الجديد الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد ، ويحرِّرهم من رقِّ الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعيٍ ودراسةٍ ، وأكثرهم بتقليدٍ وتسليمٍ ، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديدٍ ، ويغذِّي عقولهم وقلوبهم ، إنَّه في حاجةٍ إلى رجالٍ في كلِّ ناحيةٍ من نواحي عالم الإسلام عاكفين على هذا الجهاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

بيـن نـظرتيـن

الـنظـرة الـقـرآنيـة والـنَّبويَّـة إلـى الأمـة الإسـلاميـة ونظـرة المسلميـن أنـفسهـم إلـى أنـفسهـــم . . . !

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة بقاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة يوم الإثنين ١٤ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ الموافق ٨ من فبراير سنة ١٩٨٣ م عقب صلاة المغرب ، ورأس الحفلة ، وأشرف عليها ، وعلَّق على الكلمة معالي الدكتور عبد الله بن عبد الله الزَّايد نائب رئيس الجامعة ، وغصَّت القاعة بالمحاضرين والمستمعين من طلبة الجامعة ، وأهل المدينة ، وحضرها عددٌ وجيهٌ من الأساتذة وعمداء الكليات .

www.abulhasanalinadwi.org

حضرة الرئيس الجليل ، حضرات الأساتذة الموقرين ، وأبنائي الأعزاء، طلبة الجامعة!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنَّ موضوع حديثي في هذه الأمسية المباركة في المدينة المنورة المباركة «النظرة القرآنيَّة والنَّبويَّة إلى الأمة الإسلامية ، ونظرة المسلمين أنفسهم إلى أنفسهم».

وقد يبدو هذا الموضوع غريباً لكثيرٍ من إخواننا ، وكأنِّي أقرأ في خطوط جباههم العريضة المشرقة تساؤلاً طبيعياً: أيُّ طرافة في هذا الموضوع؟ كلُّنا يعرف النظرة القرآنية إلى هذه الأمَّة الإسلاميَّة ، بل النظرات القرآنية التي جاءت في القرآن الكريم ، ومن الذي لا يحفظ قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الذي لم يسمع ، ولم يوفق لتلاوة قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن الذي لا يعرف قوله تعالى:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

وكأنِّي أسمع ما يجول في خواطر كثيرٍ من المستمعين ، يقولون: إنَّه موضوعٌ على الهامش ، أو هو من قبيل تحصيل الحاصل.

ولكن إخواني! القرآن كما تعلمون لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلى جدَّته ، والله إنَّ في القرآن آيةً ، كلَّما مررت بها وقفت أمامها خاشعاً متهيِّباً ،

www.abulhasanalinadwi.org

مستعجباً مشدوهاً ، أيُّ حجمٍ تعطي هذه الآيةُ هذه الأمةَ الإسلامية ، وفي أيِّ محيطٍ ، وفي أيِّ واقعٍ تاريخيٍّ ، ولكني لا أبادر بتلاوة هذه الآية ـ وكلكم تعرفونها وتحفظونها ـ بل أريد أن أثير فيكم التساؤلات الكثيرة ، وأثير فيكم الرغبة والتعطش إلى سماع هذه الآية .

قبل أن أتلو هذه الآية الكريمة وهي في ذاكرتكم وفي معلوماتكم ، أريد أن أستعرض الواقع الغريب، الواقع المثير المرير ، الذي نزلت فيه هذه الآية .

[تصوروا يا إخواني! ـ وما أحلى الحديث عن المدينة في المدينة ـ تصوروا عن حفنةٍ من البشر (وأنا أتعمَّد هذه الكلمة) نظراً إلى البحر الهائج من النفوس البشرية والمجموعات الكبيرة ، التي كانت تموج في ذلك العصر ، حفنةٍ من البشر تؤمن بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم ، وجاءت الرسالة المحمدية ، فتضيق عليها الأرض بما رحبت ، وتضيق عليها نفسها ، ولا أصدقَ ، ولا أدقَّ تصويراً من الله سبحانه وتعالى يقول عن مثل هذا الوضع الغريب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة : ١١٨] هذه صورة المؤمنين المعدودين الذين آمنوا بالله وبرسوله بمكة ، ومكة على رحابتها وسعتها ، وترحيبها بكلِّ طارق ، وبكل نزيل ، بحكم البيت العتيق ، وبحكم «أول بيت وضع للناس» والذي يقول الله تعالى فيه لنبيه وخليله إبراهيم : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٧].

مكة ضاقت على هذه الحفنة البشرية المؤمنة حتى اضطرَّت هذه المجموعة العربية القرشية ، المؤمنة المسلمة التي التفت حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعت يدها في يده ، اضطرت إلى أن تغادر وطنها ، وتأوي إلى هذه المدينة الطيبة الكريمة المؤوية ، دخلت في هذه المدينة ، وهي غريبة فيها ، رغم وحداتٍ كثيرةٍ من الوحدات الإنسانية ، الثقافية والحضارية ، والقبلية واللغوية ، فأمر الله سبحانه وتعالى بالتآخي بين هؤلاء المؤمنين الغرباء الطرداء ، المساكين البؤساء ، الذين جاؤوا من

www.abulhasanalinadwi.org

مكة ، بين من آمن من أهل المدينة الكرماء ، وهم قلةٌ كذلك ، أمر بالتآخي بينهم ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٢]» هذه خليةٌ بشريةٌ من نوعٍ فريدٍ ، تقوم على أساس الوحدة العقائدية ، وعلى أساس الحبِّ في الله ، هذه خليَّةٌ إنسانيةٌ صغيرةٌ في الكم Quantiy ولكنَّها كبيرةٌ في الكيف Quality.

ما نسبة هذه البذرة الصغيرة التي ربما لم تكن ترى إلا بالمجهر Microscope ما نسبة هذا العدد القليل الضئيل إلى هذا العدد الوفير الكثير الذي كان يزخر حوله ، كانوا بين فكي الأسد ، الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدِّن المعمور ، ففي الشمال وفي الغرب الإمبراطورية البيزنطية ، وفي الشرق الإمبراطورية الفارسية الإيرانية ، ولا أصدقَ من قول الله تعالى ، وأدقَّ تصويراً منه في وضع هذه المجموعة البشرية الصغيرة .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [الأنفال : ٢٦] كانوا كقطعة لحم على يد طفلٍ صغير ذهب إلى السوق فحملها على كفه ، فجاءت حدأةٌ ، فخطفت هذه القطعة ، ولا أصدقَ من قول سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن المسلمين بعد ما مضى على تاريخ الإسلام عقودٌ من السنين «لقد كنا كالغنم في ليلة شاتيةٍ مطيرةٍ» إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المهاجرين والأنصار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ثم يقول مقابل ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

كيف يصدِّق الإنسان الخاضع لنتائج رياضيَّـةٍ ولواقع الحياة أن يقول الله تبارك وتعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ لهذه المجموعة الصغيرة التي قد لا ترى إلا «بالمجهر» : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] أيها المسلمون! إذا قصرتم في هذا التآخي ، إذا قصرتم في تكوين المجتمع الإسلاميِّ ، والحياة الإسلامية الصحيحة ، وفي تعميق

www.abulhasanalinadwi.org

جذور الإيمان في قلوبكم ونفوسكم ، وإذا قصرتم في أداء الواجب الإنساني الذي يرتبط به مصير الإنسانية ارتباط الحياة بالشمس ، ارتباط الحياة بالهواء والماء ، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] كانت هنالك إمبراطورياتٌ عظيمةٌ ، ومجتمعاتٌ بشريةٌ راقيةٌ ، هنالك ثروةٌ من العلوم والفنون ، هنالك أدبٌ وشعرٌ ، هنالك قانونٌ وسياسةٌ ، هنالك جميع وسائل الرُّقيِّ والتقدُّم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهذه المجموعة الصغيرة في هذه البيئة الضيقة ، المتأخرة المخنوقة ؛ التي لم يكن لها شأنٌ في العالم ، ولم تكن الأمم تحسب لها حساباً ، وقد صرح بذلك ملوك فارس ، وأباطرة الروم لرسل المسلمين وقوادهم ، فقالوا : والله ما كنا نكترث بكم ، ولا نرفع بكم رأساً ، فماذا تريدون منا؟ إن كنتم تريدون الكسوة نكسوكم ، وإن كنتم تريدون التموين نمونكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء العرب من فوق سبع سموات : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

هذا هو الحجم الكبير الذي تعطي هذه الآية لهذه الأمة ، بل لنواة هذه الأمة ، إنَّها كانت صغيرةً في القامة كبيرةً في القيمة ؛ لأنَّ الجمرة لا ينظر إلى حجمها ، وإلى عرضها وطولها ، إنما ينظر إلى القوة الكامنة والطبيعة المودعة فيها ، والرسالة المنوطة بها ، فجمرةٌ واحدةٌ تستطيع أن تحرق مدينة بأسرها ، وكذلك البذرة لا تقوَّم بحجمها ، إنَّ مجموعة صغيرة البذور تستطيع ـ إذا أرادت مشيئة الله ـ أن تنبت مزرعة يعيش عليها مدينةٌ كبيرةٌ ، والنور كذلك لا ينظر إلى وزنه إنما ينظر إلى رسالته التي نيطت به ، وأسندت إليه ، تتناولون «المفتاح الكهربائي» فينطلق التيار الكهربائي ، فينير هذه القاعة الكبيرة ، بل الجامعة كلها ، كذلك الشحنة الإيمانية التي أودعت في هؤلاء المسلمين كانت كفيلة بإنارة العالم كلِّه .

وهي نفس النظرة التي نظر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الأمة ، إن بدراً ليست منا ببعيدة ، قاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكتيبة المسلمة المؤمنة ، التي كانت نقطةً مغمورةً في هذا البحر من الكفر والطغيان من القوة المادية ، وكثرة السلاح ، إلى ساحة بدر ، استعرضوا

www.abulhasanalinadwi.org

الواقع الاستراتيجي ، ثلاثمئة وعشراً (٣١٣) إنساناً هل يرتبط بهم مصير الإنسانية وسعادتها ، ولا يرتبط بهم مستقبل هذا الدين الذي جاء به الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ، بل مستقبل أديان الأنبياء عليهم السلام كلهم ، ومستقبل الرسالات السماوية من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، من يصدق ذلك؟ ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرف قيمةَ هذه الكتيبة المؤمنة؛ التي قادها إلى بدر ، وقد حشد كلَّ طاقته ، وكلَّ ذخيرته إلى هذه الساحة التي كانت تقرر مصير الإنسانية ، ثم قام يدعو ربه ، ويبتهل إليه ، ويخرُّ ساجداً يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» كلمة ما وجدت نظيرها ـ في الثقة والاعتماد ـ في تاريخ الديانات السَّماوية ، وفي تاريخ القيادات البشرية ، وفي تاريخ التحركات العسكرية التي غيرت مجرى التاريخ ، قالها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أعرف البشر بالله تعالى وصفاته ، وأخشاهم لله ، كما قال: «أنا أخشاكم لله» ، والله ما يستطيع غير الرسول أن يقولها ، ولا يزال العالم الإسلامي مرتبطاً مديناً لهذا النصر المبين ، الذي تحقق في ساحة بدر ، ولا يزال يعيش في ظلال هذا الانتصار ، يأكل من رفده ، وينعم في كنفه ، وفي ظله قامت الحكومات ، وانتشرت الحضارات ، وانفجرت العلوم ، وتكونت المكتبات.

إخواني! فهذه هي النظرة التي كان ينظر بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمؤمنون الأولون إلى هذه الأمة ، وقد قرأت قصة في التاريخ ، لا أزال أتذوقها ، ليس الطعام فقط ، ولا الشعر فقط ، ولا الأدب فقط ، هو الذي يتذوق ، إنَّ القصص الصحيحة ، والوقائع الغريبة التي وقعت تتذوق أكثر مما يتذوق الطعام الشهي ، والله لا أزال أمضغ هذه القصة ، وأقلبها في فم ذوقي ، وعلمي ، وقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد المسلمين على ضفة دجلة ، وهم متجهون إلى المدائن عاصمة المملكة الإيرانية وكان الفرس ـ خشية من هؤلاء الموحدين الشجعان الأبطال الذين لا يخافون غير الله ـ قد كسروا الجسور والقناطر ، وأبعدوا السفن احتياطاً ، لأنهم كانوا يعرفون أنَّ العرب ليست في جزيرتهم

www.abulhasanalinadwi.org

الأنهار، وليست عندهم تجارب السباحة وعبور الأنهار ، فإذا جاؤوا إلى هذا الشاطىء، فإنهم لا بدّ أن يتوقفوا هنالك، ويفكروا في التراجع والانسحاب، فلما وصل سيدنا سعد بن أبي وقاص إلى هذا الشاطىء ، وكان قائداً محنَّكاً ، حكيماً ، مؤمناً ، يجمع بين التجارب العسكرية ، والحنكة القيادية ، والحكمة الإيمانية ، نظر إلى سلمان مستوضحاً مستشيراً.

هنالك قال سيدنا سلمان رضي الله عنه تلك الكلمة التي سجلها التاريخ العربيُّ الأمين ، قال: «إنَّ الإسلام لجديدٌ ذلِّلت لهم والله البحور كما ذلِّل لهم البرُّ»[١] يعني: أنَّ هذا الدين إلى الآن لم يقم بدوره كاملاً ، ولا تزال عليه مسؤولية السلالة البشرية ، ومسؤولية المصير الإنساني ، فأنا لا أصدق أن المسلمين الذين قد نيطت بهم الرسالة ـ وهذه الرسالة إلى الآن لم تستنفذ طاقتها ، ولم تؤدِّ دورها بعد ـ يغرقون؛ لأنهم لا يملكون سفناً ، إن هذا الدين لجديد ، وإنَّ هذه الأمة لفتيةٌ دافقةٌ بالحياة ، وإنَّ الله سيستخدم هذه النواة الصَّالحة السليمة لبناء الإنسانية بناءً جديداً ، فغير معقول أن يغرق جيش الإنقاذ ـ لعدم وجود السفن والجسور ـ هذا ما يتنافى مع حكمة الله تعالى ، يترك النهر يفعل فعله ، ولا يتركنا نعمل عملنا؟ ألسنا أحقَّ بالانتصار ، والتغلب ، وأحقَّ بالنجاح من هذا النهر؟ ما قيمة دجلة؟ نهرٌ يروي به الناس ظمأهم ، ويسقون به زروعهم ، ولكن الرسالة التي نحملها هي أكثر قيمةً ، وأنفع للبشرية من الماء الذي يشربون ، من الهواء الذي به يتنفسون ، لا تخف أيها القائد المؤمن ، صاحب رسول الله ، ومر جيشك يخض فإنه سيعبره[٢] إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات» .

وهذه النقطة تسترعي انتباه القادة والزعماء الذين لا يعرفون إلا سياسة

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) وقد خاض المسلمون فعلاً نهر دجلة بخيلهم ورجلهم فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض ، وجعلوا يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض ، ولم يعدم للمسلمين شيءٌ من أمتعتهم غير قدح خشب لرجلٍ فرده الموج إليه (البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٤ ـ ٦٥).

www.abulhasanalinadwi.org

الحرب ، وهذا الذي قاله سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فقد قال في رسالةٍ وجهها إلى قائد جيشه :

«وآمره ألا يكون من شيءٍ من عدوِّه أشدَّ احتراساً منه لنفسه ومَنْ معه من معاصي الله ، فإنَّ الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم (إلى أن قال) ولا تكونوا لعداوة أحدٍ من الناس أحذر منكم لذنوبكم»[١] .

ولكن ما هي النظرة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، اسمحوا لي أن أذكر لكم تجربتي الخاصَّة ، لمَّا وفقني الله سبحانه وتعالى لتأليف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي نوه به المعرِّف الكريم ، استغرب الناس الاسم ، ومجَّت آذانهم وعقولهم كيف يخسر العالم بانحطاط المسلمين ، هل المسلمون في مكانةٍ يخسر العالم بانحطاطهم شيئاً ، ويربح برقيِّهم شيئاً ، والله إنهم أحطُّ مكاناً! وأقلُّ شأناً من هذا! حتى اقترح لي بعض الكتاب ، لو أن المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ غيَّر هذا الاسم؛ لكان أحسن له ، هنالك عرفت النظرة الخسيسة التي ينظر بها المسلمون أنفسهم إلى أنفسهم ، ومدى مركَّب النقص الذي ابتلوا به حتى المؤرخون المسلمون ، حتى الكتَّاب الإسلاميُّون ، إنهم اعتادوا أن ينظروا إلى المسلمين من زاوية التاريخ ، من زاوية الأحداث ، من زاوية الشعوب والأمم ، من زاوية التقلبات ، وكانوا ينظرون إلى العالم والتاريخ من زاوية المسلمين ، ما كانوا يعتقدون أبداً ، أنَّ المسلمين عاملٌ من عوامل التاريخ ، هم يستطيعون أن يتأثروا ، ولكن لا يستطيعون أن يؤثروا ، وإذا استخدمنا لغة الألعاب الرياضيَّة ، ـ ولو مؤقتاً ـ قلنا : إن المسلمين ليسوا صولجان اللاعب ، إنما «هم الكرة المستهدفة» ، وعندنا مثلٌ في بلادنا يتذوقه إخواننا الباكستانيون ، والهنود ، إذا أردنا أن نصور إنساناً ضعيفاً ، أو مجتمعاً ، أو شعباً ضعيفاً ، نقول : إنه كبطيخةٍ سواءً وقعت عليها السكين ، أو وقعت هي على السكين ، على كلٍّ حال فالخطر على البطيخة ، هي تتمزق ، هي تتفتت ، وتتناثر .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

www.abulhasanalinadwi.org

وهذه هي نظرة المسلمين مع الأسف لا تزال سائدةً على كثيرٍ من الأوساط العربية والإسلامية ، ننظر إلى المسلمين كأنهم ما خلقوا إلا ليخضعوا للحوادث ، ويتأثَّروا مما يحدث حولهم ، أما أنَّهم يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة الإنسانية ، وعلى الاتجاه العالمي ، وعلى القيم والمثل ، فلا المسلمون قطيعٌ من قطعان الغنم الكثيرة ، تساق بالعصا ، ما كانوا يتصوَّرون ، وإذا قيل لهم لا يصدِّقون: أن العالم قد خسر شيئاً بانحطاط المسلمين ، وتخليهم عن قيادة البشرية ، وبتقصيرهم في حقِّ الله ، وفي حقِّ الإنسانية ، فعرفت أنَّ الخطأ من الكتاب والمؤرخين ، لأنَّهم إنما صوروا المسلمين كشعبٍ من الشعوب الكثيرة المعدودة بالمئات ، شعبٌ يعيش تحت رحمة الوقائع والتقلبات ، وتحت رحمة الحكومات والحضارات ، والفلسفات والمعسكرات ، إنَّهم ما عرفوا القوَّة الكامنة في الرسالة الإسلامية التي يحملها المسلمون. حقيقةٌ يجب علينا أن نأخذها بعين الاعتبار ، وهي الحقيقة الخالدة المسيطرة على جميع الاعتبارات السياسية والاقتصادية: إنَّ المسلمين أصحاب رسالة. إنَّ المسلمين أصحاب عقيدة. إنَّ المسلمين جند الله ، والله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

بهذه النظرة يجب علينا يا إخواني! يا أبنائي الأعزاء! أن ننظر إلى أنفسنا ، أنتم خلاصة العالم الإسلامي ، أنتم روَّاد العالم الإسلامي وطلائعه ، ساقتكم بلادكم وأسركم إلى هذه المدينة الطيبة لتستمدوا هذه الثقة التي لا تجدونها إلا في هذه المدينة ، مدينة الرسول الأمين ، أو في مكة البلد الأمين ، هنا مصدر الثقة ، هنا مصدر الاعتزاز ، هنا مصدر الإيمان ، هنا مصدر الاعتماد على الله ، هنا مصدر تعاليم التجرد من الأنانية ، التجرد من الترف المدمِّر للأمم والحضارات ، التجرُّد من البطر الذي حذر الله منه فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ المعسكرات المبدئية التي يحسب لها الحساب الكبير كلها كنسج العنكبوت ، إذا قام فارس من فرسان الإسلام المؤمن الواعي ، الداعية المخلص ، المؤيد من الله يستطيع أن يأخذ عصا ، ويطوي بها هذا النسيج كله ، هل يـقوم معسكرٌ على غيـر عقيدةٍ ، على غيـر إيمانٍ ، على غير خشية الله ، هل يقوم معسكرٌ على غير رحمةٍ للإنسانية ، ورسالةٍ عادلةٍ نافعةٍ ، رحيمةٍ بالإنسانية ، هذه معسكراتٌ زائفةٌ ، إنها اكتسبت القيمة ، لأنكم أنتم فقدتم القيمة ، فاستعيدوا هذه القيمة ، تفقد هذه المعسكرات قيمتها وقوتها .

إنَّ الوضع الدينيَّ ، والخلقيَّ ، والاجتماعيَّ ، والسياسيَّ المزري الذي يعيشه العالم اليوم ، بل الانهيار الإنساني ، والاحتضار المعنويُّ الذي يعانيه مجتمعنا المعاصر كلُّه تفسيرٌ لقوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال : ٧٣] لم نؤدِّ واجبنا ، ولم نقم بدورنا في تكويننا ، وفي تكوين المجتمع الإسلاميِّ المؤمن القوي النقيِّ ، فكانت فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، والمريض لا يعالج المريض ، والمجتمع الذي فقد حصانته الخلقية ، وقوته الباطنية ، وتماسكه الخلقي ، وتمرُّده على الشهوات والسَّفالات ، وصموده أمام المغريات النفسية ، والمالية ، والسياسية ، ولم يحمل دعوة يعتزُّ بها ، ويتحمَّس في القيام بها ونشرها ؛ لا يستطيع أن يحافظ على كيانه وشخصيته حتى بقائه واستمراره ، فضلاً عن عملية إنقاذ العالم المعاصر ، والمجتمع الحاضر ، من التدهور والانهيار ، وما يرغب فيه ويسعى إليه من الانتحار .

وندعـو الله تعـالى أن يعيـد إلـينـا إيمانـنـا برسالتنا ، ثم بدورنا ومركزنا ، ويعيدنا إلى مكاننا الطبيعي والشرعي في خارطة العالم ، وفي إطار الإنسانية .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

أسباب حيرة الشباب وعلاجها

انعقدت ندوة علمية في عمان في ١٨/٨/٧٣م في قاعة الكلية العلمية الإسلامية ، وحضرها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء البلد ، والمعنيين بالثقافة الإسلامية ، وكان العنوان: «دور الشباب المسلم في المجتمعات المعاصرة».

قدم الأستاذ محمد إبراهيم شقر للندوة مقدمة قيمة صور فيها واقع الشباب ووقوعهم فريسة لحيرة تورطوا فيها ، وصور العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه تصويراً دقيقاً شاملاً ، تعرض فيه للطاقات والفلسفات المتنافسة التي تتوزعه وتتحكم فيه ، ثم وجه السؤال الأول وهو:

أستاذنا! العالم الإسلامي بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب المسلم في بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولا ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها؟

وشرح العلامة الندوي أسباب حيرة الشباب وعلاجها .

www.abulhasanalinadwi.org

إني أصارحكم أيها السادة! أني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الإسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن الشجرة لا تلام على ثمرتها ، إن في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ، ثم سهر عليها وغذاها ونماها ، وسقاها وأحيا ليالي متوالية ، وقف في وهج الشمس وفي البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً وأنكر منها هذه الشجرة ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الشجرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون ستعطي ثمر الزيتون وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا.

إن من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم عامة ، هو التناقض في التوجيه والإعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقونه تلقيناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت إسلامي في أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الإسلام وقرأ التاريخ الإسلامي ـ إذا أكرمه الله بذلك وسنحت له هذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سبق ـ ومعذرتي إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار ـ إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلهم لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب زعامة في كثير من العلوم ، كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، يسمع ويرى كل ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع

www.abulhasanalinadwi.org

فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، أنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العمق يتلقى من مؤسسة «الإعلام» ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي «صاحبة الجلالة» في نظر كثير من الناس تقدم إليهم في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف قبل أن يكسر الصفراء على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، إنه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها ، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء وإغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان ـ وإن كان ناضح الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأي ـ في حيرة ، فكيف بالشباب الناعم ؟ وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة ؟!

إن مثل ذلك أيها الإخوان السادة! كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام وركب فيها فرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة

www.abulhasanalinadwi.org

من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حاد ، إن هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب .

ورداً على سؤال وجهه الأستاذ عن العلاج الصحيح لهذه الحيرة التي يقع فيها الشباب صرح سماحته : «إنني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هي توحيد نظام التعليم ، ولستم في حاجة إلى شرح هذه النقطة ، فإن المعسكر التعليمي موزع قسمين : المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية في التعليم هو السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ومواد التعليم ، فهنالك كما قلت تناقض في المواد الدراسية فالذي يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، فكذلك العلوم التي لم تكن لها صلة بالعقائد هي كذلك لها اتصال بالعقائد وما أصبح التعليم مجرداً أن اعتقاد أن من التعليم ما هو محائد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير في العقيدة قد أصبحت نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، فالخطوة الأولى الخطوة الثورية الجذرية هي إحداث تنسيق في نظام التعليم ، فلا قديم ولا جديد ، ولا ديني بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوربي ، ولا بالمعنى الإسلامي

www.abulhasanalinadwi.org

الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ولا تعليم دنيوي أو زمني أو علماني ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولا بد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية.

ثم إزالة النفاق يعني: هذا التناقض الذي يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة: «النفاق» لا أعني بالتنسيق التنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، إنما أعني به التنسيق في تعليم القطر ، إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني إحداث نظام تعليمي كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، إلى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب ، إنه يحتاج إلى الاجتهاد في المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، وتحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية والمجامع الإسلامية الكبيرة فإذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا في إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه إذاً من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية.

ثم الإخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية وإكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة ، وهذه الغاية لا تتحقق إلا إذا مثّل الشباب دورهم كشباب مسلم في هذا المعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة ، وليس هناك طراز واحد من الشباب ، إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم في استعداد تام وعندهم التألم الشديد مما واقع حولهم ، إن هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة: إن الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أن في الشباب مجالاً واسعاً للعمل الإسلامي والفكر الإسلامي ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسن ، إن الشباب قلقون اليوم وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم

www.abulhasanalinadwi.org

وإن هناك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ ، كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، إن هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوربا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصة ومراحل معينة مرت في رحلتها الطويلة ، ولكن ـ مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الإنسانية ـ لما آلت القيادة إلى أوربا أثرت هذه التجارب في تفكير الأمم التي كانت في عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص كانت لدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب ، لم يكن منها في عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية «الدين قضية شخصية» و«الفصل بين الدين والسياسة» هذه كلها تجارب الأمم الأوربية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة ، وللطبيعة المسيحية التي دانت بها أوربا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود في الشباب ، والشباب بدؤوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف في حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ . وإني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق وفي آسيا : إن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش في عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظن ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجر عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب ،

www.abulhasanalinadwi.org

يحتاج ذلك إلى الحكمة التي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية وحلاوة التعبير التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ في عقول الشباب وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق.

[إننا نرى ـ مع الأسف الشديد ـ أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع من آداب اللغة، والحصول على تلك المقدرة البيانية، والأسلوب البليغ الذي يدخل إلى قرارة النفوس، من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة، وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء، ولكنه أنزل كتابه في أسلوب معجز، وفي لسان عربي مبين ولم ينزل في لسان عربي مبين فحسب، بل نوه بهذه الناحية في غير موضع من مواضع القرآن، فقال ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الأسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة. وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص وعلى ذروة الانقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة كانوا لا يستهينون بهذه الناحية، وإنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام، ولا نضرب المثل بالنبي الكريم ﷺ في هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع، ولكني أضرب المثل بسيدنا علي بن أبي طالب، إنه كان في قمة من البلاغة، ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الإسلامية، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة في الدعوة الإسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين، إنني في الحقيقة أوخذ بالحيرة، إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلاني، فأنا أرى أن هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كله، وفي جميع العصور بزهده وبقناعته وبربانيته، وبإشراقه وتبتله، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه في بغداد، البلد الذي ولد فيه الحريري وولد فيه ابن الجوزي، وولد فيه

www.abulhasanalinadwi.org

الصابي ، وولد فيه هؤلآء الشعراء ، وتغنى فيه البحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري.

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محطة كل عبقري من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسان يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التي دونها المدنون وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف.

وهذا يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب ، إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامي العميق ، فعلينا أن نتسلح بذلك ، أن نعد له عدته ، وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكل زمان ومكان ، وهي لا تزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة إسلامية علمية تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن ، بل يتشوقون إليها ويمدون إليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإني واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا ، لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الشباب المسلم المقيم في ديار الغرب

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة خلال زيارته للندن بتاريخ ٢٧/ أكتوبر عام ١٩٦٤ م ، أمام الطلاب والشباب .

www.abulhasanalinadwi.org

إخواني الأعزاء!

تحياتي إليكم على بعد الدار ومن وراء البحار ، تحياتٌ صادرةٌ من قرارة القلوب وأعماق النفوس ، مغمورةٌ بالحب والإخلاص وعاطفة الأخوة الإسلاميَّة الصادقة .

إنَّ وجودكم في قلب أوربا أو أمريكا ، وفي مصدر الحضارة الغربية العالمية ، والنشاط الثقافيِّ أو الصناعيِّ الذي غزا العالم ، لا أعتبره حادثة اضطرارٍ لم تكن عن رضا واختيار ، ولا مأساةً تستحقُّ المواساة ، إنما أعتبره ـ مهما كانت الأسباب والدوافع لهذه الهجرة المؤقتة أو الدائمة ـ هبةً من الله ، وتيسيراً منه ، وفتحاً من الفتوح التي سعد بها الإسلام والمسلمون في تاريخهم الطويل .

إنَّها سعادةٌ ومكسبٌ لكم في حياتكم الشخصية المحدودة ، وسعادةٌ ومكسبٌ للمجتمع الذي تعيشون فيه ، المجتمع الذي قُدِّر له أن يسوق العالم ، ويملي عليه إرادته وهواه ، المجتمع الأوربي بالمعنى الواسع الذي يشمل بريطانيا ، وأمريكا ، والقارة الأوربية بأسرها .

إنَّها فرصةٌ تفتح فيكم كوة جديدة للإيمان والثِّقة بالإسلام ، والاقتناع بما حواه القرآن ، ودعوة الأنبياء في عصورهم ، ودعوة آخر الرسل في عصره الذي لا نهاية له إلا بنهاية هذا العالم ، ونهاية الحضارة البشرية ، كوة لا تنفتح إلا في مثل المجتمع الذي تعيشون فيه اليوم ، وفي «معمل» الحضارة الغربية الذي لا يوجد في الشرق وفي بلاد الإسلام ومهد الحضارة الإسلامية .

وهي تفتح كوةً جديدةً في المجتمع الأوروبي ، تجربة جديدة في عالم الأفكار والقيم ، وصدمة للفكر الأوروبي ، وتحريك له بعد ما جمد وتوقف

www.abulhasanalinadwi.org

عن الابتكار والثورة منذ زمنٍ طويل ، واشتغل بالإعادة وعمل «الاجترار»[١] لا يطلب جديداً ، ولا يأتي بجديدٍ .

أما فيما يخصُّ أنفسكم ـ أيها الشباب المسلم المغترب ـ فقد قالوا : إنَّ المجتمع الإنساني المتمدِّن يمكن ، لا بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان ، والقيم الخلقية ، والرسالات السماوية ، إنَّه يستطيع أن يقوم على أساس العلم ، والتنظيم ، والصناعة ، والاقتصاد ، والوعي السياسي ، والقومية ، والوطنية ، والاتفاقات ، والتعهُّدات الاجتماعية والدستورية ، وإنَّ المجتمع ليسعد ويترفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء ، وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وإنَّ سر شقاء الإنسان في العصر الماضي صعوبةُ التعارف والتفاهم بين أعضاء الأسرة الإنسانية في أنحاء الأرض ، وفي مختلف القارات والأقاليم .

لقد ألحَّ الغرب على هذا المعنى ، وتحمَّس له تحمس المؤمنين الجدد ، وكان هتافه «لا إله ولا دين ، ولا غيب ، ولا إيمان ، ولا روح ، ولا أخلاق ، ولا آخرة ، ولا مبادىء» فأصبحوا في الزمن الأخير يحاربون المتقيدين أو المحترمين للمبادىء الدينية ، أو الخلقية ، ويسمونهم (المبدئيين) (Fundamentalists) ، وإنما هو حسٌّ وتجربة ، أو لذَّةٌ أو منفعةٌ ، أو قوميةٌ ووطنيةٌ ، أو غريزةٌ وعاطفةٌ ، أو ديمقراطيةٌ وجمهوريةٌ ، أو اشتراكيةٌ وشيوعيةٌ ، وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات ، وأبطال هذه الدعوات وتلاميذهم ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم وكثرة مذاهبهم ، وتوزعوا العالم الغربي ، وخضع لهم كلُّ شيءٍ ، وازدهرت مدارسهم مدَّةً طويلةً ، ولا تزال تسيطر على العقول والآداب ، ومراكز السياسية ودور الاختيار ، والمجتمع الأوروبي المعاصر قد اقتبس من كلِّ

(١) اجتر البعير : أعاد الأكل من بطنه ، فمضغه ثانية .

www.abulhasanalinadwi.org

هؤلاء وتأثر بمجموعهم في قليلٍ أو كثير ، وآمن بالقدر المشترك بينهم وهو «المادية» .

منحت أوربا فرصة تحقيق هذه المبادىء التي آمنت بها في سخاء وحرية لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهي أطول فرصةٍ مع أعظم مقدارٍ من الآلات والوسائل والتسهيلات التي تمنح القيادات في التاريخ ، على يد عمالقةٍ نوابغ عبقريين في العلم ، والاختبار ، والتنظيم ، والإدارة ، وليست على وجه الأرض قيادة تعارض هذه القيادة ، أو دولةٌ قويةٌ تعرقل سيرها ، وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارها قديماً أمام طموح أوربا الماديِّ والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الإسلامي لغزواتها السياسية والفكرية في القرن التاسع عشر المسيحيِّ ، وخلا لها الجوُّ ، ودان لها العالم بشرقه وغربه ، وشماله وجنوبه .

لقد أمكن أوربا المادية أن تبرز جميع مواهبها ، وأن تمثل «المادية» على المسرح في جوٍّ مملوءٍ بالهتاف والتصفيق ، والتأييد والتصديق ، فإذا كان لمسرحيةٍ في العالم أن تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أبرعُ رجالٍ في أوفق أحوال .

ولكن ماذا كان؟ أخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة أذكى عقولٍ بشريّةٍ ، وأغنى قرائح إنسانيةٍ في أهدافها ومراميها إخفاقاً لم يعرف في التاريخ .

عداءٌ داخليٌّ وخارجيٌّ ، وصراعٌ بين الأفراد والطبقات والشعوب ، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كله ، وبركان متهيِّىءٌ للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذرٌ صارخةٌ لنهاية البشر الأليمة ، وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلط الذعر والفزع على الأعصاب ، وقلقٌ دائم ، وتفسخٌ خلقيٌّ فظيعٌ يتخطى القياس ، وفراغٌ روحيٌّ هائل لا يملؤه شيء ، وسآمةٌ لا نهاية لها ، ولا علاج ، وتشاؤمٌ ، ويأسٌ ، وحيرةٌ .

إنَّ فرصة إخفاق الحضارة الغربية قصةٌ معادةٌ مكررةٌ ، ولكنَّها قصةٌ يجب

www.abulhasanalinadwi.org

أن تروى ، وتتلى ، وتعاد ، وتكرر ، وهي قصةٌ تهمُّ الإنسان في كلِّ مكانٍ ، وتتصل به وبحياته من أقرب طرق ، ولأنَّ في الشرق من لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقداستها ، ولا يصدِّق أنَّ مثلها يخفق ويخيب ، أو أنَّها قد أفلست في معنوياتها ، وهو يراها تبرهن على وجودها وقوتها في الشرق والغرب.

إنَّكم أيها الشباب المسلمون المغتربون ، بمسمعٍ ومرأىٰ من هذه الحضارة تكتوون بنارها ، وتعيشون في وسطها ، وتشاهدون إخفاقها ، وتهيُّؤها للانهيار في كلِّ مكانٍ ، تشاهدون ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم ، وموت العاطفة الإنسانية في قلوبهم ، وفي أخلاق الشعب ، ورخص قيمة الأعراض في عينه ، وهدر الكرامة الإنسانية ، وضياع القيم الخلقية ، وفشوِّ الجنايات والسفالات في المجتمع ، وعجز قادة الفكر والسياسة عن إيجاد رسالةٍ إنسانية تنفخ روحاً جديدةً في المجتمع ، وتسوق الأمم نحو هدفٍ واحدٍ ، وتجمع شملها ، عن ملء الفراغ الرُّوحي ، وعن إعادة الهدوء والسلام والثقة بالإنسان ومستقبله ، إلى غير ذلك مما يتَّسم به هذا المجتمع الراقي الذي بلغ أوج الحضارة ، والتنظيم والوعي.

ويتجلَّى لكم بعد ما شاهدتم هذه الآثار أنَّ كلَّ مجتمعٍ لا يقوم على أساس «الإيمان» إنَّما هو مجتمعٌ يقوم على شفا جرفٍ هارٍ ، لا بدَّ له أن ينهار ، وإن طال أمده ، واتَّسع سلطانه ، ولا سبيل إلى «الإيمان» إلا دعوة الأنبياء والرسل ، وسيرتهم؛ الذي يملؤون الأمم الواسعة والجماهير الكثيرة بالروح الخلقية وقوة الإيمان والإنسانية السامية التي ليس فوقها إلا الصفات الإلهية ، ويشعلون قلوب الملايين ـ من غير مدارس ، وجامعات ، ومجامع علمية ، ووسائل للنشر والتأثير ـ إيماناً وحماساً وزهداً في المطامع والزخارف ، وقوة مقاومةٍ للشهوات ، وإيثاراً للآخرة على العاجلة ، وإيثاراً لغيرهم على نفوسهم ، وحبّاً لله الذي لا يرونه بعيونهم ، ولا تتناوله حواسُّهم ، والتفاني في رضاه ، وهذه سيرتهم ، وكتب التاريخ تحكي عنهم وعن أتباعهم كلَّ غريب ، وكلَّ معجب ، ولولا التواتر ، ولولا الآثار لسارعت النفوس إلى تكذيبه والشكِّ فيه ، وهم الذين

www.abulhasanalinadwi.org

أنقذوا البقية الباقية من الحضارة والمجتمع البشري من الغرق في آخر لحظة، وقيمها: التراث الحضاري وكلَّ ما شاده البشر في آلاف من السنيين، وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصالحة من الضياع والتلف إلى آخر الأبد، ومدُّوا في أجل السلالة البشرية ومنحوها بجهادهم الطويل وإخلاصهم العميق حقَّ البقاء، وجدارة الحياة.

ومن المقرر المشاهد الذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الأديان التي أسعفت الإنسانية في أزماتها ومحنها المختلفة ـ وفضلها لا ينسى في تاريخ المدنية ـ قد فقدت قوَّتها وحياتها مع امتداد الزمان وطوارق الحدثان، وأصبحت فتيلة قد نفد زيتها واحترق خيطها، أو كحبوبٍ عصرت إلى آخر قطرةٍ، فهي لا تُسمن ولا تغني من جوع، وهي ليست من القوة والحياة بمكانٍ تستطيع فيه أن تقاوم هذ المدينة القوية وإغراءاتها الجارفة، وليست في الذين لا يزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقة بهذه الأديان وصلاحها لكل زمان ومكان، وحماسة للدعوة إليها والجهاد في سبيلها، ولمواجهة المدنية العصرية وتحدياتها، وجلُّهم أو كلُّهم قد وضع أوزاره أمام المادية الغربية واعتزل المعترك، وآمن بأن «المادية» لا تفرَّ منه، وأنها مصير الإنسانية المحتوم.

إنما هنالك ـ أيها الإخوة المسلمون الشباب! ـ دينٌ لا يزال في حياته وأصالته ونقائه، ولا يزال أهله يعتقدون أنَّهم مأمورون بتبليغ الرسالة وإنقاذ المدنية والحسبة على الإنسانية. ومسؤولون أمام الله وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم، ويمتازون بين أهل الأديان بأربع ميزات بارزة:

الميزة الأولى: وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة، الكفيل بسعادة البشرية وتوجيهها، يحمل أعظم علمٍ وأعمقه بين دفتيه، ويملك أعمق تأثيرٍ في القلوب والعقول، وهو ثروة البشرية العظمى، والمعين الذي لا ينضب، والمدد الذي لا ينفد، قد أحدث أعظم ثورةٍ في تاريخ البشرية، ويستطيع إذا أطلق له العنان وحكم في قيادة الإنسان أن يحدث أعظم ثورة مرَّة أخرى.

www.abulhasanalinadwi.org

والميزة الثانية: هذه السيرة النبوية العطرة التي هي أجمل صورةٍ على الإطلاق في مجموع الصور البشرية الفنية، وأعظم صفحة مشرقة في تاريخ البشر، تعيد إلى الإنسانية كرامتها ومكانتها، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الإنسان بأشرفية النوع الإنساني، الصورة التي لا يملك أمامها الإنسان ـ إذا لم يفقد حسَّ الجمال وحبَّ الكمال ـ إلا أن يفتخر بأنَّه من نوعه ومن بني جنسه، ويتمنَّى أن يتسامى بتقليده للصور التي يجد فيها كل إنسان قوة، وسكينة، وأسوة، وقدوة، وحياة، وتوجيهاً، وجوانب مشرقةً تفتح منافذ جديدةً، وتثير معاني جديدةً، وهذه الصورة لا تزال بملامحها وقسماتها الأصيلة لم تطوها يد الزمان.

والميزة الثالثة: وجود الشريعة الإسلامية كما تركها صاحب الرسالة محفوظةً في أصلها وأساسها غنيةً في ثروتها الفقهية، صلبةً مرنةً لا تتنازل عن القديم، ولا تتجهم للجديد، لا تخجل من ماضيها، ولا تفرُّ من حاضرها، تالدةً خالدةً، صالحةً لكلِّ عصر وبيئة، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمعٌ جديدٌ وحضارة صالحة.

والميزة الرابعة: وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين على علاتهم ومواضع الضعف فيهم، وانقيادهم للدعوة الدينية وخضوعهم لها، إذا وجد الدعاة المخلصون، وهذه قوة قد فقدها، وأفلس فيها عامة الأمم الغربية، وهي قوةٌ لا يعرف قيمتها إلا من اشتغل بالدعوة والتجديد الديني في أمةٍ من الأمم، ومن رأى إخفاق هؤلاء الدعاة في إعادة الحياة الدينية والروح الدينية في هذه الأمم.

أنتم أيها الإخوة المسلمون المغتربون في أوربا وأمريكا! تشاركون هذه الأمَّة العظيمة في هذه الميزات، وأنتم عضوٌ في هذه الأسرة العظيمة ورثتم كلَّ ما ورثته أسرتكم الإسلامية العالمية، ليس بالمعنى الذي يفهمه الجهلاء من عضوية أسرة كريمةٍ فاضلة، وليس بمفهوم التراث كما يتصوره كثيرٌ من الباحثين والمستشرقين، فيضعون كتباً في التراث الإسلامي (Legacy of Islam) ولكن بالمعنى الرفيع العميق الذي يفهمه العقلاء من أعضاء أسرة

www.abulhasanalinadwi.org

مثلت دوراً ممتازاً في خدمة العلم والدين ، فعليكم أيها الإخوة الفضلاء! أن تدرسوا الإسلام من جديد ، وفي ضوء هذه الميزات التي عرضناها باختصار ، وأن تفقهوا الإسلام وتجيدوا فهمه وتتعمقوا في دراسته ، وأن تقبلوا على استعراض القرآن والتدبر فيه كأنه كتاب عرفتموه حديثاً ، وإن شئتم فقولوا نزل آنفاً جديداً ، وأن تدرسوا السيرة النبوية والحديث النبوي ، وتكثروا من قراءتها. وتحاولوا أن تتصلوا بالرسول الأعظم ـ ﷺ ـ اتصالاً شخصياً ، اتصالاً مؤسساً على الدراسة ، والتفكير ، والحب ، والعاطفة ، والإجلال ، والتقدير ، والاتباع ، والتقليد.

ثم عليكم أن تمثلوا هذا «الإسلام» تمثيلاً صحيحاً في أوربا وتظهروا بالعقيدة الإسلامية ، وتحافظوا على فرائض الإسلام وأخلاقه وشعائره في شجاعةٍ وثقةٍ ، لأنكم تمثلون أفضل دينٍ وأصحَّ عقيدةٍ في بيئة تفتقر إليها أشدَّ افتقار ، وبذلك تحسنون إليها ، وتحسنون إلى الغير من زملائكم وإخوانكم المسلمين ، وإلى الذين هم في سنكم في الشرق الإسلاميِّ الذي يخجلون من تمثيل الإسلام والظهور في مظهره في الحواضر الإسلامية ، والجامعات العربية ، وتسنون لهم سنةً حسنةً لكم أجرها وأجر من عمل بها ، وبهذه الحياة الإسلامية النزيهة العفيفة التي فيها الصلاح والتقوى ، والصدق والأمانة ، والذكر والعبادة ، والرضا والقناعة ، والنشاط والقوة ، ورقة العاطفة وإشراق الروح ، تستطيعون أن تجذبوا إلى الإسلام عدداً كبيراً من أصدقائكم وزملائكم وأساتذتكم وجيرانكم. وهكذا دخل العدد الأكبر من المنصفين والعقلاء في حضانة الإسلام في البلاد التي لم يغزها جيشٌ إسلاميٌّ ، ولم يلمع فيها سيف مجاهد.

قد تكونون أيها الإخوة الأعزة تلاميذ في جامعةٍ ، أو عاملين في مصنع ، أو موظفين في مصلحةٍ ، وقد تكونون صغاراً في ثقافتكم ، أو وظيفتكم ، أو مكانتكم الاجتماعية ، ولكنكم كبارٌ في عقيدتكم ، ودعوتكم ، فأساتذتكم في الفنون التي تدرسونها أساتذةٌ وشيوخٌ ، لهم عليكم حقوقٌ وفضلٌ ، والإسلام أول من يعرف لصاحب الفضل فضله ، ولكنهم في حاجة إلى أن يفهموا الإسلام ويروه ممثلاً في شخصكم ، وأنتم بذلك في

www.abulhasanalinadwi.org

منزلة المرشد والموجه ، فاعرفوا قيمتكم ، وقدروا مسؤوليتكم ، وأدُّوا حقوقها ، وأحسنوا القيام بهما.

وأعود فأقول: إنَّ وجودكم في أوربا وأمريكا فرصةٌ غالية يجب أن تنتهزوها ، ويجب أن تستغلوها لصالح الإسلام ، ولصالح الإنسانية في وجودكم في هذه البلاد يقوى إيمانكم وثقتكم بالدين الذي أكرمكم الله به ، ويفتح طريقاً جديداً لتقدم الإسلام في هذه البلاد وانتشاره في هذه الناحية التي حرمت نعمة الإسلام من زمنٍ بعيد ، وتهيَّأت لها القيادة والسيطرة على العالم ، فكان في ذلك شقاؤها ، وشقاء الناس ، لأنها كانت من غير منهاج نبويٍّ ، ورسالة سماويَّةٍ عالميَّةٍ ، ومؤهلاتٍ خلقيَّةٍ وروحيةٍ ، ولعلَّ وجودكم وجهادكم يتداركان هذا الخلل ويملأان هذا الفراغ.

والله ولي التوفيق.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

احـذَروا مِـن أن يـنشـأ إسـلامٌ أمـريكـيٌّ أوروبـيٌّ

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مدينة «نيوجرسي New Jersey» في أمريكا الشمالية ، وقد قدَّم المحاضرَ العالمُ المصري الباحث ، الدكتور سليمان دنيا المشرف العام على المركز الإسلامي ، وقد ذكر في كلمته القيمة أنَّ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ليست محتكرةً على العرب ، خاصة بهم ، وأشاد بما لعلماء العجم ـ خاصة علماء شبه القارة الهندية ـ من مساهمةٍ كبيرةٍ في تكوينها وتوسيعها وتهذيبها ، ونوَّه بصفةٍ خاصةٍ بمآثر العلاَّمة السيد مرتضى الزبيدي (البلجرامي الهندي صاحب «تاج العروس» في شرح القاموس المتوفى ١٢٠٥ هـ) واللغوية العلمية ، وذكر أنَّ الإسلام دينٌ عالميٌّ لا يعرف الحدود الجغرافية والفروق الإقليمية والقومية .

وقد استمع إلى هذه المحاضرة عددٌ وجيهٌ من العرب المثقفين والهنود والباكستانيين المقيمين في أمريكا ، وذلك في ١٦/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ٤/ من يونية ١٩٧٧ ، ظهراً .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الإسلام يغزو الولايات المتحدة :

إخواني وسادتي! أنا سعيد بهذا اللقاء الكريم وبهذه المناسبة الطيبة المباركة حين ألتقي بكم في هذا المركز الإسلاميِّ الكبير ، وهذه هي جولتي الأولى في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية ، وكنت أسمع كثيراً عنها وعن انتشار الإسلام فيها ، وعن عناية إخواننا المسلمين الذين تدبَّروا هذه البلاد وانتقلوا إليها بالإسلام ، وبحبهم له ، وبغيرتهم عليه ، ولكنني لا أخفي عنكم أنني لم أكن أتصوَّر أني سأجتمع ـ بإذن الله ـ بهذا العدد الكبير من إخوتي المسلمين ، وأرى فيهم هذا النشاط وهذا الحماس للدين ، وهذه العاطفة الإسلامية الطيبة .

وقد عرفت أنَّ الإسلام بدأ يغزو هذه البلاد ، التي تسيطر الآن على العالم المعاصر ، تسيطر عليه بتقدُّمها في الصناعة ، وبتقدُّمها في العلوم الحديثة ، والعلوم التطبيقية ، وبتقدُّمها في مضمار الاكتشافات ، وباستحواذها على مجال الحياة السياسية في هذا العالم .

لقد بدأ الإسلام يدخل في هذه المنطقة ، وصار يشقُّ له طريقاً إلى الأمام ، وسيأتي يومٌ قريبٌ إن شاء الله حين يتكوَّن مجتمعٌ إسلاميٌّ هنا في هذه البلاد البعيدة ، إنَّني متفائل ، وإنَّني مسرورٌ وسعيد بذلك .

ولكن في نفس الوقت يساورني خوفٌ في ضوء التجارب والدراسات التي وفقني الله لها ، وهو أن نشوء مجتمعٍ إسلاميٍّ في بلادٍ بعيدةٍ عن مركز الإسلام، وعن مركز الثقافة الإسلامية ، ومركز الحياة الإسلامية أمرٌ خطيرٌ .

الإسلام يحتاج إلى جوٍّ خاص :

لا شك أنَّ الإسلام ليس خاصاً ببلدٍ دون بلدٍ ، كما تفضل أستاذنا

www.abulhasanalinadwi.org

الدكتور سليمان دنيا ، ـ وأنا أوافقه في ذلك مئةً في المئة ـ أنَّ الإسلام ليس ديناً إقليمياً ، ولا ديناً جغرافياً.

[ولكن رغم ذلك كلِّه ممَّا لا شك فيه أنَّه يحتاج إلى جوٍّ خاصٍّ ، يحتاج إلى ذوقٍ مسيطرٍ على التفكير والشعور وموازين الأشياء والقيم تشم رائحته من بعيد ، إنَّه يحتاج إلى مناخٍ إسلاميٍّ ، وإذا كنت أكثر صراحة ، وأدقَّ في التعبير قلت: إنَّه يحتاج إلى طقسٍ ودرجة حرارةٍ وبرودةٍ معيَّنة (Temperature) لأنَّه دينٌ حيٌّ إنسانيٌّ ، ليس ديناً عقلياً يعيش في المخ ، أو يعيش في الفلسفة ، أو يعيش في مكتبة ، إن الإسلام ليس عقيدة فحسب ، أو ليس قائمةً طويلةً أو قصيرةً من عقائد يدين بها الإنسان وكفى.

الإسلام في وقتٍ واحدٍ عقيدةٌ ، وعملٌ ، وسلوكٌ ، وخلقٌ ، وعاطفةٌ ، وشعورٌ ، والإسلام كذلك ذوقٌ ، ذوق يستولي على الإنسان ، ويصوغه صياغةً جديدةً ، إذا شرح الله صدر أحدٍ لدين الإسلام ، وآمن به كدين الله المختار ، وكالرسالة الأخيرة؛ فإنَّه يصهر في بوتقة الإسلام. إنَّه يسبك سبكاً جديداً ، ويصاغ صياغةً جديدةً ، وكأنه وُلد من جديدٍ؛ لأنَّ الإسلام نشأةٌ مستقلةٌ ، نشأةٌ كاملةٌ شاملةٌ ، فيها كلُّ الانقلاب ، وفيها كلُّ الكمال. فالإسلام ليس عقيدةً جافَّة ، عقيدةً حرفية. إنَّه دينٌ يتغلغل في الأحشاء ، ويسري في العروق ، كما يسري التيَّار الكهربائي ، وكما يسري التيار من جسمٍ إلى جسمٍ ، ومن مصدرٍ إلى مصدرٍ.

إنَّها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً:

فإذا كان هذا شأن الإسلام؛ فالإسلام ليس شيئاً ينقل حرفياً فقط ، مثلاً يقول الإنسان: آمنت بالله ، وآمنت بالرسول ، وآمنت بالآخرة ، وكفى ، هو منهج تفكيرٍ خاصٌّ ، وذوقٌ خاصٌّ يحكم على الأشياء: هذا طيبٌ ، وهذا خبيثٌ ، إنَّ النبي ﷺ كان يستحسن أشياء ، ويستهجن أشياء ، كان يحبُّ التيمُّن في كلِّ شيءٍ ، كان يحب التيمُّن في تنعُّله ، وفي ترجُّله ، وفي شأنه كلِّه ، وكان ينشط لأشياء ، ويتنغَّص برؤية أشياء ، إنَّه ذوقٌ نبويٌّ ،

www.abulhasanalinadwi.org

وذوقٌ سماويٌّ ، ذوقٌ نزل من فوق سبع سموات ، وحمله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأورثوه.

لذلك نرى أنَّ الله تبارك وتعالى يصف الإسلام بصبغة الله ، إذا كان الإسلام عقيدةً فحسب ، وإذا كان الإسلام عملاً فحسب؛ لم يكن يستحقُّ أن يسمَّى صبغة ، الصبغة لونٌ شاملٌ ، وسمةٌ مميَّزةٌ ، وشعارٌ فاصلٌ ، وطابعٌ ممتازٌ ، الإسلام لا يكون لوناً ، ولا يكون صبغةً إلا إذا كان شيئاً يفرق بين إنسانٍ وإنسانٍ ، وبين حياةٍ وحياةٍ ، وبين سيرةٍ وسيرةٍ ، وبين ذوقٍ وذوقٍ ، وبين موازين الأشياء والقيم والمثل ، فموازين الإسلام غير موازين الكفر ، إنَّها غير موازين الجاهلية ، لذلك ترون في الحديث النبوي ، وفي كتب السنَّة إشارةً إلى الجاهلية وشعائرها ، فيقال مثلاً: إنه من خصال الجاهلية ، إنه من حمية الجاهلية ، وجاء في القرآن: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

لماذا؟ الجاهلية قد مضى دورها وانقضى ، لماذا يعبر القرآن بالجاهلية؟ لأنَّ الجاهلية كانت حياةً مستقلَّةً ، فيها حسنٌ وقبيحٌ ، وفيها حلالٌ وحرامٌ ، وفيها فرضٌ ، وواجبٌ ، وممنوعٌ ، وفيها موازين خاصة للأشياء ، فالجاهلية كانت حياةً كرهها الله سبحانه وتعالى ، ومقتها ، ولعنها ، ولذلك جاء في الحديث الشريف: «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب» ، فهذه الجاهلية قد أبغضها الله سبحانه وتعالى ، ولعنها ، وأسقط قيمتها ، وكرهها لعباده ، فقال: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ويقول: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٦] وكان النبي ﷺ إذا رأى في مسلم شيئاً من بقايا الجاهلية؛ قال: «إنَّك امرؤٌ فيك جاهليةٌ» كما قال لأبي ذرٍّ لما رأى الفرق الكبير بينه وبين غلامه ، ورآه يضرب غلامه ، وينزل عليه بالضرب والإهانة؛ قال له: «إنَّك امرؤٌ فيك جاهليةٌ» فتأثر بذلك أبو ذر ، فجعل لا يفرق بينه وبين عبده ، يكسو مولاه ما كان يكسو نفسه ، ويطعمه ما يأكله.

www.abulhasanalinadwi.org

فالله سبحانه وتعالى يسمي الإسلام بصبغة الله ، فلولا أنَّ الإسلام لونٌ خاصٌّ للحياة ، ونمطٌ خاصٌّ للحياة؛ لما سمَّاه بالصبغة فقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ما هو الإسلام:

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى حثَّ عباده على اتِّباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال لما ذكر قائمةً طويلة مشرقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨] ، ثم قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] يعني: اقتف آثارهم. ثم خصَّ نبيه ﷺ بكونه قدوةً دائمةً ، وأسوةً حسنةً ، ومثلاً كاملاً ، فقال مخاطباً للمؤمنين على لسان نبيه ﷺ في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكذلك للإسلام حساسيَّة زائدةٌ بالنسبة إلى الديانات الأخرى؛ إنَّه يتأثر أكثر من أيِّ دينٍ. إنَّ المسيحيَّ إذا قال أنا نصرانيٌّ يكفي ، ويختار من الحضارات والفلسفات وأنماط الحياة ، ومناهج التفكير ، والمثل ، والقيم ما يشاء ، وقد سأل صديق لي في الهند هندكياً من كبار المثقفين ، فقال له: يا أخي! إنَّ المسلم إذا سئل ما هو الإسلام يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإسلام يتلخَّص في هذا ، وكذلك إذا سئلت أنت مثلاً بصفتك هندكياً بماذا تجيب؟ ، لا أريد كتاباً مطولاً عندي مكتبة إذا أردت أن أعرف الفلسفة البرهمية مثلاً ، أو فلسفة «ويدانت» مثلاً أنا أستطيع أن أراجع الكتب ولكني لو قلت لك مثلاً ما عندي إلا دقيقةٌ واحدةٌ أو دقيقتان ، فأنت قل لي كلمةً تكون فيها روح الهندكية وجوهر الهندكية ، قال: فسكت

www.abulhasanalinadwi.org

هنيهةً ، ثم قال: يا فلان! الهندوكي لا يؤمن بشيءٍ وهو يؤمن بكلِّ شيءٍ ، فالإنسان إذا قال أنا هندكي لا يحتاج إلى شيء ، هو هندكي مهما كان سلوكه وتصرفه ، آمن بأشياء ، وكفر بأشياء فإنه هندكي ، ما دام هو يشهد لنفسه أوعلى نفسه بأنه هندكي ، يكفي هذا.

ليس الإسلام هكذا يا إخواني! الإسلام كما قلت لكم أكثر الديانات حساسيَّةً. إنَّه يتأثر أكثر من كلِّ دينٍ ، له حدودٌ معروفةٌ معيَّنةٌ ، هذا إسلام ، وهذا كفر ، وهذه جاهلية ، وهذا حلالٌ ، وهذا حرامٌ ، وهذا طيِّبٌ ، وهذا خبيثٌ ، وإلى هنا الإسلام ثمَّ الردَّة ، ولا مفهوم للردَّة في دين آخر بالمعنى الواضح الذي نفهمه ونعرفه ، لا تجدون مرادفاً لهذه الكلمة في دياناتٍ كثيرةٍ ، وعندنا الردَّة أكبر الكبائر ، وأكبر الآثام ، تقشعر منها الجلود ، وقد جاء في الحديث الصحيح: «ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ:

فأقول لكم: إذا كان هذا شأن الإسلام فمسؤوليتنا نحن المقيمين في أمريكا ، وفي أوربا مسؤوليةٌ كبيرةٌ ضخمةٌ ، إذا كان الإسلام مجرد عقيدة ، أو مجرد أعمال ، أو مجرد عبادات ، كان الأمر سهلاً ، لكن الإسلام إذا كان صبغةً ، وإذا كان نمطاً للحياة ، وإذا كان شعوراً ، وعاطفةً ، وحساسيةً ، وإذا كان الإسلام يتأثَّر أكثر من كلِّ دينٍ ، وإذا كان الإسلام انقلاباً ، وإذا كان الإسلام تغيُّراً جذرياً في الموازين ، وفي القيم ، وفي المثل ، وفي استحسان الأشياء ، واستهجانها؛ فأمره دقيقٌ عميقٌ ، ومسؤوليته كبيرةٌ ضخمةٌ.

فلا نستطيع أن نكتفي بمجرد قراءة الكتب ، ولا نستطيع أن نقتصر على سماع المحاضرات فقط ، مهما كانت دقيقةً ، ومهما كان مستواها رفيعاً ، ولكن لا نستطيع أن نتذوق الإسلام ونتشربه من خلال الكتب فقط ، أو من خلال المحاضرات فقط ، وإن كانت الكتب لا غنى عنها ، ولا بدَّ منها ، وإن كانت المحاضرات لا غنى عنها ، وهي مفيدةٌ لا شكَّ ، ولكننا

www.abulhasanalinadwi.org

لا نستطيع أن نقتصر على مطالعة الكتب ، أو على سماع المحاضرات . إننا نحتاج إلى مناخٍ إسلاميٍّ ، نحتاج إلى جوٍّ إسلاميٍّ ، نحتاج إلى صبغةٍ إسلاميَّةٍ ، نحتاجُ أن نشاهد الإسلام بعيوننا ، ونسمعه بآذاننا ، ونتلمَّسه بأصابعنا ، ونتذوَّقه بأذواقنا .

إلى الإسلام الحيِّ :

إذاً لا بدَّ من اللقاءات ، ولا بدَّ من الصحبة ، ولا بدَّ من أن نعيش حياةً إسلاميَّةً ، نخرج إلى مناطق فيها تقوم الحياة الإسلامية ، وفيها يوجد المجتمع الإسلامي المثاليُّ أو شبه المثاليِّ ، أو نصف المثاليِّ ، أو ربع المثاليِّ ، ولكن لا بدَّ لنا أن نشاهد الإسلام يسعى على قدميه ، نشاهد الإسلام يتنفس برئتيه .

فلا بدَّ من صحبة المؤمنين الصادقين ، ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ، وأنتم تعرفون أنَّ النبيَّ ﷺ هو النبيُّ المعصوم ، وهو النبيُّ المصطفى ، وهو المثال ، والقدوة لجميع البشر وجميع الأجيال البشرية ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يحثُّ نبيه على الصحبة ، على صحبة الصالحين يقول : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وإذا كان هذا شأن النبيِّ المعصوم؛ فكيف بالمسلمين؟! أما سمعوا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . فلا تكفينا المطالعات ، والقراءات .

مسؤوليتنا نحو إنشاء مجتمعٍ إسلاميٍّ مثاليٍّ :

المجتمع الإسلاميُّ هنا في نشوءٍ ، وفي تكوُّنٍ ، وهو في دور الطفولة ، ويجب أن نشعر بمسؤوليتنا نحو هذا المجتمع ، وأن نكون واعين ، نعرف أنَّ هذا المجتمع الذي قد ولد بفضل الله تعالى وبحوله ، نرجو أن يقوم ، وينشأ ، ويترعرع ، ويبلغ سنَّ الرُّشد حتى تتوفر عنده أسباب التربية . ما هي أسباب التربية؟ أسباب التربية : العقيدة ، والإيمان ، والدراسة ، والثقافة ،

www.abulhasanalinadwi.org

والصحبة ، والمجاهدة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] والذين يجاهدون في دين الله فالله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من أبواب الإيمان ، ومن أبواب الحكمة ، ومن أبواب البصيرة ما لا يتخيله الإنسان.

هذه هي مسؤولية هذا المجتمع الذي أنتم أعضاؤه ، وأنتم مؤسسوه ، والحمد لله لكم فضلٌ كبيرٌ في إيجاد هذا المجتمع ، لولا أنتم ، ولولا انتقلتم من بلادكم ، ولولا اتخذتم هذه البلاد وطن إقامةٍ لكم وآثرتموها على غيرها من البلاد؛ لما كان هذا المجتمع مجتمعاً إسلاميّاً مثاليّاً ، لا يكون مجتمعاً يعيش على فلسفةٍ فقط. الإسلام ليس نظريةً سياسيَّةً فحسب ، ليس فلسفةً عقليَّةً واجتماعيةً فحسب ، وليس نظام حكمٍ فحسب. إنه قبل كل شيءٍ عقيدةٌ تتغلغل في الأحشاء ، عقيدةٌ تسري في النفس ، وتتعمَّق جذورها ، ثم الإسلام كما قلت لكم تطبيقٌ عمليٌّ ، والإسلام كذلك ذوقٌ ، وكان إسلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يشمل هذه الجوانب كلَّها ، كانوا مسلمين عقيدةً ، وكانوا مسلمين خلقاً ، وكانوا مسلمين ذوقاً كذلك ، كانوا ميزاناً في الحكم على الأشياء ، لذلك ساغ للصحابيِّ الجليل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن يقول: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[1] ، المقصود بهؤلاء المسلمين الصحابة كما هو عند المحققين ، ما رآه الصحابة حسناً فهو عند الله حسن ، أصبحوا ميزاناً للأشياء ، فما استحسنوه بالإجماع؛ فهو حسنٌ ، وما استهجنوه بالإجماع ، أو بالأكثرية؛ فهو مستهجنٌ.

وهكذا يَطلب الإسلام ، ويطلب القرآن من المسلم أن يكون ميزاناً ، وأن يكون إسلامه شاملاً لهذه الجوانب كلِّها ، يتذوق الإسلام تذوقاً حقيقيّاً ، حتى يرى الأمريكيُّ الفرق الهائل بين المجتمع الأمريكيِّ الذي تسوقه المادَّة سوقاً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، سوقاً عنيفاً وحشياً ، وبين

(١) رواه أحمد في كتاب السنة عن ابن مسعود ، وهو موقوف حسن ، وأخرجه البزار والطيالسي والطبراني والبيهقي.

www.abulhasanalinadwi.org

المجتمع الإسلامي ، فيرى مجتمعاً هادئاً ، مجتمعاً رزيناً ، مجتمعاً يحيي الليل بالعبادة ، ويحيي النهار بالاجتهاد ، وبالكفاح وبالحصول على معاشٍ طيِّبٍ ، ورزقٍ كريمٍ ، وفي خدمة الإنسانية .

ووجود هذا المجتمع بنفسه هو انتصارٌ للإسلام ، وفتحٌ له ، فيقول الأمريكيُّ : إنَّ لذة الحياة في المجتمع الإسلاميِّ ، لا لذَّة للحياة في مجتمعنا ، ويتمنَّى الأمريكيون أن ينتقلوا إلى هذا المجتمع الإسلاميِّ الذي تغشاه السكينة ، ويغشاه النور ، ويلعنوا مجتمعهم الفاسد العفن الذي ولدوا فيه ، وعاشوا .

لكيلا ينشأ إسلامٌ إقليمي :

وفي الأخير إنني أخشى أننا في أمريكا ، وفي كلِّ بلدٍ إذا انطوينا على نفوسنا ، وانكمشنا في سلخنا ، كما تنكمش الحية ، واقتصرنا على مطالعة الكتب ، والدراسات العلمية ، أو البحوث النظرية والفلسفية ، وانقطعت الصلة بيننا وبين مصادر الإسلام الحقيقية ، ومراكز الحياة الإسلامية التي يعيش فيها الإسلام على علاَّت هذه الحياة ، ويسودها الجوُّ الإسلاميُّ ، وجفَّت منابع الشعور الإسلاميِّ والعاطفة الإسلاميَّة في نفوسنا ، وفي قلوبنا؛ نشأ إسلامٌ أمريكيٌّ ، وإسلام أوربيٌّ ، وإسلام إيرانيٌّ ، وإسلامٌ يابانيٌّ ، وإسلامٌ هنديٌّ ، وإسلام باكستانيٌّ ، تنكر كلٌّ للآخر ، واختلف عنه اختلاف الأمريكي عن الآسيوي ، والياباني عن الأفغاني ، وتنشأ مجتمعاتٌ للمسلمين تختلف أذواقها ، ومثلها ، وقيمها ، وموازين الأشياء فيها .

وهذا خطرٌ كبيرٌ على الإسلام يجب أن يواجه ، ويعالج قبل استفحاله ، وقبل أن يفلت الزمام من يد قادة الإسلام ، وهي الحكمة الرئيسية في مشروعية الحجِّ وجمع المسلمين ـ على اختلاف بيئاتهم ، وقومياتهم ، ولغاتهم ، وثقافاتهم ـ على صعيدٍ واحدٍ وفي زمنٍ واحدٍ حتَّى لا يلتبس أمر الدِّين على أحدٍ ، وحتَّى يمكن استعراض الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وحتى تتيسر مخالفة البدع والتحريفات التي تنبت «كالحشائش الشيطانيَّة» في العقول والمزارع ، ويمكن التنبيه عليها ، فلولا الحجُّ

www.abulhasanalinadwi.org

لتعرض هذا الدين والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها للتحريف كما تعرضت الديانات الأخرى.

فالحذرَ كلَّ الحذر أيها الإخوان! من نشوء إسلامٍ إقليميٍّ قائمٍ بذاته، ومن تكوُّن مجتمعٍ للمسلمين يختلف عن جوهر الإسلام وأسسه كلَّ الاختلاف.

هذه كلمتي فتح الله بها عليَّ في هذا الوقت، وإذا تأملتم فيها، وأنتم خلوتم بأنفسكم شعرتم بقيمتها، وفائدتها، وأثرها في الحياة هنا وفي الخارج، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مـا وَجَـدته فـي أمـريكـا . . . وَمَـا افـتقـدتـه

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مركز الجالية الإسلامية بمدينة شيكاغو ، في ١/ رجب ١٣٩٧ هـ ـ ١٩ يونيه ١٩٧٧ م في الأردوية ، ونقلها إلى العربية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

قال بعدما حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه وسلم :

سادتي وإخواني! قال الشيخ جلال الدين الرومي في مقطوعةٍ شعريةٍ له ـ وقد افتتح بها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال كتابه «أسرار خودي» وحلّى بها صدره ـ :

«رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال : قد مللتُ معاشرة السباع والدواب ، وضقتُ بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروِّح نفسي .

قلت له : لقد غرتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقَّبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً . قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالاً» .

أنتم تعلمون أني قمت بزيارة هذه البلاد ، على دعوة من منظمة الطلاب المسلمين M.S.A إنّ هذه البلاد كانت كعالم جديد لي ، ولا أقول : إنَّه اكتشاف كاكتشاف «كولمبس» للعالم الجديد ، وإني أشكر M.S.A على أنَّها أتاحت لي فرصة الطواف في أرجاء أميركا ، وكندا ، أزورها من أقصاها إلى أقصاها ، وأشاهدها بأمِّ عيني ، وأحتكُّ بالشعب ، وأجتمع بأفراده ، وأتحدَّث إليهم ، وأتعرَّف عليهم ، وأطَّلع على أوضاعهم وملابساتهم قدر ما تسمح به هذه الإقامةُ القصيرةُ ، وقد قمت بزيارة «نيويورك » كما قمت بزيارة «كندا» ، وأميركا الشمالية ، وقطعت مسافةً طويلةً ، مسافةً تمتدُّ على خمسة آلاف ميل أو أكثر ، وها أنا ذا أمامكم في ختام هذه الزيارة ، فهذه المدينة هي المنزل الأخير في رحلتي ، وأظنُّكم تحنُّون إلى الاستماع لانطباعاتي وخواطري عن هذه الزيارة .

www.abulhasanalinadwi.org

ربما كان لي أن أتحدث ـ بصفتي من سكان البلد المتخلف عن ركب التقدم ، لا بمراحل بل بمسافة قرون ـ إليكم عن واقع النهضة والتقدُّم وقصة الرقي في هذه البلاد ، لكني أترك ذلك وشأنه ، فأنتم أعلم بذلك.

تلوت عليكم مقطوعة لمولانا جلال الدين الرومي ، وربما كان ذلك خلاف ما كان يتوقعه كثيرٌ من الإخوان والأخوات ، لم يكن مولانا جلال الدين في عصر التخلف ، ولا من بلدٍ متخلفٍ في التقدُّم البشري ، بل كان بلده من المدن الراقية في العالم الراقي المتمدِّن المعمور في ذلك العصر ، قد تأسست فيه حضارةٌ جديدةٌ منذ وقتٍ قريب ، وكان مستعداً لإقامة دولةٍ عظيمةٍ ـ هي الدولة السلجوقية ـ ، وقد أنجب نوابغ وعباقرة في الشعر ، والأدب ، والفلسفة ، وقام بتوجيه المدنية والوصاية على القطاع الشرقي للعالم ، وخلَّف آثاراً خالدةً ومعالم ثابتة على وجه الأرض ، هي مدينة «قونية» ، وكان أصله من إيران ، التي يصح أن ندعوها «يونان الشرق»[1] .

غير أنَّ الشاعر قد عبَّر في مقطوعته عن شعوره الجريح ، وقلبه المكلوم ، إنَّه يحكي عن شيخٍ رائدٍ للحقيقة ، ولكنه يعني نفسه ، ويروي قصته ، ويقول: «إني أنا الإنسان البائس المسكين ، في هذه المدينة الحافلة العامرة ، الزاهية الزاهرة ، وفي هذه المنطقة المتمدِّنة الراقية ، خرجت أبحث عن إنسانٍ في العالم ، فإنِّي أجد كلَّ شيءٍ ، ولا أجد إنساناً ، فأرى قصوراً شامخةً ، ومدناً فاتنةً ، وحدائق غناء ، ومتنزهاتٍ ساحرةً ، وجبالاً تناطح السحاب ، وتنوعاً في المطاعم ، وتفنناً في الملابس ، وتلوناً في مظاهر المدنية والحضارة ، أرى كلَّ ذلك ولكني لا أرى شيئاً ، هو الإنسان ، أما الإنسان الذي نراه ، فهو شبه الإنسان ، ليس بإنسانٍ . ويضيف قائلاً في بيت آخر: «أما الذين نراهم ، فهم أشباه الرِّجال ، لا رجال ، لأنهم عبَّاد البطن ، وصرعى الشهوات».

---

(١) نـزح أبوه من بلخ إلى الأناضول وأقام في قونية.

www.abulhasanalinadwi.org

مـوجـة الـمـاكـينـات:

إنِّي تجولت في أمريكا شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، فرأيت فيها تقدم الماكينات ، وكل ما ترون في هذه البلاد من نشاطاتٍ وانتعاشاتٍ ، يرجع الفضل فيه إلى العلوم الرياضية ، والتكنولوجيا ، والهندسة ، والصناعة ، والحرفة ، وبلغت هذه الفنون في هذا البلد قمَّتها ، وأطرفت الإنسان بكل ما كانت تستطيع أن تطرفه به ، من وسائل وتسهيلاتٍ ، وترفيهٍ وتسليةٍ ، وأسباب العيش والراحة والترف ، والرُّقيِّ والازدهار.

وهنا نتساءل: هل يوجد في هذا البلد ـ الغاصِّ بالسكان ، والباذخ بالعمران والذي بلغت مدنه من كثافة السكان وزحمة الإنسان إلى ألا يكاد المرء يجد طريقه على الشارع ـ إنسان حقيقي يحمل في صدره قلباً خفَّاقاً ، ويملك عيناً ساكبة للدموع ، حزناً على الإنسانية البائسة المنكوبة ، ويتحرَّق ألماً للإنسان الضائع ، ويتجرَّد عن الشهوات ، ويتمرَّد على الأهواء ، ولا يستسلم لهذه المدنية ، ولا يخضع لها ، بل هو يخضعها ، ويسخرها ، ويركب على أعناقها ، ولا يلقي حبله على غارب الحياة ، بل هو يمسك بزمام الحياة ، فلا تقسو عليه ، ولا تجمح لديه ، ولا تسوقه ، ولا تهرع به ، بل هو يقهرها ، ويتملَّكها ، ويوجِّهها كيف يشاء.

أين هذا الإنسان ، الذي يعرف خالقه ، ويعبد ربَّه ، ويعيش في حبِّه ، وفي حبِّ الإنسانية واحترامها ، ويتملَّك نفسه الأمارة بالسُّوء ، ويحيا حياةً متقشفةً زاهدةً ، بسيطةً قريبةً من الفطرة ، ويتذوَّق اللذة الحقيقية ، ويذوب حدباً على الإنسانيَّة الشقيَّة ، ويتأذَّى من تمزق الأمم ، واصطدام الأفراد والدول ، ومن الأثرة والأنانية ، والنفعية والانتهازية ، ويتألَّم من نكبةٍ تصيب دولةً من الدول ، ويسعى لترقية جميع العباد والبلاد ، ويخلص في خدمة البشرية بأجمعها ، ويحب الإعطاء ، ويندفع إلى البذل والسخاء ، ولا يكتحل بنومٍ بكاءً على بؤس الأمم والدول ، ولا يؤمن بالفلسفة القائلة: «كل ، وعش ، وانعم» ، بل يشعر بعد إطعام أخيه الإنسان ، مع جوع

www.abulhasanalinadwi.org

نفسه ، بلذةٍ تفوق كلَّ لذةٍ ، وبراحةٍ لا تعدلها راحةٌ ، ويعتقد أنَّ الإنسان أغلى وأكرمُ وأشرفُ شيءٍ في الحياة.

والـذي لا يمعـن فـي تعمـير نفسـه وبـلاده فحسـب ، بـل فـي تعمـير الإنسانية ، ويـودُّ أن يرى العالم كلَّه كأسرةٍ واحدةٍ في تضامنها ، واتحادها ، لا على صعيد الأمم المتَّحدة ودستورها ، بل على صعيد الإنسانية الحقيقيِّ الطبيعي ، والذي يعرف مبدأه ومصيره ، ويعير ذلك اهتمامه ، ويؤمن بأنه ليس كهوامِّ الأرض ، تصبح تراباً بعد الموت ، بل هو يؤمن بأن له نهاية سوف ينتهي إليها ، وسوف يسأل عن المواهب والصلاحيات التي جهَّزه الله بها.

لقد استطاع الإنسان أن ينفخ روح الحياة في الحديد وفي الجمادات ، واستطاع أن يسخِّر الأجواء الفسيحة بين السماء والأرض ، وأن يغوص في أعماق الأرض ، وأصبح يستخدم أشعَّة الشمس في أغراضه ، واطَّلع على أفلاك القمر والكواكب والنُّجوم ، وقد وصل أخيراً إلى القمر ، وهبط عليه فعلاً ، لكن كلُّ ذلك ليس مما يدلُّ على الكمال الإنسانيِّ الحقيقيِّ ، ليس الكمال أبداً في أن ينفخ الإنسان في الجمادات روحاً ، ويجعلها ناطقةً حيَّة ، بل الكمال في الواقع أن ينفخ في نفسه الروح، ويجعلها تنطق ، الإنسان خليفةُ الله في الأرض ، ونائبه في الكون ، فمنصبه أسمى وأعلى ، وأجلُّ من أن يكون عبداً للجمادات ، بل هو الجدير بأن يستعبدها ، لا لنفسه فحسب ، بل لله خالقه وربه ، فيستخدمها في تحقيق ما يريد الله من هذا الإنسان ، وهذا الكون.

أسيـر الـقفـص الـذهـبـي:

نرجع فنتساءل: كم ذلك الإنسان الذي لا يرى تقدُّمه في تأسيس الدول والحكومات ، واستعباد العباد والبلاد ، وبسط النفوذ ، وقهر النفوس ، وإخضاع الأمم والشعوب ، بل يريد أن يعمل للإنسانية بكلِّ إخلاصٍ وإيثارٍ ، متجرداً عن الأغراض والمنافع ، لأنه قد ربط مصيره بالإنسانية ويرفض بكلِّ قوة أن يعبد حكومةً من الحكومات ، أو حزباً من الأحزاب ،

www.abulhasanalinadwi.org

بل يحاول أن يُخرج الشعوب والأمم من عبودية النفس ، وعبودية الأهواء والشهوات ، وعبودية القوة والمادة وعبودية المال والثروة ، وعبودية العلم والعقل ، والذي يستطيع أن يقول بكلِّ قوةٍ واعتزازٍ أمام العالم ما قاله ذلك الأعرابي الذي قد سما به الإسلام من الفرش إلى العرش ، ومن الثرى إلى الثريّا ، فجعل يحلق في أجواء فسيحة :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[١] .

يقول بدويٌّ في بلاط «رستم» ـ قائد قواد الفرس ، ووزير الحربية في إيران ، الذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويذهل النفوس ، ويدهش الجنود ـ: «ابتعثنا الله لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها» الدنيا التي أسميتموها بإمبراطورية إيران ، والدولة الساسانية ، فإننا نراها قفصاً ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ، وأسلاكه كلُّها من ذهب ، فأتينا نرثي لكم على حالكم ، ودفعت بنا عاطفة الحدب والعطف من صحراء العرب إلى هذه البلاد ، أيها الفرس الأشقياء المنكوبون! أتينا لنخلِّصكم من هذا القفص الذهبي الذي تنشدون فيه وتغردون ، وتبتسمون كعندليبٍ إلى أرض الله الواسعة ، وإلى أجواء الحرية المترامية اللامتناهية ، فقد استعبدتكم العادات ، والالتزامات ، واستعبدتكم الأسباب والتسهيلات ، واستعبدكم موفَّر الترفيه ، والتسلية ، واستعبدكم المغنون ، واستعبدكم عبيدكم ، واستعبدكم طهاتكم وطباخوكم ، واستعبدكم سقاتكم ، واستعبدتكم جدرانكم وحيطانكم ، أما نحن فلسنا إلا عبيد الله ، فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي لا يحصيها إلا الله ـ لأن الحاسب الألكتروني لا يحصي إلا المحسوس الظاهر ، ولا يستطيع أن يحصي غير المحسوس الباطن ـ فإنه إذا خالطت العبودية القلب ، وامتزجت باللحم والدم ، وأصبحت طبيعةً لا تبرح الإنسان في الظاهر والباطن ، حتى أضحى لا يعيش إلاَّ بها ، لأنه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ، طبع بيروت ، ١٩٦٦ م.

www.abulhasanalinadwi.org

شغف بها، وأحبّها، وعشقها، وآثرها على الحرية، فأنّى للحاسب الألكتروني أن يحصيها، ويسبر غورها، ويعلم مداها، يقول: فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي تفوق العدَّ والإحصاء، إلى الحرية الواحدة.

النـور فـردٌ والـظلمـات كـثيـر:

[والحرية واحدةٌ، أما العبوديات فلا آخر لها، ولا نهايةَ، كما إنَّ النور واحدٌ والظلمات كثيرٌ، ولذلك نرى القرآن كلما يذكر النور يأتي به فرداً، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أفلا يجمع النور في اللغة العربية على زنة «أنوار»، كما تجمع الظلمة على زنة «الظلمات»، أفهل كان القرآن لا يسعه جمع النور، كلا! ليس ذلك لأن النور في الواقع فردٌ، والظلمات لا يأتي عليها الحصر.

ومصدر النور واحـدٌ، وهو معرفة الله، فمنها ينبثق النور والهداية، وقد ذكرتنا زيارة هذا البلد ببيت الدكتور محمد إقبال ـ ذلك الذي قد درس الحضارة الغربية دراسةً وافيةً، عميقةً تحليليّةً، وأحاط بجوانبها، واطَّلع على دخائلها وأسرارها وأبعادها، وجوانب الضعف فيها ـ يقول فيه: «إنَّ الأمَّة التي لا نصيب لـها من التوجيـه السماوي والتنزيل الإلهي، غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار»، ويقول في بيتٍ آخر: «لقد تضخَّم العلم، وتقدَّمت الصناعة في أوروبا، ولكنها بحر الظلمات ليس فيه عين الحياة».]

هناك أسطورةٌ قديمةٌ تقول: «إنَّ عين الحياة توجد في بحر الظلمات، ويقال: إن الإسكندر قد جعل خضراً دليله، ليوصله إلى شاطىء عين الحياة في بحر الظلمات، لكن الخضر بلَّح عليه، وعجز عن هذا العمل، وإلى ذلك يشير إقبال في شعره، ويقول: «إنَّ أوربا بحر الظلمات وعالم الظلمات، ولكن ليست فيه عين الحياة».

وما مصير الأمة التي لا حظَّ لها من التوجيه السماويّ، ولا نصيب لها من نور الهداية والرسالة والنبوة، واستندت إلى علمها وعقلها، وانصرف

www.abulhasanalinadwi.org

كلُّ همتها وذكائها إلى الحديد ، والجمادات ، والفولاذ ، والآلات ، وركَّزت جهودها وذكاءها ومواهبها على الكون ، والآفاق ، متفاديةً من عالم الأنفس ، فاستطاعت أن تسخِّر الجمادات ، ولم تستطع أن تسخِّر نفسها ، واستطاعت أن تسخر الكون ، ولم تستطع أن تسخر روح الكون.

وقد اعتبرت أوربا التقدم المادي هدفها الأسمى في الحياة ، وجعلته نصب عينيها ، فكتب الله لها فيه الانتصار ، وأحرزت في ذلك نجاحاً لا بأس به ، وقطعت أشواطاً بعيدةً ، وضربت فيه بسهمٍ وافرٍ ، كسنة الله في الأرض ، فقد جرت سنةُ الله في الكون أنَّه يساعد البشر ، ويوفر لهم أسباب النجاح مهما اختار مجالاً من مجالات العمل ، وكلُّ ما في الأمر هو انتخاب مجال العمل ، واختيار مضمار النشاط والاجتهاد.

المسيحية لا تنسجم مع المجتمع الأوربي:

قد انصرف اتِّجاه أوربا إلى المادية ـ لأسبابٍ لا تعنينا في هذه المناسبة ـ وكلُّ من ألمَّ بتاريخ أوربا ، وتاريخ نشوء وارتقاء الحضارة الأوربية والمدنية الغربية ، وقرأ ما كتبه المؤرخ الأمريكي «درابر» في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» وتتبع قصة «الكنيسة» و«قيصر» وقصة الحروب الدامية التي استمرت في أوربا بين الدين والعلم طويلاً ، كلُّ من اطلع على ذلك يعرف جيِّداً كيف دخلت المسيحية أوربا ، واعتنقها الأوروبيون بجهودٍ وتضحيات قام بها المبشرون والدعاة المسيحيون ، ثم كيف تكونت عفواً تلك الأسباب التي دفعت أوربا إلى المادية الرَّعناء بعد ما دامت الحرب بين العلم والكنيسة مدَّةً طويلةً؛ لأنَّ الغرب قد اشمأزَّ من الدين ، فقد كان الدين يقعد به ، ويثبطه ، ويدفعه إلى الوراء ، على حين كانت طبيعته المتحمسة المتطلعة الطموحة تندفع به إلى الأمام بقوةٍ وحماسةٍ ، وعاطفةٍ جياشةٍ ، وكانت القوى الطبيعية تزيح الستار عن مخابىء القدرة الإلهية ، والإمكانيات الهائلة للتقدُّم والانطلاق ، وكانت الأمم تتنافس في مضمار الرقيِّ ، وتتسابق إلى إحراز قصب السبق ، كلُّ ذلك كان يبعث أوربا على السير الحثيث ، والاندفاع القويِّ السريع إلى الأمام ويشجِّعها على أن تستخدم الذرة من

www.abulhasanalinadwi.org

ذرات الكون ، وأن تستغل ما أودعه الله فيه من ذخائر وموادَّ ، وقوىً وطاقاتٍ ، وأن تحوِّل التراب ذهباً ، وتجعل الجماداتِ ناطقةً حيَّةً تتحرَّك .

على كلٍّ فكانت الطبيعة الأوربية ، والتحولات ، والتطورات ، والانقلابات التي كان يشهدها العالم تتطلب أن تختار أوربا من مجالات العمل ما تبذل فيه مواهبها ، وذكاءها وكفاءاتها دون حدٍّ وقيد ، ولا تحتاج فيه إلى الاستيحاء من الكتاب المقدَّس ، والاستفتاء من رجال الكنيسة فيما يتصل بالحلال والحرام ، إذاً فكان من سوء حظ أوربا ، وبالتالي من سوء حظ الإنسانية ، أن كانت قد اختارت المسيحية كدينٍ لها وعقيدةٍ .

وإذا سئل من درس تاريخ العقائد والديانات ، عن ديانةٍ لا تنسجم مع المجتمع الأوربي ، ولا تتجاوب مع طبيعته وعادته في قليلٍ أو كثيرٍ ، فسيجيب بكل اقتناع وثقة ، أنها هي الديانة المسيحية ، لا غير ، وإذا تساءلنا : ما هي الديانة التي تستطيع أن تعيد إلى الطبيعة الأوربية المضطربة القلقة الجامحة قرارها ، وهدوءها ، وأن تركزها على الاتجاه الصحيح ، وأن تخفف من غلوائها و جماحها ، والتي تستطيع أن تجمع بين الوسائل والغايات ، وأن توفق بين الأسباب والأهداف ، وتتَّخذ خطةً للإنسانية جديدةً ، وتهبها دماً جديداً ، وتنصرف بالبشرية بأسرها إلى الاتجاه الصحيح المستقيم؟ فسيكون الجواب الوحيد لدى كل من ينشد الحقَّ والصَّواب ، ويحبُّ العدل والإنصاف : أنَّ ذلك هو الإسلام ، ليس إلاَّ .

ولا غرو فإن الإنسان لدى المسيحية مذنبٌ بالولادة والفطرة ، فكيف يتمشَّى مع ركب المدينة وهو مثقلٌ بالمعاصي والذنوب الفطرية ، ويئن تحت وطأتها ، ويجب عليه أن يعتقد ـ بصفته مسيحيّاً : أنَّه مذنبٌ بالفطرة ، فكيف يعتمد على نفسه ويثق بذاته ، ومواهبه ، وكيف يستطيع أن يسخِّر الكون؟ وإذا كان هو مذنباً ، غارقاً في حمأة المعاصي والآثام إلى الآذان ، نادماً على صنيعه ، فكيف يمكنه أن يجابه الكون ، ويستخرج القوى الطبيعية من أعماق الأرض ، ويسخِّر البحر ، ويشق أمواجه ، ويحلم بالوصول إلى القمر ، والكواكب السيارات .

www.abulhasanalinadwi.org

إذا اعتقد إنسانٌ أنَّه عاصٍ بالولادة ، قد كتبت له الذنوب والمعاصي ، وهو في حاجةٍ إلى كفارةٍ عن ذنوبه ، فكيف يطمح أن يقوم برحلة الفتوحات الكونية ، وأنَّىٰ له أن يحلم بغزو الكون ، والاكتشافات العلمية بجرأةٍ واعتزازٍ ، وشجاعةٍ واعتماد؟!

والواقع أنَّ ذلك كان سعياً وراء الجمع بين متضاربين ، ومحاولة توفيقٍ بين متناقضين ، تناقضاً ينقطع نظيره ، فكان كمن يركِّب حصانين في عربة ، أحدهما أمام العربة وآخر وراءها ، فهما متقابلان تماماً ، فهذا يجرُّها إلى الأمام ، وذاك يجرُّها إلى الخلف ، فكانت أوربا بطبيعتها المتحمِّسة ، تنطلق بشدَّةٍ وحدَّةٍ إلى الأمام ، وكانت المسيحية تدفعها بنفس الشدَّة والقوَّة إلى الخلف ، تدفعها إلى الرهبانية ، وإلى الفرار من الحياة ، وكانت رجال الكنيسة ينادون بأن سرَّ تقدم الإنسانية في العزلة من الحياة ، وضوضاء المجتمع البشري ، وإن كان الإنسان يريد الرقيَّ الروحانيَّ ، فليلتجىء إلى الجبال والمغارات والكهوف ، وليقف حياته على الكنيسة ، وليضرب الحياة العائلية عرض الحائط ، ليعتزل المرأة ، وليتجنب ظلها ، وليتحاش عن النظر إليها ، اقرأ كتاب «ليكي» يدلُّك على أن الأوربي كان يفرُّ من ظل المرأة ، ولو كانت أمَّه ، كانت الأمُّ تقوم برحلةٍ طويلة ، وتقطع مسافةً طويلة لتقرَّ عينيها بنظرةٍ إلى ولدها وفلذة كبدها ، وكان يتستر عنها فور علمه بوصولها ، ويفرُّ عنها ، كما يفرُّ أحدٌ من العفريت والجنِّ ، وكانت الأم البائسة المسكينة تتراجع أدراجها ، بقلبٍ منكسرٍ ، دائم الحسرات ، أفهل يوجد في العالم نظيرٌ لهذه القساوة والشقاوة؟! .

تلك هي المسيحية التي منيت بها أوربا وأمريكا ، فكان أن لما بلغ السيل الزبى ، وطم الوادي على القرى ، قررت الثورة على الكنيسة ، والتحرُّر من عبوديتها ، ومن الدين أيّاً كان ، لأنَّ كلَّ ذلك ـ فيما كانت تعتقد هي ـ يقف حجرة عثرةٍ في سبيل النهضة والرقي ، فرفضت كلَّ ما يمتُّ إلى الدِّين بصلةٍ وقطعت آخر خيطٍ كان يربطها بالكنيسة .

هذا وبالعكس قد بدأ انحطاط العامل الإسلامي منذ أن قطع صلته عن

www.abulhasanalinadwi.org

الدين ، حقيقتان واضحتان : ما بلغت أوربا شأواً بعيداً من التقدم إلا حينما رفضت المسيحية ، وما انهار العالم الإسلامي إلا بعد ما طوى كشحه عن تعاليم الإسلام ، وزهد فيها ، وانصرف عنها.

عبيد الماكينات :

على ذلك ، فعادت أمريكا تعبد الماكينات ، وتخضع للآلات ، وبسطت أمريكا نفوذها على الشرق والغرب ، وأصبحت أخيراً تملي على العالم إرادتها ، وتتدخَّل في السياسة الدولية ، وتديرها كيف تشاء ، أصارحكم أيها السادة! وأنا في قلب الولايات المتحدة ، أنَّ دول العالم كلَّها ـ بدون استثناء ـ إسلاميةً كانت أو غير إسلاميةٍ خاضعةٌ لأمريكا ، مرتبطةٌ بعجلتها ارتباط العبيد بالسادة ، تابعةٌ لها بوجهٍ من الوجوه ، وبطريقٍ مباشرٍ ، أو غير مباشر ، هاهنا تُتَّخذ تلك الخطط ، والمشاريع التي تطبق في بلادنا وأراضينا ، وبيد قادتنا وزعمائنا.

ولئن كانت أمريكا استعبدت العالم كله ، فإذا هي الأخرى تعبد الأجهزة والآلات ، وتعبد هذه البيئة ، وتعبد هذا المستوى للحياة Living Standard وتعبد ماكيناتها وأدواتها التي لا تستطيع أن تعيش بدونها.

مزايا الجمادات وطبيعتها :

والشيء الوحيد النادر المفقود الذي لا أجده ، هو الإنسان ، ذلك الإنسان الحقيقي الذي يحمل في صدره قلباً ، حيّاً ، نابضاً ، متدفِّقاً ، لا ماكينةً متحرِّكةً ، فقد خضع الإنسان لحياة الماكينات خضوعاً جعله لا يفكر إلاَّ في الماكينة ، وأصبحت خواطره ومشاعره كلُّها ماكينات ، وتتَّسم بمزايا الجمادات والفولاذ ، فلا رقة فيها ، ولا مرونة ، ولا لين فيها ، ولا نعومة ، وقد بعد عهد العيون بالدموع ، وعهد القلوب بالخشوع ، تلك هي الحقيقة التي لمستها في الولايات المتحدة الأمريكية.

كونوا على حذر من أن تذوب شخصيتكم :

وأوصيكم ـ قبل أن أغادر أمريكا ـ ألا يبهرنَّكم بريق هذه الحضارة ،

www.abulhasanalinadwi.org

فالشجرة التي أنتم ثمارها ، هي شجرةٌ من نوعها الخاص ، هي شجرة النبوة ، فعيشوا في هذا المجتمع ، ولكن لا تخضعوا لها ، وتمتَّعوا بهذه الأرض ، وبهذه الحياة ، ولكن لا تكونوا عبيد هذه الحضارة ، وهذه المظاهر الجوفاء ، لست أفتي بأن ما تصنعون حرام ، وإقامتكم في هذه البلاد حرام ، ولكن أقول: لا ترعبنَّكم هذه المادية ، بل احتفظوا برسالتكم ، واعتزُّوا بشخصيتكم ، واحفظوها من الذوبان والانحلال ، ولا تبهركم هذه البهرجة الخادعة ، والمدنية الزائفة ، ولا تحتقرنَّ دينكم ، وعقيدتكم ، ومثلكم ، وقيمكم ، وحضارتكم ، ومجتمعكم ، لا تظنوا أنكم حيواناتٌ ودوابٌ ، وهؤلاء إنسٌ وبشرٌ ، اذكروا ما يقوله شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال: «أظلم الجو في عواصم أوربا بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئةٍ لفتحٍ جديد في الفكر وإشراقٍ من عالم الغيب».

عبيد الأصنام التي نحتوها بأيديهم:

إنَّ هؤلاء يعبدون عاداتهم وأعرافهم ، ويعبدون الآلات التي يصنعونها بأيديهم ، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم على لسان نبيه إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ بأسلوبٍ ساذج بسيط: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] يصنع هاهنا اليوم شيء ، ويوضع مقياس ، ويتخذ مبدأ ، وتصاغ ماكينة ، فتصبح البلاد كلُّها خاضعةً لها ، تعبدها ، وتكفِّر لها ، إنَّ هذا البلد مركز «آزر» صانع الأصنام وسادن بيتها ، فهو بحاجةٍ ملحةٍ إلى الأذان الإبراهيمي ، ولا يُؤذِّن هذا الأذان إلا أنتم أيها المسلمون! لأنكم أتباع إبراهيم في الواقع لا اليهود ، لأنَّهم انحرفوا عن طريقه ، ولا النصارى لأنهم يتبعون اليوم مسيحية «بولس الراهب» ، وليسوا من مسيحية عيسى ومريم عليهما السلام في شيءٍ ، وقد نجحت المؤامرة الخطيرة التي دبّرت ضد المسيحية ـ وربما لم تنل مؤامرةٌ ما ضدَّ أيِّ ديانةٍ هذا النجاح الباهر ـ وانصرفت بها عن الجادة التي سلك عليها المسيح عليه

www.abulhasanalinadwi.org

السلام ، ودعا إليها مسيحية «بولس» تماماً ، فالمسيحية اليوم ـ سواء أكانت كاثوليكيةً ، أو بروتستانيةً ـ هي المسيحية «البوليسية».

فليس المسيحيون خلفاء إبراهيم عليه السلام ، بل أنتم خلفاؤه ، وأتباعه ، فنقول لكم على لسان الدكتور محمد إقبال: «يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق ، الذي طال أمده ، واشتدت وطأته».

أنتم بناة الحرم ، فانهضوا لبناء العالم من جديد ، لأنَّ بناة الحرم هم الذين يستطيعون أن يبنوا هذا العالم المنهار من جديد ، وتجري اليوم في العالم كله عملية التخريب ، وكل ما يبدو من عملية بناء هي عملية هدم وتقويضٍ ، ثم أنتم تحملون رسالةً ، وتؤمنون بكتابٍ حيٍّ ، وتتبعون نبيّاً كان من اختصاصه إخراج العالم من جميع العبوديات إلى عبودية الله وحده ، فلستم هنا في أمريكا كإنسانٍ يأكل ويشرب فحسب ، ولا كهنودٍ وباكستانيين ، ومصريين وسوريين ، بل أنتم مسلمون ، وأمّةٌ مسلمة ، يقول شاعركم الإسلامي الدكتور محمد إقبال:

(حطِّموا أصنام الألوان والعناصر والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الإسلام ، حتى لا يبقى هناك «توراني» أو «إيراني» أو «أفغاني»).

لا بد أن تعرفوا شخصيتكم ومنصبكم ، وتدركوا قيمتكم ، لستم كآلةٍ متواضعةٍ تركب في ماكينةٍ فتفقد كيانها ، ولستم كالأنعام فتأكلون كما تأكل الأنعام ، وتشبعون كما تشبع ، بل يجب أن تبلِّغوا إلى الأمريكان وإلى الغرب رسالتكم ، وتوقظوهم من غفلتهم ، وتنبِّهوهم على خطئهم وتفهموهم: أنهم منحرفون عن الخطِّ الصحيح في درب الحياة ، ولم يعرفوا لذة الحياة الحقيقية ، وأنهم في جهلٍ أيِّ جهلٍ بالاتجاه الصحيح للحياة.

وأحياناً يتيقظ فيهم الشعور ، فيسيرون في جهاتٍ خاطئة ، فيتَّجهون إلى سيرة الخنافس Hiooieism يتَّجهون إلى الانتحار ، وإلى التخلص والفرار من الحياة ، يتَّجهون إلى الطريقة اليوكية ، وإلى البرهمية ، يقيم الهندوس في الهند في مدينة «إله آباد» عيداً كبيراً لو شهدتم هذا العيد؛ لرأيتم كيف

www.abulhasanalinadwi.org

يتشرَّد فيه كثيرٌ من الأمريكان المثقفين ، ويتسكعون كمجانين ، ويتيهون كالبهائم والأنعام ، يجلسون إلى النسَّاك الهنادك والسدنة والأصنام ، والأمر الذي يدلُّ على أنهم أصيبوا بالتُّخمة ، بتخمة المدنية ، قد شربوا من خمر المدنية إلى حد الغثيان ، ثم يؤمُّون ابتغاءً للشفاء والعلاج أطباء لا يشفى عليلُهم ولا يروى غليلُهم.

ويا ليته كان هناك مجتمعٌ إسلاميٌّ يصلح لأن يأخذ بأيدي الأمريكان إلى الصراط المستقيم ، ويخاطبهم مخاطبة الأستاذ للتلميذ ، والكبير للصغير ، ولكن يا لسوء حظنا ، فليس هنالك مجتمعٌ مثاليٌّ يصلح أن يخاطب الأمريكان مخاطبة الندِّ للندِّ ، ويهديهم إلى الطريق القويم.

فحينما يتقزز أمريكيٌّ من مدنيته ، ويسأم من مجتمع ، يقصد الهند و«نيبال» ـ بغية سكينة القلب وطمأنينة النفس ـ ويرتاد قلل «همالا» ويصيب من المسكرات ، ويتناول المخدرات ، والحشيش ، وما إلى ذلك من الأشربة الروحية ، ويختار الخنفسة و«الهيبة»ويا ليتنا ـ نحن المسلمين ـ نستطيع أن نسعفهم ، ونأخذ بأيديهم إلى شاطىء الحقِّ والصواب.

أيـن الـمـسـلـمـون؟

إخواني! فلا يكوننَّ عملكم في هذا البلد هو الكسب والأكل فقط ، فإنَّ ذلك تصنعه كلُّ أمَّةٍ في العالم ، وقد يجيده جيراننا الهنادك في الهند أكثر منكم ، بل لا يهمنَّكم من الكسب والعمل ، والطعام واللباس ، إلاَّ ما يسدُّ حاجتكم ، ثم اذكروا هدفكم ، وأقبلوا على مقصدكم ، واعرفوا مركزكم وقدِّموا لهم نموذجاً للحياة جديداً ، وأذِّنوا ، حتى يكون زجراً لعقولهم ، وأقيمو الصلاة حتى يبصروا ويفكِّروا ، وعيشوا حياة طهرٍ وصفاءٍ ونقاءٍ ، حتى يكرهوا الحياة الدنسة القذرة ، وخذوا في حياتكم بالتوسط والاعتدال ، حتى يشعروا بتطرفهم وإسرافهم ، وعيشوا عيشة السكون والهدوء متحررين من حياة المصانع والماكينات ، حتى يدركوا مصدر السكينة والطمأنية ، واشحنوا قلوبكم بالروحانية وبقوة الإيمان واليقين ، حتى يشعروا بالجلوس إليكم بقوةٍ جديدةٍ في أنفسهم.

www.abulhasanalinadwi.org

ياليته كان هناك ربانيُّون ، ورجال القلوب واليقين ، فيشملون هؤلاء الحيارى التائهين ـ الذين قد سخطوا على حياتهم ، ويكادون ينسلخون من ثيابهم ، ويفرُّون من بلادهم ـ برعايتهم وعنايتهم ، ويمسكون بأيديهم ، ويقولون : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] .

وهذه الرسالة لا يقوم بتبليغها إلاَّ المسلمون ، فأين المسلمون؟ هل هناك بلدٌ إسلاميٌّ ، أو شعبٌ مسلم يستطيع أن يأخذ بأيدي الأمريكان ، ويقول : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] عاد المسلمون أخيراً ـ مع الأسف ـ متجرِّدين من الاعتقاد ـ في معنى الكلمة ـ بما في هذه الآية ، فكيف يقولون ذلك لغيرهم ، والذين أصبحوا لا يثقون بعظمة الصلاة وإعجازها وبحقِّيَّة الكلمة وصدقها ، وبكون الله مالكاً للخير والشرِّ ، والنفع والضرر ، وبالقضاء والقدر ، والذين اعتبروا الأمريكان رازقيهم ، واعتبروا المصانع رازقةً لهم ، كيف يستطيعون أن يدعوا الأمريكان إلى التوحيد الخالص النَّقي ، وإلى إفراد الله بالعبودية والعبادة؟ وكيف يستطيعون أن يقولوا له : لا رازق إلاَّ الله؟

إخواني وأخواتي! اعمروا قلوبكم أولاً بالإيمان ، وحافظوا على الصلاة ، واذكروا الله في ساعات الخلوة ، وأعيدوا إلى قلوبكم تلك الحرارة التي سلبها دخان المصانع الكثيف ، وصحِّحوا غاية حياتكم ، واجتهدوا أن تعيشوا حياة «الإنسان» ، واقرؤوا القرآن ، وادرسوا السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ واستضيئوا بها ، واجعلوها مشعل حياتكم ، ثم ادعوا الأمريكان إلى دين الفطرة ، ألا وهو الإسلام! فإنه هو دين الفطرة وحده ، فلا يثبِّط الفطرة ولا يكبتها ، ولا يضيق الخناق عليها ، كالمسيحية وغيرها ، بل الإسلام يعتقد أنه «ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه»[(١)] فالفطرة من حيث هي صالحةٌ ، طاهرةٌ ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] .

---

(١) حديث متفق عليه ، وقد أخرجه أبو داود والترمذيُّ أيضاً .

www.abulhasanalinadwi.org

جعل الله هذه الفطرة كاللوح الصافي ، لم يكتب عليه بعد ، ووضع فيها الميل القويَّ إلى الخير ، فالإنسان صالحٌ بالفطرة ، ويحبُّ الصلاح والخير ، ويكره القبيح والشرَّ ، فإذا تُرك وشأنه ، فسيسير على الطريق المستقيم ، بإيحاءٍ من فطرته ، فلا بدَّ أن تعوا هذه الحقائق أولاً ، وتسيغوها بالعقل والقلب كليهما ، ثم بلغوها إليهم ، لأنَّك أمَّة دعوة ، وأمَّة رسالة ، وأمَّة غاية ، ولستم كبهائم تسوم وترعى ، ثم تُقبل على إرضاء شهوتها الجنسية.

اكـتشفـوا الإنـســان:

وضعت أمامكم خواطري وأشجاني ، قد رأيت في أمريكا كل شيء إلاَّ الإنسان ، ولئن رأيته ، فربما رأيته فيكم ، وليس السبب في ذلك أني لم أخالطهم ، فقد رأيتهم في كتاباتهم وخطاباتهم ، وعلى تليفزيونهم ، ومذياعهم ، فلست جاهلاً بهم ، ولكني أريد «الإنسان» الذي هو خليفة الله في الأرض والذي من أجله خلق الله الكون ، والذي يحمل في صدره القلب الحيَّ الذي هو أغلى من كلِّ شيءٍ في الحياة ، لا حقيقة لخزائن الأرض بأسرها في جنبه ، ولا لجميع الانتصارات التي أحرزها العلم ، ذلك القلب الذي هو قلب صاحب القلب ، هذا هو الإنسان ، اكتشفوا هذا الإنسان ، وأيقظوا هذه الإنسانية في أنفسكم ، وإذاً فيحقُّ لكم أن تعيشوا في هذه البلاد ، بل هناك ستكون إقامتكم فيها عبادةً ، وخدمةً للعباد ، وتبليغاً للدعوة ، وسعادةً لكم في الدنيا والآخرة.

تـخـوُّفٌ واشـفـاقٌ:

[وإلاَّ فاسمحوا لي ـ أيها الإخوة والأخوات ـ أن أصارحكم بأني أخاف عليكم كثيراً؛ إذا لم توفروا تلك الأسباب التي تمكنكم من الحياة الدينية ، ومن تعليم أطفالكم وبناتكم ، وتربيتهم الدينية ، ولم تأمنوا جيداً على مستقبلهم الديني ، وعلى بقائهم على الإيمان والإسلام ، أخاف أن تكون إقامتكم هنا معصيةً لله ولرسوله ، وإذاً فأنتم في خطرٍ هائلٍ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

www.abulhasanalinadwi.org

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٨].

فلا يجوز لنا أن نعيش إلاَّ في المكان الذي يتمتَّع فيه الدين بحريته، ويحيا بمزاياه، وخصائصه، ويكفل لنا فرصة القيام بالفرائض والواجبات، فإن كان هناك مجتمعٌ لا يسمح بذلك، أو نشعر بأننا لا نتمكَّن من تأدية الفرائض في هذا المجتمع، لا يجوز لنا الإقامة فيه، ويحتِّم علينا الدين أن نغادره إلى مجتمعٍ آخر.

ويجب عليكم أن تكوِّنوا في هذا البلد بيئةً تلائمكم وتمكِّنكم من بقائكم على الإسلام والدين والإيمان، ومن قيامكم بالعمل الديني، ومن أن تعيشوا بجميع مزاياكم وتشخصاتكم الدينية، ثم استوثقوا من مستقبل أولادكم، ومن أنهم سيحتفظون بإيمانهم بعدكم، كما صنع يعقوب ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ مع بنيه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن ثمَّ فيجب أن نستوثق ونتأكد ـ فيما يتصل بأولادنا وأكبادنا ـ هل يبقون بعدنا مسلمين، فإن لم يكن على ذلك أمنٌ واطمئنانٌ، فلا بدَّ أن نراجع رأينا، ونستفتي ضمائرنا، هل نقيم في هذا البلد، أو نغادره إلى بلد آخر؟.

يمكن أن تعيشوا هنا كمسلمين:

إنَّني أشكر ـ شكر المعترف بالواقع ـ جهود M.S.A والخدمات التي تؤدِّيها المؤسسات والمنظمات، التي لا أعرفها أنا بالتحديد، والمحاولات التي يقوم بها الذين يسعون في نشر الدين وتبليغ الدعوة الإسلامية، ويوزعون النشرات الإسلامية، ويكونون حلقات الإخوان، ويجمعون الشباب، لهذا الغرض، سواء أكانوا عرباً أو عجماً، فكلهم سعداء، تقبَّل الله سعيهم، وشكر جهودهم، ورفع درجاتهم.

www.abulhasanalinadwi.org

وأخيراً فأوجِّه إليكم كلمة: إنكم تستطيعون أن تعيشوا في هذا البلد كمسلمين ـ إذا شئتم وأردتم ـ ولاتذوبون أمام وهج الحضارة، كما يذوب الندى أمام وهج الشمس، أو الشمع أمام لفحة النار، وإن كنتم تخافون الذوبان، فعليكم ببلادكم الأم التي وفدتم منها إلى هذا البلد، ولو كان لكم فيها ربع أو عشر ما تكسبون هنا، أو أقلَّ من ذلك بكثير، وإذا استطعتم أن تحيوا حياة المسلمين في هذا الربوع، فسعداء أنتم، وسعيدةٌ إقامتكم فيها، فعسى أن يهديَ الله بكم أهلها نوراً جديداً، وأن يفتح بكم طريقاً يدخلون به في الإسلام أفواجاً ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المدنيات المعاصِرَة
في مِرآة القرآن الكريم

هذه خطبة جمعة ألقاها العلامة الندوي في جامع «تورنتو» بكندا في صلاة الجمعة في ٢٢/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ١٠/ يونيه ١٩٧٧ خلال زيارته لأمريكا وكندا.

www.abulhasanalinadwi.org

[أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨].

إنَّ القرآن كما يعلمه الجميع ، وكما نؤمن به ، كتاب الله المعجز الخالد الذي لا تبلى جدَّته ، ولا تنقضي عجائبه ، وأنَّه جديدٌ طريٌّ في كلِّ عصرٍ ولكلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ دورٍ من أدوار الحياة ، ولكلِّ جيلٍ ، وأنَّه المرآة الوضيئة الصافية التي ينظر فيها الأفراد والأمم ، وتنظر فيها الأجيال البشرية كلُّها وجهها صافياً نقيًّاً ، وقد قال الله تبارك وتعالى مخاطباً لبني آدم ، مخاطباً لكلِّ من جاء ، ويجيء بعد نزول القرآن ، وبعد البعثة المحمدية ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] فإنَّه الكتاب الذي فيه الحديث عن كلِّ دورٍ من أدوار الحياة ، ولكلِّ جيلٍ من أجيال البشرية ، وفيه التوجيه ، والإرشاد ، والقيادة لهذه الأجيال ، وإنَّه مجموع سورٍ ناطقةٍ حيَّة دائمةٍ.

وإذا سئلت ما هي السورة التي تصف هذا العصر وصفاً دقيقاً ، وتصف هذه الحضارة التي اتسمت بالمادِّية بالاعتماد على المحسوس المشاهد ، وإنكار الحقائق الغيبية ، وما وراء هذه الحياة ، والتي اتخذت المادِّية والرُّقيَّ الماديَّ صنماً يُعبد ، ومثلاً أعلى يُقتدى ، والغاية الأخيرة ، والغاية النهائية ، والمثل الكامل ، والمقصد الأسمى قلت: هي سورة الكهف ، فقد افتتح الله هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨] إنَّ سمة هذه الحياة ، وإنَّ سمة هذه الحضارة التي نعيش في مركزها اليوم ، وهو الغرب ، بأوسع معاني الكلمة ، إنَّ سمة هذه الحضارة هو الاعتماد الزائد ، والتركيز ، والشغف ، والولوع الزائد بالزينة ، والبهرجة ، والطلاء الخداع ، والمظاهر الجوفاء ، والاستهانة

www.abulhasanalinadwi.org

بما وراءها ، والاستهانة بالحقيقة ، فقال الله تعالى مفتتحاً هذه السورة الكريمة : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٧] ثم يقول مخاطباً نبيّه ﷺ في هذه السورة الكريمة : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف : ٢٨] إنَّ هذا الجيل الذي نعيشه ، إنَّ هذا الجيل الذي نعاصره هنا ، ونواجهه؛ هو الجيل الذي قد غفل أو تغافل عن ذكر الله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف : ٢٨] إنه متبع هواه ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] إنَّه يمتاز بالتفريط والإفراط في كلِّ شيءٍ ، يحبُّ النهاية ، ويحبُّ الطرافة ، وحبُّ الجدَّة ، ويحب الوصول إلى آخر المدى؟ ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨].

ثم يقول : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٥ ـ ٤٦].

ثم ختم الله هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] ، إنَّ النقطة المهمَّة ، النقطة البارزة التي تلفت نظرنا ، وتسترعي انتباهنا ، ويجب أن تسترعي انتباه جميع المتدبِّرين في القرآن هو قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] ، امتاز قادة هذه الحضارة والذين يملكون زمامها اليوم ، والذين اختطوها ، ورسموها بأنَّهم كانوا على حسن ظنٍّ بأنَّهم على خيرٍ ، وكانوا يعتقدون في كلِّ دورٍ من أدوار رقيِّ هذه الحضارة وتقدُّمها أنَّهم يحسنون صنعاً ، إنَّهم يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، إنَّهم يهدمون ، ويعتقدون أنَّهم يبنون ، إنَّهم يخرِّبون ، ويعتقدون أنهم يشكلون ويكوِّنون. إنَّهم يُفسدون ، ويعتقدون أنهم يحسنون إلى الإنسانية والبشرية ، فهذه الحقيقة ، هذه النقطة التي تتحدَّانا ، والتي تتحدَّى قادة هذا البلد ، وهذه البقعة التي تتحكَّم الآن في مصائر الأمم ،

www.abulhasanalinadwi.org

وتتحكم في أوضاع المدنية ، وفي مخططاتها ، وفي مشاريعها ، فإنَّهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولذلك كان الدَّجال الأكبر الذي نبّه إليه رسول الله ﷺ وحذر أمته منه هو زعيم هذه الحضارة الأكبر ، هو الذي يتولى قيادته ، ويتولى كبرها ، ويدعو إليها ، إنَّه رمز هذه المادية الأكبر ، ولذلك جاء في الأحاديث الصحيحة التي رواها أصحاب الصحاح : أنَّ رسول الله ﷺ حثَّ أمته على قراءة هذه السورة وقال : إنَّ قراءتها تعصم من فتنة الدجال ، لأنَّ هذه السورة هي التي تضرب على الوتر الحساس . إنَّ هذه السورة هي التي تضع الإصبع على موضع الداء ، إنَّ هذه السورة الكريمة المعجزة هي التي تجسد الأخطار التي تحلق على رأس البشرية عن طريق هذه المدنية الزائفة ، وعن طريق هذه المدنية الراعنة ، وعن طريق هذه المدنية المتطرفة المغالية .

فـهذه السورة هي سورة هذا العصر بصفةٍ خاصَّةٍ ، وإن كانت هذه السورة تشتمل على معـانٍ كثيرةٍ وعميقةٍ وواسعةٍ ؛ فإنَّ فيها حظّاً لكلٍّ ملتمسٍ للهداية ، ولكلٍّ طالبٍ للنور ، ولكلٍّ مقبلٍ على الله تعالى ، ولكن هذه السورة بصفةٍ خاصَّةٍ تدور حول هذه النقطة التي يدور حولها هذا العصر ، فـإنَّ الأمثـال والقصص التي جـاءت في هذه السورة كلها تدور حول هذا القطب ، وهـذه النقطة الرئيسيـة ، فإنَّ أصحـاب الكهف هم الذين تمرَّدوا على المدنية التي كانت ذات سيطرةٍ وغلبةٍ في عهدهم : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف : ١٤ ـ ١٥] .

ثم قصة الرجلين ، الرجل الذي عكف على الحياة ، وعبدها ، وشُغِف بها ، وجُنَّ بها جنوناً ، وأنكر ما وراءها . ثم قصة موسى والخضر ، فإنَّ الخضر كان يأتي بعجائب تتحدَّى المحسوس ، تتحدَّى المنطق الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس المشاهد ، فإذا وراءه حقائق أخرى ، حقائق غيبية تتضح لموسى عليه السلام حينما يرفع الستار . ثم قصة ذي القرنين كذلك هو

www.abulhasanalinadwi.org

الذي سخر الله له الطاقة ، سخر له وسائل كثيرةً ، ثم استخدمها في صالح الإنسانية ، وفي صالح المدنية ، ولم يغرَّ بها غروراً ، ولم يغتر بها اغتراراً بل كان يملك زمامها ، وما كانت تملك زمامه ، كما هو الشأن الآن في قارة المدنية الأوربية الغربية التي نعيشها هنا ونعيشها في كلٍّ مكان .

نسأل الله التوفيق والهداية ، وصدق الله العلي العظيم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣١ ـ ١٣٢] وصدق الله العليُّ العظيم ، وصدق رسوله الكريم .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

كَيفَ ننظر إلى الحياة الغربية الأمريكية ، وكَيفَ نتعامَل مَعَها

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في اجتماعٍ خاصٍّ للشباب المسلم بمدينة «لوس أنجلوس» في ٢٤/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ١٢/ يونيه ١٩٧٧ م وقد نظمه الاتحاد العالمي للطلاب في أمريكا وكندا ، وكانت المحاضرة مسجلة ، ونقلت من الشريط .

www.abulhasanalinadwi.org

إخواني! إنَّ هذه البلاد التي نلتقي فيها الآن بلادٌ سعيدةٌ ، وبلادٌ شقيَّةٌ ، ولعلَّ هذا الكلام يبدو متناقضاً إذا فكرتم فيما أن يكون شيءٌ في وقتٍ واحدٍ سعيداً وشقيّاً ، ولكن إذا شرحت لكم الفكرة اتَّضح لكم معنى السعادة والشقاء في وقتٍ واحدٍ.

بلاد شقيَّةٌ و سعيدةٌ بنفس الوقت:

إنَّ هذه البلاد سعيدةٌ لأنَّ الله تعالى قد أنعم عليها بنعمٍ كثيرةٍ ، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد وسَّع لها في الرزق ، وسَّع لها في الخيرات ، وسَّع لها في الذكاء ، وسَّع لها في قوة الإرادة ، في صلاحية التنظيم ، تنظيم الحياة ، وقد وسَّع لها في الخصب الأرضي ، والخصب العقلي ، وهذا كلُّه من الدليل على سعادتها ، وقد أصبحت اليوم هي القائدة للمدنية العصرية ، وهذه المدنية العصرية التي تسمَّى المدنية الغربية تستحقُّ أن تسمَّى المدنية الأمريكية؛ لأنَّ المدنية الأمريكية الآن هي المسيطرة على العالم كله ، ولها نفوذٌ رضينا أم لم نرض ، أردنا أم لم نرد ، لها نفوذٌ في قلب العالم الإسلامي ، ومع الأسف الشديد في الجزيرة العربية ، فالعالم الإسلاميُّ يتَّجه الآن إلى هذه البلاد ، والجزيرة العربية قد ألقت أفلاذ أكبادها إلى هذه البلاد ، فإذا أردتم أن تعدُّوا الشباب السعوديين ـ فقط ـ الذين أمُّوا هذه البلاد تجدونهم في عشرات الألوف ، هذا فضلاً عن الهنود ، والباكستانيين ، أو عن الإيرانيين ، أو عن أبناء بلادٍ أخرى.

ولكنها في نفس الوقت ، وفي نفس اللحظة بلادٌ شقيَّةٌ ، ولا تنظروا إليَّ شزراً أيها الإخوان! إنها بلادٌ شقيَّة؛ لأنَّها كان نصيبها من الديانات ، الديانة المسيحية ، وكان نصيبها من مجالات النشاط الإنساني ، المجال المادي التكنولوجي فقط ، أما شقاؤها من جهة الديانة ، ومن جهة العقيدة ، فهو أنَّ الديانة المسيحية هي أبعد ديانة عن روح هذه البلاد ، وعن دور هذه البلاد الذي قامت به ، ومثلته في تاريخ الإنسانية ، إذا سئل: ما هي أبعد الديانات

www.abulhasanalinadwi.org

عن روح هذه البلاد ، وما هي أغرب الديانات عن طبيعة هذه البلاد ، وعن مركزها القيادي ، وروحها القلقة ، وعقلها المتوثب؟ فالجواب الوحيد المعين أنَّها الديانة المسيحية؛ لأنَّ الديانة المسيحية هي التي تجعل الإنسان يؤمن بأنَّه خلق آثماً مذنباً ، مجرماً بالفطرة البشرية ، فكان لا بدَّ له من فداء ، وإنَّ المسيح ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ كان فداء ، هذا الإنسان المخطىء المجرم بالفطرة ، هذه العقيدة هي التي تنشىء في الإنسان عدم الثقة بصلاحيته ، وعدم الثقة بفطرته الصالحة . ثم إن هذه الديانة تحبب الرهبانية ، وتزهِّد في حياة الكفاح ، وتزهِّد في حياة النضال ، وتزهِّد في حياة المنافسة والمسابقة التي هي من أكبر رواد رقي الإنسان وتقدمه ، فالديانة المسيحية ديانةٌ غريبةٌ في هذه البلاد ، ديانةٌ قد فُرضت على هذه البلاد فرضاً ، قد فرضتها الأدوار التي مرَّت بها ، ومرَّ بها التاريخ الإنساني .

المسلمون مسؤولون عن هذا الشقاء :

وقد كانت على المسلمين مسؤوليةٌ كبيرةٌ في هذا الشقاء ، لأنَّ المسلمين فرَّطوا في نقل رسالة الإسلام المثلى ، وفي نقل عقيدة الإسلام ، العقيدة الواضحة المقبولة لكلِّ إنسان ، الحافزة للبشرية ، المفتِّقة للقرائح ، الشارحة للصدور ، المثيرة للغرائز ، إنَّهم فرَّطوا في حمل هذه الرسالة الجليلة المثلى إلى هذا البلد ، إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد منحهم فرصة الحكم في قطعة من أوربا قد حكموا فيها قروناً ، ولكنَّهم قد فرَّطوا تفريطاً عظيماً ، تفريطاً مجرماً في نقل الإسلام إلى أنحاء أوربا البعيدة ، وفي تغلغل الإسلام في أحشاء أوربا ، إنَّهم ظلُّوا في هذه القطعة الأوربية يبنون هياكل ومباني عظيمةً ، ويؤسسون حضارةً جميلةً ، ويوسعون علوماً وثقافات ، ويعنون بالآداب والشعر ، والفنون الجميلة ، ولكنَّهم فرَّطوا في نقل الإسلام ونشره في أوربا ، فكانت النتيجة أنَّ هذه البلاد بقيت تجهل الإسلام ، وبقيت في عزلةٍ عن الإسلام . . . هذا الأول ، والشيء الثاني : أنَّ هذه البلاد كان مجال نشاطها المادي التكنولوجي ، الميكانيكي .

ومن سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يعين كل إنسان ، وكلَّ شعب ،

www.abulhasanalinadwi.org

وكلِّ مجموعةٍ بشريَّـة، وكلِّ مؤسسةٍ إنسانيَّة على ما تختاره من مجالٍ لنشاطها وذكائها، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢٠ ـ ٢١].

فلما اختارت هذه البلاد المجال المادي لنشاطها وذكائها وعبقريتها وإنتاجها؛ كانت لها فتوحٌ عظيمة، وكان لها انتصارٌ كبيرٌ، سخَّرت الطاقات، واكتشفت الأسرار، واستخدمت الوسائل لترفيه الحياة، وتوسيعها، وتسهيلها، ولكنَّها حُرمت الهدوء حُرمت السكينة، حُرمت الإيمان العميق، حُرمت الهدف الصالح، حُرمت الغايات المثلى، حُرمت الجمع بين الدين والدنيا، كما يقول الله تبارك وتعالى على لسان المؤمنين.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

حضارة القلق والسآمة:

فاختارت هذه البلاد المجال الماديَّ، والمجال الصناعيَّ فقط، فكان لها تقدمٌ رائعٌ، كان لها ازدهارٌ، ولكنها لما أهملت الجانب الرُّوحيَّ، وأهملت عالم القلب والنفس، وأهملت العناية بمعرفة الهدف الصالح للحياة، وأهملت الجانب الخلقيَّ والجمع بين الأخلاق الفاضلة وبين الصناعات البشرية، فإنَّ هذه الصناعات وهذا التقدُّم لا يصلح إلا مع الأخلاق، الأخلاق التي تضبط الجشع، وتضبط النَّهامة، وتضبط حبَّ المال، وحبَّ الاستيلاء على البشر، وحبَّ الظلم والقهر للأمم والشعوب، الأخلاق وحدها هي التي تستطيع أن تملك الزمام، وهي التي تستطيع أن توجِّه هذه العلوم توجيهاً صالحاً إلى غايةٍ رشيدةٍ، فلما أهمل الغرب كلُّه ـ بمعناه الواسع ـ وعلى رأسه، وفي مقدمته أمريكا التي نلتقي فيها الآن في هذه الأمسية المباركة الجميلة، إنَّها لما أهملت الجانب الخلقي، والجانب العقائدي، والجانب الرُّوحي، كانت النتيجة أنَّ البلاد أصبحت شقيَّةً في

www.abulhasanalinadwi.org

الروح ، مضطربةً ، حائرةً ، ساد عليها القلق ، وساد عليها التذمر ، وسادت عليها السآمة ، وليست حركة الخنافس ، وليست الحركات التي تلاحظونها في هذه البلاد ـ التي تدلُّ على القلق ، وتدلُّ على التذمُّر ـ إلا ردود فعلٍ عنيفةٍ على هذه الثورة المادِّية ضدَّ هذا التضخُّم ، هذا التضخُّم النقديِّ والتضخُّم الماديِّ ، فهذه البلاد ـ كما قلت لكم ـ بلادٌ شقيَّةٌ وبلادٌ سعيدةٌ ، ولكنَّها الآن في دور القلق والاضطراب ، لا تتبيَّن أمرها ، ولا تملك زمامها ، أصبحت مركباً تركبه الحياة ، ولم تعد راكباً يركب الحياة ، الحياة تسوقها سوقاً عنيفاً ، ولم تعد تقدر على أن تسوق الحياة سوقاً رفيقاً ، سوقاً متَّزناً ، سوقاً هادئاً.

أنتم العماليق ، وهؤلاء هم الأقزام:

أنتم يا شباب الإسلام! أنتم يا أبناء الأمة الإبراهيمية المحمدية الخالدة! أنتم تستطيعون أن تلقوا عليها درساً ، وأن تقودوها ، وأن تنظروا إليها نظر ناقدٍ لا نظر مقتطف ، لا نظر متطفِّل ، لا نظر تلميذٍ صغيرٍ حقيرٍ ، ولكن مع الأسف الشديد ألاحظ أنَّ الشباب الذي يأتون هذه البلاد ، يأتون إليها غير مستعدِّين ، لم يعدُّوا نفوسهم ، ولم يعدَّهم آباؤهم ، وأساتذتهم ، ومربوهم ، وسادة بلادهم لأن يكونوا هناك أصحاب شخصية ، فما لنا من شخصية إسلاميةٍ ، نحن نؤم الغرب كأننا نعيش في صحراءَ ، كأننا نعيش في فراغٍ ، كأننا لا تاريخ لنا ، لا حضارة لنا ، لا دين لنا ، ولا ثقافة لنا ، نأتي إلى هذه البلاد كأقزام ، كأننا أقزامٌ وهؤلاء عماليق ، لا يا إخواني! أنتم العماليق وهؤلاء هم الأقزام ، أنتم الأساتذة وهؤلاء هم التلاميذ ، أنتم الموجهون ، ، هؤلاء هم المقتطفون ، وهكذا كانوا في الزمن الماضي ، ولكننا فقدنا شخصيتنا ، فقدنا الثقة بخلود الإسلام ، فقدنا الثقة بصلاحية الإسلام ، لا لمسايرة العصر بل لقيادة العصر ، إنَّنا في بلادنا الإسلامية في الهند ، وباكستان ، وفي إيران وأفغانستان ، وحتى في مصر وسورية ، لم نعرف طبيعة الحضارة الغربية وحقيقتها. إنَّ أساتذتنا في جامعاتنا وفي معاهدنا لم يستطيعوا ليشحنوا نفوسنا بالثقة ، وليفتحوا عيوننا على هذه الحضارة ، على مساوئها ، وعلى مواضع ضعفها ، وعلى سقطاتها ، وعلى

www.abulhasanalinadwi.org

إخفاقها ، وعلى إفلاسها ، فالمسؤولية على أساتذتنا أكثر مما هي على عواتقنا ، ولكنَّكم ما دمتم قد جئتم إلى هذه البلاد ، عليكم أن تعرفوا روح هذه الحضارة المادِّيَّة ، الروح التي قد سيطرت على هذه الحضارة ، فجعلتها مركباً مادِّياً لا عقل له ، ولا روح له ، يجب أن تتعمَّقوا في دراسة هذه الحضارة ، وتقارنوا بين محاسنها ومساوئها ، وبين كسبها وخسارتها ، وما هي المجالات التي يجب أن ننتفع بها ، وما هي المجالات التي يجب علينا أن نتجنبها ، وأن نفرَّ منها فرار السليم الصحيح من المريض المجذوم ، يجب أن نعيِّن ونحدِّد تلك المجالات التي يجب أن نكون فيها تلاميذ «فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها» ، يجب أن نتتلمذ على أساتذة هذه الحضارة وعلى أساتذة هذه الجامعات في هذه المجالات ، ولكن ما هي المجالات التي يجب أن نتجنبها ، ونفرَّ منها ، ونزهد فيها ، ونستهين بها ، ونحتقرها ، إنما هي مجال العقيدة ، مجال الإيمان ، مجال الروح ، مجال الأخلاق ، مجال الشخصية ، مجال معرفة قيمة الإنسان ، مجال الهدف الصحيح ، مجال القيم والمثل الفاضلة ، مجال الإيمان بالغيب ، ومجال الشعائر الإسلامية .

حافظوا على شخصيتكم :

يا إخواني! كونوا هنا متحفِّظين ، كونوا هنا على حذر ، كونوا هنا على مستوىً عالٍ ، لا مستوىً منخفضٍ ، تقدِّسون الحضارة ، وتمجِّدونها ، وتبالغون في إطرائها ، ليس هذا موقفكم موقف المسلم المعتزِّ بالدِّين ، موقف المسلم المؤمن بالقرآن ، موقف المسلم الحامل لهذا التاريخ المشرق المجيد ، موقف المسلم الذي كان إماماً وقائداً للإنسانية وسيظلُّ إماماً وقائداً للإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لا مانع من أن تفِدوا إلى هذه البلاد ، أنا لست من أولئك الذين يعتقدون أن المسلم لا يجوز له أن يطأ هذه الأرض ، وأن يأتي إليها متعلماً ودارساً ، لست من أولئك المغالين ، ومن أولئك المتطرِّفين ، أنا بنفسي كدارس للفلسفة والحضارة والتاريخ ، له جولاتٌ في هذه المجالات ، ومساهمةٌ

www.abulhasanalinadwi.org

ضئيلةٌ في المكتبة المعاصرة، أقول لكم: لا تفقدوا شخصيتكم، ولا تزدروا بقيمتكم، بل قولوا كما قال سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان في أمَّة مشركةٍ وثنيةٍ خرافية، وأنتم كذلك في أمَّة مشركةٍ وثنيةٍ خرافيَّةٍ، إنه قال:

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

هكذا يجب عليكم أن تقولوا: كفرنا بكم، تكفرون بهذه الحضارة لا تكفرون بها برمَّتها، ولكن تكفرون بها كالحضارة الإنسانية المثلى، وكالحضارة الإنسانية التي هي المثل الأعلى، نحن نقدر هذه الحضارة، ونستفيد منها في بلادنا في تنظيم الحياة، وترفيهها في بعض الأحيان، وفي العلوم الصناعية، والتجريبية، وفي العلوم الرياضية، والتكنولوجية، ولكننا نحترس منها ولا نقلدها في الإيمان، والعقيدة، وفي الأخلاق.

إنَّ هذا الخواء الرُّوحي الذي يعانيه الغرب، والذي تعانيه هذه الحضارة، قد أصبحت منه على شفا حفرةٍ من النار أو على شيءٍ منهار، حتى أصبحت في طريقها إلى الانتحار. إن الحضارة الغربية ـ الآن ـ في طريقها إلى الانتحار، وكما يقول الدكتور محمد إقبال: إنَّ كل أمَّة حرمت الهداية الربانيَّة، وحرمت التوجيه السماويَّ، منتهى كمالها ورقيها البرق والبخار.

إنَّ الإفرنج، أو إنَّ الغرب هو مسودٌّ قاتمٌ بدخان المصانع وبدخان هذه الفبريكات. إنَّ هذا «الوادي الأيمن» لا يصلح للتجلِّي الإلهي.

ولكن مع الأسف الشديد كان من حظِّ هذه البلاد، النصرانية، ثم كان من حظِّ هذه البلاد الاعتماد والتركيز على الجانب الصناعي، وعلى الجانب الماديِّ، هذا هو سرُّ شقاء الإنسانية، ولذلك أصبح العالم ثائراً الآن، وقد كتب عليه الاضطراب، والقلق، والفساد الخلقي، والإفلاس الرُّوحي، والتأرجح بين ماديةٍ جامحةٍ رعناء، وبين رهبانيةٍ مغاليةٍ خرقاء.

www.abulhasanalinadwi.org

قولوا لأهلكم إذا رجعتم إليهم : هذه الحضارة سرابٌ خادع :

يجب عليكم أن تعودوا إلى بلادكم لتقولوا لها ، ولشبابها ، وللمثقفين فيها : قد سبرنا الحضارة الغربية ، وقد عجمنا عودها ، وقد اكتوينا بنارها ، وقد عشنا في قلبها ، فعرفنا إفلاس هذه الحضارة وإخفاقها ، ترجعون إليهم لتكشفوا لهم سرَّ هذه الحضارة ، ولتقشعوا هذا السحاب الذي قد غشى أبصارهم ، ولتبخِّروا هذه الثقة الزائدة ، وهذا التقديس الذي يحملونه لهذه الحضارة ، ولتملكوا زمام بلادكم ، فتقودوها إلى الإسلام .

يجب عليكم أن تعيدو الثقة فيهم بصلاحية الإسلام ، وبصلاحية العلوم الإسلامية ، وبخلود الرسالة الإسلامية ، ولتقولوا لهم : قد عرفنا الغرب أكثر مما عرفتم ، وقد نشأنا وعشنا فيها سنين طوالاً ، وعرفنا أنَّها حضارةٌ جوفاء ، هذه الحضارة كسراب خادع ، ﴿ كَسَرَابٍۢ بِقِيعَةٍۢ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًۭٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] وتقولوا للمتعلمين في الجامعات هناك الذين ينظرون إلى الغرب ، كأنَّه هو المثل الكامل ، وكأنَّه هو السماء ، وهم على الأرض ، وكأنَّه قمة جبلٍ وهم يتطلَّعون إليها كما يتطلَّع طفلٌ صغير ، وقد وقف في سفح الجبل ، فهو ينظر إلى قمة الجبل كأنَّها السماء الأعلى ، تقولون لهم : لا يا إخواننا! ليس الأمر كذلك ، بل هو بالعكس .

هذه كلمتي لكم ، لعلها تحرك فيكم ساكناً ، وتثير فيكم كامناً ، وتحملكم على تقدير نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ لما أكرمكم الله به من نعمة الإسلام ، أسأله ـ تعالى ـ التوفيق لي ولكم ، وأسأل الله ـ تعالى ـ الاستقامة لكم في هذه البلاد ، وأن تكونوا مسلمين بكلِّ معنى الكلمة ، محافظين على الصلوات ، محافظين على الواجبات الدينية ، وعلى الشخصية الإسلامية ، محافظين على العادات الإسلامية الجميلة المقتبسة من القرآن والسنة ، وأن تكونوا هناك هداةً أئمةً موجهين مرشدين ، لا تلاميذ متطفِّلين .

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق ، وأن يثبِّت أقدامكم هنا في هذا المزلق حيث تزلُّ الأقدام ، وتزول الجبال الراسيات ، وأن يأخذ بأيديكم ، وأن

www.abulhasanalinadwi.org

يربط علىٰ قلوبكم ، وأن يشعل فيكم جمرة الإيمان حتى تعيشوا ما بقيتم هنا مسلمين ، وترجعوا إلى بلادكم ـ إذا عدتم إليها مع سلامة الله ـ مسلمين دعاةً متحمِّسين أكثر مما أنتم عليه الآن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الفراغ الَّـذي كـان يَـعيشـهُ الإنسـان قـبل الـبعثـة الـمحمَّديـة ويعيشـهُ فـي القـرن الـعشريـن ، ومـوقف المسلم العربـي إزاءَهُ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرةَ بالعربية في مدينة Sattlake City أمام جمع من العرب المثقفين المقيمين أو العاملين في هذه المدينة الأمريكية ، وذلك في ٢٧/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ ـ ١٥/ يونيه ١٩٧٧ م ، وكانت المحاضرة مسجَّلة ، ونقلت من الشريط .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ و صحبه أجمعين ، وعلى مَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد! فإنني أعتذر إلى إخوتي الذين لا يفهمون اللغة العربية ، إنَّني سأتحدث باللغة العربية ، وإنَّه من معجزات القرآن ، ومن معجزات الدَّعوة الإسلامية ، أن يعبِّر عجميٌّ هنديٌّ عمَّا في ضميره باللغة العربية ، وأريد أن نستحضر جميعاً ، ونؤمن بهذه المعجزة ، ويكون لي الشرف في تجسيم هذه الحقيقة في هذا البلد البعيد عن مركز الإسلام ، ومعذرتي إلى إخوتي ، إلى أبناء بلدي ولغتي ، من شبابٍ وشابَّاتٍ ، وسيكون لي معهم حديث في لغتهم إن شاء الله في هذا المجلس ، وفي غير هذا المجلس.

قفزةٌ واسعةٌ:

أيها الإخوة الكرام! إنَّ الآيات القرآنية التي تليت آنفاً قد نقلتني من هذا الجوِّ الأمريكي المكهرب بالحضارة الغربيَّة ، وبالتقدُّم الحضاريِّ ، من هذا الجوِّ القاتم الغائم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً ، هذا من جهة المساحة الزمنية ، ومن أمريكا الشمالية إلى جزيرة العرب ، هذا من جهة المساحة المكانية ، وهما مساحتان بعيدتان.

إنَّها قفزةٌ واسعةٌ ، فقد تمثَّلت لي تلك الفترة الزمنية التاريخيَّة التي نزل فيها هذا القرآن ، وهو لا يلقى أذناً صاغيةً ، وإنما يلقى مطاردةً ومقاطعةً ، وجفاءً ونكراناً ، كان العرب يسمعون هذا الصوت العذب الرَّخيم ، وكانوا يعتقدون أنَّ هذا الصوت سيغيب في الفضاء ، كما غابت الأصوات الأخرى التي ارتفعت ودوَّت ، وكانوا واثقين كلَّ الثقة بأنَّ هذه محاولةٌ فاشلةٌ ، وأنَّ هذه الدعوة دعوةٌ مؤقَّتةٌ ، وأنَّه ليس إلاَّ كصورٍ تطفو على الماء ، إذا ألقى الإنسان حصاةً فإنَّ هذه الحصاة تكوِّن خطوطاً ودوائر على سطح الماء ، ثم لا تلبث أن تغيب ، كانوا واثقين كلَّ الثقة أنَّ لهذا القرآن ولهذه الدعوة أجلاً قصيراً معدوداً بساعاتٍ لا بأيَّامٍ ، ولكن أراد الله أن يخلد هذا الصَّوت ، وأن

www.abulhasanalinadwi.org

يدوي حتَّى في قلب أمريكا ، ويسمعه السامعون ، وكنت أستشعر وأنا أسمع القرآن ، وأسبح في عالم الخيال ، وأستحضر تلك الأجواء التي نزلت فيها هذه الآيات.

الدعوة الإسلامية بين المدنيات الزائفة:

انطلقت هذه الدعوة من جزيرة العرب ، ومن مكَّة المكرَّمة ، ثم انتقلت ـ لأنها طوردت وحوربت في بلدها ووطنها ـ إلى مدينة يثرب ، واستقبلتها هذه المدينة ، واستمرَّ القرآن ينزل ، واستمرَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس ، وحوله وحول الجزيرة مدنيتان قد بلغتا أوج الحضارة ، وأوج التقدم ، وأوج الرفاهية ، وقد بلغتا أوج الشعور الرقيق ، وأوج الآداب والعلوم ، والفنون والفنِّ المعماري ، والنظم السياسيَّة ، والدساتير الدقيقة ، وقد جاء جستن على عرش روما ، وجاء أنوشيروان على عرش «إيران» فسنَّا قوانين دقيقةً ، وحكمت الإمبراطورية البيزنطينية النصف الغربي والشَّمالي من العالم المتمدِّن ، وحكمت الدولة الساسانية الفارسية النصف الشَّرقيّ من العالم ، وطوقتا الجزيرة العربية ، وصارتا تسيِّران الإنسانية كلَّها ، وتتحكَّمان في مصيرها ، وفي عقولها ، وفي مشاعرها ، وفي القيم ، والمثل ، والموازين ، فكانتا هما المنتهى في السعادة ، وفي الرقيّ ، والمنتهى في العلم والتقدُّم.

فراغٌ هائلٌ:

هنالك وفي هذا الجوِّ ، وفي هذه البيئة ، ظهرت الدعوة الإسلامية ، وكانت هاتان الحضارتان الرومية والفارسية تملكان كلَّ شيءٍ ، وقد توفرت عندهما الوسائل ، وخضعت لهما خضوعاً تامّاً ، ولكن كان هنالك فراغٌ عقائديٌّ ، فراغ إيمان ، فراغ هدوءٍ ، فراغ سكينةٍ ، فراغ ثقةٍ بالنفس ، وثقةٍ بالإنسان ، وثقةٍ بمستقبله ، وباستحقاقه ، وجدارته للبقاء وللمسيرة ، وقد سُدَّت الأبواب أمامهما ، ووقفتا حائرتين مضطربتين على نقطة التقدُّم ، ونقطة الرفاهية ، ونقطة التمتُّع باللذات ، ونقطة التلهي والتشهي ، ونقطة التفنُّن في الحضارة.

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن ما وراء هذه النقطة؟ لا يعرف ذلك أحد ، لا فلاسفة ، ولا حكماء ، ولا أدباء ، ولا شعراء ، ولا مقننون للقانون ، ولا المشرعون البارعون ، ولا قادة حرب ، ولا قادة حرب ، ولا قادة فكر ، كلهم واقفون واجمون ، حائرون مضطربون ، متشكِّكون ، مرتابون ، لا يعرفون المصير الإنساني ، ولا يعرفون ما وراء هذه الطاقات البشرية التي استخدموها وعصروها عصراً ، حتى ما بقيت فيها قطرةٌ ، ولكن ماذا بعد؟ لا يعرف ذلك أحدٌ ، فراغٌ في العقائد ، عقائد لا تستحقُّ أن تسمَّى عقائد ، كلُّ ما كان عندهم هو تاريخ عقائد ، يعني: كانوا يؤمنون بكذا في زمن من الأزمان ، كانوا يؤمنون بالله تعالى في غابر الدَّهر ، ولكن هل لا يزالون يؤمنون بالله؟ لا! كل ذلك ، إنما هو تذكارٌ تاريخيٌّ ، إنما هو آثارٌ تاريخيَّةٌ قد حُفظت ودُوِّنت في كتب التاريخ ، وفي الفلسفة ، ولكن ما هنالك عقيدةٌ حيَّةٌ قويَّةٌ تملك عليهم المشاعر ، وتضبط حركاتهم وسكناتهم ، وتحكم عليهم ، لا! قد أُفلت الزمام ، قد فقدت هذه العقائد كلَّ قوةٍ ، وكلَّ ضبطٍ ، وكلَّ حكمٍ ، فالعقائد هي عقائد تقليديةٌ فقط ، عقائد مرددةٌ باللسان ، ولكن ليس لها نفوذ ، ليس لها تأثير في الأخلاق ولا في الأعمال.

حضاراتٌ بلا هدفٍ:

ثم ما هو الهدف من الحياة؟ لا يعرفون الهدف ، هدف الملوك أن يحكموا على أوسع بقعةٍ من العالم ، ولكن يا سادة! ما هذا بهدف يستحقُّ الاحترام والاهتمام. وهدفُ الوزراء أن يُرضوا الملوك ، وأن يخضعوا لهم ، وأن يحقِّقوا رغباتهم. وهدف قادة الحرب أن يسوقوا الناس سوقاً إلى جهنم الحروب ، لماذا يحارب هؤلاء؟ لا يعرفون! لماذا يُساقون إلى ساحات الحرب؟ ، إنَّهم لا يعرفون! إنَّهم كقطعانٍ من الغنم تساق سوقاً لا رحمة فيه ، ولا هوادة ، الناس يؤدُّون الخراج ، الناس عليهم ضرائب فادحةٌ قاصمةٌ للظهور ، لماذا يؤدُّونها؟ يؤدُّونها ليقضي الملوك وأصحاب البلاط ، والسرايات ، رغباتهم وشهواتهم ، إنما يؤدون الضرائب ليترفَّه

www.abulhasanalinadwi.org

وليترغَّد حفنةٌ من الناس ، يَشْقَوْن لسعادتهم ، ويتعبون لراحتهم ، ويموتون لحياتهم .

هكذا كان الجوُّ في ذلك الحين ، حضارةٌ بلا هدف ، وحكوماتٌ بلا هدف ، وقوانين بلا هدف ، حياةٌ من غير لذَّةٍ ، وجسمٌ من غير روحٍ ، وألفاظٌ من غير معنىً ، وخطوطٌ من غير وضوحٍ ، إنما هو كلُّه ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، وصدق الله العظيم : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

ظلامٌ مطبقٌ :

كان العالم كله في ظلامٍ مطبقٍ ، يتسكَّع في الجهالات والسفالات ، يرسف في قيوده التي صنعها ، ويشحط في دم نفسه التي أراقها ، لا صلة بين طبقةٍ وطبقةٍ ، ولا صلة بين حاكمٍ ومحكومٍ ، ولا صلة بين عالمٍ ومتعلِّمٍ ، ولا صلة بين العلم والأدب ، والفلسفة والحكمة ، وبين الشعب والجمهور وعامَّة الناس ، انقطعت الصِّلات ، وأصبحت كلُّ طبقةٍ تعيش لنفسها ، وبنفسها ، وعلى نفسها .

القرآن تحدَّى الوضع العالمي :

هكذا كان الوضع لما ظهرت الدعوة الإسلامية ، ولما نزل القرآن يتحدَّى هذا الوضع كلَّه ، ويتحدَّى هذه الحضارات كلَّها ، ويقول بكلِّ وضوح ، وبكلِّ صراحةٍ : أنتم في جهلٍ مطبقٍ ، أنتم في ظلامٍ حالكٍ ، أنتم في ظلمٍ فاحشٍ ، أنتم في حيرةٍ لا نهاية لها ، أنتم في وحشةٍ فظيعةٍ ، أنتم في همجيةٍ رذيلةٍ ، من كان يستطيع أن يتحدَّى هذه القوى الجبارة ، ومن كان يستطيع أن يرفع صوته ضدَّ هذه الموجة العارمة؟ هذا النبيُّ الذي عاش فقيراً ، واضطرَّ أن يغادر وطنه الحبيب العزيز الذي فيه الكعبة ، البيت الحرام ، هذا النَّبيُّ المضطهد المظلوم؛ الذي اضطر إلى الهجرة ، وهذه المجموعة البشرية التي التفَّت حوله على أساس الإيمان والعقيدة ، وعلى

www.abulhasanalinadwi.org

أساس الحبِّ والعاطفة ، وعلى أساس التعليم للإنسانية ، هذه المجموعة البشرية تحدَّت العالم كلَّه.

في هذه البيئة الذليلة الحقيرة ، يقول القرآن: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] لا دولة ولا مجتمع ، ولا جيش ولا سلاح ، ولا بترول ، ولا شيء في هذا الوضع ، يقول القرآن مخاطباً للعرب الذين هم أذلاء ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء ، أمِّيُّون ، يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

من محمَّدٍ رسول الله إلى هرقل عظيم الروم:

هل يستطيع أحدٌ من سادة بلادنا الإسلامية ، ومن رؤساء الجمهوريات ، ومن ملوك العالم الإسلامي أن يكتب إلى رئيس من رؤساء الجمهوريات: «من فلان إلى فلانٍ ، أما بعد! أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين» ، ومحمد بن عبد الله على فقره و على ضعفه ، يستطيع أن يكتب إلى قيصر إمبراطور الروم ، إلى أقوى إنسان ، وأغنى إنسان في عصره ، يقول: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم» ، إنَّ الرسول يستنكف في أن يسميه قيصر ، ويقول: من محمَّدٍ ، يقدِّم اسمه الشريف ، يقول: من محمَّدٍ رسول الله ، ولا يقول: من محمد ابن عبد الله ، لا! هذا كتاب دعوة ، هذا ليس كتاب سياسة ، أو معاهدة وحلف ، يقول: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، أما بعد! فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الإريسيين» ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا كان شأن النَّبيِّ ﷺ مع كسرى الذي مزَّق كتابه ، فقال: «سيتمزق ملكه» وقد مزَّق الله ملكه تمزيقاً ، فتحققت نبوءته عليه الصلاة والسلام ، إذ

www.abulhasanalinadwi.org

قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» ، وإن رضا شاه البهلوي على علاته لا يزال ينتسب إلى هذا الدِّين.

الحضارة الغربية حضارةٌ ملوثةٌ ، لا طهارة فيها ، وقديمةٌ ، لا جديد فيها:

إخواني! هذه الحضارة الغربية حضارةٌ ميكانيكيةٌ ، حضارةٌ مادِّيَّةٌ محضةٌ ، لا روح فيها ، إنها حضارةٌ لا هدف لها الآن ، قد أصبحت كالبعير المجترِّ ، الذي يجترُّ ما في بطنه ، ما هنالك شيءٌ جديد ، هذه الحضارة الغربية قد قالت كلمتها الأخيرة قبل زمن ، الآن هي تعيش على امتدادها ، تعيش على ما حققت من انتصاراتٍ ، ومن فتوحٍ في المجال الحضاريِّ ، والصِّناعيِّ التكنالوجي ، لا شيء جديدٌ ، لا رسالة لها للإنسانية ، إنَّها في الحقيقة لا تفكر في مستقبل الإنسانية ، إنَّها الآن تعيش لنفسها فقط ، وأصبحت كما يقول الشاعر الدكتور محمد إقبال:

«من أين نبحث عن الذوق اللطيف ، وعن الأفكار السَّامية ، وعن النظرة الطَّاهرة في الحضارة الغربية ، وهي حضارةٌ غير عفيفةٍ ، قد تلوثت ، ومُسخت من زمان».

إنني أعتبركم أكثر من طالب:

أنتم أيها العرب! أنتم يا شباب المسلمين! أنتم أيها الطلبة والطالبات! لستم تلاميذ فقط ، إنَّني أعتبركم أكثر من طالب ، لقد تحرَّرنا وتحرَّر كثيرٌ من البلاد العربية ، والإسلامية من الرقِّ السياسيِّ ، كان ذلك ضرورياً ، لا شكَّ ، ولكن لم نتحرَّر بعد من الرقِّ الفكريِّ ، نحن مصابون بمركب النَّقص أمام هذه الحضارة ، فمسؤوليتكم أن ترجعوا إلى بلادكم ، وتقولوا لأبناء بلادكم يا إخوتنا! نحن قد نزلنا في أعماقها ، فعرفنا أنها حضارةٌ خاويةٌ ، حضارةٌ جوفاء. إنَّها حضارة كمبيوتر Commputor إنَّها حضارة التأمين Insurance فالجهاز المدني كلُّه قائم الآن علىٰ التأمين ، والجهاز الصناعي كلُّه قائم على كمبيوتر ، ولكن أين قلب هذه الحضارة؟ أين روح هذه الحضارة؟ ، أين رسالة هذه الحضارة؟ وأُحبُّ أن ترجعوا إلى بلادكم ،

www.abulhasanalinadwi.org

وتزيلوا مركب النَّقص من قلوبهم ، وترفعوا الغطاء عن أعينهم وقولوا له : يا شباب! أنتم بعيدون عن هذه الحضارة ، ولكننا قد سبحنا فيها ، وقد نزلنا في أعماقها ، وعرفنا حقيقة هذه الحضارة ، فنقول لكم عن خبرة لا عن تقليد : إنها حضارةٌ جوفاء ، وطلاءٌ خدَّاعٌ.

هذه المصانع العملاقة لا تصنع الإيمان :

ثم إذا وفقكم الله ، تقولون للذين يَملكون زمام هذه الحضارة : أنتم تملكون كلَّ شيءٍ ولكن لا تملكون العقيدة ، لا تملكون الإيمان ، لا تملكون الهدوء ، ليس عندكم شيءٌ يعطيكم الإيمان ، لا تصنع الإيمان مصانعكم العملاقة الجبارة ، هذه المصانع لا تستطيع أن تصنع إيماناً ، من أين يستصدر الإيمان؟ من أين يجلب الإيمان؟ يجلب الإيمان من القرآن ، يجلب الإيمان من السيرة النبوية ، يجلب الإيمان من هؤلاء المسلمين الذين يعيشون على إيمانهم ، ويحمدون الله على فقرهم وهم راضون مطمئنون هادئون ، ساكنون ، ليس عندهم قلق ، هذا القلق الذي استحوذ عليكم وجرَّكم إلى السآمة ، وإلى ردود فعلٍ حمقاء ، وجرَّكم إلى الانتحار ، وجرَّكم إلى اليأس القاتل ، هذا الإيمان لا يمكنكم أن تقتبسوه من فلسفتكم ، ومن هذه الجامعات الكبيرة ، إنما تقتبسونه من القرآن وحده وتقتبسونه من السيرة النبوية وحدها ، من تاريخ الصحابة رضي الله عنهم ، إذا كنتم تتمتعون بقشور الحياة ، فإنهم كانوا يتمتعون بجوهر الحياة ، وروحها ولذتها .

هذا يجب أن يكون موقفنا إزاء هذه الحضارة ، ويكون موقفنا ما دمنا هنا ، وموقفنا إذا رجعنا إلى بلادنا .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

لا وَزَن لـنـا إلا بـالاعتـزاز بـالإسـلام

وجه مكتب رابطة العالم الإسلامي في الأمم المتحدة بنيويورك إلى العلامة الندوي بصفته عضواً في المجلس التأسيسي للرابطة ، وبمناسبة زيارته لأمريكا الشمالية دعوةً لزيارة المكتب وإلقاء خطبة الجمعة في القاعة المخصَّصة للصَّلاة في مبنى الأمم المتحدة ، أمام الحاضرين من مندوبي العالم الإسلامي ، وأعضاء مكاتب الدول الإسلامية ، وذلك في ١٥/ جمادى الآخرة ١٣٩٧ ـ ٣/ يونيو ١٩٧٧ م فقبلها سماحة الشيخ الندوي ، وصلَّى بالنَّاس صلاة الجمعة ، وإلى القراء الخطبة الَّتي خَطَبَها؛ نقلاً عن الشريط المسجَّل.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن سيّدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريّاته ، وبارك ، وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً.

حالة العرب في فجر الإسلام:

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إخواني! نزلت هذه الآية والإسلام في مرحلة الطفولة ، لم تكن له دولةٌ ، وهو منحصرٌ في الجزيرة العربية ، ومنحصرٌ في العرب ، والعرب يعيشون في خصاصةٍ من العيش ، وفي ضيقٍ من الدنيا ، وغالب طعامهم التّمر ولحومُ الإبل والشّعير ، وغالب لباسهم الثوب الخشن الكرابيس ، وبيوتهم من مدرٍ أو وبرٍ ، وكانوا كالغنم في ليلة مطيرة شاتية ، ولا تصوير أبلغ وأدقّ من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبالعكس من ذلك كان الرومان والفرس سادة العالم ، وقادة المدنية والبشرية قد توزعوا العالم شرقه وغربه ، فكان الشرق تحت حكم الفرس ، وكان الغرب تحت حكم الرومان ، وقد لانت لهم الحياة ، واتّسعت لهم الدنيا ، ودرّت لهم الأرزاق ، وسخت لهم الطبيعة ، ودانت لهم البلاد ، والأمم ، وطنّت حصاتهم ، وخفقت راياتُهم في الشرق والغرب.

في هذا الجو القاتم ، في هذا الظلام الحالك؛ الذي لا يبعث أملاً ، تحدّى القرآن هاتين القوتين ، وأثار الثّقة والاعتزاز في نفوس العرب المسلمين ، فقال عزّ من قائلٍ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

www.abulhasanalinadwi.org

تحـدِّي الـقـرآن لـلطـاقـات الـمـاديـة :

قد تحدَّى القرآن قريشاً ، وتحدَّى الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية ، فأنزل سورة يوسف لتسلية النَّبيِّ ﷺ الرسول المرسل والقائد لهذه الطليعة المؤمنة ، فقال: ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] وختم هذه السورة بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١٠ ـ ١١١] ودوَّى الصوت المجلجل في الآفاق في سورة القصص ، وقد افتتح الله سبحانه وتعالى هذه السورة ـ في هذا الجوِّ القاتم ، وفي هذا اليأس القاتل ـ فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١ ـ ٦].

هل يُصدَّق أن قائلاً يستطيع أن يقول ، أو أنَّ متفائلاً ، أو متكهناً ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ يستطيع أن يتكهَّن بمستقبل هذه الفئة المؤمنة الضعيفة المستضعفة ، المظلومة المضطهدة ، القليلة العدد ، الفاقدة للعُدَد ، هل يستطيع أحدٌ في الدُّنيا مهما أوتي من ألمعيةٍ ، ومهما أوتي من بعد نظر ، ومهما أوتي من فراسةٍ ، ومهما أوتي من جرأةٍ أدبيةٍ ، ومهما أوتي من صلاحية المغامرة ، والمجازفة بالأقدار ، أن يتكهَّن لهذه الفئة المؤمنة ، لهذه الحفنة البشرية الضعيفة المستضعفة ، ويقول لها: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

www.abulhasanalinadwi.org

ثقةٌ تملأ جوانح العرب المسلمين:

كان هؤلاء العرب المسلمون قد غمرت نفوسهم وشحنتها هذه الثقة التي ملأت جوانحهم، وملأت نفوسهم، فصاروا ينظرون إلى هذه الطاقات الكبرى كأنها دمىً كُسيت ملابس فاخرةً وكأنَّها دعائم منخورةٌ، وكأنها هياكل منصوبةٌ، وكما يقول الله تعالى ـ ولاتصوير أبلغ وأدقُّ من القرآن ـ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] فلما انطلق العرب من جزيرتهم وهم يحملون هذه الثقة، وهذا الاعتزاز، وهذا الإيمان العميق، جعلوا ينظرون إلى هذه الطاقات الكبرى التي ملأت العالم هولاً ومهابةً، وكان العرب وكانت البشرية بين أسدين، أسد الرومان وأسد الفرس، ولكن هؤلاء العرب كانوا يحملون قوةً أخرى، قوةً خارقةً للعادة، قوةً سماويّةً، قوةً إلهيةً، قوةً قد أفاض بها الإسلام عليهم، فكانوا أمّةً غير أمّةٍ، وكانوا بشراً غير بشرٍ، وكانوا إنساناً غير إنسانٍ، وكانوا لا يملكون شيئاً، وكانوا لا يحكمون بقعةً من الأرض، ولكنهم لما آمنوا بالله تبارك وتعالى، ولما تجلَّت عليهم الحقائق السماوية الخالدة، ولما تجلَّى لهم الفرق بين إنسان وإنسانٍ، وبين كفرٍ وإيمانٍ، وتجلَّىٰ لهم الفرق الهائل الشاسع بين الحقيقة والصورة، وبين الماء والسَّراب، وبين المظاهر والظاهر، وبين الطلاء الخدَّاع، وبين الحقيقة الناصعة.

نظرتهم من العالم إلى ما وراء العالم:

لما كشف الله عن بصيرتهم، ورفع الغطاء عن عيونهم صاروا ينظرون إلى الأشياء في أصلها وحقيقتها، وصاروا ينظرون إلى حقيقة الإنسان، وما هي حقيقة الإنسان؟ ليست حقيقة الإنسان أن يأكل ويشرب، ويرتع ويلعب، إنهم لما عرفوا حقيقة الإنسان، وعرفوا حقيقة الإيمان، وصاروا ينظرون إلى ما فوق هذه الأرض وإلى ما وراء هذا العالم الظاهر المحدود، صاروا يستخفُّون، ويستهينون بهذه المظاهر الخدَّاعة، ويستهينون بهذا السراب الخادع، وصاروا ينظرون إلى هؤلاء ككلابٍ مدلَّلة، أو كطيورٍ

www.abulhasanalinadwi.org

ساجعةٍ مترنِّمةٍ في قفصٍ من ذهبٍ ، أسلاكه من ذهبٍ ، وسقفه من ذهبٍ ، وأرضه من ذهبٍ ، والإناء الذي يقدم فيه الماء من ذهبٍ ، ولكنَّه قفصٌ ، القفص مهما كان ذهبياً ، ومهما كان واسعاً فإنَّه قفصٌ ، والسِّجن مهما كان واسعاً ، مهما كانت فيه حدائق غنَّاء ، وكانت فيه هذه المباني الناطحة للسحاب فإنَّه سجن .

إنَّهم رأوا إلى هؤلاء الملوك وإلى هؤلاء الذين يسمَّون وزراء ، ويسمّون أمراء ، ويسمَّون قادة الجيوش ، ويسمَّون فلاسفة ، ويسمَّون عقلاء ، ويسمَّون رجال البلاط ، كأنَّهم ممثلون يمثلون مسرحية قد صنعت لهم ، وأمروا بتمثيلها ، إنَّهم ممثلون لا أكثر ، ولا أقلّ .

رأوا إلى هؤلاء ، قلوبهم خاويةٌ ، وأرواحهم ذابلةٌ ، وعقولهم فارغةٌ ، وإنما يملأ كلَّ هذا الفراغ ما يتمتَّعون به من ثروةٍ وما يتمتعون به من رخاءٍ ، وما يتمتَّعون به من لذةٍ عاجلةٍ ، وما يتمتعون به من تكريمٍ وتبجيلٍ ، ولكنَّهم كلَّهم أناسٌ يتحرَّكون ، هم صورٌ تتحرك ، ولا تتحركُ بإرادتها ، ولا تتحرك لغايةٍ رشيدةٍ ، إنما تتحرَّك لتأكل ، إنما تتحرَّك لتتلذَّذ ، إنما تتحرك لتتمتَّع ، لا رحمة لها للبشرية ، ولا شفقة لها على الإنسانية ، إنما هي تستخدم البشرية للذَّاتها ، ولعزَّتها وكرامتها المصطنعة المختلفة ، تيجانٌ على رؤوس ، ولكن رؤوسٌ فارغةٌ ، وملابس على أجسامٍ ، ولكن أجسامٌ هزيلةٌ ، وطلاءٌ على إناءٍ جميلٍ ، ولكنَّه إناءٌ فارغٌ .

القرآن يشحن بطاريَّتهم بالإيمان والثقة :

هكذا تجلَّى للعرب لما خرجوا من جزيرتهم يفتحون العالم ، لا ليملكوه ، بل ليُنقذوا البشرية من أعدائها ، ليُنقذوا البشرية من براثن الوحوش ، ليُنقذوا البشرية من هذا الظلم الذي أظلَّهم ولزمهم ، والذي قضوا فيه قروناً طويلةً ، لما خرجوا يُخرجون الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ هانت عليهم هذه المظاهر ، هانت عليهم هذه الدول ، هانت عليهم هذه الرايات الخفَّاقة ، هانت عليهم هذه البلاطات الفاخرة ، هانت

www.abulhasanalinadwi.org

عليهم هذه المباني الناطحة للسَّحاب ، هانت عليهم هذه المواكب الزاخرة بالناس ، هان عليهم هذا الخدم والحشم ، ونظروا إليهم كحيوان لا عقل عنده ، ولا شعور ، ولا رحمة عنده ، ولا عطف.

هكذا ملأ القرآن الكريم هؤلاء العرب الذين كانوا أمِّيِّين ، كانوا أمِّيِّين بصفةٍ عامَّة ، وكانوا في مؤخَّر الركب ، ركب المدنية ، ولكن القرآن شحن بطاريتهم شحنةً جديدةً ، شحنة إيمانٍ ، شحنة اعتزازٍ ، شحنة ثقةٍ ، شحنة تسامٍ ، شحنة تعرُّفٍ بالأشياء وحقائق الأشياء ، فخرجوا إلى هؤلاء ، وسخَّروا العالم ، لا ليملكوه ، ولا ليحكموه ، ولا لمآربهم كما سخرته هذه الأمم ، ولكن ليُحنوا الجباه ، والرؤوس أمام الله تعالى وحده لا شريك له ، وليدخلوهم في حظيرة الإسلام ، في حظيرة العدل السَّماويِّ ، في حظيرة عقيدة التوحيد ، في حظيرة الرحمة على الإنسانية.

نحن أحقُّ بهذا الاعتزاز:

ونحن هنا في رحاب الأمم المتَّحدة ، ونحن نمثِّل أربعين (٤٠) دولةً نحن أحقُّ بهذا الاعتزاز وبهذه الثقة ، وأحقُّ بأن يقال لنا في هذا الصوت السماوي الخالد مخاطباً لنا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] نحن أحقُّ بذلك ، إنَّ العرب لم يكن لهم دولةٌ حتى في جزيرة العرب لما نزلت هذه الآية وقد مضى على ظهور الإسلام أكثر من عقدٍ واحدٍ ، والإسلام لا يزال طفلاً يدبُّ ، ويسعى على الأرض ولكنَّ الله سبحانه وتعالى رآهم جديرين بأن يخاطبوا بهذا القول ، ألسنا جديرين أيها الإخوان ، ونحن نمثل أربعين دولة ، ولنا رايات تخفق هنا ، ونحن وإن كنَّا لا نملك هذا الحول والطول ، ولسنا في مستوى هذه الدول بتخلُّفنا عن ركب الحضارة ، وبتقصيرنا في جنب العلم والمدنية ، وبتكاسلنا وتوانينا وانقسامنا على أنفسنا ، وباستخفافنا بالتعاليم الإسلامية ، وبعدم قدرنا لنعمة الإسلام ، ولكن على كل حال ، نحن الآن أعزُّ من العرب الأولين الذين لم تكن لهم ، ولا دولةٌ واحدةٌ ، ألسنا أحقَّ بذلك؟

ولكن الله تعالى في نفس الآية ، يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] هذا الإيمان هو قيمة المؤمن ، هذا الإيمان هو شحنة هذه البطارية ، فإذا لم تكن هناك شحنةٌ فلا قيمة لها ، إن هذا الإيمان هو السنجة الثقيلة التي إذا وضعت في كفة ميزان؛ رجحت هذه الكفة ، هذه السنجة التي وضعها رسول الله ﷺ يوم بدر بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» إنه عرف ـ وهو الذي رزقه الله العقل السليم ، ورزقه صلاحية الاستعراض للواقع الصحيح ـ أنَّه لو كان الحكم بالقوة ، ولو كان الحكم بالعدد لما كان للإسلام وللمسلمين مستقبلٌ ، ولما قام له كيانٌ على الأرض ، إنَّهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً وإزاءهم ألف رجلٍ مدجج بالسلاح ، فكيف تنتصر هذه القلة القليلة على الكثرة الكاثرة ، هنالك لجأ رسول الله ﷺ إلى الله تبارك وتعالى مناشداً ومبتهلاً ، يناشده بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد».

هذه قيمتنا أيها المسلمون ، هذه قيمة هذه الدول إذا كانت هذه الدول وهذه الشعوب الإسلامية الكثيرة التي يزخر بها العالم اليوم ، والتي لها كلمةٌ مسموعةٌ حتى في هيئة الأمم ، والتي نشرف جميعاً بتمثيلها هنا ، هذه الشعوب المسلمة إذا كانت تحمل هذا الإيمان العميق ، هذا الإيمان المتَّقد المتأجِّج الذي يملك على الإنسان مشاعره وأحاسيسه ، إذاً فإنَّ المؤمن عزيز ، المؤمن له مكانةٌ فالشرط أن نكون مؤمنين.

وإذا تجرَّدنا عن الإيمان كما تجرَّدت تلك الشعوب والدول عن الإيمان الذي دعيت إليه ، فآمنت به في زمنٍ من الأزمان ، فأصبحت جوفاء ، وأصبحت أجساماً نخرةً ، وخشباً مسنَّدةً ، فلنحذر من أن نكون خشباً مسنَّدةً ، ولنحذر أن تكون لنا أسماء مشرقةٌ وأسماء كثيرة العدد في قائمة الأمم ، ولكن في ميزان الله تبارك وتعالى الذي هو الميزان الحقيقي في الدنيا والآخرة لا يكون لنا وزنٌ ، فليس لنا وزنٌ في هذا الميزان إلا باتصافنا بالإيمان ، وإلا بحملنا لشعلة الإيمان ، وإلا بحملنا لرسالة الإسلام ، وإلا باعتزازنا بالإسلام.

هنا في أمريكا في هذه العاصمة الكبيرة ، وفي قلب أوربا ، وفي بلادنا

www.abulhasanalinadwi.org

وعواصمنا نفتخر بالإسلام ، ونقول: نحن مسلمون أولاً وآخراً ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمنا بأكبر نعمةٍ ، ألا وهي نعمة الإسلام ، فإذا افتخرنا بالإسلام ، واعتززنا به؛ فالله سبحانه وتعالى ناصرنا ، ومؤيدنا ، ومشرِّفنا ، وهذا وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

أمَّا إذا كنا أسماء فارغةً ، أو أسماء من غير مسمًّى ، كما قال الأمير شكيب أرسلان عن جمعية الأمم التي تسمَّى الآن بالأمم المتحدة في بعض كتاباته: «إنها بحرٌ كبحر العروض بحرٌ ولا ماء» ، فإذا كنا بحراً ولا ماء؛ فأسفاً! إذاً لا نتوقع النصرة من الله سبحانه وتعالى ، وإنما الوزن للإيمان ، وإنما الشأن في الإيمان العبرة بالإيمان.

نسأل الله تبارك وتعالى أن نرجع إلى الإسلام كما كان السَّلف الصَّالح ، وأن نعبد الله سبحانه وتعالى ، ولا نخشى غيره ، وأن نكون أوفياء لدينه ومعتزِّين برسالته ، وأن تقترن حياتنا برسالة الإسلام ، وباسم الإسلام ، وباسم الإيمان. نسأل الله عز وجل أن يمنَّ علينا بذلك ، إنه على كلِّ شيءٍ قدير.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ودورها البلاغي والنموذجي

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في المركز الإسلامي في لندن ، في ٢٠/ من ربيع الأول سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٨/ من سبتمبر ١٩٩٣ م بعد المغرب.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده. أما بعد!

سادتي وإخواني! يحلو لي ويسعدني أن تكون كلمتي المتواضعة بالعربية في هذا الملتقى الجامع لجنسياتٍ ولغاتٍ مختلفةٍ، وفيه العدد المرموق من إخواننا العرب.

سادتي! إنَّ دور المسلمين في بلادٍ أجنبيَّة لا يسود فيها الإسلام، وتسود فيها القيم الغربية والمثل الأجنبية، والغاية الرئيسية التي تسود فيها هي الوصول إلى منافع ومتع شخصيةٍ، أو جماعيةٍ، أو سياسيةٍ، أو أبيقورية[١] استمتاعية، دور المسلمين في هذه البلاد ـ خصوصاً إذا كانوا في قلة ـ دورٌ دقيقٌ يستدعي إيماناً قوياً، وشجاعةً بارزةً، وحكمةً بالغةً، وقوَّة ثقةٍ بالرسالة التي شرفهم الله وأكرمهم بها.

وكذلك ينبغي أن يكونوا على مستوىً عالٍ، غير مصابين بمركب النقص (Inferiority Complex) لأنَّهم إذا لم يكونوا على مستوىً عالٍ، ينظرون إلى أنفسهم وأمَّتهم نظرة احتقارٍ، أو نظرة مقلِّدين مقتطفين من ثمار هذه الحضارة؛ فإنَّه لا يكون دورهم دوراً رائعاً خلاباً، لافتاً للنَّظر، مسترعياً للانتباه.

أضرب لكم مثلاً يجسم لكم هذه المعاني، ويمثِّل دور المسلم الواثق بكرامته ورسالته، المستهين بالمظاهر الخلاَّبة، المترجم الراثي للمعتمدين على المظاهر، العائشين عيشة الجاهلية، أقتبسه من التاريخ الإسلامي الأول، فيه موعظةٌ، وعبرةٌ، وفيه درسٌ لنا.

إنَّ القائد العام للجيوش الفارسية الإيرانية الذي كان يسمَّى بـ «رستم» والذي كان يعتبر تلو الإمبراطور الإيراني، ويليه في فخفخته وعظمته،

---

(١) الفلسفة المؤمنة باللذة، وأنها هي الهدف الرئيسي في الجهود والأعمال والأخلاق، كانت مدرسة خلقية في اليونان.

www.abulhasanalinadwi.org

ومكانته الاجتماعية ، ترجّى من قائدِ قوات المسلمين ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن يرسل إليه رجلاً يستطيع أن يشرح له الغاية التي ساقت العرب البدو العائشين في صحراء العرب إلى هذه البلاد المتمدِّنة الراقية في الحضارة ، والقوّة العسكرية .

تصوروا رجلاً جالساً على كرسيٍّ عالٍ من الحكم والرئاسة ، كيف ينظر إلى العرب البدو العائشين في الخيام ، أو في بيوت من مدر أو وبر والذين كان قوتهم إما التَّمر وإما لحم الإبل ، كيف ينظر إلى هؤلاء نظرة احتقار ، وعدم مبالاة ، قال: أرسل إلينا رجلاً منكم ، يشرح الغاية التي جاء لها العرب ، وكان من معجزات الإسلام أنه جعل هؤلاء العرب البدو على مستوى موحَّدٍ عالٍ من الفكر ، والعقيدة ، والإيمان بالله ، والاعتزاز بالغاية التي جاء بها الإسلام ، فاختار سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله تعالى عنه ـ ربعي بن عامر[١] لا يعرفه أحدٌ من علماء التاريخ والسير ، ولم يكن له حديثٌ قبل هذا ، ولا حكى لكم هذه القصَّة كحكايةٍ طريفةٍ فيها متعةٌ ولذَّةٌ ، أو مادةٌ للافتخار القوميِّ ، أو الجنسي ، إنما أحكي لكم هذه القصة لتقارنوا بين الإيمان القوي الذي دفع إلى هذا الحديث الجريء الحرِّ أمام القائد العام للجيوش الإيرانية ، وموقف المؤمن بسموِّ رسالته ، وحاجة البشرية إليها ، وفقر هذه البلاد وحرمانها منها ، وبين موقفنا هنا في هذه البلاد ، ونظرتنا إلى أنفسنا ، ورسالتنا ، وواجبنا ، وإلى الحضارة الغربية التي تمثلها هذه البلاد ، وتقوم بالدَّور الرئيسيِّ القياديِّ فيها .

جاء ربعي بن عامر في ثيابٍ صفيقةٍ ، وسيفٍ وترسٍ ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط الذي كان قد بسط حول رستم ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، نبهه بعض الناس ، وقال له: دع سلاحك ، فقال:

---

(١) كان من أشراف العرب. حضر غزوة نهاوند ، ولاه الأحنف على طخارستان. وكانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة «الإصابة في تمييز الصحابة» للعلامة ابن حجر العسقلاني (ج ١ ، ص ٥٠٣).

www.abulhasanalinadwi.org

«إني لم آتكم ، وإنَّما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركموني هكذا فذاك ، وإلا رجعت» فقال رستم: ائذنوا له ، فأقبل يتوكَّأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها.

ودخل على رستم فقال: ما الذي جاء بكم أيها العرب؟ فقال بإيمان متغلغلٍ في الأحشاء ، وثقةٍ بالغةٍ تقوِّي الأعصاب ، وتملكها؛ لأن وراءها كتاباً سماوياً ، ونبوةً صادقةً ، وعقيدةً جازمةً ، وهمَّةً عاليةً؛ ونظرةً هادفةً ، «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

سادتي وإخواني! إنني مع إيماني بما قال ربعي بن عامر عن غاية الإسلام ورسالته الأساسية ، والبدائية ، والنهائية ، من إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وما أشار إليه من جور الأديان ، ومع إجلالي وتقديري له ، فإنَّ كل ذلك كان واقعاً ملموساً وحقائق راهنةً ، ولكني أستغرب قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» فلو قال: «من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» لما ملكني استغراب فإنَّ هذا كان من العقائد التي يؤمن بها كلُّ مسلم ، فضلاً عن هذا المتحدِّث في العصر الإسلاميِّ الأول ، ولكني أستغرب كلَّ الاستغراب من قوله «من ضيق الدنيا إلى سعتها» كأنَّه يقول: لم تخرجنا من جزيرتنا الرحمة والرِّثاء لأنفسنا ، والطمع في خيرات هذه البلاد ، إنما أخرجتنا وساقتنا إلى هذه البلاد الرحمة بكم ، أردنا بأن ننقذكم من هذا السجن الضيق الصغير المظلم الذي تعيشون فيه ، «كبلبل غرِّيدٍ في قفصٍ يوضع له فيه قوتٌ وماء» لماذا؟ لأنكم عبيد العادات ، عبيد الحاجات ، عبيد الشهوات ، وعبيد الموضات[٢] لا تستطيعون أن تعيشوا وحدكم ، لا تستطيعون أن تتصرفوا في أموركم كما تشاؤون ، تحتاجون إلى خدمٍ ، تحتاجون إلى مساعدين ، تحتاجون إلى حراسٍ تحتاجون إلى حراسٍ تحتاجون إلى الطباخين والطهاة.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير: ج ٧ ، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) أساليب الحياة ومظاهرها (Fashions).

www.abulhasanalinadwi.org

ويشهد التاريخ أن «يزدجر» ملك إيران لما خرج هارباً من عاصمته الإيرانية ، عطش ودخل في بيت رجل ، وطلب الماء ، فقدَّم له الماء بكأسٍ متواضع عاديٍّ ، فقال : لا أستطيع أن أشرب الماء في الكأس ؛ لأنَّه كان اعتاد أنْ يشرب الماء في كأسٍ من ذهبٍ أو فضةٍ . والإيرانيون يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقةً أو تاجاً قيمته دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قَصْرٌ شامخٌ وآبزن[1] وحمَّامٌ وبساتين[2] .

كأنه يريد أن يقول : أنتم عبيد عبيدكم ؛ لأنكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون إليكم ، فنريد أن نخلصكم من هذا السجن الضيِّق المظلم ، وما ساقتنا إليكم حاجتنا ، إنما ساقتنا إليكم حاجتكم ، وما ضقنا ذرعاً بالصحراء التي نعيش فيها ، فإنَّها مترامية الأطراف ، واسعةٌ جدًّاً ، إنما ضقنا ذرعاً بالوضع الذي تعيشون فيه ، الوضع المصطنع غير الفطري ، وغير الطبيعي الذي تعيشونه .

أما نحن فلسنا عبيداً لشهواتنا ، لسنا عبيداً لوجباتنا[3] ، لسنا عبيداً لملابسنا التي نلبسها ، لسنا عبيداً للخدم والحشم ، نحن أحرار نتجول في الصحراء ، ونعيش كما نشاء ، ونأكل ما تيسَّر ، فالله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، أنتم تستهدفون لجور الأديان ، وهي التي تذلُّكم ، وتهينكم ، وتسومكم سوء العذاب .

إيها الإخوان! لا أريد ألا أطيل عليكم ـ فأنتم مشغولون وأمامكم واجباً ومسؤولياتٌ ـ وأقول لكم باختصار : إن موقفكم في هذه البلاد يجب أن يكون موقف الأحرار ، موقفاً مبدئياً دعوياً مثالياً ، يلفت النظر ، ويسترعي الانتباه ، ويثير تساؤلات ومقارنات ، ورغبة في المعرفة والفحص

---

(١) فسقية .

(٢) ملتقط من كتاب «حجة الله البالغة» للإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) .

(٣) الوجبة : الأكلة الواحدة في اليوم ، ج وجبات .

www.abulhasanalinadwi.org

والتحقيق ، أما إذا تنزلتم إلى المستوى الغربيِّ ، والحياة الغربية السائدة مهما فقتم وتميَّزتم في هذا التشابه والتقليد؛ فإن ذلك لا يثير تأمُّلاً وتساؤلاً ، ولا إجلالاً ، واحتراماً ، فضلاً عن تأسٍّ ، وتقليدٍ ، وإجلالٍ ، وتمجيدٍ ، أما إذا قدمتم إليهم مثالاً غير مألوفٍ ، مثالاً يثير فيهم الدَّهشة ، نظروا إليكم ، وسألوكم : ما هو المنبع الذي استقيتم منه هذا النمط من الحياة ، وهذه المثل ، والقيم السليمة الفاضلة ، ويرغبون في أن تقدِّموا إليهم كتباً تشرح الإسلام ، وتشرح لهم سيرة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشرح لهم الطريق التي انتهت بالمسلمين إلى هذا المستوى العالي ، والمكان السامي ، ينظرون إليكم كأنهم ينظرون إلى قمَّة جبل .

فقدموا أيها الإخوان المسلمون العائشون في هذه البلاد ـ مؤقتاً ، أو تجنستم بالجنسية الغربية ـ نموذجاً طريفاً من الحياة يثير فيهم الطمع في دراسة الإسلام ومعرفة المسلك الذي وهبهم هذا الطراز من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، فهذا هو الدور الفريد الذي يستطيع المسلمون أن يمثلوه في هذه البلاد ، أما إذا كان الأسلوب واحداً ، وكانت الحياة متشابهةً مطردةً في العالم الغربي ، أو في شبه القارة الهندية ، أو في إفريقية ، وفي أيِّ بلدٍ من بلاد الدنيا؛ فإنَّ ذلك لا يسترعي الانتباه أبداً ، وإن عاشوا هناك مئة سنةٍ أو أكثر .

وأشكركم على حسن الاستماع ، وأعتذر إليكم إذا كانت في كلمتي هذه صراحةٌ زائدةٌ ، فما دفعني إلى ذلك ، ولا حملني عليه إلا حبُّ الجالية الإسلامية في هذه البلاد ، ومعرفة قيمتها ، وأهمية دورها البلاغي والنموذجي في هذه البلاد ، ومعرفة دور هذه البلاد القيادي والتوجيهي المادي في الماضي ، وما تستطيع أن تقوم به من دورٍ قيادي بنَّاءٍ مفيدٍ للإنسانية ؛ إذا أراد الله بها خيراً ، وشرَّفها بالهداية والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المرأة ودورها في التوجيه والتربية

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي بلغه أردو في حفل توزيع الشهادات للمتخرجات في جامعة نور الإسلام للبنات بلكهنؤ في ١١/ ١٢ من شوال ١٤١١هـ . تُـقدَّم هذه الكلمة هنا نقلاً من الأردوية إلى العربية .

www.abulhasanalinadwi.org

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

لقد ذكر الله في هذه الآيات عشر صفاتٍ كريمةٍ ، ولم يكتف بقرن الإناث مع الذكور ، والإشارة إلى أنَّه لا فرق في الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث ، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفةً صفة ، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكر وإن البيان؛ ممَّا يدلُّ على مدى محبة الله مع إمائه ومدى اتِّساع الإمكانية والمجال لهنَّ للتبريز في كلِّ صفةٍ كريمةٍ ، وعملٍ جليل والتحلي بفضائل الأعمال ومكارم الخلق. كما يشير ذلك إلى أن كثيراً من الديانات القديمة والنظم الخلقية كانت تعتبر المرأة سقط المتاع وتعدها فاقدة الصلاحية لإحراز كثيرٍ من الفضائل والمكارم الخلقية ـ وسيصدق ذلك المطلعون على الديانات والخلق ـ ولم يكن ذلك عاراً بالنسبة إليها. فذكر الله تعالى هذه القائمة الطويلة للصفات الكريمة والأعمال الصالحة لكي تعرف أنَّ الله تعالى يحب إماءه ، ويعطف عليهن ، كما يحب عباده ويعطف عليهم. وصفاته من الرحمة والربوبية تشمل الإناث والذكور كليهما ، وتفيض شآبيبها عليهما على السواء. وكان من الممكن أن يكون مجال الإيمان ، واليقين ، والطاعة ، والعبادة ، والصدق ، والإخلاص ، والصبر ، والإيثار ، والخوف ، والإنابة ، والصدقة ، والبرّ ، والعفة ، والحياء حكراً على الرجال ، فإنَّ هذه الصفات والميزات وهذه الانتصارات والمهارات تتطلب همَّةً لا تفتر ، وعزماً لا يتزحزح ، وجهوداً وتضحيات لا تعرف الخمول والنفاد. وكثيراً ما ، بل تماماً تذكر أسماء الرجال فقط في تاريخ الديانات

www.abulhasanalinadwi.org

والأخلاق ، والثقافة ، والمدنية. ثم إنَّ هناك مسؤوليات وواجبات تثقل كواهل النساء بصورةٍ خاصَّةٍ والرجال منها براء مثل مسؤوليات الشؤون العائلية ، وتربية الأولاد ، ولباسهم ، وغذائهم ، وعيادتهم ، والرقابة عليهم. وكان من الممكن تماماً على الأقل بالنسبة إلى الولاية أن تقتصر معرفتنا على مئاتٍ بل ألوف من البررة ، والأتقياء ، والصالحين ، وألا نعرف ونسمع حتى اسم امرأةٍ واحدةٍ في هذا المجال الهام ، لكن هذه القائمة النَّيرة يتجلَّى فيها اسم السيدة رابعة البصرية ، واسمها معروف حتى اليوم ، وكم من صبيَّة تسمَّى باسمها تيمناً وتبركاً. وإن كتب التزكية ، والإحسان ، والسير ، والتراجم ، والتاريخ لتزخر بعاداتها ، وكراماتها ، وخوارقها ، وعظمتها ، وقبولها ، وتجاوبها الحار. لذلك فكثير من البررة والأتقياء والصالحين والعارفين تربيتهم الروحية والخلقية رهنٌ لأمهاتهم الصالحات ، وقصارى جهودهنَّ ، وقد اعترفن بذلك بأنفسهن ، ويستحيل لي أن أذكر هنا في هذه العجالة أسماء جميعهن، وإنما نذكر كنموذج أشهر الصالحين، وأتقى العارفين الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني رحمه الله عليه ، والشيخ المعروف في تاريخ الهند وسلطان المشايخ السيد خواجه نظام الدين، فلو درسنا كتب سيرهما وتراجمهما؛ لعرفنا مدى اهتمامهما بذكر تربية أمهاتهما ، وصفاء جوهما ، وصلاح بيئتهما. ولأدركنا مدى شعورهما بفضل ذلك كله في تثقيف حياتهما ، وتجلية خلقهما ، وتصفية ، وتزكية قلوبهما.

ومما يؤسفني بالنسبة إلى نشر المواهب العلمية والخدمات الثقافية الجليلة أنَّ كتب التاريخ الباحثة في فضلاء الأمة تتجاوز المئات بينهما الكتب المتناولة بسير فاضلات الأمة قليلةٌ جدّاً. لكن مؤلفي كتب السير والتراجم ـ رغم ذلك ـ لم يهملوا النساء كلِّيّاً. فقد ترد إلينا بعض أسمائهن في مجال العلوم الدينية والإنتاجية الأدبية. وهنا أضرب لكم مثلاً مشرقاً واحداً فقط من الهواية العلمية ، ونجاح الشغف العلمي والدراسة المضنية الناجحة ، مثلاً يثير الدهشة والإعجاب والانبهار والاستغرب حتى فيمن له أثارةٌ من العلم والمعرفة والاطلاع.

www.abulhasanalinadwi.org

هل تعرفون أيَّ كتابٍ مكانته أعلى وأسمى من كل ما تحويه المكتبات الإسلامية العلمية في طياتها بعد كتاب الله؟ هو الجامع الصحيح للإمام البخاري رحمه الله الذي لقب كتابه بـ «أصح كتاب بعد كتاب الله» ولا شك أنَّ هذا الجامع الصحيح معيار الفضل والكمال لكل معهد ومؤسسة. ومناسبة قراءة الدرس الأخير للبخاريِّ تعدُّ مفخرةً ونعماً من الله تستوجب الشكر لكلِّ مدرسةٍ وجامعةٍ مهما كانت واسعةً وكبيرةً، وقد تم هذا الاحتفال في هذه المدرسة كذلك. فهل تعرفون عمَّن بلغ هذا الكتاب الجليل في الهند وفي معظم مراكزها ومعاهدها، إنَّه برواية امرأةٍ فاضلةٍ تسمى «كريمة» وقد ورد ذكرها في كتابٍ موثوقٍ به على ما يأتي:

«كريمة بنت أحمد بن محمد المروذية محدثةٌ، كانت تروي صحيح البخاري. قال ابن الأثير: انتهى إليها علوُّ الإسناد للصحيح. عاشت تقريباً مئة سنة أصلها من مرو الروذ، ووفاتها بمكة. ويقال لها أم الكرام، وبنت الكرام»[١].

إليكم الآن مجال الأدب. حين نلتقي بولادة بنت المستكفي الأندلسية. وكانت بنت شخصيةٍ عبقرية من عبقريات حكام الأندلس (أسبانيا). وكانت محرزةً لقصبات السبق في مجال الذوق الأدبي، والفطانة، وبعد النظر، وتفهم أسرار الأمور، وخفاياها، واسمها مشرق يتجلَّى في الكتب في هذا الموضوع، وكان بلاطها الشعري والأدبي يرصع ويزين كما يزين بلاط الأمراء والسلاطين، وكان كبار الأدباء واللغويين يضربون إليها أكباد الإبل[٢].

أما مجال الهمَّة، والعزيمة، والتَّضحية، والإيثار، وعاطفة الجهاد والحماس؛ فيكفي لذلك مثالٌ واحدٌ يندر وجوده لا في تاريخ الإسلام وحده بل في تاريخ العالم أجمع. وذلك أنَّ السيدة الخنساء رضي الله عنها تعدُّ في طليعة الشعراء الذين حازوا الثقة والحجية في اللغة والأدب، ونالوا الشهرة

(١) الأعلام للزركلي. ج/ ٦ ـ ص/ ٧٨.
(٢) أيضاً. ج/ ٩ ـ ص/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

www.abulhasanalinadwi.org

الفائقة في ميدان الفنِّ والشعر. وكان توفي لها أخواها فرثت لهما رثاءً مثيراً ومؤثراً ينقطع نظيره لا في المراثي العربية، بل في مراثي اللغات الأخرى في العالم. هذه حالها قبل أن تدخل في حظيرة الإسلام. والخنساء هذه لما احتضنت الإسلام حدثت ثورةٌ عظيمةٌ في نزعتها وعقليتها. فالمرأة التي جعلت البكاء والنحيب على أخويها شعاراً لها وعادةً، واقتصرت شاعريتها على ذلك. ومن المعلوم لدى الجميع، ولا سيما لدى أخواتنا وبناتنا أنَّ الأخ والابن بينهما فرقٌ كبير. فالمحبة للأخ مهما اشتدَّت وتعمقت لا تعدل المحبّة للابن؛ إذ هو فلذة الكبد، وقرَّة العين، وجلاء البصر وأحبُّ من النفس. فالخنساء هذه دعت أبناءها بمناسبة إحدى الغزوات، وودعتهم واحداً واحداً، وقالت: لم أرضعكم إلا لأجل هذا اليوم، فانفروا في سبيل الله، وارفعوا مكانتي عند الله. وبعد ذلك وقفت تتلقى نبأ شهادة واحدٍ تلو الآخر. ولما تلقت نبأ شهادة الأخير لم تتمالك أن قالت ويا حسن ما قالت: «الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم»[١].

وهناك مجالان إضافة إلى هذه المواهب والصلاحيات والصفات أحرزهما النساء فيهما قصبات السبق، والخدمات التي تستطيع النساء تقديمها في هذين المجالين. والدور الريادي الذي يستطعن أن يقمن به في استمرارية السلسلة السلالية للأمة الإسلامية بل في استمرارية السلسلة العقدية والخلقية والعقلية والثقافية، فذلك حظهنَّ خاصةً لا يتقاسمهنَّ أحد. ولو لم تقدم النساء مساعداتهن الغالية في هذا المجال في كلِّ عصر ومصر بل ولو لم يتحملن مسؤولية ذلك على عواتقهن ولم يبذلن قصارى جهودهن لتحقيق ذلك فإنَّه لن يدوم، وتقوم هذه السلسلة المعنوية التي هي عين قيمة هذه الأمة والحجة على ضرورتها وصلاحيتها وقيمتها. العادات والصفات والمعتقدات التي يتلقَّنها الصبي من أمه المدرسة الأولى، فإنها تختلط بلحمه ودمه، وتصبح لحمته وسداه وتتغلغل في أحشائه، ولا غربة فإنَّ الأمَّهات هنَّ المدرسة الأولى وهن البذرة الأساسية، فإذا كن غارسات

---

(١) كتب التراجم والتاريخ.

www.abulhasanalinadwi.org

طيبات كان غرسها قد حسن وطاب. ومن هنا ركز أخصائيو التعليم والتربية كثيراً على أن الآثار والملامح التي ترتسم على لوح عقله الساذج في البداية فإنها لا تنطمس أبداً. وإن حسبناها مندرسةً ومنطمسة ، لكنها في الواقع لا تنطمس ، وإنما هي تنضغط وتختفي. وما هي إلا طعنة أو طعنتان حتى تنكشف وتنجلي. وبعد الاعتراف بهذا الواقع تتفاقم مسؤولية الأمهات والمعنيين بتربية الأولاد وتثقيفهن. وإنهنَّ يستطعن أن يرسمن آثاراً طيِّبة خلابة على ألواحهم البسيطة. وليس في وسع طاقةٍ ، أو تعليمٍ ، أو تربيةٍ أن تمحو هذه الآثار العميقة بيسرٍ وسهولة.

الأمهات والمربيات والنساء اللاتي هنَّ مؤثراتٍ ومحترماتٍ في البيوت لا تقتصر مسؤوليتهن على أن يعلمن الأولاد اسم الله ، واسم رسوله ، ويحفظنهم الكلمة الطيبة ، وأن يعلمنهم الصَّلاة إذا حان موعدها ، حتى يتعلم الأولاد تلاوة القرآن الكريم ، ويقدروا كذلك على فهم الأردية وقراءتها وذلك في عصر تتمتع فيه اللغة الهندية في الهند وخطها بالسيطرة ومئات الآلاف من الأولاد المسلمين والمسلمات لا يقدرون حتى في كتابة سطر واحدٍ في الأردية ، بل وكتابة أسمائهم ، وذكر أسمائهم شفوياً. ولذلك أمثلةٌ لا يحصيها عد. وقد ظهرت نماذج ذلك مع الأسف في مجالس المقابلات ، وتقديم طلبات الدخول في المدارس ، أو الاشتغال بسبب أو وظيفةٍ ، وليس ذلك إلا نتيجة سيئةً ومصيراً مشؤوماً لإهمال التعليم والتربية في داخل البيوت ، وقلة المبالاة بتعريف التاريخ الإسلامي وتاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة الكرام والأزواج المطهرات وأهل البيت رضوان الله عليهم ، وقادة الأمة ورواد الدين للبراعم والناشئين.

أضف إلى ذلك ما يتحتَّم على الأمَّهات والمعنيات بشؤون الأولاد في بيئة البيت أن تهتمَّ بما يجب تحققه في بيئة البيوت من تكريه الشرك والكفر إلى الأولاد ، وتحبيب الإيمان والتوحيد ، والاعتزاز به إليهم والارتياح إلى الانتماء الإسلامي ، وكونهم من المسلمين ، وتعويدهم على الحميَّة الدينيَّة ، والغيرة الإسلامية ، والابتعاد عن معصية الله ، والعشق لله

www.abulhasanalinadwi.org

ولرسوله والشغف به إلى حد الوله والهيام ، والاشمئزاز والتقزز من المآثم والذنوب ، وحفظهم من اعتبار التقدم الدنيوي غايتهم ونجاحهم ووسيلة للفخفخة والظهور ، وتدريبهم على الصِّدق والتصديق ، والحنين إلى الخدمة ، والإيثار ، والتضحية ، والجهاد ، وتنشئتهم على العاطفة الجياشة ، والحماسة الزائدة لحب الوطن وخدمة الشعب. فتحليتهم بجلائل الأعمال والصفات الكريمة هذه ليست إلا من مسؤولية الأمهات. ولو لم يتحقق كلُّ ذلك في الطفولة وفي داخل البيوت فإن كبرى جامعات العالم وأي مؤسسة تربويةٍ رسمية كانت أو عالميةً عاجزةٌ عن تحقيق هذه الأهداف ، وفاشلةٌ في القيام بهذه الغايات الخطيرة.

دعوني أصارحكم بأن أولاد المسلمين ماداموا لا يشمئزون ولا يتقززون من الوثنية والكفر والشرك تقززهم من النجاسات والأشياء المنتنة ، وما داموا لا يكرهون الكفر والشرك سواءٌ وجد ذلك عن طريق الأساطير (Mythhology) الخارجية ، أو الوطنية ، أو عن طريق الكتب المدرسية (Twxt books) أو الإذاعـة ، أو التلفاز، أو المحاضرات أو كان ذلك للجهل بالدين ، ومبادئه ، وطوابعه ، أو بتأثير الطوائف المرتزقة الانتهازية. فما داموا لا يكرهون الكفر والشرك كراهتهم من أن يلقوا في النار فإنَّه لا يمكن الاحتفاظ بإيمانهم ، ولا يضمن لهم صحة العقيدة واليقين. فلكي تصبح هذه التربية وهذه المحبة والتنافر طبيعتهم الثانية وحاسةٌ جديدة بالإضافة إلى الحواس الخمس؛ إنَّما هو ميراث البيوتات الإسلامية ، وذلك سرُّ استمرارية سلسلة المسلمين العقدية والمعنوية. وما دام هذا العمل لا يتحقَّق في داخل البيوت بأخوات وسيِّدات البيوت فإنّه يتعسر النجاح في تحقيقه بالمواعظ الحماسية الملتهبة ، والكتب الدينية المؤثرة والأساتذة الأخصائيين البارعين للمدارس العربية الدينية والجامعات العالمية المعروفة.

والمجال الثاني الذي تتمتع فيه النساء بالقيادة ، والرِّيادة ، والسبق والبراعة هو الاحتفاظ بمزايا الإسلام الثقافية والحضارية والاجتماعية ، والمحافظة على بقائها ، واستمرارها ، وصيانتها من الثقافات غير

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلامية، والنظم الصناعية، ولمعرفة ذلك تدعو الحاجة إلى الاطلاع على التاريخ الإسلامي القديم ومجدنا التليد.

لقد واجه الإسلام في فجره الأول تحدِّياً غريباً لم يواجهه أيُّ دينٍ في التاريخ. واجه العرب الخارجون من جزيرة العرب مدنيتين راقيتين بلغتا القمَّة في الرُّقيِّ والازدهار، ودقة المعاني، ورقة الحواشي، ولم يجرب الناس مدنيةً أرقى منهما، وأفخم، وأعظم منذ أمدٍ بعيدٍ في التاريخ البشريِّ والحضاريِّ، وهاتان المدنيتان هما: المدنية الرومية، والمدنية الإيرانية. اللتان بلغتا القمَّة، وقطعتا الأشواط المدهشة البعيدة في الثقافة والرسم والتصوير، وتزيين الحياة الإنسانية، وتنظيمها، وتوفير التسهيلات والكماليات ومسائل المتعة، والنزهة، والاستراحة. وكانتا تتمتعان بالرَّوعة والبهاء والجذب والتأثير في حواشي الحياة، ودقائقها، وكانتا تزخران وتتدفقان بالآلات ووسائل الفرح والمتعة واللذة وسعة العيش والطرق الراقية للأمور العائلية. والملبس والمطعم، ووسائل التزيين والتجميل. وحدِّث عن البحر ولا حرج.

وعلى العكس من ذلك كان العرب منطوين في عهدهم البدائي وبعبارة أصحَّ: كانوا في دور المدنية الصبيانية. والواقع أن هذه التجربة التي واجهها المسلمون في صدر الإسلام كانت تجربةً دقيقةً للغاية في الإسلام، وإن كان متحلِّياً بالتعاليم السماوية، والعقائد، والأخلاق العالية، والصفات الكريمة، والآداب الحسنة، لكن الروميين والإيرانيين هم الذين كانوا يتسلمون آنذاك زمام قيادة الثقافة والمجتمع. فكان من الممكن تماماً، وكانت جميع القرائن والمؤشرات تشير إلى أن العرب المسلمين السذج سيتهافتون على هاتين المدنيتين تهافت الفراش على النور والأكلة على قصعتها، ويختارونهما بغثهما، وسمينهما. فإن العرب المسلمين هم قضوا حياتهم في بيئةٍ ضيِّقةٍ ومظلمةٍ. وكانت وسائلهم ضئيلةً محدودةً وكانت أرضهم جرداء من منابع الثروة والخيرات. وعاشوا حياتهم في الخيام، وبيوت القشِّ والوبر والمدر عشية رحلةٍ، وانتقال. ويروي التاريخ أنَّ العرب المجاهدين والمبلغين عندما رأوا لأول مرة في زمن الغزوات

www.abulhasanalinadwi.org

والفتوحات الرقاق من الخبز في المآدب ظنُّوها مناديل لتنشيف الأيدي، فلما أهووا إليها أيديهم بعد ما طعموا فإذا هي خبز ورقاق، وكذلك لما رأوا الكافور، لأول مرة ظنوه ملحاً وربما عجنوه مع الدقيق ظنّاً منهم أنه من الدقيق[١].

فبالجملة: لما ابتدأت سلسلة الفتوحات والانتصارات واجه هؤلاء البدويون البسطاء مدنيةً راقيةً، وجذابةً لم تخطر قطُّ على بالهم. فكان من الممكن تماماً، وكانت القرائن والمؤشرات تؤيِّد أن يتهافت عليها العرب المسلمون السذج تهافت الفراش على النور وتهافت الأكلة على قصعتها والأيتام على فتات الطعام. وأن يقبلوها بغثها وسمينها ويعتزوا بها. فتتقدم بها مستويات حياتهم اليومية ومدنيتهم وملبسهم ومطعمهم مما يلجئهم إلى تجاوز الحدود الشرعية، بل وانتهاك أعرافهم وتقاليدهم السائدة، وكان من الممكن أن يختاروا كلَّ ذلك غايةً وشعاراً لموضةٍ وتقدُّم ونهضةٍ وواقعيةٍ وحبٍّ للفخفخة والظهور. مما يؤدي إلى نشوء المساوىء والآفات التي ظلَّت تحدث في الشعوب والأمم التي تخضع لمدنيـةٍ مادِّيَّـةٍ وانتهازيَّـةٍ وصناعيَّةٍ. والتاريخ يزخر بأمثلة ذلك، ولكي نتصور ذلك ينبغي أن نشاهد الدول والأمم الشرقية طريقتها وأساليبها التي منيت بتقليد المدنية الغربية والسير على طريقها صماً وعمياناً. اقتبست منها مع علاتها وخيراتها فأغمضت عينيها تماماً عن التعاليم الدينية، والحدود الشرعية، وتقاليدها الثقافية التليدة.

والواقع أنَّ المسلمين تغلبوا على هذه المشكلة الخطيرة بمساعدة كلٍّ من الرِّجال والنِّساء، وكان في ذلك حظٌّ كبيرٌ ودورٌ ملموسٌ مشكورٌ لإيمان النساء، ويقينهن، وقناعتهن، وبساطتهن، وإخلاصهن، وإيثارهن للآجلة على العاجلة، وجعل وقائع الصحابيات والصالحين والأبرار والأتقياء أمام أعينهن، ولو لم تكن مساعدات النساء وإسهاماتهن البارزة لم يكن للرجال أن يحفظوا الحياة من محاكاة المدنية الروميَّة، وكان لا بدَّ أن يهوي المجتمع الإسلامي في هاوية محاكاة المدنية الرُّوميَّة والإيرانية

(١) راجعوا كتب التراجم والتاريخ.

www.abulhasanalinadwi.org

وطريقتها للعيش والتعامل مهما دافعوا عن ذلك دفاعهم الأخير. ومهما شمروا عن ساعد جدِّهم وجهدهم في صيانة المجتمع من اقتفاء آثار المدنية الإيرانية والرومية، ومهما ألقوا لذلك الخطب الرنانة والمواعظ الحماسية الملتهبة، ومهما بذلوا لذلك نفسهم ونفائسهم. ولم يكن للعلماء، والواعظين، والحكام، والسلاطين، والمسؤولين عن محاسبة الأخلاق، وقوّاد الجيوش، والضباط أن يحتفظوا بالمجتمع الإسلامي، وأن يصونوا الهوية الإسلامية والحضارة الإسلامية. فالنساء لهنَّ دورٌ ملموسٌ رائعٌ وإسهام ريادِيٌّ بارزٌ لا في الاحتفاظ بالهوية الإسلامية وحدها بل في الذود عن حياض الشريعة الإسلامية، وصيانة كيانها.

وإن كانت في هذه الأيام قوةٌ تقوم بصيانة المجتمع الإسلامي من التردِّي في هاوية محاكاة الحضارة الغربية، وتقوم بسدِّ الموجات العارمة المكتسحة من الحضارة الهندوكية الأسطورية، ومنعها من التفشي والانتشار في المجتمع الإسلامي فهذه القوة لا محالة تتمثل في أخواتنا وسيداتنا، والتعليم الديني الصحيح للنساء المسلمات، وتربيتهن الإسلامية الدينية الهادفة. وتزويدهن بالخلق الإسلامي، والسيرة المثالية للنبي ﷺ، والصحابة الكرام، وإيثارهن للحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات والثقافات الصناعية الأخرى.

هذا الواقع دافعٌ قويٌّ من دافع الضرورة الأكيدة والحاجة الملحة لإنشاء نظام التعليم والتربية لطبقة النساء. فنشكر الله على أنَّ الجامعات والمعاهد التي تتأسس باسم «مدارس النساء» و«جامعة الصالحات» و«جامعة نور الإسلام» هي خطواتٌ بناءةٌ هادفةٌ وعاقلةٌ ومؤثرةٌ لتحقيق الغرض المنشود. وسيكون ذلك ذريعةً ووسيلةً ناجحةً لصيانة الناشئين والجيل الناهض من الردَّة الحضارية، بل وفوق ذلك من الثورة العقدية في الأجيال الناشئة الحديثة. وسيكون ذلك بإذن الله قاعدةً صلبةً ننطلق منها لمواجهة أعدائنا، والصمود في وجه مؤامراتهم وإجراءاتهم التعسفيَّة، ولو واصلنا هذه المسيرة المشجعة المباركة بجدٍّ، وجهدٍ، وإخلاصٍ، وتضحيةٍ، وعقلٍ، وبصيرةٍ فمن المرجو أنَّ نصر الله سيكون حليفنا، وتوفيقه

www.abulhasanalinadwi.org

مساعدنا ، وتوجيهه قائدنا مهما وعرت الطريق ، وكثرت الذئاب. وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

* * *

فهرس الآيات الكريمة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(٢) سورة البقرة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾	٢٩	٣٢٧
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ ... ﴾	٣٠	٣٢٦
﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ... ﴾	١٣٣	٤٨٩
﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ ... ﴾	١٣٨	٤٦٧
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾	١٤٣	١٨١ ، ٤٣٧
﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ... ﴾	١٤٤	٣١٨
﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ... ﴾	١٩٥	١٢
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾	٢٠١	٣٤٢ ، ٤٩٩
﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ... ﴾	٢٤٩	١٢٧
﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴾	٢٥٧	٤٧٩
(٣) سورة آل عمران		
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ... ﴾	٣١	٤٦٧
﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ... ﴾	٦٤	٥١٠
﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ... ﴾	٨٣	٣٢٦ ، ٣٣٢
﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ... ﴾	١٠٣	٤٠ ، ٥٣
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾	١١٠	٨ ، ٤٣٧
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾	١٢٣	١٥٧

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ . . . ﴾ ١٣٩ . ٤٢٩، ٤٤٤، ٥١٠، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٨، ٥١٩

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ . . . ﴾ ١٦٠ . . . . ١٢٧

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ . . . ﴾ ١٩٠ . . . . ٣٢٦

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا . . . ﴾ ١٩١ . . . . ٣٢٦

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ . . . ﴾ ١٩٥ . . . ١٩٥، ١٩٩

(٤) سورة النساء

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ . . . ﴾ ٥٨ . . . . ٣٨٦

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ . . . ﴾ ٧٧ . . . . ١٠٥

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ . . . ﴾ ٨٢ . . . . ٣١٦

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ ٩٧ . . . . ٤٨٨ـ٤٨٩

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا . . . ﴾ ١٠٤ . ١٣٣، ٢١١، ٢٢٨، ٢٦٣

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ . . . ﴾ ١٣٥ . . . . ٢٠٥

(٥) سورة المائدة

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا . . . ﴾ ٢ . . . . ٣٤٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ . . . ﴾ ٨ . . . . . ٣٤٠، ٣٨٦

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ . . . ﴾ ١٥ . ٢٧

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ . . . ﴾ ١٦ . . . . ٢٧

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ . . . ﴾ ١٨ . . . . ١٦٠

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ ٨٢ . . . . ٢٥١

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ . . . ﴾ ٨٣ . . . . ٢٥١

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا . . . ﴾ ٩٧ . . . . ٢١٤

(٦) سورة الأنعام

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن . . . ﴾ ٣٥ . . . . ٣١٨

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . . . ﴾	٥٠	٣١٨
﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى . . . ﴾	٥٧	٣١٧
﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ . . . ﴾	٨٠	٣١٧ ، ٣٢٣
﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ . . . يَعْمَلُونَ ﴾	٨٤ ـ ٨٨	٤٦٧
﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا . . . ﴾	٨٩	٣٧ ، ١١٧
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ . . . ﴾	٩٠	٤٦٧
﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ . . . ﴾	٩١	٣٢٠ ، ٣٢١
﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾	١٢٤	٣١٦

(٧) سورة الأعراف

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ . . . ﴾	٣١	٣٢٧ ، ٣٤٢
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ . . . ﴾	٣٢	١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . . ﴾	٥٤	٣٢٥ ، ٣٣٢
﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾	٩٩	٣٧
﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ . . . ﴾	١٣٨	١٤٤
﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ . . . ﴾	١٣٩	١٤٤
﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ . . . ﴾	١٤٠	١٤٤

(٨) سورة الأنفال

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ . . . ﴾	٢٦	١٥٣ ، ٤٣٩ ، ٥١٤
﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . . . ﴾	٦٠	١٨٧
﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾	٦٣	٥٩
﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ . . . ﴾	٦٧	٣١٨
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ . . . ﴾	٧٢	٤٣٩
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ . . . ﴾	٧٣	٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥

www.abulhasanalinadwi.org

(٩) سورة التوبة

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ . . . ﴾ ٢٤ .... ١٢
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ . . . ﴾ ٧١ .... ٣٤١
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا . . . ﴾ ١١٣ .... ٣١٨
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾ ١١٨ . . . ٢٠٩ ، ٤٣٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا . . . ﴾ ١١٩ .... ٤٦٩

(١٠) سورة يونس

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا . . . ﴾ ٤ .... ٣٢٨
﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ . . . ﴾ ١٤ .... ٣٢٦
﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ . . . ﴾ ١٥ .... ٣١٥
﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم . . . ﴾ ١٦ . . . ٣١٤ ، ٣١٦
﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن ﴾ ٣١ .... ٣٢٥

(١١) سورة هود

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ﴾ ٢٧ .... ١٥٣
﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى . . . ﴾ ٢٨ .... ٣٢٣
﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ٤٣ .... ٣٤٤
﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ . . . ﴾ ٤٩ .... ٣١٥
﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ . . . ﴾ ٩١ .... ١٥٣
﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ . . . ﴾ ١١٣ .... ١٠٩

(١٢) سورة يوسف

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٢ .... ٤٥٢
﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ . . . ﴾ ٧ .... ٥١٥
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا . . . ﴾ ٥٦ .... ٣٥
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ٧٦ .... ٣٢١
﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ٨٧ .... ٣٥٣

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ... ﴾	١٠٩	٣١٥
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ ... يُؤْمِنُونَ ﴾	١١٠ ـ ١١١	٥١٥
﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ... ﴾	١٠٨	٣١٦

(١٣) سورة الرعد

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ... ﴾	١٧	١٤ ، ١٧١
﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾	٢٨	٤٨٧
﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾	٣٨	٣١٨

(١٥) سورة الحجر

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	٩	٢٣٤

(١٦) سورة النحل

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ ... ﴾	٥٢	٣٢٥
﴿ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ... ﴾	٩٢	١٤٣
﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ... ﴾	٩٧	١٩٥ ، ١٩٩
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ... ﴾	١٢٥	٤٥٢

(١٧) الإسراء

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ ... تَفْضِيلًا ﴾	٢٠ ـ ٢١	٤٩٩
﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ... ﴾	٧٠	٣٢٦

(١٨) سورة الكهف

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ... ﴾	٧	٣٢٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾	٨	٤٩٢
﴿ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... بَيِّنٍ ﴾	١٤ ـ ١٥	٤٩٤
﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... ﴾	٢٨	٤٦٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... أَمَلًا ﴾	٤٥ ـ ٤٦	٤٩٣

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . . . وَزْنًا﴾ ١٠٣ـ١٠٥ .. ٤٩٣
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ . . .﴾ ١١٠ .... ٣١٤

(٢٠) سورة طه

﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ٥٠ .... ٣١٩
﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ١٢٠ .... ٧٢
﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا . . . لِلتَّقْوَىٰ﴾ ١٣١ـ١٣٢ .. ٤٩٥

(٢١) سورة الأنبياء

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . .﴾ ١٠ .... ٤٩٢
﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .﴾ ٤٧ .... ٣٢٨
﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ . . .﴾ ٥١ ... ١٥٢، ٣١٦
﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ .... ١٥٢
﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ٧٠ .... ١٥٢
﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ . . .﴾ ٩٢ .... ١٩١

(٢٢) سورة الحج

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ . . .﴾ ٢٧ .... ٤٣٨
﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . . .﴾ ٢٨ .... ١١٨
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا . . .﴾ ٣٩ .... ١٠٤
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ . . .﴾ ٤٠ ... ١٠٤، ٢٢٤
﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا . . .﴾ ٤١ . ٩٨، ١٠٤، ١٠٥
﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ . . .﴾ ٧٨ .. ١١٣، ١٤١، ٤٣٧

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا . . . تُسْحَرُونَ﴾ ٨٤ـ٨٩ .... ٣٢٥
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا . . .﴾ ١١٥ ... ١٥٨، ٣٢٦

www.abulhasanalinadwi.org

(٢٤) سورة النور

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ٣٧ . . . . ٣٤٢
﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً . . . ﴾ ٣٩ . . . . ٥٠٣
﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ . . . ﴾ ٤٠ . . . . ٥٠٩
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾ ٥٥ . . . . ١٢٧

(٢٥) سورة الفرقان

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ . . . ﴾ ٣٣ . . . . ٢٢٠
﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ . . . ﴾ ٧٧ . ١١، ٢٣١، ٢٣٤

(٢٦) سورة الشعراء

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ٦١ . . . . ١٥٥
﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ ٦٢ . . . . ١٥٥
﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب . . . ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ ٦٣ ـ ٦٦ . . . . ١٥٥
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ . . . ٱلدِّينِ ﴾ ٦٩ ـ ٨٢ . . . . . . ٢٩٥
﴿ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ ١١١ . . . . ١٥٣
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ١٢٨ . . . ٧٢، ٢٩٤
﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ١٢٩ . . . ٧٢، ٢٩٤
﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ ١٣٠ . . . . ٢٩٤
﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ . . . فَٰرِهِينَ ﴾ ١٤٦ ـ ١٤٩ . . ٢٩٤
﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . عَادُونَ ﴾ ١٦٥ ـ ١٦٦ . . ٢٩٥
﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ . . . مُفْسِدِينَ ﴾ ١٨١ ـ ١٨٣ . . ٢٩٦
﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . . . مُّبِينٍ ﴾ ١٩٣ ـ ١٩٥ . . ٤٥٢

(٢٧) سورة النمل

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا . . . ﴾ ٣٤ . . . ١٦٧، ٢١٩
﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُم . . . ﴾ ٦٦ . . . . ٣٢٣
﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ . . . ﴾ ٨٨ . . . . ١٤٥

www.abulhasanalinadwi.org

(٢٨) سورة القصص

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ... يَحۡذَرُونَ﴾ ١ ـ ٦ ...... ٥١٥

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ ...﴾ ٤١ .... ٥٠

﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ ...﴾ ٤٢ .... ٥٠

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ ...﴾ ٥٨ .... ٤٤٤

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ ...﴾ ٨٣ .... ٣٢٨

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ ...﴾ ٨٤ .... ٣١٦

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ ٢٩ .... ٢٩٥

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ ...﴾ ٤٨ .... ٣١٥

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ ...﴾ ٦٤ ... ١١٠ ، ٣٢٨

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ ٦٩ .... ٤٧

(٣٠) سورة الروم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ... سَيَغۡلِبُونَ﴾ ١ ـ ٣ ...... ١٢٥

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ ...﴾ ٤ . ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٤٩٠

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ ...﴾ ٥ . ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٤٩٠

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ ...﴾ ٧ .... ٣٢٣

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ...﴾ ٣٠ .... ٤٨٧

(٣٢) سورة السجدة

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ...﴾ ٢٤ .... ٥٠

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ...﴾ ٣٣ .... ٤٦٦

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ ٣٥ .... ٥٢٨

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ...﴾ ٣٨ .... ٢١٣

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ ...﴾ ٦٢ ..... ٣٧ ، ٣٨٤

www.abulhasanalinadwi.org

(٣٤) سورة سبأ

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ . . . ﴾ ٤٦ . . . . ٣١٤

(٣٦) سورة يس

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ . . . ﴾ ٨٢ . . . . ٣١٩

(٣٧) سورة الصافات

﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ٩٥ . . . . ٤٨٤

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ ١٧٢ . ١٥٤، ١٦٠، ٤٤٤

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ١٧٣ . ١٥٤، ١٦٠، ٤٤٤

(٣٨) سورة ص

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ﴾ ٢٧ . . . . ٣٢٦

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ٨٦ . . . . ٣١٥

(٣٩) سورة الزمر

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ٣ . . . . ٣٣٢

﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ٥٣ . . . . ٣٥٣

(٤٠) سورة غافر

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ . . . ﴾ ٤٤ . . . . ١٠٤

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ ٥١ . . . ١٥٤، ١٦٠

(٤١) سورة فصلت

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ . . . ﴾ ٤٣ . . . . ١٤٤

(٤٣) سورة الزخرف

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ . . . يَرْجِعُونَ ﴾ ٢٨ـ٥١ . ٥٠، ١٥٣

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ . . . مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٢٩ـ٤٣ . . . . ١٥٣

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ ٤٤ . ١٤٢، ١٥٣، ١٦٦

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ ٤٥ .... ١٥٣

(٤٥) سورة الجاثية

﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ . . . ﴾ ٢٤ .... ٢٩٧

(٤٦) سورة الأحقاف

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم . . . ﴾ ٢٠ .... ٣٣٤

(٤٧) سورة محمد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ . . . ﴾ ٧ . ١٦٤، ٥٢٠، ٥٣٦

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ . . . ﴾ ٣٨ .... ٣٧

(٤٨) سورة الفتح

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ . . . ﴾ ٢٦ .... ٤٦٦

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ . . . ﴾ ٧٩ .... ١٦٢

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَٰنَ . . . ﴾ ٧ .... ٣١٧

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . ﴾ ١٠ .... ٣٤١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ١٣ .. ١١٠، ١٦٠، ٣٢٧

(٥١) سورة الذاريات

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٥ .... ١٧٨

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . . . يُطْعِمُونِ ﴾ ٥٦ ـ ٥٧ .... ٣٢٧

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ . . . يُوحَىٰ ﴾ ٣ ـ ٤ ...... ٣١٥

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . . . ﴾ ٢٨ .... ٣٢٣

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . . . الْأَوْفَىٰ ﴾ ٣٩ ـ ٤١ .... ٣٤٩

www.abulhasanalinadwi.org

(٥٥) سورة الرحمن

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا . . . ﴾ ٩ . . . . ٣٨٦

(٥٧) سورة الحديد

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . . ﴾ ٧ . . . . ٣٢٦

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . . ﴾ ٢١ . . . ١٥٤ ، ٤٤٤

(٥٩) سورة الحشر

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ ٩ . . . . ٣١٧

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ . . . الْحَكِيمُ ﴾ ٢٣ ـ ٢٤ . . . . ٣٢٥

(٦٠) سورة الممتحنة

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ . . . ﴾ ٤ . . . . . . ٥٠ ، ٥٠٢

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ . . . ﴾ ٢ . . . . . ١٧٢ ، ٣١٧

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ ١٠ . . . . . ١٢ ، ٣٤٢

(٦٣) سورة المنافقون

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا . . . ﴾ ٤ . . . . . . ٢٥ ، ٥١٦

(٦٦) سورة التحريم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . . ﴾ ١ . . . . ٣١٨

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا . . . ﴾ ١٢ . . . . ٢٥١

(٦٧) سورة الملك

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ . . . ﴾ ٢ . . . . ٣٢٦

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ١٤ . . . . ٣١٩

www.abulhasanalinadwi.org

(٦٨) سورة القلم

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ ٢ .... ٣١٤

(٧٥) سورة القيامة

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ ٢٦ ـ ٢٧ .... ٢٠٥
﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ ٣٦ .... ٣٢٦

(٨١) سورة التكوير

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ ٨ .... ١٦٢
﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ ٩ .... ١٦٢

(٨٧) سورة الأعلى

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ ١٤ .... ١١٠
﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ ١٥ .... ١١٠

(٨٨) سورة الغاشية

﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ ٢٥ .... ٣٢٨
﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ ٢٦ .... ٣٢٨

(٩٥) سورة التين

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ ٤ .... ٣٢

(٩٩) سورة الزلزلة

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ... يَرَهُۥ﴾ ٧ ـ ٨ ...... ٣٢٨

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	رقم الصفحة
- أ -	
أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة ، وألين قلوباً	١٦٢
أتدرون أي يوم هذا؟	١٤٩
إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده	٥١١
استوصوا بأهل مصر خيراً	١٨٠
ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله	٩٩
ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟	٥١
ألم تكونوا أعداءً فألف الله بين قلوبكم	٥٣
أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد	٧٤
إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله	٣٥١
إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين	٣٣١
إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم	٤٦٦
إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها	١٤٩
أنا أخشاكم لله	٤٤١
انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً	٣٤٠
إنك امرؤ فيك جاهلية	٤٦٦
إنما نزلت فينا معشر الأنصار	١٢

www.abulhasanalinadwi.org

- س -

سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ١٤٤

سيتمزق ملكه ٥١٠

- ف -

فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ٣٤٢

- ق -

قل يا أبا الوليد أسمع ٩

قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ٧٤

- ل -

لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ١٤٤

لتفتحن كنوز كسرى وقيصر ١٢٧

لقد جئتكم بها بيضاء نقية ١٤٦

اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ١٥٠

اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد ١٠ ، ١٥٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٤٤١ ، ٥١٩

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ٣٣١

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ١١٠

- م -

ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ٤٧٠

ما من مولود إلا يولد على الفطرة ٤٨٧

مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ١٩٠

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ٥١٠

- ن -

النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني ٣٤٢

www.abulhasanalinadwi.org

- و -

وكونوا عباد الله إخواناً ٣٤١
ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف ٤٦٨

- لا -

لا رهبانية في الإسلام ٣٤٢

- ي -

يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب ٣٢٢

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الأعلام

- آ -

آدم عليه السلام ٣٢٧

آرجبول ٣٩٦

آرنولد ٣٥٤ ، ٣٥٥

آزر ٤٨٤

آسبورن ٤٠٠

آل حسن الموهاني ٣٩٩

- أ -

إبراهيم بن أدهم ٦٥

إبراهيم بن رسول الله ﷺ ٣٥٠

إبراهيم بن المهدي ٥٣

إبراهيم عليه السلام ١٥٢ ، ٢٩٤ ، ٣٤٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٢

أبرويز ٣٤٦

ابن الأثير ٣٥٢ ، ٥٣٠

ابن تيمية ٦٥ ، ٣٢٢ ، ٣٩٨

ابن الجوزي ٣٦٢ ، ٤٥٢

ابن حجر العسقلاني ٣٨٧

ابن خلكان ٦٥

ابن رشد الأندلسي ٢٧٩ ، ٢٨٠

ابن سناء الملك ١٤٥

ابن سينا ٨٧ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧

ابن شداد ١٢٩

ابن الصلاح ٦٥

ابن عساكر ٦٥

ابن القيم ٦٥

ابن كثير ٦٥ ، ١٠٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧

ابن منظور ٤٢٣

أبو الأعلى المودودي ٨٨ ، ٤١٧

أبو أيوب الأنصاري ١٢

أبو بكر الدماميني ١٨٢

أبو بكر الصديق ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ٢٣٢

أبو بكرة ١٤٩

أبو تمام ٤٥٣

أبو الحسن ، علي الحسني الندوي ٥ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٠٦ ،

www.abulhasanalinadwi.org

١١٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٤٧ ، ٣٨٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، ٥١٣ ، ٥٢١ ، ٥٢٧
أبو حنيفة النعمان ٤١٣ ، ٤١٧
أبو ذر ٤٦٦
أبو عبيد القاسم بن سلام ٤٢٥
أبو عبيدة ١٠٣ ، ١٠٨ ، ٣٣٩
أبو العتاهية ٣٣٤
أبو العلاء ٤٢٣
أبو علي الفارسي ٥٦
أبو الفداء ٦٥
أبو الفضل ٣٦٤ ، ٣٦٥
أبو الكلام آزاد ٣٧٤، ٤١٧، ٤٣٣
أبو مسلم ٦٧
أبو هريرة ٨٣
أبو واقد الليثي ١٤٤
أبو يزيد البسطامي ٦٥
أحمد إبراهيم الشريف ٤٣٣
أحمد أمين ٢٨٠ ، ٤٢٦
أحمد بن حنبل ٤٢٩
أحمد بن عبد الأحد السرهندي ٢٨٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي ٤٢٩
أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ٥٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني ٣٧٠
أحمد بن عرفان الشهيد ٣٦٨ ، ٤٠٧
أحمد حسن الزيات ٣٠
أحمد الحماني ٤٣٤
أحمد خان ٣٩٦
أحمد عبد الغفور عطا ٤٣١
أحمد محمد شاكر ٣٨٨ ، ٤٢٩
أحنف بن قيس ٣٣٥ ، ٣٣٦
إدوارد لين ٣٨٧
أرسطا طاليس ٣٠٣
أرسطو ١٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
أسامة بن زيد ٧٩
اسبرنجر ٣٨٧
استانلي لين بول ٣٨٧
الاسكندر بن فيلبس المقدوني ١٦٧
اشتياق حسين قريشي ٤١٨
أشوك ٣٠٩
أطهر حسين ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
أفلاطون ١٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٠٣

www.abulhasanalinadwi.org

الأقرع بن حابس ٣٣٨
اقليدس ١٧٠
إكارت ٢٨٣
أكبر ٣٦٤ ، ٣٦٧
ألطاف حسين ٤١٩
أم كلثوم ١٦١
امتيازي علي قرشي الرامفوري ٤٢٥
امرؤ القيس ١١٢
أمير ٤٠٠
أنس بن مالك ٣٣٧ ، ٣٣٨
أنو شيروان ٥٠٧
أنوار الله خان ٤٢٥
أنور باشا ٣٧٦
أنور الجندي ٤٢٨
أنيس ٤١٩
أورنك زيب عالمكير ٤١٤
أوكي كارد ٣٦١
أوينشد ٢٨٣
أ. ي. ونسنك ٣٨٧ ، ٣٨٨
ايدوردجون ٣٥٣
ايم. اي شوستري ٤٠٥
إيميونول ٢٧٨

ـ ب ـ

بابر ١٦١
بارفري ٢٨٣ ، ٣٠٨
بال ٢٨٣
البحتري ٤٥٣
البخـاري ١٤٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٤٢٣ ، ٥٣٠
براكلس ٢٨٣
براؤن ٣٩٥
برهان أحمد فاروقي ٤٠٥
بزمي أنصاري ٤١٨
بطليموس ١٧٠
بقراط ١٧٠
بلال ٣٣٩
بهاء الدين ، ابن شدَّاد ٨٤
بهكوت كيتا ٢٨٣
بوذا ٦١
بولس ٤٨٥
بيك ٣٩٦

ـ ت ـ

تاولر ٢٨٣
الترمذي ١٤٤
تغلق تيمور ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
تقي الدين الهلالي المراكشي ١٦٢
ت ـ و ـ آرنلد ٣٨٧
توزون ٣٥٧ ، ٣٦٠
توفيق عاشور ١٦٥

ـ ث ـ

ثناء الله الأمر تسري ٣٩٩

ـ ج ـ

جالينوس ١٧٠

www.abulhasanalinadwi.org

ج . ب . استرتنج ٣٨٨
الجرجاني ٥٦
جرجي زيدان ٤١٠ ، ٤١١
جستن ٥٠٧
جعفر ٥١
جلال الدين الرومي ٢٨٣ ، ٤١٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
الجلبي ٤٢١
جمال الدين ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
جمال الدين الأفغاني ٣٧١
جنكيز خان ٣٥٥
جهانكير ٣٦٦ ، ٣٦٧
جواد علي ٤٢٨
جولد تسيهر ٣٩٠ ، ٣٩٥
جولين ٢٨٣
جون ويليام درابر ٢٩٦
جيبون ١٢٥

- ح -

حاتم الطائي ١١٢
الحارث بن هشام ٣٣٨ ، ٣٣٩
الحبيب بالخوجة ٤٣٤
حبيب الرحمن الأعظمي ٤٢٤
حتّي ٣٦٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥
الحريري ٤٥٢
الحسن البصري ٣٦٢
حسن بن محمد الصغاني اللاهوري ١٧٤
حسن البنا ١٨١ ، ٤٢٩
حسين البلكرامي ٤٢٥
حسين بن محمد ١٠٦
حسين سراج ١١٩
حسين نصر ٤٣٣
الحطيئة ١٩٢
حفظ الرحمن ٤١٦
حمد الجاسر ٤٣١
حميد الدين الفراهي ٤٢٢
حميد الله الحيدر آبادي ٤٠٤ ، ٤٠٥
الحميدي ٤٢٤

- خ -

خالد بن الوليد ٥١ ، ٥٣ ، ٨٠
خالد الرومي ٣٦٩
خسرو ١٢٦
الخضر ٤٩٤
خليق أحمد النظامي ٤١٨
الخنساء ٢٠٠ ، ٥٣٠ ، ٥٣١
خواجة نظام الدين ٥٢٩
خورشيد أحمد ٤١٩
خولة بنت الأزور ٢٠٠
خير الدين باشا ٣٩٨
خير الدين الزركلي ٢٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

- د -

دبير ٤١٩
ديوجانس ١٧٠

www.abulhasanalinadwi.org

- ذ -

الذهبي ٦٥

- ر -

رابعة البصرية ٥٢٩
رابعة العدوية ٢٠٠
رادها كرشنن ٢٨٣
رافع ٧٥
رافع بن عميرة الطائي ٨٠
رام كرشنن ٢٨٣
رام نج ٢٨٣
ر. ا. نكاسون ٣٩٠
رانا سانجا ١٦١
ربعي بن عامر ١١ ، ٥١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤
رتبيل ٦٧
رحمة الله الكيرالوي ٤١٩
رستم ١١ ، ٥١ ، ١١٧ ، ١٧٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٤٧٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤
رشاد ٣٧٣
الرشيد ٥٣ ، ٨١
رشيد الدين ٣٥٩
رشيد رضا ٣٨٨
رضا شاه البهلوي ٥١١
رمزي نعناعة ٤٣٣
رياست علي الندوي ٤١٦

- ز -

الزبيدي ٥٦
الزمخشري ٥٦

- س -

سالم مولى أبي حذيفة ٣٣٩
ستينلي لين بول ٢٠٥ ، ٢٠٦
سعد بن أبي وقاص ١١، ٥٣، ٧٤، ٨٠، ١٠٣، ١٥٨، ٢٣٦، ٣٥٧، ٤٤١، ٤٤٢، ٥٢٣
سعيد أحمد الأكبر آبادي ٤١٦ ، ٤١٨
سعيد الأعظمي ٣٤٧
سعيد الأنصاري ٤١٦
سعيد بن منصور ٤٢٤
سفيان الثوري ٤٢٥
سلمان ١٠٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٣٣٨ ، ٤٤٢
سليمان دنيا ٤٦٣
سليمان الندوي ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥
سمرة بنت جندب ٧٥
سهراب ١١٧
سهيل بن عمرو ٣٣٨ ، ٣٣٩
سيد سابق ٤٣١
سيد قطب ٣٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
سيف الدين قطز ٢٠٧
السيوطي ٢٠٧

www.abulhasanalinadwi.org

- ش -
شاخت ٣٩١ ، ٣٩٥
الشاذلي نيفر ٤٣٤
الشافعي ٣٤٠
شبلي النعماني ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٩
شداخ بن يعمر الكناني ٢٩٧
الشريف حسين ٣٧٤
الشريف الرضي ٤٥٣
الشعبي ٣٣٩
شعيب عليه السلام ١٥٣ ، ٢٩٦
شكري فيصل ٤٣٣
شكيب أرسلان ١٩٢ ، ٤٢٧ ، ٥٢٠
شمس الحق الندوي ٢٦٨
شنكرا ٢٨٣
شهاب الدين الدولة الآبادي ١٨٢
شوكت علي ٣٧٤
شيرين ٣٤٦
- ص -
الصابي ٤٥٣
صباح الدين عبد الرحمن ٣٨٥ ، ٤١٦
صدام حسين ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
صلاح الدين الأيوبي ٥٣ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٧
صلاح الدين خدا بخش ٤٠١
الصغاني ٥٦
صهيب ٣٣٨
- ض -
ضرار بن ضمرة ٣٣٤ ، ٣٣٥
ضياء الدين الإصلاحي ٤١٦
ضياء الحسن الفاروقي ٤١٨
- ط -
طارق بن زياد ٥٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ١١٣
طاهر بن عاشور ٤٣٤
طرفة بن العبد ٢٩٨ ، ٢٩٩
- ظ -
الظاهر بيبرس ١٧٩ ، ٢٠٧
ظفر علي خان ٣٧٤
ظهير الدين الفاروقي ٤٠٥
- ع -
عائشة ٨٣
عباس محمود العقاد ٤٢٧
عبد الباري الفرنجي ٣٧٤
عبد الباري الندوي ٤١٥
عبد الباسط عبد الصمد ١٧٨ ، ١٨١
عبد الباقي الدهلوي ٢٨٦
عبد الحق ٢٨٦

www.abulhasanalinadwi.org

عبد الحق الحقاني ٣٩٩
عبد الحليم أحمد بن تيمية ٢٧٧
عبد الحميد خان الثاني ٣٧٢ ، ٣٧٣
عبد الحميد الصديقي ٤١٩
عبد الحميد الفراهي ٤٢٢
عبد الحي الكتاني الحسني ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٣٤
عبد الرحمن بن خلدون ٢٧٦
عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ٤٢٣
عبد الرحمن الداخل ٨١
عبد الرحيم خان خانان ٣٦٧
عبد الرزاق بن همام الصنعاني ٤٢٤
عبد الرؤوف الدانافوري ٤١٧
عبد السلام بسين ٤٣٤
عبد السلام القدوائي الندوي ٤١٦
عبد السلام الندوي ٤١٥ ، ٤٢٠
عبد العزيز ٣٩٨
عبد العزيز بن ولي الله ٣٦٨
عبد العزيز الميمني الراجكوتي ٤٢٣
عبد القادر الجيلاني (الكيلاني) ٣٦٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥٢٩
عبد القادر عودة ٤٢٩
عبد القدوس الأنصاري ٤٣١
عبد القدوس الهاشمي ٤١٨
عبد القيوم ٤٢٥
عبد الكريم الخطيب ٤٣٤
عبد اللطيف الحيدر آبادي ٤٠٥
عبد الله بن الحسين ٢٤٠
عبد الله بن عباس ٣٣٣
عبد الله بن عبد الله الزايد ٤٣٦
عبد الله بن عمر ١٤٩
عبد الله بن عمرو ٣٤٢
عبد الله بن مسعود ٤٣٩ ، ٤٧٠
عبد الله السليمان ١٣٨
عبد الله العقيل ١٨٣
عبد الله العلي ١٨٣
عبد الله كنون ٤٣٤
عبد الله المشرف ٤١٨
عبد الماجد الدريابادي ٤٠٢ ، ٤١٧
عبد المجيد ٣٧٣
عبد المنعم النمر ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٤٣٣
عبد المعين خان ٤٠٥
عبد الواحد هالي بوتا ٤١٩
عبد الودود سلبي ١٦٥
عتيق الرحمن العثماني ٤١٦
عجاج نويهض ٤٢٧
عروة بن الزبير ٧٩ ، ٨٣
عقبة بن نافع ٥٣
علال الفاسي ١١٩ ، ٤٣٣

www.abulhasanalinadwi.org

علي بن أبي طالب ٢٠٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٤٥٢
علي الطنطاوي ٤٣١
علي المتقي ٥٧
عمار ٣٣٨
عمر بن الخطاب ٨٣ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٤١٣
عمر بن عبد العزيز ٦٤ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٤٤٣
عمر خيام ٤١٤
عمر رضا كحالة ٤٢٨
عمر فروخ ٤٠٦
عمرو بن الجموح ٧٤
عمرو بن العاص ٣٣٧ ، ٣٣٨
عمير بن أبي وقاص ٧٤
عمير بن الحمام الأنصاري ٧٤
عنايت رسول الجرياكوتي ٣٩٩
عيسى ابن مريم (المسيح) عليه السلام ١٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٤٨٤ ، ٤٩٨
عيينة بن حصن ٣٣٨

- غ -

الغزالي ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٦٢ ، ٤١٣
غلام أحمد ٤٠٤
غلام سرور ٤٠٥
غلام علي ٣٧٠
غورو ٣٧٤

- ف -

الفارابي ٨٧ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧
فاضل بن عاشور ٤٣٤
فخر الدين الرازي ٢٨٤
فرعون ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥
فضل الكريم ٤٠٦
فندر ٣٩٨
فؤاد سركين ٤٢٨
فؤاد عبد الباقي ٣٨٨
فو قبس ١٢٥
فيثاغورث ١٧٠
فيصل بن الحسين ٣٧٤
فيضي ٣٦٤

- ق -

قازان ٣٥٧
قتيبة بن مسلم ٥٣
قريط بن أنيف ٣٠٠
قسطنطين ٣٠٩
القطامي ٢٩٩
قيصر ١٢٧ ، ٥١٠

- ك -

كارل بروكلمان ٣٩٠ ، ٣٩٥
كارل ماركس ٤٩

www.abulhasanalinadwi.org

كامل الشريف ٤٥١
كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية ٢٠٠ ، ٥٣٠
كسرى ١٢٧ ، ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٣٥٧ ، ٥١٠ ، ٥١١
كمال أتاترك ١٨١
كمال الدين ٤٠٤
كولمبس ٤٧٤
الكيرانوي ٣٩٧

ـ ل ـ

اللنبي ٣٧٤
لوط عليه السلام ٢٩٥
ليكي ٣١٠ ، ٤٨٢

ـ م ـ

المأمون ٥٣ ، ٤١٣
مارغوليوث ٣٩٥
مارية القبطية ١٨٠
مالك بن بني ٤٣٤
المتنبي ٤٥٣
المثنى بن حارثة ٥٣
مجيب الله الندوي ٤١٦
محمد آصف القدوائي ٤٠٩
محمد إبراهيم شقر ٤٤٦
محمد أبو زهرة ٤٢٩
محمد أحمد باشميل ٤٣٢
محمد أسد ٤٠٦
محمد أسلم ٤١٨
محمد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي ٣٦٨
محمد أعلى التهانوي ٥٨
محمد إقبال ٨٦ ، ٨٧ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٨٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٢ ، ٥١١
محمد باقر الصدر ٤٣٠
محمد بشير الإبراهيمي ٤٣٤
محمد بن عبد الوهاب ٣٧٠ ، ٣٧١
محمد بن علي السنوسي ٣٧٠
محمد بن علي الشوكاني ٣٧٠
محمد بن عمرو بن العاص ٣٣٧ ، ٣٣٨
محمد بن القاسم الثقفي ٥٣ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ١١٣ ، ١٧٣
محمد البهي ٤٣٠
محمد تقي العثماني ٤١٩
محمد الحسني ٤٠٧
محمد حسين آزاد ٤٢٠
محمد حمد الشبلي ٢٦٤
محمد رفيع الدين ٤١٨
محمد زكريا بن محمد يحيى

www.abulhasanalinadwi.org

الكاندهلوي ٤٢٣
محمد سليمان المنصور فوري ٣٩٩
محمد سيد الطنطاوي ٤٣٣
محمد شفيع ٤١٨
محمد صالح القزاز ١١٩
محمد طاهر الفتني ٥٨
محمد عبده المصري ٣٧١
محمد علي ١٩٩
محمد علي جوهر ٣٧٤
محمد علي اللاهوري ٤٠٣ ، ٤٠٤
محمد علي المونجيري ٣٩٩
محمد الغزالي ٤٣١
محمد الفاسي ٤٣٤
محمد قطب ٤٣٠
محمد كرد علي ٤٢٧ ، ٤٢٨
محمد المبارك ٤٣٠
محمد محمد حسين ٤٣٠
محمد محمود الصواف ١١٩
محمد منظور النعماني ٤٠٨
محمد وزير خان الأكبر آبادي ٣٩٧
محمد يوسف الكاندهلوي ٤٢٤
محمود بن الشريف ١١٩
محمود حسن خان التونكي ٤٢٠
محمود حسن الديوبندي ٣٧٤
محمود خليل الحصري ١٨١
محمود شيت خطاب ٤٢٨
محيي الدين بن عربي ٦٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩
مرتضى البلكرامي الزبيدي ١٧٤ ، ٤٦٣
مرتضى خان (سيد فريد) ٣٦٧
مريم بنت عمران ٤٨٤
مريم جميلة ٤٠٧
المزي ٦٥
مصطفى أحمد الزرقا ٤٢٩
مصطفى الأعظمي ٤٠٥
مصطفى السباعي ٧٠ ، ٤٢٩
مصطفى كمال باشا (أتاتورك) ٣٧٥
مظفر الدين الندوي ٤٠٦
مظهر الدين الصديقي ٤١٩
معاوية بن أبي سفيان ٣٣٤ ، ٣٣٥
المعتصم ٨١ ، ٩١
المعري ٥٤٣
معين الدين الجشتي ٣٦٥
معين الدين الندوي ٤١٥ ، ٤١٦
المغيرة بن شعبة ٥١
مناظر أحسن الكيلاني ٤١٧
مناع القطان ٤٧
مهدي عبود ٤٣٤
موريس ١٢٥ ، ٣٩٦
موسى بن نصير ٥٣ ، ٦٦
موسى عليه السلام ١٤٣ ، ١٤٤ ،

www.abulhasanalinadwi.org

١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٣٢١ ، ٤٩٤
مونتجري وات ٣٩١
ميرولي الدين ٤٠٥
ميكافيلي ٤٩
مين جنك ٤٠٥

- ن -

نادية حسني صقر ٤٣٣
النجاشي ٥١
نجاة الله الصديقي ٤١٨
نجيب أشرف الندوي ٤١٦
نديم الجسر ٤٣٠
نذير أحمد ٤١٨
نكولسون ٣٩٥
نواب علي اللكنوي ٣٩٩
نوح عليه السلام ١٠٧ ، ١٥٣
نور الدين ٦٥
نور الدين زنكي ١٢٩، ٢٠٥، ٢٠٦
نور عالم الأميني الندوي ٤٧٣
النووي ٦٥

- هـ -

هاجر ١٨٠
هرقل ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ٥١٠
هوالد هوفرنج ٣٣٢
هود عليه السلام ٧٢

- و -

وحيد الدين خان ٣٧٣
و. س. اسمث ٣٩١
ولادة بنت المستكفي ٥٣٠
الوليد بن عبد الملك ٦٩
ويدانت ٤٦٧

- ي -

ياسر عرفات ٢٢٥
يزدجرد ٥١ ، ١٠٤ ، ٢٣٦ ، ٢٦٦ ، ٥٢٥
يزيد بن عبد الملك ٦٧
يعقوب عليه السلام ٤٨٩
يوسف عليه السلام ٣٥
يوسف القرضاوي ٤٣٠
H.A.R.Gibb ٣٦١
M. M. Pickttall ٤٠٢

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الأشعار

القافية	الشاعر	رقم الصفحة
	ـ ب ـ	
جانبا	ـ	٨٢
ترابُ	أبو فراس الحمداني	١١٢
خرابُ	أبو فراس الحمداني	١١٢
	ـ ت ـ	
أخواتُ	ـ	١٠٠
السنواتُ	ـ	١٠٠
لغنَّتِ	ـ	١٨٣
	ـ ح ـ	
بصحيحِ	ـ	١٤٠
قروحِ	ـ	١٤٠
	ـ د ـ	
موردا	ابن سناء الملك	١٤٥
سدُّوا	الحطيئة	١٩٢ ، ٣٦٢
أرشدِ	ـ	٣٠٠
بعدي	نصيب	١٤١
تزبدِ	طرفة بن العبد	٢٩٨
الصَّدي	طرفة بن العبد	٢٩٨ ، ٣٠٥
عوَّدي	طرفة بن العبد	٢٩٨

www.abulhasanalinadwi.org

المتوردِ	طرفة بن العبد	٢٩٨
مخلدي	طرفة بن العبد	٢٩٨
المعمَّدِ	طرفة بن العبد	٢٩٨

ـ د ـ

مفسدِ	طرفة بن العبد	٢٩٩
منضدِ	طرفة بن العبد	٢٩٩
يدي	طرفة بن العبد	٢٩٨

ـ ر ـ

الأكبرُ	ـ	١٠٥
حريري	محمد إقبال	١٨٨
ضميري	محمد إقبال	١٨٨
عرارِ	ـ	٣٠٥

ـ ع ـ

طيّعُ	ـ	١٤١

ـ ل ـ

فشلُ	شداخ بن يعمر الكناني	٢٩٨
قُتلوا	شداخ بن يعمر الكناني	٢٩٨
أمثالي	امرؤ القيس	١١٢
طائلِ	ـ	٣٠٠
القبائلِ	ـ	٣٠٠
المالِ	امرؤ القيس	١١٢

ـ م ـ

مطعما	حاتم الطائي	١١٢
الإثمُ	ابن الفارض	١٤٠
الحزمُ	ابن الفارض	١٤٠
ولاسهمُ	ابن الفارض	١٤١

www.abulhasanalinadwi.org

يظلمُ	ـ	٣٠٠
أقوامِ	ـ	١٤

- ن -

أخانا	القطامي	٢٩٥
برهانا	قريط بن أنيف	٣٠٠
حطّينا	الزركلي	٢٢٦
خراسانا	ـ	٢٦٥

- ي -

الأمانيا	ـ	٢٦٥
حاليا	ـ	٢٦٥

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الموضوعات

إلى ممثلي البلاد الإسلامية ٥
بين العالم وجزيرة العرب ١٧
من الجزيرة العربية إلى العالم ٢٣
اسمعي يا مصر ٢٩
اسمعي يا زهرة الصحراء ٣٨
اسمعوها مني صريحةً أيها العرب ٤٦
اسمعي يا سورية ٦٣
العوامل الأساسية لكارثة فلسطين ٧٠
ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي ٨٨
أزمة إيمان وأخلاق ٩٦
إلى الراية المحمدية أيها العرب ١٠٦
لا تحرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب ١١٤
العرب يكتشفون أنفسهم ١١٨
اكتشاف العرب لأنفسهم وللحقيقة ، واكتشاف العالم للعرب ١٢١
قران السعد الفاصل بين تاريخين ١٢٢
الاكتشاف أقوى عامل في صياغة التاريخ وتغيير الأوضاع ١٢٢
مثال من التاريخ البيزنطي الرومي ١٢٣
لغزة تاريخية ١٢٤
تحول في حياة هرقل واكتشافه لنفسه ، مفتاح هذا القفل ١٢٥
فرق بين اكتشاف فرد واكتشاف أمة وبين اكتشاف طاقة ١٢٦

www.abulhasanalinadwi.org

تاريخ الحكومات والفتوح والإصلاحات خاضع لاكتشاف بعض الأفراد ١٢٨
أمثلة من سيرة عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي ١٢٨
أمثلة من تاريخ الشعوب والسلالات الفاتحة المؤسسة للحكومات . ١٢٩
اكتشاف العرب لطاقاتهم ووسائلهم في الفترة الأخيرة ١٣٠
محنة العرب في عهد الغزو الفكري الأوربي والقيادات الزائفة ١٣١
الفوضى الفكرية والاضطراب العقائدي والخلقي ١٣١
عزلة عن حياة الفروسية والمغامرات والحماس الديني ١٣٢
حروب في غير حرية وعزم ١٣٣
أهمية صناعة الموت في حياة الأمم ١٣٤
القدرة على النفع والضرر نعمة كبيرة ١٣٤
طلائع الفروسية والمغامرة ، وأثرها في اعتبارات الشعوب والأمم . ١٣٥
طريق طويل إلى النصر ١٣٦
حرب على كلّ شبح للخوف وكل أثرٍ لمركب النقص ١٣٦
أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب ١٣٨
نظامان إلهيان للغلبة والانتصار ١٤٨
وقفة قصيرة عند الحوادث الأخيرة في العالم العربي ١٤٨
كيف دخل العرب التاريخ؟ ١٦٥
مصر جوهرها إسلامي إيماني محمديٌّ مهما تراكمت عليه الأتربة .. ١٧٨
واقع العالم الإسلامي ١٨٣
دور المرأة في بناء المجتمع الإسلامي ١٩٤
مستقبل الأمة العربية والإسلامية بعد حرب الخليج ٢٠٢
دروس وعبر ينتفع بها ، وفجوات وثغرات يجب أن تسدّ ٢٠٢
المأساة الأخيرة في العالم العربي ٢١٦
هاتي صلاح الدين ثانية فينا ٢٢٥
اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد ٢٣٠
ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ٢٤٠

www.abulhasanalinadwi.org

الدور الذي تلعبه المسيحية اليوم في العالم ٢٤٩
شعب يقرر ويعاهد الله ٢٥٤
ارتباط مسيرة الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم ٢٥٩
الأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات ٢٦٤
بين الدين والمدنية ٢٦٨
تساؤلات مشتركة بين الدين والفلسفة والمدنية ٢٦٩
وسائل الجواب ونقدها عملياً ٢٧٠
الفلسفة ٢٧٥
الفلسفة الدينية ٢٧٨
الإشراق ٢٨١
مدنيات العالم الثلاث الهامة ونظم الحياة ٢٩٠
المدنية الحسِّيَّة ٢٩٠
المدنية العقلية ٣٠١
المدنية الإشراقية ٣٠٨
طريق آخر لجواب هذه الأسئلة «الرسالة» ٣١٢
تعاليم الأنبياء ٣٢٤
الكون وخالق الكون ٣٢٥
صفات الله وأفعاله ٣٢٥
خلق العالم ونظامه ٣٢٥
ملكوت الله وحاكميته ٣٢٥
لم يخلق هذا الكون عبثاً وما كان خلقه باطلاً ٣٢٦
غاية الموت والحياة ابتلاء للإنسان وامتحان ٣٢٦
زينة الدنيا لاختبار الإنسان ٣٢٦
الإنسان أشرف خلق الله ٣٢٦
الإنسان خليفة الله في الأرض ٣٢٦
الإنسان أمين لخزائن الله في الأرض ٣٢٦
جميع ما في الأرض للإنسان ٣٢٧

www.abulhasanalinadwi.org

غاية خلق الإنسان عبادة الله ٣٢٧
نعم الله وخيراته خلقت لينتفع بها الإنسان ٣٢٧
ليس الأكل والشرب معصية ، إنما المعصية في الإسراف ٣٢٧
الناس من آدم ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ٣٢٧
حياة أخرى ٣٢٨
حياة الدنيا فانية تافهة ، وحياة الآخرة باقية خالدة ٣٢٨
العاقبة للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ٣٢٨
منجزات تعاليم الأنبياء ومميزات الحياة الإسلامية ٣٢٩
القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع ٣٤٧
الإسلام والمستشرقون ٣٨٥
تعاليم الإسلام في الحكم الإسلامي بالعدل وإقامة الوزن بالقسط ٣٨٥
اعتراف ببعض جهود المستشرقين العلمية الموضوعية ٣٨٧
تصيّد مواضع الضعف والعورات في كتابات كثير من المستشرقين ٣٨٨
«الاستراتيجية» الاستشراقية الدقيقة ٣٨٩
اعتماد الأوساط العلمية والجامعات الشرقية على كتب المستشرقين ٣٩٠
لا بد من الاكتفاء الذاتي في البحث والتأليف ٣٩١
محاسبة كتابات المستشرقين العلمية ٣٩٢
لا بدَّ من عمل إيجابي بنَّاء ٣٩٢
استعراض إجمالي للعمل الإسلامي في مجال البحث والتحقيق ٣٩٣
قلة الإنتاج العلمي التحقيقي في الدول المواجهة ٣٩٥
ميزة الهند من بين الأقطار المواجهة ٣٩٦
في مجال نقد النصرانية على الأسس العلمية ٣٩٧
حصاد قرن كامل ٣٩٩
بعض مؤلفات الكتاب الهنود المسلمين الإنجليزية الممتازة ٤٠٠
عمل الجماعة الأحمدية في مضمار التأليف والدعوة ٤٠٣
المؤلفون المعاصرون ٤٠٤
بعض مؤلفات الكتّاب «المهتدين» القوية ٤٠٦

www.abulhasanalinadwi.org

المجمع الإسلامي العلمي وإنتاجه ٤٠٧
الإنتاج العلمي التحقيقي الكبير في اللغة الأردية ٤٠٩
العلامة شبلي النعماني والعلامة السيد سليمان الندوي ٤١٠
ندوة المصنفين في دلهي ٤١٦
كتاب وباحثون آخرون ٤١٦
الدراسات الإسلامية في باكستان ٤١٨
تفرق خريجي المدرسة القديمة في البحث والإنتاج العلمي ٤١٩
أفراد يقومون بدور المجامع العلمية ٤٢٠
دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ٤٢٥
العمل التأليفي والتحقيقي في اللغة العربية في العالم العربي ٤٢٦
دراسات إسلامية عميقة ومقارنة ٤٢٩
كتاب الدعوة ودعاة الفكرة الإسلامية ٤٣٠
البحث والتحقيق في الجزيرة العربية ٤٣١
رسائل الدكتوراه والبحوث الجامعية ٤٣٣
في إيران وتركيا ٤٣٣
في المغرب العربي الإسلامي ٤٣٤
جهاد اليوم وواجبه المحتم ٤٣٤
بين نظرتين: النظرة القرآنية والنبوية إلى الأمة الإسلامية ٤٣٦
أسباب حيرة الشباب وعلاجها ٤٤٦
إلى الشباب المسلم المقيم في ديار الغرب ٤٥٤
احذروا من أن ينشأ إسلام أمريكي أوربي ٤٦٣
إنها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ٤٦٥
ما هو الإسلام؟ ٤٦٧
مسؤولية كبيرة ضخمة ٤٦٨
إلى الإسلام الحيّ ٤٦٩
مسؤوليتنا نحو إنشاء مجتمع إسلامي مثالي ٤٦٩
لكيلا ينشأ إسلام إقليمي ٤٧١

www.abulhasanalinadwi.org

ما وجدته في أمريكا وما افتقدته ٤٧٣
موجة الماكينات ٤٧٦
أسير القفص الذهبي ٤٧٧
النور فرد والظلمات كثير ٤٧٩
المسيحية لا تنسجم مع المجتمع الأوربي ٤٨٠
عبيد الماكينات ٤٨٣
مزايا الجمادات وطبيعتها ٤٨٣
كونوا على حذر من أن تذوب شخصيتكم ٤٨٣
عبيد الأصنام التي نحتوها بأيديهم ٤٨٤
أين المسلمون؟ ٤٨٦
اكتشفوا الإنسان ٤٨٨
تخوُّف وإشفاق ٤٨٨
يمكن أن تعيشوا هنا كمسلمين ٤٨٩
المدنيات المعاصرة في مرآة القرآن الكريم ٤٩١
كيف ننظر إلى الحياة الغربية الأمريكية ٤٩٦
بلاد شقية وسعيدة بنفس الوقت ٤٩٧
المسلمون مسؤولون عن هذا الشقاء ٤٩٨
حضارة القلق والسآمة ٤٩٩
أنتم العماليق ، وهؤلاء هم الأقزام ٥٠٠
حافظوا على شخصيتكم ٥٠١
قولوا لأهلكم إذا رجعتم إليهم: هذه الحضارة سراب خادع ٥٠٣
الفراغ الذي كان يعيشه الإنسان قبل البعثة المحمدية ٥٠٥
الدعوة الإسلامية بين المدنيات الزائفة ٥٠٧
فراغ هائل ٥٠٧
حضارات بلا هدف ٥٠٨
ظلام مطبق ٥٠٩
القرآن تحدّى الوضع العالمي ٥٠٩

www.abulhasanalinadwi.org

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ٥١٠
الحضارة الغربية حضارة ملوثة ، لا طهارة فيها ٥١١
إنني أعتبركم أكثر من طالب ٥١١
هذه المصانع العملاقة لا تصنع الإيمان ٥١٢
لا وزن لنا إلا بالاعتزاز بالإسلام ٥١٣
حالة العرب في فجر الإسلام ٥١٤
تحدّي القرآن للطاقات المادية ٥١٥
ثقة تملأ جوانح العرب المسلمين ٥١٦
نظرتهم من العالم إلى ما وراء العالم ٥١٦
القرآن يشحن بطاريّتهم بالإيمان والثقة ٥١٧
نحن أحقُّ بهذا الاعتزاز ٥١٨
واجب الجالية الإسلامية في البلاد الغربية ٥٢١
المرأة ودورها في التوجيه والتربية ٥٢٧
فهرس الآيات الكريمة ٥٣٨
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٥٥٠
فهرس الأعلام ٥٥٣
فهرس الأشعار ٥٦٤
فهرس الموضوعات ٥٦٧

www.abulhasanalinadwi.org

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

www.abulhasanalinadwi.org